تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

عمرو بن العاص رضي الله عنه

الأمير المجاهد

د. منير محمد الغضبان

منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردي , عربي , فارسي)

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (منتدى اقرا الثقافى)

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

www. Iqra.ahlamontada.com

منتدى إقراء الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى , عربي , فارسي)

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

الغضبان ، منير محمد .
عمرو بن العاص : الأمير المجاهد / تأليف : منير محمد الغضبان . - ط ١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠ م.
٤٨٠ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٠ ٩٧٢ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الصحابة والتابعون.
٢ - عمرو بن العاص ، عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي ، ٥٧٤ - ٦٦٤.
أ - العنوان.
٢٣٩,٩

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

عمرو بن العاص

الأمير المجاهد

تأليف

د. منير محمد الغضبان

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

○ قال عمر بن الخطاب عن عمرو
ابن العاص رضي اللّه عنهما:
« ما ينبغي لأبي عبد اللّه أن
يمشي على الأرض إلَّا أميرًا »

فِهرسُ المَوضُوعَات

١ - بين يدي البحث ٧
٢ - الساحة القرشية ١٥
٣ - مكة تنقسم إلى حزبين ٢٥
٤ - بنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ٣٥
٥ - العاص بن وائل السهمي ٤٣
٦ - عمرو بن العاص السهمي ٦٣
٧ - وجهًا لوجه ضد الإسلام والمسلمين ٨١
٨ - في الطريق إلى منبع النور ١٠٧
٩ - المجد الإسلامي الأول: غزوة ذات السلاسل ١٢١
١٠ - عمرو الداعية ١٣٩
١١ - عمرو في ميزان رسول اللَّه ﷺ ١٦١
١٢ - عمرو بن العاص تلميذ في مدرسة النبوة ١٦٩
١٣ - من عُمان إلى المدينة إلى قضاعة ١٩١
١٤ - عمرو بن العاص شريك في فتح الشام ٢٠٣
١٥ - عمرو فاتح فلسطين ٢٣٣
١٦ - عمرو بن العاص فاتح مصر ٢٥١
١٧ - عمرو بن العاص فاتح ليبيه وعمرو القائد ٢٨١
١٨ - عمرو بن العاص الحاكم العبقري ٢٩٧
١٩ - عمرو بن العاص الحاكم العادل ٣٢٣
٢٠ - مع عثمان أمير المؤمنين ٣٤١
٢١ - عمرو ينضم إلى معاوية مطالبًا بدم عثمان ٣٧١

٢٢ - مأساة صفين ٣٨٥
٢٣ - عمرو بن العاص إلى جوار اللّه ٤١٣
٢٤ - داهية قريش ورجل العالم ٤٢١
٢٥ - مفتاح شخصيته ٤٣٩
٢٦ - رجل المبادئ ٤٤٩
٢٧ - المصادر والمراجع ٤٧٣
٢٨ - السيرة الذاتية للمؤلف ٤٧٧

* * *
* *
*

بين يدي البحث

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام النبيين وسيد المرسلين وقائد المجاهدين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ وبعد:

الأمير المجاهد:

حديثنا عن عمرو بن العاص الأمير المجاهد.

هذا الأمير الذي قال عنه - أمير المؤمنين- عمر بن الخطاب ﷺ:

« هذا عمرو بن العاص قد أتاكم، ما ينبغي لعمرو أن يمشي على الأرض إلَّا أميرًا »[١].

هذه إِمْرَتُهُ؛ وأما جهاده فقد ذكر الليث بن سعد - رحمه اللَّه - قال: « قال عمرو بن العاص: ما كنت بشيء أتجر مني بالحرب »[٢].

وقال يصف موقعه عند رسول اللَّه ﷺ بعد إسلامه:

(فواللَّه ما عدل بي رسول اللَّه ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا، وقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، لقد كنت عند عمر بتلك الحال، وكان عمر على خالد كالعاتب)[٣].

وتأتي شهادة الصديق فيه - في هذا المجال - وهو يخاطب عمر ﷺ: « دعه؛ فإنما ولَّاه رسول اللَّه ﷺ علينا لعلمه بالحرب »[٤].

هذا الأمير المجاهد... ماهي صفته عند عامة الناس؟!

ما إن تذكر عمرًا حتى يتبادر إلى الناس ذلك الخادع المحتال الذي خدع أبا موسى الأشعري ونقض اتفاقه معه وأبقى بمعاوية وخلع عليًّا. وبذلك ينصرف عامة الناس عن ذكر عمرو بن العاص.

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ١٨٠).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٨٠).

(٣) تاريخ دمشق، للحافظ ابن عساكر، مخطوط (١٣٠/ ٤٩٦).

(٤) المصدر نفسه (ص ٥٠٤).

أما الذين لهم قدم في العلم ورسوخ في العقيدة فيكتفون بقولهم:

« إذا ذكر أصحاب رسول اللَّه فأمسكوا »(١)، ويحفظون لسانهم عن النيل منه.

فهل يجوز لمثل هذه الشخصية العظيمة أن تبقى غُفلًا في التاريخ لا يُعرف عنها إلا المكر والخديعة؟!

ومن أجل ذلك أقدمت على الكتابة عن عمرو بن العاص ﷺ الأمير المجاهد بعد أن قيض اللَّه لي أن أكتب عن معاوية بن أبي سفيان (الملك المجاهد)، وعن أبي ذر الغفاري (الزاهد المجاهد)؛ لأجلو تلك الصورة القاتمة من أذهان الأمة عن واحد من أكبر عظمائها قال عنه الذهبي: « عمرو بن العاص بن وائل، الإمام أبو عبد اللَّه، ويقال: أبو محمد السهمي، داهية قريش، ورجل العالم، ومن يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم »(٢).

وهذا السفر الذي أتقدَّم به، هو عرض لسيرة الصحابي العظيم(٣).

ولن أدخل بين القارئ وبين هذا السفر؛ إنما أدع له أن يعيش معه ويتفاعل سلبًا أو إيجابًا معه.

الدراسات السابقة:

ويرد سؤال مهم في هذا الصدد.

أما أنه كُتب عنه فنعم، وأما أنه وفَّاه حقه ونفض عنه غبار الافتراء والأكاذيب فلا. ويحضرني أهم ثلاثة كتب في هذا الصدد:

الأول: عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد المفكر العربي الكبير، وصاحب العبقريات، وبمقدار ما أبدع في تحليل جوانب القوة فيه بمقدار ما أسفّ في النيل منه والطعن فيه في مواقفه في الفتنة؛ إذ يقول:

« وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار، وصحة هذه

---

(١) هو نص حديث مروي عن ثوبان وعبد اللَّـه بن مسعود: « إذا ذكر أصحابي فأمسكوا... »، قال فيه الهيثمي في مجمع الزواد (٧/ ٢٠٢) رواه الطبراني، وفيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٥٤، ٥٥).

(٣) تقدمت باقتراحي لفضيلة مدير مركز الدراسات الإسلامية الدكتور عويد المطرفي للكتابة في ذلك، فتفضل مشكورًا بعرض الفكرة على مجلس المعهد وتم تكليفي بذلك.

الكلمات، وما ثبت نقله وما لم يثبت منه سنده ولا نصه، فالذي لا ريب فيه - ولو اجتمعت التواريخ على نقضه - أن الاتفاق بين الرجلين (معاوية، وعمرو) كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية، وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذي آل إلى كلٍّ منهما ولولاه لما كان بينهما اتفاق »[١].

ومناط الحديث الرئيسي في هذا الكتاب؛ هو عرض الحق الأبلج من الروايات الموثقة في هذا المجال.

الثاني: هو كتاب عمرو بن العاص بين يدي التاريخ لـ: عبد الخالق سيد أبو رابية، مع رؤية جديدة لبعض أحداث الفتح العربي لمصر. وإذا كان كتاب العقاد السابق في الستينيات من هذا القرن الميلادي؛ فكتاب أبي رابية في نهاية الثمانينيات، وفترة عشرين عامًا كافية لإعادة النظر في دراسة هذه الشخصية العظيمة. والذي لا شك فيه أن الأستاذ أبا رابية قد أبدع فعلًا في عرض جوانب عظيمة جدًّا من شخصية عمرو ودوره العظيم في فتح مصر، ونقل الإسلام إليها؛ لكنه عندما انتقل إلى الحديث عن الفتنة عاد فأسف وتجاوز العقاد في ذلك، ننقل منه هذا النص:

(يروي الإمام الطبري: « ولما قدم عمرو على معاوية أشار عليه أن يُلزم عليًّا دم عثمان، وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى »[٢]؛ ذلك أن عمرو بن العاص رأى أن يلصق جريمة قتل عثمان بعنق الإمام علي، وهو على يقين من أن دم عثمان لا يعلق منه شيء في عنق رابع الراشدين، وأنه بريء من هذا الدم إلى يوم القيامة؛ ولكن عمرًا كان يرى أن إلصاق دم عثمان المهدر بعنق الخليفة الجديد - هو الطريق الوحيد لإزالته عن موضوع السلطان حتى إذا ما نجحت هذه الذريعة كانت وسيلته لكسب معركة الطموح الشخصي؛ فكل شيء عند عمرو مباح ما دام يصيب منه مغنمًا، وما دام هو الوسيلة المثلى لتحقيق أهدافه ومراميه.

وخاض عمرو بن العاص بهذه الفرية التي ألصقها بالإمام علي في دماء المسلمين؛ إذ أوقد لفتنة بين الناس وضلل من استطاع تضليله منهم، وبرع في الختل والخداع بلا تحرج، وقد صار دم عثمان ذريعة كافية لإشعال حرب تهلك الحرث والنسل ويكون

---

(١) عمرو بن العاص للعقاد (ص ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) أعاد الأستاذ أبو رابية هذا النص إلى الطبري بقوله: تاريخ الطبري (٣/ ٢١٠) وبذلت كل جهدي لأجده في الطبري فلم أعثر عليه ولعله نقله من مصدر آخر دون أن يشعر.

وقودها المسلمون ووسيلتها المكيدة والخداع والرأي البارع والبديهة الحاضرة)[1].

هذا السُّم الزعاف في تقويم شخصية عمرو في هذا المجال لا يمكن السكوت عنه بحال.

الثالث: هو كتاب عمرو بن العاص القائد المسلم والسفير الأمين للواء الركن محمود شيت خطاب، وقد نشر في ربيع الأول سنة (١٤١٧هـ)، في التسعينيات من العام الميلادي.

وكدت أن أطوي الكتابة عن عمرو ﷺ حين يتقدم العالم المؤمن العسكري للكتابة عنه، وأقبلت على الكتاب باهتمام؛ حيث أبدع - حفظه اللَّه - في عرض مناحي العظمة فيه، خاصة في المجال العسكري بحيث لم يُسبق من أحد في ذلك. لكن بقي موضوع موقف عمرو ﷺ من الفتنة على حاله، وأخذ بالروايات الضعيفة والسقيمة واعتبرها من جوانب العبقرية عنده، ولم يَزُلْ عنه ذلك الركام الآسن الذي لحق به من الشيعة الغلاة والرواة المتهمين، ولذلك جعل مفتاح شخصيته هو البحث عن القوة لا عن الحق، وهي التي تحكم كل مواقفه.

(مفتاح شخصية عمرو أنه كان يستعرض جوانب القوة دائمًا، ويوازن بين ما لدى أعدائه وأصحابه على حد سواء من « القدرة » موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه وجه من وجوه الرأي؛ فقد كان رجلًا يتقن الحساب، ويجيد المساومة، يقف ساكنًا، ويفكر طويلًا، ثم يساوم في حرص.

إنه يشترط دائمًا، هكذا كان موقفه في كل أمر)[2].

مما اضطر الأخ الكبير عمر عبيد حسنة وهو المشرف على كتاب - الأمة - أن يعتذر بصورة غير مباشرة عن هذا الموضوع في المقدمة[3] فيقول:

« وقد آثرنا في هذا الكتاب أن نتجاوز الحديث عن الفتن، ومقتل سيدنا عثمان ﷺ لعدة أسباب لعل من أبرزها: أن الروايات التاريخية - لأخطر مرحلة من حياتنا المرجعية - لم تخضع لمعايير المحدثين في الجرح والتعديل، والقبول والرد؛ مما يجعل الصورة

---

(١) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ: عبد الخالق سيد أبو رابية (ص ٣١٦، ٣١٧).

(٢) عمرو بن العاص القائد المسلم والسفير الأمين (١/ ١٧٤).

(٣) أبدع الأستاذ عمر عبيد حسنة في عرض جيل الصحابة كما هو عند أهل السنة والجماعة وعرض الخيرية فيهم التي لا يبلغ شأوها أحد إلى يوم القيامة.

الدقيقة غائبة، الأمر الذي سوف يُحدث بعض الاضطراب في الرؤية والتشويه للصورة، والله المستعان من قبل ومن بعد)[١].

وحسبي أن أكون في هذا الكتاب قد أزلت هذا الاضطراب في الرؤية والتشويه للصورة؛ لتتجلى عظمة الالتزام بالمبادئ عند عمرو على عكس ما يتوهم الناس عنه.

المنهج المتبع:

وقد حرصت على اتباع الخطوات المنهجية الآتية في استعراضي لترجمة عمرو ﷺ:

١ - أخذت الصورة عن عمرو بن العاص ﷺ ابتداء من رسول الله ﷺ ومن الأحاديث التي رويت عنه بسند صحيح أو حسن، واعتبرتها الإطار الذي أتحرك من خلاله، فأي حدث تاريخي يتناقض مع تقويم رسول الله ﷺ لجندية عمرو بن العاص كنت أقف منه ابتداءً موقف الشك، وحيث إن السند في الحدث لن يرقى غالبًا إلى مستوى السند في الحديث الصحيح أو الحسن فكان الحديث هو المقدم ولا شك.

٢ - وكانت الخطوة الثانية للتعرف على شخصية عمرو ﷺ: ما رُوي عنه في الكتب الستة، أو رواه هو ﷺ فيها، ثم في بقية الكتب المعتمدة وعلى رأسها مسند الإمام أحمد ﷺ؛ فهذا الجانب الذي يتحدث عن عمرو بلسانه أو لسان غيره أمكن ضبطه حديثيًّا بموازين الجرح والتعديل المعتمدة عند المحدثين وتبيان درجة الحديث المذكور فتتكامل الصورتان الأولى والثانية من خلال الكتب المعتمدة.

٣ - وكان لكتاب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد دور رئيسي في الاعتماد على أقوال الحافظ الهيثمي في الأحاديث التي يرويها.

وبذلك يكون الإطار الكامل لعمرو ﷺ ابتداءً من كتب الحديث لا من كتب التراجم والتاريخ والسير.

٤ - وانتقلت بعدها لأتمم الصورة داخل هذا الإطار من كتب تراجم الصحابة مثل: الإصابة، وأسد الغابة، والاستيعاب، وسير أعلام النبلاء، والطبقات الكبرى لابن سعد؛ بحيث يحقَّقُ ما يمكن تحقيقه ويوثَّقُ ما يمكن توثيقه، وخاصة لدى الحافظ ابن حجر الذي يقوم هو أحيانًا بذلك - رحمه الله - أو يدعه بدون تحقيق حين لا يرى أهمية لذلك.

وما كان منها من باب الفضائل فاكتفى بالإشارة إلى مصدرها وما قاله فيها المحدثون،

---

(١) تقديم عمر عبيد حسنة للكتاب (ص ٣٨).

وكان لتحقيق فضيلة الشيخ العلامة شعيب الأرناؤوط لسير أعلام النبلاء فضل كبير عليَّ في هذا الجانب.

٥ - ومن كتب التراجم والسير إلى كتب التاريخ العام وعلى رأسها كتاب شيخ المؤرخين الطبري - رحمه اللَّه - الذي يعتبر المصدر الرئيسي في المادة التاريخية لمن جاء بعده، وأهم ما فيه اعتماده السند في كل ما يسوقه في كتابه، وإن كان فاتنا الفضل الكبير من الاستفادة من علمه وترجيحه للروايات؛ فقد ترك هذا لمن جاء بعده، وقال في كتابه:

« فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه من بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهًا من الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنما أديناه على نحو ما أدي إلينا »[1].

وكتاب البداية والنهاية لابن كثير والذي كان يحرص - أحيانًا - على التحقيق والتوفيق فيما يراه مهمًّا لذلك، مع كتاب تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي، وتاريخ خليفة بن خياط، وعلى النادر العودة إلى التواريخ الأخرى: كالمسعودي، واليعقوبي؛ لمقالة المحققين في تواريخهما، ولأنها خالية من الإسناد.

٦ - وفي التعامل مع كتب التاريخ العام وخاصة عند عرض الفتنة الكبرى في مقتل عثمان ﵁، وولاية علي ﵁، وحرب الجمل، وصفين، والتحكيم - كنت أقف أمام أية إشارة أو نص موقف النقد والتحليل فيما يتناسب مع الإطار العام الذي اتخذته لنفسي من حديث رسول اللَّه ﷺ ومن قول علماء أهل السنة والجماعة في الصحابة.

وبفضل اللَّه ﷻ وجدت توافقًا تامًّا بين الروايات الصحيحة تاريخيًّا أو المقبولة وصورة صحابة رسول اللَّه ﷺ عند أهل السنة والجماعة؛ فهم جميعًا عدول، وكما يقول الطحاوي فيهم: « ونحب أصحاب النبي ﷺ، ونبغض من يبغضهم، وبغير الحق لا نذكرهم، ونرى حبهم دينًا وإيمانًا وإحسانًا، وبغضهم كفرًا أو شقاقًا ونفاقًا وطغيانًا »[2]. كما يذكر ابن دقيق العيد - رحمه اللَّه - في الخلاف بينهم: « وما نقل فيما بينهم فيما اختلفوا فيه؛ فمنهم باطل وكذب فلا يلتفت إليه، وما كان صحيحًا أوَّلناه تأويلًا حسنًا؛ لأن الثناء

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للحافظ الطبري، المقدمة (١ / ٨).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية للفقيه عبد الغني الغنيم الدمشقي (ص ١٣٣ - ١٣٦).

عليهم من اللَّه - تعالى - سابق، وما نقل من الكلام اللاحق محتمل للتأويل، والمشكوك والموهوم لا يبطل المحقق والمعلوم »(١).

٧ - ومن كتب التواريخ العامة إلى كتب الأدب والأخبار التي تعرض أحيانًا لقول أو حادثة عن عمرو ﷺ، وحين نجدها تتسق من الصورة الأصيلة للصحابي الجليل نعرضها معزوَّة إلى مصدرها الذي ذكرت فيه، وبهذا تتكامل صورة عمرو بن العاص التي خَطَوتُ فيها الخطوات الأولى من دراسة بيئته التي ولد ونشأ فيها وترعرع إلى أن مضى إلى جوار ربه، مستعرضًا ذلك التاريخ الحافل بالبطولات والمحتشد بالمبادئ والقيم التي رضع لبانها من الإسلام العظيم.

وأخيرًا: أرجو اللَّه تعالى أن أكون قد وُفِّقت إلى تحقيق الهدف الذي أُلِّف الكتاب من أجله؛ وهو: عرض الصورة التاريخية الصحيحة لواحد من قادتنا الكبار وأحد عظمائنا في التاريخ، واللَّه أسأل أن يجعل عملي خالصًا لوجهه، وأن يغفر لي ما به من زلات، وأن يفتح الطريق أمام الباحثين لنقد الروايات التاريخية بمعيار موضوعي معقول يتناسب مع أهميتها في حياتنا المعاصرة.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

د. مُنِير محمد الغضبان

مكة المكرمة، غرة ذي الحجة/ ١٤١٧هـ

* * *
* *
*

(١) شرح العقيدة الطحاوية للفقيه عبد الغني الغنيم الدمشقي (ص ١٣٥، ١٣٦).

الساحة القرشية

أخرج مسلم في صحيحه عن شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: « **إن اللّٰه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم** »[١].

فقريش إذن مصطفاة من اللّٰه - تعالى - من قبائل كنانة، وحين نتحدث عن قريش لا بد من أن نتعرف عليها؛ فهي الأصل الأعلى الذي ينتمي إليه عمرو بن العاص ﷺ.

أما قريش فعلى قول النسابين هي ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة (فولد النضر ابن كنانة مالكًا ويخلد... فولد مالك بن النضر فهرًا وإليه جماع قريش والحارث درج... فولد فهر وهو قريش غالبًا وأسدًا وعوفًا وذئبًا وجونأ درجوا، والحارث بطن، ومحارب بطن وهما من قريش الظواهر..)[٢].

لكننا نقف مع حديث رسول اللّٰه ﷺ الذي يقطع القالة في هذا المجال، فيعتبر النضر ابن كنانة هو قريش[٣]. وذلك فيما أخرجه ابن ماجه عن الأشعث بن قيس قال:

أتيت رسول اللّٰه ﷺ في وفد كندة، ولا يروني إلا أفضلهم. فقلت: يا رسول اللّٰه ألستم منا؟ قال: « **نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو أمنا، ولا ننتفي من أبينا** ».

قال: فكان الأشعث بن قيس يقول: لا أوتى برجل نفى رجلًا من قريش من النضر ابن كنانة إلا جلدته الحد[٤].

والخلاف بين ترجيح النسابين ونص الحديث خلاف ضئيل جدًّا؛ لأن النضر هو جد

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل (٤/ ١٧٨٢)، (ح ٢٢٧٦).

(٢) جمهرة النسب لابن الكلبي (١/ ٨، ٩).

(٣) وقالوا: إنه سمي النضر بن كنانة قريشًا؛ لأن النضر بن كنانة خرج يومًا على نادي قومه فقال بعضهم لبعض: انظروا إلى النضر كأنه جمل قريش، وقيل: إنما سميت بدابة تكون في البحر تأكل دواب البحر تدعى القرش، فشبه بنو النضر بن كنانة بها؛ لأنها أعظم دواب البحر قوة. الطبري (٢/ ٢٦٣) وما بعدها.

(٤) سنن ابن ماجه كتاب الحدود (٢/ ٨٧١)، (ح٢٦١٢)، وتخريجه في الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات؛ لأن عقيل بن طلحة وثقه ابن معين والنسائي. وذكره ابن حبان في الثقات وباقي رجال الإسناد على شرط صحيح مسلم.

فهر، وأبو فهر مالك، ومالك لم يلد إلا النضر، فانحصر الخلاف على أولاد يخلد ولد النضر الثاني هل هم من كنانة أو قريش، وما عدا هؤلاء فالنتيجة واحدة.

وإذا عدنا إلى الحديث السابق الذي رواه مسلم: « **إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**» نستطيع أن نعتبر البؤرة الأولى وأوسط النسب في قريش والذي شرفت به البشرية كلها هو رسول اللَّه ﷺ، ونتعرف على بطون قريش من خلال قرابتها لبني هاشم رهط النبي ﷺ حيث اصطفاء اللَّه - تعالى - لسيد ولد آدم من بني هاشم ثم من قريش ثم من كنانة.

- **فالبطن الأول**: هم بنو هاشم ورسول اللَّه ﷺ هو محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة؛ حيث ينتهي عنده نسب قريش، ومن بني هاشم علي ابن أبي طالب ﷺ.

- **والبطن الثاني**: هو بنو المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن كعب بن لؤي.

- **والبطن الثالث**: هم بنو نوفل بن عبد مناف بن قصي بن كلاب...

- **والبطن الرابع**: هم بنو عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، ومنهم عثمان ابن عفان ﷺ وهذه البطون الأربعة كلها من بني عبد مناف بن قصي.

- **والبطن الخامس**: هم بنو عبد الدار بن قصي بن كلاب.

- **والبطن السادس**: هم بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، ومنهم الزبير بن العوام ﷺ، هذه البطون الستة كلها تسلسلت من قصي بن كلاب شيخ مكة، وأبرز قادتها المشهورين؛ بينما ترتفع البطون السبعة الأخرى معه وفوقه وهي:

- **البطن السابع**: هم بنو زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، ومنهم سعد ابن أبي وقاص ﷺ.

- **البطن الثامن**: هم بنو تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، ومنهم أبو بكر الصديق ﷺ.

- **البطن التاسع**: هو بنو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي، ومنهم خالد ابن الوليد ﷺ.

- **البطن العاشر**: هم بنو عدي بن كعب بن لؤي، ومنهم عمر بن الخطاب ﷺ.

- **البطن الحادي عشر**: هم بنو سهم بن هصيص بن كعب بن لؤي، ومنهم عمرو ابن العاص ﷺ.

- **البطن الثاني عشر**: هم بنو جمح بن هصيص بن كعب بن لؤي.

- فالجد الأول للبطون الستة قصي بن كلاب، والجد الثاني للبطون الستة الأعلى هو كعب بن لؤي.

- **البطن الثالث عشر**: هم بنو عامر بن لؤي، ومنهم سهيل بن عمر ﷺ وهؤلاء جميعًا هم سكان مكة.

ولا نريد أن نمعن في أعماق التاريخ نبحث عن قريش ونشأتها واختلاف النسابين حول أسباب تسميتها بعد أن غدت أمرًا واقعًا، قد اختارها اللَّه - تعالى - من الأزل من بين مخلوقاته لتكون عصبة نبيه؛ إنما نعود إلى التاريخ القريب لها الذي يوضح خارطة توزيعها وساحة وجودها وهو الذي يعود إلى مائتي عام تقريبًا قبل البعثة[١] على يدي قصي بن كلاب[٢].

قصي بن كلاب:

ولم يكن اسمه قصيًّا يوم ولد؛ إنما كان اسمه زيدًا، وإنما سمي قصيًّا بعد ذلك؛ لأنه كان بعيدًا عن قومه، وتربى في بني عذرة عند ربيعة بن حرام زوج أمه التي خلف عليها بعد أبيه كلاب (وبينا قصي بأرض قضاعة لا ينتمي إلا إلى ربيعة بن حرام زوج أمه، وهو من أشراف قومه؛ إذ كان بينه وبين رجل من قضاعة شيء فأنبه القضاعي بالغربة، فرجع قصي إلى أمه، وقد وجد في نفسه مما قاله القضاعي، فسألها عما قال له ذلك الرجل فقالت له: أنت واللَّه يا بني أكرم منه نفسًا وولدًا، فأجمع قصي الخروج إلى قومه واللحوق بهم، فقالت له أمه: يا بني لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام، فتخرج في حاج العرب؛ فإنني أخشى عليك أن يصيبك بعض البأس، فأقام قصي حتى

---

(١) كانت البعثة النبوية في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد، وفي عام (٦٥٢م) كانت الهجرة: في (١٥/ ٧/ ٦٢٢م).

(٢)ذكر أن قصيًّا أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد إسماعيل، وذلك في أيام المنذر بن النعمان ملك الحيرة وملك الفرس الساسانيين بهرام جور. بلوغ الأرب (٢/ ٢٤٧)، وقد كان حكم بهرام جور من سنة (٤٢٠م) حتى سنة (٤٣٨م) أي: في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد، وإذا أخذنا برواية من جعل قصيًّا من المعاصرين لهذا الملك يكون حكم إذن في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي (٤/ ٥٤)، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة بغداد الطبعة الثانية (١٩٧٧م).

دخل الشهر الحرام، وخرج حاج قضاعة فخرج فيهم حتى قدم مكة، فلما فرغ من الحج أقام بها واتخذها له مستقرًا ومقامًا)[١].

« وتعرَّف قصي وهو بمكة على (حليل بن حبشة الخزاعي) وخطب إليه ابنته وهي (حبي) فزوجه إياها، وولدت له ولده عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وكثر ماله وعظم شرفه، فلما توفي (حليل) رأى قصي أنه أولى من خزاعة بولاية البيت، وأن قريشًا فرعة إسماعيل وإبراهيم، واستنفر رجال قريش ودعاهم إلى إخراج خزاعة من مكة، وكتب إلى أخيه من أمه (رزاح بن ربيعة بن حرام العذري) يستنصره، فأجابه ومعه قومه من بني عذرة من قضاعة، ووصلوا مكة، ونصروه، وغلبت قضاعة وبنو النضر خزاعة، وزال ملكهم عن مكة، وصار الأمر إلى قصي وقريش »[٢].

« وبعد أن تمت له الغلبة جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة فسمي لذلك مجمعًا، وأنه حكم منذ ذلك الحين فيهم، وملك عليهم؛ فكان قصي أول ولد كعب ابن لؤي أصاب ملكًا، وأطاعه قومه به، وأنه قسم مكة أرباعًا بين قومه، فبنوا المساكن، وأن قريشًا هابت قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده، وأعانوه، وأنها تيمنت به؛ فكانت لا تعقد أمرًا ولا تفعل فعلًا إلا في داره فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي، وما يتشاورون في أمر نزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواء الحرب مع قوم من غيرهم إلا في داره، يعقدها لهم بعض ولده، ما تدرع جارية إذا بلغت أن تدارع من قريش إلا في داره، ويشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها. فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع؛ لا يعمل بغيره تيمنًا بأمره، ومعرفة بفضله وشرفه، واتخذ قصي لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة؛ ففيها كانت قريش تقضي أمورها »[٣].

« ومن جملة ما أحدثه قصي في أيامه وصار سنة لأهل الجاهلية أنه أحدث وقود النار بالمزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة؛ فلم تزل توقد تلك النار في الجاهلية »[٤].

ومن جملة ما أحدثه (الرفادة) وهي: إطعام الحجاج في أيام موسم الحج حتى يرجعوا إلى بلادهم، وقد فرضها على قريش إذ قال لهم: « يا معشر قريش إنكم جيران اللَّه وأهل مكة وأهل الحرم، وإن الحاج ضيف اللَّه وزوار بيته، وهم أحق بالضيافة، فاجعلوا لهم

---

(١) الطبري (٢/ ٢٥٤)، ط دار المعارف بمصر.
(٢) المصدر نفسه (ص ٢٥٥) وما بعدها.
(٣) الطبري (٢/ ٥٥٨) وما بعدها.
(٤) المصدر نفسه (ص ٢٦٥).

طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا عنكم » ففعلت قريش ذلك؛ فكانوا يخرجون من أموالهم في كل عام خرجًا فيدفعوه إلى قصي لكي يصنعه للناس طعامًا أيام منى[١].

وكانت إلى قصي أيضًا الحجابة والسقاية واللواء، فحاز شرف قريش كله[٢]. وصار الوحيد المطاع الناطق باسمها الآمر الناهي؛ إذ لا أحد أعلم وأعقل وأحسن إدارة للملك منه[٣].

المؤسس الحقيقي:

(وقد ترك قصي أثرًا في أهل مكة وعدُّوه المؤسس الحقيقي لكيان قريش وكانوا يذكرون اسمه دائمًا بخير وكانوا لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه)[٤]. وظهرت كل مآثر الجاهلية الكبرى معه؛ فالحجابة والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء - كانت كلها بيده. وروي (أن أمر قصي عند قريش دين يعملون به ولا يخالفونه)[٥].

واعتبار قصي هو المؤسس الحقيقي لكيان قريش مرتبط ارتباطًا وثيقًا بسكنى مكة؛ إذ كانت مكة هي البيت العتيق وحده، والأشجار تحيط بالبيت.

(فولي قصي أمر الكعبة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة فملكوه عليهم، ولم تكن مكة بها بيت في الحرم؛ وإنما يكونون بها حتى إذا أمسوا خرجوا لا يستحلون أن يصيبوا بها جنابة، ولم يكن بها بيت قديم.

فلما جمع قصي قريشًا وكان أدهى من رئي من العرب قال لهم: هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم في الحرم حول البيت؟ فواللّٰه لا يستحل العرب قتالكم، ولا يستطيعون إخراجكم منه وتسكنونه فتسودوا العرب أبدًا، فقالوا: أنت سيدنا، وَرَأْيُنا تَبَع لرأيك، فجمعهم ثم أصبح بهم في الحرم حول الكعبة)[٦]. ولم يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد أن خاض حربًا ضروسًا ضد خزاعة التي كانت تلي البيت (فلما أخذ قصي مفتاح البيت إليه أنكرت خزاعة ذلك وكثر كلامها، وأجمعوا على حرب قصي وقريش وطردهم عن مكة وما والاها، فبادر قصي فاستصرخ أخاه رزاح بن ربيعة فحضر هو وإخوته، فخرجت

---

(١) الطبري (ص ٢٦٠).

(٢) الكامل لابن الأثير (٥/ ١٧)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ص ٥٦).

(٣،٤) المفصل في تاريخ العرب (٤/ ٥٦).

(٥) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٥٢).

(٦) سبل الهدى والرشاد للصالحي (١/ ٣٢٤).

خزاعة وبكر فالتقوا واقتتلوا قتالًا شديدًا، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح وأن يحكِّموا رجلًا من العرب، فحكموا بعمرو بن عوف بن كعب المعروف بالشَّداخ، فقضى بينهم بأن قُصَيًّا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابته قريش من خزاعة موضوع يشدخه تحت قدميه، وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة فيه الدية، فودوا خمسمائة وعشرين دية وثلاثين جريحًا وأن يخلى بين قصي وبين البيت؛ فسمي بعمرو ابن عوف الشداخ؛ لما شدخ من الدماء ووضع)[1].

(قال ابن إسحاق: وقال قصي بن كلاب في ذلك:

أنا ابن العاصمين بني لؤي ... بمكة منزلي وبها ربيت

إلى البطحاء قد علمت معدٌّ ... ومروتها رضيت بها رضيت

فلست لغالب إن لم تأثَّل ... بها أولاد قيد والنبيت[2]

رزاح ناصري وبه أسامي ... فلست أخاف ضيمًا ما حييت)[3]

وكان قصي قد سعى من قبل فغامر حتى تسلَّم أمر الحجيج كله.

(وكان بنو صوفة[4] تدفع الناس بالحج من عرفة إذا نفروا من منى؛ فلم يجسر أحد من الناس أن ينفرد ولا يرمي حتى يرموا . فلما كان هذا العام فعلت بنو صوفة كما كانت تفعل، فأتاهم قصي بمن معه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة فقال لبني صوفة: نحن أولى بهذا منكم؛ فاقتتل الناس قتالًا شديدًا، وكثر القتلى بين الفريقين فانهزمت صوفة وغلبهم على ما كان في أيديهم من ذلك)[5].

فأي مجد لقريش إذن لم يفعله قصي لقومه؟! لقد تسلَّم أمر الحج كله، وفتح مكة بعد حرب ضروس لقريش، فنزلوا فيها وصاروا جيران البيت وتسلَّم حجابة الكعبة من خزاعة بعد حرب ثانية معها، ولم يكن بطلًا في الحرب فقط؛ بل كان بطلًا في السلم كذلك إذ أحيا فكرة الرفادة وهي إطعام الحجيج في مكة، وشاركت قريش كلها في هذه المأثرة، ولم يكتف بذلك؛ إنما اهتم بسقاية الحجيج.

---

(١) سبيل الهدى والرشاد للصالحي (ص ٣٢٣، ٣٢٤).

(٢) أولاد قيد والنبيت: هم أولاد إسماعيل عليه السلام أصل العرب.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٢/ ١٩٤).

(٤) بنو صوفة: هم بنو الغوث بن مر بن طابخة بن إلياس بن مضر.

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحي (١/ ٣٢٣).

(قال السهيلي - رحمه اللَّه تعالى - : وكان قصي يسقي الحجيج في حياض من أدم يُنقل إليها الماء من بئر ميمون وغيرها خارج مكة وذلك قبل أن يحضر العجول.

وروى البلاذري عن معروف بن خربوذ وغيره قالوا: كانت قريش قبل قصي تشرب من بئر حفرها لؤي بن غالب خارج مكة ومن حياض ومن مصانع على رؤوس الجبال، ومن بئر حفرها مرة بن كعب مما يلي عرفة فحضر قصي بئرًا سماها: العجول؛ وهي أول بئر حفرتها قريش بمكة وفيها يقول رجاز الحاج:

نروي من العجول ثم ننطلق
إن قصيًّا قد وفى وقد صدق
بالشبْع للناس وري مغتبق

وقال آخر:

آب الحجيج طاعمين دسمًا
أشبعهم زيد قصي لحمًا
ولبنًا مخضًا وخبزًا هشمًا)[١]

ورغم هذه الأمجاد التي حققها في السلم والحرب وإنشاء هذا الكيان الضخم لقريش؛ فلم يكن طاغية متجبرًا مثل كثير من السادة والزعماء إنما وضع أسس الحياة السياسية الشورية، وجعلها مبادئ ثابتة في مكة بتأسيسه لدار الندوة (وبنى دار الندوة، والندوة في اللغة: الاجتماع؛ لأنهم كانوا يجتمعون فيها للمشورة وغير ذلك، ولا يتشاورون في أمر إلا فيها، ولا يعقدون لواء حرب إلا فيها يعقدها لهم قصي أو بعض بنيه)[٢].

وحيث ذكرنا من قبل البطون الثلاث عشرة التي تمثل قريشًا إذا استثنينا منها البطون الخمسة التي تكونت من عقبه؛ فيكون له الفضل في إسكان البطون الثمانية داخل بطاح مكة والتي أطلق عليها قريش البطاح وهم: (تيم، ومخزوم، وسهم، وجمح، وعدي، وزهرة، وعامر بن لؤي، وبنوه الذين شكلوا فيما بعد ستة فروع كبيرة.

أما البطون القرشية التي بقيت خارج مكة وسميت بقريش الظواهر، وبقيت تعيش حياة البادية - فهم: بنو تيم الأدرم بن غالب، وبنو محارب بن فهر، وبنو الحارث بن فهر)[٣].

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (ص ٣٢٥)، وهي عند البلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٥١).
(٢) المصدر نفسه (ص ٣٢٤).
(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ص ٢٨، ٢٩).

وأما قريش الظواهر فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعرابًا، أي إنهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار، وفي اتخاذ البيوت من مدر، وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال، وأنهم كانوا يقاتلون عنهم وعن البيت، ولكنهم كانوا دون قريش البطاح (في التحضر وفي الغنى والسيادة والجاه)[(١)].

قصي يوزع المآثر:

(ثم لما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسة قريش وشرفها من الرفادة، والسقاية، والحجابة، واللواء، والندوة - إلى ابنه عبد الدار، وكان أكبر ولده، وإنما خصصه بها كلها؛ لأن بقية إخوته عبد مناف، وعبد شمس، وعبدًا كانوا قد شرفوا في زمن أبيهم، وبلغوا في قوتهم شرفًا كبيرًا؛ فأحب قصي أن يلحق بهم عبد الدار في السؤود، فخصصه بذلك، فكان إخوته لا ينازعونه في ذلك)[(٢)].

وفاته:

(ولما مات قصي دفن بالحجون، وقد كانوا يزورون قبره ويعظمونه)[(٣)]، (ودفن بالحجون فتدافن الناس بالحجون)[(٤)]، (وقال قائلهم في مدح قصي وشرفه في قومه:

قصي لعمري كان يدعى يجمعا ... به جمع اللَّه القبائل من فهر
همو ملؤوا البطحاء مجدًا وسؤددًا ... وهم طردوا عنا غواة بني بكر)[(٥)]

والملاحظ أنه لم يبرز زعيم بجواره في حياته، وبقي رمزًا لقريش وتاريخًا يعتزون به جميعًا، حتى إن مشركي قريش قالوا لرسول اللَّه ﷺ وهم يجادلونه: « ... يا محمد إن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحدًا أضيق بلدًا، ولا أقل مالًا، ولا أشد عيشًا منا؛ فاسأل لنا ربك أنهارًا كأنهار العراق والشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يبعث لنا منهم قُصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخَ صدقٍ؛ فنسألهم مما تقول أحق هو أم باطل، فإن صدقوك، وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفْنا

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ص ٢٨، ٢٩).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٢/ ١٩٤).
(٣) ابن الأثير (٢/ ٩).
(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي (١/ ٣٢٦).
(٥) البداية والنهاية (١/ ٢/ ١٩٣).

منزلتك من اللّٰه وأنه بعثك إلينا رسولًا كما تقول... »[1].

وواضح من هذه المحاجة أن قصيًّا هو أهم شخصية في تاريخهم.

(وقد ترك قصي أمرًا كبيرًا في أهل مكة، وعدُّوه المؤسس الحقيقي لكيان قريش، وكانوا يذكرون اسمه دائمًا بخير، وكانوا لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه، فلما تطاول الشاعر (عبد اللّٰه بن الزُبعرى) على ما جاء في بعض الروايات وتجاوز حده بذكر قصي بسوء في شعر له كتبه كما يقولون في أستار الكعبة، غضب بنو عبد مناف بن قصي واستعدوا عليه بنو سهم (قومه)؛ لأنه كان من بني سهم، فأسلموه إليهم فضربوه، وحلقوا شعره، وربطوه إلى صخرة، فاستغاث قومه، فلم يغيثوه، فجعل يمدح قصيًّا ويسترضيهم، فأطلقه بنو عبد مناف وأكرموه، فمدحهم بأشعار كثيرة)[2].

* * *

* *

*

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/ ٤٥٢، ٤٥٣).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٤٣).

مكة تنقسم إلى حزبين

مضى قصي إلى ربه وهو السيد المطاع في مكة، ومكة في أزهى عصورها قوة ووحدة كلمة ومجدًا معترفًا به بين القبائل، ودانت البطون من قريش جميعًا لزعامته.

وترك قصي جملة أولادٍ هُمْ: عبد العزى، وعبد الدار، وعبد مناف، وعبد بن قصي، وسرعان ما علا كعب عبد مناف، وسما بين إخوته، وأصبح في حياة أبيه ترنو له الأنظار.

وخشي قصي على ولده عبد الدار فأوصى له بالمآثر الكبرى؛ حيث صارت بيده بعد وفاة أبيه، وهي: السقاية، والرفادة، والحجابة، واللواء، والندوة، ولم يتعرض عبد مناف لأخيه عبد الدار بشيء، وبعد وفاة أبيه. (وقام عبد مناف بن قصي على أمر قصي بعده. وأمْرُ قريش إليه، واختط بمكة رباعًا بعد الذي كان قصي قطع لقومه)[1].

لكن لم يكن من السهولة أن تدين قريش لعبد مناف الذي ورث أمجاد أبيه والمآثر الكبرى لأخيه عبد الدار، وهي تعلم أنها لن تصل إلى شيء من هذه المآثر والأمجاد طالما أن بني قصي كلمتهم واحدة، ورأيهم واحد، وليس عندها ما تنافس به بني قصي في شيء.

وتذكر بعض الروايات أن آل عبد مناف قد كثروا وقل آل عبد الدار فأرادوا انتزاع الحجابة من بني عبد الدار، وكان أولاد عبد مناف هم: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل.

وكما برز عبد مناف وساد في حياة أبيه قصي؛ كذلك برز هاشم وساد في حياة أبيه عبد مناف، وإذا كان قصي هو المؤسس الحقيقي لمجد قريش في مكة؛ فإن هاشم ابن عبد مناف وإخوته هم المؤسسون الحقيقيون لاقتصاد قريش؛ هذا الاقتصاد الذي أثنى عليه اللَّه - تعالى - في كتابه: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٤٧). وبه يقول الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقت ... فالمح خالصه لعبد مناف

فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ١ - ٤].

وقد تعرض الثعالبي لموضع إيلاف قريش فقال: « إيلاف قريش: كانت قريش لا تتاجر إلا مع من ورد عليها من مكة في المواسم، وبذي المجاز، وسوق عكاظ، وفي الأشهر الحرم لا تبرح دارها، ولا تجاوز حرمها؛ للتحمس في دينهم، والحب لحرمهم، والإلف لبيتهم، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم، وكانوا بواد غير ذي زرع، فكان أول من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك ومر بالأعداء وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره اللّٰه هاشم بن عبد مناف، وكانت له رحلتان: رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو البكسوم من ملوك الحبشة، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم. وكان يأخذ الإيلاف رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين:

إحداهما: أن ذؤبان العرب، وصعاليك الأعراب، وأصحاب الغارات، وطلاب الطوائل - كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم وغيرهم.

والخصلة الأخرى: أن أناسًا من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدرًا كبني طيئ، وخثعم، وقضاعة، وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له.

ومعنى الإيلاف إنما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ويحمل لهم متاعًا مع متاعه؛ فكان ذلك صلاحًا للفريقين إذ كان المقيم رابحًا والمسافر محفوظًا، فأخصبت قريش، وأتاها خبر الشام واليمن والحبشة، وحسنت حالها، وطاب عيشها. ولما مات هاشم قام بذلك المطلب، فلما مات المطلب قام بذلك عبد شمس، فلما مات عبد شمس قام بذلك نوفل وكان أصغرهم »[1].

أما رواية الطبري فتوزع هذه المهام على بني عبد مناف جميعًا، وأن لكل منهم عمله في تكوين هذا الإيلاف.

(وحدثت عن هشام بن محمد عن أبيه قال: كان هاشم وعبد شمس وهو أكبر ولد عبد مناف والمطلب وكان أصغرهم - أمهم عاتكة بنت مرة السلمية - ونوفل - أمه واقدة - بني عبد مناف قد سادوا جميعًا، وكان يقال لهم: المجبرون، ولهم يقال:

يا أيها الرجل المحوِّل رحله ألا نزلت بآل عبد مناف

(١) ثمار القلوب للثعالبي (ص ١١٥) وما بعدها.

فكانوا أول من أخذ لقريش العِصَم[١]، فانتشروا من الحرم؛ أخذ لهم هاشم حبلًا[٢] من ملوك الروم والشام وغسان، وأخذ لهم عبد شمس حبلًا من النجاشي الأكبر فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلًا من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلًا من ملوك حمير فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن؛ فجبر اللَّه بهم قريشًا فسمُّوا المجبرين)[٣]، ولكن هاشمًا يبقى هو السيد الأول الذي آلت إليه زعامة قومه.

وكان من خارج بني قصي زعيم ينافس هاشم بن عبد مناف هو سيد بني سهم قيس ابن عدي، حتى ليتذكرون أن هاشم بن عبد مناف كان ينفر ابنه عبد المطلب وهو صغير فيقول:

كأنه في العز قيس بن عدي ... في دار قيس ينتدى أهل الندى[٤]

ويذكرون من عِزِّه أنه منع عدي بن كعب وزهرة بن كلاب من بني عبد مناف، ومنع بني عدي أيضًا من بني جمح، وهذا يعني أن بني سهم هم المؤهلون لحمل لواء المنافسة ضد بني قصي، لكن وحدة كلمة بني قصي حالت دون انتزاع الزعامة منهم. أما بنو عبد مناف فقد كانوا يحسون بالإجحاف الكبير أمام بني عمهم بني عبد الدار الذين يستأثرون بالمآثر الكبرى من السقاية، والرفادة، والحجابة، واللواء، والندوة، خصوصًا وقد كثر عددهم وسادوا على مكة كلها بما ربحوه من أموال التجارة، وفتحوا الأسواق العالمية، وارتادوها، واعترفت لهم الأمم بذلك.

هاشم بن عبد مناف يسود قومه:

قال الرشاطي: كانت قريش تجارتهم لا تعدو مكة، وكانت الأعاجم تقدم عليهم بالسلع، فيشترون منهم حتى ركب هاشم إلى الشام فنزل بقيصر، وكان كل يوم يذبح شاة فيصنع جفنة ثريد، ويدعو مَنْ حوله فيأكلون. فذكر لقيصر أن ها هنا رجلًا من قريش يهشم الخبز، ثم يصب عليه المرق، ويفرغ عليه اللحم، وإنما كانت العجم تضع المرق في الصحاف ثم تأتدم عليه بالخبز، فدعا به قيصر فكلمه وأعجبه كلامه وأعجب به، وجعل يرسل إليه ويدخل عليه، فلما رأى مكانه منه قال: أيها الملك إن لي قومًا وهم تجار العرب فإذا رأيت أن تكتب لي كتابًا تؤمنهم وتؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما

---

(١) العِصَم: الحبال ويراد بها العهود، بكسر وفتح.
(٢) الحبال: العهود والأحلاف.
(٣) الطبري (٢/ ٢٥٢).
(٤) نسب قريش (ص ٤٠٠).

يستظرف من أدم الحجاز وثيابه فيمكنوا من بيعه عندكم فهو أرخص عليكم، فكتب له كتاب أمان لمن أتى منهم؛ فأقبل هاشم بالكتاب فجعل كلما مرَّ بحي من العرب على طريق الشام أخذ لهم من أشرافهم إيلافًا، والإيلاف: أن يأمنوا عندهم وفي طريقهم وأرضهم بغير حلف، إنما هو أمان للطريق، فأخذ هاشم الإيلاف فيمن بينه وبين الشام حتى قدم مكة، فأعطاهم الكتاب. فكان ذلك أعظم بركة، ثم خرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم بحوزهم ويوفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب، فلم يبرح يجمع بينهم وبين العرب حتى وردوا الشام، مات في تلك السفرة بغزة؛ فهذا سبب تسميته بهاشم[١].

يخالطون غنيهم بفقيرهم:

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات عن عمر بن عبد العزيز - رحمه اللَّه تعالى -: (قال: كانت قريش في الجاهلية تحتفد وكان احتفادها أن أهل البيت منهم كانوا إذا ساقت - يعني: هلكت أموالهم - خرجوا إلى براز[٢] من الأرض فضربوا على أنفسهم الأخبية، ثم تناوبوا فيها حتى يموتوا خوفًا من أن يُعلم بخلتهم[٣]، حتى نشأ هاشم بن عبد مناف، فلما ربل[٤]، وعظم قدره في قومه قال: يا معشر قريش إن العز مع كثرة العدد، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالًا وأعزهم نفرًا، وإن هذا الاحتفاد قد أتى على كثير منكم، وقد رأيت رأيًا. قالوا: رأيك رشيد، فمرنا نأتمر. قال: رأيت أن أخلط فقراءكم بأغنيائكم فأعمد إلى رجل غني فأضم إليه فقيرًا عدده بعدد عياله فيكون يؤازره في الرحلتين: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف؛ رحلة الصيف إلى الشام، ورحلة الشتاء إلى اليمن. فما كان من مال الغني من فضل عاش الفقير وعياله في ظله، وكان ذلك قطعًا للاحتفاد، قالوا: نعم ما رأيت. فألف بين الناس.

وروى البلاذري عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: واللَّه لقد علمت قريش أن أول من أخذ لها الإيلاف وأجاز لها العيرات لهاشم، واللَّه ما أخذت قريش حبلًا لسفر ولا أناخت بعيرًا لحضر إلا بهاشم)[٥].

ودعا هذا شاعر بني سهم الذي ينفس على هاشم وإخوته هذا المجد أن يقول فيهم[٦]:

---

(١) سبل الهدى والرشاد، للصالحي (١/ ٣١٦).
(٢) براز: مرتفع.
(٣) بخلتهم: بفقرهم.
(٤) ربل: قوي واشتد.
(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحي (١/ ٣١٧).
(٦) المصدر نفسه (ص ٣١٨).

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
والرائشون[١] وليس يوجد رائش والقائلون هَلُمّ للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي
عمرو العلا هشم الثريد لقومه سفر الشتاء ورحلة الإيلاف[٢]

بين بني عبد مناف وبني عبد الدار:

لما كثر آل عبد مناف، وقلَّ آل عبد الدار أرادوا انتزاع الحجابة من بني عبد الدار فاختلفت في ذلك قريش فكانت طائفة مع بني عبد الدار، وطائفة مع بني عبد مناف، فأخرجت أم حكيم البيضاء[٣] بنت عبد المطلب بن هاشم جفنة فيها طيب فوضعتها في الحجر فقالت: من كان منا فليدخل يده في هذا الطيب. فأدخلت عبد مناف أيديها، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر؛ فسموا المطيبين. فعمدت بنو سهم بن عمرو فنحرت جزورًا وقالوا: من كان منا فليدخل يده في هذه الجزور. فأدخلت أيديها عبد الدار، وسهم، وجمح، ومخزوم، وعدي؛ فسميت الأحلاف. وقام الأسود بن حارثة بن نضلة فأدخل يده في الدم، ثم لعقها؛ فلعقت بنو عدي كلها بأيديها؛ فسموا لعقة الدم[٤].

وتذكر رواية أخرى أن هاشمًا، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل بني عبد مناف أجمعوا أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار مما كان قصي جعل إلى عبد الدار من الحجابة، واللواء، والرفادة، والسقاية، والندوة، ورأوا أنهم أحق بها منهم فأبت بنو عبد الدار، فعقد كل قوم على أمرهم حلفًا مؤكدًا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا. وعُرف حلف بني عبد مناف بحلف المطيبين، وعرف حلف بني عبد الدار بحلف الأحلاف ولعقة الدم، ثم تداعوا إلى الصلح على أن تكون الحجابة واللواء ودار الندوة إلى بني عبد الدار، وأن يعطوا بني عبد مناف السقاية، والرفادة[٥]. وولي هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة.

(وكان هاشم رجلًا موسرًا، وكان يقوم أول يوم من ذي الحجة، فيسند ظهره إلى الكعبة

---

(١) الرائشون: المتاجرون.
(٢) سبل الهدى والرشاد (ص ٣١٧).
(٣) عمة رسول اللَّه ﷺ.
(٤) نسب قريش (ص ٣٨٣).
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٧٧).

من تلقاء بابها فيخطب فيقول:

يا معشر قريش: أنتم سادة العرب أنسابًا، وأنتم أقرب العرب بالعرب أرحامًا، يا معشر قريش إنكم جيران بيت اللَّه، أكرمكم اللَّه - تعالى - بولاية بيته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، حفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضيفه، وزوار بيته فإنهم يأتون شعثًا غُبْرًا من كل بلد على ضوامر كالقداح، وقد أرحضوا[1]، وثفلوا[2]، وقملوا وأرملوا[3]، فأقروهم وأعينوهم، ولو كان لي مال يحمل ذلك كله كفيتكموه، وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم تقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام؛ فواضعه، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت اللَّه ومعونتهم إلا طيبًا، لم يؤخذ ظلمًا، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصبًا.

فكانت بنو كعب بن لؤي كلها تجتهد في ذلك، ثم يخرجون ذلك من أموالهم، حتى إن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم، وكان أهل اليسار منهم ربما أرسل بمائة مثقال هرقلية فيأتون به هاشمًا في داره.

وكان هاشم يخرج في كل سنة مالًا كثيرًا، وكان يأمر بحياض من أدم فتُجعل في موضع زمزم من قبل أن تحفر زمزم، ثم يستقي فيها من الآبار التي بمكة فيشرب الحاج، وكان يطعمهم أول ما يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة، ومنى، وجمع[4]، وعرفة، وكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن، والسويق والتمر، ويحمل لهم الماء، ويفرق الناس لبلادهم، وكان من أحسن الناس وأجملهم، وكانت العرب تسميه قدح النضار والبدر)[5].

وحين نقف لنحلل طبيعة هذين الحلفين نلاحظ ما يأتي:

١ - حلف المطيبين يكاد يكون حلف بني قصي الذين تحس قريش بتفوقهم عليها، والبطون الخمس التي دخلت فيه هي:

أ - بنو عبد مناف بن قصي بن كلاب.

ب - بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب.

جـ - بنو زهرة بن كلاب إخوة قصي بن كلاب.

---

(١) أرحضوا: عرقوا. (٢) ثفلوا: اتسخت أجسامهم.

(٣) أرملوا في زادهم: نقص زادهم. (٤) جمع: مزدلفة.

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحي (ص ٣١٨).

د – بنو تيم بن مرة، وهم أعمام قصي.

هـ – بنو الحارث بن فهر، وهم الفرع الوحيد البعيد عن قصي.

٢ – أما حلف الأحلاف فقد استغل الخلاف بين قصي وسائر بني عبد الدار فكان:

أ – بنو عبد الدار بن قصي بن كلاب.

ب – بنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وهم بنو أعمام قصي.

جـ – بنو سهم بن هصيص بن كعب بن لؤي.

د – بنو جمح بن هصيص بن كعب بن لؤي.

هـ – بنو عدي بن كعب بن لؤي.

و – بنو الحارث بن فهر.

وهؤلاء الأحلاف جميعًا كان لقصي بن كلاب الفضل عليهم في إدخالهم مكة وسكناهم بها بعد الحرب الضروس التي خاضها ضد خزاعة.

ومن خلال هذه النظرة نلاحظ أن هؤلاء الأحلاف على المدى البعيد هم الذين يحملون لواء المعارضة ضد بني عبد مناف ومن معهم من بني قصي وهم الذين ينافسونهم في الزعامة والسيادة والسيطرة على مكة، ونحن بحاجة إلى التعرف على أعماق هذين الحزبين لندرك من خلالهما فيما بعد طبيعة الصراع الدائر في مكة، والذي امتدت أبعاده إلى عصر الرسالة، وكان الموقف المنطقي أن يقف الحزب الثاني بأحلافه وبكل رجالاته وزعاماته ضد رسول الله ﷺ ابن عبد مناف والذي لا يمكن أن ينازع في الرسالة أو ينافس فيها، وليس هناك من حل إلا تكذيبها. أما المآثر الأخرى من السقاية والرفادة التي استأثر بها بنو هاشم بن عبد مناف ومجال التنافس في إطعام الحجيج وغيرهم وإكرام الضيف وفك العاني؛ فالمجال مفتوح للسباق فيه.

التنافس ضمن بني عبد مناف:

وهذا التنافس ضمن هذا البيت أضعف جانب بني عبد مناف – فيما بعد – وهيأ المجال لزعامات جديدة متفرقة تبرز على الساحة، وكان هذا التنافس بين بني هاشم بن عبد مناف وبني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

روى البلاذري عن هشام بن محمد بن السائب – رحمه الله تعالى – قال:

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم في

إطعام قريش، فعجز عن ذلك، فشمت به أناس من قريش، وعابوه لتقصيره فغضب، ونافر هاشمًا على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وإجلاء عشر سنين (عنها) وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وهو جد عمرو بن الحسين، وكان منزله عسفان، وكان مع أمية أبو همهمة ابن عبد العزى الفهري وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر في منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر، أول منها وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر.

فأخذ هاشم الإبل فنحرها، وأطعم لحمها من مضر، وخرج أمية إلى الشام، فأقام عشر سنين؛ فتلك أول عداوة وقعت بين بني هاشم وأمية.

مات هاشم بغزة وله عشرون سنة، ويقال: خمس وعشرون سنة[١].

قال البلاذري - رحمه اللَّه تعالى -: (وهذا أثبت، وهو أول من مات من بني عبد مناف ثم مات عبد شمس بمكة فقُبر بأجياد، ثم مات نوفل بسلمان من طريق العراق، ومات المطلب بردمان من طريق اليمن).

وقال وهب بن عبد قصي في ذلك:

تحمل هاشم ما ضاق عنه ... وأعيا أن يقوم به ابن بيض[٢]
أتاهم بالغرائر[٣] متأقات[٤] ... من أرض الشام بالبر[٥] النفيض
فأوسع أهل مكة من هشيم ... وشاب الخبز باللحم الغريض[٦]
فظل القوم بين مكللات ... من الشيزي[٧] وحائرها[٨] يفيض[٩][١٠]

ولكن هذا التنافس بقي ضمن بني عبد مناف في هذا الجيل، وبقي هاشم بن عبد مناف السيد الأول في مكة لا يباريه بسيادته أحد؛ لأنه هو الذي أعطى لقريش تلك السمعة العالمية، وهيأ لها تلك الأسواق التجارية العالمية، مع إخوته بعد أبيه المؤسس المحلي لمجد مكة على

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/ ٣١٩، ٣٢٠).
(٢) ابن بيض: هو ابن عبد شمس.
(٣) الغرائر: ما يحمل به القمح.
(٤) متأقات: ممتلئات.
(٥) البر: القمح.
(٦) اللحم الغريض: اللحم الطري.
(٧) الشيزي: قصاع اللحم.
(٨) الحائر: الودك والسمن.
(٩) يفيض: يزداد.
(١٠) الطبري (١/ ٢٥٣).

مستوى العرب الذين يؤمون البيت للحج.

ونرى في وفاة هاشم مبالغة كبيرة؛ فمثل هذه الأمجاد لا يمكن أن تتحقق خلال خمسة وعشرين عامًا.

* * *
* *
*

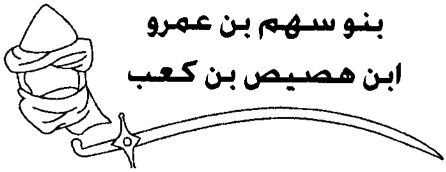

بنو سهم بن عمرو
ابن هصيص بن كعب

وهم قوم عمرو بن العاص ﷺ.

وهم كانوا على رأس الحزب المعارض لبني عبد مناف.

١ - أما أبرز زعمائهم الذي كان معاصرًا لهاشم بن عبد مناف فهو قيس بن عدي ابن سهم. وقد رفع من مقام عشيرته وأصبح يجير بين القبائل.

ومن سادات مكة في هذه الأيام قيس بن عدي بن سهم من بني هصيص بن كعب، وكان بنو سهم قد تكاثروا بمكة حتى كادوا يعدلون بعبد مناف، وهو الذي منع (عدي ابن كعب) و (زهرة بن كلاب) من (بني عبد مناف)، ومنع (بني عدي) أيضًا من بني جمح، وكان هاشم بن عبد مناف ينفر ابنه عبد المطلب وهو صغير ويقول:

كأنه في العز قيس بن عدي   في دار قيس ينتدي أهل الندى[1]

(مما يدل - إن صح أن هذا الشعر هو من شعر (هاشم) حقًّا - على أن (عديًا) كان أعز رجال قريش في أيامه حتى ضربوا به المثل في العز، وأنه كان سيد قومه: بني سهم ابن عمرو بن هصيص بن كعب)[2].

٢ - وحين يُذكر رأس الحزب المعارض للمطيبين يُذكر بنو سهم على رأسهم (فعمدت بنو سهم بن عمرو فنحرت جزورًا وقالوا: من كان منا فليدخل يده في هذه الجزور؛ فأدخلت أيديها عبد الدار، وسهم، وجمح، ومخزوم، وعدي؛ فسُميت الأحلاف)[3].

٣ - وحين نغادر جيل هاشم بن عبد مناف وقيس بن عدي بن سهم؛ حيث يتصور أن الحلفين قاما في أيامهما ثم انتهى الأمر بالمصالحة بين الفريقين على أن تكون الرفادة والسقاية لبني هاشم، وتبقى اللواء والندوة والحجابة في بني عبد الدار - نصل إلى جيل أولادهم عبد المطلب بن هاشم الذي آلت سيادة بني هاشم إليه، والحارث بن قيس

---

(١) نسب قريش (ص ٤٠٠).

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي (ص ٧٣).

(٣) نسب قريش (ص ٣٨٣).

ابن عدي قد آلت زعامة سهم إليه. وتفرق بنو عبد مناف إلى أربعة بطون:

أ - بنو هاشم، وسيدهم عبد المطلب بن هاشم.

ب - بنو أمية بن عبد شمس، وسيدهم حرب بن أمية.

جـ - بنو نوفل بن عبد مناف، وسيدهم نوفل نفسه عم عبد المطلب.

د - بنو المطّلب، وسيدهم المطلب بن عبد مناف.

٤ - وداخل بني عبد مناف كان عبد المطلب بن هاشم قد ساد قومه فراح حرب ابن أمية ينازعه السيادة كما فعل أمية مع عمه هاشم، وتنافرا إلى نفيل بن عبد العزى ابن عدي جد عمر بن الخطاب فقال لحرب: يا أبا عمرو، تنافر رجلًا هو أطول منك قامة، وأوسم منك وسامة، وأعظم منك هامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولدًا، وأجزل منك صفدًا[١]، وأطول منك مددًا؟! وإني لأقول قولي هذا، وإنك لبعيد الغضب رفيع الصيت عند العرب، جلد المريرة، تحبك العشيرة، ولكنك نافرت منفرًا، فنفر عبد المطلب، فغضب حرب، وأغلظ لنفيل وقال: من انتكاس الدهر جعلت حكمًا. وكانت العرب تتحاكم إليه[٢].

(ووقع خلاف بين عبد المطلب وعمه نوفل كان سببه أن نوفل بن عبد مناف - وكان آخر من بقي من بني عبد مناف - ظلم عبد المطلب على أركاح له وهي - الساحات - فلما أصر نوفل على إنكاره حق عبد المطلب؛ تدخل عقلاء قريش في الأمر على رواية أهل مكة - أو أخوال عبد المطلب وهم من أهل يثرب، فأكره نوفل على إنصاف عبد المطلب حتى عاد إليه حقه)[٣]. فلما رأى نوفل ذلك حالف بين عبد شمس كلها على بني هاشم[٤].

(وعُرِف عبد المطلب بين أهل مكة بشيبة الحمد، لكثرة حمد الناس له، وكان يقال له: (الفياض)؛ لجوده ومطعم طير السماء و (مطعم الطير)؛ لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال. ومن أهم أعمال عبد المطلب الخالدة إلى اليوم (بئر زمزم) في المسجد الحرام على مقربة من البيت، وهي بئر يذكرون أنها بئر إسماعيل وأن جرهمًا دفنتها وأنها تقع بين إساف ونائلة في موضع كانت قريش تنحر فيه، فلما حضرها

---

(١) الصفد: العطاء. (٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (١/ ٣١٠).

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٤/ ٧٥) عن الطبري (٢/ ٢٤٨) وما بعدها.

(٤) الطبري (٢/ ٢٤٧) وما بعدها.

عبد المطلب أقبل عليها الحجاج وتركوا سائر الآبار)[١].

والملاحظ من هذا العرض أن السيادة بقيت لهاشم حين حاول ابن أخيه أمية أن ينازعه إياها، ثم انتقلت لابنه عبد المطلب، ثم لحرب بن أمية، وبعدها توزعت السيادة في قريش في هذا الجيل (فلما هلك حرب بن أمية تفرقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف وفي بني أسد وقد كانت النبوة والخلافة في بني عبد مناف ويشركهم في الشورى زهرة، وتيم وعدي وأسد).

٥ - وندلف إلى الجيل الثالث في قريش ونشهد زعماءه من خلال حرب الفجار وهم الذين كانوا يتنافسون في الزعامة (ثم إن قريشًا وبني كنانة لقوا هوازن بشمطة: وعلى رأس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب، وعلى بني عبد شمس وأحلافها حرب ابن أمية (والد أبي سفيان بن حرب)، وعلى بني عبد الدار وحلفائها عكرمة بن هاشم، وعلى بني أسد بن عبد العزى خويلد بن أسد (والد خديجة بنت خويلد - رضي اللَّه عنها -)، وعلى بني زهرة مخرمة بن نوفل، وعلى بني تيم عبد اللَّه بن جدعان، وعلى بني مخزوم هاشم بن المغيرة (أو هشام والد عمرو بن هشام أبي جهل)، وعلى بني سهم العاص ابن وائل (والد عمرو بن العاص)، وعلى بني جمح أمية بن خلف، وعلى بني عدي زيد ابن عمرو بن نفيل (عم عمر بن الخطاب)، وعلى بني عامر بن لؤي عمرو بن شمس (والد سهيل بن عمرو)، وعلى بني فهر عبد اللَّه بن الجراح (والد أبي عبيدة بن الجراح).

(وذكر أن هذا اليوم قد وقع بعد عشرين سنة من عام الفيل، وقد شهده رسول اللَّه ﷺ وعمره عشرون سنة)[٢].

وفي رواية أخرى ذكرت (هشام بن المغيرة) بدلًا من هاشم، وإضافة أبي أحيحة (سعيد بن العاص) ومعمر بن حبيب الجمحي عوضًا عن (أمية بن خلف).

وفي رواية ثالثة أن القيادات انتهت إلى (حرب بن أمية) في القلب و (هشام ابن المغيرة) في إحدى المجنبتين و (عبد اللَّه بن جدعان) في المجنبة الأخرى.

ومن خلال هذه الزعامات لا تبدو لسهم أية ميزة على القبائل الأخرى إلا أن سيدها المقدم فيها هو العاص بن وائل السهمي.

---

(١) المحبر (ص ١٥٦) وما بعدها.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١٠٢) وما بعدها.

٦ - وشكَّل العاص بن وائل شرخًا جديدًا في مكة؛ فإضافة إلى حلف (المطيبين) و (الأحلاف) دعا إلى تشكيل حلف هو (حلف الفضول):.

كان هذا الحلف في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة منصرف قريش من الفجار ولرسول اللَّه ﷺ يومئذ عشرون سنة، وكان أكرم حلف سُمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول اللَّه ﷺ، وكان سببه أن رجلًا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وكان ذا قدر وشرف بمكة، فحبس عن حقه فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار، ومخزومًا، وجمحًا، وسهمًا؛ فأبوا أن يعينوا الزبيدي على العاص بن وائل وزجروه ونهروه، فلما رأى الزبيدي ذلك الشر رقى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فقال بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحِجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه ... ولا حرام لثوب الغادر الفجر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ألهذا مترك؟ فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم في دار عبد اللَّه بن جدعان، فصنع لهم طعامًا فحالفوا في القعدة في شهر حرام قيامًا فتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بلَّ بحر صوفة وما رسا حراء وثبير مكانهما، وعلى التآسي في المعاش؛ فسمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر، ثم مشوا إلى العاص ابن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه)[١].

وروى ابن إسحاق عن طلحة بن عبيد اللَّه وابن سعد والبيهقي عن جبير ابن مطعم - رضي اللَّه عنهما - قالا قال رسول اللَّه ﷺ: « **لقد شهدت في دار عبد اللَّه بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت** » وهو عند البيهقي في السنن (١٢٧). وفي رواية له عند أحمد: « **شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن يكون لي به حمر النعم وأني نكثته** »[٢]. وعند ابن هشام في السيرة النبوية: فيما رواه البكائي عن ابن إسحاق قال: (تداعت قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٥٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٤)، والبداية والنهاية لابن كثير (١/ ٢/ ٢٧٣).

عبد اللَّه بن جدعان ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي؛ لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة؛ فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته؛ فسمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول)[١].

٧ - وهكذا نجد بني سهم في الصف المعارض لبني عبد مناف وبني هاشم، فهم الذين وضعوا جفنة الدم في حلف المطيبين وكانوا على رأس الأحلاف.

(ثم سوند بين القبائل، ولزَّ بعضها ببعض؛ فعبيت بنو عبد مناف لبني سهم، وعبيت بنو أسد لبني عبد الدار، وعبيت زهرة لبني جمح، وعبيت بنو تيم لبني مخزوم، وعبيت بنو الحارث بن فهر لبني عدي بن كعب، ثم قالوا: لتعن كل قبيلة من أسند إليها)[٢].

ونجد العاص بن وائل السهمي سيد بني سهم هو رأس الحربة الذي قام حلف الفضول من أجله لانتزاع مظلمة الزبيدي منه.

وكثرة العدد كانت سببًا رئيسيًّا للتنافس بين بني سهم وبني عبد مناف.

(وكان بنو سهم بن عمرو قد كثروا حتى كادوا يعدلون بعبد مناف، حتى قلوا عند مبعث النبي ﷺ؛ أصابهم موتان، فكان يصبح عدة منهم على فرشهم قد ماتوا)[٣].

وبقيت نخوة الجاهلية تنخر فيهم حتى قدم الإسلام، وعندما راحوا يكاثرون بني عبد مناف اضطروا إلى ذكر الأموات وتعدادهم.

وتفاخر حيان من قريش: بنو عبد مناف، وبنو سهم، وتكاثروا بالسيادة والأشراف بالإسلام؛ فقال كل حي منهم: نحن أكثر سيدًا وأعظم نفرًا وأكثر قائدًا؛ فإن التكاثر يكون بين اثنين يقول كل منهما لصاحبه: أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا. فكثر بنو عبد مناف بني سهم ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم بهم فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ... ﴾ قاله الكلبي[٤].

٨ - ولطبيعة هذا الصراع بين الحيين نجد شاعر بني سهم عبد اللَّه بن الزبعرى

---

(١) المصدر نفسه (ص ٩٣).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٢).
(٣) نسب قريش (ص ٤٠١).
(٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عني بنشره: محمد جمال صاحب المكتبة الأهلية بمصر، تأليف السيد محمود شكري الألوسي، عني بشرحه وضبطه محمد بهجت الأثري، طبعة ثانية (١٩٢٤م).

تتحرك به نخوته الجاهلية فيهجو قصي بن كلاب وهو أبو عبد مناف، وقصي كان - كما مر معنا - معظَّمًا عند العرب جميعًا؛ فخافت بنو سهم مغبة هذا الهجاء فمضت وسلمت ابن الزبعرى إلى بني عبد مناف يفعلون به ما يشاؤون، وبذكاء نادر وشهامة جاهلية أطلق حمزة عبد المطلب سراحه وكساه، فأطلق لسانه في الثناء على قصي وبني عبد مناف.

وهجا عبد اللَّه بن الزبعرى السهمي بني قصي فدفعوه برمته إلى عتبة بن ربيعة خوفًا من هجاء الزبير بن عبد المطلب وكان شاعرًا مفلقًا شديد المعارضة قذع الهجاء، فلما وصل عبد اللَّه بن الزبعرى إليهم (أي إلى بني عبد مناف) أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه، فقال عبد اللَّه:

لعمرك ما جاءت بُنكْرٍ عشيرتي ... وإن صالحت إخوانها لا ألومها
يود جناة الغي أن سيوفنا ... بأيماننا مسلولة لا نشيمها
فإن قصيًّا أهل عز ونجدة ... وأهل مقال لا يرام قديمها
هم منعوا يومي عكاظ نساءنا ... كما منع الشول(١) الهجان قرومها(٢)

وكان الزبير (بن عبد المطلب) غائبًا بالطائف، فلما وصل إلى مكة وبلغه الخبر قال:

فلولا نحن لم يلبس رجال ... ثياب أعزة، حتى يموتوا
ولكنا خُلقنا إذا خلقنا ... لنا الخيرات والمسك الفتيت
ثيابهم سمال(٣) أو طمار(٤) ... بها دسم كما دسم الحميت(٥)، (٦)

٩ - ومع أن المآثر الخمس المشهورة كانت محصورة في بني عبد الدار وبني عبد مناف وهي: السقاية، والرفادة، والندوة، والحجابة، واللواء؛ إلا أن هناك مآثر خمسة أخرى رديفة لها موزعة على قبائل قريش بالتساوي كانت في الجاهلية وامتدت فترة في الإسلام.

---

(١) الشول من الإبل: التي ترفع بذنبها للقاح ولا لبن لها.
(٢) القروم: جمع قرم وهو الفحل من الإبل خاصة.
(٣) السمال: الخلق من الثياب.
(٤) الطمار: الثياب البالية.
(٥) الحميت: وعاء السمن.
(٦) (م ١)، (٣/ ٨٥).

فقد ذكر الألوسي تحت عنوان: من انتمى إليه الشرف بمكة من قريش في الجاهلية والإسلام:

اعلم أن من انتهى إليه الشرف من قريش إلى أن بزغ نور الإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن؛ وهم: هاشم، وأمية، ونوفل، وعبد الدار، وأسد، وتيم، ومخزوم، وعدي، وجمح، وسهم.

فكان في هاشم العباس بن عبد المطلب يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الإسلام، ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش. وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه. ومن بني نوفل الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة؛ وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج. ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة، ويقال: والندوة أيضًا في بني عبد الدار. ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الأسود، وكانت إليه المشورة؛ وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافقه ولّاهم عليه وإلا تخيَّر وكانوا له أعوانًا، واستشهد مع رسول اللَّه ﷺ بالطائف.

ومن بني تيم أبو بكر الصديق وكانت إليه في الجاهلية الأشناق؛ وهي: الديات والمغارم فكان إذا احتمل شيئًا فسأل فيه قريشًا صدقوه وأمضوا حمالة ممن نهض معهم، وإذا احتملها غيرهم خذلوه. ومن بني مخزوم خالد بن الوليد كانت إليه القبة والأعنة؛ فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب، ومن بني عدي عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة في الجاهلية؛ وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيرًا، وإن نافرهم حَيٌّ المفاخرة، جعلوه منافرًا ورضوا به. وعن بني جمح صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار؛ وهي: الأزلام، فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذي يسيره بين يديه. ومن بني سهم الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهتهم.

فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية، وهي: السقاية والعمادة والعقاب والرفادة والسدانة والحجابة والندوة واللواء. والمشورة والأشنقاق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجرة إلى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على

حال ما كانت في أوليتهم يتوارثونها كابرًا عن كابر، وجاء الإسلام؛ فوصل لهم ذلك، وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الإسلام فوصله؛ فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر في بني هاشم. فأما السقاية فمعروفة، وأما العمارة فهو ألا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث، ولا يرفع فيه صوته، وكان العباس ينهاهم عن ذلك. وأما حلوان النفر؛ فإنها لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحدًا فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيرًا كان أو كبيرًا، فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهم العباس- وهو صغير- فأجلسوه على المجن)[١].

١٠- لكن الإسلام عندما قامت دولته الكبرى، ودانت له جزيرة العرب ألغى هذه المآثر جميعًا إلَّا مأثرتين فقط هما: سقاية الحجيج وبقيت في بني هاشم، وحجابة البيت وبقيت في بني عبد الدار.

فقد خطب رسول اللَّه ﷺ في فتح مكة في أول يوم من أيامها؛ فقال: « **ألا إن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مال أو مأثرةٍ؛ فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج** »[٢].

وعندما سلم مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة سيد بني عبد الدار قال له:

« **خذوها يا بني طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلَّا ظالم؛ يا عثمان: إن اللَّه استأمنكم على بيته فكلوا بالمعروف** »[٣].

وبقيت السقاية لبني هاشم؛ حيث طمعوا أن تجمع لهم المأثرتان فلما تناوله (أي: مفتاح الكعبة) قال العباس: يا رسول اللَّه اجمع لنا السقاية مع الحجابة؛ فقال ﷺ: « **أعطيكم ما تُرزأون[٤] فيه، ولا أعطيكم ما ترزأون[٥] به** »[٦].

* * *
* *
*

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي (ص ٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) إمتاع الأسماع للمقريزي، فتح مكة (ص ٣٨٩).

(٣) المصدر نفسه (ص ٣٨٨).

(٤) رُزئ: أصيب في ماله.

(٥) رزأه: أصاب منه خيرًا.

(٦) المصدر نفسه (ص ٣٨٥)، وقد روى الطبراني مرسِلًا الحديثين، ورجالها رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٧).

العاص بن وائل السهمي

« هو العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم، وأمه سلمى البلوية من بلى من قضاعة، وأخوه لأمه عبد القيس بن لقيط من بني الحارث بن فهر، وكان العاص بن وائل من أشراف قريش ».

وكان أول بروز زعامته وسيادته في الجاهلية - فيما تسعفنا به المصادر- يوم حرب الفجار؛ إذ قاد قومه بني سهم وذلك قبل البعثة بعشرين سنة[١].

(قالوا: ثم إن قريشًا وبني كنانة لقوا هوازن بشمطة، وعلى بني هاشم الزبير ابن عبد المطلب، وعلى بني عبد شمس وأحلافها حرب بن أمية، وعلى بني عبد الدار وحلفائها عكرمة بن هاشم، وعلى بني أسد بن عبد العزى خويلد بن أسد، وعلى بني زهرة مخرمة بن نوفل، وعلى بني تيم ابن جدعان، وعلى بني مخزوم هشام بن المغيرة، وعلى بني سهم العاص بن وائل، وعلى بني جمح أمية بن خلف، وعلى بني عدي زيد ابن عمرو بن نفيل، وعلى بني عامر بن لؤي عمرو بن عبد شمس (أبو سهيل بن عمرو)، وعلى بني فهر عبد اللّه بن الجراح (أبو أبي عبيدة)، وعلى بني بكر بلعاء بن قيس، وعلى الأحابيش الحليس الكناني؛ فالتقوا فكانت أول النهار على هوازن فصيروا ثم استعر القتل في قريش وانهزم الناس؛ فقال خداش:

فأبلغ إن عرضت لهم هشامًا ... وعبد اللّه أبلغ والوليدا
بأنا يوم شمطة قد أقمنا ... عمود المجد إن له عمودا)[٢]

وبمتابعة هؤلاء القادة الاثني عشر من قريش نجد أن ثلاثة منهم فقط هم الذين

---

(١) نسب قريش (١/ ٤٠٨).

(٢) نقل البلاذري عن الواقدي في أنساب الأشراف قوله: (مات العاص بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بأشهر، وهو ابن خمس وثمانين سنة، وكان يكنى أبو عمرو)، (١/ ١٣٩). وعلى هذا يكون عمره عندما قاد قومه في حرب الفجار في الثانية والخمسين من عمره، وفي البعثة النبوية كان عمره اثنتين وسبعين سنة، فقد كان من مشيخة قريش، ومن الملأ الذين واجهوا الدعوة التي جاء بها رسول اللّه ﷺ، وهو ابنُ أربعين سنة. أنساب الأشراف، للبلاذري (١/ ١٠٢).

بقوا أحياء، وعاصروا الدعوة الإسلامية، وواجهوها؛ وهم: العاص بن وائل، وأمية بن خلف الجمحي، ومخرمة بن نوفل الزهري. وإذا كان بنو زهرة حلفاء بني هاشم، فقد برز العاص وأمية فقط من بقايا الجبل القديم على رأس المحاربين لدعوة الإسلام التي انطلقت من خصومهم بني هاشم.

وحين نذكر أن التنافس كان بين الحزبين الرئيسيين في مكة، على رأس الحزب الأول بنو هاشم، وعلى رأس الحزب الثاني بنو سهم وبنو مخزوم، نجد أن التنافس خاصة والتوتر السديد كان بين هذين البطنين: بطن بني هاشم، وبطن بني سهم، وعندما تعبأ الحزبان للمواجهة في مكة فعبيت بنو عبد مناف لبني سهم، وإذا كان العاص هو سيد بني سهم؛ فهذا يعني أنه يرى نفسه - وبشكل عفوي - على رأس قومه في حرب هذا الدين ورفضه، وهو الذي يجعل السيادة لبني هاشم وفتاها محمد ﷺ على الخلق كافة لا على قريش خاصة؛ فهو إذن من أول المحاربين لهذا الدين.

والحرب التي يقودها العاص بن وائل السهمي هي حرب شاملة لم تتحول إلى حرب في السلاح إلا بعد خمسة عشر عامًا من البعثة، لكنها كانت حربًا في الكلمة، وحربًا في السياسة، وحربًا في العقيدة، وحربًا في القبيلة، وكان العاص بن وائل محاربًا في كل الجبهات.

كان يشاركه في زعامة بني سهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سهم، وزعيم ثالث كان في مثل سنه تقريبًا هو الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم، والذي كان ابن سيد قريش كلها قيس بن عدي - والذي سبق أن ذكرناه - وذكرنا قول الشاعر فيه:

كأنه في العز قيس بن عدي ... في بيت قيس ينتدي أهل الندى

ويمكن أن نعتبر العاص بن وائل، والحارث بن قيس بن عدي السهميان في الطبقة الأولى من الزعامة؛ لسنهما وشرفهما، فقد ذكرا بين المستهزئين الذين كانوا بضعة أفراد في مكة، ويليهما في الزعامة نبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان؛ ولهذا كانا على رأس وفود المفاوضة مع أبي طالب.

الوفد الأول:

وحيث إن الحكمة تظهر في الشيوخ، وهم الذين يقون قومهم شر الفتنة؛ كان أول وفد يتحرك لمحاولة رأب الصدع في قريش، ومحاولة تطويق الفتنة - يتألف من عشرة

من هؤلاء الشيوخ، وأحد هؤلاء الشيوخ العاص بن وائل السهمي؛ وذلك منذ الخطوات الأولى للدعوة، ومن طرف آخر هم أسرع الذين تنبهوا إلى خطر الإسلام القادم الذي يجتاح زعامتهم إلى الأبد.

قال ابن إسحاق: (فلما بادى رسول اللَّه ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره اللَّه تعالى، لم يبعد عنه قومه ولم يردوا عليه فيما بلغني حتى ذكر آلهتهم وعابها؛ فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعدوانه إلا من عصم اللَّه تعالى بالإسلام، وهم قليل مستخفون، وحدب على رسول اللَّه ﷺ عمه أبو طالب وقام دونه، ومضى رسول اللَّه على أمر اللَّه مظهرًا لأمره لا يرده عنه شيء... مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس... وأبو سفيان بن حرب، وأبو البختري، واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد، والأسود بن المطلب ابن أسد... وأبو جهل بن هشام بن مخزوم، والوليد بن المغيرة بن مخزوم، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، والعاص بن وائل، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا؛ فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة فسنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا، وردهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه)[1].

ونظرة إلى تركيب هذا الوفد نلاحظ أن نصفه الأول - وهم الخمسة الأوائل فيه - من حلفاء بني هاشم من بني عبد مناف وبني أسد بن قصي، أما نصفه الثاني - وهم الخمسة الآخرون - فهم من خصوم بني هاشم، وخاصة من أعدى العدو بني مخزوم وبني سهم.

والذي جمع بين هذين الفريقين هو العقيدة من جهة، والخوف على مصالحهم من جهة ثانية؛ إذ إن رسول اللَّه ﷺ ذم الآلهة، وعاب الدين، وسفَّه الأحلام وكأنه طعن شخصي بهم؛ فهم أولو الأحلام والنُّهى في مكة، وهم سادة قريش.

الوفد الثاني:

(ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى؛ فقالوا له: يا أبا طالب إن لك منزلة وسنًّا وشرفًا فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا واللَّه لا نصبر على هذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٧٦).

من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين)[١].

وها هي مكة تتعرض لتحالف جديد وانقسام أخطر لا مثيل له من قبل.

الفريق الأول: بنو هاشم وبنو المطلب، ومحمد بن عبد اللَّه، والذين معه من فتيان قريش.

الفريق الثاني: مكة كلها بحلفيها الأحلاف والمطيبين.

وكان هذا الانقسام بسبب العقيدة؛ فبالرغم من أن بني هاشم وبني المطلب لم يتابعوا محمدًا على دينه لكنهم لم يتخلوا عن زعامته لهم، وأعلنوا على لسان أبي طالب:

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يومًا فإن محمدًا هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وثمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديمًا لا نقر ظلامه إذ ما ثنوا صعر الخدود تقيمها
ونحمي حماها كل يوم كريهة ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء[٢] وإنما بأكنافنا تندى وتنمي أرومها

وتجاوز الأمر الفخر إلى التهديد بالحرب؛ فكان جواب الحزب الهاشمي قصيدة من أوابد الشعر قالها أبو طالب معلنًا موقفه وحمايته لمحمد سيد قومه، فكان مما قاله:

كذبتم وبيت اللَّه نترك مكة ونظعن إلَّا أمركم في بلابل[٣]
كذبتم وبيت اللَّه نُبزي[٤] محمدًا ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرَّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد[٥] إليكم نهوض الروايا[٦] تحت ذات الصلاصل[٧]،[٨]

---

(١) المصدر نفسه (ص ١٧٦).
(٢) الذواء: اليابس.
(٣) بلابل: أي شدة الهم والوسواس
(٤) نبزي: نُسلبُه وتغْلُبُ عليه.
(٥) الحديد: السلاح.
(٦) الروايا: الإبل.
(٧) ذات الصلاصل: المزادات التي فيها بقايا الماء.
(٨) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٧٨، ١٧٩).

الوفد الثالث:

وكان هذا آخر محاولة للتفاهم بين الفريقين.

قال ابن إسحاق: (ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش من الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين، ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة كما حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال:

واجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث أخو بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة ابن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد اللَّه بن أبي أمية، والعاص ابن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف أو من اجتمع منهم، قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم؛ فجاءهم رسول اللَّه ﷺ سريعًا - وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء[1] - وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا واللَّه لا نعلم رجلًا من العرب، أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفَّهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالًا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئيًا - فربما كان ذلك بذلنا لك من أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « **ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم؛ ولكن اللَّه بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر اللَّه حتى يحكم بيني وبينكم** » - أو كما قال ﷺ - قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل

---

(١) بدا لهم من أمرهم بداء: أي رأوا رأيًا جديدًا فأعادوا البدء فيه.

منًّا شيئًا مما عرضناه عليك. فإنكَ قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا، ولا أقل مالًا، ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليخرق لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند اللَّه وأنه بعثك رسولًا كما تقول؛ فقال لهم: « **ما بهذا أُبعثْتُ إليكم؛ وإنما جئتكم من اللَّه بما بعثني به، وقد بلَّغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر اللَّه - تعالى - حتى يحكم اللَّه بيني وبينكم** ».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم.

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « **ما أنا بفاعل، ولست بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثْتُ إليكم بهذا، ولكن اللَّه بعثني بشيرًا ونذيرًا** - أو كما قال - **فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر اللَّه حتى يحكم اللَّه بيني وبينكم** ».

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فإنا لا نؤمن لك إلَّا أن تفعل.

قال: فقال رسول اللَّه ﷺ: « **ذلك إلى اللَّه إن شاء أن يفعله بكم فعل** ».

قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع بنا في ذلك؛ إذ لم نقبل عنك ما جئنا به؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا واللَّه لا نؤمن بالرحمن أبدًا فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا واللَّه لا نتركك وبما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات اللَّه، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا باللَّه والملائكة قبيلًا)[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٤ - ١٩٦)، وبغض النظر عن سند هذه الرواية، فقد أثبت القرآن مضمون =

وهذا أقصى ما تفتقت عنه عبقرية قريش من خلال الحوار مع رسول اللَّه ﷺ، واعتبرت هذا اللقاء إنهاء لمرحلة الحوار، وابتداء لمرحلة الحرب.

صحيح أن العاص بن وائل لم يظهر من خلال هذا الحوار بشيء يخصُّه لكننا نتابع مع تطور موقفه من خلال تنسيقه مع زعماء مكة، وإصرارهم على موقف موحد من رسول اللَّه ﷺ؛ وهو رفض الإيمان به وبرسالاته، وحرب أتباعه وإن كان هؤلاء الزعماء جميعًا قد طُعنوا في شرفهم، فما من بيت من بيوت مكة إلا واستجاب أحد أفراده لمحمد وانضم معه.

وهذا العاص بن وائل يُطعن في شرفه فيخرج ولده الثاني - هشام بن العاص - على رأيه وينضم لحزب رسول اللَّه ﷺ متحديًا أباه وبني سهم جميعًا وراءه، وهو بهذه السن الكبيرة عاجز عن أن يفعل شيئًا مع ابنه هشام؛ لكنه مطمئن إلى أن ابنه الأكبر عمرو بن العاص والذي أصبح من شخصيات مكة المرموقة - لا يزال على دينه.

لكن الخطب الكبير كان عند نده الثاني الحارث بن قيس بن عدي السهمي الذي حمل لواء الحرب للإسلام، بينما انضم معظم بنيه لهذا الدين الجديد.

وهو الذي عبد هواه حتى نزل فيه قوله - تعالى - بذلك؛ فقد كان كلما رأى حجرًا أحسن من الذي عنده أخذه وألقى ما عنده، وفيه نزلت: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ... ﴾[1] [الجاثية: ٢٣]، وهو ابن الغيطلة[2]، والذي بلغ قمة الضلالة، ها هم أولاده ينضمون للإسلام وأولاد أخيه كذلك، ويهاجرون إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن؛ وهم:

(١ - خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي.

٢ - قيس بن حذافة بن قيس بن عدي.

٣ - عبد اللَّه بن حذافة بن قيس بن عدي.

= هذا اللقاء كاملًا بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

(١) وتتمة الآية: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٤٢١).

وهؤلاء هم بنو أخيه حذافة. أما أولاده فهم:

٤ - عبد اللَّه بن الحارث بن قيس بن عدي.

٥ - أبو قيس بن الحارث بن قيس بن عدي.

٦ - الحارث بن الحارث بن قيس بن عدي.

٧ - معمر بن الحارث بن قيس بن عدي.

٨ - بشر بن الحارث بن قيس بن عدي.

٩ - سعيد بن الحارث بن قيس بن عدي.

١٠ - السائب بن الحارث بن قيس بن عدي.

فإذا انضم إلى هؤلاء أربعة آخرون هم: هشام بن العاص بن وائل، وعمير بن رئاب ابن حذيفة بن مهشم بن سعيد بن سهم، ومحمية بن الجزء حليف لهم، وسعيد بن عمرو أخو بشر بن الحارث بن قيس لأمه)[1] - كان من انضم إلى الإسلام من بني سهم يكاد يفوق القبائل جميعًا. وكانت هذه القضية تؤرق العاص بن وائل وتجعله يراوح بين الاستجابة لحقده على الإسلام والحرب بكل طاقاته، وبين الخوف على هؤلاء جميعًا، وقد فروا إلى الحبشة وصاروا وصمة عار له ولقومه أمام مشيخة قريش.

ومن أجل هذا نستطيع أن نعلل مواقفه كلها من الإسلام؛ فقد كانت نزعة الاستعلاء والطغيان والشرف تحكمه بحيث لا ينازعه أحد فيها، ونزعة كسر ظهره بهؤلاء الذين أسلموا من قومه، فلم يأخذ جانب الحرب الشرسة التي أخذها أبو جهل بن هشام، وأبو لهب، وابن معيط، وابن خلف، ولم يرض لنفسه كذلك أن لا يكون سيدًا بين هؤلاء يسبقونه بموقف، أو يقطعون دونه برأي؛ وهكذا نمضي معه في تحليل هذه المواقف.

العاص وخباب بن الأرت:

وليس العاص بمضطر أن يراعي خباب بن الأرت؛ فليس ذا وزن في نسبه وعشيرته، وطبيعة العاص هي طبيعة الطغيان على الضعفاء، وقد رأيناه كيف رفض أن يعطي الزبيدي حقه، وقام حلف الفضول ضده، وأرغمه على إعطائه ذلك الحق. فإذا كان خباب فوق أنه قَيْنٌ يعمل السيوف بمكة - هو مسلم من أتباع محمد - كانت الفرصة مواتية له ليستجبر ويستكبر ويستعلي على خباب، فيسلبه حقه.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢١٩).

قال ابن إسحاق: كان خباب بن الأرت صاحب رسول اللَّه ﷺ قَيْنًا يعمل السيوف بمكة، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفًا عملها له حتى كان عليه مال، فجاءه يتقاضاه؛ فقال له: يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم - هذا الذي أنت على دينه - أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟

قال: بلى. قال: فأنظروني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار، فأقضيك هنالك حقك، فواللَّه لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثر عند اللَّه مني، ولا أعظم حظًّا في ذلك؛ فأنزل اللَّه - تعالى - فيه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠][١].

لقد انكشفت نفسية العاص بن وائل ها هنا عارية؛ فليس مضطرًّا لمحاباة هذا المستضعف أو مجاملته، فراح يتحدى اللَّه ورسوله، ويرى نفسه أفضل من رسول اللَّه لجاهه ونسبه وزعامته؛ فجاء القرآن الكريم يقصم هذا الاستعلاء عنده ويلقي تهديد رب العالمين له بالعذاب الأليم.

مع وفد الحلول الوسط:

بينما نراه يتصنع الحكمة والتعقل يوم يشترك في وفد رباعي حين يعرض على رسول اللَّه ﷺ حلًّا ينهي أزمة مكة، ويقضي على الصراع فيها، ويفوز هو بقصب السبق إن تم حل القضية على يديه.

(واعترض رسول اللَّه وهو يطوف بالكعبة - فيما بلغني - كما يقول ابن هشام، الأسود ابن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي، وكانوا ذوي أسنان في قومهم؛ فقالوا: يا محمد، هلُمَّ فلنعبد ما تعبد، ونَعبُد ما تعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر؛ فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه.

فأنزل اللَّه تعالى فيهم: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ١ - ٦]؛ أي: إن كنتم لا تعبدون اللَّه إلا أن أعبد ما تعبدون؛ فلا حاجة لي

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٣٩).

بذلك منكم، ولكم دينكم جميعًا ولي ديني).

لقد فشلت مهمة الحلول الوسط؛ فهذا دين اللَّه وليس هوى العبيد، وأدرك العاص ابن وائل في أعماقه أنه في حربه لمحمد بن عبد اللَّه لا ترتبط القضية بأمر بين بني هاشم وبني سهم: مقدار ما هي حرب لرب السماوات والأرض، وهو يدرك أن محمدًا لا يكذب قط، ويدرك أنه لا يتقول من عنده. لكن هل تطاوعه نفسه - وهو ابن السبعينيات من عمره - أن يتبع فتى بني هاشم وهو في الأربعينيات من عمره، وتنتقل سيادة بني سهم وسيادة قريش كلها له، وهو يرى الذين يسلمون كيف يفقدون مواقعهم واحترام الملأ من قريش لهم؛ فهل يخرج على هؤلاء الملأ؟!

وساءه كذلك أن تفشل مهمة ابنه عمرو في الحبشة ويخفق في إقناع النجاشي بتسليم المسلمين؛ فازداد حقدًا على حقد، لكنه يحرص على أن يبقى محافظًا على حلمه أمام قومه.

نزول سورة الكوثر:

وكان يحرص كذلك على أن يهوّن من شأن محمد حتى صار سمة خاصة به؛ قال ابن إسحاق: (وكان العاص بن وائل السهمي - فيما بلغني - إذا ذكر رسول اللَّه ﷺ قال: دعوه؛ فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه؛ فأنزل اللَّه تعالى في ذلك: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ١ - ٣]، ما هو خير لك من الدنيا وما فيها.. والكوثر: العظيم)(١).

وهي أحلامه الدفينة في الحقيقة، فلن يرى الاستقرار والهناء إلا بموت محمد ﷺ ويحاول أن يعوّض على انهيار أمره وارتفاع أمر محمد بإظهار التهوين من أمره، والتقليل من شأنه بحجة أن لا عقب له، وهو يعلم أن ابنه هشام الذي هو من عقبه من أتباع محمد.

وتزداد ضراوة الحقد عنده حين يأتي هجاؤه من رب العالمين ويصبح على كل لسان: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣]؛ فمبغضك هو المقطوع، ويعلم العاص أن رأس ماله هو عمرو فقط، فلو انضم عمرو إلى الإسلام لأصبح مقطوعًا منبوذًا لا عقب له، ويدرك في أعماقه صدق محمد؛ فكأنما ينظر إلى هذا الأمر رأي العين أنه

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٣).

هو الأبتر المقطوع في المستقبل ما دام محمدٌ قال ذلك؛ فلا بد من أن يمعن في المواجهة ويزداد لجاجًا في كفره.

لولا نزل عليه ملك:

قال ابن إسحاق: ودعا رسول اللَّه قومه إلى الإسلام فأبلغ إليهم؛ فقال له زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يغوث، وأبي بن خلف، والعاص بن وائل: لو جُعِلَ معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويُرَى معك؛ فأنزل اللَّه - تعالى - في ذلك من قولهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

إجارة عمر على الإسلام:

وهنا نجد العاص بن وائل يختلف في موقفه مع قومه جميعًا إزاء إسلام عمر ابن الخطاب؛ فقد وقفت قريش كلها ضده إلا العاص بن وائل، وذلك كما في روايتي البخاري:

الأولى: (عن عبد اللَّه بن عمر - رضي اللَّه عنهما - عن أبيه قال: بينما هو في الدار خائفًا؛ إذ جاءه العاص بن وائل السهمي (أبو عمرو) وعليه حلة حبرة(١)، وقميص مكفوف بحرير- وهو من بني سهم - وهم حلفاؤنا في الجاهلية؛ فقال له: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت. قال: لا سبيل إليك بعد أن قالها. أمنت!!

فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ، قال: لا سبيل إليه، فكرَّ الناس)(٢).

الثانية: (وقال عبد اللَّه بن عمر - رضي اللَّه عنهما -: لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره وقالوا: صبأ عمر فما ذاك، فأنا له جار، قال: فرأيت الناس تصدعوا عنه. قلت: من هذا الرجل؟ قال: العاص بن وائل)(٣).

أمَّا رواية السيرة عن ابن عمر كما ساقها ابن إسحاق قال:

(لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه، قال عبد اللَّه بن عمر: فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا غلام أعقل

---

(١) حبرة: ثوب يماني من قطن أو كتان مخطط.

(٢، ٣) البخاري (٤/ ٢٤٢)، باب إسلام عمر بن الخطاب.

كل ما رأيت - حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت، ودخلت في دين محمد؟ قال: فواللَّه ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر. واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش- وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. قال: يقول عمر من خلفه: كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا عبده ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح فقعد وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف باللَّه لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك؛ إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشَّى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال: فمه رجل اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا، كفوا عن الرجل. قال: فواللَّه لكأنما كانوا ثوبًا كشط عنه، قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ فقال: ذاك - أي بني - العاص ابن وائل السهمي.

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أنه قال: يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك يوم أسلمت وهم يقاتلونك - جزاه اللَّه خيرًا؟ قال: يا بني، ذاك العاص بن وائل لا جزاه اللَّه خيرًا)[1].

لقد برز شرف العاص بن وائل، وعظيم مركزه في هذه الإجارة التي واجه بها قريشًا كلها لعمر بن الخطاب؛ وهي مثل إجارة أبي طالب لمحمد بن عبد اللَّه، ولا يمكن للعاص أن يفوِّت هذا المجد؛ إذ إن بني عدي حلفاء بني سهم، وعمر سيد بني عدي، ولا بد من حمايته حتى ولو أسلم؛ ليعرف مدى مراعاة قريش لجيرته واحترامها لأمره. فكان أن تراجعت قريش كلها؛ مراعاة لجواره، وحفظًا لعهده أن يضام، ولكنه في أعماقه يتمزق غيظًا من عمر الذي اختار طريق الإسلام فهدم ركن مكة، وركن الملأ من قريش؛ إذ كان من أشد السيوف ضد محمد بن عبد اللَّه، ومن أعدى العدو له وها هو اليوم يصبح سيفًا على قومه وعشيرته من أجله.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٣/ ٢٢٣)، وللجمع بين الروايات إذ إنها كلها صحيحة. نقدر أن القتال الذي جرى في اليوم الأول وحُسم من العاص دون أن يعلن إجارته وحتى لا تتم مواجهة مع بني عدي، وفي اليوم الثاني عندما بيت أهل مكة قتل عمر لإسلامه جاء العاص؛ فصرفهم جميعًا بإعلان إجارته.

لقد أجار العاص بن وائل مسلمًا آخر لكن هذه الإجارة لم تكن ذات خطر أو أثر؛ وهذا المسلم هو من حلفاء بني عدي وليس من بني عدي أنفسهم، وهو عامر بن ربيعة العنزي حليف الخطاب بن نفيل أبي عمر[١]، والذي قدم من الحبشة مع بعض إخوانه بعد سماعه بإسلام قريش.

وحتى ندرك مدى الفرق بين الإجارتين يكفي أن نذكر رأي عامر بن ربيعة هذا في عمر كما روى ابنه عبد العزيز عن أمه: أم عبد اللَّه بنت أبي حثمة قالت:

« واللَّه إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا أقبل عمر ابن الخطاب حتى وقف عليَّ – وهو على شركه – قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذًى لنا وشدة علينا. قالت: قال: إنه الانطلاق يا أم عبد اللَّه؟ فقلت: نعم، واللَّه لنخرجن في أرض اللَّه، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل اللَّه لنا فرجًا؛ فقال: صحبكم اللَّه. ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه – فيما أرى – خروجنا. قالت: فجاء عامر لحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد اللَّه لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم. قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب – قالت: يأسًا منه لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الإسلام »[٢].

فإسلام عمر قلب الموازين في مكة، وخلط الأوراق، وحقق نصرًا للإسلام يتحدث عنه ابن مسعود؛ فيقول: « إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر؛ فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه »[٣].

ترى ما هو شعور العاص بن وائل عندما كان يرى أتباع محمد كل يوم يصلون عند الكعبة؟ هل يعض أصابعه ندمًا، ويتمنى لو أنه لم يُجِرْ عمر بن الخطاب، وترك قومه يقتلونه وانتهى أمر محمد إلى زوال؟ أم أن ذلك المجد الذي رآه – وقد كشف الناس عنه كما يكشف الثوب – هو أحلى عنده ولو ارتفع أمر محمد وصحبه في مكة وزحزح عز قريش وجاهها.

الغالب على الظن – وهو في هذه السن – أنه لم يندم؛ فالزعامة عنده فوق العقيدة،

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٢٢٨).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٩).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٢٩).

والمصلحة عنده فوق الإيمان والكفر، ولو عاد إلى العقيدة التي ينافح عنها لرأى أنه إنما يعبد حجرًا لا يضر ولا ينفع، وذلك نده الحارث بن قيس الذي يرمي إلهًا ويختار إلهًا؛ كل مرة حين يعجبه حجر فيعبده، ثم يعجبه غيره فيرميه.

ومن هذا الجانب لا نستبعد أن يكون العاص بن وائل قد حدثته نفسه أن يدخل هذا الدين، لكن المصير الذي حل بسيد بني عدي عمر بن الخطاب الذي لم يكن أقل جاهًا ولا نفوذًا منه، حين سال الوادي بقريش يريدون قتله يرعبه ويمنعه من هذه المغامرة، فمهما كان عزه ومهما كان شرفه فلن يحميه من ثورة قريش عليه وقتله لو اقتضى الأمر؛ فلم هذه المغامرة؟!

إنه حين يوازن بين العقيدة والمصلحة تغلب المصلحة عنده؛ فليبق الآمر الناهي، صاحب الكلمة النافذة الذي يجير ولا يجار، وليبق يضحك على نفسه من أن محمدًا أبتر وأمره إلى زوال؛ إذ لا عقب له، ويرى بأم عينيه انتشار أمر محمد. وهذا ابنه هشام الذي عاد من الحبشة وحبسه في مكة لم يستطع في كل جاهه ونفوذه وسطوته وهو بين يديه أن يغير عقيدته، ولا يهدئ من غضبه إلا بقاء ابنه عمرو على دينه.

النهاية الخاسرة:

ويدلف العاص بن وائل إلى ما فوق الثمانين، ويبقى مع القلة من الأكابر في مكة ماضيًا في حرب محمد، وماضيًا في الاستهزاء بدين اللَّه؛ وجاء دور الانتقام الإلهي منه في الدنيا قبل الآخرة.

قال ابن إسحاق: « فأقام رسول اللَّه ﷺ على أمر اللَّه - تعالى - صابرًا محتسبًا مؤديًا إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء، وكان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر من قومه وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم:

١ - من بني أسد بن عبد العُزى بن قصي: الأسود بن المطلب بن أسد أبو زُمعة، وكان رسول اللَّه ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به؛ فقال: « **اللهم أعم بصره وأثكله ولده** ».

٢ - ومن بني زهرة بن كلاب: الأسود بن عبد يغوث بن... زهرة.

٣ - ومن بني مخزوم بن يقظة: الوليد بن المغيرة بن عبد اللَّه... بن مخزوم.

٤ - ومن بني سهم بن عمرو: العاص بن وائل بن هشام.

قال ابن هشام: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم.

٥ - ومن بني خزاعة: الحارث بن الطلاطلة بن... لؤي بن ملكان.

فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله - تعالى - عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٦]».

قال ابن إسحاق: « فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء - أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت؛ فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمرَّ به الأسود بن المطلب؛ فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي(١)، ومرَّ به الأسود بن عبد يغوث؛ فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حبنًا(٢)، ومرَّ به الوليد بن المغيرة؛ فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله كان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر سبلة(٣)، ومرَّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله؛ فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبرقة(٤)، فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته، ومرَّ به الحارث بن الطلاطلة؛ فأشار إلى رأسه فامتخض قيحًا فقتله »(٥).

لقد كان هؤلاء الخمسة هم أكبر قريش سنًّا، وأعلم الناس بصدق محمد منذ نبت صغيرًا بين ظهرانيهم؛ ولكنهم آثروا الزعامة على الدين. وكما فعل إبليس حين قال لربه: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ فكان في جهنم خالدًا مخلدًا فيها - كان موقف هؤلاء؛ فالوليد يقول: ينزل على محمد وأُترَك وأنا كبير قريش وسيدها!(٦).

وكما قال العاص بن وائل لخباب: فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثر عند الله مني(٧).

---

(١) وقد عاش بعد بدر وثكل ثلاثة من ولده استجابة لدعاء رسول الله ﷺ، واحترق جوفه، وكف عن البكاء عليهم وله الشعر المشهور:

أتبكي أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود

(٢) حبنًا: داء في البطن يعظم البطن منه ويورم.

(٣) السبل: الثياب.

(٤) شبرقة: جنس من الشوى.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٥)، ويزيد بن رومان (ثقة) وعروة (ثقة فقيه مشهور) وانتهى تدليس ابن إسحاق حيث ذكر من روى عنه.

(٦) المصدر نفسه (١/ ٢٤٢).

(٧) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٣٩).

ويحدثنا عمرو بن العاص عن مقتل أبيه؛ فيقول:

لقد مات أبي وهو ابن خمس وثمانين سنة، وإنه ليركب حمارًا له من هذه الدباب إلى ماله بالطائف، فيمشي عنه أكثر مما يركبه.

ويصف البلاذري موته كما سمعه من شيوخه:

(فركب حمارًا له - ويقال: بغلة - فلما صار بشعب من تلك الشعاب، وهو يريد الطائف ربض به الحمار - أو البغلة - على شبرقة، فأصابت رجله شوكة منها فانتفخت حتى صارت كعنق البعير ومات)[١]. لقد انتهى هذا العز والمجد، وتحطم هذا الاستعلاء والاستكبار بشوكة في رجله، وهو رابض على حمار له؛ وكان هذا الأمر كما قال الواقدي: « مات العاص بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بأشهر، وهو ابن خمس وثمانين سنة »[٢]. انتهى هذا العز والمجد دون أي ضجة ولا هرج ولا مرج، وما ماجت مكة لوفاته؛ مما آذى شاعر قريش عامة، وشاعر بني سهم خاصة؛ فقال ينفث همه وغيظه ويرثي العاص سيد قومه:

أصاب ابن سلمى خلة من صديقه	ولولا ابن سلمى لم يكن لك راتق
فآوى وحيًّا إذ أتاه بخلة	وأعرض عنه الأقربون الأصادق
فإما أصب يومًا من الدهر نصرة	أتتك وإني يا بن سلمى لصادق
وإلا تكن إلا لساني فإنه	بحسن الذي أسديت عني لناطق
ثمال يعيش المقترون بفضله	وسيب ربيع ليس فيه صواعق[٣]

وابن سلمى هو العاص بن وائل؛ فأمه سلمى البلوية من قضاعة.

ويذكر ابن الزبعرى فضل العاص عليه وعلى قومه، وكرمه وجوده الذي كان ينال الأرامل والمحتاجين والمقترين.

العاص بن وائل من حكام قريش:

يقول الآلوسي في كتابه بلوغ الأرب: (الحاكم منفذ الحكم، وحكام العرب علماؤهم الذين كانوا يحكمون فيهم إذا تشاجروا في الفضل والمجد وعلو الحسب والنسب وغير ذلك من الأمور التي تقع بينهم، وكان لكل قبيلة من قبائلهم حكم يتحاكمون إليه؛

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١٣٩). (٢) المصدر نفسه (١/ ١٣٩).

(٣) كتاب نسب قريش، للمصعب الزبيري (ص ٤٠٨، ٤٠٩).

وهم كثيرون لا يسعهم الحصر)[١].

وقد ذكر في قريش عدد من الحكام؛ منهم: هاشم[٢]، وابنه عبد المطلب[٣]، وابن عبد المطلب أبو طالب[٤] الذين توارثوا المجد كابرًا عن كابر، وكان من الحزب المكي الثاني أكبر عقلائه ووجهائه العاص بن وائل السهمي، والذي يكون في هذه السدة من المجد لا بد أن يكون له من العقل والحلم والعبقرية والتؤدة ما يؤهله لهذا الموقع؛ فهو حاكم في الخصومات، وهو ممتاز في الإدارة والسياسة، وفن التعامل أثناء الأزمات (كما برز من حكام قريش أبو سفيان بن حرب[٥]، وأبو جهل بن هشام)[٦] من الجيل الثاني.

ولئن كانت أمجاد الأموال المحجرة الموقوفة للكعبة والحكم فيها قد ورث مجدها منافسة الحارث بن عدي؛ فإنه بحلمه وهدوئه واتزانه استطاع أن يكسب هذا الموقع في الحكم بين الناس وعليهم؛ لا على الأموال المحجرة الموقوفة فحسب، ومن كان هذا موقعه في قومه؛ فلا يصح منه أن يندفع إلى هوى أو يتحزب لطرف على آخر حتى لا يفقد هذا الموقع. ومن أجل هذا وجدناه دائمًا يتصنع الحلول الوسط، ويحاول الإصلاح عند من يأبه بهم من قومه، وقد رضي أن يؤثر عنه بعض الاستهزاء بهذا الدين والاستخفاف؛ لأنه لا يأبه لهؤلاء العبيد والصغار الذين حملوا رايته، لكن محمد بن عبد اللّه وانضمام بني هاشم وبني المطلب له هو الذي كان يحسب حسابه، ويحرص على مراعاته؛ فيقف مع الوفود التي تحرص على حل المشكلة معه.

لقد كان يملك مقومات الزعامة كاملة التي يعتد بها العرب؛ فالمال الذي كان يكسبه من التجارة ويحرص على البروز باذخًا ثريًا غنيًا فيه كما أثر عن عمرو قوله عنه:

واللّه ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزررًا بالذهب[٧].

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (١/ ٣٠٨).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٠٨).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٢٣).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٢٤).

(٥) المصدر نفسه؛ حيث ذكر أحكام عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة له.

(٦) المصدر نفسه (١/ ٢٨٨).

(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٨٩).

وقوله: لقد كان العاص يلبس الخز مكففًا بالديباج[١].

والنسب العريق في قريش، والذي كان يحاول أن يسامي بني عبد مناف فيه، والعقل والحلم، والدهاء الذي ساعده على تبوء هذا الموقع، والشجاعة التي أهلته لقيادة قومه في يوم شمطة والذي ذكر العاص أنه من حكام قريش - كما أورده الآلوسي في بلوغ الأرب والميداني وابن الكلبي -: (عدَّه صاحب القاموس من حكام قريش، وكذلك الميداني فإنه قال في كتاب مجمع الأمثال: العاص بن وائل من حكام قريش[٢]، وقد ذكر نسبه الزبيدي في شرحه على القاموس، فقال: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد ابن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي. اهـ، وهو والد عمرو بن العاص الصحابي المشهور، وكان له قدر في الجاهلية، ولم يوفق للإسلام، قال ابن الكلبي: كان من حكام قريش...)[٣].

لكن هذا العقل كله والحلم كله لم يهده للإسلام لا لجهله فيه، ولا لغياب الحق عن ناظريه؛ ولكن حفاظًا على السمعة والشهرة والمجد.

لقد قالها قبله أبو جهل:

« تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا؛ حتى إذا صرنا كفرسي رهان وتحاذينا على الركب قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء؛ فمتى ندرك مثل هذه، واللَّه لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه »[٤].

وقالها قبله الوليد بن المغيرة:

« أينزل على محمد وأُترَك، وأنا كبير قريش وسيدها! »[٥].

وقالها العاص بن وائل لخباب[٦]:

« فواللَّه لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثر عند اللَّه مني، ولا أعظم حظًّا في ذلك»[٧].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢٧).

(٢، ٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الآلوسي (١/ ٣٢٨).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٠٩).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٨١).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٢٤٢).

(٧) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣).

وقالها إبليس قبل الجميع ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ فكان أن نالوا جميعًا حظهم من الدنيا ومضوا إلى جهنم وبئس المصير.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

* * *
* *
*

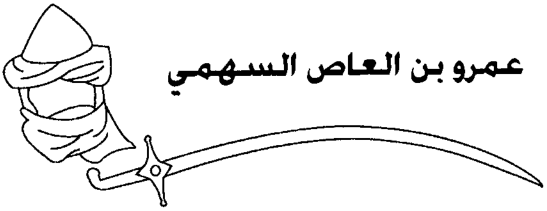

عمرو بن العاص السهمي

كانت كل تلك الفصول السابقة مقدمة وتوطئة للحديث عن عمرو بن العاص ﷺ؛ ولإيضاح البيئة التي ولد وعاش فيها، والمنبت الذي نبت فيه فتلقَّى منه قيمه وأعرافه ومفاهيمه وعقائده، وعاداته؛ فهو ابتداءً ابن هذه البيئة الجاهلية التي سلخ فيها قرابة نصف عمره قبل أن يشع فيها نور الإسلام، وأول قضية نورد التحقيق فيها هي قضية عمره؛ إذ اختلفت الروايات في عمره حوالي عشر سنين، وفي سنة وفاته كذلك، ونأخذ بترجيح ابن حجر في الإصابة؛ حيث يقول:

(قال يحيى بن بكير: عاش نحو تسعين سنة. قلت: قد عاش بعد عمر عشرين سنة وكان عُمْرُ عُمَرَ ثلاثًا وستين، قد ذكروا أنه كان يقول: أذكر ليلة ولد عمر بن الخطاب. أخرجه البيهقي بسند منقطع، فكان عمره لما ولد عمر سبع سنين)[١]، فإننا نستطيع أن نتعامل مع الأحداث بصورة واضحة بعد هذا التحديد.

فقد ولد وأبوه زعيم من زعماء قريش، وقد قاد بني سهم في حرب الفجار يوم شمطة، وعُمْرُ عمرو عشر سنين ينتعم في عز أبيه، ويرفل في جاهه وحيث كانت التجارة هي طريق الثراء في مكة فلم يكن العاص بن وائل تفوته المشاركة في تجارة الشتاء والصيف على أوسع نطاق، إضافة إلى مصدر آخر للثراء وهو صفة الجزارة في مكة[٢].

وبمقدار ما كان فخورًا بجاه أبيه وقائد قومه في حربهم في حرب الفجار بمقدار ما كان ممتلئًا غيظًا على أصحاب حلف الفضول من هاشم وزهرة وتيم الذين أرغموا أباه على دفع حق الزبيدي[٣]؛ فالأصل أن لا يراجع أباه ولا يوجد فوق سلطته سلطة، وابن عشر سنين يدرك أبعاد هذا الحلف ومن وراءه من الخصوم التقليديين لقومه من بني سهم وحلفائهم، إنه يشعر بحقد على دعاة هذا الحلف، وخاصةً الزبير بن عبد المطلب الذي

---

(١) الإصابة في تاريخ الصحابة (٣/ ٢)، (٣ ت)، (ص ٥٨٨).

(٢) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبي رابية، وهي في الأغاني.

(٣) يذكر ابن كثير أن بين حرب الفجار وحلف الفضول أربعة أشهر؛ فالفجار في شعبان والفضول في ذي القعدة، انظر: السيرة لابن كثير (١/ ٢/ ٢٧٠).

دعا إليه، وعبد اللَّه بن جدعان الّذي عُقِد في داره. إنه يرى نفسه قد دخل حلبة الصراع ضد بني هاشم منذ هذه السن، ويرى أن أمجاد بني هاشم في السقاية والرفادة قد أفقرت أبا طالب سيدهم فلا يملكون ثراء بني سهم عامة وأبيه خاصة، وتكرر الصدام ثانية بين بني هاشم وحلفائهم وبين قومه مرة ثانية، ولعلها كانت - وقد بلغ خمس عشرة سنة من عمره - « ذكر قاسم بن ثابت في غريب الحديث أن رجلًا من خثعم قدم مكة حاجًّا أو معتمرًا ومعه ابنة يقال لها: القتول، من أوضأ[١] نساء العالمين؛ فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيَّبها عنه، فقال الخثعمي: من يعديني[٢] على هذا الرجل؟ فقيل له: عليك بحلف الفضول؛ فوقف عند الكعبة ونادى: يا لحلف الفضول. فإذا هم يعنقون[٣] إليه من كل جانب وقد انتضوا[٤] أسيافهم يقولون: جاءك الغوث فمالك؟ فقال: إن نبيهًا ظلمني في ابنتي وانتزعها مني قسرًا. فساروا معه حتى وقفوا على باب داره فخرج إليهم؛ فقالوا له: أخرج الجارية ويحك؛ فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه، فقال: أفعل، ولكن متعوني بها الليلة. فقالوا: لا واللَّه ولا شخب لقحة؛ فأخرجها إليهم وهو يقول:

راح صحبي ولم أحي القتولا ... لم أودعهُمُ وداعًا جميلًا

إذ أجدَّ الفضول أن يمنعوها ... قد أراني ولا أخاف الفضولا

لا تخالي أني عشية راح الـ ... ـركب هنتم عليَّ أن لا أزولا

وذكر أبياتا أُخَر غير هذه.... »[٥].

لقد كانت مشاعره مضطربة تمامًا إثر هذه الحادثة، فنبيه بن الحجاج من سادة قومه بني سهم، ويؤلمه ويؤجج حقده أن يرغم من بني هاشم وتيم وزهرة لإعادة القتول بنت الخثعمي، لكنه من جهة أخرى يذكر أن أمه التي ولدته إنما هي سبي من سبايا العرب يعيره أقرانه فيها، وكيف تنقلت من رجل إلى رجل حتى حطت رحالها عند أبيه وولدته فهو يكره السبي ويحقد على هذه العادة. ولو ترك الأمر لنبيه بن الحجاج لاستمتع بالقتول، وانتقلت من صدر إلى صدر وبيعت كما بيعت أمه، وكلما ذكر أن أمه كان سبيًا كان يغيب عن وعيه ويشعر بالحياء حين ينتمي إليها، وبمقدار ما كان يفخر بأبيه وعزه وجاهه - بمقدار ما كان يحس بالعار والخجل حين يذكر تاريخ أمه، وأنها ليست حرة

(١) أوضأ: أجمل.
(٢) يعديني: يأخذ حقي من هذا الاعتداء.
(٣) يعنقون: يَفِدُون.
(٤) انتضوا: شهروا سيوفهم.
(٥) السيرة في البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢٥١).

من حرائر قريش كما هي الحال مع أم أخيه هشام الأصغر منه؛ فأم هشام هي حرملة بنت هاشم بن المغيرة حتى إنه حين يذكر فضائل أخيه هشام عليه يقول فيما يقوله: (.. وأمه بنت هاشم بن المغيرة وأمي سبية..)[١].

ولعله كان يعيد سبب اهتمام أبيه بأخيه هشام لهذا السبب؛ فكان يظهر حبه له وحدبه عليه أكثر منه؛ إذ يقول في القول السابق نفسه: (... وكان أحب إلى أبيه مني وتعرفون فراسة الوالد...)[٢].

وقد تكون هذه المعاملة لعمرو وتفضيل أخيه هشام عليه دعته ليفكر منذ وعيه ونضجه بالاعتماد على نفسه، وأن يعمل ليُكَوِّن ثروة خاصة به من خلال التجارة والجزارة التي ورثها عن أبيه، لقد كانت نباهته وذكاؤه الوقاد ملفتان للنظر، وبدأ يحس بقدرته على قرض الشعر منذ بلوغه مبلغ الرجال، ووجد نفسه وهو في سن التاسعة عشرة[٣] من عمره تتطلع إليه الأنظار، ويحرص أبوه على تزويجه بكريمة من عقائل قومه؛ فكان أن اختار له بنت سيد قومه منبه بن الحجاج واسمها ريطة، ولم يمر عام على زواجه إلا وكان ابنه العاص[٤] بن عمرو بن العاص يملأ عليه حياته؛ سماه على اسم أبيه وقرر أن يشق طريقه بنفسه؛ فكان أن مضى مع تجارة قومه إلى الشام.

الحظ السعيد:

وندع الحديث الذي ذكره السيوطي في حسن المحاضرة نقلًا عن ابن عبد الحكم لخالد بن يزيد راويه: « أخرج ابن عبد الحكم عن خالد بن يزيد، أنه بلغه أن عمرًا قدم إلى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش، وإذا هم بشماس من شماسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسبح، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه، وكانت رعية الإبل نُوبًا بينهم؛ فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر، فوقف على عمرو

(١، ٢) الاستيعاب في أسماء الأصحاب، هامش الإصابة لابن عبد البر (٤/ ٥٩٤).

(٣) ذكر ابن حجر في الإصابة (٣/ ٣٥٢): « وقال ابن سعد .... ويقال: لم يكن بين مولدهما إلا اثنتا عشرة سنة، أخرجه البخاري عن الشعبي وحزم بن يونس بأن بينهما عشرين سنة »، وقد أخذنا بهذا الرأي لإجماع الروايات كلها على وفاة عبد اللّه بن عمر؛ و وهو ابن اثنتين وسبعين سنة عام (٦٣) للهجرة. وبهذا يكون الفرق على أقل تقدير عشرين سنة بينهما؛ أما الأكثر فيصل الفرق لأربعين.

(٤) هو عبد اللّه بن عمرو، ورسول اللّه ﷺ هو الذي غير اسمه من العاص إلى عبد اللّه. انظر: الإصابة (٣/ ٥١).

فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روي، ونام الشماس مكانه، وكان إلى جانب الشماس - حيث نام - حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو، فنزع لها بسهم فقتلها؛ فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه اللَّه منها. فقال لعمرو: ما هذه؟ فأخبره عمرو أنه رماها بسهم فقتلها؛ فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه، وقال: قد أحياني اللَّه بك مرتين: مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية، فما أقدمك هذه البلاد؟ قال: قدمت مع أصحاب لي نطلب الفضل من تجارتنا؛ فقال له الشماس: وكم ترجو أن تصيب من تجارتك؟ قال: رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيرًا؛ فإني لا أملك إلا بعيرين فأملي أن أصيب بعيرًا آخر فيكون لي ثلاثة أبعرة. قال له الشماس: أرأيت دية أحدكم بينكم، كم هي؟ قال: مائة من الإبل؛ فقال له الشماس: لسنا أصحاب إبل، نحن أصحاب دنانير، قال: تكون ألف دينار؛ فقال له الشماس: إني رجل غريب في هذه البلاد، وإنما قدمت أصلِّي في كنيسة بيت المقدس أسبِّح في هذه الجبال شهرًا جعلت ذلك نذرًا على نفسي، وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع إلى بلادي، فهل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك عهد اللَّه وميثاقه أن أعطيك ديتين؛ لأن اللَّه تعالى قد أحياني بك مرتين؟

فقال له عمرو: أين بلادك؟ قال: مصر، في مدينة يقال لها: الإسكندرية؛ فقال له عمرو: لا أعرفها ولم أدخلها قط، فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها. فقال له عمرو: تفي لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق؟ فقال له الشماس: نعم لك اللَّه عليَّ بالعهد والميثاق أن أفي لك، وأن أردَّك إلى أصحابك».

إنها فكرة مغرية لشاب طموح يعرض عليه دخول مغامرات جديدة، وبلاد جديدة، واحتمالات ثروة طائلة تحقق آماله في ضربة واحدة، وعلى أسوأ الاحتمالات، أليس هو تاجر يريد أن يرتاد آفاقًا جديدة لتجارته. والشبان في مثل هذه السن يتباهون بمعارفهم وزياراتهم ومغامراتهم.

ولكنه يمضي وحده - وهنا مكمن الخطورة - وشاب مثل عمرو في دهائه وكياسته وفطنته حريص على أن يأخذ الحيطة اللازمة ويحرص في دافع قلبي عنيف - كذلك - أن يرتاد هذا المجهول، فبرزت ملامح شخصيته من خلال هذه الأسئلة، بعد أن أخذ عهد اللَّه وميثاقه على عرض الشماس. ومن ناحية ثانية؛ فماذا يريد الشماس منه إن أراد الغدر به وهو لم يُسِئْ إليه قط؟! وليس هو صاحب الثروة المغرية، أو الموقع الخطر؛ لكنه مع هذا يتصرف تصرف الكيس الذي يوازن بين المغريات والمخاطر.

(... فقال عمرو: كم يكون مكثي في ذلك؟ قال: شهرًا تنطلق معي ذاهبًا عشرًا، وتقيم عندنا عشرًا، وترجع في عشر، ولك عليَّ أن أحفظك ذاهبًا، وأن أبعث معك من يحفظك راجعًا، فقال له: أنظرني حتى أشاور أصحابي فانطلق عمرو إلى أصحابه. فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس، وقال لهم: أقيموا حتى أرجع إليكم، ولكن عليَّ العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني رجل منكم آنس به؛ فقالوا: نعم. وبعثوا معه رجلًا منهم).

لقد برزت عبقرية عمرو - على ترجيح صحة هذه الحادثة - منذ هذه السن المبكرة في سعة أفقه، ووضع كل الاحتياطات اللازمة لنجاح مهمته بالتعرف على الزمن، وطلبه الرفيق من إخوانه، واستشارتهم في الأمر، وإغرائهم بانتظاره مقابل شطر ماله، فهو في افتتاح تعامله مع مجاهيل الحياة إنسانٌ مصرٌّ على استكشاف هذه المجاهيل بحذر ووعيٍ شديدين.

(.. فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية، فرأى عمرو من عمارتها، وكثرة ما فيها من الأموال والخير ما أعجبه ذلك، وقال: ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال، ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد عجبًا، ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدًا فيها عظيمًا يجتمع فيها ملوكهم وأشرافهم. ولهم أكرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم، وهم يتلقونها بأكمامهم، وفيما اختبروا من تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم، إن من وقعت الأكرة في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم. فلما قدم عمرو الإسكندرية؛ أكرمه الشماس الإكرام كله، وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه، وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس؛ حيث يترامون بالأكرة وهم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم؛ فأقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة، أترى هذا الأعرابي يملكنا! هذا لا يكون أبدًا، وإن ذلك الشماسي مشى في أهل الإسكندرية، وأعلمهم أن عمرًا أحياه مرتين، وأنه قد ضمن له ألفي دينار، وسألهم أن يجمعوا ذلك فيما بينهم؛ ففعلوا ودفعوها إلى عمرو، فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلًا ورسولًا، وزودهما وأكرمهما حتى رجع عمرو وصاحبه إلى أصحابهما، فبذلك عرف مصر؛ مدخل مصر ومخرجها، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالًا. فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم

ألف دينار، وأمسك لنفسه ألفًا؛ قال عمرو: فكان أول مال اعتقدته وتأثلته[١])[٢].

لقد غادر عمرو مكة صعلوكًا يحلم بامتلاك ثلاثة أبعرة؛ وجاء ثريًا في المال وثريًّا في الخبرة وثريًّا في الأخبار والجاه والمغامرات، ولا نشك أبدًا في أن عَمْرًا قد تعرف على كل أسواق الإسكندرية، وبضائعها ورغبة أهلها؛ فهو إنسان - طلعة - يستغل كل ظرف لبناء مجده وجاهه وثروته، لقد أصبحت أسواق الشام وفلسطين ومصر مفتوحة أمامه، وذاق طعم الغنى والثروة التي تأتي من كد يمينه وتعب جبينه لا من ثروة أبيه وعطائه له. وأصبح همه أن يستمتع بلذات حياته وبهجتها؛ فيبدع شيئًا من المال يدخره للتجارة، ويبذخ في بعضه، ويشتري في بعض عشرات من الإبل تكون موردًا له في حياته من لبنها وأوبارها ولحمها للضيفان والأصحاب، ولم يعد يستطيع المكث بمكة كثيرًا؛ إنه يريد أن يجدد مغامراته، ويتابع السفر بتجارته، ليس في مكة من أحداث تذكر تقتضي مكثه فيها إلا حنينه لزوجته وولده، وزوجه وولده يعرفان أنه حين يسافر ويغامر إنما يُكوِّن لهما الثروة الطائلة والمجد التليد.

وهكذا تمرُّ السنون ويتسع إقبال عمرو على التجارة، ويُصاب بِشَرَهِ المال الذي يفتح سلم المجد له؛ فصار كما ذُكر عنه يتاجر ببضائع اليمن والحبشة؛ كالجلد ويحملها إلى الشام، وببضائع الشام؛ كالزبيب والتين ونحوهما ويحملها إلى اليمن. وكان يختلف بتجارته إلى مصر وهي من الأدم والعطر[٣]. وأورد الكندي في أخباره - أيضًا - أن عمرو ابن العاص كان فيما بين مواسم التجارة يحترف الجزارة بين جزاري مكة، وظل يمارس هذه الحرفة إلى ما بعد إسلامه حتى قيام الفتنة بين علي ومعاوية.

(وليس من شك في أن التجارة كانت المدرسة الكبرى التي تخرج فيها عمرو بن العاص الشاب والرجل، وكانت الجامعة التي علم فيها ما تعلم من أحوال الحياة، وما تلقى فيها

---

(١) تأثلته: كسبته.

(٢) فتوح مصر (ص ٥٣ - ٥٥)، هذا ونشير إلى احتمالين قويين لا ينفي أحدهما الآخر؛ الاحتمال الأول: صحة هذه الحادثة؛ فلا شيء يمنع من وقوعها خاصة حين نرى إلحاح عمرو بعد أكثر من ثلاثين عامًا على فتح مصر ومعرفته بمداخلها ومخارجها وخبرته في أرضها، واتباع كل السبل في إقناع أمير المؤمنين عمر ﷺ بفتحها؛ وهو الأرجح عندنا. والاحتمال الثاني: أن يكون الرواة قد صاغوا هذه الحادثة ووضعوها بعد ما شاهدوا فراسة عمرو في فتح مصر، وحكمها؛ وهو الأضعف خاصة وابن عبد الحكم من المؤرخين الثقات وقد رواه عن يحيى بن أيوب (صدوق) عن خالد بن يزيد (ثقة) أنه بلغه أن عمرًا قدم إلى بيت المقدس بتجارة.

(٣) القضاة والولاة للكندي (ص ٧).

من علوم السياسة، ومواقع الأمم والبلدان، وكانت رحلاته التجارية إلى الشام والحبشة ومصر خليقة بأن تطلعه على أسرار الأمم والشعوب، وأن ينفذ إلى عيوب الحكم ومواقع الخلل في الدول التي كانت له يد في الإشارة على الخلفاء بفتحها حين خامرهم التردد في هذا الأمر؛ فاكتسب من كل ذلك العلم والحكمة والحزم وثبات العزيمة والدهاء، وغير ذلك من جليل الصفات التي لا تجتمع إلا في القليل النادر من عظماء الرجال ممن أتم اللَّه نعمته عليهم، وهداهم إلى التوفيق والفوز في أعمالهم. وقد تجمعت هذه الصفات كلها في عمرو بن العاص، فأضحى فريدًا في عصره ونابغة بين قومه كما كان - رحمه اللَّه - نابًا من أنياب العرب، وليثًا من ليوثهم حتى عد من أبطالهم ودهاتهم، وذوي الرأي فيهم)[١].

بيئة قيادية:

لا بد أن نشير إلى أن عمرو بن العاص هو من قريش، وقريش هي بيئة القيادات؛ ادخرها اللَّه - تعالى - لتقود هذه الأمة بهذا الدين كما يقول - عليه الصلاة والسلام - فعن عائشة - رضي اللَّه عنها - أن النبي ﷺ دخل عليها؛ فقال: « **لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند اللَّه ﷻ** »[٢].

وقريش تملك مؤهلات القيادة؛ والتي كان أن نمت وترعرعت وتخرجت من مدرسة النبوة؛ وهذا حديث بين يدينا روي عن عمرو بن العاص ؓ يؤكد هذا المعنى.

فعن عبد اللَّه بن أبي الهذيل قال: كان عمرو بن العاص يتخولنا؛ فقال رجل من بني بكر بن وائل: لئن لم تنته قريش ليضعنَّ هذا الأمر في جمهور من جماهير العرب سواهم. فقال عمرو بن العاص: كذبت؛ سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **قريش ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة** »[٣].

وعن علي ؓ قال: « الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها، وفجارها أمراء فجارها، وإن أمرت عليكم قريشًا عبدًا حبشيًّا مجدعًا؛ فاسمعوا له وأطيعوا ما لم يخير أحدكم بين

---

(١) عمرو بن العاص لـ: عبد الخالق سيد أبو رابية (ص ٤٨)؛ والناب كناية عن القوة التي يهجم العرب بها على عدوهم.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/ ٢٥)، وقال فيه: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وهو عند أحمد (٤/ ١٠١)، (٦/ ١٥٨).

(٣) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٠٣)، والترمذي (٢٢٢٧)، (٤/ ٥٣)؛ وقال: حديث حسن غريب صحيح.

إسلامه وضرب عنقه، فإن خُيِّرَ بينَ إسلامه وضرب عنقه؛ فليقدم عنقه)[١].

وواضح من هذه الأحاديث - وهي غيض من فيض - أن قريشًا هي مدرسة تخريج القيادات والكفاءات، وعمرو بن العاص وهو في هذه البيئة - يملك عنصر الوراثة من جهة، ويملك عنصر الخبرة والكفاءة وإنماء هذه الطاقات من جهة ثانية؛ لقد رعاها في الجاهلية حتى غدا سيدًا في قومه وفي حياة أبيه - كما سنرى فيما بعد - وساعدته مكوناته الوراثية القرشية على ذلك حتى غدا في القمة من هذه السيادة.

(فعن جبير بن مطعم قال: قال رسول اللّه ﷺ: « **إن للقرشي مثلي قوة الرجل من غير قريش** »، قيل للزهري: ما عنى بذلك؟ قال: نبل الرأي)[٢].

الكامل[٣]:

وكانت العرب تسمي الكامل من أتقن القراءة والكتابة، وأتقن فنون الفروسية والرماية والسباحة، وأدرك عمرو بن العاص بثاقب نظره أن هذه الأمور هي عدة الرجولة الكاملة. ولن يرضى أن يكون أحد خيرًا منه، فلذلك أعطى هذه الخبرات حقها منذ نشأته، وتعلم هذه الفنون جميعًا بحيث لا يدع لأحد فضلًا عليه في شيء. أما عن صفاته الجسدية فندع تحليلها للعقاد بقوله:

(والمحفوظ لنا من صفات عمرو الجسدية قليل، ولكنه كاف إذا لم يكن بد من الاكتفاء منها بقسط له دلالة؛ فهو كما يؤخذ من حملة الأقوال التي وُصِفَ بها: « أدعج، أبلج، وافر الهامة، ربعة، أقرب إلى قصر القامة، يخضب بالسواد، عليه مهابة وشمائل نباهة، وسيادة ». كما يدل عليه ما تقدم من قول عمر فيه: « ما ينبغي أن يمشي أبو عبد اللّه إلا أميرًا »)[٤].

وإذا جاز أن يكون لهذا التكوين الجسدي أثر في أخلاقه، ودخائل طبعه؛ فذلك أثر آخر يعين أثر النسب المغموز من جانب أمه؛ وهو التماس (التعويض) بكل ما في النفس

---

(١) الحاكم والبيهقي، صحيح الجامع الصغير للألباني (٢/ ٧٥٤)، (٢/ ٤٠٠٦)، وقال عنه: صحيح.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/ ٢٦)، وقال فيه: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح.

(٣) وكان الكامل عندهم في الجاهلية، وأول الإسلام: الذي يكتب بالعربية، ويحسن العوم والرمي. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٥٤٢).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٨٨).

من حول وحيلة، وحفز الهمة إلى مكان يسطع فيه المرء سطوعًا يداري المغمز في النسب والنقص في المظهر؛ فيروع القلب بالسطوة والشارة إذا اجترأت عليه العيون أول نظرة أو اجترأت عليه الألسنة بالثلب والمهانة، رجل متهم النسب قصير؛ ولكنه لا يضار بذلك في مقام الفخر بين ذوي الحسب والبسطة في عظماء الرجال.

وإذا اعتزم الرجل هذه العزمة، وكان من أصحاب الهمة والشهامة، أو ما نسميه اليوم بالقوة الحيوية؛ فأخلق به أن يبلغ ما يصبو إليه، وأن يذهب بعيدًا في مسعاه الذي توفر عليه.

أما أن عمرًا كان من أصحاب (القوة الحيوية)؛ فذلك ظاهر في احتفاظه بحضور ذهنه، ومضاء عزمه إلى تلك السن العالية التي تجاوز بها قوم التسعين، ولم يهبط أحد بها إلى ما دون السبعين؛ فإنه ليجيش به هذا الطبع، وقد أناف على الخامسة والأربعين إلى فتح البلاد، وتقليب الدول، وافتتاح المساعي إلى المجد والرئاسة، كأنه ناشئ لم يزل في بادرة الشباب، ومستهل المغامرات والمجازفات في سبيل الشهرة والسلطان! وقد وصفت لنا شارة عمرو هنا وهناك؛ فإذا هو في كل صفة من هذا القبيل عظيم العناية بما يروع الناس من هيبته، وفخامة مرآه، وليست مشيته التي أشار إليها الفاروق - بأقل ما احتفل به لتلك الشارة والفخامة)[1].

محمد بن عبد اللّه:

لكن هناك شابًّا واحدًا في مكة لا يفكر أحد في منافسته من حيث خلقه وعفته وفضله هو: محمد بن عبد اللّه الهاشمي، والذي أطلقت عليه مكة لقب « الأمين »؛ لما تعرف فيه من علو هذا الخلق. إنه ثقيل على نفسه لكن الذي يخفف من هذا الثقل أنه لا يدخل في حلبة الصراع مع الشباب، ولا يحضر مجالس لهوهم وسمرهم، ولا يقصد مباذلهم وتهتكهم. لقد غامر بالتجارة - كما غامر عمرو - وربح ثقة سيدة مكة الأولى « خديجة بنت خويلد »، وغدا يتاجر بمالها الذي أخذ ينمو ويكثر، وعندما كان عمرو في الثلاثين من عمره وأعيد وضع الحجر الأسود - ارتفع شأن محمد أعلى ما يكون في قومه، حين تحزبت الأمور وكادت الحرب أن تقع من أجل شرف وضع الحجر الأسود في مكانه؛ (فقرَّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا ثم تعاقدوا وبني عدي بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا لعقة الدم؛ فمكثت قريش على ذلك

---

(١) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد (ص ٢٥، ٢٦).

أربع ليالٍ أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة - وكان يومئذ أسن قريش كلها - قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا؛ فكان أول داخل رسول اللَّه ﷺ، فلما رأوه قال: هذا الأمين، رضينا. هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: « **هلموا إليَّ ثوبًا** »، فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: « **لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا** »، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بني عليه)[1]. ورغم أن الفارق في السن بين عمرو ورسول اللَّه ﷺ سبع سنين لكنه في طموحه لا يرضى أن يكون أحد فوقه، فجاء محمد بن عبد اللَّه، وفاز بهذا المجد على مستوى مكة، فلم يعد لديه قدرة على احتلال هذا المركز الذي تبوأه فتى بني هاشم، ومضى في طريقه ينافسه في المال، فما يكاد يحضر من سفر إلا ويتأهب لآخر حتى يرتفع في ثرائه ويسبق الجميع.

بين عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد:

عمارة وعمرو هم من حزب واحد هو: حلف الأحلاف؛ فمخزوم وسهم في صف واحد ضد هاشم وحلفائها، لكن الصراع داخل الحزب الواحد لا ينقطع، وخاصة بين الشباب الطامحين المتنافسين على الشهرة والمجد؛ فقد كان عمارة بن الوليد يملك صفتين يبذُّ بهما عمرو بن العاص؛ هما: جماله وشاعريته، وكثيرًا ما يتحدث الناس عن عمارة أنه أجمل فتيان قريش، وأما شاعريته فقد ذاق منها الويل بعد منافرة وتنافس تم بينهما كما تذكر الحادثة الآتية:

(قدم رجل من تجار الروم بحُلة من لباس قيصر على أهل مكة، فأتى بها عمارة ابن الوليد فاستغْلاها، وقال: لن نقدم لهم عونًا في بني سهم، فقال عمرو: قد أخذتها اشتراها بمائة بعير، ثم أقبل يخطر فيها حتى انتهى إلى بني مخزوم، فناداه عمارة: أتبيع الحلة؟ فغضب عمرو، والتفت إلى عمارة، فقال له:

أروها عنكم وغلت عليكم ... وأعطينا بها مائة حقاقًا

وقلتم لا نطيق ثياب سهم ... وكل سوف يلبس ما أطاقا

فغضب عمارة، وقال: يا عمرو! ما هذا التهور إنك لست بعتبة بن ربيعة، ولا بأبي سفيان

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٢، ١٣٣).

ابن حرب، ولا بالوليد بن المغيرة، ولا سهيل بن عمرو، ولا أبي بن خلف.

فقال عمرو: إن فيَّ من كل واحد منهم خير ما فيه؛ من عتبة حلمه، ومن أبي سفيان رأيه، ومن سهيل جوده، ومن أُبَي نجدته، وأما الوليد فواللَّه ما أحب أن لي كل ما فيه من خير وشر، ولكنك واللَّه ما لك عقل الوليد ولا بأس ابن حرب ولا لسان أبي الحكم....)[١].

ويعطينا هذا الجواب إضاءات جديدة على شخصية عمرو بن العاص؛ فهو يرى نفسه في قمة السيادة من قريش، فهو يرى نفسه قد جمع كل فضائلها، وراح يباهي بها منافسه عمارة بن الوليد، إنه يرى في دهائه وذكائه ما يفوق به حتى هذه القيادات؛ لكن السن تحول دون تفوقه عليهم، والناس يقدرون الكبار مهما كان وصفهم.

ومن جهة ثانية وفي لحظة انفعاله دفعته حميته إلى الانتقاص من عمارة بن الوليد بحيث جرده من كل الفضائل، لقد كان عمرو واثقًا بنفسه معتدًّا بشخصه فخورًا بقومه، ويدرك مواطن الفخار، ومواضع العظمة عند الأشراف والسادة من قومه.

أمَّا عمارة فقد بيَّت ثأرًا من عمرو على ما أنزل به من كيد.

(وانصرف عمارة فأمر بجزور فنحرت على الطريق (طريق عمرو)، وأقبل عمرو فقال: لمن هذه الجزور فقيل: لعمارة. فقال: أطعمنا منها يا عمارة، فضحك منه ثم قال:

ومسغبة الأطابب من قريش ... ولم يرِ كأسنا إلا دهاقا
وتلبس في الحوادث كل زعف ... وعند الأمن أبرادًا رقاقا

فوقع الشر بينهما؛ فقال عمرو:

لعمرو أبيك والأخبار تنمي ... لقد هيجتني يابن الوليد
فلا تعجل عمارة إن سهمًا ... كمخزوم بن يقظة في العديد

فأجابه عمارة بن الوليد:

ألا يا عمرو هل لك في قريش ... أب مثل المغيرة والوليد
وجد مثل عبد اللَّه ينمي ... إلى عمرو بن مخزوم بعود[٢]
إذا ما عدت الأعواد نبعًا ... فما لي في الأباطح من نديد

(١) مختار الأغاني لابن منظور (٥/ ٢٨٤).
(٢) بعود: بأصل.

وإنـي لـلـمـنـابـذ مـن قـريـش ... شـجـىً في الحلـق من دون الـوريـد
أحـوط ديـارهـم وأذود عـنـهـم ... وأصبـر في وغـى الـسـوم الشـديـد
وأبـذل مـا تـضـن بـه رجـال ... وتـطـمعـنـي الـمـروءة في المزيـد
وإنـك من بـنـي سـهـم بـن عـمـرو ... مكـان الـردف من عـجـز القعـود[1]
وقـد عـلمـت سـراة[2] بـنـي لـؤي ... بـأنـي غـيـر مـؤتـشـب[3] زهـيـد
وكـان أبـوك جـزارًا وكـانـت لـه ... فـأس وقِـدر مـن حـديـد)[4]

لقد هزم عمرو هزيمة منكرة، ورغم أنه شاعر لكنه لا يبلغ شأو عمارة بن الوليد في هذا المضمار وحفظ هذه الهزيمة في نفسه إلى الوقت المناسب.

الحدث الجلل:

وشغل عمرًا عن عمارة، وشغل مكة كلها الحدث الجديد الذي جاء به محمد ابن عبد اللَّه - فتى بني هاشم - أنه نبي يأتيه الوحي من السماء ويحدَّث من اللَّه، واجتمع الملأ من قريش لمعالجة هذا الحدث، ثم انتهوا إلى عدم الاهتمام به كثيرًا حفاظًا على وحدة كلمة مكة، مع ميلهم إلى تكذيب هذا الادعاء - في رأيهم.

ولكن الأمر شغلهم يوم راح محمد يهاجم آلهتهم ويعيب دينهم ويسفه أحلاهم، ويضلل من مضى من آبائهم، وكانت محاولات رأب الصدع التي قام فيها مشيخة قريش لكنها مضت أدراج الرياح، فمحمد ماضٍ في طريقه، والأزمات تشتد في صفوف قريش، أما عمرو فقد سُرَّ من أعماقه أن بدأ الملأ من قريش يخاصمون محمدًا ﷺ، ويهاجمونه؛ فبذلك يخلص من منافسه، ويتقلص مركزه في مكة.

(وحقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادى بعضهم بعضًا)[5].

ولم يُعِرْ عمرو لجوهر الحدث اهتمامه؛ فالكبار والسادة من قريش قد رفضوه ابتداءً وانتهاءً - وأبوه العاص بن وائل على رأس المكذبين - وهم أدرى بأمور العقيدة منه، ووجد هذا التكذيب هوى في نفسه هو أن يسقط محمد ﷺ من قائمة منافسيه ولن يهاب أحدًا بعده.

(١) الردف من عجز القعود: مؤخرة الجمل.
(٢) سراة بني لؤي: سادتها.
(٣) غير مؤتشب: غير صريح في النسب.
(٤) مختار الأغاني لابن منظور (٥/ ٢٨٥).
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٧٧).

عمارة مقابل محمد:

وها هو عمارة بن الوليد منافس عمرو بن العاص في الشرف - يقدمه سادة قريش ندًّا لمحمد بن عبد اللَّه.

قال ابن إسحاق: (ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول اللَّه ﷺ وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة؛ فقالوا له - فيما بلغني -: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فلك عقله ونصره، اتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك - هذا - الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم فنقتله؛ فإنما هو رجل برجل. فقال: واللَّه لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا واللَّه ما لا يكون أبدًا. فقال المطعم بن عدي: واللَّه يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره؛ فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا. فقال أبو طالب للمطعم: واللَّه ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لك؛ فحقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادى بعضهم بعضًا)[1].

وكل الذي كان يعني عمرًا من هذا الأمر هو إجماع قريش على اعتبار منافسه عمارة ندًّا لمحمد بن عبد اللَّه الفتى الهاشمي، والتركيز على أنه أنهد فتى في قريش وأجمله، وهو يعرف عمارة شابًّا منهمكًا عربيدًا همه لذته وهواه، ومجالس الشراب والمجون التي يعيشها معه لا ترفعه إلى هذا المقام، وكل ما يعنيه من أمر مكة وأمجادها هو كونه على الساحة القرشية نابه الذكر، عريق المجد، بين هؤلاء الشباب. أما أمر العقيدة فلا يعني عمرًا بشيء؛ فهو من اختصاص سدنة قريش واختصاص أبيه وأمثاله، أما أمر الثراء والسياسة والشهرة فهو الذي يعنيه.

وحين حانت له فرصة رفقة عمارة بن الوليد في رحلة إلى الحبشة سارع للاستجابة لذلك تاركًا أمر صراع العقيدة بين محمد وقومه لأبيه وأقرانه من قريش.

الانتقام:

(وذلك أن عمارة خرج هو وعمرو بن العاص السهمي، وكانا قد خرجا تاجرين إلى النجاشي، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش ووجهًا، وكلاهما في جاهليته شاعر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٧٧).

مشرك فاتك، وكان عمارة معجبًا بالنساء وصاحب محادثة، فركبا السفين ليالي فأصابا من خمر معهما، فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو: قبليني، فقال لها عمرو: قبلي ابن عمك. فقبلته. وحذر عمرو على زوجته فرصدها ورصدته، وجعلا إذا شربا أقلّ عمرو من الشراب، وأرق لنفسه بالماء مخافة أن يسكر، فيغلبه عمارة على أهله، وجعل عمارة يراودها عن نفسها فامتنعت منه، وإن عمرًا جلس على ناصية السفينة يبول، فدفعه عمارة إلى البحر، فلما وقع فيه سبح حتى أخذ القلس[1].

فارتفع فظهر على السفينة، فقال له عمارة: أما واللَّه يا عمرو لو علمت أنك تحسن السباحة ما فعلت، فلما قال ذلك عمارة لعمرو اضطغنها في نفسه، وعرف أنه أرد قتله، ومضيا على وجههما.

كان عمرو في قلبه مرجل غضب ممتزج بحقد، لكنه تعلم من تجربته الأولى أن يخفي ما عنده، ولم يعد عنده شك أبدًا أن عمارة كان قد بيت قتله لينزو على امرأته، ورصد قراره الأخير أنه لا بد أن ينتقم من عمارة ويقتله، فنار الثأر تتأجج في صدره، وهنا تتفق عبقريته في دراسة كل الاحتمالات التي يمكن أن تنتج عن قتله ودراسة الطرق المتعددة الكفيلة بإبادته، وخرج بحل عجيب لمجابهة الاحتمالات الناتجة عن قتله بالصيغة الآتية:

(فلما نزلا إلى الحبشة كتب عمرو إلى أبيه العاص: أن اخلعني وتبرأ مني ومن جريرتي إلى بني المغيرة وجميع بني مخزوم، وخشي على أبيه أن يتبع بجريرته وهو يترصد لعمارة ما يترصد، فلما ورد الكتاب على العاص بن وائل مشى في رجال من قومه فيهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج إلى الوليد بن المغيرة وغيره من بني مخزوم؛ فقال: إن هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم، وكلاهما فاتك صاحب شر، وهما غير مأمونين على أنفسهما، ولا ندري ما يكون، فإني أبرأ إليكم من عمرو وجريرته وقد خلعته؛ فقالت بنو المغيرة: أنت تخاف عمرًا على عمارة، وقد خلعنا عمارة وتبرأنا إليك من جريرته فخل بين الرجلين؛ فقال السهميون: قبلنا فابعثوا بمكة أن قد خلعناهما، تبرأ كل واحد منا من صاحبه؛ فبعثوا مناديًا فنادى بمكة بذلك، فقال الأسود بن المطلب: واللَّه ظل دم عمارة بن الوليد إلى آخر الدهر...).

والأسود وحده هو الذي عرف دهاء عمرو، وأدرك أنه الظافر الوحيد في النهاية.

---

(١) القلس: حبل ضخم من ليف من حبال السفينة.

أما كيفية إنهاء عمارة؛ فهي أغرب نهاية لا يمكن أن تقع إلا على يدي عمرو نفسه، وبدهائه الرهيب الذي يضع الهدف ويمضي بعده بكل ما أوتي من ذكاء ودهاء وعقل للوصول إليه.

(فلم اطمأنا بأرض الحبشة لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي، فأدخلته فاختلف إليها، فجعل إذا رجع من مدخله يخبر عمرو بن العاص بما كان من أمره، فجعل عمرو يقول: ما أصدقك أنك قدرت على هذا الشأن إن المرأة أرفع من ذلك، فلما أكثر على عمرو ما كان يخبره، وكان قد صدقه ولكنه أحب التثبت، وأراد أن يأتيه بشيء لا يستطيع دفعه إن هو دفعه إلى النجاشي.

وكانا في بيت واحد، وكان عمارة يغيب عنه حتى يأتيه في السحر، وجعل عمارة يدعوه إلى أن يشرب معه، فيأبى عمرو ويقول: هذا يشغلك عن مدخلك. فقال له عمرو يومًا: إن كنت صادقًا فقل لها فلتدهنك من دهن النجاشي الذي لا يدهن من غيره، فإني أعرفه وإنني به أصدقك. ففعل عمارة؛ فجاء بقارورة من دهنه، فلما شمها عمرو عرفها وقال: أشهد أنك صادق...).

وهكذا وضع يده على مقتله؛ فقد وصل إلى يده ما يبيح دم عمارة عند النجاشي، وفي الوقت نفسه يرفع مقامه وموقفه عند النجاشي.

(قال عمرو: أشهد أنك صادق، لقد أصبت شيئًا ما أصابه أحد من العرب من أسرار الملك، ما سمعنا بهذا).

وهو يريد - حتى - أن ينفي أي علاقة له بالمؤامرة الرهيبة على عمارة، إنه يتقن فن التخطيط بحيث لا يمكن أن ينتبه إليه أحد فيما يتآمر فيه.

(وسكت عنه حتى إذا اطمأن).

ودخل على النجاشي فقال: يا أيها الملك إن ابن عمي سفيه، وقد خشيت أن يعرَّني عندك أمره، وقد أردت أن أعلمك شأنه، فلم أفعل حتى استثبت، وإنه قد دخل على بعض نسائك فأكثر، وهذا من دهنك قد أعطيه ودهنني منه.

فلما شم النجاشي الدهن قال: صدقت، هذا دهني ولا يكون إلا عند نسائي.

ثم دعا بعمارة، فقال له: (إني أكره أن أقتل قرشيًّا، لو قتلت قرشيًّا لقتلتك)، وفعل به ما هو شر من القتل وأفظع:

(ثم دعا بالسواحر، فجردوه من ثيابه، ثم أمرهن فنفخن في إحليله، ثم خلى سبيله فخرج هائمًا على وجهه مع الوحش، وإن رأى الإنس هرب منهم، وطلع له شعر غطى جميع بدنه، ولم يزل كذلك مدة أيام النبي ﷺ وأيام أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر)[١].

(فلم يزل بأرض الحبشة حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، فخرج له عبد الله ابن ربيعة، وكان اسمه بحيرًا قبل أن يسلم، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، فرصده على ماء بأرض الحبشة وكان يرده مع الوحش، فلما وجد ريح الإنس هرب حتى إذا أجهده العطش ورد فشرب حتى تملى، وخرجوا في طلبه، فقال عبد الله بن أبي ربيعة: فسعيت إليه فالتزمته؛ فجعل يقول: يا بحيرًا أرسلني؛ فإني أموت إن أمسكتموني. قال عبد الله: فقبضته فمات في يدي فواريته ثم انصرفت)[٢].

لقد أخذ ثأره من عمارة بنفسه بدون أن يلوث يده بدمه (قال عمرو بن العاص):

نعلم عمارة إن من شر شيمة ... لمثلك أن يدعى ابن عم له ابنما
إذا كنت ذا بردين أحوى مرجلًا ... فلست براء لابن عمك محرمًا
إذا المرء لم يترك طعامًا يحبه ... ولم ينه قلبًا غاويًا حيث يمما
قضى وطرًا منها يسيرًا وأصبحت ... إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما
وليس الفتى إما أنمت عروقه ... بذي كرم إلا إذا ما تكرما[٣]

لقد كان رجلًا في الثأر لعرضه، وكان رجلًا في الثأر لنفسه، وحارب بعقله وفكره قبل أن يحارب بسيفه، ورمى عمارة بن الوليد في شر فعله، وراح ينعي عليه فقده القيم العربية التي فخر بها كل قرشي وكل عربي، وأن المتعة والشهوة ولذة الجنس ليست كل شيء في هذه الحياة، والكريم حقًّا هو الذي يحافظ على طيب عنصره وحسن أصله ومحتده، وليس فقط هو الذي ينتمي إلى آباء كرام ونسب شريف، ولم يخش أن يعلن شعره هذا على الملأ، ولو عرفت مخزوم أنه هو الذي قاده إلى مصرعه؛ فقد كان خلع أبيه له بعد خلع بني مخزوم لعمارة؛ يعني بطلان دم عمارة وعدم مسؤولية بني سهم عن دمه.

---

(١) هذا المقطع من تجريد الأغاني (ص ١٥٢٧).
(٢) مختار الأغاني لابن منظور (٥/ ٢٨٦ – ٢٨٨).
(٣) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٢٣٢).

كما عرفت قريش أن جاه عمرو بن العاص عند النجاشي غدا في الذروة حين حفظ شرف قريش ورمى عمارة بسوء فعله، وغدا عمرو بن العاص حديث شباب مكة بعد حديث الإسلام ورسول الإسلام محمد بن عبد اللَّه.

* * *
* *
*

وجهًا لوجه
ضد الإسلام والمسلمين

عاد عمرو بن العاص من الحبشة بدون عمارة بن الوليد، وقص على قريش قصته في تعرضه لنساء النجاشي، وكيف فعل النجاشي به، ولم يتمكن بنو مخزوم أن يفعلوا شيئًا بعد خلعهم لعمارة، لكن همَّ قريش كله كان متجهًا لحرب محمد وأصحابه، (ثم إن قريشًا انتمرت رويتهم واشتد مكرهم، وهموا بقتل رسول اللَّه ﷺ أو إخراجه حين رأوا أصحابه يزدادون ويكثرون؛ فعرضوا على قومه أن يعطوهم ديته ويقتلوه، فأبى ذلك قومه ومنع اللَّه ﷻ رسوله بحمية رهطه، واشتدوا على من اتبعه على دين اللَّه من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم... فلما فُعِل بالمسلمين ذلك أمرهم رسول اللَّه ﷺ حين دخل شعب بني عبد المطلب بالخروج إلى أرض الحبشة)[1].

وشعرت مكة أن شبابها يتسللون لواذًا، يبحثون عن المسلم فلا يرونه. وكانت المفاجأة الصاعقة أن استيقظ عمرو على أخيه هشام فلم يجده، لقد فر فيمن فر إلى أرض الحبشة؛ أما بنو الحارث بن قيس بن عدي فقد خرجوا جميعًا وهم سبعة، وأصبح بنو سهم يحملون العار في أولادهم أنهم أكثر الناس تبعًا لمحمد - خصوصًا - وهشام ورفاقه السبعة، هم أبناء العلية من بني سهم، أبناء سادة بني سهم: العاص بن وائل، والحارث بن قيس بن عدي.

وجن جنون العاص أبي عمرو؛ كيف يفر ابنه منه دون علمه ويخذله ويتبع محمدًا على دينه وهو أحب ولده إليه، وشعر عمرو في أعماقه على غضب أبيه على أخيه هشام الذي طالما فضله عليه وآثره عليه من قبل، وغدت مكة قلقة للأعداد الكبيرة التي تغادر إلى الحبشة؛ فاجتمع ملؤهم وقرروا مواجهة محمد على أرض الحبشة، ولم لا يفعلون ذلك وبين أيديهم عمرو بن العاص صديق النجاشي؟ ولأول مرة تتجه أنظار مكة إلى عمرو ابن العاص بدل أن تتجه إلى أبيه العاص، وتناسوا خلافاتهم وأجمعوا أن يبعثوا وفدهم إلى الحبشة؛ فاختاروا شابين من أعدى العدوين.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٨٥)، عن مغازي موسى بن عقبة.

اختاروا عمرو بن العاص من بني سهم، واختاروا عبد اللَّه بن أبي ربيعة من بني مخزوم (وائتمروا بينهم أن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، ولم يتركوا بطريقًا من بطارقته إلا أهدوا له هدية، وكان أعجب مما يأتيه الأدم؛ فجمعوا له أدمًا كثيرًا ثم بعثوا بذلك عبد اللَّه بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وأمروهما بأمرهم؛ وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم)[١].

مضى عمرو يحدوه الأمل إلى الحبشة بأن يحقق مجدًا ضخمًا إلى أمجاده، وأن ينتصر على محمد وأصحابه، ويأتي بهم أسارى يجرون أذيال الخيبة والذل، يقرر مصيرهم الملأ من قريش؛ فيصبح في هذا الحدث محور مكة وحديث شبابها ونسائها.

وتحدثنا أم سلمة - أم المؤمنين - عن هذه المهمة؛ فتقول:

(فخرجا حتى قدما على النجاشي - ونحن بخير دار عند خير جار - فلم يبق بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه؛ فقالا له:

أيها الملك: إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد اللَّه بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن لا يسمع كلامهم النجاشي، وقالت: فقال بطارقته حوله:

صَدَقا أيها الملك؛ قومهم أعلم بهم منا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم...).

لقد كان عمرو بن العاص هو أذكى وأدهى قريش، فبعد أن هيأ الجو النفسي للنجاشي وبطارقته، راح يتحدث بعبقرية فذة في تسفيه وضع المسلمين.

فهم غلمان سفهاء ليس فيهم من ذوي الرأي والحجى أحد.

وجريمتهم أنهم خرجوا على دين قومهم أولًا، ولو أنهم دخلوا في دين الملك لغفرت

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (عن الزهري)، (١/ ٢٢٤).

لهم هذه الجريمة، ولكنهم لم يدخلوا في دين الملك؛ وهذه جريمة ثانية، أن يأووا إليه وهم خارجون على دينه ومحاربون له؛ وهذه هي الجريمة الثانية. أما الجريمة الثالثة: فهم زناديق جاؤوا بدين جديد ابتدعوه لا يعرفه قومهم ولا يعرفه الملك.

وأشراف مكة وقادتها هم الذين بعثوا بعمرو وصاحبه يطلبون تسليم هؤلاء السفهاء إليهما؛ لتأديبهم والضرب على سفاهتهم بأيد من حديد، وأولو الشرف أعلم بعيوبهم ونقائصهم وأدرى بماضيهم وأوضاعهم. وهذه الخطة قد أجمعت عليها مكة في قطع الطريق على المسلمين أن يصلوا إلى النجاشي؛ وذلك حين أوصت عمرًا وعبد اللَّه أن يوزعوا هداياهم على البطارقة بصفتهم مستشارين للملك.

وقد تم هذا فعلًا ونفذت الخطة بدقة كاملة، وبمستوًى عالٍ من الذكاء، لكن العنصر الذي لم يكن بالحسبان هو شخصية النجاشي العبقرية - واسعة الأفق - فبعد أن سمع مشورة دهاقنة سياسته: صَدَقا أيها الملك؛ قومهم أعلم بهم منا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما؛ فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال:

لاها اللَّه[1] إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول اللَّه ﷺ فدعاهم؛ فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول واللَّه ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا - وقد دعا النجاشي أساقفته - فنشروا مصاحفهم حولهم؛ وسألهم فقال لهم:

ما هذا الذي فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من الملل؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب؛ فقال له:

أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع

---

(١) لاها اللَّـه: الهاء بدل من الواو؛ أي: لا واللَّـه. هكذا جاء في الحديث: « لاها اللَّـه إذن » وقال ابن مالك: في اللفظ بها أربعة أوجه.

الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث اللَّه إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى اللَّه لنوحده ونعبده، ونخلع من كنا نعبد نحن وآباؤنا – من دونه – من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدعاء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد اللَّه وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدَّوا عليه أمور الإسلام؛ فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند اللَّه؛ فعبدنا اللَّه وحده ولم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا؛ فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة اللَّه – تعالى – وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألَّا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن اللَّه شيء؟ فقالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ. قالت: فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١]. قالت: فبكى النجاشي حتى اخضلت[1] لحيته، وبكت أساقفته[2] حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة؛ انطلقا. فلا واللَّه لا أسلمهم إليكما..).

كان عمرو بن العاص بعد أن حنق كثيرًا لدعوة جعفر وأصحابه، وصك أسنانه غيظًا لهذه الدعوة، لكنه لا يستطيع أن يواجه النجاشي بعد أن حسم الأمر مع بطارقته بأنه لا يمكن إلا أن يسمع منهم. كان عمرو وهو يستمع لجعفر؛ كأنما يتجرع العلقم جرعة بعد جرعة، وهو يرى بين عينيه بناءه ينهار لبنة بعد لبنة بعد أن أحكمه وأقامه، وكان يستمع لجعفر ولا يجرؤ أن يرد عليه في مجلس الملك، وحين يسمع ما يقول جعفر يراه ينطق بالحكمة البالغة وحسن العرض والقدرة على الإقناع؛ فيزداد قهرًا وغيظًا؛ حتى ليكاد يتفجر من جوانبه، فقد استطاع جعفر بن أبي طالب الهاشمي ابن عم محمد ابن عبد اللَّه أن يعرض دين قريش في أقبح صورة، وأن يقدم الإسلام في أجلى صورة وأجمل عرض.

---

(١) أخضلت لحاهم: ابتلت. (٢) أساقفته: علماء النصارى.

كما استطاع من جهة ثانية - وبعبقرية نادرة حطمت عبقرية عمرو - أن يضع قادة مكة في قفص الاتهام وموقع الظلمة والطغاة (فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة اللَّه - تعالى - وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث)؛ بينما عرض المسلمين في ثوب المضطرين الأبطال الصابرين على دين اللَّه وشرعه، وعلم كم يؤثر حسن أداء جعفر وهو يثني على الملك وحسن جواره وطيب أحدوثته، وأن هذه هي أربح ورقة طرحها جعفر في حديثه - حسب تقدير عمرو.

فلما قهرونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألَّا نظلم عندك أيها الملك.

لكن الذي ذبحه من الوريد إلى الوريد هو طلب النجاشي أن يستمع للقرآن؛ فهو يعرف سحر كلام محمد الذي يقول عنه: إنه من عند اللَّه، لقد ذهل به قادة قومه؛ فعتبة ابن ربيعة قال عنه: « ورأيي أني سمعت قولًا واللَّه ما سمعت مثله قط، واللَّه ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه؛ فواللَّه ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم »[1].

والوليد بن المغيرة - سيد بني مخزوم وعظيم قريش - قال فيه:

« واللَّه إن لقوله حلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاد بقول هو سحر، يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته »[2].

فهو نعم يفعل فعل السحر في النفوس؛ فماذا يفعل في نفس النجاشي؟ وكانت التلاوة، وكان حسن اختيار جعفرٍ لصدر سورة مريم الرخي الندي الذي يعرفه الأساقفة والنجاشي على رأسهم، إنهم يقرؤون قصة زكريا ويحيى عندهم فما تفعل فيهم ما فعلت هذه التلاوة، وكان البكاء والنحيب من الجميع.

كان عمرو يستمع - ولأول مرة - يجد نفسه وجهًا لوجه أمام كلام محمد الذي يقول عنه: إنه من عند اللَّه، ولا مجال له ألَّا يستمع؛ فهو لا يستطيع الانسحاب من مجلس الملك، ويأتيه صوت ضعيف من أعماق أعماقه أليس هذا بالحق؟ من يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام إلا من عند اللَّه؟! وأي بشر يستطيعه؟ ثم يفيق من هول هذا النداء، ويذكر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٧٩).

أنه مبعوث قريش، وأن مكة كلها تنتظر قدومه بهؤلاء الأسارى مقرنين في الأغلال؛ فيتمرد ويتمرد ويصبر، وكأنما هو على مرجل يغلي من نار إلى أن انفض المجلس وحسم النجاشي الأمر قائلًا لعمرو وصاحبه: انطلقا، فلا واللّٰه لا أسلمهم إليكما.

تخطيط وذكاء:

وكما خطط عمرو للقضاء على عمارة بن الوليد - وهو صديقه وعلى دينه - تفتقت عبقريته عن فكرة خبيثة غادرة كفيلة بأن تدمر الوجود الإسلامي كله في الحبشة.

تحدثنا أم سلمة عن هذا التخطيط الرهيب؛ فتقول:

« فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: واللّٰه لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل خضراءهم؛ فقال له عبد اللّٰه بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا -: لا تفعل؛ فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال: واللّٰه لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد. قالت: ثم غدا عليه من الغد؛ فقال له:

أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا؛ فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه - قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط - فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول واللّٰه ما قال اللّٰه فيه، وجاءنا به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن.

قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ؛ يقول: هو عبد اللّٰه ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ».

ورأى عمرو أنه قد قص أعناقهم بهذا الجواب؛ فهو يعرف رأي البطارقة بتأليه عيسى ابن مريم رغم أنه لا يعنى بأمور الدين والعقيدة، لكن السياسة علمته أن يتعرف على كل شيء، وجاء جواب النجاشي كوقع الصاعقة على رأسه.

(قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال. فقال: وإن نخرتم واللّٰه.

اذهبوا فأنتم شيوم[١] بأرضي، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبرًا من ذهب[٢]، وأني آذيت رجلاً منكم، ردوا عليهم هداياهم؛ فواللّٰه ما أخذ اللّٰه مني الرشوة حين رد عليَّ مُلكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

---

(١) شيوم: آمنون. (٢) دبرًا من ذهب: جبلًا من ذهب.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار عند خير جار)[١].

هل دبر الانقلاب على النجاشي:

وهذا الاحتمال قوي جدًّا فصلته وثيقة مع البطارقة؛ حيث قدم لكل بطريق هديته قبل لقاء النجاشي، ولاحظ بعينه النفاذة أن البطارقة جمجموا وغضبوا حين رأو النجاشي يعترف بعبودية عيسى ابن مريم، والإهانة التي ألحقها النجاشي به وبصاحبه في ردِّ هداياهم جميعًا، وغضب البطارقة لنفوسهم أن سحبت الهدايا منهم بعد الاعتراف بعبودية عيسى للَّه؛ كل هذه الأمور لا تبعد أبدًا أن يكون عمرو بن العاص هو الذي أشعل فتيل الثورة ضد النجاشي.

تروي أم سلمة لنا قصة هذه الثورة - بالسند الصحيح الذي رواه أحمد عنها -:

قالت: (فواللَّه إنا لعلى ذلك؛ إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه. قالت: فواللَّه ما علمنا حزنًا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك؛ تخوفًا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه. قالت: وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول اللَّه ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام: أنا. قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سنًّا؛ فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: فدعونا اللَّه تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده. قالت: فواللَّه: إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن؛ إذ طلع الزبير وهو يسعى فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي، وأهلك اللَّه عدوه، ومكَّن له في بلاده. قالت: فواللَّه ما علمنا فرحنا فرحة مثلها. قالت: ورجع النجاشي وقد أهلك عدوه، ومكَّن له في بلاده، واستوسق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خير منزل، حتى قدمنا على رسول اللَّه ﷺ وهو بمكة)[٢].

لكن النجاشي كان أدهى من عمرو والثائرين عليه، كما تحدثنا رواية ابن إسحاق الثانية.

---

(١) مجمع الزوائد (٦/ ٢٥ - ٢٧)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح إلا ابن إسحاق وقد صرَّح بالسماع، فالحديث صحيح، وهو في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٤ - ٢٢٦).

(٢) مجمع الزوائد (٦/ ٢٧) وقال فيه: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، إلا ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

قال ابن إسحاق: وحدثني جعفر بن محمد عن أبيه قال:

(اجتمعت الحبشة، فقالوا للنجاشي: إنك فارقت ديننا، وخرجوا عليه؛ فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنًا، وقالوا: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم؛ فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث جئتم، وإن ظفرت فاثبتوا. ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة وصفوا له. فقال: يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى. قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة. قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبدًا. قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابن اللَّه، فقال النجاشي - ووضع يده على صدره على قبائه - هو يشهد أن عيسى ابن مريم، لم يزد على هذا شيئًا، وإنما يعني ما كتب. فرضوا وانصرفوا عنه، فبلغ ذلك النبي ﷺ؛ فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له)[1].

رواية أخرى تكشف جوانب من دهاء عمرو:

فعن عروة بن الزبير ﷺ قال: (... فبعثت قريش في آثارهم عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي[2]، وعمرو بن العاص السهمي، وأمروهما أن يسرعا السير حتى يسبقاهم إلى النجاشي؛ ففعلا، فقدما على النجاشي فدخلا عليه؛ فقالا له:

إن هذا الرجل الذي بين أظهرنا أفسد فينا، وتناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك، ونحن لك ناصحون. وأنت لنا عيبة صدق، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف، ويأمن تاجرنا عندك فبعثنا قومنا إليك لننذرك فساد ملكك، وهؤلاء نفر من أصحاب الرجل الذي خرج فينا ونخبر لك بما نعرف من خلافهم، الحق أنهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إلهًا، ولا يسجدون لك إذا دخلوا عليك؛ فادفعهم إلينا فلنكفيكهم.

فلما قدم جعفر وأصحابه وهم على ذلك من الحديث - وعمرو وعمارة عند النجاشي - وجعفر وأصحابه على ذلك الحال؛ فلما رأوا أن الرجلين قد سبقاه ودخلا وصاح جعفر على الباب: يستأذن حزب اللَّه فسمعها النجاشي، فأذن لهم فدخلوا عليه. فلما دخلوا وعمرو وعمارة عند النجاشي قال: أيكم صاح عند الباب؟ فقال جعفر:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).

(٢) هذه الرواية تشير إلى أن ما جرى بين عمرو وعمارة قد تم في هذه الرحلة.

أنا هو. فأمره فعاد لها؛ فلما دخلوا وسلموا تسليم أهل الإيمان، ولم يسجدوا له، فقال عمرو ابن العاص وعمارة بن الوليد:

ألم نبين لك خبر القوم؟ فلما سمع النجاشي ذلك أقبل عليهم، فقال:

أخبروني أيها الرهط ما جاء بكم؟ وما شأنكم؟ ولستم بتجار، ولا سؤال؟ وما نبيكم هذا الذي خرج؟ وأخبروني مالكم لا تحيوني كما يحييني من أتاني من أهل بلدكم؟ وأخبروني ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟...).

لم تنسج المؤامرة هنا من أمر واحد؛ بل **نسجت من ثلاثة أمور كل واحد أخطر من الآخر:**

الأمر الأول: تهديد الملك بالزوال والبوار (تناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك)، فبعثنا قومنا لننذرك فساد ملكك.

ولا شيء أخطر في حياة الحاكمين ممن يهددهم في حكمهم وسلطانهم؛ فهم على استعداد أن يبيدوه كائنًا من كان ولو كان أقرب الناس إليهم. وكم قتل أخ أخاه، وولد أباه من أجل هذا السلطان؟!

الأمر الثاني: الكفر وإفساد العقيدة: (إنهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إلهًا).

الأمر الثالث: تحدي النجاشي في سلطانه علنًا وأمام الملأ: (ولا يسجدون لك إذا دخلوا عليك)، ترى كم بقي عمرو ينسج الخيوط ويحبك العقد؛ حتى استقام له الأمر بهذه العبقرية؟! وقد ظهر الأثر العملي لصحة كلام عمرو مباشرة؛ فهم قد دخلوا على النجاشي ولم يسجدوا له، وهم لم يحيوه بتحية الملوك؛ فهم مستخفون به خارجون على سلطانه داعون للقضاء على ملكه مبتدعون لدين جديد يتحدى النصرانية في صميمها؛ إذ لا يؤمنون بألوهية المسيح.

لكن عمرًا كلما نسج مؤامرة تفتقت عنها عبقريته كلما فوجئ بأدهى منه وأذكى وأمهر.

فهذا خصمه جعفر بن أبي طالب، قد رأى أنه قد ساقه إلى المقصلة، وبدل أن يمضي ليدافع عن نفسه؛ راح يطرح أمورًا أخرى بين يدي النجاشي الذي وجَّه له الاتهامات الثلاث.

(فقام جعفر بن أبي طالب -وكان خطيب القوم - فقال: إنما كلامي ثلاث كلمات؛

إن صدقت فصدِّقني وإن كذبت فكذِّبني؛ فأمر أحدًا من الرجلين فليتكلم ولينصت الآخر. قال عمرو: أنا أتكلم.

قال النجاشي: أنت يا جعفر فتكلم قبله. فقال جعفر:

إنما كلامي ثلاث كلمات: سل هذا الرجل: أعبيد نحن أَبـَقْنَا[1] من أربابنا؛ فردنا إلى أربابنا؟ فقال النجاشي: أعبيدٌ هم يا عمرو؟ قال عمرو: بل أحرار كرام.

قال جعفر: سل هذا الرجل: وهل أهرقنا دمًا بغير حقه؟ فادفعنا إلى أهل الدم؟ فقال: هل أهرقوا دمًا بغير حقه؟ فقال: ولا قطرة واحدة من دم.

ثم قال جعفر: سل هذا الرجل: أخذنا أموال الناس بالباطل؛ فعندنا قضاء؟ قال النجاشي: يا عمرو إن كان على هؤلاء قنطار من ذهب فهو عليَّ. قال عمرو: ولا قيراط. فقال النجاشي: ما تطلبونهم به؟

قال عمرو: فكنا نحن على دين واحد، وأمر واحد فتركوه ولزمناه؛ فقال النجاشي:

ما هذا الذي كنتم عليه فتركتموه، وتبعتم غيره؟

فقال جعفر: أما الذي كنا عليه؛ فدين الشيطان وأمر الشيطان نكفر باللَّه ونعبد الحجارة. فأما الذي نحن عليه فدين اللَّه ﷻ نخبرك: أن اللَّه بعث إلينا رسولًا كما بعث إلى الذين من قبلنا؛ فأتانا بالصدق والبر، ونهانا عن عبادة الأوثان؛ فصدقناه، وآمنا به واتبعناه.

فلما فعلنا ذلك عَادَنَا قومنا، وأرادوا قتل النبي الصادق، وَرَدَّنَا في عبادة الأوثان؛ ففررنا إليك بديننا ودمائنا ولو أقرنا قومنا لاستقررنا؛ فذلك خبرنا).

إن جعفر بن أبي طالب يقبس من مشكاة النبوة؛ فهو أشبه برسول اللَّه ﷺ خَلْقًا وخُلُقًا. وإذا كانت عبقرية عمرو قد بدت في التآمر والكيد ومحاولة الإيقاع بالمسلمين؛ فإن نصاعة الحق الذي يحمله جعفر وعبقريته في تفتيت هذا التآمر وفضحه لتأخذ بالألباب.

فبعد أن تمكن عمر من وضع المسلمين بصيغة الجناة المجرمين الذين أفسدوا أمر مكة وجاؤوا ليفسدوا أمر النجاشي، وابتدعوا دينًا جديدًا ينكر ألوهية عيسى، ويرفض دين قريش، ولا بد من تسليم هؤلاء المجرمين للحفاظ على ملك النجاشي نفسه - استطاع

(١) أبـَقْنَا: هربنا.

جعفر ﷺ أن يقلب السحر على الساحر حين عرض للنجاشي هذه الأمور الثلاثة: فالعبد الآبق يسلم لسيده ومهما بلغت أخلاقية عمرو من التدني فلها حد نقف عنده، لا يمكن أن يقبل أو ينقل عنه كذبة واحدة؛ فيقول عنهم: إنهم عبيد؛ وبذلك تشتهر الكذبة عنه في العرب فيسقط مجده، وتسقط مروءته، وبذلك أكد - بقوله - إنهم أحرار كرام. فالعبد الآبق يسلم لسيده، وهؤلاء أحرار كرام.

وكان السؤال الثاني: هل سفكوا دمًا بغير حق؟ فالقاتل الفار من القتلة خطر في أي مكان يحل فيه؛ فلا بد أن يسلم المجرم للعدالة وصدق عمرو في الإجابة قائلًا: ولا قطرة دم واحدة.

وكان السؤال الثالث: هل أخذنا أموال الناس بالباطل فعندنا قضاء؟ والمدين والسارق قد يفران بأموال لغيرهما؛ فهم مجرمون سوف يفسدون في بلد النجاشي بعد أن عاثوا في الأرض فسادًا في مكة؛ فأكد عمرو: ولا قيراطًا واحدًا.

وبذلك قلب جعفر الموازين كلها لا لنقص في دهاء عمرو؛ بل لحرصه على ألَّا تؤثر عنه كذبة واحدة. وإذا كان أبو سفيان بن حرب قد رفض- فيما بعد - أن يكذب على محمد كذبة واحدة عند قيصر فتؤثر عنه؛ فعمرو يحمل التربية نفسها التي يحملها أبو سفيان ولو كان سيخسر الجولة أو المعركة.

وهكذا لم تعد القضية قضية مجرمين يسلمون، أو عبيد آبقين يقادون بالسلاسل؛ إنما القضية قضية صراع العقيدة بين الجانبين.

ونصاعة بيان جعفر بذَّت نصاعة بيان عمرو حين أبرز القضية للنجاشي أنهم ملاحقون؛ لأنهم تركوا عبادة الأحجار والأوثان، واعتصموا بدين اللَّه. وجعفر يدري مفهوم الدين عند النجاشي؛ فصاح ابتداء عند الدخول: حزب اللَّه يستأذن عليك.

وبعدها أخذ يحل عقد المؤامرة أحبولة أحبولة:

(وأما شأن التحية؛ فقد حييناك بتحية رسول اللَّه ﷺ، والذي يحيي به بعضنا بعضًا، أخبرنا رسول اللَّه أنها تحية أهل الجنة.

وأمَّا السجود؛ فمعاذ اللَّه أن نسجد إلا للَّه وأن نعدلك به.

وأمَّا في شأن عيسى ابن مريم؛ فإن اللَّه ﷻ أنزل في كتابه على نبينا أنه رسول قد خلت من قبله الرسل، ولدته الصديقة العذراء البتول المصون، وهو روح اللَّه وكلمته ألقاها إلى

مريم، وهذا شأن عيسى ابن مريم.

فلما سمع النجاشي قول جعفر أخذ بيده عودًا، ثم قال لمن حوله: صدق هؤلاء النفر، وصدق نبيهم؛ واللَّه ما يزيد عيسى ابن مريم على ما يقول هذا الرجل ولا وزن هذا العود. فقال لهم النجاشي: امكثوا فإنكم اليوم آمنون قد منعكم اللَّه. وأمر لهم بما يصلحهم.

فقال النجاشي: أيكم أدرس الكتاب الذي نزل على نبيكم؟ قالوا: جعفر؛ فقرأ عليهم جعفر سورة مريم فلما سمعها عرف أنه الحق؛ وقال: صدقتم وصدق نبيكم، أنتم واللَّه صديقون. امكثوا على اسم اللَّه وبركته آمنين ممنوعين. وألقي عليهم المحبة من النجاشي)[(١)].

وعاد عمرو بن العاص بأخسر صفقة مُني بها في حياته وليعلن لقريش فشله في مهمته، وكان رأسه يتأجج في دوامة الصراع الرهيب بين ما خطط للظفر به، وما مني به من فشل ذريع في مهمته، يحلل أسباب ذلك ويرفض أن يعيده إلى التفوق الفكري والعقلي عند جعفر عليه، ويعلم في أعماق نفسه أنه إنما يدافع ابتداءً عن قضية خاسرة؛ فعبادة الأصنام والأوثان لا تشرفه، وبحكم خبرته الواسعة. وبعد علاقاته التجارية والسياحية خارج مكة وتعرفه على عقائد الناس وأديانهم - يرى أنه يستحي أن يدافع عن عبادة هذه الأصنام، ويرى في الوقت نفسه أن العقائد الأخرى من النصرانية واليهودية فيها كثير من الخرافات التي لا يقبلها عقله الناضج. ما يطرحه محمد بن عبد اللَّه الفتى الهاشمي، وما سمعه من جعفر ابن عمه وعظمة البلاغة العربية التي سمعها في صدر سورة مريم - تجعله يدرك أن هناك جانبًا كبيرًا من صدق محمد بن عبد اللَّه الذي لم يكذب قط، لكنه من جهة أخرى يرى أن هذه ليست مهمته؛ فهو قلما يعنى بالعقائد وأمور الدين،

---

(١) مغازي عروة بن الزبير (ص ١١١ - ١١٣). وقد رواه عن عروة عمرو بن خالد (ثقة) عن ابن لهيعة (صدوق في حديثه ضعف) عن أبي الأسود (ثقة). والرواية التي ذكرت أن الرسولين عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد تقول: وكان اللَّـه ﷻ قد ألقى العداوة بين عمرو بن العاص وعمارة في مسيرهما قبل أن يقدما إلى النجاشي، ثم اصطلحا حين قدما على النجاشي ليدركا حاجتهما التي خرجا إليها في طلب المسلمين، فلما أخطأهما ذلك رجعا إلى ما كان بينهما من العدواة، وسوء ذات البين، ومكر عمرو بعمارة؛ فقال: يا عمارة: إنك امرؤ جميل فاذهب إلى امرأة النجاشي فتحدث عندها إذا خرج زوجها؛ فإن ذلك عونًا لنا في حاجتنا، فراسلها عمارة حتى دخل عليها، فلما دخل عليها انطلق عمرو إلى النجاشي؛ فقال له: إن صاحبي هذا صاحب نساء، وإنه يريد أهلك؛ فاعلم علم ذلك، فبعث النجاشي فإذا عمارة عند أهله فأمر فنفخ في إحليله، ثم ألقي في جزيرة من البحر فجن واستوحش مع الوحش، ورجع عمرو إلى مكة قد أهلك اللَّـه صاحبه وخيب مسيره ومنعه حاجته. مجمع الزوائد (٦/ ٣١) وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

ويترك هذه الأمور للملأ من قريش يتخذون القرار المناسب فيها. ولكن الذي يعنيه هو النصر السياسي، والكسب الشخصي، وتثبيت الزعامة في هذا المجتمع المكي. ومن هذه الزاوية التي تستأثر باهتمامه أكثر من أي شيء آخر يزداد إصرارًا على حرب محمد وحزبه ودعوته؛ فقد طُعن بشخصه ورُدَّ مقبوحًا من عند صديقه النجاشي، وطعن من جعفر وصحبه، وليس أمامه إلا الانتقام من جعفر ومن معه ومحمد ومن معه، وهو ليس من الذين يقبلون أن يلعقوا آثار الهزيمة في المعركة؛ إنما يترك الأمر للزمن حتى يحقق مأربه. والحدث الذي أقلقه جدًّا في معركة مكة هو إسلام عمر بن الخطاب أكبر حلفاء بني سهم وانضمامه إلى محمد بن عبد اللَّه، وهو يدرك أن إجارة أبيه لعمر قد كفت قريش عنه وأثبتت زعامة العاص وسيادته، لكن على المدى البعيد فقد بدأت كفة محمد تميل إلى الرجحان؛ حيث أصبحت الحبشة قاعدة آمنة لحزب محمد، وأصبح إسلام عمر شوكة في حلقه؛ إذ أصبح يرى المسلمين يتحدون زعامة مكة ويُصلُّون آمنين حول الكعبة، والمخرج من هذه الدوامات جميعًا هو الهروب إلى الأسواق والتجارة؛ فهو إن فشل في السياسية لكنه لم يفشل في الكسب والتجارة، وليعوِّض عن هزيمته هذه بكسب مزيد من الثروة ومزيد من المال؛ فالناس ينسون أمام بريق المال كثيرًا من بريق القيم والمبادئ.

عمرو وريث أبيه العاص:

كان عمرو كلما عاد من رحلاته في التجارة يعود ليسأل عن آخر أخبار مكة مع محمد ﷺ، وسرَّ سرورًا عظيمًا لأكبر نجاح حققته قريش حين استطاعت أن تعزل محمدًا وحزبه مع بني هاشم في شعب أبي طالب، فلا تنكح إليهم ولا تنكح منهم، ولا تبيعهم ولا تبتاع منهم؛ حتى يسلموا محمدًا لها، وكان قمة سروره في الإجماع بين قبائل مكة كلها على ذلك بما فيهم من بني عبد مناف بني عبد شمس وبني نوفل، وسرَّه خروج أبي لهب على بني هاشم وانضمامه إلى مكة في هذا الموقف، ورأى أن نهاية محمد وحزبه قد حانت بهذا الحصار الذي تم عليهم في الشعب.

كما استعمل سلطانه وسطوته في حبس أخيه هشام بن العاص في بيته، لكن هشامًا كان يجرح كبرياءه في إصراره على الإسلام والإيمان بمحمد رغم حبسه وتعذيبه، ولم يعد أمر مكة يعنيه كثيرًا بعد هذا النجاح الباهر الذي حققته قريش، كما كان يؤرقه كثيرًا وجود الإسلام في الحبشة. وإذا كان النجاشي قد صدق محمدًا في دعواه ونصر المسلمين

هناك؛ فهذا يعني أن الحصار قد لا يحقق هدفه، ويبقى الإنهاء الحقيقي للإسلام هو في القضاء على محمد بن عبد اللَّه وقتله وما دون ذلك فكثير من الشباب ينفلتون ويتحدون آباءهم وعشائرهم في انضمامهم إلى الصف الإسلامي.

لم تطل فرحة عمرو كثيرًا بهذا الحصار؛ فقد شهد ذلك الموقف من أبي طالب حين جاء قريشًا يقول لهم: (قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم؛ فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح - وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها - فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكُّون أن رسول ﷺ مدفوعًا إليهم، فوضعوها بينهم وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر قومكم فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطرًا لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم؛ فقال أبو طالب:

إنما أتيتكم لأعطيكم أمرًا لكم فيه نصف[1]؛ إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني: أن اللَّه ﷻ بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، ومحا كل اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم؛ فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال؛ فأفيقوا، فواللَّه لا نسلمه أبدًا حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي قال باطلًا دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم. قالوا: قد رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها؛ فلما رأتها قريش - كالذي قال أبو طالب - قالوا: واللَّه إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم. فارتكسوا أو عادوا بشرٍّ ما كانوا عليه بكفرهم والشدة على رسول اللَّه ﷺ.

فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب: إن أولى بالكذب والسحر غيرنا؛ فكيف ترون فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى السحر والجبت من أمرنا، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهي في أيديكم طمس اللَّه ما كان فيها من اسم، وما كان من بغي تركه؛ أفنحن السحرة أم أنتم؟).

وأدرك عمرو بثاقب نظره أن هذه الصحيفة على وشك الانهيار، فإن كان الكبار في مكة مصرين عليها؛ فقد هزموا في معركتهم مع أبي طالب كما هزم - هو - في معركته مع جعفر.

(فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف، ومن بني قصي ورجال من قريش ولدتهم

(١) النصف: العدل.

نساء من بني هاشم؛ منهم أبو البختري بن هشام، والمطعم بن عدي، وزهير بن أبي أمية ابن المغيرة، وزمعة بن الأسود، وهشام بن عمرو وكانت الصحيفة عنده وهو من بني عامر ابن لؤي في رجال من أشرافهم ووجهائهم: نحن برآء من هذه الصحيفة، فقال أبو جهل: هذا أمر دُبر بليل، وأنشأ أبو طالب يقول الشعر في شأن صحيفتهم، ويمتدح النفر الذين تبرؤوا منها ونقضوا ما كان فيها من عهد، ويمتدح النجاشي.

قال موسى بن عقبة: (فلما أفسد اللَّه ﷻ صحيفة مكرهم خرج النبي ﷺ ورهطه فعاشوا وخالطوا الناس)[(١)]. وفي رواية للبلاذري: (ولما كان من خروج أبي طالب إلى قريش وإخبارهم بما حدث من أمر الصحيفة - من أكل الأرضة إياها ما كان - رجع أبو طالب إلى الشعب وهو يقول: لماذا يحبس وقد أبان اللَّه الأمر ووضح الحق. قالوا: وشرب المطعم بن عدي وانتشى قال: من مثلي؟ فقال له عدي بن قيس بن عدي السهمي: فما بال بني عمك مظلومين؟ فلما صحا لبس سلاحه ولبس أبو البختري، وزهير بن أبي أمية، وهشام بن عمرو، وعتبة بن ربيعة، وزمعة بن الأسود سلاحهم وصاروا إلى الشعب؛ فأخرجوا بني هاشم وبني المطلب؛ فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم وعلموا أنهم لا يسلمونهم، وأن عشائرهم تمنعهم، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة من نبوة النبي ﷺ. وكان موت أبي طالب بعد خروجهم من الشعب في ذي القعدة سنة عشر من المبعث)[(٢)].

وكان الخبر الذي اهتزت له مكة، وأفاقت عليه مذعورة في الليل.

(يا أهل الجباجب[(٣)]، هل لكم في مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم...)[(٤)]، (فلما رأت قريش ما كان من فعل الأوس والخزرج جاء إليهم بنو عمه الأقربين منهم: أبو جهل وعتبة وأبو سفيان وشيبة وأمية وسهيل ونبيه ومنبه والنضر بن الحارث وعمرو ابن العاص)[(٥)].

(فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا - هذا - تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه واللَّه ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم؛ فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون باللَّه ما كان

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣١٣، ٣١٤).
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٢٣٦).
(٣) الجباجب: المنازل.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٠٥).
(٥) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي (ص ١٩٠).

من هذا شيء وما علمناه. قال: وصدقوا، لم يعلموا.. قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله ابن أبي بكر أنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول؛ فقالوا له مثل ما قال كعب من القول؛ فقال لهم: إن هذا الأمر جسيم. ما كان قومي ليتفوتوا عليَّ بمثل هذا وما علمته كان. فانصرفوا عنه قال: ونفر الناس من منى فتنطس الناس الخبر فوجدوه قد كان.. فخرجوا في طلب القوم.

قال ابن هشام: التنطس: المبالغة[١].. »[٢].

وحين ننظر إلى العلية من قريش ووفدهم إلى الخزرج والأوس - نلاحظ غياب أكبر الشخصيات عن الوفد: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس ابن عدي، والأسود بن المطلب.

وها هو عمرو - الآن - يجد نفسه نيابة عن أبيه في وفد مكة؛ فقد بلغ أبوه العاص من الكبر عتيًّا وصار طاعنًا في السن، ويراجع عمرو بعملية حسابية تتناسب مع طريقة تفكيره المنظم خط السير لدعوة محمد بن عبد الله، وخط السير لدعوة قريش فيرى بعيدًا عن المظاهر الخارجية أن دعوة محمد تعلو علوًّا منكرًا، فإذا كانت قريش قد فشلت في الحبشة مع النجاشي؛ فيبقى الخطر على مكة بعيدًا هناك، أما الفشل هنا والعجز عن كسر تحالف محمد مع الخزرج؛ فهو أخطر من كل ما سبقه. إن شريان حياة مكة هو في يثرب حيث يقيم الخزرج حلفاء محمد بن عبد الله؛ فماذا تفعل مكة إذا انقطع هذا الشريان؟

وينظر إلى القيادات الكبرى من جلة قريش؛ فيراها تتساقط عاجزة أو مصابة أو معتوهة، وهي التي كانت تدير الرأي وتقود المعركة؛ فسيد بني مخزوم - الوحيد - الوليد بن المغيرة، وسيد بني سهم: العاص بن وائل، وسيد بني أسد: الأسود بن المطلب، وسيد بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث مع السيد الثاني لبني سهم الحارث بن الطلاطلة[٣] - يسقطون؛ وذلك كما روى ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: « فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت؛ فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر

---

(١) المبالغة في البحث.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٣) وهي أمه، وهو الحارث بن قيس بن عدي.

به الأسود بن المطلب؛ فرمى بوجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث؛ فأشار إلى بطنه؛ فاستسقى بطنه فمات منه حبنًا[١]، ومر به الوليد بن المغيرة؛ فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر سبلة[٢]، وليس بشيء فانتفض به فقتله، ومر به العاص بن وائل؛ فأشار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبرقة[٣]، فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته، ومرَّ به الحارث بن الطلاطلة[٤]؛ فأشار إلى رأسه فامتخض قيحًا فقتله »[٥].

ويرى الأحداث تتابع بسرعة، وتفوت قريش الفرصة الذهبية في قتل محمد بن عبد اللَّه قبل أن يهاجر إلى يثرب، ومع أنه لم يحضر اجتماع دار الندوة الذي بيتت فيه قريش قتل محمد بن عبد اللَّه؛ فقد كان نبيه ومنبه ابنا الحجاج من بني سهم قد شاركوا في هذا القرار ومنبه هو أبو امرأته.

وكان هذا العام هو عام الحزن بالنسبة له؛ حيث نجح محمد بن عبد اللَّه في السيادة على يثرب كلها، وأصبحت قيادتها بيده، وفقد في هذا العام كذلك أباه الذي كان يكل هموم المعركة مع قريش كلها عليه؛ فإذا به يجد نفسه وجهًا لوجه أمام مسؤولياته التاريخية ليكون عوضًا عن أبيه في مجالس قريش وقد قارب الخمسين من عمره، وعليه أن يدير المعركة بكل ما أوتي من طاقات ودهاء لمواجهة الدولة الجديدة التي قامت على طريق القوافل بين الشام ومكة.

القافلة الكبرى وغزوة بدر:

لقد كان عمرو يدرك أن المعركة الاقتصادية هي أخطر المعارك؛ فإما الحياة وإما الموت، وجاء عمرو وخطط لأضخم قافلة في تاريخ مكة بالاشتراك مع قادة مكة وزعمائها الجدد بعد فقدان الشيوخ الكبار والجيل الأول من القيادات؛ فكان ما حدثنا عنه الطبري بسنده عن هشام بن عروة عن عروة بن الزبير أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان:

---

(١) مات حبنًا: داء في البطن يعظم البطن منه ويورم ثم يقتل به.

(٢) سبلة: الثياب. (٣) شبرقة: جنس من الشوى.

(٤) انفرد ابن إسحاق بذكر الحارث بن الطلاطلة، وذكر أنه من خزاعة؛ بينما تجمع المصادر الأخرى كالبلاذري والمصعب الزبيري والطبري على أنه الحارث بن الفيطلة أو العنطلة؛ وهي أمه، وهو الحارث بن قيس بن عدي، ويذكرونه دائمًا من المستهزئين، وفي كتب التفسير كذلك أنه ممن نزل فيه قول اللَّه ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٥).

أمَّا بعد؛ فإنك كتبت إليَّ في أبي سفيان ومخرجه تسألني: كيف كان شأنه؟ كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريب من سبعين راكبًا من قبائل قريش كلها كانوا تجارًا بالشام؛ فأقبلوا جميعًا معهم أموالهم وتجارتهم؛ فذكروا رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك، فقتلت قتلى وقتل ابن الحضرمي في ناس بنخلة، وأسرت أسارى من قريش فيهم بعض بني المغيرة، وفيهم ابن كيسان مولاهم... وكانت تلك الوقعة هاجت الحرب بين رسول اللَّه ﷺ وبين قريش، أول ما أصاب به بعضهم بعضًا في الحرب، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشام. ثم إن أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومن معه من ركبان قريش مقبلين من الشام فسلكوا طريق الساحل، فلما سمع بهم رسول اللَّه ﷺ ندب أصحابه وحدثهم بما معهم من الأموال وبقلة عددهم؛ فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه لا يرونها إلا غنيمة لهم، لا يظنون أن يكون قتال كبير إذا لقوهم؛ وهي التي أنزل اللَّه ﷻ فيها: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧].

فلما سمع أبو سفيان أن أصحاب رسول اللَّه ﷺ معترضون له؛ بعث إلى قريش: إن محمدًا وأصحابه معترضون لكم فأجيروا تجارتكم، فلما أتى قريشًا الخبر - وفي عير أبي سفيان - من بطون بني كعب بن لؤي كلها نفر لها أهل مكة؛ وهي نفرة كعب ابن لؤي، ليس فيها من بني عامر أحد إلا ما كان من بني مالك بن حسل، ولم يسمع بنفرة قريش رسول اللَّه ﷺ ولا أصحابه حتى قدم النبي ﷺ بدرًا، وكان طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام فخفض أبو سفيان عن بدر ولزم طريق الساحل وخاف الرصد على بدر، وبعث النبي ﷺ الزبير بن العوام في عصابة من أصحابه إلى ماء بدر وليسوا يحسبون أن قريشًا خرجت لهم. فبينما النبي يصلي؛ إذ ورد بعض روايا قريش ماء بدر، وفيمن ورد من الروايا غلام لبني الحجاج أسود؛ فأخذه النفر الذين بعثهم رسول اللَّه ﷺ إلى الماء، فأقبلوا به حتى أتوا رسول اللَّه ﷺ وهو في معرَّسة[1]، فسألوه عن أبي سفيان وأصحابه لا يحسبونه إلا أنه منهم، فطفق العبد يحدثهم عن قريش ومن خرج منها...

فانطلق النبي ﷺ، فنزل الماء وملأ الحياض، وصفَّ عليها أصحابه حتى قدم عليه القوم، فلما ورد رسول اللَّه ﷺ بدرًا قال: « **هذه مصارعهم** »، فوجدوا النبي ﷺ قد سبقهم

---

(١) معرسة: مكان مبيت ليلًا.

إليه، ونزل عليه فلما طلعوا عليه زعموا أن النبي ﷺ قال:

« **هذه قريش قد جاءت بجلبتها وفخرها تحادك وتكذب رسولك؛ اللهم إني أسألك ما وعدتني** »، فلما أقبلوا استقبلهم فحثا في وجوههم التراب؛ فهزمهم اللَّه، وكانوا قبل أن يلقاهم النبي ﷺ قد جاءهم راكب من أبي سفيان والركب الذين معه: أن ارجعوا - والركب الذين يأمرون قريش بالرجعة بالجحفة - فقالوا: واللَّه لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم به ثلاث ليال ويرانا من غشينا من أهل الحجاز؛ فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا وهم الذين قال اللَّه ﷻ: ﴿ كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنفال: ٤٧]، والتقوا النبي ﷺ؛ ففتح اللَّه على رسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المسلمين منهم »[١].

أما خبر العير؛ فقد انتهت قيادتها إلى ثلاثة: (أبي سفيان بن حرب، وعمرو بن العاص، ومخرمة بن نوفل. وكان عمرو بن العاص يحدث فيقول: لما كنا بالزرقاء بالشام بناحية معان من أذرعات على مرحلتين - ونحن منحدرون إلى مكة - لقينا رجل من جذام؛ فقال: قد كان عرض لكم محمد في بدأتكم مع أصحابه. فقلنا: ما شعرنا. قال: بلى. فأقام شهرًا ثم رجع إلى يثرب، وأنتم يوم عرض لكم محمد مخفون[٢]. فهو الآن أحرى أن يعرض لكم؛ إنما يعد لكم الأيام عدًّا؛ فاحذروه على عيركم، وارتأوا آراءكم)[٣].

أمَّا ابن إسحاق فقال: (وأقبل أبو سفيان بالعير وقد خاف خوفًا شديدًا حين دنوا من المدينة، واستبطأ ضمضم بن عمرو الغفاري النفير حتى ورد بدرًا - وهو خائف - فلما كانت الليلة التي يصبحون فيها على ماء بدر جعلت العير تقبل بوجوهها إلى ماء بدر، وجعل أهل العير يقولون: هذا شيء ما صنعته معنا منذ خرجنا، وتقدم أبو سفيان أمام العير حذرًا حتى ورد الماء فوجد مجدي بن عمرو الجهني؛ فقال له: هل أحسست أحدًا؟ قال: ما رأيت أحدًا أنكره إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا في شأن لهما ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما ففتَّهُ فإذا فيه النوى، فقال: هذه واللَّه علائف يثرب. فرجع إلى أصحابه سريعًا فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها، وترك بدرًا بيسار، وانطلق حتى أسرع؛ فسار ليلًا ونهارًا فرقًا من الطلب،

(١) تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري (٢/ ٤٢١ - ٤٢٤) مقتطفات.

(٢) مخفون: خفيفون لم تحملوا أثقالًا.

(٣) المغازي للواقدي (١/ ٢٨).

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش قيس بن امرئ القيس: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها اللَّه؛ فارجعوا. فأتاهم الخبر وهم بالجحفة؛ فقال أبو جهل بن هشام: واللَّه لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليه ثلاثًا فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا)[١].

(قال ابن سعد: ولحق قيس بن امرئ القيس أبا سفيان؛ فأخبره بمجيء قريش، فقال: واقوماه هذا عمل عمرو بن هشام ترأس فبغى، والبغي منقصة وشؤم)[٢].

لقد أدرك أبو سفيان – ومن معه –أن أبا جهل بن هشام هو الذي يقود كبر هذه المعركة فقد انتهت إليه الرئاسة، ولا شرف بعد موت الأكابر من قومه؛ لكن أبا سفيان وعمرو قد أوصلوا القافلة إلى مأمنها ولم يكن لهم بد من أن يشاركا قومهم في بدر؛ فالتحق كثير منهم بالمعركة وكان عمرو واحدًا منهم.

ولكن كيف كانت معركة بدر؟ نسمع وصفها على لسان أبي سفيان بن الحارث – الشاعر العدو اللدود للمسلمين – يصفها لأبي لهب عمه: (فبينما هو جالس – أي: أبو لهب – إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: هلم إليَّ فعندك لعمري الخبر. قال: فجلس إليه والناس قيام عليه. فقال: يا بن أخي...! أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: واللَّه ما هو إلا أن لقينا القوم؛ فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم اللَّه – مع ذلك – ما لمت الناس؛ لِقِينَا رجالٌ بيضٌ على خيل بلق بين السماء والأرض ولا يقوم لها شيء)، فهو أبلغ وصف تعبيري وتصويري من أبلغ شعراء قريش وأشدهم عداوة للمسلمين.

ولو كان عمرو بن العاص يود وصف المعركة لما وصفها بأبلغ من ذلك، وحين يذكر عمرو بن العاص رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب قبل المعركة، والتي فيها: « ثم أخذ صخرة من أبي قبيس فأرسلها؛ فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلته منه فلذة »[٣] – فكان عمرو بن العاص يحدث فيقول: لقد رأيت كل هذا، ولقد رأيت في دارنا فلقة من الصخرة التي انطلقت من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦١٨، ٦١٩).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، والسيرة الحلبية (٢/ ٣٩١).

(٣) فلذة: قطعة.

أبي قبيس. فلقد كان في ذلك عبرة، ولكن اللَّه لم يرد أن نسلم يومئذ لكن أخَّر إسلامنا إلى ما أراد[١] - خصوصًا، وقد كان مع الرأي الذي يرى تجنب المواجهة مع محمد ابن عبد اللَّه بعد أن نجَّى اللَّه القافلة ومع الرأي الذي يرى أن الأمر كله أمر عمرو بن هشام ترأس وبغي، والبغي منقصة وشؤم.

وقد برزت آثار هذا البغي بعد بدر، ويدرك عمرو بن العاص أنه قد نجا بأعجوبة من الموت المحقق، كما يقول - فيما بعد وهو يراجع رصيده -: (حضرت بدرًا فنجوت).

وهناك رواية أوردها الحافظ ابن عساكر تلقي أضواء على هذه النجاة التي كادت أن تفوته؛ فعن سفيان قال: اجتمع الزبير بن العوام، وعمرو بن العاص في الحجر؛ فقال له الزبير - رحمه اللَّه -: يا أبا عبد اللَّه أما إنك كنت قد أهديت لي يوم بدر، ولكني استبقيتك لمثل هذا اليوم، فقال عمرو: وأنت كنت قد أهديت لي، وقد علمت العرب أني من أنسبها، ولقد شهدت في الإسلام بضعة عشر زحفًا، وبضعًا وعشرين زحفًا ما يسرني أن لي بقربي منك ما شهدت[٢].

وهذا يعني أنه قد تعرَّض للموت على يد الزبير وأنجاه اللَّه - تعالى - على يده، وكان من الممكن أن تنتهي بدر بمراجعة قريش لحساباتها، وفتح صفحة جديدة مع محمد ابن عبد اللَّه ﷺ؛ حيث رأت المعجزة بعينها، ورأت النصر الخارق لنواميس الكون وعالم الأسباب، ورأت مدد إله محمد له بالرجال البيض على الخيل البلق، وتعرف أنها إنما تروم المستحيل في القضاء عليه أو الانتصار عليه، وأن تعيد حساباتها؛ خاصة وقد سقط كل قياداتها وأكابرها قتلى في قليب بدر؛ ثلاثة وعشرون صنديدًا من صناديد قريش وأبطالها لقوا مصرعهم في بدر، وكان يمكن أن يكون على رأس تيار السلام مع محمد الذين حكموا بالبغي على قومهم حين قاتلوه: أبو سفيان، وعمرو، ومخرمة بن نوفل.

أما قوم مخرمة من بني زهرة؛ فكانوا صادقين مع موقفهم حيث وقف زعيمهم الأخنس بن شريق قبيل المعركة يقول: « يا بني زهرة قد نجى اللَّه لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل؛ وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا لي جُبْنَهَا وارجعوا؛ فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة » فرجعوا فلم يشهدها زهري واحد[٣].

---

(١) المغازي للواقدي (١/ ٢٩).

(٢) تاريخ دمشق، للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٥١٣).

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٦١٩).

لكن أنى يكون والثأر للدماء المراقة يملأ الحزن والجبل وقد دخل القتل لكل بيت، والكارثة لكل حيٍّ ونظر أبو سفيان، فإذا الأقدار تسوقه بعد سقوط القتلى من القيادات؛ ليكون سيد قريش الأول بلا منازع، وزوجه من ورائه تنفث السم للثأر من قتلة بكرها وأبيها وعمها وأخيها، وابنه حنظلة قد فقده في المعركة، وابنه الآخر أسير ذليل عند محمد.

وينظر عمرو بن العاص؛ فإذا به في ضربة واحدة هو السيد الوحيد والمطاع في بني سهم؛ فقد مضى القادة الأربعة من بني سهم الذين كانوا يملكون قيادتها: العاص ابن وائل، والحارث بن قيس بن عدي ماتوا في عام واحد، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج قتلا في بدر فيمن قتل، ومنبه أبو زوجة عمرو ريطة بنت منبه بن الحجاج. ومن بني سهم بن عمرو هصيص بن كعب بن لؤي منبه بن الحجاج قتله أبو اليسر أخو بني سلمة، وابنه العاص ابن منبه قتله علي بن أبي طالب، ونبيه بن الحجاج قتله حمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبي وقاص اشتركا فيه، وأبو العاص بن قيس بن عدي قتله علي بن أبي طالب؛ ويقال: النعمان بن مالك، وعاصم بن أبي عوف قتله أبو اليسر خمسة نفر(١).

وغدا رأيه هو الرأي المعتمد في بني سهم، ويعلم أنه لن يتمكن من تمتين جذور سيادته ما لم يثأر لقتلى بني سهم، وتحت هذا الاندفاع الأعمى كان هذا التيار؛ تيار المصالحة هو الذي يقود الآن تيار الحرب لمحمد والثأر لقريش منه.

معركة الثأر في أحد:

قررت قريش بالإجماع أن تحول القافلة بما فيها من أرباح؛ فتنفقها في حرب محمد ﷺ (واجتمعوا على أن يبعثوا أربعة نفر من قريش يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم فبعثوا عمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، وابن الزبعري، وأبا عزة الجمحي فأطاع النفر، وأَبَى أبو عزة أن يسير)(٢).

والملاحظ أن الأربعة الكبار الذين اختارتهم قريش ليكونوا سفراء لها في قبائل العرب - هم شعراء مكة المشهورون، ولكن عمرًا تم اختياره لأكثر من جانب؛ فهو في الشعر ليس من المبرزين فيه؛ لكن في البلاغة، والفصاحة، والدهاء، والقدرة على الإقناع - لا يضارعه أحد. ومضى يؤلب العرب ويحثهم على الانضمام لجيش مكة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧١٢).

(٢) المغازي للواقدي (١٠/ ٢٠١).

الذي سيغزو محمدًا، ويأخذ بثأر قريش.

هذا دوره في التعبئة للمعركة، ثم كان في قلب المعركة قائد الفرسان - على بعض الروايات - بالاشتراك مع خالد بن الوليد - وأقبل المشركون قد صفوا صفوفهم، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية - ويقال: عمرو بن العاص، وعلى الرماة عبد اللَّه بن أبي ربيعة، وفي قلب المعركة نشهد أعنف لحظاتها وأشدها هولًا كان في داخلها يخوض غمارها بشراسة وهول (حدثني عبد اللَّه بن عمار عن الحارث بن الفضيل الخطمي قال: أقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ، والمسلمون أوزاع[1] قد سُقط في أيديهم، فجعل يصيح: يا معشر الأنصار إليَّ، إليَّ! أنا ثابت بن الدحداحة؛ إن كان محمد قد قتل فإن اللَّه حيٌّ لا يموت، فقاتلوا عن دينكم؛ فإن اللَّه مظهركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين، وقد وقفت لهم كتيبة خشناء فيها رؤساؤهم: خالد ابن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب؛ فجعلوا يناوشونهم، وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح؛ فطعنه فأنفذه فوقع ميتًا وقتل من كان معه من الأنصار. فيقال: إن هؤلاء لآخر من قتل من المسلمين، ووصل رسول اللَّه ﷺ إلى الشعب مع أصحابه، فلم يكن هناك قتال)[2].

وكما وجدنا لقطة خالدة لعمرو بن العاص عن غزوة بدر عامة وعن القافلة خاصة - ها نحن نجد مثل هذه اللقطة من أُحُد قَدَّمَتْ المعركة بأوجز عبارة وأبلغها.

(قيل لعمرو بن العاص: كيف كان افتراق المشركين والمسلمين يوم أحد؟ فقال:

ما تريد إلى ذلك؟ قد جاء اللَّه بالإسلام ونفى الكفر وأهله، ثم قال:

لما كررنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم، وتفرقوا في كل وجه، وفاءت لهم فئة بعد؛ فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغلبة فلو انصرفنا فإنه بلغنا أن ابن أبي قد انصرف بثلث الناس وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا جراح، وخيلنا عامتها قد عقرت من النبل؛ فمضينا فما بلغنا الروحاء[3] حتى قام علينا عدة منهم ومضينا)[4].

فقد تحدث عن المعركة بعد أن أشرق قلبه بنور الإسلام.

---

(١) أوزاع: متفرقون.

(٢) المغازي للواقدي (١/ ٢٨١).

(٣) الروحاء: تبعد عن المدينة مسافة ليلتين.

(٤) المغازي للواقدي (١/ ٢٩٩).

أما الجولة الأولى: فلم يعرض لها حين قتل كبش الكتيبة وفر النساء ما دون أخذهن قليل ولا كثير، وسقط اللواء.

الجولة الثانية: حين كرَّ المشركون على المسلمين، فأوقعوا فيهم القتل وأثخنوهم بالجراح (وأصبنا من أصبنا منهم).

الجولة الثالثة: وهي جولة نفسية في أعماق الجيش المشرك؛ حيث شعر بنشوة النصر (فقالوا: لنا الغلبة فلو انصرفنا) إذ كان يرافق هذه النشوة خشية قدوم مدد من المدينة؛ فتختلف موازين المعركة ويفقدون هذه الغلبة المؤقتة (فإنه قد بلغنا أن ابن أبي قد انصرف بثلث الناس، وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج ولا نأمن أن يكروا علينا).

الجولة الرابعة: تجاوز الخشية إلى واقع آثار المعركة (وفينا جراح، وخيلنا عامتها عقرت من النبل؛ فمضينا فما بلغنا الروحاء حتى قام علينا عدة منهم).

لقد كان عمرو يدرك أبعد من المظاهر الخارجية للمعركة، ويدرك أن هذا النصر هو نصر مؤقت لم يحقق هدفًا، ولم يحتل أرضًا، ولم يُفن قيادة؛ فمحمد ﷺ وأبو بكر وعمر لا زالوا أحياءً، وكان من الممكن أن يسقط قتيلًا مع من سقط من بني عبد الدار حملة اللواء، ولكنه نجا من الموت.

نهاية المطاف في الخندق:

لقد ارتفعت معنويات قريش بعد أحد، وازداد طموح أبي سفيان أن يتمكن من القضاء على محمد بن عبد اللَّه لو جيَّش العرب في نجد وتهامة ضده؛ فما إن جاء اليهود يدعون قريشًا لتجديد الحرب ضد رسول اللَّه ﷺ قائلين: نحن معكم حتى نستأصل محمدًا - قال أبو سفيان: هذا الذي أقدمكم ونزعكم. قالوا: نعم جئنا لنحالفكم على محمد وأمثاله. قال أبو سفيان: مرحبًا وأهلًا أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد. قال النفر (من اليهود): فأخرج خمسين رجلًا من بطون قريش كلها - أنت فيهم - ندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة ثم نحلف باللَّه جميعًا لا يخذل بعضنا بعضًا، ولتكون كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل[1].

ونبحث عن عمرو بن العاص في الخندق فنجده في قلب المعركة، ومن أكبر رؤساء المشركين فيها؛ (فعن جابر بن عبد اللَّه قال: لقد رأيتني أحرس الخندق، وخيل المشركين

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٢٢).

تطيف بالخندق، وتطلب غرة ومضيقًا من الخندق فتقتحم فيه، وكان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد هما اللذين يفعلان ذلك؛ يطلبان الغفلة من المسلمين ، فلقينا خالد ابن الوليد في مائة فارس قد جال بخيله يريد مضيقًا من الخندق يريد أن يُعبر فرسانه، فنضحناهم بالنبل حتى انصرف)[١].

وحين يذكر رؤساء المشركين فيها لا بد أن يكون عمرو بن العاص في الطليعة.

(ثم إن رؤساءهم أجمعوا أن يغدو جميعًا فغدا أبو سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد اللَّه المخزومي، وعمرو بن عبد، ونوفل بن معاوية الديلي؛ فجعلوا يطيفون بالخندق... فعبر عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد اللَّه، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبد...)[٢].

وحين فشلت مكيدة قريش وتحطمت أمام الخنادق النبوية؛ نتابع مع عمرو اللحظات الأخيرة من المعركة وهو يستمع إلى خطبة أبي سفيان يدعو قريشًا إلى الجلاء عن الحصار والعودة إلى مكة، لكننا نجد هنا من هو أذكى وأدهى؛ ذلك العين المسلم الذي دخل صف العدو: حذيفة بن اليمان، والذي كان بجوار عمرو ولم يشعر به عمرو وبجواره الآخر معاوية ولم يشعر به معاوية كما نشهد معهم نهاية المعركة.

(فقام أبو سفيان فقال: احذروا الجواسيس والعيون ولينظر كل رجل جليسه. قال: فالتفتُّ إلى عمرو بن العاص فقلت: من أنت؟ وهو عن يميني، فقال: عمرو بن العاص، والتفت إلى معاوية بن أبي سفيان، فقلت: من أنت؟ فقال: معاوية بن أبي سفيان، ثم قال أبو سفيان:

إنكم واللَّه لستم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأجدب الجناب، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، وقد لقينا من الريح ما ترون، واللَّه ما يثبت لنا بناء ولا يطمئن لنا قدر؛ فارتحلوا فإني مرتحل، وقام أبو سفيان وجلس على بعيره - وهو معقول ثم ضربه - فوثب على ثلاث قوائم فما أطلق عقاله إلا بعد ما قام - ولولا عهد رسول اللَّه ﷺ إليَّ: « **لا تحدث شيئًا حتى تأتي** » ثم شئت لقتلته - فناداه عكرمة بن أبي جهل: إنك رأس القوم وقائدهم تقشع وتترك الناس؛ فاستحيا أبو سفيان فأناخ جمله ونزل عنه وأخذ بزمامه وهو يقوده، وقال: ارحلوا! قال: فجعل الناس يرتحلون وهو قائم

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٦٥). (٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٧٠).

حتى خف العسكر، ثم قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبد اللَّه، لا بد لك ولي أن نقيم في جريدة من خيل بإزاء محمد وأصحابه؛ فإنا لا نأمن أن نطلب حتى ينفذ العسكر، فقال عمرو: أنا أقيم، وقال لخالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سليمان؟ فقال: أنا أيضًا أقيم. فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل)[١].

لقد خاض غمار الحرب ضد رسول اللَّه ﷺ بكل ما يملك من طاقة، وها هو يحمي ظهر قريش مع خالد بن الوليد بعد الانسحاب عن الخندق دون تحقيق أي هدف عسكري بأضخم قوة في الحجاز يمكن أن تعبئها قريش ضد رسول اللَّه ﷺ ومعهم يهود بني قريظة، وأربع قبائل من قبائل نجد الكبرى أسد وغطفان وسليم وعامر، ولكن دون جدوى؛ فأمر محمد لا يقاوم.

* * *
* *
*

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٨٩، ٤٩٠).

في الطريق إلى منبع النور

أصدق عرض لنفسية عمرو نشهدها وقد انصرف عن الخندق.

(فيما رواه محمد بن عمر عن عبد اللَّه بن جعفر عن عثمان بن محمد الأخنسي قال: ولما انصرف عمرو بن العاص قال: قد علم كل ذي عقل أن محمدًا لم يكذب. فقال عكرمة بن أبي جهل: أنت أحق الناس ألا يقول هذا. قال عمرو: لم؟ قال: لأنه نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك. ويقال: الذي تكلم به خالد بن الوليد ولا ندري لعلهما قد تكلما بذلك جميعًا)[١].

وكان عمرو من بين هؤلاء القادة أسرع الناس إدراكًا لمصير المعركة بين حزب محمد وحزب قريش؛ ولذلك انسحب بعد الخندق من المواجهة وقال:

كنت للإسلام مجانبًا معاندًا؛ فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحدًا فنجوت ثم حضرت الخندق فقلت في نفسي: كم أنا أوضع![٢] واللَّه ليظهرن محمد على قريش فخلفت[٣] بمالي بالرهط وأفلَتُّ[٤]- يعني: من الناس - فلم أحضر الحديبية ولا صلحها، وانصرف رسول اللَّه ﷺ بالصلح ورجعت قريش إلى مكة...).

ها هي عبقرية عمرو بن العاص تتجلى في فهمه لتطورات الحرب العسكرية مع رسول اللَّه ﷺ؛ فقد أدرك بعد الخندق أن أمر محمد غالب ولا شك؛ فإلى متى يقذف في نفسه مسارعًا في حرب محمد ﷺ؟ فلن تستطيع مكة أن تحشد أضخم من هذا الحشد؛ عشرة آلاف مقاتل. وبعد حصار دام سبعة عشر يومًا عادت تجر أذيال الخيبة، وقد فقدت أعز أبطالها عمرو بن عبد ود ونوفل بن خويلد؛ ولذلك اختار الانسحاب من المعركة الخاسرة بهدوء، ومضى إلى أرضه في الوهط ومزرعته التي بذل جل ماله في اقتنائها وتحسينها وزراعتها، كما مضى قائد الجيش العام أبو سفيان إلى تجارته في الشام.

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٩١).

(٢) أوضع البعير: إذا حمله على سرعة السير.

(٣) خلفت: الذي في البداية والنهاية لابن كثير: فلحقت بمالي بالرهط؛ هو الأصح.

(٤) وأفلت: الذي في البداية والنهاية عن ابن كثير: وأقللت من الناس.

لقد أدرك عمرو أنه صاحب القرار في موقفه من محمد ﷺ، وهو منار الناس لا ينتظر رأي أحد (فقد ذكر الزبير بن بكار أن رجلًا قال لعمرو: ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك؟! قال: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وكانوا ممن يوازي حلومهم الجبال، فلما بعث النبي ﷺ فأنكروا عليه لُذْنَا بهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حق بيِّن؛ فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش بذلك من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه..)[1].

لقد كان هذا الأمر بالتأكيد بعد الخندق وبعد التخلف عن الحديبية، وبعد الاعتزال في ماله بالوهط ولم تدع قريش عمرًا بهذا الاعتزال فخسارتها جسيمة بذلك.

(.... فبعثوا إليَّ فتى منهم فناظرني في ذلك؛ فقلت:

أنشدك اللّه ربي ورب من قبلك ورب من بعدك؛ أنحن أهدى أم فارس والروم؟

قال: نحن أهدى.

قلت: فنحن أوسع عيشًا أم هم؟

قال: هم.

قلت: فما ينفعنا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا وهم أعظم منا فيها أمرًا في كل شيء؟

إنه بعد هدوئه وانقشاع سورة الغضب والحقد عنه راح يفكر بما يدعو إليه محمد وبما يتحدث به عن اليوم الآخر، وأدرك بعد الغلبة التي مني فيها من محمد - أنه لا بد من وجود اليوم الآخر، فإذا كان هو أهدى من محمد فلم يُنصر محمد عليه؟ وحيث لم يجرؤ أن يعرض هذه الفكرة على الفتى المناظر؛ لأنه لا يرغب أن يواجه قومه، عرض الأمر عليه بين العرب على دين إبراهيم وبين فارس والروم، ثم ختم كلامه للفتى بقوله:

(وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق، ولا خير في التمادي في الباطل).

لقد بدأ الإيمان يدب إلى قلبه دبيب النمل، والقادة العظماء وهم في أوج انتصارهم وقوتهم لا يدركون الحق من الباطل؛ بل منطق القوة هو الذي يحكمهم ويصدرون منه

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٦٥١).

أحكامهم على الناس، أما عندما يمنون بهزيمة ماحقة ويبتعدون عن الأضواء يُزاح منطق القوة الذي يغشى أبصارهم؛ فيرون رأي العين الحق من الباطل.

وهذا هو الضوء الخافت الأول الذي تسلل إلى قلب عمرو مع شدة كراهته لمحمد وبغضه له، لكن هذه الكراهية لم تعمه عن الحق الأبلج في الإيمان باليوم الآخر كخطوة أولى على الطريق.

وإذا كان المتسرعون من قيادات مكة رأوا أنهم حققوا نصرًا باهرًا في منع محمد من دخول مكة عام الحديبية، وأعادوه خاسرًا، ومنعوه من الدخول؛ لكن عمرًا كان أبعد نظرًا وأسد رأيًا من هذا بكثير.

لقد أدرك بعد الحديبية أن مكة لن تسقط وحدها في يد محمد؛ بل ستسقط مكة والطائف والأرض العربية كلها بيده؛ فمن الذي سيقف في وجهه حين تنتحي قريش عن المواجهة.

(وانصرف رسول اللَّه ﷺ بالصلح، ورجعت قريش إلى مكة؛ فجعلت أقول: يدخل محمد قابلًا مكة بأصحابه، ما مكة لي بمنزل ولا الطائف. وما من شيء خير من الخروج وأنا بعدُ ناءٍ عن الإسلام، أرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم).

وبعد دراسة مستفيضة للساحة المحلية والعالمية لم يجد حلًّا خيرًا من الذهاب لصديقه النجاشي؛ فهو الذي يعرف فضله ومجده، كما رأى المسلمون قبل خمسة عشر عامًا الحبشة هي الملجأ الوحيد الآمن.

وبعد هذه الحرب الطويلة من الأعوام الخمسة عشر تغيرت الأمور وأصبحت قيادات مكة تبحث عن المكان الآمن لها في الحبشة، وبذكاء لماح دعا قومه الذين يدينون له بالزعامة وعرض عليهم رأيه، وقرر أن يمضي مع وجهائهم إلى الحبشة؛ فهي مكان آمن على كل الحالات، فلو انتصر محمد ﷺ - وهو الأرجح - فليَبْقَ بعيدًا عن متناول يده؛ لنأي الحبشة وبعدها، ولو انتصرت مكة فأهل مكة يعرفون بلاءه وفضله معهم من قبل؛ فيشركونه في الغنيمة والنصر، واتجه الأمر إلى النجاشي بعمرو وصحبه.

(فجعلت أقول: يدخل محمد قابلًا مكة بأصحابه، ما مكة لي بمنزل ولا الطائف. وما من شيء خير من الخروج، وأنا بعدُ ناءٍ عن الإسلام أرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم؛ فقدمت مكة، فجمعت رجالًا من قومي كانوا يرون رأيي ويسمعون مني فيما

نابهم من أمر فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومدرهنا[١] مع يُمْنِ نَفْسٍ وبركة أمر. قال: قلت: تعلمون واللَّه أني لأرى أمر محمد يعلو علوًّا منكرًا، وإني قد رأيت رأيًا. قالوا: ما هو؟ قال: نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن كان يظهر محمد كنا عند النجاشي، فنكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد. وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا. قالوا: هذا الرأي. قال: فاجمعوا ما تهدونه له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم[٢]. قال: فجمعنا أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي؛ فواللَّه إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري وكان رسول اللَّه ﷺ قد بعثه بكتاب كتبه إليه يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فدخل عليه، ثم خرج من عنده؛ فقلت لأصحابي: هذا عمرو ابن أمية، ولو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك سُرَّت قريش وكنت أجزأت عنها حين قتلتُ رسول محمد.

قال: فدخلت على النجاشي[٣]، فسجدت له كما كنت أصنع؛ فقال: مرحبًا بصديقي، أهديت لي من بلادك شيئًا؟ قلت: نعم أيها الملك، أهديت لك أدمًا كثيرًا ثم قربته إليه فأعجبه وفرق منه أشياء بين بطارقته، وأمر بسائره فأدخل في موضع، وأمر أن يكتب ويحتفظ به، فلما رأيت طيب نفسه قلت: أيها الملك إني قد رأيت رجلًا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا، قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله...).

إنه يريد أن يعيد الكرة التي أنهى بها عمارة بن الوليد صديقه في الجاهلية؛ حيث أوقعه في الجرم المشهود، وقضى به إلى الوحوش يهيم معها ويقيم؛ فالقتل سهل عنده وهو هنا أنشط لذلك؛ فقتل عمرو بن أمية هو قتل لرسول محمد عند النجاشي، وستحفظ له ولقومه قريش هذا الفضل. إنه يعيش في تناقض رهيب في أعماقه؛ فهو يدرك أن محمدًا لم يكذب قط ويدرك أنه لا بد من اليوم الآخر لتحقيق العدل بين الناس، لكن صوتًا آخر أشد وأعنف بشدة من أعماقه يشده إلى أبيه العاص بن وائل الذي أوقف حياته على حرب محمد يشده إلى ذاته؛ فظهور محمد إنهاء زعامته إلى الأبد، وحين يؤمن به يعني أنه سيغدو جنديًّا في آخر الركب؛ ومن أجل ذلك هو ناءٍ عن الإسلام يرى لو آمن الناس جميعًا ما آمن.

---

(١) مدرهنا: سيدنا وشريفنا. (٢) الأدم: الجلود.

(٣) نرجح أن هذا النجاشي هو غير النجاشي الذي كان في السنة السادسة للبعثة والذي زاره فيها عمرو بن العاص وعبد اللـه بن أبي ربيعة لاسترجاع المسلمين، فلو كان هو ذاته لما اطمأن عمرو إلى المضي إليه بعد رد هداياه له وطرده، وهو الرأي الذي عليه الأكثر من كتاب السيرة: أن النجاشي الذي بعث له رسول اللـه ﷺ الكتاب غير النجاشي الأول.

إنه لا يرى حرمة لأحد. لقد قال له عبد اللَّه بن أبي ربيعة يوم قرر أن يستأصل خضراء المسلمين عند النجاشي: « لا تفعل؛ فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا. قال: واللَّه لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد ».

كان هذا آخر عهد بعمرو بن العاص الذي أوفى على الذروة في قمة الجاهلية، ويود قتل رسول محمد؛ لنشهد بعد هذه اللحظات إنسانًا جديدًا اسمه عمرو بن العاص.

(فأعطنيه فأقتله، فرفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره، وابتدر منخاري فجعلت أتلقى الدم بثيابي، وأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض ودخلت فيها فرقًا[1] منه، ثم قلت له: أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما فعلت ما سألتك.

قال واستحيا وقال: يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول رسول اللَّه من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، والذي كان يأتي عيسى ابن مريم لتقتله؟

(قال عمرو: وغير اللَّه قلبي عما كنت عليه وقلت في نفسي: عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت؟ قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال: نعم. أشهد به عند اللَّه يا عمرو؛ فأطعني واتبعه، واللَّه إنه لعلى الحق، وليظهرن على كل دين خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قلت: أفتبايعني على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده ثم بايعته على الإسلام، ودعا لي بطست فغسل عني الدم، وكساني ثيابًا، وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم فألقيتها، ثم خرجت إلى أصحابي فلما رأوا كسوة الملك سُروا بذلك وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلمه في أول مرة، وقلت: أعود إليه. قالوا: الرأي ما رأيت..)[2].

إنه فشل جديد يسطره تاريخه السياسي الجاهلي؛ فبعد أن أعد كل العدة لهزيمة خصمه محمد ﷺ، ورأى الفرصة مواتية لقتل رسوله ونال من الترحيب الملكي ما يفوق الوصف بعد أن قدم له الهدايا الملائمة لمقامه وألقى بكلمته بين يدي الملك وهو لا يشك لحظة واحدة بتسليم رسول محمد إليه وكان ما لا يمكن أن يخطر له على بال.

(فرفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره وابتدر مُنخاري، فجعلت أتلقى الدم بثيابي، وأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض ودخلت فيها فرقًا منه).

إن كل الهزائم العسكرية التي هُزم بها من قِبَل محمد ﷺ لم تؤثر فيه مثل تأثير هذا

(١) فرقًا: خوفًا.

(٢) المغازي للواقدي (٢/ ٧٤١ - ٧٤٤).

الضرب من ملك صديق عزيز عليه؛ فكل ما فعلته الهزائم العسكرية أقنعته أن أمر محمد يعلو علوًّا منكرًا، وكان يرتفع في أعماقه صوت فحيح ضعيف يدعوه إلى الإيمان بمحمد؛ فمحمد صادق في دعواه، ومحمد لا يكذب؛ لكن أين يأخذ هذا الصوت مداه في بحر سيطرة الشهرة والسمعة والمركز المرموق في قريش؟! أو الذي قام على عقيدة الجاهلية وعبادة اللات والعزى من دون اللَّه؟!!

لكن الوضع الجديد زلزل كل أعماقه، وهز وجدانه، وتلَّه تلًّا عنيفًا، حتى يرى بطن الأرض خيرًا له من ظهرها أمام هذا الذل الذي أصابه.

وهنا وحيث سقطت كل الأقنعة، وتفجر الدم من أنفه يغرق ثيابه؛ انهدمت القلعة الأخيرة التي يأوي إليها في حماية النجاشي.

(.. قال: أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك).

قال: واستحيا وقال: يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول رسول اللَّه من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى والذي كان يأتي عيسى ابن مريم لتقتله؟!).

لقد انهار بناء الجاهلية كله بضربة نجاشية قاضية، وتحطمت كل القلاع الحصينة الوثنية فوق قلبه، واتصل التيار الكهربائي من الإيمان والهدى بقلبه الذي مسته لمسة الحياة فانتفض انتفاضة العصفور بلله القطر، ورأى مباشرة بهذا النور الجديد.

(وغيَّر اللَّه قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي: عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت؟!

قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟

قال: أشهد به عند اللَّه يا عمرو، فأطعني واتبعه، واللَّه إنه لعلى الحق، وليظهرن على كل دين خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده).

أما ظهور محمد على مكة والعرب؛ فقد رآه عمرو بعين بصيرته. لكن ظهوره على كل من ناوأه في الأرض؛ فهذا معنى قد سكبه النجاشي في قلب عمرو.

وعندما يشتعل التيار الكهربي لا تستطيع أي قوة العمل في إطفائه؛ فقد اتصل عمرو بمخزن الطاقة مباشرة، ولم يتمالك أن قال:

أفتبايعني على الإسلام؟ قال: نعم.

فبسط يده، فبايعته على الإسلام.

ولم ينتظر حتى يخرج إلى أصحابه فيستشيرهم إنه: (هو ذو رأيهم مدرههم مع يمن نفس وبركة أمر)؛ فهم الذين يفيئون إليه، وليس هو الذي يفيء إليهم.

وهكذا انضم قائد فذ جنديًّا جديدًا في دعوة اللَّه ﷻ؛ ليصبح واحدًا من خيار أهل الأرض الذين بدؤوا يتجمعون ويتوافدون إلى المدينة.

صحيح أن وصوله إلى المدينة قد تأخر سنة كاملة عن إسلامه: حتى صفر من السنة الثامنة، لكن إسلامه ومبايعته للنجاشي على الإسلام كان قد تم في المجلس الملكي في صفر من السنة السابعة.

أول ابتلاء في سبيل اللَّه:

روى ابن عساكر وغيره عن عمير بن إسحاق قال:

استأذن جعفر رسول اللَّه ﷺ؛ فقال: إيذن لي حتى آتي أرضًا أعبد اللَّه فيها لا أخاف أحدًا. قال: فأذن له، فأتى النجاشي. قال (يعني عمير): حدثني عمرو بن العاص قال: لما رأيت مكانه حسدته فقلت: واللَّه لأستقبلن لهذا وأصحابه؛ فأتيت النجاشي فدخلت عليه فقلت: إن بأرضك رجلًا ابن عمه بأرضنا، وإنه يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد وأنك واللَّه إن لم تقتله وأصحابه لا أقطع هذه النطفة إليك أبدًا أنا ولا أصحابي. قال: ادعه، قال: قلت: إنه لا يجيء معي فأرسل معي رسولًا. قال: فجاء فلما انتهينا إلى الباب ناديت: إيذن لعمرو بن العاص. قال: وناداهم من خلفي: إيذن لحزب اللَّه. قال: فسمع صوته فأذن له ولأصحابه. قال: أذن لي فدخلت فإذا هو جالس فذكر أين كان مقعده من السرير، فلما رأيته طبت حتى قعدت بين يديه فجعلته خلف ظهري، قال: وأقعدت بين كل رجلين من أصحابه رجلًا من أصحابي.

لقد بلغ عمرو من الدالة عند الملك والثقة عنده أن يستجيب لكل طلباته، ويبعث معه رسولًا ليأتيه بجعفر بن أبي طالب وليس عنده هدف إلا قتل جعفر، وعمرو على بعده عن الاهتمام بالعقائد لكنه يعلم ما في النصرانية من وثنية وتثليث؛ فركز على كفر جعفر في زعمه أن ليس في الكون إلا إله واحد، وربط المصلحة بالعقيدة؛ حيث أكد للنجاشي أن أي تساهل مع جعفر وأصحابه يعني القطيعة مع قريش، والمقاطعة التجارية الكاملة؛ لكنه لم يدرك أغوار النجاشي الجديد ويحسب أنه يختلف عن سابقه؛ لكن الزلزلة التي نزلت به حين استأذن هو وجعفر فأذن لجعفر قبله حين نادى: إيذن لحزب اللَّه - كانت الصفعة السياسية الجديدة التي لم تكن له على بال. وعندما أذن له وجد جعفر بين يدي

النجاشي فتصرف بالثقة التي يملكها وتقدم بجرأة نادرة فأجلس جعفرًا خلفه، وأجلس بين كل اثنين من المسلمين أحد أصحابه؛ فهو مغامر من الدرجة الأولى. وحلم النجاشي عليه ثم قال: (نجروا - أي: تكلموا - قال عمرو فقلت: إن ابن عم هذا بأرضنا، وإنه يزعم أنه ليس إلا إله واحد، وإنك واللّـه إن لم تقتله وأصحابه لا نقطع هذه النطفة إليك أبدًا ولا أحد من أصحابي.

فتشهد فإني أول ما سمعت التشهد يومئذ قال - يعني: جعفر -: صدق وهو ابن عمي وأنا على دينه.

فصاح - أي: النجاشي - صياحًا وقال: أوه، حتى قلت: ما لابن الحبشية لا يتكلم؟! فقال: أَنَامُوسٌ كَنَامُوسِ موسى؟! قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

قال: أقول: هو روح اللّه وكلمته. قال: فتناول شيئًا من الأرض فقال: ما أخطأ في أمره مثل هذا، فواللّه لولا ملكي لا تبعتكم. وقال لي: ما كنت أبالي أنك لا تأتيني أنت ولا أحد من أصحابك. وقال لجعفر: أنت آمن في أرضي، من ضربك قتلته ومن سبَّك غرمته. وقال لآذنه: متى استأذنك هذا فأذن له إلا أن أكون عند أهلي؛ فإن أبى فأذن له...).

ويتتابع الفشل عند عمرو مع النجاشي الأول والنجاشي الثاني، ويخفق في قتل ابن عم محمد، ومقدر أن دخول عمرو على النجاشي من أجل عمرو بن أمية الضمري إنما كان بعد هذه الوفادة. وأنه أسلم على يدي النجاشي في المرة الثانية، وقرر أن يكون إسلامه الحقيقي على يد جعفر بعد أن بايع النجاشي. لنتمكن من الجمع بين الروايات القريبة من الصحة والتي يكمل بعضها بعضًا؛ لنأخذ من هذه الرواية إسلامه على يد جعفر (.. وتفرقنا، قال عمرو: فلم يكن أحد أحب إلي أن أكون قد لقيته خاليًا من جعفر، فاستقبلني في طريق مرة ولم أر أحدًا فنظرت خلفي فلم أرَ أحدًا. قال: فدنوت منه فأخذت بيده، فقلت: تعلم أني أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا عبده ورسوله؟ قال: فقال: هداك اللّه فاثبت. وتركني وذهب. قال: فأتيت أصحابي فكأنما شهدوه معي؛ فأخذوني فألقوا عليَّ قطيفة أو شيئًا. قال: وجعلوا يغموني وجعلت أخرج رأسي من هذه الناحية مرة ومن هذه مرة؛ حتى أفلتّ وما علي قشرة).

إنه يذوق اليوم ما كان يحلم أن يذيقه المسلمين، وإن أصحابه الذين جاء بهم إلى الحبشة ليثبتوا على دين قريش ها هو يخونهم ويسلم؛ فقد بيتوا قتله وخنقه كما بيت صاحبه عمارة بن الوليد من قبل ذلك به، وكما بيت في كل مرة قتل جعفر واستئصال شأفة

المسلمين وقتل عمرو بن أمية؛ لكنه أفلت منهم بأعجوبة وتركوه عاريًامن كل شيء.

(... وما علي قشرة، فَلَقِيَتْه حبشية فأَخَذْتُ قناعها، فجعلته على عورتي، فقالت: كذا وكذا فقلت: كذا وكذا، قال: فأتيت جعفرًا حتى أدخل عليه، فقال: مالك؟ فقلت: ذُهِبَ بكل شيء لي حتى ما بقي عليَّ قشرة؛ فما الذي ترى عليَّ إلا قناع حبشية...).

وها هو عمرو وجعفر الآن في خندق واحد، وجعفر هو الأقرب والأحسب للملك يستأذن عليه متى شاء، قال: (فانطلق، وانطلقت معه حتى انتهى إلى باب الملك، فقال: إيذن لحزب اللَّه ﷻ، فقال: آذنه إنه مع أهله. قال: استأذن لي عليه؛ فاستأذن فأذن له، فقال: إن عمرًا قد بايعني، قال: كلا. قال: بلى. قال لإنسان: اذهب فإن كان فعل فلا يقولن لك شيئًا إلا كتبته. فجعل يكتب ما أقول حتى يدلنا كل شيء حتى القدح، وإن شئت أن آخذ من أموالهم إلى مالي لفعلت)[١].

وعند ابن عساكر رواية أخرى تحدد الزمن والحادثة معًا في وقت واحد عن أبي نعيم الحافظ يقول فيها: (عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم ابن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب، يكنى أبا عبد اللَّه، أمه: النابغة من بني عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، كان يخضب بالسواد، خرج إلى الحبشة إلى النجاشي بعد الأحزاب؛ فأسلم عنده بالحبشة، فأخذه أصحابه بالحبشة فغموه، فأفلت منهم مجردًا ليس عليه قشرة؛ فأظهر للنجاشي إسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله وردَّه عليه، فقدم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة مهاجرًا إلى المدينة)[٢].

لقد دفع ثمن إسلامه مباشرة كما دفعه من قبل عمر بن الخطاب في مكة بعد إسلامه (فما زال يضربهم ويضربونه حتى زالت الشمس).

وكانت بيعة النجاشي ثم بيعة جعفر، ثم طمحت نفسه إلى بيعة رسول اللَّه ﷺ: (ثم خرجت عامدًا لرسول اللَّه ﷺ)[٣].

الهجرة إلى اللّه ورسوله:

فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شحنت تدفع؛ فركبت معهم ودفعوها

---

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٣٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، والبزار، وعمير بن إسحاق، وثقه ابن حبان وغيره، وفيه كلام لا يضر، وبقية رجاله رجال الصحيح، وروى أبو يعلى بعضه، ورواه ابن عساكر (١٣/ ٤٩٢).

(٢) تاريخ دمشق، للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٤٨٩).

(٣) المرجع السابق (١٣/ ٤٩٣).

حتى انتهوا إلى الشعيبة، وخرجت من الشعيبة ومعي نفقة، فابتعت بعيرًا وخرجت أريد المدينة حتى خرجت على مر الظهران، ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدة إذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلًا، وأحدهما داخل في خيمة والآخر قائم يمسك الراحلتين؛ فنظرت فإذا خالد بن الوليد، فقلت: أبا سليمان؟ قال: نعم. فقلت: أين تريد؟ قال: محمدًا، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طمع، واللَّه لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها. فقلت: وأنا واللَّه أريد محمدًا وأردت الإسلام، وخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعًا في المنزل، ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة.

رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها:

وانطلق الركب الثلاثة مُيمِّمين صوب المدينة، وهم سادة مكة بلا منازع إلَّا أبا سفيان ابن حرب؛ فالذين تركوهم بمكة عكرمة وصفوان وسهيل لا يبلغون شأو خالد في العبقرية الحربية، ولا يبلغون شأو عمرو بن العاص في الدهاء ونصاعة الرأي والعبقرية السياسية، ولا يبلغون شأن عثمان بن طلحة في الموقع الديني؛ فعثمان بن طلحة سادن الكعبة التي قُدِّست مكة من أجلها، والذي يعترف العرب بفضل قريش عليهم؛ لأنهم جيران بيت اللَّه وسدنة البيت، وهم خواص هؤلاء الجيران، وهم الذين انتهت إليهم الحجابة. ويبرز عثمان بن طلحة على رأس هؤلاء جميعًا، ويحمل عثمان بن طلحة شرفًا آخر ومجدًا عريقًا تقره قريش عليه ألا وهو اللواء؛ فاللواء في قريش كان في بني عبد الدار، وعثمان ابن طلحة سيد بني عبد الدار بلا منازع. ومعنى مضي هؤلاء الثلاثة ليسلموا هو أن مكة قد ألقت قيادها بعدهم كما ذكر الذي رآهم قادمين إلى الإسلام.

(... فما أنسى قول رجل لقينا ببئر أبي عنبة يصيح: يا رباح يا رباح؛ فتفاءلنا بقوله وسررنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين؛ فظننت أنه يعنيني ويعني خالدًا، ثم ولى مدبرًا إلى المسجد سريعًا فظننت أنه سَيُسَرُّ رسول اللَّه ﷺ بقدومنا فكان كما ظننت. وأنخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا، ونودي بالعصر؛ فانطلقنا جميعًا حتى طلع علينا رسول اللَّه ﷺ وإن لوجهه تهللًا والمسلمون حوله سُروا بإسلامنا).

وفي رواية أخرى رواها الحافظ ابن عساكر عن الزبير، قال: وهاجر عمرو بن العاص في القضية التي كانت بين رسول اللَّه وبين قريش هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة،

فلما رآهم رسول اللَّه قال: « **رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها** »[١].

ولا يوجد أي تعبير أعظم وأدق من هذا التعبير النبوي الذي حدد فيه موقع هؤلاء الثلاثة من قريش؛ فهم فلذة الكبد وهم أغلى وأنفس ما فيها.

اللقاء السعيد:

وكان رسول اللَّه ﷺ سعيدًا فرحًا بأغلى هدايا مكة له؛ هؤلاء القادة الكبار وهذه الكنوز الخالدة، وكما قال خالد بن الوليد لأخيه: « أسرع فإن رسول اللَّه قد سُر بقدومك وهو ينتظركم. فأسرعت المشي فأطلعت عليه فما زال يبتسم إليَّ حتى وقفت عليه »[٢].

وذاك عمرو بن العاص يصف هذا اللقاء السعيد بقوله: وإن لوجهه تهللًا، والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا. لقد جاء هذا اللقاء بعد حرب ضروس بين هؤلاء القادة الكبار، وبين محمد ﷺ استمر ثماني سنوات لا يهدأ لها أوار، عُبئت له كل الطاقات المجاورة، وها هم الآن يأتون مسلمين للَّه ولرسوله. ولقد كانت قضية واحدة تقلق القائدين عمرو وخالد؛ هذه القضية هي مسح ذلك الماضي الذي ينزف دمًا وحقدًا على الإسلام والمسلمين.

يقول خالد ﷺ: (يا رسول اللَّه قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا في الحق؛ فادع اللَّه أن يغفرها لي، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **الإسلام يجبُّ ما قبله** »)[٣].

ومع ذلك وبعد أن التقى خالد ببؤرة النور واتصل بالمصدر الأساسي في الأرض لهذا النور: ﴿ .. قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥] - يود أن ينال شرف هذا التضرع من رسول رب العالمين في طلب المغفرة لخالد؛ فعاد يكرر: قلت: يا رسول اللَّه، عليَّ ذلك؟ فقال: « **اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع من صد عن سبيلك** »[٤].

أمَّا عمرو بن العاص ﷺ؛ فيعطينا إضاءة أخرى عن نفسه، وقد ترك زميليه يتقدمانه إلى البيعة لشدة حيائه من رسول اللَّه ﷺ: (.. فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان ابن طلحة فبايع، ثم تقدمت؛ فواللَّه ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي إليه حياء منه، فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضرني

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (١٧/ ٤٩٧).
(٢ - ٤) المغازي للواقدي (٢/ ٧٤٩).

ما تأخر؛ فقال: « **إن الإسلام يجبُّ ما كان قبله، والهجرة تجبُّ ما كان قبلها** ». فقد كان شعور الحياء من ذلك الماضي الآسن هو الذي يسيطر عليه، وما يستطيع أن يحيل طرفه بوجه رسول اللَّه ﷺ ولا يضع عينه بعينه.

ومثل هذا الدخول في الإسلام من القادة الأعداء لو كان في غير مدرسة النبوة؛ لكان عليهم أن يوضعوا سنوات تحت التجربة، سنوات قبل الاطمئنان إليهم، ومراقبتهم والحذر منهم، و تحذير المسلمين من الاتصال بهم. أما في مدرسة النبوة التي تتعامل مع المعادن التي علاها الركام والران ولا تتعامل مع الركام والران نفسه؛ في هذه المدرسة - ومنذ اللحظات الأولى للإسلام - يتقدم هذا العدو ليأخذ موقعه المناسب مع كفاءاته وإمكاناته وخبراته، وكأنما هو من أهل دار الأرقم أو الرعيل الأول من المهاجرين، يقول عمرو: (.. فواللَّه ما عدل بي رسول اللَّه ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا...). لقد احتلوا الموقع الأول من الصدارة في المسؤولية والمواجهة العسكرية منذ لحظات إسلامهما إلى أن توفى اللَّه - تعالى - نبيه.

(... ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، وكان عمر على خالد كالعاتب)[1].

أمَّا عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص فلم يكن عاتبًا عليه، وكلام عمرو ﷺ يحمل في ثناياه أدب تربية النبوة؛ فالذي كان بين عمر وخالد وصل به إلى أن عزله عن القيادة في أول لحظة أُوسِدَ الأمر إليه فيه وصار خليفة للمسلمين، ومع ذلك فيصوغ هذا الأمر ابن العاص صياغة الأدب الإسلامي الرفيع (وكان عمر على خالد كالعاتب).

بينما كان الجو بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص جو ثقة متبادلة منذ الجاهلية؛ فبعد أن دخل عمرو حظيرة الإسلام أمكن لعمر ﷺ أن يبث ما في قلبه لعمرو بن العاص؛ فهو الذي كان يتمناه إلى جواره منذ أسلم قبل سبعة عشر عامًا، وهذا هو موقعه الحقيقي. قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: (لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين؟! فقال له عمرو: وما يعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يقدر التخلص منه إلا ما أراد الذي هو بيده؟ فقال عمر: صدقت)[2].

لقد بلغ عمرو ﷺ من الفقه في دين اللَّه أن يَحجَّ عُمَرَ بن الخطاب وهو يتعجب من

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٧٤١ - ٧٤٥)، والإمام أحمد في المسند (ح ١٧١٠٩) مسند الشاميين.

(٢) تاريخ ابن عساكر (١٣/ ٤٩٧).

تأخر إسلامه، ويذكره أن القلوب بيد اللَّه عندما تأتيها ساعة الرحمة تُعطى ذلك الفيض الرباني، وإلا ما الذي أخَّر عمرو بن العاص ست سنين عن الإسلام وعقله عقله؟!.

* * *
* *
*

المجد الإسلامي الأول:
غزوة ذات السلاسل

مضت غزوة مؤتة بعد شهرين من إسلام عمرو وخالد، وحضرها خالد بن الوليد ابتداءً جنديًا مغمورًا وانتهاءً قائدًا فذًا عظيمًا حصل على أعلى وسام حربي في الإسلام من رسول اللَّه ﷺ (سيف اللَّه) وغدا على كل فم وكل لسان؛ فماذا عن عمرو؟

(ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، فظننت أنه يعنيني ويعني خالد (بن الوليد)، وعمرو ينتظر على أحر من الجمر أن تمسه تلك الثقة الغالية من قائده الحبيب.

وكانت غزوة ذات السلاسل، نعرض نصوصها ابتداءً ثم نعيش في ظلال هذه النصوص، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان.

١ - يحدثنا عمرو بن العاص ﷺ؛ فيقول:

(قال لي رسول اللَّه ﷺ: « **يا عمرو اشدد عليك سلاحك وثيابك وائتني** »، ففعلت فجئته وهو يتوضأ فصعَّد فيَّ البصر وصوبه، وقال: « **يا عمرو إني أريد أن أبعثك وجهًا فيسلمك اللَّه ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة** »، قال: قلت: يا رسول اللَّه: إني لم أسلم رغبة في المال؛ إنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك. قال: « **يا عمرو! نعمًا بالمال الصالح للرجل الصالح** »)[1].

٢ - محمد بن عمر عن رواته:

(بلغ رسول اللَّه ﷺ أن جمعًا من بلي وقضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول اللَّه ﷺ؛ فدعا رسول اللَّه عمرو بن العاص، فعقد له لواءً أبيض وجعل معه راية سوداء، وبعثه في سراة المهاجرين والأنصار في ثلاثمائة: (عامر بن ربيعة وصهيب ابن سنان، وأبو الأعور سعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص؛ ومن الأنصار: أسيد بن حضير، وعباد بن بشر، وسلمة بن سلامة، وسعد بن عبادة، وأمره أن يستعين بمن مر به من العرب وهي بلاد بلي وعذرة وبلقين؛ وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم،

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح (١٧١٣٤).

كانت أم العاص بن وائل بلوية فأراد رسول اللَّه ﷺ أن يتألفهم بعمرو)[١].

٣ - قال ابن عقبة وابن إسحاق وابن سعد ومحمد بن عمر - واللفظ له:

(بلغ رسول اللَّه ﷺ أن جمعًا من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا من أطراف رسول االلَّه ﷺ، فدعا رسول اللَّه عمرو بن العاص بعد إسلامه بسنة)[٢].

٤ - عن ابن إسحاق قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن الحصين التميمي عن غزوة ذات السلاسل من أرض بلي وعذرة، وقال:

(بعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص ليستنفر العرب إلى الإسلام؛ وذلك أن أم العاص ابن وائل كانت امرأة من بلي، فبعثه رسول اللَّه ﷺ يستألفهم بذلك حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال لها: السلاسل - وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل - فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول اللَّه ﷺ يستمده وبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجهه: « **لا تختلفا** » فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه، قال له عمرو: إنما جئت مددًا لي. فقال أبو عبيدة: لا، ولكني أمير على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه. وكان أبو عبيدة رجلًا لينًا سهلًا هينًا عليه أمر الدنيا؛ فقال له عمرو: أنت مدد لي. فقال أبو عبيدة: يا عمرو، إن رسول اللَّه ﷺ قال: « **لا تختلفا** » وإنك إن عصيتني أطعتك. فقال له عمرو: فإني أمير عليك، وإنما أنت مدد لي. قال: فدونك. فصلى عمرو بالناس »)[٣].

(قال: وحدثنا يونس عن أبي معشر عن بعض مشيختهم أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إني لأؤمِّر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه؛ لأنه أيقظ عينًا وأبصر بالحرب** »)[٤].

٥ - وانطلق المغيرة بن شعبة إلى أبي عبيدة فقال:

(إن رسول اللَّه استعملك علينا، وإن ابن فلان قد ارتبع أمر القوم، وليس لك معه أمر؛ فقال أبو عبيدة: إن رسول اللَّه ﷺ أمرنا أن نتطاوع؛ فأنا أطيع رسول اللَّه ﷺ وإن عصاه عمرو)[٥].

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٧٧٠).

(٢) سبل الهدى والرشاد (٦/ ٢٦٢)، والمقصود بعد إسلامه على يد النجاشي بالمدينة حيث مر عليها سنة، أمَّا إسلامه في المدينة فلم يمر عليه أكثر من أربعة أشهر.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٤) رواه البيهقي في الدلائل عن معشر، عن بعض شيوخه.

(٥) مسند الإمام أحمد (١/ ١٩٦).

٦ – وروى ابن حبان والطبراني برجال الصحيح عن عمرو بن العاص ﷺ: (أن رسول اللَّه ﷺ بعثه في غزوة ذات السلاسل فسأله أصحابه أن يوقدوا نارًا فمنعهم فكلموا أبا بكر ﷺ فكلمه فقال: لا يوقد أحد منهم نارًا إلا قذفته بها)[١].

٧ – وروى الحاكم عن بريدة ﷺ قال: (بعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص في سرية منهم أبو بكر وعمر – رضي اللَّه عنهما – فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو ألا يوقدوا نارًا فغضب عمر بن الخطاب وهمَّ أن يأتيه فنهاه أبو بكر، وأخبره أن رسول اللَّه ﷺ لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب فهدأ عنه.

فسار عمرو بالليل، وكمن النهار حتى وطئ بلاد العدو، ودوخها كلها حتى انتهى إلى موضع بلغه أنه كان به جمع، فلما سمعوا به تفرقوا؛ فسار حتى انتهى إلى أقصى بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعًا ليس بالكثير فاقتتلوا ساعة، وحمل عليهم المسلمون فهزموهم، وتفرقوا. ودوخ عمرو ما كان هنالك وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه إلا قاتلهم، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والغنم؛ فكانوا ينحرون ويأكلون، ولم يكن أكثر من ذلك، ولم يكن في ذلك غنائم تقسم. كذا قال جماعة)[٢].

(قال البلاذري: فلقي العدو من قضاعة وعاملة ولخم وجذام، وكانوا مجتمعين ففضَّهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم. وروى ابن حبان والطبراني عن عمرو أنهم لقوا العدو؛ فأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم، وبعث عمرو عوف بن مالك الأشجعي ﷺ بشيرًا إلى رسول اللَّه بقفولهم وسلامتهم وما كان من غزاتهم)[٣].

٨ – احتلام عمرو بن العاص: روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص قال:

(احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل؛ فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: « **يا عمرو أصليت بأصحابك وأنت جنب؟** »؛ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت اللَّه يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩]؛ فضحك رسول اللَّه ولم يقل شيئًا)[٤].

وفي رواية لأبي داود عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص (أن عمرو بن العاص كان

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/ ٢٦٤).
(٢) المستدرك للحاكم (٣/ ٤٢).
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/ ٢٦٤).
(٤) مسند أحمد (٤/ ٢٦٣).

على سرية... وذكر الحديث نحوه، فقال: فغسل مغابنه[١]، وتوضأ وضوءه للصلاة، ثم صلى بهم... فذكر نحوه ولم يذكر التيمم. قال أبو داود: وروى هذه القصة عن الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: فيه « فتيمم »)[٢].

٩ - روى ابن حبان والطبراني عن عمرو بن العاص ﷺ: (أن الجيش لما رجعوا ذكروا لرسول اللَّه ﷺ منعي لهم من إيقاد النار ومن اتباعهم العدو؛ فقلت: يا رسول اللَّه إني كرهت أن يوقدوا نارًا؛ فيرى عدوهم قلَّتهم، وكرهت أن يتبعوهم؛ فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم. فحمد رسول اللَّه ﷺ أمره)[٣].

١٠ - روى البخاري عن أبي عثمان النهدي - رحمه اللَّه تعالى - موقوفًا عليه، ومسلم والإسماعيلي، والبيهقي عنه قال: (سمعت عمرو بن العاص يقول: بعثني رسول اللَّه ﷺ على جيش ذات السلاسل، وفي القوم أبو بكر وعمر؛ فحدثت نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة عنده، قال: فأتيته حتى قعدت بين يديه، وقلت: يا رسول اللَّه، من أحب الناس إليك؟ قال: « **عائشة** ». قلت: إني لست أسألك عن أهلك. قال: « **فأبوها** ». قلت: ثم من؟ قال: « **عمر** ». قلت: ثم من؟ حتى عد رهطًا. قلت في نفسي: لا أعود أسأل عن هذا. وفي رواية الشيخين: فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم)[٤].

١ - المال الصالح للرجل الصالح:

لقد كان رسول اللَّه ﷺ يبني الرجال وأنشأ الجيل الأول على يديه، أما عمرو فقد جاءت صياغته كاملة وبلغ مرحلة القيادة في الجاهلية، ويود ﷺ أن يسخر هذه الطاقات في سبيل اللَّه، فكانت الإشارة النبوية: « **يا عمرو، اشدد عليك سلاحك وثيابك وائتني** » وكم شد عمرو سلاحه وثيابه وتهيأ لحرب الإسلام والمسلمين؛ أما الآن فإنه للمرة الأولى يشد ثياب الحرب عليه ويعد سلاحه بأمر رسول اللَّه ﷺ، فهو يمضي إلى المجهول لكنه في قمة السعادة؛ فقد آن الأوان ليمضي مجاهدًا في سبيل اللَّه، وإذا كان خالد بن الوليد ﷺ، وهو الأبرع والأكفأ في الحرب منه - لم يُوَلِّه - عليه الصلاة والسلام - القيادة في مؤتة إنما تركه يمضي جنديًّا مغمورًا في هذه الآلاف الثلاثة، ثم اختاره الناس أميرًا فيما بعد؛ فعمرو إذن سيكون مثل خالد في خطواته الجهادية الأولى.

---

(١) المغابن: بواطن الأفخاذ والآباط.
(٢) سنن أبي داود (١/ ٩٢)، (٣٣٥) كتاب الطهارة.
(٣) سبل الهدى والرشاد (٦/ ٢٨٨).
(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/ ٢٦٨)، وهي عند البخاري (٣٣٨٩)، ومسلم (٤٣٩٦).

وها هو النبي ﷺ يصعِّد فيه النظر ويصوبه، وفي ذهنه هذا المعدن الذي يتلألأ رجولة وشهامة؛ فقال له: « **يا عمرو إني أريد أن أبعثك بعثًا فيسلمك اللَّه ويغنمك وأرغب لك في المال رغبة صالحة** ».

لقد تجاوز عمرو الخمسين من عمره، ولم يعد ذلك الشاب الطموح الهائج لجمع المال وتكوين الثروة وتصيد المجد؛ فقد غدا كهلًا وقورًا، فراح قلبه يخفق وهو يسمع هذا التكليف النبوي العظيم، ولا يكاد يجرؤ أن يرفع بصره إلى رسول اللَّه ﷺ حياءً منه وهيبةً منه؛ لكنه وهو يسمع هذا الأمر المحبب إليه دار بذهنه صورة قاتمة مع هذا الأمر، فرسول اللَّه ﷺ يعده بالسلامة والغنيمة، ويحب له أن تكون غنيمته وافرة في هذا البعث. تُرى هل هان في عين المصطفى ﷺ فراح يعامله لتأليف قلبه بالمال؟! وهو قد آمن الإيمان الذي يراه في قلبه يضارع الجبال والإخلاص للَّه وحده، والتخلي عن زينة الدنيا من المال والولد هوما يربي عليه النبي ﷺ أحبابه والخلص من أصحابه لديه!.

كان لا بد أن يزيل هذا القلق الذي ارتسم على وجهه بعد أن نهب قلبه.

قال: « يا رسول اللَّه، إني لم أسلم رغبة في المال؛ إنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك ».

فقد صغرت الدنيا في عينيه كلها منذ تلك الصفعة النجاشية في الحبشة له، والتي أعادت تركيبه وصياغته من جديد؛ فله من ماله في الوهط ما يجعله من أغنى أهل مكة، وعندما بايع النجاشي على الإسلام ثم بايع بعده رسول اللَّه ﷺ - إنما باع دنياه كلها مؤثرًا آخرته وسلامته فيها، ويود أن يتفرغ للجهاد في سبيل اللَّه؛ وعلى هذا جاء وبايع النبي ﷺ. وبعد أن أفنى عمره مخلصًا للصد عن سبيل اللَّه، وما كان المال مطمعه في الجاهلية في الحرب؛ فكيف في الإسلام.؟!

إنه يرى نفسه صغيرًا جدًّا في عيني نبيه عندما يود أن يتألفه بالمال، وأعاظم الرجال يبقى المال عندهم وسيلة للمجد لا غاية؛ فالمال سلم المجد عندهم، وصغار النفوس الذين يعبدون المال. أما في الإسلام؛ فالمال والمجد والشهرة أدوات الطاعة للَّه - تعالى.

فكان جواب السيد العظيم:

« يا رسول اللَّه، إني لم أسلم رغبة في المال؛ إنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك » ويا له من تعبير رائع : « والكينونة معك »؛ فقد ربط نفسه بقائده وحبيبه ورسوله حتى الموت، وأدرك - عليه الصلاة والسلام - ما كان يعتمل في نفس عمرو، وأزال

تلك الغشاوة الثقيلة الجاثية على قلبه، ولو كان - عليه الصلاة والسلام - يعلم أن عمرًا يقبل الدنية ويعشق المال؛ لفطمه عن ذلك ولم يرغِّبه به، وحذَّره منه؛ ولكنه ﷺ يعرف خلو قلب عمرو منه؛ وأن المال في الجاهلية والإسلام إنما كان عنده وسيلة وليس رغبة وهدفًا في حد ذاته؛ فأعلمه إنما يفعل ذلك به لأنه رجل صالح « **ونِعمَّا بالمال الصالح للرجل الصالح** ».

والطريق طويل أمام عمرو، أما زيد وجعفر وابن رواحة؛ فقد كانت خاتمة الطريق عندهم ورسول اللَّه يضعهم على رأس القيادة وعلى طريق الشهادة.

« **... فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد اللَّه بن رواحة، فإن أصيب فليصطلح المسلمون على أمير** ». لقد أدى القادة الثلاثة ما عليهم، وأفنوا عمرهم في سبيل اللَّه، ومضوا إلى ربهم وقد صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه، أما عمرو فهذه أول خطواته الجهادية في سبيل اللَّه بعد عُمْرٍ مثقل بالصد عن سبيل اللَّه؛ ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام -: « **فيسلمك ويغنمك** » و « **نعمَّا المال الصالح للرجل الصالح** »؛ فهو يوجهه - عليه الصلاة والسلام - من طريق آخر إلى أن يضع ماله في سبيل اللَّه صدقةً وزكاةً وإنماءً وعمارًا في الأرض؛ لأنه من أصحاب الهمم العالية في هذه الحياة؛ فلم لا يوظف هذا المال في البناء والتنمية والإثمار والإنفاق؟!

٢ - إلى بلي وقضاعة ولخم وجذام:

إلى الخط نفسه الذي مضى إليه سلفه خالد بن الوليد إلى تلك القبائل العربية الضاربة شمالًا، والتي صحت بعد هول الصدمة الفاجعة التي تلقتها من خالد ولم تكد تصدق أنها خسرت المعركة مع ثلاثة آلاف مقاتل، وهل ستبقى تحمل هذا العار إلى الأبد؟ ولم لا تغسل المدينة كلها من المسلمين كي تغسل العار الذي لحقها بذلك؟

لقد رأينا العرب الذين قادهم مالك بن رافلة الأراشي المائة ألف بجوار الروم المائة ألف (انضم إليهم مائة ألف من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بلقين وبهراء وبلي عليهم رجل من بلي ثم أحد أراشة يقال له: مالك بن رافلة)[1].

هذا في مؤتة وفي ذات السلاسل، قال البلاذري: فلقي العدو من قضاعة عامة ولخم وجذام وكانوا مجتمعين ففضهم وقتل منهم مقتلة عظيمة)[2].

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/ ٢٣٤). (٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٨٤).

ولكن عمرو بن العاص لم يكن اختياره اعتباطًا؛ بل كان ضمن هدف محدد، فإن كانت الآلاف الثلاثة الأولى مضت لتثأر لمقتل رسول رسول اللَّه ﷺ الذي قتله شرحبيل الغساني؛ فعمرو بن العاص هو ولد قضاعة عامة وولد بلي خاصة وأم العاص بن وائل من بلي، ولا يبعد أن يكون عمرو في طفولته قد مضى لزيارة أخواله ببلي هناك.

ومن أجل هذا وجدنا أن ما ذكر عن هذه الغزوة هو هدف مزدوج:

الهدف الأول الذي رجحته الروايات، والذي يشير إلى أن جموح قضاعة ولخم وجذام تتأهب لغزو المدينة ثأرًا لما نزل بهم في مؤتة.

الهدف الثاني الذي ذكرته رواية واحدة لابن إسحاق أوردها البيهقي في دلائله: (بعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص ليستنفر العرب إلى الإسلام؛ وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلي فبعثه رسول اللَّه يستألفهم لذلك)[1].

وقد رجح الحافظ ابن حجر في الفتح الهدف الأول؛ إذ قال: (فهذا السبب أصح إسنادًا من الذي ذكره ابن إسحاق لكن لا يمنع الجمع)[2].

ووجه الجمع بين الروايات كلها هو أن رواية ابن إسحاق قد وردت في صيغتين:

الصيغة الأولى: ليستنفر العرب إلى الإسلام، وقد ذكرها الحافظ في الفتح والبيهقي في الدلائل.

الصيغة الثانية: ليستنفر العرب إلى الشام، وقد وردت في السيرة لابن هشام وعند الصالحي في السيرة الشامية.

وبالتدقيق في الرواية نرى أن المعنى يستقيم (إلى الشام) أكثر مما يستقيم (إلى الإسلام)؛ وعلى هذا تكون الرواية الواردة الوحيدة على الصورة الآتية:

(وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض عذرة، وكان من حديثه أن رسول اللَّه ﷺ بعثه يستنفر العرب إلى الشام؛ وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلي؛ فبعثه رسول اللَّه ﷺ يستألفهم لذلك)[3].

وبذلك تصبح كل الروايات منصبة على الجانب الحربي، وإن كان الاختلاف يبقى كبيرًا بين الروايات التي تذكر أن الحرب ضد قبائل قضاعة الذين يريدون أن يدنوا من

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٤٠٠/ ٣٩٩).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٧٥).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٢٣).

المدينة أو الاستعانة بهذه القبائل لاستنفارها إلى الشام، ويجمع بين هذين الهدفين بأن رسول اللَّه ﷺ أراد أن يستفيد من قرابة عمرو في استنفار بعض قبائل قضاعة ضد بعضها الآخر، وهذا ما ترجحه رواية الواقدي التي تذكر تفصيلات تامة نوردها لذلك:

(بلغ رسول اللَّه أن جمعًا من بلي وقضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا أطراف رسول اللَّه؛ فدعا رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص، فعقد له لواءً أبيض، وجعل معه رايةً سوداء، وبعثه في سراة المهاجرين والأنصار في ثلاثمائة: عامر بن ربيعة، وصهيب ابن سنان، وأبو الأعور، وسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل، وسعد بن أبي وقاص، ومن الأنصار: أسيد بن حضير، وعباد بن بشر، وسلمة بن سلامة، وسعد بن عبادة. وأمره أن يستعين بمن مر به من العرب: وهي بلاد بلي، وعذرة، وبلقين؛ وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم؛ كانت أم العاص بن وائل بلوية، فأراد رسول اللَّه ﷺ أن يتألفهم بعمرو)[1].

يقول الصالحي: « فإن عمرًا كان أحد دهاة العرب، وكون العرب الذين أمر رسول اللَّه ﷺ أن يستعين بهم أخوال أبيه كما ذكر في القصة؛ فهم أقرب إليه إجابة من غيره »[2].

وعظمة شخصية عمرو أن يستعمل دهاءه في تحقيق الأهداف الثلاثة: حرب المحاربين، وتعبئة المسلمين معه ضدهم، والدعوة إلى الإسلام.

مهمة تحتاج عبقريًا، وكان عمرو هو ذاك الرجل.

٣ - ومعه سراة المهاجرين والأنصار:

ونلحظ أن عدد السرية المتجهة إلى شمال الجزيرة هو عُشْرُ عدد سرية مؤتة؛ فليست المهمة مواجهة مباشرة بمقدار ما هي مهمة حرب عصابات، ومهمة دعوة لدين اللَّه؛ فكان معه ﷺ كبار المهاجرين والأنصار. لقد كانت السرية ثلاثمائة، وجد فيها من سراة المهاجرين اثنان من العشرة المبشرين في الجنة؛ وهما: سعيد بن زيد، وسعد ابن أبي وقاص، ووجد فيها أعظم قيادات الأنصار لم يتخلف من هؤلاء الأعاظم أحد؛ ففيهم سيد الخزرج سعد بن عبادة، وسيدا الأوس: عباد بن بشر، وأسيد بن حضير فيها كذلك، أمّا ثالثهم سعد فقد استشهد في الخندق. تقول عائشة - رضي اللَّه عنها -: « ثلاثة

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٧٧٠).

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/ ٢٧٠).

من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلًا كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وعباد بن بشر، وأسيد بن حضير ».

لقد وضع تحت إمرته ﷺ وهو ابن الأشهر الخمسة في الإسلام - خير السابقين من المهاجرين والأنصار؛ وذلك ليوطن هذا الجيل نفسه فيما بعد؛ كيما يستفيد من هذه العبقرية النادرة يسمع لها ويطيع في مجال المواجهة والحرب.

وهي تجربة لعمرو بن العاص كذلك؛ يرى نفسه أميرًا على هذه القيادات جميعًا، ولما يفقه الإسلام بعد، ويراقب تصرفه وسلوكه.

٤ - مدد جديد بخيار أهل الأرض:

(ومضى عمرو بن العاص ﷺ في هذه الصحراء حتى وصل إلى أرض العدو؛ فبلغه أن جمعًا كبيرًا قد استعد لمواجهته، وحتى إذا كان بأرض جذام يقال لها: السلاسل، ويقال: السلسل - وبذلك سميت الغزوة ذات السلاسل- بلغ أن لهم جمعًا كثيرًا؛ فبعث عمرو رافع بن مكيث الجهني إلى رسول اللَّه ﷺ يخبره أن لهم جمعًا كثيرًا ويستمده؛ فبعث رسول اللَّه ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ﷺ، وعقد له لواءً، وبعث معه سراة المهاجرين كأبي بكر وعمر بن الخطاب وعدة من الأنصار - رضي اللَّه عنهم -، وأمر رسول اللَّه ﷺ أبا عبيدة أن يلحق بعمرو بن العاص وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا، وكان أبو عبيدة في مائتي رجل)(١).

وإذا كان جيش عمرو فيه خيرة الأنصار على الإطلاق، وعدد من المهاجرين؛ فإن مدد عمرو فيه خيرة المهاجرين وخيرة أهل الأرض على الإطلاق: فيه صدِّيق الأمة، وفاروقها، وأمينها؛ أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة. ويكاد يظهر أن مثل هذا الجمع من زعماء الأمة لم يلتق أبدًا وبهذه الكثافة تحت راية أحد وقيادته إلا تحت راية رسول اللَّه ﷺ في الغزوات التي كان يقودها، وها نحن نجده الآن يمضي مددًا إلى عمرو بن العاص.

ولا ننسى أن نشير إلى حسن اختيار عمرو لرسوله؛ فرافع بن مكيث جهني وهذه ديار جذام قريبة - أو مجاورة - لديار جهينة وطريقها واحد إلى المدينة، وخبرة رافع في الصحراء وكفاءته الذاتية لا تبارى؛ ولذلك استطاع أن يذهب ويعود بالمدد بسرعة فائقة؛ لأنه خبير الصحراء وابنها الذي تربى فيها، وكان اللقاء المثير الغريب بين القائدين عمرو ابن العاص وأبي عبيدة بن الجراح.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٣٧). وقال محققه: أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

٥ - الدرس الأول:

لم يكن يشك أحد من هذه القيادات في أن عمرو بن العاص - ابن الأشهر الخمسة في الإسلام - سوف يدع القيادة لأمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ثالث الثلاثة أبي بكر وعمر. أما عمرو فلم يملك بعد أي لقب أو أية رتبة عسكرية أو سياسية، وأن يكون الجميع تحت راية أبي عبيدة بن الجراح هو الأصل الطبيعي، لكن المفاجأة كانت مذهلة؛ فعمرو ابن العاص يرفض أن يكون تبعًا لأبي عبيدة، وقد أمَّرَه رسول اللَّه ﷺ على الجيش، وتبقى هذه المفاجأة في الحدود المعقولة، فلا غرابة أن يُصر عمرو على قيادته للثلاثمائة الذين كان عليهم أميرًا من قبل، وإن كان هذا لم يكن مصدر راحة لكبار المسلمين في الجيش، لكن طموح عمرو كان أبعد من ذلك بكثير؛ إنه يريد أن يكون أمير الجيشين معًا، ولم يعرض هذا الأمر بتحرج أو حياء، وإنما عرضه بقناعة كاملة ومن خلال خبرته الحربية السابقة.

(فلما قدموا أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس؛ فقال عمرو: إنما قدمت عليَّ مددًا لي، وليس لك أن تؤمني وأنا الأمير. وعمرو لا يقبل إمامة أبي عبيدة ولا يرضى إلا إمرته على الجميع، وأخذ الأمر في صفوف المسلمين وقيادتهم حيِّزا واسعًا واهتمامًا كبيرًا ولغطًا وبلبلة، فلم يعهدوا في تاريخهم كله مثل هذه الجرأة عند الرعيل الأول، ولم يشهدوا مثل هذا الإصرار على الإمارة والحرص عليها، والأصل أن يتقاذفوها لا أن يتنازعوها. وتفاديًا لتصدع خطير في الجيش؛ قال المهاجرون: كلا بل أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه).

ورفض عمرو هذا الرأي من خلال خبرته وتجربته في الحرب؛ فلا يمكن لجيشين صغيرين بأميرين أن يحققا هدفًا ذا بال في المعركة. وإذا تقرر أن يكون التشاور مستمرًّا، فإذا اختلف؛ فأي رأي يمكن أن ينفذ؟!!

أصرَّ عمرو على رأيه قائلًا: لا، أنتم مدد لنا.

وفي الوقت الذي كان عمرو بن العاص يكافح وينافح لتبقى له القيادة كلها - ها هو يتلقى درسًا عظيمًا في التربية من الرعيل الأول، من أبي عبيدة بن الجراح.

وألقى أبو عبيدة درسه النظري ابتداءً؛ فقال:

« يا عمرو إن رسول اللَّه ﷺ قال: « **لا تختلفا** »، وإنك إن عصيتني لأطيعنك ». ومضى

عمرو يُغذي طموحه بعد أن رأى ذلك اللين والذلة بين المؤمنين من أمين الأمة الذي تمثلت به مواصفات الجيل الخالد: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فقد بلغ من شدته على الكفار أن لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، أن قتل أباه في بدر حتى ضربه اللَّه - تعالى - مثلًا حيًّا لحزب اللَّه.

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ... ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد اللَّه بن الجراح، حين قتل أباه يوم بدر)(١).

ولن تجد في الدنيا كلها أعظم بطولة، وأشد رجولة ممن يقتل أباه في سبيل اللَّه؛ فهذا هو حزب اللَّه، ومن هو في هذه البطولة وفي هذه الشدة وفي هذه العظمة هو نفسه الذي يلين لإخوانه، يلين لهذا الوافد الجديد؛ ليربيه على مفهوم الطاعة، ويربيه على مفهوم الإيثار، ويربيه على مفهوم الذل للمؤمنين بأن يقول له: « ولئن عصيتني لأطيعنك ».

وقال عمرو: فإني أمير عليك وإنما أنت مددٌ لي.

قال أبو عبيدة: فدونك.

ثم نفذ الدرس العملي مباشرة وعلى الملأ، (فصلى عمرو بالناس).

وها هو عمرو بن العاص - وخلال خمسة أشهر - يصبح أميرًا على قادة الدنيا وسادة أهل الأرض؛ يصبح أميرًا على جيش فيه قادة الأمة الثلاثة: الصديق، والفاروق، والأمين، وفيه سادة الأنصار: سعد بن عبادة، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر، ويقوم ليصلي بهؤلاء جميعًا، يسمعون له ويطيعون، وجاء المغيرة بن شعبة - خريج دورة الحديبية - إلى أميره أبي عبيدة قائلًا له: « إن رسول اللَّه استعملك علينا، وإن ابن فلان قد ارتبع أمر القوم؛ فليس لك معه أمر». فردَّ أبو عبيدة - وهوخريج الدورات كلها والجامعات كلها: العهد السري، دار الأرقم، الهجرة، بدر، الحديبية - مُربِّيًا أخاه المغيرة بن شعبة قائلًا: « إن

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٩١).

رسول اللَّه ﷺ أمرنا أن نتطاوع، فأنا أطيع رسول اللَّه ﷺ، وإن عصاه عمرو ».

هذا الهدف العظيم والدرس الخالد الذي قدمه أبو عبيدة ليس لعمرو فقط، وليس للمغيرة فقط؛ وإنما لجميع المسلمين استفادة من قول المصطفى ﷺ: « **لا تختلفا** ».

٦ - وجاء الدرس العظيم الثاني من الصدّيق:

لقد كانت حركة الجيش في موسم البرد، ووصف بردها عمرو بنفسه بقوله: « ...في ليلة باردة كأشد ما يكون البرد »، وراح يتحدث عنها أمام نبيه - عليه الصلاة والسلام -: « والذي بعثك بالحق لو اغتسلت لمت، لم أجد بردًا قط مثله ».

وفي مثل هذه الأجواء وحين يجلس الجيش للنوم يحس بلسعة البرد أكثر ولن يتمكن أحد من النوم فيه؛ فراحوا يجمعون الحطب ليوقدوا النار، وإذا لغط بدأ ينتشر في الجيش كله إن الأمير ينهاكم أن توقدوا نارًا، وليست لحظة وليست ساعة، إنها الليل كله؛ فكيف يفعلون إذن في هذا البرد القارس؟!

وراحوا يلجؤون لكبار الصحابة يرجونهم أن يراجعوا الأمير لعله يغير رأيه؛ فقد كادوا يقتلون من البرد، وتململ الجيش، وتذمر الجيش، وحاول بعضهم أن يوقد النار؛ فجاء الجواب على لسان الأمير عمرو: « إن الأمير ينهاكم أن توقدوا نارًا ».

وبحث المسلمون عن أفضلهم وأحبهم إلى رسول اللَّه ﷺ، ففيهم رئيس الوزراء أبو بكر الصديق، جاؤوا إليه يستشفعونه عنه؛ فقال عمرو للصديق: « لا يوقد أحد منهم نارًا إلَّا قذفته فيها ».

لقد تكلم بخشونة مع الصديق كما تكلم بها من قبل مع أبي عبيدة.

ترى أينزغ الشيطان بين الإخوة ويقول لهم: إن عمرو بن العاص هذا دخيل الإسلام، وهذه فرصته السانحة في إهلاك خيار المسلمين في هذه الصحراء وهي فرصته للانتقام من عدوه محمد وصحبه؟! خرج الصديق ذو القلب الرحيم يكاد يكون دامع العينين للذع الجواب الفج الغليظ، ولم يتنازل عمرو ليشرح لرئيس وزراء المسلمين وشيخهم وجهة نظره، ويطلب مساعدته في إقناع الجيش بذلك؛ إنما اكتفى بقوله: « لا يوقد أحد منهم نارًا إلا قذفته فيها ».

فلا يعظمُ الأميرُ أحدًا ولا يقبل شفاعة أحد، وخرج أبو بكر للناس وقرؤوا الجواب بعينيه؛ فالأمير مصرٌّ على موقفه، وهم يطلبون الإشارة منه أو من عمر أو من أبي عبيدة؛

حتى ينفذوا ما يريدون بتوجيههم، ولعله اعتمل في قلوب الكثيرين من المسلمين أن عمرو بن العاص لا يزال على جاهليته، وقد تظاهر بالإسلام، وهو يريد أن ينتقم من المسلمين ويعذبهم ويقتلهم بردًا في هذا الليل؛ فهل يُسكت عنه؟

ولا يمكن أن يكشف هذا الأمر ويقوم على مواجهته إلا عمر ﷺ؛ جاؤوا إليه يوغرون صدره على عمرو بن العاص، ليس بحاجة إلى أن يوغر أحد صدره على عمرو؛ لكنه لا يريد أن يتفرد برأي عن أميره الحقيقي، وهو يعلم أن رسول اللَّه ﷺ قال له ولأبي بكر: « **لو اجتمعتما على رأي؛ ما خالفتكما** ». فإذا اجتمعا على أمر فلا خيار لعمرو في مخالفتهما؛ لأن رسول اللَّه ﷺ لا يخالفهما، ومضى متوتر الأعصاب غاضبًا إلى الصديق ليتخذا رأيًا واحدًا يواجهان به عمرو بن العاص، أو يدعه يتصرف مع الأمير بما يجرحه لهذا الموقف. (فغضب عمر، وهمَّ أن يأتيه فنهاه أبو بكر).

ويتساءل عمر - في نفسه - وهو يرى نهي الصديق له: أتصبح قيادات المسلمين كلها تحت إمرة عمرو بن العاص، وهو يتطلب منها الآن أشق ما يكون على نفسها: أن تعاني من آلام البرد وشدته في هذه الصحراء التي لا بيت فيها ولا مأوى ولا ظل يقي منه، والحطب متوافر يمكن أن يوقد النار، ويبعث الدفء في كل جسد؟ أما عمرو بن العاص - القائد الجديد - فيتوقع في كل لحظة تمردًا أو ثورة، وكل ما يخشاه أن يشارك فيها أحد القادة الثلاثة: أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، أو قادة الأنصار الثلاثة: عباد بن بشر، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير، وقد جاءه أبو بكر فرده؛ لكنه ما يفعل إن جاء عمر؟ فهل يتم الأمر دون أزمة عنيفة بينهما قد تخرج ملاك الأمر من يده.

لكن أبا بكر ﷺ أحكم الموقف، وأقنع عمرًا بقوله: « وإن عَمْرًا لم يستعمله رسول اللَّه ﷺ إلَّا لعلمه بالحرب ».

وطاعة أولي الأمر والخبرة واجبة، وليس أبو بكر وعمر بأقل خبرة بالحرب من عمرو؛ ولكنه الآن هو الأمير، وأثبت هذا الجيش أعظم مستوى من الانضباط والطاعة رغم الهياج الضخم والغضب الشديد من عدم إيقاد النار، ونفذ عمرو مخططه كاملًا ليبدأ الهجوم مع الفجر على العدو، ولم توقد نار واحدة، ولم تسجل مخالفة واحدة؛ لأن المشرف على الأمة سادتها وقادتها يربُّونها على السمع والطاعة للأمير، مهما كانت المشقة فيها.

فقد صدرت الأوامر أن لا يتبع أحد جنديًّا من جنود الأعداء إن فرَّ منه، ولا يثبت النصر إلا بملاحقة الجندي الفار وقتله وأخذ سلبه، ولم يبين عمرو ﷺ سبب هذا المنع،

وغدا الجيش كله يتململ من شدة أوامره، والغنيمة التي يطمع بها المقاتل في سلب العدو كثيرة حين يقتل عدوه.

أزمات نفسية تواجه المسلمين من هذه القيادة، ويذكرون أن رسول اللَّه ﷺ هو الذي أمره فيصمتون طاعةً للَّه ولرسوله.

لكن القيادة الفذة للمعركة برزت في اليوم الثاني، وبرزت العبقرية في هذه القيادة؛ فهؤلاء الخمسمائة (سار الليل وكمن النهار حتى وطئ بلاد العدو ودوخها كلها، حتى انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان به جمع فتفرقوا؛ فسار حتى إذا انتهى إلى أقصى بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعًا ليسوا بالكثير فاقتتلوا ساعة، وحمل عليهم المسلمون فهزموهم وتفرَّقوا، ودوَّخ عمرو ما هناك، وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه إلا قاتلهم، وكان يبعث أصحاب الخيل؛ فيأتون بالشاء والنعم فكانوا ينحرون ويأكلون، ولم يكن أكثر من ذلك، ولم يكن في ذلك غنائم تقسم، كذا قال جماعة)؛ فقد أصبح اسم المسلمين يثير الرعب في صفوف هذه القبائل، ولا يكاد جمع منهم يهم بالهجوم إلا ويرى المسلمين قد انقضوا عليه؛ فينفض الجمع وينشر الرعب والخوف في صفوف جيرانه، والمسلمون في أرض أعدائهم كأكلة جزور، ولم يضربوا ويهربوا وانتهى الأمر؛ بل يهجمون ويتحدون وينتشرون ويلاحقون وصاروا سادة الساحة كلها.

(قال البلاذري: فلقي العدو من قضاعة وعاملة ولخم وجذام، وكانوا مجتمعين ففضهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم. وروى ابن حبان والطبراني عن عمرو أنهم لقوا العدو؛ فأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم، وبعث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ بشيرًا إلى رسول اللَّه ﷺ بقفولهم وسلامتهم وما كان في غزاتهم)[1].

وقفل عمرو ﷺ عائدًا بجيشه المظفر، وهو متأهب للمواجهة وفي طريق العودة.

٧ - كانت الأزمة الثالثة:

وهي التي أعادت - ثانية - جو الريبة والتململ من القائد؛ فقد أصبح عمرو ﷺ جُنُبًا وسأل المسلمين - وكلهم فقهاء في دين اللَّه - فأعلموه أن الغسل من الجنابة هو الحل؛ وكيف يتم الغسل في هذه الصحراء المهلكة والبرد، وقد جمد النبات؛ فكيف بالإنسان؟!

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/ ٢٦٤) من رواية بريدة في المستدرك للحاكم (٣/ ٤٢).

ورأى عمرو ﷺ خطورة الاغتسال في هذه الليلة الباردة، فغسل مغابنه وتوضأ، وفي رواية أنه تيمم تيممه للصلاة، وآن الأوان لصلاة الفجر فتقدم وصلى بالناس، وانتشر الخبر في الجيش كله: صلى بالناس وهو جُنُب، ولا شك أن الناقمين عليه كانوا يزيدون في نشر هذا الخبر؛ فهو يمنع عنهم النار، ويدعهم يعانون من شدة القر، وها هو الآن يخاف البرد ولا يغتسل ويصلي بالناس وهو على جنابة، ولا ترتفع الجنابة إلا بالغسل، ويكاد يسود في صف بعضهم الشك في إسلامه وضعف دينه؛ فهم قد غضبوا منه ابتداءً حين رأوه يصر على الترؤس وحب السيادة ولا يتنازل عن الإمارة لسادة الدنيا؛ أمثال: أبي بكر وعمر، واجتمعت هذه العوامل فشكلت تيارًا كبيرًا ضده.

ومع وصول عمرو ﷺ إلى المدينة، ومع وصول الأخبار السارة عن النصر؛ لكن رُفعت عليه ثلاث دعاوى أمام رسول اللَّه ﷺ، وانعقدت المحاكمة الميدانية التي كان رسول اللَّه ﷺ هو القاضي فيها، وكان عمرو بن العاص الأمير هو المتهم فيها، وهذه هي وقائع المحكمة المثيرة العظيمة التي انتهت في دقائق؛ حيث وصل لنا ملف الدفاع كاملًا كما رواه الحافظ الطبراني وابن حبان:

الدعوى الأولى والثانية: أن الجيش لما رجعوا ذكروا لرسول اللَّه ﷺ منعي لهم من إيقاد النار، ومن اتباعهم العدو.

الدفاع: يا رسول اللَّه إني كرهت أن يوقدوا نارًا؛ فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم؛ فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم.

الحُكم: فحمد رسول اللَّه ﷺ أمره.

وخرج من المحكمة بريئًا من التهم مشهودًا له بالعبقرية الحربية؛ حيث حمد رسول اللَّه ﷺ أمره.

أما الدعوى الثالثة: فنأخذها من لسانه ﷺ كما رواها أحمد وأبو داود - رحمهما اللَّه -:

« احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك؛ فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح ».

الدعوى: فذكروا ذلك لرسول اللَّه ﷺ.

رسول اللَّه: « **يا عمرو: صليت بأصحابك وأنت جنب؟** ».

المتهم: فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت اللَّه - تعالى - يقول:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

الحكم: فضحك رسول اللَّه ﷺ.

وانفضت المحكمة بالبراءة.

٨ - عمرو بعد البراءة.

وفاز عمرو ﷺ بأعظم (الميداليات) بعد هذه الغزوة؛ وهي:

١ - اختاره رسول اللَّه ﷺ أميرًا على الجيش.

٢ - أثنى على عبقريته الحربية بعد النصر المؤزر الذي حققه، وحكم على خصومه ضده.

٣ - فاز بما لم يفز به أحد: أن يكون أميرًا على أعظم أصحاب رسول اللَّه ﷺ من المهاجرين، وعلى رأسهم: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، ومن الأنصار وعلى رأسهم: عباد ابن بشر، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة.

وشمخت نفسه به ورأى أنه خلال خمسة أشهر غدا فوق هؤلاء الناس جميعًا، ولا بد له أن يأخذ من حبيبه المصطفى ﷺ وثيقة بذلك. يشهد الناس له بها أنه أفضل الجميع، وأحب الجميع إلى رسول اللَّه ﷺ؛ فجاء إلى قائده وحبيبه محمد - عليه الصلاة والسلام -يكاد رأسه يطال السحاب ليسمع ويسمع أنه أفضل الناس وأحب الناس إلى رسول اللَّه ﷺ بما أنه كان أميرًا عليهم جميعًا.

ويحدثنا عن هذه المقابلة التاريخية قائلًا:

« بعثني رسول اللَّه ﷺ على جيش ذات السلاسل، وفي القوم أبو بكر وعمر؛ فحدثت نفسي: إنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة عنده. قال: فأتيته حتى قعدت بين يديه وقلت: يا رسول اللَّه من أحب الناس إليك؟ قال: « عائشة ». قلت: إني لست أسألك عن أهلك. قال: « فأبوها ». قلت: ثم من؟ قال: « عمر ». قلت: ثم من؟ حتى عذر رهطًا. قلت في نفسي: لا أعود أسأل عن هذا ». وفي رواية البخاري ومسلم: « فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم »(١).

لقد دخل عمرو بن العاص ﷺ في حالة نفسية وخرج في أخرى، وتلقى أبلغ درس

---

(١) البخاري، المغازي (ص ٤٤)، (٤٠١٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٤٣٩٦)، والترمذي في المناقب (٣٨٢٠ - ٣٨٢١).

في حياته بعد إسلامه، ورأى أن هذه المناصب والميداليات التي نالها لا يمكن أن تجعله فوق هام هؤلاء الرجال جميعًا، وأن كل واحد من هؤلاء يعدل الأمة كلها، وعرف أن العبقرية الحربية لا تكفي لتكون الميزان الوحيد في الفضل، والميزان الوحيد في الحب، وانتظر أن يكون له دور بين الرجال الأوائل الذين أحبهم - عليه الصلاة والسلام - فرأى أن المسافة شاسعة من الرجال حتى يصل العد إليه، وصمت حتى لا يكون آخر القوم.

إنه حديث عهد بالإسلام، وأكرمه النبي ﷺ بهذه الإمرة؛ تأليفًا لقلبه، وفسحًا للمجال أمامه؛ كي يفتح صفحة جديدة إسلامية مهمة في حياته، ولم يكتب بعد في هذه الصفحة إلا هذه الغزوة خلال خمسة أشهر؛ فكيف تقارن صحيفته بالصحائف التي لا تزال تكتب منذ عشرين عامًا من الصبر والجهاد والعبادة والطاعة والإيثار والمجاهدة والمكابدة والجوع واحتمال الأذى؟! والذي كتب في صفحة هؤلاء العظماء في هذه الغزوة هو أعظم مما كتب في صفحته فيها؛ فقبولهم إمارته وطاعتهم له وانضباطهم بتوجيهاته هو مرتقى من أعظم المراقي في الدنيا، وبينه وبين عمرو مسافات شاسعات؛ فهو قد رفض ﷺ إمرة أبي عبيدة؛ فقبل أبو عبيدة أن يكون جنديه، وهذه النفسية من التنافس على الدنيا وغياب نفسيات الذين يؤثرون على أنفسهم - هي التي تحطم الأمم، وتحطم الشعوب، وتحطم الانتصارات، وتحطم التاريخ.

لقد أتاح رسول اللَّه ﷺ لعمرو ﷺ الفرصة ليأخذ موقعه في الحرب ضد الكفار بعد أن أمضى عشرين عامًا مع الكفار يحارب المسلمين، وأرسل رسول اللَّه ﷺ مع عمرو أحب قادته إليه، وآثره بهم؛ كي يتربى على أيديهم، ويتعلم منهم هذه الأخلاق الإسلامية الخالدة التي لا توجد في مدرسة من مدارس الدنيا إلا في مدرسة الإسلام، ومدرسة النبوة؛ لكن هذا لا يعني أن ميزان الرجال قد اختل وأنه أصبح الأول على الجميع، وأدرك أن التفاضل في الإسلام غيره في الجاهلية؛ ففي الجاهلية لا يزيد التفاضل عن البطولة أو البلاغة في الشعر أو الحكمة في الرأي. أما في الإسلام فالتفاضل في التقوى وفي العمل الصالح، وقد تكون البطولات والبلاغات - إن كانت للثناء والشهرة - سقوطًا في ميزان اللَّه وتجعل صاحبها وقودًا لجهنم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، « **ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلَّا بالتقوى** »[1].

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٤١١).

« **والتقوى ها هنا** »[1]، وأشار إلى قلبه ثلاثًا؛ فليبدأ سلم الإسلام درجة درجة من جديد.

* * *
* *
*

(١) مسلم (٤/١٩٨٦)، (٢٥٦٤).

عمرو الداعية

عاد عمرو ﷺ من غزوة ذات السلاسل مظفرًا منصورًا بريئًا بعد المحاكمة التي عقدت له، ودخل شهرا رجب وشعبان؛ ليسمع منادي رسول اللَّه ﷺ في رمضان يدعو إلى الاستنفار العام الشامل، ويبعث الرسل إلى قبائل العرب: « **من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة** »، وفي العاشر من رمضان تحرك أكبر جيش إسلامي جهة مكة والطائف دون أن يدري أحد وجهته، وتذكر الآلاف العشرة التي ساهم في تعبئتها ضد رسول اللَّه ﷺ عام الأحزاب، وكيف عاد بعد الأحزاب خائبًا موقنًا أن محمدًا سيظهر، وكانت هذه فاتحة اتجاهه نحو الإسلام، رغم أنه كان يرى أن لو أسلم الناس جميعًا ما أسلم؛ ولهذا مضى لاجئًا سياسيًّا إلى الحبشة فأسلم هناك على يدي النجاشي، وهو يتوق إلى أن يكون الرسول ﷺ قاصدًا مكة اليوم في هذا الجيش العرمرم، وشتان بين الجيشين، وبين الحزبين، وبين الفئتين؛ جيش الأحزاب لغزو المدينة، وجيش حزب اللَّه لفتح مكة.

فتحت مكة، وأقرَّ اللَّه عينه بانهيار الشرك والوثنية؛ حيث غدت مكة معقلًا من معاقل الإسلام، بعد أن كانت عاصمة دار الكفر والشرك والحرب لدين اللَّه.

وتوجهت الأوامر للرفيقين الحميمين، والصديقين القديمين، والقائدين العظيمين: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد - بالاتجاه لهدم آلهة العرب التي تُعبد من دون اللَّه؛ وذلك بعد أن عاشا ذروة التربية السعيدة العظيمة لسبعة أيام بعد الفتح، وأخذا من رحيق هذا الدين وجناه ما يكون زادًا لهما عمرهما كله، وبرز عمرو وخالد للمهمات الصعبة والحروب الحاسمة كما يقول عمرو ﷺ في قصة إسلامه: « ما عدل بي رسول اللَّه ﷺ وبخالد بن الوليد في أمر حَزَبَهُ منذ أن أسلمنا أحدًا! »[(١)].

١ - هدم العزى:

كانت المهمة الضخمة لخالد هدم العزى، وكانت المهمة الضخمة لعمرو هدم سواع، أمَّا اللات فقد كان في منعة ثقيف وحمايتها، ومضى خالد إلى العزى فهدمها؛

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٧٤٥)، وتاريخ دمشق (١٩/ ٥٠٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٣٤٦).

بينما مضى عمرو إلى سواع وهدمه، ولعل ذلك تم في يوم واحد: في الخامس والعشرين من رمضان. حتى يأتي العيد على المسلمين وراية الإسلام خفاقة على ربوع الجزيرة.

(قال محمد بن عمرو بن سعد: بعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص إلى سواع - صنم هذيل بن مدركة[1]، وكان على صورة امرأة - ليهدمه).

يحدثنا عمرو ﷺ عن هذه الحرب الخاطفة، قال: « فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ فقلت: أمرني رسول اللَّه ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك. قلت: لِمَ؟ قال: تمنع ».

وكانت فرصة سانحة لعمرو ﷺ أن يلقي درسه النظري في التوحيد، ثم يتبعه بالتطبيق العملي.

(قلت: حتى الآن أنت على الباطل، ويحك... هل يسمع أو يبصر؟).

وانتهى الدرس النظري ليبدأ التطبيق العملي كما يقول - تعالى - عنه وعن أمثاله:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٧، ١٩٨].

وما الدليل على ذلك؟

(فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابه به فهدموا بيت خزائنه...).

فهو لم ينصر نفسه حين هدم، ولم ينصر أصحابه حين أمر بهدم خزائنه، وهو ينظر إليهم ولكنه لا يبصر.

(وأمرت أصحابه فهدموا بيت خزائنه فلم نجد فيه شيئًا)، وجاء استثمار الحادث في اللحظة المناسبة، وفي قمة الصاعق الكهربي الذي يذكر مثله من قبل عند النجاشي.

(ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت للَّه تعالى)[2].

وظفر بالسادن الذي هداه اللَّه - تعالى - به.

« لئن يهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم ».

---

(١) جاء في كتاب الأصنام لهشام بن محمد بن السائب الكلبي (ص ٩، ١٠): وكان أول من اتخذ تلك الأصنام هذيل ابن مدركة اتخذوا سواعًا، فكان لهم برهاطه من أرض ينبع وكان سدنته بنو لحيان، أما الجوهري فقال: سواع اسم صنم لهذيل، وكان برهاط على ثلاثة أميال من مكة ساحل البحر يحجون إليه.

(٢) سبل الهدى والرشاد (٦/ ٣٠٣)، والمغازي لمحمد بن عمر (٢/ ٧٨٩)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١).

وهذا أعظم من أي ثروة يملكها أو سيملكها فيما بعد من الدنيا، واللَّه تعالى يدَّخر له الكثير الكثير فيما بعد.

٢ - إلى عُمان:

حضر عمرو ﷺ الدورة التربوية كاملة مع رسول اللَّه ﷺ، والتي استمرت شهرين ونيف منذ العاشر من رمضان حتى نهاية (ذو القعدة).

(وقدم رسول اللَّه ﷺ يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة)[١].

وكانت تنتظره مهمة أخرى غير مهمة القتل والقتال؛ هي مهمة الدعوة إلى اللَّه ﷻ.

- بعثة رسول اللَّه ﷺ المصدقين:

قال: حدثنا محمد بن عبد اللَّه بن مسلم عن الزهري، وعبد اللَّه بن يزيد عن سعيد ابن عمرو قالا:

« لما رجع رسول اللَّه ﷺ من الجعرانة قدم المدينة يوم الجمعة لثلاث ليال بقين من ذي القعدة وذي الحجة. فلما رأى هلال المحرم بعث المصدقين؛ فبعث بريدة ابن الحصيب إلى أسلم وغفار بصدقتهم - ويقال: كعب بن مالك، وبعث عباد بن بشر الأشهلي إلى أسلم ومزينة، وبعث رافع بن مكيث إلى جهينة، وبعث عمرو بن العاص إلى فزارة[٢]، وبعث الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب، وبعث بُسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعب، وبعث ابن اللتيبية الأزدي إلى بني ذبيان، وبعث رجلًا من بني سعد ابن هذيم على صدقاتهم »[٣].

ويخالف ابن سعد في الطبقات رأي أستاذه الواقدي؛ فيرى أن بعثة عمرو بن العاص ﷺ إنما تمت في السنة الثامنة نفسها وقبل إنهائها.

(قالوا: وبعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابني الخلبندي، وهما من الأزد - والملك منهما جيفر - يدعوهما إلى الإسلام

---

(١) المغازي للواقدي (٣/ ٩٦٠).

(٢) هذا ما ذكر في الكتاب المطبوع للمغازي، وبالعودة إلى المخطوطة التي في جامعة أم القرى للمغازي وجدت الكلمة أقرب إلى قضاعة منها إلى فزارة؛ وهذا ما سنشهده فيما بعد، وحيث إن النصوص الصحيحة الأخرى تؤكد هذا المعنى؛ فنرجح أن المستشرق المحقق قد أخطأ في قراءة الكلمة المذكورة. هذا، ولم نجد أي مصدر آخر على الإطلاق يشير إلى بعث عمرو بن العاص ﷺ إلى فزارة، وعيينة بن حصن الفزاري أَوْلَى بذلك.

(٣) المغازي لمحمد بن عمر (٣/ ٩٧٣).

وكتب معه إليهما كتابًا وختم الكتاب)[١].

ونطالع في البخاري باب: قصة عُمان والبحرين، ويعلق الحافظ ابن حجر على الحديث بقوله:

« قصة عُمان والبحرين: أمَّا البحرين فبلد عبد القيس، وقد تقدم بيانها في كتاب الجمعة، وأما عُمان - فبضم المهملة وتخفيف الميم - قال عياض: هي فرضة بلاد اليمن لم يزد تعريفها على ذلك، وقال الرشاطي: عُمان في اليمن سميت بعُمان بن سبأ ينسب إليها الجلندي رئيس أهل عمان. ذكر وثيمة أن عمرو بن العاص قدم عليه من عند النبي ﷺ فصدقه، وذكر غيره أن الذي آمن على يد عمرو بن العاص ولدا الجلندي عياذ وجيفر، وكان ذلك بعد خيبر، ذكره أبو عمر. انتهى.

وروى الطبراني من حديث المسور بن مخرمة قال: بعث رسول اللَّه ﷺ إلى الملوك فذكر الحدث - وفيه: « وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعياذ ابني الجلندي ملك عمان، وفيه: فرجعوا جميعًا قبل وفاة رسول اللَّه ﷺ إلا عمرًا؛ فإنه توفي وعمرو بالبحرين، وفي هذا إشعار بقرب عُمان من البحرين وبقرب البعث إلى الملوك من وفاته ﷺ؛ فلعلها كانت بعد حنين فتصحَّفت. ولعل المصنف أشار بالترجمة إلى هذا الحديث لقوله في حديث الباب: فلم يقدم مال البحرين حتى قُبض رسول اللَّه »[٢].

ويقدم لنا الحافظ ابن حجر صورة شيقة عن أهل عُمان الذين كان عمرو بن العاص رسول رسول اللَّه ﷺ إليهم من خلال النصوص الصحيحة قائلًا:

(وروى أحمد من طريق أبي لبيد قال: خرج رجل منا يقال له: بيرح بن أسد؛ فرآه عمر قال: ممن أنت؟ قال: من أهل عُمان فأدخله على أبي بكر؛ فقال: هذا من أهل الأرض التي سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إني لأعلم أرضًا يُقال لها: عُمان، ينضح بناصيتها البحر لو أتاهم رسولي ما رموه بسهم ولا حجر** »، وعند مسلم من حديث أبي برزة قال: بعث رسول اللَّه ﷺ رجلًا إلى قومه فسبوه وضربوه، فجاء إلى رسول اللَّه ﷺ؛ فقال: « **لو أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك** »[٣].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٦٢).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٩٥، ٩٦)، (٤٣٨٣)، وهي عند أحمد (١/ ٤٤)، (٢/ ٣٠)، وعند مسلم (٤/ ١٩٧١)، (٢٢٨ - ٢٥٤٤)، باب فضل أهل عُمان.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٩٥، ٩٦)، (٤٣٨٣)، وهي عند أحمد (١/ ٤٤)، (٢/ ٣٠)، وعند =

هذا ويمكن الجمع بين الروايات على الصيغة الآتية:

١ - البعث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام. (كان في أول السنة السابعة بعد الحديبية أو أواخر السنة السادسة وفي أول المحرم، وكان هذا البعث إلى الملوك الستة المشهورين[١]: إلى قيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، والنجاشي عظيم الحبشة، والمقوقس عظيم القبط، والحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة في الشام، وهوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة.

٢ - بينما كانت بعثة عمرو بن العاص ﷺ في الدفعة الثانية بعد فتح مكة وحنين؛ حيث مضى ﷺ إلى ابني الجلندي في عمان، والحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بالشام، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين، والذي يعنينا من هؤلاء- رضي اللّه عنهم - عمرو بن العاص.

٣ - وكانت بعثة رسول اللّه ﷺ للمصدقين الذين يجبون الصدقات في بداية سنة تسع، وهذه القبائل قد دخلت في الإسلام وأقرت فيه.

عمرو يحدثنا عن مهمته: يقول عمرو:

(خرجت حتى انتهيت إلى عُمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقًا، فقلت: إني رسول رسول اللّه إليك وإلى أخيك. فقال: أخي المقدم علي بالملك والسن، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك. ثم قال لي: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى اللّه وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبد من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

قال: يا عمرو، إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة. فقلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني اللّه للإسلام. قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبًا. فسألني: أين كان إسلامي؟ فقلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم. قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان اتبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول؛ إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من كذب. قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا.

= مسلم (٤/ ١٩٧١)، (٢٢٨ - ٢٥٤٤)، باب فضل أهل عُمان.

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد تفصيلًا عن هؤلاء.

قال: ما أرى هرقل قد علم بإسلام النجاشي. قلت: بلى! قال: بأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خرجًا فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال: لا والله ولو سألني درهمًا واحدًا ما أعطيته؛ فبلغ هرقل قوله، فقال له نياق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا ويدين دينًا محدثًا. قال هرقل: رجل رغب في دين واختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع. قال: انظر يا عمرو ما تقول! قال: لقد صدقتك.

قال: يا عمرو، ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله ﷻ وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنى وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب؛ فقال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به؛ ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا. قلت: إنه إن أسلم ملَّكَهُ رسول الله ﷺ على قومه؛ فأخذ الصدقة من غنيهم فردَّها على فقيرهم. قال: إن هذا الخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل. فقال: يا عمرو، تؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ قلت: نعم. قال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا.

فمكثت ببابه أيامًا وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يومًا؛ فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي. قال: دعوه. فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك. فدفعت إليه الكتاب مختومًا ففض خاتمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه. فقرأه مثل قراءته إلا أنني رأيت أخاه أرق منه. ثم قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ قلت: تبعوه إما راغب في الدين أو مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم في ضلال، فما أعرف أحدًا غيرك يقي في هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل وتبيد خضراءك فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال. قال: دعني يومي هذا وارجع إليَّ غدًا.

فرجعت إلى أخيه؛ فقال: ياعمرو إني لأرجو أن يسلم أخي إن لم يضن بملكه!

حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه فأوصلني إليه. فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه؛ فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت

رجلًا مما في يدي وهو لا تبلغ خيله إلى ها هنا وإن بلغت ألفت قتالًا ليس كقتال من لاقى!

قلت: وأنا خارج غدًا.

فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه قال: ما نحن فيما ظهر عليه وكل من أرسله قد أجابه؟!

فأصبح فأرسل إليَّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه، وصدَّق النبي ﷺ، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونًا على من خالفني)(١).

أحد الثمانية:

يحدثنا عمرو بن العاص ﵁ عن أعماق نفسه حين أسلم، وطموحاته الكبرى بعد أن أسلم على يد النجاشي؛ فيقول: « أسلمت عند النجاشي، وبايعته على الإسلام، ثم قدمت على رسول اللَّه ﷺ المدينة، فأعلمته أني قدمت راغبًا في الهجرة وفي ظهور الإسلام ».

فقد صار هدفه بعد أن وُلد ولادته الجديدة هو ظهور الإسلام.

هذا هو الهدف العام، لكنه يود أن يكون له دور بارز في ذلك؛ فيقول ﵁: « .. وفي ظهور الإسلام، وأنا أحب أن يرى أثري وغنايَ في الإسلام وأهله؛ فقد طال ما كنت عونًا عليه ».

لقد رُوَى أثره وغناه عن الشرك والكفر في الجاهلية، ولا يريد أن يكون في الإسلام رجلًا مغمورًا منكفئًا على ذاته يُرجِّع آيات الندم، ويمضي عمره في التأوهات والحسرات أسفًا على ما فات، وقد ناهز الخمسين من عمره؛ فبإمكانه أن ينقطع لعبادته وتبتله. إنه ليس من هذه الأنماط من الرجال الذين يصنعون التاريخ؛ ولهذا فهو يريد أن يصنع ويساهم في صناعة تاريخ ظهور الإسلام ويرى أثره وغناءه.

قال له - عليه الصلاة والسلام -: (.. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **الإسلام يجبُّ ما قبله. وأنا باعثك في أناس أبعثهم إن شاء اللَّه** ».

ومرَّ الزمن وقاد غزوة ذات السلاسل، وحضر فتح مكة، وشهد نصر حنين، وهدم صنم سواع، وعاد من دورته التربوية التي تؤهله ليكون الرجل الداعية إلى الإسلام،

(١) عيون الأثر (٢/ ٢٦٧ - ٢٦٩)، وزاد المعاد لابن القيم (٣/ ٧٤، ٧٥)، وانظر: سفراء النبي ﷺ للواء محمود شيت خطاب (ص ١٥٧، ١٥٨).

إن مقدرته الحربية وكفاءته القتالية قد أبرزها مع الجيش الإسلامي في ذات السلاسل، ولكن دور القوة انتهى؛ فقد انصاع العرب للقيادة المحمدية طوعًا أو كرهًا بعد إسلام مكة وأصبح الدور الأهم للدعوة لا للقوة، وأصبح الإسلام بحاجة الآن إلى الإداري الكفء، والمصدق الماهر الذي ينفذ شريعة اللَّه على هذه القبائل التي دانت بالإسلام في الجزيرة، وإلى الداعية العظيم المتشرب بروح الإسلام - والمعجون فيه - كي يدخل الإسلام إلى قلوب الناس رغبة بعد أن دخلوا رهبة.

واختار رسول اللَّه ﷺ من حزبه ثمانية رجال، وكان أحد هؤلاء الثمانية عمرو ابن العاص؛ فيقول عمرو: « فلما كان بعد ذلك بعث رسول اللَّه ﷺ ثمانية سماهم؛ فكنت أنا المبعوث إلى جيفر وعبد ابني الجنلدي كانا من الأزد والملك منهما جيفر ».

إذن لقد تحقق الحلم، وها هو بمفرده يكلف بدولة عُمان ورفاقه السبعة كلهم قد مضوا إلى قبائل أعلنت إسلامها، أما هو فيمضي إلى عُمان ولا يزال ملكها على الشرك، لكن رسول اللَّه ﷺ الخبير بالأرض والناس يدرك سماحة أهل عُمان ونفاسة معدنهم وهو يطمئن إلى حسن استقبالهم؛ وذلك كما مر معنا في صحيح مسلم:

« **ولو أهل عُمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك** ».

وها هو - عليه الصلاة والسلام - يحدد جغرافية الأرض وطبيعة أهلها كما في الحديث الذي رواه أحمد: « **إني لأعلم أرضًا يقال لها: عُمان، ينضح بناحيتها البحر، لو أتاهم رسولي ما رموه بسهم ولا حجر** »؛ فهو الوحي الرباني إلى رسوله بطبيعة هذا البلد وأهله والذي سيطأه عمرو بن العاص لأول مرة. وبعد أن أعطى - عليه الصلاة والسلام - لجنديه عمرو هذه المعالم العامة؛ (كتب إليهما كتابًا يدعوهما فيه إلى الإسلام، وكتب أبي بن كعب الكتاب وختمه)(١).

وهكذا تأهب عمرو لهذه المهمة التاريخية الخالدة ويشهد قدره العجيب.

---

(١) أورد هذه الرواية ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق (١٩/ ٥٠٧)، وها نحن نوردها كاملة نقلًا عنه: (عن عمرو بن شعيب يخبر أنه سمع مولى لعمرو بن العاص يقول: سمعت عمرو بن العاص يقول: أسلمت عند النجاشي وبايعته على الإسلام، ثم قدمت على رسول اللَّـه ﷺ المدينة فأعلمته أني قدمت راغبًا في الهجرة وفي ظهور الإسلام، وأنا أحب أن يُرى أثري وغناي عن الإسلام وأهله فقد طال ما كنت عونًا (عليه) فقال رسول اللَّـه ﷺ: « الإسلام يجبُّ ما قبله، وأنا باعثك في أناس أبعثهم إن شاء اللَّـه » فلما كان بعد ذلك بعث رسول اللَّـه ﷺ ثمانية نفر سماهم فكنت أنا المبعوث إلى جيفر وعبد ابنا الجلندي، وكانا من الأزد والملك منهما جيفر، وكتب رسول اللَّـه ﷺ معي إليهما كتابًا يدعوهما فيه إلى الإسلام، وكتب أبي بن كعب الكتاب وختمه رسول اللَّـه ﷺ).

إنه يسير من أقصى غرب الجزيرة من الحبشة حيث أعلن إسلامه هناك، ويضع محطته بالمدينة مع رسول اللَّه ﷺ، ويتجه شمالًا إلى الشام في ذات السلاسل، ويمضي جنديًا مع الجيش إلى الجنوب إلى فتح مكة وهوازن وحنين، ويعود إلى المدينة ليستأنف مهمته الجديدة إلى أقصى شرق الجزيرة إلى عمان المتاخمة لأرض فارس، من البحر الأحمر في الغرب، والذي قطعه مرات إلى الحبشة في الجاهلية والإسلام إلى بحر عُمان في أقصى الغرب يجوب الصحراء العربية كلها وحيدًا في مهمته التاريخية، وهكذا يصنع التاريخ الرجال.

عند ملكي عمان:

لا ندري من أين استقى عمرو بن العاص ﷺ معلوماته الخاصة عن عبد وجيفر ولدي الجلندي، وعرف بثاقب نظره أن جيفر الملك أمامه عقد ضخمة تحول بينه وبين الإسلام؛ بينما أخوه عبد أقل عقدًا منه؛ فهو أصغر منه سنًّا، وهو مستشار لأخيه الملك؛ فمن الممكن التوغل إلى قلبه قبل قلب أخيه.

يقول عمرو: « خرجت حتى انتهيت إلى عمان. فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقًا؛ فقلت: إني رسول رسول اللَّه إليك وإلى أخيك. فقال: أخي المقدم عليَّ بالملك والسن وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ».

وكان من الممكن لدى عمرو بن العاص أن يمضي وينتظر حتى يلتقي بجيفر؛ لكنه يرى الفرصة سانحة للحديث عن الإسلام بين يدي عبد فلم لا يستغلها؟ والظاهر أن عبدًا أخا جيفر من طراز عمرو ذكاءً ودهاءً وفصاحةً، ولنشهد معركة الكر والفر بين الرجلين. ثم قال لي: وما تدعو إليه؟

قلت: أدعوك إلى اللَّه وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبد من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، والتلجلج في العقيدة ليس دهاء ولا عبقرية؛ فلا بد أن تتضح من اللحظات الأولى طبيعة الدعوة ومنطلقاتها. لقد كان إعلان الوحدانية والحاكمية للَّه - تعالى - في كل شيء، والتلقي لكل هذه الأمور من رسول اللَّه ﷺ هي هوية هذا الدين الذي لا يقوم ولا يعرف إلَّا به. ويدرك عمرو بن العاص ﷺ ذلك، وهو الذي خاض معركة العقيدة عشرين عامًا يرفض الاعتراف بهذه الوحدانية؛ لكن ثبات رسول اللَّه ﷺ وإصراره عليها **« إنما جئتكم بـ لا إله إلا اللَّه وتنبذون ما تعبدون من دونه، فإن قبلتم فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن أبيتم أصبر حتى يحكم اللَّه بيني وبينكم وهو أحكم الحاكمين »**.

وتَعلَّم من هذه المدرسة النبوية أن هذه الشهادة هي قوام هذا الدين، والذي لا يعرف الدين إلا به لكن عبد بن الجلندي أبرز جوانب عبقريته بهذا السؤال لعمرو:

« يا عمرو، إنك ابن سيد قومك؛ فكيف صنع أبوك فإنَّ لنا فيه قدوة؟ ».

وبذلك أوقع عمرًا في معضلة لا يخلص منها إلا مثل عمرو ذكاءً ودهاءً وحسن حيلة.

وهو المنطق نفسه الذي استعمله الملأ من قريش مع رسول اللَّه ﷺ.

« ادع ربك أن يبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيما يبعث قصي بن كلاب؛ فقد كان شيخ صدق؛ فإن آمن بك وصدقك آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ».

أدرك عمرو مرامي ابن الجلندي، وأخذ الكرة وألقاها ثانية في مرماه بقوله: « مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ وودت أنه كان أسلم وصدَّق به ».

ويدرك ابن الجلندي أن عمرو بن العاص عريق في الجاهلية والكفر، وأنه جديد على الإسلام، ومن السهل أن يتراجع عن هذا الدين الذي لم يمر عام واحد على اعتناقه في المدينة. وعرف عمرو ما يجول بذهن عبد فتابع كلامه: « وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني اللَّه للإسلام ».

وعاد ابن الجلندي فمضى بعمرو يرد سهمه نحوه مشيرًا إلى حداثة عهده بالإسلام: (قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبًا؛ فسألني: أين كان إسلامي؟).

وما أحرص عمرو على أن يقدم هذه المعلومات لعبد بن الجلندي عن موطن إسلامه؛ فالجلندي والنجاشي خاضعان لقيصر ملك الروم، وكلاهما نصرانيان يمكن أن يقتدي أحدهما بالآخر[١].

(فقلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم).

وهو الخبر الذي استحوذ على اهتمام ابن الجلندي؛ فهذا هو المحور الرئيسي للحديث.

---

(١) يقول اللواء شيت خطاب في كتابه: (سفراء النبي): وهذه المحاورة تدل على أن الأخوين كانا من النصارى وأن هرقل؛ لأنه ملك أكبر دولة مسيحية - كانت له هيمنة على نصارى الشرق بدون استثناء بصورة مباشرة أو غير مباشرة (ص ١٥٨).

(قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه).

ولم يكد عقل عبد يصدق هذا الخبر، فدولة النصارى ضاربة أعماقها في جذور الجيش والأساقفة الرهبان الذين نخروا نخرة رجل واحد ضد سلفه السابق حين أعلن إيمانه بالوحدانية وعبودية عيسى ابن مريم. ولم يتراجعوا حتى حركوا الجماهير في ثورة عنيفة ضده حتى اضطر إلى التراجع عن إعلان الإسلام، وأخفى دينه في أعماقه.

(قال: والأساقفة والرهبان اتبعوه؟! قلت: نعم).

إن هذا ضد منطق الأحداث وعبقرية ابن الجلندي في حكمه على التطورات السياسية الدينية؛ لا تدعه يقبل هذا التطور المفاجئ وأمامه عمرو بن العاص داهية العرب، فكيف يكذبه وهو يعلن أمامه ذلك؟!

قال: « انظر يا عمرو ما نقول! إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من كذب ».

قلت: « ما كذبت وما نستحله في ديننا ».

لقد تجاوز الحديث المظاهر الديبلوماسية والبروتوكلات الرسمية، ونفد عمرو إلى أعماق عبد بن الجلندي حين هزه بحديث النجاشي؛ يقول ابن الجلندي متفاعلًا مع الحدث: « ما أرى هرقل قد علم بإسلام النجاشي؟ » قلت: « بلى ».

إن العقد المتكاثفة على قلب ابن الجلندي بدأت تنحل وتهوي، ترى ما مصير النجاشي إن صدق عمرو في معرفة قيصر بإسلامه أليس اغتياله أو عزله على أقل تقدير؟!!

وتتابع المفاجآت كأنما يمضي عمرو بلب ابن الجلندي وعقله إلى حيث يريد. (قال: بأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يُخرج له خرجًا؛ فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال: لا والله لو سألني درهمًا واحدًا ما أعطيته).

إنه إعلان تمرد على ملك الدنيا هرقل، وهذا يعني تعريض الحبشة للاحتلال المباشر من قيصر الذي تربع على قمة الدنيا، وهزم كسرى ملك الملوك، وحج ماشيًا شكرًا لله على هذا الانتصار. فهل يقبل هذا التحدي؟؟

ولا يكاد ابن الجلندي يفيق من ضربة إلا وتأتيه الثانية تنهال كالمطارق على رأسه.

(فبلغ هرقل قوله، فقال له (يناق) أخوه: أتدع عبدك لا يُخرج لك خرجًا ويدين دينًا محدثًا. قال هرقل: رجل رغب في دين واختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع).

ولم يكد يصدق ما سمع قال: (انظر ما تقول يا عمرو! قال: والله صدقتك).

إن ابن الجلندي الآن قد انزاحت أمامه أكبر عقدة من عقد الكفر والجاهلية؛ وهي عقدة الخوف على الملك؛ فله في النجاشي أسوة ولا خطر على ملكه لو أسلم إذن.

فليعد إلى عمرو ويسأل عن هذا الدين.

وكما نجح جعفر ﷺ وحطم مؤامرات عمرو ضد الإسلام والمسلمين في الحبشة ونفذ إلى قلب النجاشي؛ فها هو عمرو بن العاص المسلم الآن يسجل انتصارًا باهرًا في تحطيم عقدة الخوف على الملك من قلب ابن الجلندي في الوقت الذي كان عند النجاشي يهولها ويضخمها ليبعده عن الإسلام؛ حين قال له: (إن الرجل الذي بين أظهرنا أفسد فينا وتناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك، ونحن لك ناصحون، وأنت لنا عيبة صدق تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف ويأمن تاجرنا عندك؛ فبعثنا قومنا إليك لننذرك فساد ملكك).

وكم الفرق شاسع بين عمرو الجاهلي الذي يحذر النجاشي فساد ملكه وزواله لو اتبع الإسلام، وبين عمرو المسلم الذي يذلل نفسية ابن الجلندي ليقتدي بالنجاشي الذي أسلم وتحرر من سيطرة قيصر وحافظ على ملكه! ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقال عبد: « فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ ».

ولا يزال جعفر الرمز في قلب عمرو وعقله، كيف عرض الإسلام على النجاشي؛ فأسر قلبه ولبه، وهو القدوة والمثل الأعلى لعمرو؛ فها هو يمضي على طريقه نفسه قائلًا:

« يأمر بطاعة الله ﷻ، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنى وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ». فقال:

« ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا ».

قلت: « إنه إن أسلم مَلَّكه رسول الله ﷺ على قومه؛ فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم ».

والجديد عند عمرو ﷺ هو أنه يريد أن يقنع ابني الجلندي ليس بعقيدة الإسلام فقط؛ إنما بشريعة الإسلام كذلك، ولا يثبت هذا الملك إلا بتطبيق هذه الشريعة؛ فلذلك أردف

حديثه عن تثبيت ملك الجلندي بحديثه عن تطبيق نظام الإسلام في الصدقة.

قال: « إن هذا الخلق حسن، وما الصدقة؟ ».

فأخبرته بما فرض رسول اللَّه ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل؛ فقال: « يا عمرو تؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ » قلت: نعم. فقال: « واللَّه ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا ».

وكانت نظرة عبد بن الجلندي بعيدة الغور؛ فردة العرب معظمها كانت من أجل ذلك، فالملك سلطة مطلقة، والعدل وإنقاذ الفقير من فقره ليست سمة من سمات صاحب السلطان والصولجان إن لم ترافقه عقيدة وازعة ودين رادع.

قال عمرو: « فمكثت ببابه أيامًا، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري »؛ فلقد كان يرسل نسائم الإسلام وأعلامه وأحكامه المرة بعد المرة إلى جيفر بن الجلندي عن طريق أخيه.

وكان اللقاء الحاسم.

ثم إنه دعاني يومًا فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي[1] ؛ فقال: دعوه. فقال: فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك! فقدَّمت إليه الكتاب مختومًا؛ ففض ختمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أنني رأيت أخاه أرق منه، ثم قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟

وأدرك عمرو من الموقف كله طبيعة اللهجة التي يتكلم بها أمام هذا الملك البدوي الخشن الذي يعلم أن سعار الحرب كلها كانت بين محمد وقريش التي نصبت لحربه.

(قلت: تبعوه؛ إمَّا راغب في الدين، وإمَّا مقهور بالسيف).

وإذا كان العدو الأول قد سقط رغبة أو رهبة فمن أتباعه. واستطاع عمرو رضي الله عنه بعبقريته النافذة أن يغوص إلى أعماق جيفر وأبعاد تفكيره، وخفقات قلبه، واستجمع كل بلاغته وكل شجاعته وكل إيمانه ليلخص الموقف كله؛ فلن يُجْدِي الحوار الطويل مع هذا الملك المعتد بملكه وأتباعه.

(قال: ومن تبعه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا

---

(١) الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد.

بعقولهم مع هدى اللَّه إياهم أنهم في ضلال. فما أعرف أحدًا غيرك بقي في هذه الحرجة[1]، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويُبِدْ خضراءك. فأسلم تسلم ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال).

قال: دعني يومي هذا وارجع إليَّ غدًا.

وصدقت فراسة عمرو، فلو لم ينقل الموقف كاملًا بحيث أوضح فيه كل ما لديه من قوة في احتمال زوال ملكه وإبادته إن وقف في وجه الإسلام، وكل ما لديه من حكمة في ثبات ملكه لو أسلم ودخل في دين اللَّه - لو لم يتمكن من إيضاح هذا الموقف الجلي تمامًا لما أمكن لجيفر أن يفكر تفكيرًا صحيحًا في اتخاذ الموقف المناسب. ولم يقف عمرو مع هذا مكتوف الأيدي؛ فهو يريد أن يتابع الأمر من كل جهة حرصًا على اعتناق هذا الملك للإسلام، حيث يتبعه قومه كلهم بذلك.

(فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو، إني لأرجو أن يسلم إن لن يضن بملكه!).

حتى إذا كان الغد أتيت إليه؛ فأبى أن يأذن لي؛ فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه فأوصلني إليه؛ فقال:

« إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملَّكت رجلًا ما في يدي وهو لا تبلغ خيله ها هنا، وإن بَلَغَتْ أَلِفتْ[2] قتالًا ليس كقتال من لاقَتْ ».

وعوضًا عن أن يلجأ عمرو إلى الحوار والكلام، لجأ إلى أسلوب زعزع به شخص جيفر بكلمة واحدة: (قال: وأنا خارج غدًا). وهذا يعني أن الموقف النهائي سيتحمل تبعته كاملة.

فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه فقال:

ما نحن فيما ظهر عليه!! وكل من أرسل قد أجابه؟!

فأصبح فأرسل إليَّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه، وصدقا النبي ﷺ، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم بينهم، وكانا عونًا لي على من خالفني.

وندع التعليق للواء شيت خطاب على هذه الدعوة قائلًا:

« لقد كان جيفر أكبر من أخيه عبد سنًّا فكان هو الملك؛ ولكن أخاه عبدًا كان أكثر

---

(١) الحرجة: غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها.

(٢) ألفت: وجدت.

عقلًا واتزانًا وروية من أخيه، وأرحب صدرًا وأوسع أفقًا؛ لذلك تأثر بكتاب النبي ﷺ قبل أخيه ومال إلى الإسلام.

أما جيفر؛ ففكر بملكه أولًا وخشي عليه من الإسلام، فما تجاوب مع الكتاب النبوي تجاوبًا سريعًا كما تجاوب أخوه؛ فطلب جيفر أن يمهله عمرو يومًا واحدًا ليفكر في أمره مليًّا وليقرر ما يفعله بعد أن يقلب الأمور كما ينبغي.

وهنا بروز دور أخيه عبد في حث جيفر على اعتناق الإسلام، وحمل أخاه على الإيمان بدين اللَّه، وأن لا يرد عمرو بن العاص من عُمان إلى المدينة المنورة خائبًا.

واقتنع جيفر بالإسلام كما اقتنع أخوه عبد فأسلما عن قناعة كاملة لا غبار عليها؛ لذلك قدما الصدقات طوعًا، وعاونا عمرو بن العاص على جمع الصدقات من الأغنياء وردها على الفقراء، وجمع الجزية من المجوس، وكان خير عون له في النهوض بمهمته في واجبات الحكم والإدارة في عُمان وما حولها من البلاد، كما أنهما ثبتا على الإسلام. ولم يرتدا كما ارتد غيرهما من أهل عُمان، وتعاونا مع القائد الذي بعثه أبو بكر الصديق إلى عُمان ومع جيشه في حرب المرتدين حتى عادت عُمان إلى الإسلام.

أما عمرو فقد كان بحق سفيرًا متمرسًا؛ مارس السفارة مرتين قبل الإسلام، ومارسها هذه المرة الثالثة بعد الإسلام؛ فلا عجب أن يكون تصرفه في هذه السفارة تصرفًا حصيفًا يدل على الألمعية والذكاء الخارق، فكان حاسمًا في جوابه لجيفر بعد يوم من لقائه الأول؛ إذ أظهر له أنه راحل غدًا، فخاف جيفر من عواقب الأمور وخاصةً أن العرب دخلوا في دين اللَّه أفواجًا، وفُتحت مكة المكرمة، وأصبحت وفود العرب تتقاطر إلى المدينة من كل حدب وصوب معلنة إسلامها وأنها انضوت تحت راية الوحدة والتوحيد في ظل الإسلام.

وقد أخفق عمرو في سفارتيه قبل الإسلام؛ ولكنه نجح أعظم النجاح في سفارته النبوية بعد الإسلام، مع أنه حشد الهدايا للنجاشي ملك الحبشة في سفارته الأولى والثانية ولرجالات النجاشي من رجال الدين ورجال الدنيا، أما في سفارته الثالثة التي كانت بعد الإسلام فلم يحشد شيئًا من متاع الدنيا يستعين به على إنجاح سفارته فنجحت بحوافز الروح لا بحوافز المادة، وانتصر الإسلام بمبادئه، ولم ينتصر بشيء آخر من مغريات الحياة.

وهكذا استطاع عمرو أن يضم عددًا ضخمًا من العرب إلى الإسلام، وأن يضم بلادًا

شاسعة إلى بلاد المسلمين »[١].

مع الجلندي الأب:

ويحدثنا وثيمة في كتاب الردة عن ابن إسحاق:

(أن النبي ﷺ بعث إلى الجلندي عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام ..).

ويرجح للجمع بين الروايات أن عبدًا وجيفر وَلَدَيْ الجلندي بعد أن أسلما أدخلا عمرو بن العاص على أبيهما الجلندي، ولعله لتقدمه في السن قد تنازل عن الملك لولديه. وكان لدى عمرو من الوقت والسعة والاطمئنان ما يدخل الإسلام هنيئًا طريًّا إلى قلبه. فيقول بعد أن نجح عمرو ﷺ في إسلام بيت الجلندي كله أبًا وأبناء يقول الجلندي والإسلام قد عشش في قلبه وفؤاده:

(لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويُغلب فلا يهجر، وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد، وأشهد أنه نبي. ثم أنشد:

أتاني عمروٌ بالتي ليس بعدها ... من الحق شيء والنصيح نصيح
فقلت له ما زدت أن جئت بالذي ... جلندي عُمان في عُمان يصيح
فيا عمرو قد أسلمت للّه جهرة ... ينادي بها في الواديين فصيح[٢]

ولا شك أن هذه الرواية تحمل في ثناياها أن الجلندي متعمق في كتب النصرانية، وعارف أن هناك نبيًّا سيبعث بهذه الصفات، وأنه كان يبشر بهذا النبي، ولم يأت عمرو إلا بما كان يبشر به الجلندي قومه، وهنا يعلن أن ما قرأه قد تحقق تمامًا بهذا الأمي الذي وجد وصفه في التوراة والإنجيل كما سمع، ولا يبعد أن يكون إسلام ولديه قد تجاوب مع قناعة أبيهما فأسلم الثلاثة كلهم للّه رب العالمين.

وماذا بعد إسلام الثلاثة؟

لقد أصبح عمرو ﷺ سيد الساحة، وهو صاحب رسول اللّه ﷺ؛ فلقد هيأ اللّه – تعالى – له عامًا كاملًا في صحبته منذ أن أسلم في صفر في السنة الثامنة للهجرة حتى مضى في محرم من السنة الثامنة أو في أواخر ذي الحجة، ولم تبلغ الصحبة سنة؛ فقد مضى فيها

(١) سفراء النبي ﷺ، اللواء الركن محمود شيت خطاب (٢/ ١٥٦).
(٢) الإصابة في تاريخ الصحابة لابن حجر (١/ ٣٧٥)، (ت ١٢٦٢).

وحده في تجربة عسكرية في غزوة ذات السلاسل يتربى على أيدي أصحابه من الرعيل الأول؛ حيث بعث معه ﷺ أغلى أصحابه عليه وأعلاهم عنده: الصديق، والفاروق، والأمين؛ ليتابعوا تربيته، ويتابعوا مراقبته، ويتابعوا عملية بنائه. لكنه - ولا شك - كان أسعد ما يكون في تلك الدورة التربوية العظمى التي كان فيها بجوار رسول اللَّه ﷺ طيلة الشهرين والنصف منذ أن تحرك الجيش في العاشر من رمضان إلى أن عاد في ثلاث بقين من ذي القعدة؛ تلقى الإسلام فكرًا وسلوكًا من سيد البشرية محمد ﷺ مباشرة وعاشه واقعًا حيًّا ونورًا مضيئًا. وها هو الآن في عُمان موفد رسول اللَّه ﷺ وسفيره وداعيته يحمل على كتفيه أعباء دولة كاملة ينشر فيها الدعوة، ويطبق فيها الشريعة، ومضى داعية إلى اللَّه - تعالى - دون قيد ولا حد بعد أن فوضه الملك بذلك؛ فكان هو النور الذي أضاء في عُمان فنقل أهلها من الجاهلية إلى الإسلام.

(روى عبد اللَّه بإسناد صحيح إلى الزهري عن عبد الرحمن بن القاري أن رسول اللَّه ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجلندي أميري عُمان؛ فمضى عمرو إليهما فأسلما وأسلم معهما بشر كثير، ووضع الجزية على من لم يسلم)[1].

وكل هذا الخلق الكثير الذين أسلموا إنما هم بصحيفة عمرو بن العاص ﷺ.

ومع الأساقفة والرهبان:

لم يكن يدور بخلد عمرو ﷺ أن يكون هذا اللقاء الذي ودع فيه حبيبه المصطفى ﷺ أن يكون هو الوداع الأخير، وأن تكون هي النظرة الأخيرة للرسول ﷺ، ولو كان يعلم الغيب لاعتذر عن المضي إلى عمان؛ ليمضي هذه السنة الأخيرة مع حبيبه المصطفى - عليه الصلاة والسلام - ولكنه القدر الذي لا مرد له ولنعش مع تجربته الدعوية الأخيرة الكبرى، والتي بلغه فيها نبأ وفاة المصطفى - صلوات اللَّه وسلامه عليه - كما أوردها الحافظ ابن عساكر بسنده عن عمرو بن العاص قال: (بعثني رسول اللَّه ﷺ واليًا على عُمان فأتيتها فخرج إلى أساقفتهم ورهبانهم؛ فقالوا: من أنت؟ فقلت: عمرو بن العاص ابن وائل السهمي رجل من قريش. قالوا: من بعثك؟ قلت: رسول اللَّه ﷺ. قالوا: من هو؟ قلت: محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب). وعمرو ليس مبلغًا فقط؛ إنما هو داعية إلى اللَّه - تعالى - وليس هو في محاكمة حتى يكون جوابه على قدر السؤال أو في تحقيق موجه؛ إنه مع أكبر مثقفي عصره آنذاك وأكبر مفكريهم من الأساقفة والرهبان الذين انتهى

(١) الإصابة في تاريخ الصحابة (٢/ ٥٧٧)، (ت ١٣٠٥ هـ).

علم الكتاب عندهم، فلا يصلح لهم الإجابة المتقطعة المقتضبة فتابع حديثه معهم قائلًا: (محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب هو رجل منا قد عرفناه وعرفنا نسبه، أمرنا بمكارم الأخلاق، ونهانا عن مساوئها، وأمرنا أن نعبد اللَّه وحده).

وأحس الأساقفة والرهبان أنهم أمام عملاق عظيم يبشر برسالة نبي: (فصيروا أمرهم إلى رجل منهم فقال: هل من علامة؟) وعرف عمرو ما وراء هذا السؤال وسمع صفة النبي ﷺ في الكتب المقدسة ولعله تدارسها مع الجلندي الملك العماني قبل جيفر ابنه؛ (فقلت: نعم لحمًا تركم بين كتفيه يقال له: (خاتم النبوة) قال: فهل يأكل الصدقة؟ قلت: لا. قال: فهل يقبل الهدية؟ قلت: نعم، ويثيب عليها).

لقد أسلم سلمان ؓ بهذه الصفات الثلاث، وهو الذي طوَّف في الآفاق في فارس وتركية بهذه الصفات الثلاث ورأينا قيصر ملك الروم، يصف بعض الصفات الجديدة للتثبيت من نبوة محمد ﷺ، وهي علاقته مع عدوه؛ فجاء هذا الأسقف الكبير يتابع على النهج نفسه وعمرو بحر في علمه ودهائه من أي النواحي أتيته.

(قال: فكيف الحرب بينه وبين قومه؟ فقلت: سجالًا مرة له ومرة عليه.

ولم يعد لدى الشيخ الأسقف شيئًا يقوله؛ فقد تأكد من نسبه وصدقه والعلامات الفارقة فيه وحربه مع عدوه).

وهنيئًا لك يا عمرو هذا الرصيد الجديد في ديوانك.

(فأسلم - أي الشيخ - وأسلموا - أي الأساقفة والرهبان -).

وجاء الحوار الجديد الذي نقل إلى عمرو أعظم كارثة في حياته كلها:

(ثم قال لي: واللَّه لئن صدقتني لقد مات في هذه الليلة، أو لقد أتى على أجله هذه الليلة).

وكاد عمرو الأريب الحليم الداهية يفقد صوابه لما يسمع، هل جُن هذا الأسقف الشيخ؟!

(قلت: ما تقول؟ قال: إن كنت صدقتني فقد صدقتك).

وترك الأسقف الشيخ والقلق ينتهبه انتهابًا فلا يجد النوم مذاقًا إلى عينيه؛ فإنما تكلم الأسقف بما عنده من الكتاب، وجاء الخبر المروِّع؛ (فمكث أيامًا فإذا هو ركب يسأل عن عمرو بن العاص فقمت إليه مفزوعًا).

وإذا كان الكتاب من رسول اللَّه ﷺ فقد كذب الأسقف الشيخ، وهذا هو دليل دامغ على كذبه ووقع ما كان يخشاه؛ (فقمت إليه مفزوعًا فناولني كتابًا فإذا عنوانه من أبي بكر خليفة رسول اللَّه ﷺ إلى عمرو بن العاص) وها هو الأسى يعتصر قلبه اعتصارًا ويحس أن كبده يحترق، لكنه يتمالك أمام الناس، (فأخذت الكتاب ففككته فإذا فيه:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم: من أبي بكر خليفة رسول اللَّه ﷺ إلى عمرو بن العاص: سلام عليك؛ أما بعد فإن اللَّه ﷻ بعث نبيه ﷺ حيث شاء، وأحياه ما شاء، ثم توفاه حين شاء. وقد قال في كتابه الصادق: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وإن المسلمين قلدوني أمر هذه الأمة على غير إرادة مني ولا محبة، فأسأل اللَّه العون والتوفيق. فإذا أتاك كتابي هذا فلا تحلل عقالًا عقله رسول اللَّه ﷺ، ولا تعقل عقالًا حله رسول اللَّه ﷺ، والسلام).

وكانت دموعه تنهمر غزارًا وهو يقرأ الخبر؛ فهو حق لا مرية فيه، وهذا الصدِّيق يعزيه فيه، ووضع الكتاب بجواره، واستسلم لبكاء طويل طويل استعاد به تاريخ حياته كلها، وقرعه الندم كثيرًا أنه لم يحظ بصحبة نبيه أكثر من بضعة أشهر، وسلخ معظم حياته حربًا للَّه ورسوله؛ ولكنه مع ذلك قرير العين؛ فقد هيأ اللَّه - تعالى - له الإسلام قبل وفاة النبي ﷺ، وتُوفِّي نبيه وهو عنه راضٍ، وجعله رسول اللَّه ﷺ قائدًا لجيش؛ فأظفره اللَّه - تعالى - على عدوه وجعل نكايته في المشركين، وجعله رسول اللَّه ﷺ داعية لملك وشعب إلى الإسلام؛ فأقر اللَّه - تعالى - عينه بإيمان الملك وشعبه، وجعله رسول اللَّه ﷺ حاكمًا لدولة منفذًا لشرع اللَّه واليًا عليها؛ فأنفذ حكم اللَّه - تعالى - فيها، ولو أنه ختم حياته الآن لما ندم؛ فما لذة الحياة بعد الحبيب المصطفى - صلوات اللَّه وسلامه عليه - وإذا كانت الهجرة تجبُّ ما قبلها - كما علمه رسول اللَّه - والإسلام يجب ما قبله؛ فقد أصبحت صفحته نظيفة ناصعة ليس فيها إلا الجهاد في سبيل اللَّه جنديًا وقائدًا، والدعوة إلى اللَّه والحكم بما أنزل اللَّه، وفي صحيفته شعب بكامله دخل في الإسلام، وقد ختم هذه الصفحة بإسلام هؤلاء الأساقفة والرهبان، وأفاق من غيبوبته تلك وحرقة الألم تحز كبده؛ فلا يلقى إلا البكاء سبيلًا ليطفئ هذه الحرقة.

(فبكيت بكاء طويلًا ثم خرجت عليهم فبكوا وعزوني).

ولفت انتباهه أن هؤلاء الأساقفة والرهبان قد وجدوا في كتبهم وفاة رسول اللَّه ﷺ؛ أفلا يمكن أن يكون في الكتب حالة الأمة بعده؟ وبطابع الفضول وحب الاستطلاع راح

يسأل الأساقفة؛ (فقلت: هذا الذي ولينا بعده تجدونه في كتابكم؟ قال: يعمل بعمل صاحبه اليسير ثم يموت).

وعادت سحائب الخوف من الفتنة تملأ كيانه؛ فإذا مات الصدِّيق فما هي حال المسلمين بعده؟

(قلت ثم ماذا؟ قال: يليكم قرن الحديد فيملأ مشارق الأرض ومغاربها قسطًا وعدلًا لا تأخذه في اللَّه لومة لائم).

وابتهج في أعماقه أن يبلغ هذا الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، وتدين الأرض بهذا الدين، ويسود القسط والعدل بعد أن ملئت الأرض جورًا.

(قلت: ثم ماذا؟ قال: يقتل، قلت: يُقتل؟! قال: إي واللَّـه يقتل).

هذا الذي ملأ مشارق الأرض ومغاربها قسطًا وعدلًا كيف يقتل بعدها؟!

(قلت: عن ملأ أو من غيلة؟ قال: بل غيلة. فكان أهون علي.

فقتله عن ملأ يعني ارتداد الأرض كفرًا أو جورًا بعد ذلك وأن جولة الإسلام قصيرة، وعندما عرف أنه عن غيلة هان الأمر عليه.

(قلت: ثم ماذا؟ وانقطع كتاب الشيخ)[1].

فلا شيء بعدها حيث ينتهي خبر هذه الأمة في هذا الكتاب عند الأسقف، وراح عمرو ﷺ يحلم أن يكون أحد هذه العناصر التي تساهم في نقل الإسلام إلى هذه الأرض عند الصديق، وعند قرن الحديد إن كان أجله طويلًا في ذلك، ولم لا يفعل وهذه أولى جولاته؟! حيث نقل الإسلام من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، من المدينة المنورة المجاورة لبحر القلزم إلى عُمان؛ حيث يسمع أهلها صوت البحر في أقصى الشرق، ولا عجب؛ فدور قريش دور الريادة في الأمة، وعليهم أن يحملوا عبء هذا الأمر ويقودوا الأمة حتى يأذن اللَّه - تعالى - بهذه القيادة بابتلاج فجر جديد يطل على البشرية كلها فيملأها هدى ونورًا؛ فقد سمع من رسول اللَّه ﷺ أن قريشًا ولاة هذا الأمر، وهو من قريش؛ فلا بد أن يساهم في صنع الأحداث عند خلفاء رسول اللَّه كما ساهم في صنعها عنده، فعن عبد اللَّه بن أبي الهذيل قال: كان عمرو بن العاص يتخولنا؛ فقال رجل من بكر ابن وائل: لئن لم تنته قريش ليضعنَّ اللَّه هذا الأمر في جمهور من جماهير العرب سواهم؛

(١) روى الحادثة بطولها الحافظ ابن عساكر في كتابه: تاريخ دمشق (١٣/ ٥٠٧ - ٥٠٩).

فقال عمرو بن العاص: كذبت، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « **قريش ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة** »[1].

* * *
* *
*

(١) أخرجه الترمذي في باب الفتن (٢٢٢٧)، وقال فيه: وفي البابِ عن ابن مسعود وابن عمرو وجابر، وهذا حديث حسن غريب صحيح (٤/ ٥٠٤).

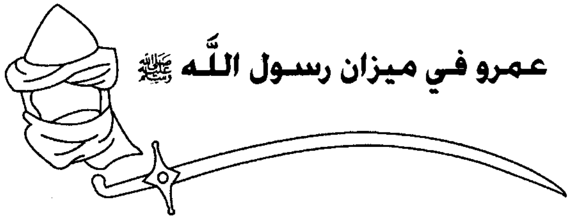

عمرو في ميزان رسول اللَّه ﷺ

إننا نود في هذا الفصل أن نتعرف على عمرو بن العاص ﷺ من فم رسول اللَّه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى؛ وبذلك نقطع دابر الظن والتقول عليه من قبل أن نضيع في متاهة الأحداث فتؤثر علينا في الحكم عليه، وبذلك نصحح الأحداث بالميزان النبوي الخالد، ونرمي بالحدث مهما كان شأنه إذا تعارض مع نص نبوي صحيح؛ وذلك قبل أن نمضي مع عمرو ﷺ في قلب هذه الأحداث، بعد وفاة رسول اللَّه - صلوات اللَّه وسلامه عليه - التي تأتي مصداقًا لتقويم رسول اللَّه ﷺ لجنديه وصاحبه عمرو - رضوان اللَّه عليه.

١ - رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها:

(أخبرنا أبو غالب وأبو عبد اللَّه ابنا أبي علي قالا: أنا أبو جعفر المسلمة، أنا أبو طاهر المخلص، أنا أحمد، أنا الزبير قال:

وهاجر عمرو بن العاص في الهدنة التي كانت بين رسول اللَّه ﷺ وبين قريش هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، فلما رآهم رسول اللَّه ﷺ قال: « **رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها** »)[١].

فعمرو إذن قائد من قادة مكة وسيد من ساداتها، وهو مع رفيقيه خالد وعثمان خيرة الخيرة من مكة وأفلاذ كبدها، وليس عمرو عند رسول اللَّه ﷺ امرأً مغمورًا أو نكرة مجهولة؛ بل هو في موضع السيادة والقيادة من قومه.

يؤكد هذا المعنى ما رواه عمرو ﷺ في قصة إسلامه قائلًا:

« فواللَّه ما عدل بي رسول اللَّه وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في أمر حزبه »[٢].

ويؤكد هذا المعنى كذلك ما رواه وكيع عن منذر بن ثعلبة عن ابن بريدة قال عمر لأبي بكر: ليدع عمرو بن العاص الناس أن يوقدوا نارًا، ألا ترى إلى ما صنع بالناس

---

(١) أخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٤٩٧) مخطوط.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي، وقال فيه: رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجاله ثقات (٩/ ٣٥٠).

يمنعهم منافعهم؟ فقال أبو بكر: فإنما ولاه رسول اللّه علينا لعلمه بالحرب[١].

عن ابن بريدة أن عمر قال لأبي بكر حين شيَّع عمرًا: أَوَتَزيد الناسَ نارًا؟ ألا ترى إلى ما يصنع هذا بالناس؟ فقال: دعه؛ فإنما ولاه علينا رسول اللّه ﷺ لعلمه بالحرب[٢].

٢ - رسول اللّه صلى يضرب المثل بشجاعته:

أحمد: حدثنا ابن مهدي عن موسى بن علي، عن أبيه، عن عمرو بن العاص قال: كان فزع بالمدينة؛ فأتيت سالمًا مولى أبي حذيفة وهو محتب بحمائل سيفه، فأخذت سيفًا، فاحتبيت بحمائله؛ فقال رسول اللّه ﷺ:

« **ألا كان مفزعكم إلى اللّه ورسوله، ألا فعلتم كما فعل هذان المؤمنان** »[٣].

٣ - ويضرب المثل بكرمه وجوده:

(أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا الليث عن يزيد عن سويد بن قيس عن زهير ابن قيس البلوي عن علقمة بن رمثة أن رسول اللّه ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى البحرين فخرج رسول اللّه ﷺ فخرج وخرجنا معه، فنعس وقال: « **يرحم اللّه عمرًا** » فتذاكرنا كل من اسمه عمرو. قال: فنعس رسول اللّه ﷺ ثم قال: « **رحم اللّه عمرًا** »، ثم نعس الثالثة فاستيقظ فقال: « **رحم اللّه عمرًا** » قلنا: يا رسول اللّه، من عمرو هذا؟ قال: « **عمرو بن العاص** » قلنا: وما شأنه؟ قال: « **كنت إذا ندبت الناس إلى الصدقة جاء فأجزل منها، فأقول: يا عمرو، أنى لك هذا؟ فقال: من عند اللّه، وصدق عمرو؛ إن له عند اللّه خيرًا كثيرًا** »)[٤].

٤ - وأثنى على المال بين يديه وحرص له عليه:

موسى بن علي عن أبيه سمع عمرًا يقول: بعث إليَّ رسول اللّه ﷺ فقال: « **خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني** »فأتيته وهو يتوضأ فصعَّد فيَّ البصر، وصوبه فقال: « **إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك اللّه ويغنمك، وأرغب لك رغبة صالحة من المال** » قلت:

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٦٣)، وهو عند ابن عساكر (١٣/ ٢٥٤) ب.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ٣٥٢) وقال فيه: رواه الطبراني مرسلًا ورجاله رجال الصحيح غير المنذر بن ثعلبة وهو ثقة.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٦٥)، وقال المحقق فيه: إسناده حسن، وهو في المسند (٤/ ٢٠٣)، وتاريخ ابن عساكر (١٣/ ٢٥٢).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٦٥)، وقال المحقق فيه: رجاله ثقات خلا زهير بن قيس البلوي؛ فقد ترجمه البخاري (٢/ ٤٢٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٥٨٦)، ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا، وأورده الحافظ في الإصابة ونسبه للبخاري في تاريخه (٧/ ٤٠).

يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال؛ ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، ولأن أكون مع رسول الله ﷺ. قال: « **يا عمرو، نعمًا بالمال الصالح للرجل الصالح** »(١).

وحين يعلم رسول الله ﷺ جنديه عمرًا أنه يرغب به رغبة صالحة في المال؛ فإنما يعني هذا أن ثقته بحكمته واقتصاده وحسن تعامله في المال هي ثقة كبيرة؛ لأننا نرى في كثير من الأحاديث الأخرى أن رسول الله ﷺ يحذر العديد من صحابته من المال؛ فهو إذن من الرجال الذين أوكل لهم عمارة الدنيا بأموالهم ولا خشية على قلوبهم ونفوسهم من أن تستأثر بهم الدنيا أو تستهويهم مغرياتها، أو تقعد بهم عن جليل الأعمال من الجهاد والتضحية في سبيل الله. وقد سبر رسول الله ﷺ نفسيته واعتبرها مثلًا يحتذى حين تحدَّث عنه في الحديث السابق: « **فأقول: يا عمرو، أنى لك هذا؟ فقال: من عند الله، وصدق عمرو؛ إن له عند الله خيرًا كثيرًا** ».

وحين خشي عمرو على نفسه أن يكون رسول الله ﷺ قد اختاره للجهاد كي يغنم فيتألف قلبه وجزع من هذا المعنى - قال لحبيبه المصطفى ﷺ:

يا رسول الله: ما أسلمت من أجل المال؛ ولكني أسلمت رغبةً في الإسلام، ولأن أكون مع رسول الله ﷺ. فيأتيه جواب قائده ومربيه: « **يا عمرو، نعمًا بالمال الصالح للرجل الصالح** ».

فصلاح عمرو يقوده إلى صلاح المال الذي يستثمره في وجوه الخير مهما عظم في يده وكثر في اقتنائه؛ فهو موظف عنده لا يدخله قلبه ولا يسكنه نفسه؛ فهو الرجل الصالح الذي يتعامل مع المال الصالح بأخذه من حِلِّهِ وينفقه في محله، ولا يضيرنا بعد ذلك أي شيء نسمعه عن ثروة عمرو بن العاص بعد شهادة رسول الله ﷺ بصلاحه وصلاح ماله، وبعد قول رسول الله ﷺ له: « **إني أرغب لك رغبة صالحة في المال** ».

وحين نقرأ بعدها مثلًا ما رواه ابن عينية قال: حدثنا عمرو، أخبرني مولًى لعمرو ابن العاص أن عمرًا أدخل في تعريش الوهط - بستان بالطائف - ألف ألف عود، كل عود بدرهم)(٢)، ونقرأ عنه أنه (خلف أموالاً كثيرة وعبيدًا وعقارًا)(٣) - نعلم أنه استعمله في الصلاح وكان أهلًا له؛ لأنه نعم المال الصالح للرجل الصالح.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٦٦)، وقال المحقق فيه: أخرجه أحمد (٤/ ١٩٧ - ٢٠٢) والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٩٩) من طرق عن موسى بن علي عن أبيه عن عمرو بن العاص، وهذ سند صحيح وصححه ابن حبان (١٠٨٩)، والحاكم (٢/ ٢)، ووافقه الذهبي، وهو في ابن عساكر (١٣/ ٢٥٣) ب.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٧٤)، وتاريخ ابن عساكر (١٣/ ٢٦٦) أ.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٧٧)، يقال: خلف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهبًا.

٥ - عمرو بن العاص من صالحي قريش:

وإذا كان الحديث السابق « **نعمًا بالمال الصالح للرجل الصالح** » هو حديث عام لا يذكر عمرًا بالصلاح بشكل مباشر فيأتينا هذا الحديث المروي عن طلحة بن عبيد اللّه ﷺ أحد العشرة المبشرين بالجنة كما ذكر الذهبي في السير قال:

روى عبد الجبار بن الورد، عن ابن أبي مليكة، قال طلحة: ألا أحدثكم عن رسول اللّه ﷺ بشيء؟ إني سمعته يقول: « **عمرو بن العاص من صالحي قريش، نعم أهل البيت أبو عبد اللّه، وأم عبد اللّه، وعبد اللّه** »(١).

وفي رواية عند أحمد عن المطلب بن عبد اللّه بن حنطب قال: قال النبي ﷺ: « **نعم أهل البيت عبد اللّه وأبو عبد اللّه وأم عبد اللّـه** »(٢).

فقد خصه - عليه الصلاة والسلام - بأنه من صالحي قريش، وأثنى على البيت كله؛ على عمرو بن العاص ﷺ وعن زوجته وابنه عبد اللّه - رضوان اللّه عليهم أجمعين-.

٦ - وعمرو وأخوه يشهد لهما بالإيمان:

وإذا كان الحديث السابق يتناول بيت عمرو ﷺ أبًا وزوجًا وابنًا، فهنا يرد الحديث الذي يتناول عمرًا وأخاه بفضيلة عظمى وهي الشهادة لهما بالإيمان.

روى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ:

« **ابنا العاص مؤمنان: عمرو، وهشام** »(٣).

وإن كان هشام ﷺ قد سبق عمرًا بالإيمان، وهاجر إلى الحبشة، واستشهد باليرموك؛ لكن عمرًا ﷺ لنفاسة معدنه لحق بأخيه، وإن كان دائمًا يفضل أخاه عليه - رحمه اللّه -؛

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٦)، وقال المحقق فيه: أخرجه أحمد (١/ ١٦١) من طريق وكيع ورجاله ثقات، لكنه منقطع؛ لأن ابن أبي مليكة لم يدرك طلحة. أما الحافظ ابن عساكر فقد رواه عن سليمان أيوب بن سليمان ابن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد اللّـه حدثني أبي عن جدي عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة قال: سمعت رسول اللّـه ﷺ يقول: « عمرو بن العاص لمن صالحي قريش » (١٣/ ٥٠٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٥٤) فيه: رواه الترمذي باختصار، ورواه أبو يعلى وأحمد بنحوه ورجاله ثقات.

(٢) فضائل الصحابة (٢/ ٩٤٤) وقال المحقق فيه: مرسل ورجاله ثقات.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٦) وقال المحقق فيه: إسناده حسن أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٤ - ٣٥٣)، وابن سعد (٤/ ١٩١)، والحاكم (٣/ ٢٠، ٤٥٢)، وابن عساكر (١٣/ ٢٥٠) من طرق، وله شاهد عند ابن سعد (٤/ ١٩٢) عن عمرو بن حكام عن شعبة عن عمرو بن دينار عن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم عن عمه، وهذا سند حسن في الشواهد؛ لأن عمرو بن حكام يكتب حديثه على ضعفه للاستشهاد، وقال عنه: صحيح (ص ٧٨).

فعن محمد بن الأسود بن خلف قال: (كنا جلوسًا في الحجر في أناس من قريش إذ قيل: قدم الليلة عمرو بن العاص. فما أكثرنا أن دخل علينا، فمددنا إليه أبصارنا، فطاف ثم صلى في الحجر ركعتين وقال: أقرصتموني؟! قلنا: ما ذكرناك إلا بخير، ذكرناك وهشام ابن العاص، فقلنا: أيهما أفضل؟ قال بعضهم: هذا، وقال بعضنا: هشام.

قال: أنا أخبركم عن ذلك، أسلمنا، وأحببنا رسول اللّه ﷺ وناصحناه، ثم ذكر يوم اليرموك فقال: أخذت بعمود الفسطاط، ثم اغتسلت وتحنطت ثم تكفنت، فعرضنا أنفسنا على اللّه ﷻ؛ فقبله فهو خير مني. يقولها ثلاثًا)[١].

وفي رواية عند الذهبي في السير:

(قال ابن عيينة: قالوا لعمرو بن العاص: أأنت خير أم أخوك هشام؟ قال: أخبركم عني وعنه، عرضنا أنفسنا على اللّه فقبله وتركني)[٢].

وفي رواية ثالثة يتحدث فيها عن فضائل أخيه فيقول:

(أسلم قبلي؛ وأمه بنت هاشم بن المغيرة وأمي سبية، وكان أحب إلى أبيه مني، وتعرفون فراسة الوالد)[٣].

وهكذا ذُكرت شهادة رسول اللّه ﷺ بإيمان جنديه مرتين:

الأولى: عندما ذكره مع سالم مولى أبي حذيفة قائلًا: « **ألا فعلتم كما فعل هذان المؤمنان** ».

الثانية: عندما ذكره مع أخيه هشام بن العاص قائلًا: « **ابنا العاص مؤمنان: عمرو وهشام** ».

٧ - أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص:

وها هو ﷺ يتفرد في مزية من بين خلق اللّه كافة كانت أعلى وسام يمنحه إياه رسول اللّه ﷺ.

حدثنا عبد اللّه قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد اللّه بن يزيد قال: حدثنا ابن لهيعة قال: نا مشرح بن هاعان قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٣٥٣) وقال فيه: رواه الطبراني وفيه أبو عمرو مولى أبي أمية، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٧٩).

(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر هامش الإصابة (٤/ ٥٩٤).

« **أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص** »(١).

وهذه الخصوصية لعمرو ﷺ تتحدث عن عظمة الإيمان عنده، وإذا كان تفاضل الناس بالإيمان في قلوبهم؛ يقف عمرو بن العاص ﷺ في الذروة والقمة بشهادة رسول اللَّه ﷺ، ولا ندري سر هذه الخصوصية التي خص بها رسول اللَّه ﷺ عمرًا. وإذا كان الأمر بظاهر اللفظ؛ فهذا يعني أنه قد غزا الإيمانُ باللَّه - تعالى - قلبَه وفؤادَه فاستجاب له، وجاء فأعلن إسلامه بين يدي رسول اللَّه - عليه الصلاة والسلام - ونقف أمام هذا النص دون إبداء للرأي ونربط بينه وبين قول الرسول ﷺ الذي يقول عنه فيه: « **صدق عمرو، إن له عند اللَّه خيرًا كثيرًا** ».

لقد شهد رسول اللَّه ﷺ بالإيمان لكثير من صحابته، لكن الميزة هنا هي تفرد عمرو بهذا الوصف من بين الناس، وإن دل على شيء فإنما يدل على تمكن الإيمان من أعماقه، وكل ذرة من ذرات جوارحه.

٨ - فإنه يحبك ويحب رسولك:

وننتقل هنا إلى ثلاثة أحاديث هي أدنى درجة مما سبق، وها هو - عليه الصلاة والسلام - يضعه مع قادة الأمة الذين لا يبلغ شأوَهم أحدٌ؛ فقد أخرج الحافظ ابن عساكر عن ابن يخامر السكسكي أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **اللهم صلِّ على أبي بكر فإنه يحبك ويحب رسولك، اللهم صلِّ على عُمَر فإنه يحبك ويحب رسولك، اللهم صلِّ على عثمان فإنه يحبك ويحب رسولك، اللهم صلِّ على أبي عبيدة بن الجراح فإنه يحبك ويحب رسولك، اللهم صلِّ على عمرو بن العاص فإنه يحبك ويحب رسولك** »(٢).

ويكفيه من الفخر أن يُذكَر مع هؤلاء السادة العظام في الإسلام، وأن يدعو رسولُ اللَّه ﷺ له بالصلاة عليه، ويشهد له أنه يحب اللَّه ورسوله.

٩ - إن عمرو بن العاص لرشيد بالأمر:

سليمان بن أيوب الطلحي حدثنا أبي عن إسحاق بن يحيى عن عمه موسى بن طلحة عن أبيه: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إن عمرو بن العاص لرشيد الأمر** »(٣).

---

(١) فضائل الصحابة (٢/ ٩١٢)، (ح ١٧٤٤) وقال المحقق فيه: إسناده صحيح وابن لهيعة مختلط إلا أن الراوي عنه عبد اللّـه بن يزيد المقري وروايته عنه صحيحة، وأخرجه الترمذي (٥/ ٦٨٧).

(٢) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٥٠٠) وقال فيه: هذا الحديث على إرساله فيه انقطاع بين يزيد ومالك ابن يخامر. كما ذكره الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ٦٥)، وقال عنه: منقطع.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٦٤) وقال المحقق فيه: إسناده ضعيف لضعف إسحاق بن يحيى وجهالة راويه عنه.

وفي رواية أخرى عن طلحة ﷺ يقول: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « **يا عمرو، إنك لذو رأي رشيد في الإسلام** »[١].

وقد صدق واقع عمرو في رأيه الرشيد؛ إذ قاد جحافل الإسلام إلى النصر بشجاعته وعبقريته وسداد رأيه.

١٠ - عمرو بن العاص في الجنة:

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « **ابنا العاص مؤمنان، وعمرو بن العاص في الجنة** »[٢].

وهذه الزيادة إن ثبتت فقد قطعت كلَّ تقولات المتقولين في النيل منه - رضوان اللّه عليه -، وحسب الذين يتجرؤون على عمرو أن يسمعوا بهذه الأحاديث كلها، ثم يستبيحون لأنفسهم الطعن فيه وفي دينه، وقد شهد له الرسول ﷺ بالإيمان وحب اللّه ورسوله، وشهد بشجاعته، وشهد بجوده، وشهد أن له عند اللّه خيرًا كثيرًا، شهد له بأنه ذو الرأي الرشيد والسديد في الإسلام، وأفرده بقوله - صلوات اللّه وسلامه عليه -: « **أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص** ».

والذي سنشهده فيما بعد عما أكرمه اللّه تعالى به من الفتوحات على يديه، وثقة أبي بكر وعمر وعثمان به، وولايته أمر المسلمين سنوات طويلة يقيم فيهم شريعة اللّه تعالى بالعدل والقسطاس، وما كتب اللّه تعالى على يديه من إيمان الخلق الكثير - لجدير بأن يكف لسان المتطاولين والمتجنين عليه.

لقد رسم رسول اللّه ﷺ معالم شخصيته التي تؤهله للقيادة العليا في الأمة.

فالشجاعة والكرم هما أعظم ما في المرء من فضائل بعد الإيمان.

إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز.

والإيمان الذي ورد له في ثلاثة مواضع أفرد في واحد منها.

وسداد الرأي ورشده وهي الحكمة المطلوبة ممن يتصدر لقيادة الأمة.

---

(١) تاريخ دمشق (١٣/ ٤٩٩).

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي وقال فيه: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأحمد، إلا أنه قال: عمرو وهشام ورجال الكبير وأحمد رجال الصحيح غير محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث، لكن هذه الزيادة « وعمرو بن العاص في الجنة » ليست عند أحمد في المسند (٢/ ٣٢٧، ٣٥٣، ٣٥٤)، وليست عند الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٣٧)، (ح ٤٦١) فبقيت عند الطبراني في الأوسط، وفي سنده ضعف.

والعبقرية في إدارة المال؛ حيث رغب له رسول اللّه ﷺ فيه رغبة صالحة، وهي التي تؤهله لتولي ولاية أمر المسلمين بحيث يقودها إلى الازدهار والرفاهية والتقدم.

والعلم بالحرب والخبرة والتجربة فيها والتي تؤهله لقيادة الجيوش ومصارعة العدو.

والصلاح والرشد الذي يحفظ هذا كله؛ فهو من صالحي قريش وحب اللّه وحب رسوله الذي يفوق في قلبه كل حب فينشئ جيلًا وحضارة منطلقة من الإيمان والهدي الرباني.

وثقة رسول اللّه ﷺ به؛ حيث بعثه قائدًا حربيًّا فعاد مظفرًا منتصرًا بذات السلاسل، وبعثه داعية إلى اللّه - تعالى - وواليًا على عُمان، فأسلم أهل عُمان على يديه وعلى رأسهم ملكي عمان عبد وجيفر، وأسلم على يديه خلق كثير، وتوفي رسول اللّه ﷺ وهو عنه راضٍ، وصحبته لرسول اللّه ﷺ - هذه المواصفات العشر والشهادات النبوية فيه تؤهله للمشاركة في قيادة العالم كله، وقد كان ذلك.

* * *
* *
*

عمرو بن العاص
تلميذ في مدرسة النبوة

هذه الأشهر المعدودة التي عاشها عمرو بن العاص ﷺ في مدرسة النبوة علمته الكثير الكثير من هذا الدين، وكانت هي محور بنائه وصياغته، وسنقف مع ما تعلمه من هذه المدرسة، ونشهد أثرها فيه فيما بعد، وندع التعريف به وبعلمه وتلقيه من مدرسة النبوة للحافظ الذهبي - رحمه اللَّه؛ حيث يقول:

« عمرو بن العاص بن وائل، الإمام أبو عبد اللَّه، ويُقال: أبو محمد السهمي، داهية قريش، ورجل العالم، ومن يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم. هاجر إلى رسول اللَّه ﷺ مسلمًا في أوائل سنة ثمان مرافقًا لخالد بن الوليد وحاجب الكعبة: عثمان ابن طلحة؛ ففرح النبي ﷺ بقدومهم وإسلامهم، وأمَّر عمرًا على بعض الجيش وجهزه للغزو.

له أحاديث ليست بالكثيرة تبلغ بالمكرر نحو الأربعين، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة أحاديث منها، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بحديثين، وروى أيضًا عن عائشة.

حدث عنه ابنه عبد اللَّه، ومولاه أبو قيس، وقبيصة بن ذؤيب، وأبو عثمان النهدي، وعلي بن رباح، وقيس بن أبي حازم، وعروة بن الزبير، وجعفر بن المطلب بن أبي وداعة، وعبد اللَّه بن مُنين، والحسن البصري مرسلًا، وعبد الرحمن بن شماسة المهري، وعمارة ابن خزيمة بن ثابت، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو مرة مولى عقيل، وأبو عبد اللَّه الأشعري وآخرون »(١).

١ - في الإسلام والهجرة والحج:

أخرج مسلم عن ابن شماسة المهري قال: (حضرنا عمرو بن العاص في سياقة الموت فبكى طويلًا، وحول وجهه إلى الجدار فجعل ابنه يقول: يا أبتاه، أما بشرك رسول اللَّه ﷺ بكذا، أما بشرك رسول اللَّه ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، إني كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أحد

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي (٣/ ٥٤، ٥٥).

أشد بغضًا لرسول اللَّه ﷺ مني ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت من قتله فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار.

فلما جعل اللَّه الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي قال: « **ما لك يا عمرو؟** » قلت: أردت أن أشترط. قال: « **تشترط بماذا؟** » قلت: أن يُغفَر لي؟ قال: « **أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟** »، وما كان أحد أحب إلي من رسول اللَّه ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة..)[1].

لقد تعلم عمرو ﷺ أول درس في هذه المدرسة النبوية العالية: أن الإسلام والهجرة والحج تهدم ما كان قبلها من الذنوب، وتفتح صفحة ناصعة جديدة.

وتعلم مع هذا الدرس العلمي الدرس الروحي العاطفي: تعلم الحب للَّه ولرسوله وهو الذي يهدم ما كان قبله من البغض والكراهية والحقد، ويقتلعه من جذوره، ويصبح القلب بنور الإسلام جاهزًا لينبت فيه حب رسول اللَّه ﷺ بعد أن كان يحلم بقتله.

ومع هذا الحب العظيم للرسالة والنبوة؛ فهو ليس مع خصم لدود؛ بل مع نور الوجود، مع الرحمة المهداة، وأنى له أن يتمكن من النظر في هذا النور الباهر، تعلم الحب والإجلال بوقت واحد.

وانتقل من « ما كان أحد أبغض إلي منه » إلى « ما كان من أحد أحب إلي منه »، وانتقل من « لو أسلم أهل الأرض كلها ما أسلمت » إلى أن لا يجد في صحيفته أعظم من شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه. ولو كان في صحيفته فتح بلدان الأرض والحكم بشريعة اللَّه فيها وإدخال شعوب في الإسلام على يديه؛ فهو يرى شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه أعظم من هذا كله، وانتقل من مرحلة أن لا يطيق رؤيته بغضًا وكرهًا له وحقدًا عليه إلى « ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه » فلا يطيق رؤيته تعظيمًا له وانبهارًا بنوره الذي يملأ عليه كيانه ووجوده، وغدا عندنا عمرو جديد وبعقل جديد وبناء جديد، هدم كل ما كان قبله من ذنب ومعصية وجرم وبغض وحقد، ولم يهدم معدنه النفيس الغالي وقيمه وشهامته ومروءته ورجاحة عقله

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١١٢)، (ح ١٩٢ - ١٢١).

ودهاءه وحنكته؛ لكنها كلها دخلت في معمل جديد هو معمل الإسلام فصبغت به، ومن أحسن من اللَّه صبغة، ونجد عند أحمد إضافة جديدة « ... ولا راجعته فيما أريد حتى لحق باللَّه ﷻ حياء منه »(١).

٢ - أي العمل أفضل؟

ويسر عمرًا أن يأتي الأعرابي فيسأل رسول اللَّه ﷺ فيتعلم هو من هذا الأعرابي؛ فلا يزال الحياء يلجمه من أن ينظر بوجه حبيبه المصطفى - عليه الصلاة والسلام -، وها هو يقص علينا قصة ذلك الدرس الذي تعلمه في مدرسة النبوة.

(حدثنا يحيي بن غيلان قال: ثنا رشدين حدثني موسى بن علي عن أبيه عن عمرو ابن العاص قال: قال رجل: يا رسول اللَّه، أي العمل أفضل؟ قال: « **إيمان باللَّه وتصديق وجهاد في سبيل اللَّه وحج مبرور** » قال الرجل: أكثرت يا رسول اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **فلين الكلام، وبذل الطعام، وسماح وحسن خلق** ». قال الرجل: أريد كلمة واحدة. قال له رسول اللَّه ﷺ: « **اذهب فلا تتهم اللَّه على نفسك** »)(٢).

لقد تعلم عمرو ﷺ أن الإيمان باللَّه والتصديق به عمل، وهو أفضل الأعمال عند اللَّه ﷻ، من أجل هذا رأيناه يتحدث في مرض موته.. أرجى أعماله عند اللَّه ﷻ هي شهادة أن لا إله إلا اللَّه وشهادة أن محمدًا رسول اللَّه.. وتعلم من الدرس السابق كذلك أن الحج المبرور يهدم ما قبله، وأن ليس له جزاء إلا الجنة، أما الإضافة الجديدة له في هذا الدرس؛ فهي لين الكلام وبذل الطعام وحسن الخلق: لقد كان يملك هذه المواصفات في الجاهلية، لكنه كان يريدها للسمعة والصيت والشهرة، ويتبارى الناس في الحديث عن حسن خلقه وجوده؛ أما اليوم فقد دخلت هذه العناصر معمل الإيمان، وخرجت مختومة بختمه لتكون أفضل الأعمال بعد الإيمان والحج والجهاد، وهذه يملكها كل عربي أصيل - أو يعرفها على الأقل - فهي سجية من سجايا العرب، أقرها الإسلام بصيغتها الجديدة لتكون خالصة للَّه - سبحانه - وتقربًا وزلفى إليه.

٣ - الإيمان وموطنه:

فعن عبد اللَّه بن الحارث قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **بينما أنا في منامي أتتني الملائكة، فحملت عمود الكتاب من تحت وسادتي فعمدت به**

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٠٤، ٢٠٥).
(٢) مسند أحمد (٤/ ٢٠٤).

إلى الشام، ألا فالإيمان حين تقع الفتن بالشام »(١).

لقد كان لعمرو ﷺ مع الشام تاريخ طويل من الفتوحات، ولعل هذا الحديث كان له دور غير مباشر في انضمامه إلى معاوية ﷺ في قلب هذه الفتنة، فإذا كان عمود الكتاب قد رحل إليها؛ فلم لا يرحل هو إليها؟ وأي فتنة أعظم من خلاف المسلمين واقتتالهم فيما بينهم؟!

وإذا كان سند الحديث ضعيفًا؛ فهذا لا يعني أن المعنى غير صحيح؛ فقد أخرج أحمد في كتابه فضائل الصحابة عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **بينما أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهوب به؛ فأتبعته بصري، فعُمد به إلى الشام. ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام** »(٢).

٤ - ومن الإيمان إلى القرآن:

وبالقرآن يفقه الناس الإيمان، وهذا درس عملي من أهم الدروس العملية التي تلقاها ﷺ في مدرسة النبوة.

(فعن أبي قيس مولى عمرو بن العاص قال: سمع عمرو بن العاص رجلًا يقرأ آية من القرآن قال: من أقرأكها؟ قال: رسول اللَّه ﷺ. قال: فقد أقرأنيها رسول اللَّه ﷺ على غير هذا. قال: فذهبا إلى رسول اللَّه ﷺ فقال أحدهما: يا رسول اللَّه، آية كذا وكذا، ثم قرأها فقال رسول اللَّه ﷺ: « **هكذا أنزلت** » فقال الآخر: يا رسول اللَّه! فقرأها على رسول اللَّه ﷺ فقال: أليس هكذا يا رسول اللَّه؟ قال: « **هكذا أنزلت** » فقال رسول اللَّه ﷺ: « **إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف؛ فأي ذلك قرأتم فقد أحسنتم، ولا تماروا فيه فإن المراء فيه كفر أو آية الكفر** »(٣).

---

(١) مسند أحمد (٤/ ١٩٨)، والحديث ضعيف لضعف عبد العزيز بن عبد اللَّـه بن حمزة بن صهيب كما في كتاب فضائل الصحابة (٢/ ٩٠١) هامش.

(٢) فضائل الصحابة (٢/ ٩٠١)، (ح ١٧١٧)، وقال المحقق فيه: إسناده صحيح، وأخرجه في المسند (٥/ ١٩٨، ١٩٩) بهذا الإسناد، والفسوي في تاريخه (٢/ ٢٩٠)، وأبو نعيم في الحلية (ص ٦ - ٩٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٧) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح، وأخرجه ابن عساكر في تاريخه (١/ ١٠) أ. وله شاهد عن عمرو بن العاص رواه أحمد، إسناده ضعيف، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٩)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) مسند أحمد (٤/ ٢٠٥) وسنده: حدثنا أبو سلمة الخزاعي (ثقة ثَبت حافظ) قال: أخبرنا عبد اللَّـه بن جعفر عن المسور بن مخرمة (ليس به بأس) قال: أخبرني يزيد بن عبد اللَّـه بن أسامة (ثقة) عن بسر بن سعيد (ثقة جليل) عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص (ثقة) قال: سمع عمرو بن العاص...) فرجال الحديث ثقات، وهناك رواية =

ولو لم يكن ﷺ في مدرسة النبوة لكوَّنت هذه القضية أزمة عنده؛ إذ هو متأكد أن رسول اللَّه ﷺ قد علمه هذه الآية بغير ما يقرأ بها أخوه في اللَّه، وتحريف القرآن من الأمور الخطيرة الكبرى التي لا يتساهل بها في الدين؛ فهو دستور البشرية كافة وهو منقول بالتواتر من فم رسول اللَّه ﷺ عن جبريل عن ربه، ولكن هذا التنازع قد وقع وإمام المربين في الوجود ، ولا تزال البشرية تسعد بنوره؛ فليحتكما إليه، وأدلى عمرو بحجته ونصره رسول اللَّه ﷺ وصدقه، وأحس أنما ملك الدنيا بذلك، ثم أدلى أخوه بحجته فسرعان ما قال له: « **هكذا نزلت** ».

ثم كان الدرس النبوي العظيم:

« **إن هذا القرآن إنما أنزل على سبعة أحرف** »؛ ليستوعب لهجات العرب كلها، ويحمل العرب كلهم لا قريش وحدها عبء التبليغ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤].

« **فأي ذلك قرأتم فقد أحسنتم** ».

ولا فضل لقراءة على قراءة ما دامت ثابتة؛ إنما الخطر هو في المراء فيه؛ فالمراء فيه كفر أو أخو الكفر. لقد تكفل اللَّه - تعالى - بحفظ كتابه، والقراءات السبع المشهورة كلها متواترة عن رسول اللَّه ﷺ، والمؤمنون في الأرض يتلون هذا الكتاب بهذه القراءات، ولو لم نسمع هذا الدرس من تلميذ مدرسة النبوة لكان هذا الأمر من أكبر القضايا التي تتمزق الأمة بسببها، وجاء ختام الحديث أن مجرد المراء فيه - وليس الخلاف أو الاختلاف أو الشقاق - هو الكفر أو دليل الكفر، ومضى عمرو ﷺ بها إلى الأرض كلها التي دخلها وفتحها هاديًا في هذا المجال.

٥ - السجدات الخمس عشرة:

تعلم هذا الدرس من القرآن من رسول اللَّه ﷺ، وهذا يبين أنه كان يفد يوميًا إلى رسول اللَّه ﷺ يتعلم منه كتاب اللَّه خلال هذه المدة القصيرة التي أمضاها معه، ولا يتلقاها منه فقط؛ إنما يسمعها لرسول اللَّه ﷺ ويقول له: هكذا أنزلت، وتعلم أن في القرآن خمس عشرة سجدة، نقل هذا العلم إلى الأجيال اللاحقة كلها، وروته عنه الأئمة كلهم كذلك.

= أخرى لأحمد (٤/ ٢٠٤) بالسند نفسه بإضافة (أبي سعيد مولى بني هاشم صدوق ربما أخطأ).

« فعن محمد بن عبد الرحيم بن البرقي[١] حدثنا ابن أبي مريم[٢] أخبرنا نافع بن يزيد[٣] عن الحارث بن سعيد العنقي[٤] عن عبد اللَّه ابن قنين من بني عبد كلال[٥] عن عمرو ابن العاص أن رسول اللَّه ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل في سورة الحج سجدتان »[٦].

ويؤكد هذا الحديث أن عمرًا ﷺ كأنما تلقى القرآن كله عن رسول اللَّه ﷺ؛ إذ استوعبه كل سجدات القرآن المتوزعة عليه كله.

٦ - في أحكام العبادات:

أ - في الوضوء والتيمم:

وحين نذكر موقفه في غزوة ذات السلاسل يوم أذاع الجيش عنه أنه صلى بالناس وهو جُنُب، ورأينا فقهه العظيم في التوقف عن الغسل لشدة البرد مجيبًا نبيه المصطفى ﷺ: إني سمعت اللَّه يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩] فضحك رسول اللَّه ﷺ ولم يقل شيئًا. واختلفت الروايات فيما فعله عوضًا عن الغسل؛ ففي رواية عن مولاه أبي قيس: « فغسل مغابنه، وتوضأ وضوءه للصلاة »[٧]، وفي رواية عن حسان ابن عطية قال فيها: « فتيمم ». واللَّه أعلم أي ذلك كان.

ودليل رجاحة عقل عمرو ﷺ في أن التيمم شرع فيما بعد عند الخوف من استعمال الماء، وليس عند فقدانه فقط، وما رواه أبو داود ﷺ يؤكد هذا المعنى.

فعن جابر قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلًا منا حجر فشجَّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء؛ فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: **« قتلوه قتلهم اللَّه، ألا سألوا إذا لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم**

---

(١) ثقة من الحادية عشرة.

(٢) ضعيف من السابعة.

(٣) ثقة عابد من السابعة.

(٤) مقبول من السابعة.

(٥) وثقه يعقوب بن سفيان من الثالثة.

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة (م١)، (٥٩٢/ ١٤٠١) باب تفريع أبواب السجود وكم سجدة في القرآن وقال أبو داود: وروي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة، وإسناده واه، ورواه ابن ماجه (١/ ٣٣٤) (ح ١٠٥٣) بالسند نفسه غير محمد بن يحيى، وهو ثقة من الحادية عشرة.

(٧) أخرجه أبو داود (١/ ٩٢)، (ح ٣٣٤) وأحمد (٤/ ٢٠٣، ٢٠٤) ورجال أحمد ثقات إلا ابن لهيعة صدوق.

ويعصر - أو يعصب: شك موسى - **على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها، ثم يغسل سائر جسده »**[١]، ولا شك أن ضحك رسول اللَّه ﷺ لقوله هو إقراره باجتهاده.

وها هو يروي لنا ﷺ حديث إتمام الوضوء ليظهر بعد الحديث السابق في أعماقه، فليس التساهل على ما يخطر في الذهن هو منطلقه؛ بل الفهم والعلم المنبثق من نور النبوة.

فهو أحد الأربعة من الصحابة الذين رووا حديث إتمام الوضوء كما أخرجه ابن ماجه قال: (حدثنا العباس بن عثمان وعثمان بن إسماعيل الدمشقيان قالا: حدثنا الوليد ابن مسلم، حدثنا شيبة بن الأحنف، عن أبي سلام الأسود، عن أبي صالح الأشعري، حدثني أبو عبد اللَّه الأشعري، عن خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل ابن حسنة وعمرو بن العاص - كل هؤلاء سمعوا من رسول اللَّه ﷺ قال: « **أتموا الوضوء؛ ويل للأعقاب من النار** »)[٢].

والطريف أن هؤلاء الرواة الأربعة هم من قادة الفتح الإسلامي، وهم الذين قادوا جنود الإسلام وانساحوا في الأرض بهذا الدين يعلمونه للناس ويفقهونهم به.

ب - في الصلاة:

وكما تعلمنا من عمرو ﷺ خريج مدرسة النبوة ضرورة إتمام الوضوء والويل للأعقاب من النار - تعلمنا منه كذلك فضل صلاة الوتر؛ حتى ليعتبرها النبي ﷺ صلاة جديدة تضاف إلى الصلوات الخمس كما أخرج الإمام أحمد في مسنده قال:

(حدثنا عبد اللَّه، حدثني أبي، حدثنا يحيى بن إسحاق[٣] أنا ابن لهيعة[٤] أنا عبد اللَّه ابن هبيرة[٥] قال: سمعت أبا تميم الحبشياني[٤] يقول: سمعت عمرو بن العاص يقول: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ يقول: إن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إن اللَّه ﷻ زادكم صلاة فصلوها فيما بين صلاة العشاء إلى صلاة الصبح؛ الوتر الوتر** » ألا وإنه أبو بصرة الغفاري. قال أبو تميم: فكنت أنا وأبو ذر قاعدين، فأخذ بيدي أبو ذر فانطلقنا إلى أبي بصرة فوجدناه عند الباب الذي يلي دار عمرو بن العاص فقال أبو ذر: يا أبا بصرة أأنت سمعت النبي ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ٩٣)، (ح ٣٦٦) وصححه الألباني في الجامع الصغير م (٤/ ١٣١).

(٢) سنن ابن ماجه (١/ ١٥٥)، (ح ٤٥٥)، وفي الزوائد: إسناده حسن ما علمت في رجاله ضعفًا، وقد صححه الألباني (١/ ٩٢)، (ح ٢٣) أو في الجامع الصغير.

(٣) صدوق.

(٤) صدوق اختلط.

(٥) ثقة.

يقول: « **إن اللَّه ﷻ زادكم صلاة صلوها فيما بين صلاة العشاء إلى صلاة الصبح: الوتر** »؟ قال: نعم. قال: أنت سمعته؟ قال: نعم. قال: أنت سمعته؟ قال: نعم)[١].

وتبرز لنا عظمة التربية النبوية في الحرص على التثبت مما يُروى عن النبي ﷺ حيث لم يكتف أبو ذر بشهادة عمرو على المنبر وهو ينقل عن أبي بصرة الحديث؛ بل مضى إليه وأعاد عليه الكلام ثلاثًا يتأكد منه من سماعه قصة الوتر من رسول اللَّه ﷺ.

كما تشهد عظمة التبليغ للأمة التي يقوم بها الأمير ابن العاص على المنبر؛ لأن أبا بصرة لا يملك هذا المنبر فيحدث به الناس جميعًا بحيث يتسابق المؤمنون بعدها على أداء صلاة الوتر ويحرصون عليها؛ فهي أفضل القربات بعد الصلوات المكتوبة.

جـ - في الصيام:

ويطالعنا في مبحث الصيام حديثان رواهما لنا عمرو ﵁، وروعة الحديث هو ارتباطه بالقصة الحية التي تأتي مناسبة لها، فلا تأتي هكذا مقطوعة أو مبتورة بلا أساس.

الحديث الأول: حدثني أبي، حدثنا يزيد، ثنا موسى، قال: سمعت أبي يقول: حدثني أبو قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص كان يسرد الصوم، وقلما كان يصيب من العشاء أول الليل أكثر ما كان يصيب من السحر، قال: وسمعته يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إن فصلًا بين صيامنا وصيام أهل الكتاب: أكلة السحر** »[٢].

ففي كل حديث يرويه تبرز لنا منقبة من مناقبه وفضيلة من فضائله، وأدرى الناس به مولاه أبو قيس الذي يعايشه طيلة وقته؛ فهو يحدثنا عن أن عمرًا ﵁ كان يسرد الصوم ومع الفطور يتناول اليسير من الطعام بينما يقوي نفسه معتمدًا على السحور متيمنًا برسول اللَّه ﷺ الذي سن السحور وقال: « **تسحروا فإن في السحور بركة** »[٣]، ويضاف هنا معنًى جديد من فقه السحور في الإسلام نقله لنا عمرو ﵁، هذا المعنى هو المفاصلة عن أهل الكتاب حتى في صيامهم، وهذه المفاصلة هي طعام السحور، ولقد روى هذا الحديث أئمة الحديث الستة ما عدا البخاري وابن ماجه، ورواه الدارمي

---

(١) مسند أحمد (٦/ ٣٩٧). وقد صحح الألباني الحديث نفسه والمروي بسند آخر عن عبد اللَّه بن عمرو ابن العاص. انظر الجامع الصغير (١/ ٢/ ١٠٣)، (ح ١٧٩٨).

(٢) مسند أحمد (٤/ ١٩٧، ١٩٨)، ومسلم (٢/ ٧٧١)، (ح ٤٦ - ١٠٩٦)، وأبو داود (١/ ٢/ ٣٠٢، ٣٠٣)، (ح ٢٣٤٣)، والترمذي (٣/ ٨٨)، (ح ٧٠٨، ٧٠٩)، والنسائي (٢/ ٤/ ١٢٠).

(٣) مسلم (٢/ ٧٧٠)، (ح ٤٥ - ١٠٩٥).

كذلك، وحيث قد رواه مسلم فلا حاجة لنا إلى تخريجه، وكل هذه الروايات عن عمرو ابن العاص ﷺ.

الحديث الثاني: ومع أن عمرو بن العاص ﷺ كان يسرد الصوم وقلبه موصول دائمًا باللَّه ها هو ابنه عبد اللَّه بن عمرو - رضي اللَّه عنهما - يدخل عليه فيعرض عليه الطعام فيأبى قائلًا: إني صائم، فيعلم عمرو ابنه أن هذه الأيام - أيام التشريق - قد نهى رسول اللَّه عن صيامها.

(حدثنا عبد اللَّه، حدثني أبي، ثنا روح، ثنا مالك عن يزيد بن عبد اللَّه بن الهاد عن أبي مرة مولى أم هانئ أنه دخل مع عبد اللَّه بن عمرو على أبيه عمرو بن العاص، فدعاه إلى الغداء فقال: إني صائم. قال عمرو: كُلْ فهذه الأيام التي كان رسول اللَّه ﷺ يأمرنا بفطرها وينهى عن صيامها. قال مالك: وهي أيام التشريق. وفي رواية أخرى لأحمد أن عبد اللَّه ابن عمرو بن العاص دخل على عمرو بن العاص فدعاه إلى الغداء فقال: إني صائم. ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة كذلك، فقال: لا، إلا أن تكون سمعته من رسول اللَّه ﷺ. فقال: إني سمعته من رسول اللَّه ﷺ)[1].

وبذلك تعلمت الأمة من عمرو أن أيام التشريق هي أعياد المسلمين ومنهي عن الصوم فيها مثل يَوْمَيْ الأضحى والفطر.

٧ - في العدة:

وحيث إن طريقه الطويل هو طريق الجهاد في سبيل اللَّه؛ ففي هذا الطريق - بعد الشهادة - دائمًا آثار في زوج الشهيد وأهله وولده، وأهم ما في ذلك من آثار هو عدة المتوفى عنها زوجها، ولئن جاءت في صريح كتاب اللَّه أنها أربعة أشهر وعشّرا، ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] لكنها لم ترد كذلك لأم الولد، وهي الأمة التي يتوفى عنها زوجها وقد أنجبت من سيدها ولدًا.

ونفيًا لهذا اللبس قال ﷺ فيما أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن رجاء بن حيوة عن قبيصة بن ذؤيب عن عمرو بن العاص قال: لا تلبِّسوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشرًا »[2].

---

(١) مسند أحمد (٤/ ١٩٧)، والحديث صحيح لرواية مالك له في الموطأ (ح ٧٤١)، وأخرجه أبو داود في الصوم (١/ ٢/ ٣٢٠)، (ح ٢٤١٨)، وأخرجه الدارمي في الصوم (١٧٠٢).

(٢) مسند أحمد (٤/ ٢٠٣).

وحيث إن أم الولد قد يخطر في الذهن أن تختلف عدتها عن عدة الحرة، وقد وقع هذا في الطلاق؛ حيث تختلف عدة الأمة عن عدة الحرة؛ فكان لا بد من هذا الإيضاح في أن الأمة التي يتوفى عنها سيدها وقد أنجبت له ولدًا - عدتها عدة الحرة أربعة أشهر وعشرًا، ورواية أبي داود: ولا تلبسوا علينا سنة (قال ابن المثنى: سنة نبينا ﷺ): عدة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشرًا، يعني: أم الولد »[١].

ورواية ابن ماجه: « لا تفسدوا علينا سنة نبينا محمد ﷺ، عدة أم الولد أربعة أشهر وعشرًا »[٢].

٨ - في المرأة:

وحيث علمنا تلميذ مدرسة النبوة فيما تلقاه عن نبيه ﷺ عدة أم الولد فها هو يعلمنا فقه الاستئذان على النساء المتزوجات من غير محارمهن.

(حدثنا سويد حدثنا عبد اللَّه أخبرنا شعبة عن الحكم عن ذكوان مولى عمرو ابن العاص أن عمرو بن العاص أرسله إلى علي يستأذنه على أسماء بنت عميس؛ فأذن له حتى إذا فرغ من حاجته سأل المولى عمرو بن العاص عن ذلك فقال: إن رسول اللَّه ﷺ نهانا - أو نهى - أن ندخل على النساء بغير إذن أزواجهن)[٣]، وفي الباب عن عقبة بن عامر، وعبد اللَّه بن عمرو، وجابر، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، ورواية أحمد[٤] مثلها.

هذه رواية عند أحمد تضيف علمًا جديدًا وتقدم إضاءة جديدة.

(حدثنا عبد اللَّه حدثني أبي ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح قال: استأذن عمرو بن العاص على فاطمة فأذنت له، قال: ثم علي. قالوا: لا. قال: فرجع. ثم استأذن عليها مرة أخرى، فقال: ثم علي؟ قالوا: نعم. فدخل عليها. فقال له علي: ما منعك أن تدخل حين لم تجدني هنا؟ قال: إن رسول اللَّه ﷺ نهانا أن ندخل على المغيبات)[٥].

والجديد الذي تعلمناه من عمرو ﷺ أن إذن الزوجات لا يكفي، وأن التي غاب عنها زوجها لا يدخل عليها؛ لأنها من المغيبات، كما نلاحظ في النص الثقة العظيمة بين

(١) سنن أبي داود (١/ ٢/ ٢٩٤)، (ح ٢٣٠٨).
(٢) سنن ابن ماجه (١/ ٦٧٣)، (ح ٢٠٨٣).
(٣) سنن الترمذي (٥/ ١٠٢)، (ح ٢٧٧٩).
(٤) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٠٣).
(٥) مسند أحمد (٤/ ٢٠٥).

علي ﷺ وعمرو بحيث يعاتب عمرًا حين لم يدخل على فاطمة – رضي اللَّه عنها – وقد أذنت له.

وتبدو هذه الثقة أعظم في الرواية الثالثة التي رواها أحمد باختلاف يسير جدًّا عن رواية الترمذي عن شعبة عن الحكم قال: سمعت ذكوان أبا صالح يحدث عن مولى لعمرو بن العاص أن عمرو بن العاص أرسله إلى علي يستأذنه على امرأته أسماء بنت عميس فأذن له، فتكلما في حاجة، فلما خرج المولى سأله عن ذلك فقال عمرو: نهانا رسول اللَّه ﷺ أن نستأذن على النساء إلا بإذن أزواجهن)[1].

والإضافة الجديدة هنا (فتكلما في حاجة) وعلي ﷺ لا يصر على عمرو أن يعرف حاجته إلى أسماء زوجه؛ بل يدعه يمضي ليحدثها ثم يخرج دون أن يلح على عمرو أو على زوجه أسماء بمعرفة هذه الحاجة، وهو دليل عظمة ثقة علي ﷺ بزوجه وبأخيه عمرو ابن العاص؛ حيث يسمح له أن يدخل على زوجته ويكلمها في حاجة لهما ويخرج.

٩ – المرأة والجنة:

وبصدد الحديث عن المرأة نقل لنا عمرو بن العاص ﷺ ندرة النساء في الجنة من خلال القصة الآتية: (حدثنا سليمان بن حرب وحسن بن موسى قالا: ثنا حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: كنا مع عمرو بن العاص في حج أو عمرة حتى إذا كنا بمر الظهران؛ فإذا امرأة في هودجها قد وضعت يدها على هودجها، قال: فمال فدخل الشعب، فدخلنا معه، فقال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في هذا المكان فإذا نحن بغربان كثيرة فيها غراب أعصم[2] أحمر المنقار والرجلين، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغربان** ». قال حسن: فإذا امرأة في هودجها في يديها حبائرها[3] وخواتيمها قد وضعت يديها. ولم يقل حسن: بمر الظهران)[4].

وهو حث للمرأة أن تجتهد وتسعى لتكون من هؤلاء الثلة القليلة: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠]، وفي الحديث الصحيح الآخر حين جاء – عليه الصلاة

---

(١) مسند أحمد (٤/ ١٩٧).

(٢) الأعصم: الأبيض الجناحين.

(٣) الحبائر جمع حبرة: وهي الثياب المخططة من قطن وغيره.

(٤) مسند أحمد (٤/ ٢٠٥) ورجاله ثقات عدا أبي جعفر الخطمي، وهو صدوق روى له الأربعة.

والسلام - يحث النساء على الصدقة قائلًا: « **يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار، إنكن تكثرن اللعن وتكفرن العشير..** »(١).

وفي رواية مسلم: .. فقالت امرأة منهن جزلة(٢): وما لنا يا رسول اللَّه أكثر أهل النار؟ قال: « **تكثرن اللعن وتكفرن العشير** »(٣).

وبإمكان المرأة المسلمة أن تحذر هذين الشيئين اللذين سببا دخولهن النار: كثرة اللعن، وكفران العشير؛ فتكون مثل ذلك الغراب الأعصم بين الغربان.

إن المسابقات الكبرى في الدنيا يكون الفائز فيها أعدادًا قليلة جدًّا؛ فكيف بمسابقة دخول الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟! واللَّه - تعالى - يدعو الرجال والنساء معًا إلى هذه المسابقة.

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

ويشير راوي الحديث إلى تساهل المرأة في هودجها وقد أبدت حبائرها وخواتيمها ليكون حافزًا إلى حرص المرأة على الستر، ولا داعي لأن تبرز محاسنها وهي في الهودج.

١٠ - مع قلب ابن آدم:

وليست المرأة وحدها هي المعرضة للخطر؛ فالرجل والمرأة سواء في ذلك حين تستهويهما الدنيا وتحوم الشهوات في قلبيهما، نلحظ ذلك من خلال هذا الحديث الذي يسوقه لنا عمرو ﷺ حين تربى عليه وبُني به في مدرسة النبوة.

(حدثنا إسحاق(٤) بن منصور أنبأنا أبو شعيب(٥) صالح بن رزيق العطار حدثنا سعيد(٦) بن عبد الرحمن الجمحي عن موسى(٧) بن علي بن رباح عن أبيه(٨) عن عمرو ابن العاص قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **إن من قلب ابن آدم بكل واد شعبة، فمن أتبع قلبه**

---

(١) مسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه.
(٢) جزلة: عاقلة ذات رأي.
(٣) مسلم (١ / ٨٦)، (ح ١٣٢ - ٧٩).
(٤) صدوق تكلم فيه.
(٥) مجهول.
(٦) صدوق له أوهام.
(٧) صدوق ربما أخطأ.
(٨) ثقة.

الشعب لم يبال اللَّه بأي واد أهلكه، ومن توكل على اللَّه كفاه الشعب »(١).

مع ضعف هذا الحديث من حيث المتن لكنه صحيح من حيث المعنى؛ فقد روى ابن ماجه عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **من كانت الدنيا همه فرّق اللَّه عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع اللَّه له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة** »(٢).

فهذا القلب إنما يكون متشعبًا في كل واد من أودية الدنيا: جاهها، أو مالها، أو نسائها، أو ملذاتها، أو فتنها؛ فلا يبالي اللَّه - تعالى - به أين هلك في هذه الأودية، ومن ترك الأودية الدنيوية جميعًا وربط قلبه باللَّه ووثق بما عنده؛ كفى اللَّه قلبه ذلك الضياع والتشرد في الشعاب وأعطاه من الدنيا رغمًا عنها ما كتب له فيها.

١١ - الزهد في الدنيا:

وقد أدرك عمرو ﷺ هذا المعنى الإسلامي الأصيل في الزهد في الدنيا والرغبة بما عند اللَّه والترفع عن سفاسفها ومغرياتها، وأصبح هذا الأمر جزءًا من حياته ويحمل عبء دعوة الأمة لهذا والتوجيه إليه والحث عليه.

(حدثنا يحيى بن إسحاق قال: ثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن علي ابن رباح قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: لقد أصبحتم وأمسيتم ترغبون فيما كان رسول اللَّه ﷺ يزهد فيه؛ أصبحتم ترغبون في الدنيا وكان رسول اللَّه ﷺ يزهد فيها، واللَّه ما أتت على رسول اللَّه ﷺ ليلة من دهره إلا كان الذي عليه أكثر مما له، قال: فقال له بعض أصحاب رسول اللَّه ﷺ: قد رأينا رسول اللَّه ﷺ يستسلف)(٣).

إنه ينقل ﷺ لجنده ورعيته ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ من الزهد في الدنيا، في الوقت الذي يصبح المسلمون يمسون في عهدهم وهم يرغبون في الدنيا، وآية زهده ﷺ أنه لم يمر عليه ليلة من دهره إلا الذي عليه أكثر من الذي له، وجاء صحابي آخر فشهد لعمرو ﷺ فيما رواه عن نبيه - عليه الصلاة والسلام - أنه كان يستسلف. وفي الحديث الصحيح أنه توفي ودرعه مرهون عند يهودي، وتطالعنا الروايات الأخرى، بأن هذا

---

(١) ابن ماجه (٢/ ١٣٩٥)، (ح ٤١٦٦)، وقال في الزوائد: إسناده ضعيف، وصالح بن رزيق ليس له إلا هذا الحديث.

(٢) سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٧٥)، (ح ٤١٠٥) كتاب الزهد، وفي الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٣) مسند أحمد (٤/ ٢٠٤) ورجاله ثقات عدا يحيى بن إسحاق وهو صدوق.

الحديث كان على المنبر في مصر كما رواه أحمد في مسنده: فعن موسى بن علي عن أبيه قال: « سمعت عمرو بن العاص يخطب الناس بمصر يقول: ما أبعد هديكم عن هدي نبيكم ﷺ؛ أما هو فكان أزهد الناس في الدنيا، وأما أنتم فأرغب الناس فيها! »[١].

وفي رواية ثالثة عن علي بن رباح يقول: « سمعت عمرو بن العاص يقول للناس وهو على المنبر: ما أبعد هديكم من هدي نبيكم ﷺ؛ أما هو فأزهد الناس في الدنيا، وأما أنتم فأرغب الناس فيها! »[٢].

وهذا الهدي العظيم هو الذي يمثل أصالة الفتح الإسلامي وروح الحضارة الإسلامية؛ فالقادة الفاتحون تلاميذ مدرسة النبوة قد طبعوا بهذا الهدي، فقد فتحوا الدنيا وملكوها وما رفت قلوبهم لها، ولا تعلقت قلوبهم بها؛ إنما كانوا يمثلون الجيل الرباني الذي قدم النور للبشرية، وأخرجها من الظلمات إلى النور من دون أن يكون منكبًّا على شهواتها متصارعًا على حطامها بل مجاهدًا لتحقيق شريعة اللَّه فيها.

١٢ - سنن اللَّه في هلاك الأمم:

وحيث كان عمرو ﷺ قد أعده رسول اللَّه ﷺ ليقود الجيوش في الأرض لإعلاء كلمة اللَّه، كما أعده ليكون الحاكم المسلم في الأرض؛ فهو القائد العسكري وهو الأمير الإداري، وهو الداعية الإسلامي؛ فقد تعلم فيما تلقاه من مدرسة النبوة كيف تهلك الأمم حين يفسد حكامها، ويشيعون الربا والرشوة فيها، ولا يأخذون على يد المفسدين فيها (حدثنا موسى بن داود قال: أخبرنا ابن لهيعة عن عبد اللَّه بن سليمان عن محمد بن راشد المرادي عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **ما من قوم ظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسنة، وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرعب** »[٣]. ونقص الثمرات قد جاء في حديث آخر أنه عقوبة الذين يمنعون زكاة أموالهم، ومن يمنع زكاة ماله - على الغالب - لا يجد حرجًا من الربا؛ فيستحل الحرام ويحرم الحلال في واقعه كما في الحديث: « **ما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة** »[٤]. أمَّا العقوبة بشكل عام لمن ينتشر فيهم الربا والزنى؛ فهذا قد صح في

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٠٤). (٢) مسند أحمد (٤/ ١٩٨).

(٣) مسند أحمد (٤/ ٢٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١١٨): رواه أحمد، وفيه من لم أعرفه.

(٤) من حديث رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦/ ٣٠٦)، (ح ٧٨٥٥).

حديث آخر عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: « **ما ظهر في قوم الزنى والربا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب اللَّه** »[١].

١٣ - الأمثال الألف:

وها هي ثقافة عمرو بن العاص ﷺ تنمو وترتفع وتعلو في مدرسة النبوة التي أقام فيها قرابة العام، ولكونه من أصحاب المواهب العظمى؛ فقد كانت قدرته على الاستيعاب وأخذ أعظم قدر من الثقافة في أقل فترة من الزمن لا توجد إلا عند أعاظم الرجال، فهو يحدثنا أنه عقل عن رسول اللَّه ﷺ ألف مثل كما في الحديث الآتي:

(حدثنا إسحاق[٢] بن عيسى قال: حدثني ابن لهيعة[٣] عن أبي قبيل[٤] عن عمرو ابن العاص قال: عقلت عن رسول اللَّه ﷺ ألف مثل)[٥].

١٤ - التجوز في القول:

وفي الوقت الذي وعى فيه هذه الحصيلة الضخمة من الأمثال يحدثنا عن قلة كلام رسول اللَّه ﷺ وتوجيهه إلى الوجيز والمفيد فيه؛ فكثرة الكلام يُنْسِي بعضُه بعضًا أما الحديث فهو (حدثنا سليمان عبد الحميد البهراني[٦] أنه قرأ في أصل إسماعيل ابن عياش وحدثه محمد[٧] بن إسماعيل ابنه قال: حدثني أبي[٨] قال: حدثني ضمضم[٩] عن شريح[١٠] بن عبيد قال: حدثنا أبو ظبية عن عمرو بن العاص قال يومًا - وقام رجل فأكثر القول - فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيرًا له، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **لقد رأيت (أو أُمرتُ) أن أتجوز في القول فإن الجواز هو خير** »[١١].

وعلى ضعف الحديث سندًا لكن معناه ورد في الأحاديث الصحيحة التي تنهى عن « **قيل وقال وكثرة السؤال** » والتي تصف رسول اللَّه ﷺ بندرة الكلام، وإعادته ليفهم عنه. والبلاغة الإيجاز، وليست الأمثال التي تعلمها عمرو ﷺ من رسول اللَّه ﷺ إلا قمة البلاغة والإيجاز فيها، والتي صاغت العديد من الحوادث بالمثل الواحد، أما هديه ﷺ

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٤/ ١١٨)، وقال فيه: رواه أبو يعلى وإسناده جيد.
(٢) صدوق من التاسعة.
(٣) صدوق حسن الحديث.
(٤) صدوق من الثالثة وهو حجاج بن ناصر.
(٥) مسند أحمد (٤/ ٢٠٣).
(٦) صدوق رمي بالنصب.
(٧) عابوا عليه روايته عن أبيه ولم يره.
(٨) صدوق في روايته عن أهل بلده.
(٩) صدوق مبهم.
(١٠) مقبول من الثانية.
(١١) الحديث ضعيف لأكثر من علة.

في الكلام فكان كما روى أنس عنه « كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه »(١)، و « كان كلامه فصلًا يفهمه كل من سمعه »(٢).

١٥ - الولاية للَّه وصالح المؤمنين:

والصلاح والتقوى هما ميزان الولاية للَّه ورسوله وليس النسب والقربى؛ فإذا كان النسب مع الصلاح والتقوى فتلك الحسنى وزيادة، أما النسب بدون صلاح فالبراءة منه هي الأصل: (حدثنا عمرو بن عباس حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن إسماعيل ابن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم أن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي ﷺ جهارًا غير سر يقول: « **إن آل أبي** (قال عمرو: في كتاب محمد بن جعفر بياض) **ليسوا بأوليائي إنما وليي اللَّه وصالح المؤمنين** » زاد عنبسة بن عبد الواحد عن بيان عن قيس عن عمرو ابن العاص قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « ... **ولكن لهم رحم أبلُّهما ببلالها** » يعني: أصلها بصلتها، قال أبو عبد اللَّه: ببلاها هكذا وقع، وببلالها أجود وأصح، وببلاها لا أعرف له وجهًا)(٣).

هذه رواية البخاري أما رواية مسلم: سمعت رسول اللَّه ﷺ جهارًا غير سر يقول: « **ألا إن آل أبي** (يعني فلانًا) **ليسوا لي بأولياء، إنما وليي اللَّه وصالح المؤمنين** »(٤).

حيث شرحت البياض الموجود في صحيح البخاري يقول الراوي: يعني فلانًا أي: آل أبي فلان، وجاءت في رواية أحمد صريحة: عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ جهارًا غير سر يقول: « **إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي اللَّه وصالح المؤمنين** »(٥).

ولعل عَمْرًا ﷺ قد أبهم اسم هؤلاء الآل قصدًا حتى لا يشنع عليهم (قال النووي: هذه الكناية من بعض الرواة خشي أن يصرح بالاسم فيترتب عليه مفسدة إما في حق نفسه أو حق غيره وإما معًا)(٦). لكن المهم هو أن حق الرحم قائمة، لكن الولاية مع غير الإسلام مرفوضة؛ حيث يشرح الحافظ ابن حجر - رحمه اللَّه - هذا المعنى بقوله:

(١) رواه البخاري وأحمد و الترمذي.

(٢) أخرجه أبو داود عن عائشة وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٣) البخاري، كتاب الأدب (٣/ ٧/ ٧). (٤) مسلم (١/ ١٩٧).

(٥) مسند أحمد (٤/ ٢٠٣).

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر (١٠/ ٤٢٠).

(فنقل ابن السني عن الداودي أن المراد بهذا النفي من لم يسلم منهم، أي: فهو من إطلاق الكل وإرادة البعض والنفي على هذا المجموع لا الجمع)[١] كما شرح لنا صلة الرحم بقوله: (والبلال بمعنى البلل، وهو: النداوة، وأطلق ذلك على الصلة كما أطلق اليبس على القطيعة؛ لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه، بخلاف اليبس فإن من شأنه التفريق)[٢].

١٦ - ومع هذا فالولاية في قريش:

وكما روى عمرو بن العاص ﷺ لنا هذا الحديث في الولاية في اللّٰه وصالح المؤمنين؛ لم يمنع هذا الأمر العام من تخصيص قريش بولاية الناس وقيادتهم في الخير والشر.

(حدثنا حسين بن محمد البصري حدثنا خالد بن الحارث حدثنا شعبة عن حبيب ابن الزبير قال: سمعت عبد اللّٰه بن أبي الهذيل يقول: كان ناس من ربيعة عند عمرو ابن العاص فقال رجل من بكر بن وائل: لتنتهين قريش أو ليجعلن اللّٰه هذا الأمر في جمهور من العرب. فقال عمرو بن العاص: كذبت؛ سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: « **قريش ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة** »)[٣].

ورواية أحمد لا تختلف بشيء عن رواية الترمذي، وتؤكد أن الخلافة في قريش والأحاديث الأخرى الكثيرة والصحيحة تؤكد هذا المعنى: أبرارها أمراء على أبرارها، وفجارها أمراء على فجارها، ولئن طغت قريش وبغت فإنما تحمل وزر هذا الطغيان، لكن لا تنزع منها الخلافة، وهي عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي الأرجح مقابل الرأي الآخر الذي لا يشترط فيها ذلك بدليل الحديث الصحيح:

« **وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب اللّٰه** ».

وهذا يعني أن الإمرة الخاصة تكون لكل الناس بشروطها المعهودة بغض النظر عن أنسابهم.

١٧ - مع عمار بن ياسر ﷺ:

ثلاثة أحاديث يرويها عمرو ﷺ لنا عن فضل عمار بن ياسر مع أنهما كانا خصمين متحاربين فيما بعد؛ فقد كان عمرو مع معاوية - رضي اللّٰه عنهما -، وكان عمار مع

---

(١) المصدر نفسه (ص ٤٢٠). (٢) المصدر نفسه (ص ٤٢٢).

(٣) سنن الترمذي (٤/ ٤/ ٥)، (ح ٢٢٧)، وفيه قال أبو عيسى: وفي الباب عن ابن مسعود وابن عمر وجابر، وهذا حديث حسن غريب صحيح.

علي - رضي اللَّه عنهما - وسندع الخوض في تفاصيل هذه الأحاديث إلى وقتها المناسب حين نتحدث عن الفتنة؛ لكننا هنا نشهد عظمة عمرو الذي لا يجد حرجًا في أن يقدم أعظم الثناء وأعطره على أكبر خصومه، ويقدمها شهادة من رسول اللَّه ﷺ.

أ - حب رسول اللَّه ﷺ لعمار:

(حدثنا عفان حدثنا الأسود بن شيبان قال: حدثنا أبو نوفل بن أبي عقرب قال: جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعًا شديدًا فلما رأى ذلك ابنه عبد اللَّه بن عمرو قال: يا أبا عبد اللَّه ما هذا الجزع، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يدنيك ويستعملك؟ قال: أي بني، قد كان ذلك؛ وسأخبرك عن ذلك: إني واللَّه ما أدري أحبًّا ذلك أم تألفًا يتألفني، ولكني أشهد على رجلين أنه قد فارق الدنيا وهو يحبهما: ابن سمية، وابن أم عبد)[1].

وفي الحديث الآخر يصرح باسمهما وهي رواية ثانية عند أحمد:

(حدثنا أسود بن عامر قال: ثنا يعني ابن حازم قال: سمعت الحسن قال: قال رجل لعمرو بن العاص: أرأيت رجلًا مات رسول اللَّه ﷺ وهو يحبه أليس رجلًا صالحًا؟ قال: بلى. قال: قد مات رسول اللَّه ﷺ وهو يحبك وقد استعملك. فقال: قد استعملني فواللَّه ما أدري أحبًّا كان لي منه أو استعانة بي، ولكن سأحدثك برجلين مات رسول اللَّه وهو يحبهما: عبد اللَّه بن مسعود، وعمار بن ياسر)[2].

ويدلنا الحديث من طرف آخر - غير موضوعية عمرو ونزاهته وتجرده - يدلنا على تواضعه وتذلله وبعده عن المباهاة ولا عجب حين يقول: « ما أدري أحبًّا لي ذلك أم تألفًا » وفي الرواية الثانية : « أحبًّا كان له مني أم استعانة بي » حتى لا يأخذه الغرور بذلك، ومن يدري بهذا الأمر أحد إلا هو عند ربه ﷻ.

ب - قاتل عمار وسالبه في النار:

حدثنا عفان قال: حدثنا حماد بن سلمة قال: أخبرنا أبو حفص وكلثوم بن جبير عن أبي غادبة قال: قُتل عمار بن ياسر فأخبر عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إن قاتله وسالبه في النار** »، فقيل لعمرو: فإنك هو ذا تقاتله! قال: إنما قال: « **قاتله وسالبه** »[3]. وعن عبد اللَّه بن عمرو أن رجلين أتيا عمرو بن العاص يختصمان في دم

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٠٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٠): رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال: مات ﷺ وهو عنهما راض، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) مسند أحمد (٤/ ٢٠٣). (٣) مسند أحمد (٤/ ١٩٨).

عمار وسلبه، فقال عمرو: خليا عنه فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **قاتل عمار وسالبه في النار** »[١]، واقترب الخطر أكثر ومع ذلك فلم ينثن عمرو ﷺ عن نقل هذا الحديث وهو يعلم أن عمارًا إنما كان في جيش علي يقاتل عمرًا ومعاوية حتى أحرجه المستمع فقال له: فإنك هو ذا تقاتله. ليكون هو المتهم في القضية وصححها بقوله ﷺ: إنما قال: « **قاتله وسالبه** ». وهذا يعني أنه لم يقل: مقاتله. وهذا المستوى من التجرد والموضوعية لن نجده إلا في هذا الجيل الرائد؛ فما الذي يضطره لأن يعلن هذا على الملأ وهو في أعنف معركة يخوضها مع علي ﷺ وصحبه؟!

جـ - تقتله الفئة الباغية:

وإذا كان الحديث السابق يكاد يمسه؛ فإن الحديث هنا يمسه بلا خلاف، وليس الحديث هنا عن القاتل والسالب؛ إنما الحديث عن الفئة كلها التي كان منها القاتل، فإذا كان القاتل في النار؛ فالفئة التي ينتمي إليها هي الفئة الباغية، وقد أقضَّت هذه القضية مضجع عمرو عندما رأى عمار يقتل في المعركة نفسها، وكثير من الصحابة كانوا ينتظرون مقتل عمار ليحددوا موقفهم على ضوئه، وها هو عمرو ﷺ ينقل لنا الحديث نفسه: (حدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال: لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال: قتل عمار وقد قال رسول اللَّه ﷺ: « **تقتله الفئة الباغية** » فقام عمرو بن العاص فزعًا يُرَجِّع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية: ما شأنك؟! قال: قُتل عمار. فقال له معاوية: قد قتل عمار فماذا؟! قال عمرو: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **تقتله الفئة الباغية** » فقال له معاوية: دحضت في بولك، أَوَنحن قتلناه؟! إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا « أو بين سيوفنا »[٢]. (حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة أخبرنا عمرو بن دينار عن رجل من أهل مصر يحدث أن عمرو بن العاص أهدى إلى ناس هدايا ففضل عمار بن ياسر، فقيل له: فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « تقتله الفئة الباغية »)[٣].

---

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٧) وقال فيه رواه الطبراني: وقد حدث ليث بالحديث ورجاله رجال الصحيح.

(٢) مسند أحمد (٤/ ١٩٩)، ورجال أحمد رجال الصحيح، وقال فيه محقق سير أعلام النبلاء (١/ ٤١٩): إسناده صحيح، وقد روى الحديث البخاري في الصلاة (ص ٤٤٧)، ومسلم في الفتن (ص ٢٩١٥) وغيرهم عن عدد كبير من الصحابة.

(٣) مسند أحمد (٤/ ١٩٧).

وأدرك عمرو بن العاص ﷺ خطورة هذا الحديث الذي يمسه مباشرة ويمس الفئة التي يقاتل عمرو معها أنها الفئة الباغية ففزع وتَرَجَّع، ثم خطط بعدها لإنهاء المعركة فيما سندرسه بالتفصيل فيما بعد. وكما نرى في الحديث الثاني فقد حافظ عمرو ﷺ على وُدِّ عمار وتخصيصه بالهدية الأغلى؛ لأنه سمع عنه هذا الوصف.

١٨ - يجير على المسلمين أدناهم:

ووقع محمد بن أبي بكر - رضي اللَّه عنهما - أسيرًا بيد عمرو بن العاص إذ كان والي مصر لعلي، وحرص على حياته يسأله إن كان أحد قد أجاره في الوقت الذي يحرص محمد بن أبي بكر على الشهادة فلا يدعي شيئًا من ذلك ويأبى إجارة أحد.

(حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة عن عمرو بن دينار عن رجل من أهل مصر يحدث عن عمرو بن العاص أنه قال: أسر محمد بن أبي بكر فأبى، فجعل عمرو يسأله يعجبه أن يدعي أمانًا قال: فقال عمرو: قال رسول اللَّه ﷺ: « **يجير على المسلمين أدناهم** »)[1].

١٩ - إذا حكم الحاكم فاجتهد:

وقد روت الكتب الستة عدا الترمذي هذا الحديث عن عمرو بن العاص ﷺ كما رووا مثله عن أبي سلمة عن أبي هريرة: (حدثنا عبد اللَّه بن يزيد المقرئ المكي، حدثنا حيوة بن شريح حدثنا يزيد بن عبد اللَّه بن الهاد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن بسر بن سعيد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر** ».

قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عمرو بن حزم فقال: هكذا حدثني أبو سلمة ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة، وقال عبد العزيز بن المطلب بن عبد اللَّه بن أبي بكر عن أبي سلمة عن النبي ﷺ مثله)[2].

---

(١) مسند أحمد (٤/ ١٩٧) وقال الهيثمي فيه (٥/ ٣٢٩): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وفيه رجل لم يسمه وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ٦/ ١٣٦)، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، وأخرجه مسلم في الأقضية (٣٠٤٠)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٠٥)، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة (٦٤٦٦)، وفي مسند الشاميين (١٧٨٠٨ - ١٧٨٤٩).

وفي حديث آخر عند أحمد يأمر رسول اللَّه ﷺ عمرًا أن يحكم بين المتخاصمين ليؤهله ويدربه على حكم الأمة فيما بعد وسياستها بهذا الدين.

(حدثنا أبو النضر قال: ثنا الفرج قال: ثنا محمد بن عبد الأعلى عن أبيه عن عبد اللَّه ابن عمرو عن عمرو بن العاص قال: جاء رسول اللَّه ﷺ خصمان يختصمان، فقال لعمرو: « **اقض بينهما يا عمرو** » فقال: أنت أولى بذلك مني يا رسول اللَّه. قال: « **وإن كان** » قال: فإذا قضيت بينهما فما لي؟ قال: « **إن أنت قضيت بينهما فأصبت القضاء فلك عشر حسنات، وإن أنت اجتهدت فأخطأت فلك حسنة** »[(١)]. حدثنا هاشم قال: ثنا الفرج عن ربيعة بن يزيد عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ مثله غير أنه قال: « **فإن اجتهدت فأصبت القضاء فلك عشرة أجور، وإن اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد** »[(٢)]. وهذا يعني أن عمرًا هو من أهل الاجتهاد، ولولا ذلك لما أمره رسول اللَّه ﷺ بذلك؛ لأن الذي يقضي بدون علم لا يدخل ضمن هذين النصين كما في الحديث الذي رواه الأربعة عن بريدة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **القضاة ثلاثة: اثنان في النار، وواحد في الجنة: رجل علم الحق فقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار** »[(٣)].

والحديث الذي رواه الطبراني عن ابن عمر - رضي اللَّه عنهما -:

« **القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة: قاضٍ قضى بالهوى فهو في النار، وقاضٍ قضى بغير حق فهو في النار، وقاضٍ قضى بالحق فهو في الجنة** »[(٤)].

وتحرُّج عمرو ﷺ عن القضاء بين يدي نبيه ﷺ إنما هو خشية الزلل والإثم والتقدم بين يدي رسول اللَّه - عليه الصلاة والسلام - ولم يقدم على الحكم حتى سأل حبيبه المصطفى عمَّاله عند اللَّه إن قضى؛ فكان الجواب أجرين عند الإصابة وأجر عند الخطأ، وفي الرواية الثانية: عشرة أجور إن أصاب الحق، وأجر واحد إن أخطأه. وها نحن الآن نودع عَمْرًا التلميذ وخريج مدرسة النبوة؛ لنمضي بعدها مع الوالي والقائد والأمير والداعية فيما بعد.

* * *
* *
*

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٠٥).

(٢) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٩٥): ورواه الإمام أحمد بإسناد رجاله رجال الصحيح.

(٣) صحيح الجامع الصغير (٤/ ١٥١).

(٤) المصدر نفسه (ص ١٥١).

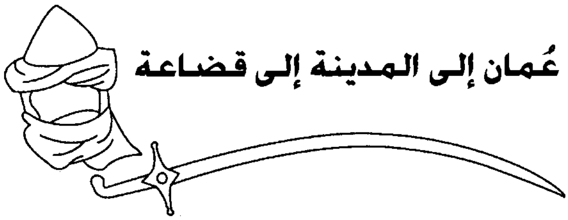

من عُمان إلى المدينة إلى قضاعة

تركنا عمرًا ﷺ يذرف الدموع الغزار على وفاة حبيبه المصطفى - صلوات اللَّه وسلامه عليه - ويتلقى التعزية من الأسقف والرهبان معه، ويستمع إلى كتبهم وهي تتحدث عن هذا الجيل الخالد في البشرية، وعن صاحبي رسول اللَّه ﷺ، ورأى أنه لا خيار له من العودة إلى المدينة يتعرف على أوضاع المسلمين وأحوالهم بعد وفاة قائدهم ﷺ وولاية خليفته أبي بكر الصديق، وأخذ يشم رائحة الردة عن الإسلام تبرز هنا وهناك وتناقض الأخبار عن أحوال العرب بعد وفاة رسول اللَّه رب العالمين.

(وكان مجفية بن النعمان العتكي شاعر الأزد، وكان النبي ﷺ أمَّر عليهم عمرو ابن العاص؛ فلما مات وارتدت العرب خشي عمرو بن العاص أن يرتدوا فاستأذنهم في الرجوع إلى المدينة فقال له مجفية:

يا عمرو إن كان النبي محمد ... قد أتى به الأمر الذي لا يدفع

فقلوبنا قرحى وماء دموعنا ... جارٍ وأعناق البرية تخضع

يا عمرو إن حياته كوفاته ... فينا وننظر ما يقول ويسمع

فأقم فإنك لا تخاف رجوعنا ... ياعمرو ذاك هو الأعز الأمنع[1]

وقُرَّت عين عمرو بهذه العواطف الجياشة والإيمان المتوقد عند الشاعر الأزدي العماني، غير أن بصيرته النافذة وخبرته في الحياة والرجال توحي له بعكس ذلك؛ فشكر للشاعر صدقه وإيمانه وبقي مصرًّا على الاستئذان من جيفر وعبد في العودة إلى المدينة.

وعندما رأيا إصراره على المضي ودَّعوه بعيون ودموع حرّى عبَّر عنها شاعرهم عقبة ابن النعمان العتكي إذ يقول:

وَفَيْنَا وفِينا يفيض الوفاء ... وفينا يُفَرِّخُ أفراخه

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣/ ٦/ ٤٥)، (ت ٧٧٢٦).

كذاك الوفاء يزين الرجال كما زين الصدق شمراخه
وَفَيْنَا لعمرو وقلنا لهْ وقد نَفَّخَ الرأي نفاخه[١]

ويقول كذلك:

وفينا لعمرو يوم عمرو كأنه طريد نفته مذحج والسكاسك
رسول رسول اللَّه أعظِم بحقه علينا ومن لا يعرف الحق هالك
ونحن أناس يأمن الجار وسطنا إذا كان يوم كاسف الشمس هالك[٢]

ولم يكتفيا بذلك؛ بل جندا له سبعين فارسًا ليرافقوه في رحلته إلى المدينة حيث عليه أن يقطع الجزيرة العربية كلها من أقصاها إلى أقصاها، من مشرقها لمغربها وسط هذا البحر المتلاطم من الشرك.

المحطة الأولى:

وكانت المحطة الأولى له في أقرب قطر إسلامي في البحرين عند المنذر ابن ساوى ﷺ والذي كان يعاني سكرات الموت، وذكر أبو جعفر الطبري أن المنذر هذا مات بالقرب من وفاة النبي ﷺ وحضره عمرو بن العاص.

فقال له: كم جعل النبي ﷺ للميت من ماله عند الموت؟

قال: الثلث.

قال: فما ترى أن أصنع بثلثي؟

قال: إن شئت قسمته في سبيل الخير، وإن شئت جعلته تجري غلته على من شئت بعدك.

قال: ما أحب أن أجعل شيئًا من مالي كالسائبة ولكني أقسمه[٣].

وما ندري لعله شيعه إلى مثواه الأخير، ثم تابع رحلته في هذه البيد؛ حيث نزل على أخطر المتنبئين: مسيلمة الكذاب بن الحنفي.

المحطة الثانية:

وما كان له أن ينزل في اليمامة عند مسيلمة إلا بعد أن يأخذ أمانًا لنفسه؛ فشخصيته

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٥/ ١١٠)، (ت ٦٤٣٥).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٥/ ١١٠)، (ت ٦٤٣٤).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٦/ ١٣٩)، (ت ٨٢١٢).

الحذرة التي تبصر عواقب الأمور تجعله يعد لكل أمر عدته.

(قال عمرو: فأقبلت حتى مررت على مسيلمة فأعطاني الأمان ثم قال: إن محمدًا أرسل في جسيم الأمور وأرسلت في المحقرات. قلت: اعرض علي ما تقول. فقال: يا ضفدع نقي ماتنقين لا واردًا تنخرين ولا ماء تكدرين. ثم قال: يا وبر يا وبر، صدر وشأن خلقه حقر حقر.

ثم أتي بأناس يختصمون إليه في نخلات قطعها بعضهم لبعض فتسجى بقطيفة ثم كشف رأسه ثم قال: والليل الأدهم، والذئب الأصحم، ما جاء ابن أبي مسلم من محرم.

ثم تسجَّى الثانية فقال: والليل الدامس، والذئب الهامس، ما حرمته رطبًا إلا كحرمته يابسًا، قوموا فلا أرى عليكم في ما صنعتم بأسًا)(١) .

وأدرك عمرو ﷺ أن هذا المتنبئ التافه الذي يتطاول على مقام النبوة - وقد غرر بقومه وعشيرته - أدرك أن عليه واجبًا ضخمًا في قول كلمة الحق؛ ولكنه يعرض نفسه للموت وهو وحده عند مسيلمة، ولو كان معه وفد عمان السبعون فماذا يفعلون أمام مدينة اليمامة وسكانها بني حنيفة؟ لقد كان عنده من جرأة القلب وعظمة الثقة بنفسه ما يدفعه لأن يقول الحق لا يهاب في اللَّه لومة لائم.

(قال عمرو: أما واللَّه إنك لكاذب وإنا لنعلم أنك لمن الكاذبين).

كان بين يديه وفي مجلسه سيد بني عامر بن صعصعة: قرة بن هبيرة، وقام مسيلمة فتوعد عَمْرًا وهدده، وشارك قرة في الحديث قائلًا كما يروي عمرو:

(فتوعدني، ثم قال قرة بن هبيرة: ما فعل صاحبكم؟ قلت: إن اللَّه اختار له ما عنده على ما عندنا. قال: لا أصدق أحدًا منكم بعده)(٢).

المحطة الثالثة:

وكانت عند قرة بن هبيرة في ديار بني عامر بن صعصعة أعز العرب. (حدثنا السري قال: حدثنا شعيب عن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه قال: نزل عمرو بن العاص منصرفًا من عُمان بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ بقرة بن هبيرة بن سلمة بن قشير، وحوله عسكر

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٠٩) مخطوط.

(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٥٠٩).

من بني عامر من أفنائهم؛ فذبح له وأكرم مثواه، فلما أراد الرحلة خلا به قرة فقال:

يا هذا، إن العرب لا تطيب لكم نفسًا بالأتاوة؛ فإن أنتم أغضيتموها من أخذ أموالها تسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم.

فقال عمرو: أكفرت يا قرة؟!

وحوله بنو عامر، فكره أن يبوح بمتابعتهم (أي: المسلمين) فيكفروا (أي: قومه) بمتابعته (للمسلمين فينفر في شر. فقال: لنردنكم إلى فئتكم وكان من أمره الإسلام اجعلوا بيننا وبينكم موعدًا) كان لا بد لقرة أن يحافظ على زعامته لقومه دون أن يواجه المسلمين، وكان على عمرو موقف آخر أرهب من موقفه في بني حنيفة؛ كان عليه أن ينقل له عظمة الإسلام ورجال الإسلام في وكره وفي عرينه وبين قومه، وأي بطل يجرؤ على مثل هذا الموقف غير عمرو بن العاص الذي يملك من شجاعة القلب ما يتصاغر أمامه الأبطال العظام؟! هو وحده، وفي أرض بني عامر وديارها، ها هو يواجه سيد بني عامر قرة بن هبيرة:

(فقال عمرو: أتوعدنا بالعرب[1] وتخوفنا بها؟ موعدك حفش[2] أمك؛ فوالله لأوطئن عليك الخيل)[3].

المحطة الرابعة المدينة:

قال الطبري حدثنا السري قال: حدثنا شعيب عن سيف عن الحجاج عن عمرو ابن شعيب قال:

(... مات رسول الله ﷺ وعمرو بعُمان؛ فأقبل حتى انتهى إلى البحرين وجد المنذر ابن ساوي في الموت فقال له المنذر: أشر علي في مالي بأمر لي ولا علي. قال (صدِّق بعقار صدقة تجري من بعدك ففعل، ثم خرج من عنده فسار في تميم ثم خرج منها إلى

---

(١) روى الطبري قال: حدثنا حميد قال: حدثنا سلمة قال: عن ابن إسحاق قال: لما فرغ خالد من أمر بني عامر وبيتهم على ما بايعهم عليه أوثق عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة فبعث بهما إلى أبي بكر فلما قدما عليه قال له قرة: يا خليفة رسول الله إني قد كنت مسلمًا ولي من ذلك على إسلامي عند عمرو بن العاص شهادة قد مر بي فأكرمته وقربته ومنعته. قال: فدعا أبو بكر عمرو بن العاص، فقال: ما تعلم من أمر هذا؟؟ قص عليه الخبر حتى انتهى إلى ما قاله من أمر الصدقة. قال له قرة: حسبك رحمك الله. قال: لا والله حتى أبلغ كل ما قلت فبلغ له فتجاوز عنه أبو بكر وحقن له دمه. الطبري (٣/ ٢٦٠).

(٢) حفش أمك: حقيبة المرأة تضع فيها زينتها؛ يريد تحقيره.

(٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٣/ ٢٥٩).

بلاد بني عامر. فنزل على قرة بن هبيرة، وقرة يقدم رِجلًا ويؤخر رِجلًا، وعلى ذلك بنو عامر إلا خواص، ثم سار حتى قدم المدينة فأطافت به قريش وسألوه، فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا إلى حيث انتهيت إليكم...).

فقد كان رائدًا لقومه ولو كان مبعوثًا خاصة لهذه المهمة بحيث يتنقل بين القبائل العربية كلها ويأتي بخبرها، لما فعل أكثر مما فعله ووضع المسلمين في صورة الأمر الواقع؛ فالجزيرة تموج بالردة والشرك من عمان إلى المدينة. وسمع عمر بن الخطاب بمقدم عمرو فهرول يسلم عليه ويسأله عن أمر المسلمين.

(... فتفرقوا وتحلقوا حلقًا، وأقبل عمر بن الخطاب يريد التسليم على عمرو، فمر بحلقة وهم في شيء من الذين سمعوا من عمرو، وفي تلك الحلقة علي وعثمان وطلحة والزبير وعبدالرحمن وسعد، فلما دنا عمر منهم سكتوا، فقال: فيم أنتم؟ فلم يجيبوه؛ فقال: ما أعلمني بالذي خلوتم عليه فغضب طلحة، وقال: واللّه يابن الخطاب لتخبرنا بالغيب!.

وكاد الأمر أن يوتر بين الأخوين القائدين لكن عُمَرَ تلافاه قائلًا (... لا يعلم الغيب إلا اللّه ولكن أظن قلتم: ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم[١] ألا يقروا بهذا الأمر! قالوا: صدقت).

وينظر عمر بن الخطاب ﷺ بعين بصيرته إلى الأفق البعيد، وقد ارتسم في ذهنه على هذا الأفق تمكين اللّه لدينه في الأرض، وتمكين الخلافة لقريش كما قال ﷺ. وستكون سلامة الأمة بوحدة كلمة قريش فلا خوف بعدها على الأمة من شيء.

(قال ... فلا تخافوا هذه المنزلة، أنا واللّه منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، واللّه لو تدخلون معاشر قريش جحرًا لدخلته العرب في آثاركم؛ فاتقوا اللّه فيهم).

وصدق الفاروق؛ فما تمزقت الأمة إلا عندما اختلفت قريش وعندما اختلف هؤلاء النفر الذين هم صفوة الأمة وقادتها: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد، وعمرو بن العاص).

(... ومضى إلى عمرو فسلم عليه ثم انصرف إلى أبي بكر)[٢].

---

(١) أخلقهم: أجدرهم.

(٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٢/ ٢٥٨، ٢٥٩).

أحد القواد الأحد عشر:

والتقى عمرو ﷺ بالخليفة الصديق وبايعه، ورحب بوفد الحراسة العماني الذي رافقه من عُمان إلى المدينة، واستمع الصديق إلى صورة الجزيرة العربية كاملة كما عرضها عمرو بن العاص بصفته شاهد عيان، وليس راءٍ كمن سمع. وشمر الصدِّيق عن ساعد الجد، وصمَّم على رمي هؤلاء المرتدين بعظماء الأمة وقادتها يدعونهم إلى الإسلام أو القتل.

(حدثنا السري قال: حدثنا شعيب، عن سيف عن سهل بن يوسف، عن القاسم ابن محمد قال: لما أراح أسامة وجنده ظهرهم وجموا، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم - قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية؛ عقد أحد عشر لواء: عقد لخالد ابن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له، ولعكرمة ابن أبي جهل وأمره بمسيلمة، وللمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح المرادي ومن أعانه من أهل اليمن عليهم، ثم يمضي إلى كندة بحضرموت، ولخالد بن سعيد بن العاص وكان قدم على تفيئة ذلك[١] من اليمن وترك عمله وبعثه إلى الحمقتين من مشارف الشام، ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث ولحذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دبا، ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة وأمرهما أن يجتمعا كل واحد منهما في عمله على صاحبه، وبعث شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي جهل، وقال: إذا فرغتَ من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة. ولطريفة بن حاجز وأمره ببني سليم ومن معهم من هوزان ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة اليمن، وللعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين)[٢].

هؤلاء القادة الأحد عشر وضع لهم الصديق ﷺ منهجًا لمسيرتهم، وخطابًا لمن يقاتلونهم قبل قتالهم يقرأ عليهم؛ ليعلم الناس أن الحرب حرب عقيدة ودين وليست حرب عصبية قبلية أو جاهلية.

كتاب الخليفة إلى المرتدين:

(ففصلت الأمراء من ذي القصة، ونزلوا على قصدهم؛ فلحق كل أمير جنده وقد عهد

---

(١) على تفيئة ذلك: حين ذلك.

(٢) تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٢٤٩).

إليهم عهده وكتب إلى من بعث إليه من جميع المرتدين:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول اللَّه ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه... سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى. فإني أحمد إليكم اللَّه الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، نقر بما جاء به، ونكفر مَن أبى، ونجاهده. أما بعد:

فإن اللَّه - تعالى - أرسل محمدًا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا؛ لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فهدى اللَّه بالحق من أجاب إليه وضرب رسوله اللَّه ﷺ بإذنه من أدبر عنه؛ حتى صار إلى الإسلام طوعًا أو كرهًا، ثم توفى اللَّه رسوله ﷺ وقد نفذ لأمر اللَّه ونصح لأمته وقضى الذي عليه، وكان اللَّه قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وقال للمؤمنين: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فمن كان إنما يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان إنما يعبد اللَّه وحده لا شريك له فإن اللَّه له بالمرصاد، حيٌّ قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم، حافظ لأمره، منتقم من عدوه يجزيه، وإني أوصيكم بتقوى اللَّه وحظكم ونصيبكم من اللَّه وما جاءكم به نبيكم ﷺ وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين اللَّه؛ فإن كل من لم يهده اللَّه كان مهتديًا ومن أضله كان ضالًّا قال اللَّه - تعالى -: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ ولم يقبل منه عمل في الدنيا حتى يقر به، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به؛ اغترارًا باللَّه، وجهالة بأمره، وإجابة للشيطان، قال اللَّه - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠] وقال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦] وإني بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية اللَّه؛ فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحًا قُبِلَ منه وأعانه عليه، ومن أبى أَمَرْته

أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن تُسبى الذراري والنساء ولا يقبل من أحد إلا الإسلام؛ فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يُعجز اللَّه، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم؛ والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلهم، وإذا أذنوا اسألوهم ما عليهم فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا قُبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم)[١].

وقد حرصنا على نقله كله لنتعرف على طبيعة هذه الحرب المشبوبة المستعرة بين المرتدين والمسلمين، وحيث إن عَمْرًا ﷺ أحد هؤلاء القادة؛ فلا بد أن يتضح دوره داعية أولًا ثم قائدًا ثانيًا في كل مهمة تلقى على عاتقه، وقد خاض أعلى دورة تدريبية في حياة رسوله الحبيب ﷺ، دورة أركان حرب في غزوة ذات السلاسل وكان بشهادة رسوله من أكبر المتفوقين، ودورة أركان دعوة فظفر بقلب الجلندي وابنيه وأهل عمان من ورائهما بحنكته، وحكمته، وسياسته، ودهائه، وعقله، وعلمه، وها هو أبو بكر ﷺ يدعوه إلى ذات السلاسل ثانية: إلى قضاعة التي مضى إليها في حياة حبيبه المصطفى ﷺ، وكان أبو بكر الصديق خليفة رسول اللَّه أحد جنوده.

إلى قضاعة:

(وكانت قضاعة قد ارتدت بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وكان عمرو قد حاربها في حياة النبي ﷺ في ذات السلاسل كما ذكرنا ذلك، فلما أنفُذ أبو بكر إلى قضاعة عمرًا سار عمرو على رأس جيشه في الطريق الذي سلكه من قبل حتى وصل إلى بلاد قضاعة، فأعمل السيف في رقابهم وغلبهم على أمرهم. فعادوا إلى الإسلام، وعاد عمرو إلى المدينة المنورة حاملًا لواء النصر، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة الهجرية.

ولا نعرف شيئًا عن تعداد جيش عمرو، ولا عن تعداد مقاتلي قُضاعة، ولا عن خطة عمرو في حرب المرتدين من قضاعة، ويبدو أن التفوق العددي كان إلى جانب المرتدين؛ ولكن جيش عمرو كان منظمًا، له هدف واضح وتسيطر عليه عقيدة واحدة وقيادة واحدة، والجيش المنظم الذي يتحلى بالعقيدة الراسخة التي تشيع الانسجام الفكري في صفوفه - ينتصر دومًا على الجيش الكبير غير المنظم الذي لا يتحلى بالعقيدة و يخلو من الانسجام الفكري)[٢].

أنهى عمرو ﷺ مهمته وقابل الصديق بعد نصره المؤزر، وهو لا يزال يحن إلى قُضاعة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (٢/ ٢٥٠، ٢٥١).

(٢) سفراء النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - للواء الركن محمود شيت خطاب (٣٩٦).

التي خبرها والقبائل الأخرى التي عرفها في طريقه إليها.

وكان رسول اللَّه ﷺ قد ولى عَمْرًا ﷺ قبل بعثه إلى عُمان صدقات سعد بن هذيم ومن لفها من جذام وحدس ثم استدعاه ﷺ للمهمة العسيرة التي لا يصلح لها إلا هو، وهي مبعثه إلى الجلندي، ووعد أن يعيده إلى عمله على ولايته التي كان عليها بعد عودته من عُمان، لكن مهمته في عُمان استغرقت سنة كاملة من حياته حتى أنجز فيها مهمته داعية وحاكمًا وإداريًا واقتصاديًا ناجحًا، عاد ليرى مهمته العسكرية تنتظره نحو قضاعة فأداها قائدًا عسكريًا فذًا وحقق انتصاره العظيم.

وكان الصديق ﷺ حريصًا أشد الحرص على تنفيذ كل ما أمر رسول اللَّه ﷺ ووعد به، وهو يعلم وعد رسول اللَّه لعمرو بإعادته إلى ولايته التي خبر شؤونها في شمال الجزيرة، فأعاده ﷺ إلى ولايته التي كان فيها من قبل والتي وعده بها - عليه الصلاة والسلام -.

(وقد كان أبو بكر ردَّ عمرو بن العاص على عمالة كان رسول اللَّه ﷺ ولاه إياها من صدقات سعد بن هذيم وعذرة ومن لفها من جذام وحدس قبل ذهابه إلى عُمان وهو على عدة [1] من عملهم إذا هو رجع، فأنجز له ذلك أبو بكر)[2].

وكان شريكه في مهمته الوليد بن عقبة. وفي نوع من الإكرام والتقدير من خليفة رسول اللَّه ﷺ لواليه الجديدين على الصدقات: عمرو والوليد - خرج معهما يشيعهما ماشيًا ويوصيهما بالمسؤولية التي أنيطت بهما.

(وقد كان أبو بكر شيعهما مبعثهما على الصدقة، وأوصى كل واحد منهما بوصية واحدة: اتق اللَّه في السر والعلانية؛ فإنه من يتق اللَّه يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتق اللَّه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا، فإن تقوى اللَّه خير ما تواصى به عباد اللَّه، إنك في سبيل من سبل اللَّه لا يسعك فيه الإذهان[3]، والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم وعصمة أمركم فلا تنِ[4] ولا تفتر).

وكان لوصية الصديق أبلغ الأثر عند عمرو ﷺ وهي منسجمة تمامًا مع طبيعته وحذره ويقظته، وتقوى اللَّه - تعالى - والوصية فيه تعني دائمًا إخلاص القلب للَّه والخلوص

(١) على عدة من عملك: على وعد بأن يعود إلى عمله بعد عوته من عمان، فأنجز أبو بكر وعد رسول اللَّه ﷺ.

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٨٩).

(٣) الإذهان: اللهو والتفريط.

(٤) فلا تن: فلا تضعف.

من حظوظ النفس ورغبتها في السلطة والحكم إلا أن يكون لتنفيذ شريعة اللَّه كما قال له الصديق: إنك في سبيل من سبل اللَّه. ومضى مع رعيته يدعوهم إلى اللَّه ﷻ، ويستحثهم على الصدقات، ويهديهم بنور كتاب اللَّه، وسنة رسوله؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ولكنه لا يزال مشتت الفكر مبلبل الخاطر حول الأرض التي ماجت بالردة وقد شرفه اللَّه - تعالى - بإنهائها في قُضاعة، وها هو على بعض قضاعة، وجذام وحدس وقد استتب فيها الأمن ودانت لدولة الإسلام، ونفسه تتوق إلى مهمة أخرى أوسع من نطاق هذه القبائل وأبعد أثرًا في خدمة دين اللَّه؛ فما لبث أن جاءه ولشريكه الوليد بن عقبة الرسالة العاجلة الآتية المختصرة الموجزة:

(استخلفا على أعمالكما، واندبا من يليكما)[١].

فتفاعلت نفسه مع هذه الأوامر الجديدة وراح يبث في الناس روح الجهاد ويدعوهم إلى التطوع له، ودرب أحد أبناء هذه القبائل ليكون خليفة له في هذه الأرض، ولبث ينتظر على أحر من الجمر الأوامر الجديدة، وأعلن التعبئة العامة في جنده.

(فولَّى عمرو على عُليًّا قضاعة عمرو بن فلان العذري، وولى الوليد بن عقبة على ضاحية قضاعة مما يلي دومة امرأ القيس، وندبا الناس، فتنام إليهما بشر كثير، وانتظروا أمر أبي بكر)[٢].

وقضاعة من الضخامة والكثرة بحيث ذكرها النسابة أنها ثالث فروع العرب الضخمة: عدنان، وقحطان، وقضاعة، كما يذكر ابن حزم في الجمهرة (جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال وهم: عدنان، وقحطان، وقضاعة)[٣]. ويقول: (وبلاد قضاعة متصلة بالشام وببلاد اليونان والأمم التي بادت ممالكهم بغلبة الروم عليها، وببلاد بني عدنان، ولا تتصل ببلاد اليمن أصلًا، ووجدنا في كتب بطليموس وفي كتب العجم القديمة ذكر القضاعيين ونبذة عن أخبارهم وحروبهم، فاللَّه أعلم أهم أوائل قضاعة هذه وأسلافهم أم هم غيرهم؟)[٤].

فلا عجب أن نرى واليين لها هما عمرو والوليد، وأن نرى فاتحين لها كذلك عند الردة هما عمرو وشرحبيل بن حسنة الذي أوصاه الصديق إن فرغ من معونة عكرمة أن يمضي إلى قضاعة، إذًا تكاد تكون شمال الجزيرة كلها منها.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/ ٣٩٠).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٣٩٠).
(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٧).
(٤) المصدر نفسه (ص ٨).

ولا عجب أن ينتدب عمرو والوليد جيشين كبيرين على أهبة الاستعداد للمواجهة والمضي في سبيل اللَّه.

الشام تؤرق أبا بكر:

لم يكن في ذهن الصديق ابتداءً أن يفتتح جبهة الشام عليه قبل أن يفرغ من الجزيرة العربية، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الشرارة التي أشعلت الحرب في الشام.

قال الطبري:(كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي إسحاق الشيباني عن أبي صفية التيمي: تيم بن شيبان وطلحة عن المغيرة ومحمد عن أبي عثمان قالوا:

أمر أبو بكر خالدًا بأن ينزل تيماء، ففصل ردءًا حتى ينزل بتيماء وقد أمره أبو بكر أن يبرحها وأن يدعو من حوله للانضمام إليه وألا يقبل إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل من قاتله حتى يأتيه أمره، فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر؛ فضربوا على العرب الضاحية البعوث بالشام إليهم، فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك وبنزول من استنفرت الروم، ونفر إليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان من دون زيزاء بثلاث، فكتب إليه أبو بكر: أن أقدم ولا تحجم واستنصر اللَّه؛ فصار إليهم خالد، فلما دنا منهم تفرقوا وأعروا منزلهم فنزله ودخل عامة من كان تجمع له في الإسلام، وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أقدم ولا تقتحم حتى لا تؤتى من خلفك، فسار فيمن كان خرج معه من تيماء وفيمن لحق به من طرق الرمل حتى نزلوا فيما بين آبل وزيزاء والقسطل، فسار إليه بطريق من بطارقة الروم يدعى باهان فهزمه وقتل جنده، وكتب بذلك إلى أبي بكر واستمده، وقد قدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع وقدم عليه عكرمة قافلًا وغازيًا فيمن كان معه من تهامة وعُمان والبحرين والسرو، فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل، فكلهم استبدل فسمى ذلك الجيش: جيش البدال، فقدموا على خالد ابن سعيد، وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره)[١].

وصمم الصديق بعد الدراسة الكاملة للساحة العربية أن يفتح جبهة الشام؛ فراح يستعرض أعظم القادة العسكريين عنده؛ ليكونوا هم قادة الفتح، ووقع اختياره على أربعة قواد هم: يزيد بن أبي سفيان، وأمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (٣/ ٣٨٩).

رسالة تاريخية:

وكانت الرسالة التاريخية التي بعث بها الصديق ﷺ إلى عمرو بن العاص وهو واليه في سعد بن هذيم عذرة وبعض جذام وحدس وكان أن أبلغ مع شريكه الوليد بن عقبة من قبل أن يعلنا التعبئة العامة عندهما كما ذكرنا، ويُعيِّنا خلفًا لهما في قضاعة ويستعدا لتلقي الأوامر الجديدة، وعمرو كأنما يتقلب على جمر ينتظر الأوامر من الخليفة حيث جاءته الرسالة الآتية بعد طول انتظار:

(... إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاكه رسول اللَّه ﷺ مرة وسماكه لك أخرى مبعثك إلى عُمان إنجازًا لمواعيد رسول اللَّه ﷺ، فقد وليته ثم وليته، وقد أحببت أبا عبد اللَّه أن أقر عنك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك)[1].

وبمقدار ما كانت آسى رسالة تلقاها في حياته هي رسالة الصديق إليه في عُمان يوم أبلغه نبأ وفاة رسول اللَّه ﷺ - فكان أفجع خبر تلقاه في حياته - بمقدار ما كانت هذه الرسالة أسعد نبأ وصله في حياته؛ حيث يرى ثقة الخليفة الصديق فيه والذي كان جنديًّا عنده ذات يوم، وتعلم من رسول اللَّه ﷺ أن الصديق أحب خلق اللَّه إلى رسول اللَّه ﷺ، وكان اختيار المسلمين له خليفة هو أفضل اختيار.

لم يستطع عمرو ﷺ أن يكتم ما يكنه من غبطة وفرح ورضًا لهذا الاختيار؛ فأعد هذا الجواب التاريخي الخالد للصديق فكان:

(فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد اللَّه الرامي بها والجامع لها؛ فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي)[2].

(وكتب إلى الوليد بن عقبة بنحو ذلك فأجابه بإيثار الجهاد)[3].

ووفد عمرو والوليد بالجيوش التي عبآها للمواجهة وابتدأت مرحلة جديدة من تاريخ هذه الأمة يخطها عمرو بن العاص ﷺ في أرض الشام في فلسطين.

* * *

(١، ٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٣/ ٣٨٩).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٩).

عمرو بن العاص
شريك في فتح الشام

الاتجاه إلى الشام:

(وقام أبو بكر في الناس خطيبًا فحمد للّه وأثنى عليه، وصلى على رسوله وقال: ألا إن لكل أمر جوامع؛ فمن بلغها فهي حسبه، ومن عمل للّه كفاه اللّه، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا أجر لمن لا حسبة له ولا عمل لمن لا نية له، ألا وإن في كتاب اللّه من الثواب على الجهاد في سبيل اللّه لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به؛ هي التجارة التي دل اللّه عليها ونجّى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة)[1].

ولم يعد الأمر مجرد الإيمان والإسلام للمسلمين؛ بل لا بد من الجهاد في سبيل هذا الدين.

ويحدثنا الرائد بسام العسلي عن مؤتمر دعا له الصديق قبيل التوجه للشام يقول عنه: (لم يكن الصديق يقرر أمرًا يتعلق بالمسلمين ومستقبلهم دون أخذ رأيهم، وهو الذي شهد الرسول القائد ينزل عند رأي الصحابة إذا لم يكن في ذلك تشريع إلهي؛ ولهذا قرر توجيه الدعوة إلى كبار الصحابة من أنصار ومهاجرين لعقد مؤتمر يناقش فكرة غزو الشام التزامًا بالآية الكريمة: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ وحضر المؤتمر علي بن أبي طالب، وعمر ابن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد ابن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن سعيد ، وخالد بن الوليد، وطلحة، والزبير وغيرهم. واستهل الصديق المؤتمر بقوله: « حمدًا للّه أن جمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان فليس يطمع أن تشركوا به ولا تتخذوا إلهًا غيره؛ فالعرب اليوم بنو أب وأم، وقد رأيت أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد اللّه المسلمين بحبل اللّه كلمته العليا مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر؛ لأنه من هلك هلك منهم شهيدًا، وما عند اللّه خير للأبرار، ومن عاش

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٠).

عاش مدافعًا عن الدين مستوجبًا على اللّه الثواب ». ووقف ابن الخطاب أول من وقف مؤيدًا ومشجعًا وتابع بقية الصحابة تأييدهم ومبايعتهم الصديق على مخططه، وجاء دور عبد الرحمن بن عوف فوقف يقول:

ياخليفة رسول اللّه، إنها الروم وبنو الأصفر، حد حديد وركن شديد، ما أرى أن تقتحم عليهم اقتحامًا؛ ولكن تبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم ثم ترجع إليك وإذا فعلوا ذلك مرارًا وأضروا بهم وغنموا من أداني أرضهم فقعدوا بذلك عن عدوهم، ثم تبعث إلى أراضي اليمن وأقاصي ربيعة ومضر ثم تجمعهم جميعًا إليك، ثم إن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت أغزيتهم)[١].

ونفذ الصديق ﷺ رأي عبد الرحمن بن عوف في حشد القوات الإسلامية وتعبئتها من أقاصي الأرض العربية (وكانت طلائع القوات المستنفرة قد أخذت في الوصول إلى المدينة وكان في قوات اليمن:

قوات قبائل حمير وفي مقدمتها ذو الكلاع الحميري.

قوات مذحج وفي مقدمتها قيس بن هبيرة المرادي.

وقوات طيئ وفي مقدمتها حارث بن سعيد الطائي.

قبائل الأزد وفي مقدمتها جندب بن عمرو الدوسي.

قوات بني عبس وفي مقدمتها ميسرة بن مسروق العبسي[٢].

قوات بني كنانة وفي مقدمتها غنيم بن أسلم الكناني)[٣].

والملاحظ حول المؤتمر الذي عقده الصديق أن العشرة المبشرين بالجنة - وهم خيرة هذه الأمة بعد نبيها - قد حضروا هذا المؤتمر؛ فهم قادة الأمة الأوائل وأهل الحل والعقد فيها.

ويحدثنا البلاذري عن ذلك: (قالوا: لما فرغ أبو بكر ﷺ من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام؛ فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد، ويرغبهم في غنائم الروم؛ فسارع الناس إليه من بين

---

(١) فن الحرب الإسلامي: بسام العسلي (١/ ٩١)، والنص من تاريخ ابن عساكر.

(٢) قوات عبس وكنانة من مضر الحجاز وليست من اليمن.

(٣) فن الحرب الإسلامي: بسام العسلي (١/ ٩٤).

محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب)[١].

القادة الأربعة الكبار:

(فأمد عَمْرًا ببعض من انتدب إلى من اجتمع إليه وأمره على فلسطين) وأمره بطريق سماها إليه، وكتب إلى الوليد وأمره بالأردن، ودعا يزيد بن أبي سفيان فأمره على جند عظيم هم جمهور من انتدب له وفي جنده سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة، وشيعه ماشيًا، واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه وأمره على حمص، وخرج معه وهما ماشيان والناس معهما خلفهما، وأوصى كل واحد منهما)[٢].

(ولما قدم الوليد على خالد بن سعيد فسانده، وقدمت جنود المسلمين الذين كان أبو بكر أمده بهم وسموا جيش البدال وبلغه عن الأمراء وتوجههم إليه - اقتحم على الروم طلب الحظوة وأعرى ظهره وبادر[٣] الأمراء بقتال الروم واستطرد[٤] له باهان؛ فأرز[٥] هو ومن معه إلى دمشق، واقتحم خالد في الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى ينزل مرج الصفر من بين الواقوصة ودمشق فانطوت مسالح باهان عليه[٦]، وأخذوا عليه الطرق ولا يشعر، وزحف له باهان فوجد ابنه سعيد بن خالد يستمطر[٧] في الناس فقتلوهم، وأتى الخبر خالدًا فخرج هاربًا في جريدة[٨]، فأفلت من أفلت من أصحابه على ظهور الخيل والإبل، وقد أجهضوا في عسكرهم، ولم تنته بخالد بن سعيد الهزيمة عن ذي المروة[٩]، وأقام عكرمة في الناس ردءًا لهم[١٠]، فرد عنه باهان وجنوده أن يطلبوه، وقد قدم شرحبيل بن حسنة[١١] وافدًا من عند خالد بن الوليد، فندب معه الناس ثم استعمله أبو بكر على عمل الوليد (أي: الأردن) وخرج معه يوصيه، فأتى شرحبيل على خالد ففصل بأصحابه إلا القليل)[١٢].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١١٥).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٠).

(٣) بادر: سبق.

(٤) استطرد: أوهمه بالتراجع.

(٥) أرز: دخل.

(٦) انطوت مسالح باهان عليه: انقضت عليه قواته من كل جانب.

(٧) يستمطر في الناس: يطلب المدد من الناس.

(٨) في جريدة: في قطعة من الخيل.

(٩) ذي المروة: موقع على الساحل شمال المدينة بثلاثمائة كيلو متر.

(١٠) ردءًا لهم: حماية لهم من الخلف.

(١١) شرحبيل بن حسنة: حليف بني جمح وحسنة أمه، شرحبيل فيما ذكر الواقدي ابن عبد اللّه بن المطاع الكندي من السابقين الأولين ومن مهاجرة الحبشة.

(١٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩١).

وكان من الممكن لهذه المعركة السابقة لأوانها أن تفت عضد المسلمين وتحطم معنوياتهم؛ فهي أول معركة بين المسلمين والروم في الشام خسروها نهائيًّا وهرب الجيش الإسلامي إلى ذي المروة، ولولا عبقرية عكرمة وثباته ورباطة جأشه لزحفت جيوش الروم إلى أرض الجزيرة متجهة إلى المدينة؛ لكنه هو الذي أوقف زحف باهان ومطاردته للجيش الإسلامي، وهكذا صار شرحبيل بن حسنة رابع الأربعة عوضًا عن الوليد بن عقبة.

وأمر أبو بكر ﷺ عمرو بن العاص أن يسلك طريق أيلة عامدًا لفلسطين، وأمر يزيد أن يسلك طريق تبوك، وكتب إلى شرحبيل أن يسلك طريق تبوك، وكان العقد لكل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الأمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة، ثم تتام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرون ألفًا[١]. وقال للأمراء: إن كان بكم قتال فأميركم الذي تكونون في عمله. وروي أيضًا أنه أمر عمرًا مشافهة أن يصلي بالناس إذا اجتمعوا، وإذا تفرقوا صلى كل أمير بأصحابه[٢].

عمرو بن العاص إلى فلسطين:

(ثم أمر الناس بالمسير تحت رايته فساروا، وتقدم أهل مكة وتبعهم بنو كلاب وطيئ وهوازن وثقيف، وتخلف المهاجرون والأنصار ليسيروا مع أبي عبيدة بن الجراح، وتقدم عمرو بن العاص وسار)[٣]. ولعلم أبي بكر ﷺ بعبقرية عمرو الحربية لم تكن وصيته له تنصبُّ على أمور الحرب بمقدار ما كانت تنصبُّ على التذكير بالله ﷻ والبناء النفسي له في تعامله مع المسلمين. قال أبو الدرداء: كنت مع عمرو بن العاص في جيشه فسمعت أبا بكر يقول وهو يوصيه:

اتّقِ الله في سرك وعلانيتك واستحيه في خلواتك؛ فإنه يراك في عملك، وقد رأيت تقدمتي لك على من هو أقدم منك سابقة وأقدم حرمة؛ فكن من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله، وكن والدًا لمن معك، وارفق بهم في السير؛ فإن فيهم أهل ضعف، والله ناصر دينه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وإذا سرت بجيشك؛ فلا تسر في الطريق الذي سار فيه يزيد وربيعة وشرحبيل؛ بل اسلك طريق إيلياء حتى تنتهي إلى أرض فلسطين، وابعث عيونك يأتوك بأخبار أبي عبيدة، فإن كان ظافرًا بعدوِّه؛ فكن أنت

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١١٦). (٢) المصدر نفسه (ص ١١٧).
(٣) فتوح الشام للواقدي (ص ٨).

لقتال من في فلسطين، وإن كان يريد عسكرًا؛ فأنفذ إليه جيشًا في أثر جيش.

وعاد يذكره بفضل القيادات الكبرى في جيشه فتابع وصيته قائلًا:

« وقدم سهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وسعيد بن خالد، وإياك أن تكون وانيًا عما ندبتك إليه، وإياك والوهن أن تقول: إنما جعلني ابن أبي قحافة في العدو ولا قوة لي به. وقد رأيت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ونحن نلاقي ما نلاقي من جموع الشرك ونحن في قلة من عددنا، ثم رأيت يوم حنين نصرنا اللّٰه عليهم ».

ثم أوصاه بالمهاجرين والأنصار الذين معه خيرًا وهم لذلك أهل:

« واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم واعرف حقهم، ولا تتطاول عليهم بسلطانك، ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول: إنما ولاني أبو بكر؛ لأني خيرهم. وإياك وخدائع النفس، وكن كأحدهم، وشاورهم فيما تريد من أمرك... ».

ثم أوصاه بالصلاة وأهميتها بقوله:

« والصلاةَ ثم الصلاةَ، أذن بها إذا دخل وقتها، ولا تصل صلاة إلا بأذان يسمعه أهل العسكر، ثم أبرد وصل بمن رغب في الصلاة معك؛ فذلك أفضل له، ومن صلاها وحده أجزأته صلاته ».

أما بالنسبة للعدو ولصحبه فقال له: « واحذر من عدوك وأْمر أصحابك بالحرس؛ لتكن أنت بعد ذلك مطلعًا عليهم، وأطل الجلوس بالليل على أصحابك، وأقم بينهم، واجلس معهم، ولا تكشف أستار الناس، واتق اللّٰه إذا لاقيت العدو، وإذا وعظت أصحابك فأوجز، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك؛ فالإمام ينفرد إلى اللّٰه - تعالى - فيما يعلمه وما يفعله في رعيته ».

ومع قبائل العرب: « وإني قد وليتك على من قد مررت من العرب؛ فاجعل كل قبيلة على حميتها، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرقيق، وتعاهد عسكرك في سيرك، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك لك، وخلِّف على الناس ما ترضاه، وإذا لقيت عدوك فاصبر، ولا تتأخر فيكون ذلك منك فخرًا ».

ثم عاد بعدها يؤكد وصايته بجنده: « وألزم أصحابك قراءة القرآن، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها؛ فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض عن زهرة الحياة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك، وكن من الأئمة الممدوحين في القرآن؛ إذ يقول اللّٰه -

تعالى -: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣])(١).

وبقيت هذه الوصية في روح عمرو وقلبه دستور حياته، ولم يكن يدور بخلده أنه إنما يودع أبا بكر الصديق الوداع الأخير كما ودع حبيبه المصطفى الوداع الأخير.

وضع الجيش الروماني وتقييم مستواه العسكري:

ونقتطف هذه الفقرة من محمد أحمد باشميل في كتابه حروب الإسلام في الشام:

(يقول الجنرال جلوب في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) يصف الوضع الذي كانت عليه العسكرية الرومانية بصفة عامة وفي الشام بصفة خاصة:

ولم تكن المهمة سهلة أمام قادة المسلمين الذين قرَّروا الدخول في حرب مع البيزنطيين؛ فقد كانت الإمبراطورية الرومانية تقوم وتستند منذ أربعة قرون على أكتاف المشاة الرومانيين الذين اعتبرت فيالقهم المشهورة المثل الأعلى للانضباط العسكري، وقد تمكن الإمبراطور جستنيان بجيوش من هذا النوع استعادة الإمبراطورية الرومانية السابق عهدها بين عامي خمسمائة وثلاث وخمسين، وخمسمائة وخمسة وستين، وكانت الكتيبة هي الوحدة في الجيش الروماني وتضم نحوًا من أربعمائة جندي، ويتألف اللواء من ثلاث كتائب وأكثر، بينما تتألف الفرقة من ثلاثة ألوية، وكان لكل كتيبة شارتها الخاصة واللون الخاص برجالها.

ثم يقول الجنرال جلوب: وكان البيزنطيون - على خلاف العرب - قد نظموا الخدمات الإدارية والتنظيمية في جيشهم على أحسن منوال؛ فقد كان لكل فصيل من المشاة مؤلف من ستة عشر رجلًا عربة خاصة بالفصيل تحمل لجنوده الفؤوس والمجارف - لأعمال الحفر - ومطحنة - لطحن القمح - وغير ذلك من الأدوات والمعدات، وتسير مع الجيش وحدة إسعاف تضم الأطباء والجراحين وناقلات الجرحى، وكان التدريب العسكري والتعبوي ينفذ بدقة ونظام ومثابرة، كما توافرت لطلبة العلوم العسكرية كتب عدة لدراسة الفنون الحربية).

ورغم صليبية الجنرال جلوب؛ إلا أنه كان منصفًا حين اعترف في كتابه الآنف الذكر بأن الجيوش الرومانية رغم حسن تسليحها وتفوقها التكنولوجي والعددي على

(١) فتوح الشام للواقدي (١/ ٧، ٨).

المسلمين؛ إلا أن هؤلاء المسلمين تغلبوا على هذه الجيوش التي تعتبر - آنذاك - من أرقى جيوش العالم. ويقر في كتابه (وهذا مهم جدًّا) أن عامل العقيدة الذي هو مصدر الروح المعنوية الرائعة لدى العرب حل محل التفوق المادي على اختلاف أنواعه لدى الرومان حيث قال:

« وأمام هذا الجيش الروماني النظامي الرفيع التدريب يقف العرب من أبناء القبائل غير المدربين؛ فهم لا يعرفون شيئًا عن التعبئة وفنون الحرب التي يعرفها الرومان ولا النظام ولا الكتب العسكرية، وليست لديهم رواتب أطباء، وكان سلاحهم أقل شأنًا وأهمية من سلاح عدوهم؛ ومع ذلك فإنهم بعد مؤتة لم يخسروا أية معركة في حربهم مع الروم.

ومن المحتمل أن يكون شظف العيش الذي ألفوه باحتمال المشاق وافتقارهم لأي تدريب منظم، قد جعل منهم قوة أسرع على الحركة من عدوهم، لكن الفضل الأول والأخير في انتصارهم يجب أن يُعزى إلى روحهم المعنوية العالية؛ فهم - بالإضافة إلى كونهم ناريّي المزاج محاربين بطبيعتهم - قد أدى تطلعهم إلى الاستشهاد في سبيل اللَّه طمعًا في فراديس الجنان التي وعدهم اللَّه بها - أدى إلى أن يقاتلوا بحمية تفوق تمامًا ما كان لدى أعدائهم من الروم من تفوق في السلاح والانضباط »[1].

هرقل ملك الروم:

رغم أنه كان في عنفوان انتصاراته على الفرس؛ لكنه أدرك أن نبوة محمد حق وقال لأبي سفيان: لئن صدقت ليملكن موطئ قدميّ هاتين، ولو كنت عنده لغسلت الأرض عن قدميه. وكانت محاولته الأخيرة بعد أن فشلت المحاولات السابقة في حملهم على الإسلام، وخاف على ملكه فتراجع وارتد على عقبه، ها هو ذا يقوم بالمحاولة الأخيرة لثني قومه عن حرب المسلمين ودفعهم إلى مصالحتهم؛ لأن اللَّه ورسوله لا يغلبان.

(واتصل الخبر للملك هرقل من قوم من عرب اليمن المنتصرة كانوا في المدينة، فلما صحَّ عند الملك ذلك جمع بطارقته في عسكره وقال لهم: يا بني الأصفر، إن دولتكم قد عزمت على الانهزام؛ لقد كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتقيمون الصلاة

(١) حروب الإسلام في الشام: محمد أحمد باشميل (ص ٥٩).

وتؤتون الزكاة التي أمركم بها الآباء والأجداد والقسس والرهبان وتقيمون حدود اللَّه التي أمركم بها في الإنجيل، لا جرَم أنكم ما قصدكم ملك من ملوك الوشاة ونازعكم على الشام إلا قهرتموه، وقد قصدكم كسرى بجنود فارس فانكسروا على أعقابهم، والآن قد بدلتم وغيرتم فظلمتم وجرتم، وقد بعث إليكم ربكم قومًا لم يكن في الأمم أضعف منهم عندنا، وقد رمتهم شدة الجوع إلينا وأتى بهم إلى بلادنا، وبعثهم صاحب نبيهم ليأخذوا ملكنا من أيدينا ويخرجونا من بلادنا)[١].

لكن قوم هرقل رفضوا هذا الموقف وأخذتهم العزة بالإثم فلم يكن له خيار مَن مسايرتهم حفاظًا على ملكه، وعندما بلغه التخطيط الإسلامي بإرسال أربعة جيوش وأربعة قواد اعتبرها فرصة سانحة للقضاء على كل جيش على حدة؛ فيفتك بالمسلمين متفرقين.

(وأوعب القواد بالناس نحو الشام وعكرمة ردء للناس، وبلغ الروم ذلك فكتبوا إلى هرقل وخرج هرقل حتى نزل بحمص؛ فأعد لهم الجنود وعبى لهم العساكر وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وفضول رجاله، وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق لأبيه وأمه فخرج نحوهم في تسعين ألفًا، وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ثنية جلق بأعلى فلسطين، وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان فعسكر بإزائه، وبعث الدراقص فاستقبل شرحبيل بن حسنة، وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفًا نحو أبي عبيدة؛ فهابهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفًا سوى عكرمة في ستة آلاف)[٢].

عمرو يحبط خطة هرقل:

وحرص القادة الكبار على التشاور أمام هذا الزحف البشري الهائل وجميعهم يعرفون أن عمرو بن العاص هو أعرق الناس خبرة في الحرب، وقد اختاره رسول اللَّه ﷺ أميرًا في ذات السلاسل على كبار صحبه وأثبت كفاءة عالية فيها.

(ففزعوا جميعًا بالكتب والرسل إلى عمرو: أن ما الرأي؟

فكاتبهم وراسلهم:

إن الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يبق

(١) فتوح الشام للواقدي (ص ٤).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٢).

الرجل منا في عدد يقرن[١] فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لكل طائفة منا. فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به)[٢].

وفي الوقت نفسه بعثوا بالأمر إلى الخليفة الصديق يستشيرونه؛ فكان رأي الصديق ﷺ هو رأي عمرو بن العاص.

(فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به، وقد كتب إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرًا، فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرو بأن: اجتمعوا فتكونوا عسكرًا واحدًا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين؛ فإنكم أعوان اللَّه، واللَّه ناصرٌ من نصره وخاذلٌ من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب؛ فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل رجل منكم بأصحابه)[٣].

عمرو أمام التذارق:

لقد كان الرأي من الناحية النظرية هو الاجتماع معًا في اليرموك، لكن من الناحية العملية فعمرو في فلسطين بعيدًا عن إخوانه، وإخوانه الثلاثة كان من السهل اجتماعهم معًا فقد كان طريقهم واحدًا هو طريق تبوك، بينما سلك عمرو الطريق الساحلي، ودخل من ميناء إيلة إلى فلسطين، ولم يكن من السهل أمامه أن ينضم لإخوانه وقد صارت قوات الروم بإزائه؛ ولهذا اضطر إلى أن يخوض العديد من المعارك مع العدو، ويحتل بعض المواقع ثم ينسحب منها لينفذ الخطة التي اتفق عليها، وهو الذي وضع خطوطها الرئيسية (ونتيجة الخطة الجديدة: خطة تجمع الجيوش الأربعة باليرموك، والتي اقترحها عمرو بن العاص، وصادق عليها الخليفة - أخذت الجيوش الأربعة تتجمع في اليرموك، وتنسحب من كل المناطق التي سبق وأن سيطرت عليها في بداية الزحف في الشام؛ فقد انسحب أبو عبيدة من منطقة حمص، وانسحب يزيد بن أبي سفيان من منطقة دمشق، وانسحب شرحبيل بن حسنة من الأردن، وأخذ عمرو بن العاص في الانسحاب تدريجيًا من فلسطين، ولكنه لم يتمكن من الانسحاب منها حتى أنجده خالد بن الوليد قبل اليرموك؛ لأن القائد الروماني لمنطقة الساحل كان يطارده محاولًا سحق جيشه الصغير وهو ينسحب في اتجاه اليرموك، فظل عمرو يناور في بئر السبع حتى وصل إليه خالد

---

(١) يقال: أقرن له: إذا غلب عليه.

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٢، ٣٩٣).

(٣) المصدر السابق نفسه.

وشن بالاشتراك معه هجومًا مضادًّا على الرومان؛ فكانت معركة أجنادين[١] الرهيبة التي فقد فيها الرومان قبل اليرموك حوالي ثمانين ألفًا، وبعد أن حطم خالد مع عمرو جيش الروم في فلسطين انسحب الاثنان مع بقية القادة إلى اليرموك في فلسطين.

ويحدثنا الواقدي عن معارك عنيفة تمت بين المسلمين والروم قبل قدوم خالد، لخصها الرائد العسلي بقوله: «عندما وصل عمرو بن العاص إلى فلسطين تقدم إليه عدي ابن عامر من المسلمين وكان قد قدم إلى الشام بتجارة له، وأعلم ابن العاص عن تقدم جيش كبير للروم يزيد على مائة ألف.

ونظم عمرو بن العاص قوة استطلاع من ألف مقاتل، ودفعها في اتجاه محور تقدم الروم، ووضع على قيادتها عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب، وتقدمت هذه القوة واصطدمت بطليعة من الروم، وحدثت معركة طاحنة أبدى فيها عبد اللَّه بن عمر وعكرمة بن أبي جهل صمودًا كبيرًاوقيادة حازمة، وأمكن قتل قائد هذه القوة، واستطاع عبد اللَّه انتزاع النصر وتمزيق قوة العدو، وانتهت المعركة بسقوط ستمائة قتيل مقابل سبعة من المسلمين.

عادت قوة الاستطلاع ومعها بعض الأسرى؛ فاستجوبهم عمرو وعلم منهم أن جيش العدو بقيادة روبس[٢]، وأن قوته تقارب المائة ألف.

وعرف عمرو أن خصمه رويس سيحاول مباغتته بالهجوم، فنظم قواته كالتالي: الميمنة بقيادة الضحاك بن قيس، والميسرة بقيادة سعيد بن خالد بن العاص، والساقة بقيادة أبي الدراء، والقلب بقيادة عمرو بن العاص، ونظم عمرو جيشه (لا يخرج سنان عن سنان ولا عنان عن عنان ولا ركاب عن ركاب كأنهم بنيان مرصوص وهم يقرؤون القرآن).

وقام جيش الروم بهجومه بعد أن كان عمرو بن العاص قد أنهى استعداده للقتال وصمد المسلمون ونجحوا في تحطيم حدة هجوم خصمهم، وتصاعد القتال، واشتد الموقف، وعندما شعر المسلمون بتمزق قوة جيش رويس قاموا بهجومهم المضاد ونجحوا في تدمير العدو وإرغامه على الفرار وترك ميدان المعركة، وتابع الفرسان أعمال مطاردة القوات المنسحبة وانتهت المعركة بسقوط (١٥٠٠٠) قتيل من جيش الروم مقابل (١٣٠) من جيش المسلمين»[٣].

---

(١) يرى الطبري أن معركة أجنادين إنما تمت بعد اليرموك بينما يخالفه بقية المؤرخين في ذلك.

(٢) وهو غير تذارق أخي هرقل وقبل قدوم قواته.

(٣) فن الحرب الإسلامي للرائد بسام العسلي (١/ ٩٧، ٩٨)، وهو ملخص عن الواقدي (١/ ٩ - ١٢).

بينما يذكر البلاذري عن ذلك قوله:

« قالوا: فأول وقعة كانت بين المسلمين وعدوهم بقرية من قرى غزة - يقال لها: داثن - كانت بينهم وبين بطريق غزة؛ فاقتتلوا فيها اقتتالًا شديدًا، ثم إن اللَّه - تعالى - أظهر أولياءه وهزم أعداءه وقضى جمعهم وذلك قبل قدوم خالد ابن الوليد الشام »(١).

ويحدثنا باشميل عن وضع عمرو ﷺ وجيشه فيقول:

« أما الفيلق الرابع الذي بقيادة عمرو بن العاص والذي كانت مهمته من أشق المهمات - فقد سلك طريقًا بعيدًا جدًّا عن الفيالق الثلاثة؛ حيث سلك طريق ساحل خليج العقبة الشرقي فدخل العقبة في فلسطين، ثم اتجه شمالًا مارًّا بوادي عربا في الناحية الغربية من البحر الميت »(٢).

« وكان هدف الفيلق الرابع هذا تحرير مدينة القدس، والفيلق الرابع الذي يقوده عمرو ابن العاص هو الفيلق الوحيد من بين الفيالق الأخرى الذي خاض أعنف المعارك في المنطقة المخصصة له « فلسطين » قبل التجمع في اليرموك الذي دارت فيه المعركة التي قررت مصير الشام كلها.

فبالرغم من أن الفيلق الرابع قد احتل مساحة واسعة من فلسطين؛ إلا أنه اصطدم في النهاية بمقاومة شديدة تحولت إلى مطاردة القائد الروماني تيودر - أخي الملك هرقل الذي أرسله للدفاع عن القدس والقضاء على الفيلق الرابع - فكان تيودورا يقود أكثر من سبعين ألفًا بينما الفيلق الرابع لا يزيد عن سبعة آلاف مقاتل »(٣).

وكان لعمرو مع هذا البطريق قبيل المعركة جولة فريدة حدثنا عنها الحافظ ابن عساكر بقوله: « لما سار أمراء المسلمين إلى الشام فنزلوا بقرية يقال لها: باذن من قرى غزة مما يلي الحجاز - فلقيهم بطريق من بطارقة الروم، فأرسل إليهم أن يخرجوا إليه أحد القواد ليكلمه؛ فتواكلوا ذلك وقالوا لعمرو بن العاص: أنت لذلك فخرج عمرو بن العاص، فلما انتهى إليه رحب به البطريق وأجلسه معه على سريره ومَتَّ إليه بقرابة العيص بن إسحاق ابن إبراهيم وإسماعيل بن إبراهيم، فكلمه عمرو ودعاهم إلى الدخول في الإسلام

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١١٧).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٢٣/ ٥١٠، ٥١١).

(٣) حروب الإسلام في الشام لمحمد أحمد باشميل (ص ٥٧).

أو الجزية عن يد وهم صاغرون؛ فأبى وضن بدينه، فقال عمرو: قد أعذرت ولم يبق إلا السيف. فافترقا فاقتتلوا فكانت بينهم معركة عظيمة ».

كما نقل لنا تفاصيل عن هذا اللقاء فيقول: « خرج عمرو بن العاص إلى بطريق في نفرٍ من أصحابه عليه قباء عليه صدأ الحديد، وعمامة سوداء وفي يده سيف وعلى ظهره ترس؛ فلما طلع عليه ضحك البطريق وقال: ما كنت تصنع بحمل السلاح؟ قال: خفت أن ألقى دونك فأكون قد فرطت. فالتفت إلى أصحابه فقال بيده عقدة على إبهامه ثم قال: مرحبًا بك وأجلسه على سريره، وحادثه فأطال، ثم كلمه بكلام كثير ودعاه إلى الإسلام؛ فلما سمع البطريق كلامه وبيانه وأداءه قال بالرومية: يا معشر الروم أطيعوني اليوم واعصوني الدهر. أمير القوم كلما كلمته أجابني عن نفسه لا يقول: أشاور أصحابي وأذكر لهم ما انتهى إليه علمي، وليس إلا أن نقتله قبل أن يخرج. فقال من حوله من الروم: ليس هذا برأي. وقد كان دخل مع عمرو بن العاص من أصحابه من يعرف كلام الروم؛ فألقى إلى عمرو ما قال الملك، ثم قال الملك: ألا تخبرني هل في أصحابك مثلك ويؤدي أداءك؟ فقال عمرو: أنا أقل أصحابي لسانًا، وأدناهم في أصحابي من لو كلمته لعرفت أني لست هناك. قال: فأنا أحب أن تبعث إليَّ رأسكم في البيان والتقدم والأداء حتى أكلمه. فقال عمرو: أفعل. وخرج عمرو من عنده، فقال البطريق لأصحابه: لأخالفنكم لئن دخل فرأيت منه ما يقول لأضربن عنقه. فلما خرج من الباب كبَّر وقال: لا أعود لمثل هذا أبدًا. وأتى منزله فاجتمع إليه أصحابه يسألونه فخبرهم بخبره وخبر البطريق، فأعظم القوم ذلك، وحمد اللَّه على ما رزق من السلامة، وكتب عمرو بذاك إلى عمر فكتب إليه عمر: الحمد للَّه على إحسانه إلينا، وإياك وإياك والتغرير بنفسك وبأحد من المسلمين في هذا، وبحسب العلج منهم أن يكلم في مكان سواء بينك وبينه، فيكفينا من غايته ويكون أكسر. فلما قرأ عمرو بن العاص كتاب عمر قال: ما الأب البر بولده بأبر من عمر بن الخطاب برعيته ».

خالد بن الوليد مدد للمسلمين:

قالوا: فلما صار عمرو بن العاص إلى أول عمل فلسطين كتب إلى أبي بكر يعلمه كثرة عدد العدو وعدتهم وسعة أرضهم ونجدة مقاتلتهم؛ فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد بن المغيرة المخزومي وهو بالعراق يأمره بالمسير إلى الشام فيقال: إنه جعله أميرًا على الأمراء في الحرب، وقال قوم: كان خالد أميرًا على أصحابه الذين

شخصوا معه، وكان المسلمون إذا اجتمعوا لحرب أَمَّره الأمراء فيها لبأسه وكيده وَيُمْنِ نقيبته[١].

(وسار خالد مسرعًا في تسعة آلاف وخمسمائة ودليله رافع بن عميرة الطائي فأخذ به على السماوة حتى انتهى إلى قراقر، وسلك به أراضي لم يسلكها قبله أحد؛ فاجتاب البراري والقفار، وقطع الأودية وتصعَّد على الجبال، وسار في غير مهيع[٢]. وجعل رافع يدلهم في مسيرهم على الطريق وهو في مفاوز[٣] معطشة؛ وعطش النوق وسقاها الماء عللًا بعد نهل، وقطع مشارفها وكعمها[٤]؛ حتى لا تجتز رحل أدبارها. واستاقها معه، فلما فقدوا الماء نحرها فشربوا ما في أجوافها من الماء، ويقال: بل سقاه الخيل وشربوا ما كانت تحمله من الماء وأكلوا لحومها، ووصل - وللَّه الحمد والمنة - في خمسة أيام فخرج على الروم من ناحية تدمر، فصالحه أهل تدمر وأركه، ولما مر بعذراء أباحها وغنم لغسان أموالًا عظيمة، وخرج من شرقي دمشق ثم سار حتى وصل إلى قناة بصرى؛ فوجد الصحابة تحاربها، فصالحه صاحبها وسلمها إليه؛ فكانت أول مدينة فتحت من الشام - وللَّه الحمد. وبعث خالد بأخماس ما غنم من غسان مع بلال بن الحرث المزني إلى الصديق، ثم سار خالد وأبو عبيدة ويزيد وشرحبيل إلى عمرو بن العاص وقد قصده الروم بأرض العربا من الغور؛ فكانت واقعة أجنادين)[٥].

أما سبب توجهه إلى عمرو ﷺ بفلسطين مع الجيوش الإسلامية؛ فنشهد هذا التحليل العميق له عند باشميل إذ يقول: (ثم إن خالدًا بعد سيطرته على مدينة بصرى عاصمة الجولان عقد اجتماعًا على مستوى عالٍ حضره قادة الفيالق الثلاثة وبقية كبار قادة الوحدات وأهل الخبرة الحربية ومن يمكن تسميتهم هيئة أركان حرب، وعقد مع هؤلاء اجتماعًا تدارس فيه معهم الوضع في الشام، وبعد الدراسة والتشاور والتقييم من جميع النواحي تبين لخالد أن هناك للرومان في الشام جيشين رئيسين: جيش في الشمال ومقره أنطاكية وهو الجيش الثاني وقوامه مائتا ألف مقاتل، وجيش في فلسطين قريبًا من الساحل وقوامه مائة ألف مقاتل غربي فلسطين بأجنادين جنوب جبرين؛ فنظر خالد فوجد أنه في قلب الشام بقوات الإسلام الرئيسية بين جيشين عظيمين للعدو: أحدهما وهو الأول بالغرب من الضفة الغربية ولا يوجد أمامه سوى سبعة آلاف مقاتل يتحاشون الالتحام

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١١٧).
(٢) مهيع: طريق بيِّن.
(٣) مفاوز: فلوات منقطعة.
(٤) كعمها: شد أفواهها.
(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٦).

الحاسم معه، وجيش في أقصى الشمال وبالقرب من آسيا الصغرى مصدر إمدادات الجيوش الرومانية)[١].

خطة هرقل وخطة خالد:

(وكانت خطة الملك هرقل قبل وصول خالد إلى العراق لتصفية التجمع الإسلامي في اليرموك تقضي بتعزيز الجيش الأول في فلسطين، ثم صدرت إليه الأوامر (وقد بلغ مائة ألف مقاتل) أن يتتبع الفيلق الرابع الذي يقوده عمرو ويقضي عليه بسرعة، وبعد ذلك يتجه نحو مؤتة خلف خطوط المسلمين في اليرموك، وكلفه بالسيطرة على جميع الطرق والممرَّات المؤدية من جزيرة العرب إلى الشام؛ كي يقطع على الجيش المحتشد في اليرموك خط الرجعة ويمنع وصول أي إمدادات إليه من الجزيرة)[٢].

أما خطة خالد ﷺ فقد أحبطت خطة هرقل، وذبحت الجيش الروماني الأول، وأنقذت جيش عمرو ﷺ؛ فكانت بالتشاور مع القادة الثلاثة حيث (قرَّر الانسحاب بالجيش الرئيسي من بصرى واليرموك وكل المناطق الوسطى التي فتحتها جيوش الإسلام، وأخذ يزحف بسرعة جنوبًا واضعًا نصب عينيه أولًا التخلص من الجيش الروماني الأول في فلسطين وكل الحاميات الرومانية المتواجدة في بئر السبع وغور الأردن؛ لينقذ جيش عمرو وليجعل خطوط مواصلاته مع جزيرة العرب مأمونة، ثم بعد أن يدمر الجيش الروماني الأول في الجنوب يعود ثانية بالجيش، وقد انضم إليه فيلق عمرو بن العاص نحو الشمال للمواجهة الحاسمة التي حدثت في اليرموك فيما بعد)[٣].

معركة أجنادين:

(ثم كانت وقعة أجنادين وشهدها من الروم زهاء مائة ألف، سرَّب هرقل أكثرهم، وتجمع باقوهم من النواحي، وهرقل يومئذ مقيم بحمص؛ فقاتلهم المسلمون قتالًا شديدًا وأبلى خالد بن الوليد يومئذ بلاءً حسنًا، ثم إن اللَّه هزم أعداءه ومزقهم شر ممزق، وقُتل منهم خلق كثير، واستشهد يومئذ عبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب، وعمرو بن سعيد بن العاص، وأخوه أبان بن سعيد وذلك الثبت .. والمطلب بن عمير وغيرهم)[٤].

عبقرية عمرو:

لقد كانت عبقرية عمرو ﷺ تكمن في محافظته على هذا الفيلق الذي يقوده؛ فليس

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١١٣). (٢) المصدر السابق (ص ١١٣، ١١٤).
(٣) المصدر السابق (ص ١١٦، ١١٧). (٤) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٢٠، ١٢١).

الهدف هو القتل والشهادة، إنما الهدف أن يوظف القتل وتوظف الشهادة في تحقيق هدف النصر على العدو، وقد رأى عمرو أن عدم التكافؤ بينه وبين العدو يدفعه لكي لا يضحي بقطرة دم واحدة هدرًا؛ ولكن ليس الحل هو الهروب كذلك، فهو يمثل أمام العدو قوة دفاع وهجوم كبرى، ولقد فوَّت الهدف على خصمه في الاستقبال المباشر لا يجهز عليه، ولم يرح خصمه لحظة واحدة دون مناوشات وكر وفر معه.

لقد كان وضع الفيلق الرابع بقيادة عمرو بن العاص حرج للغاية؛ فهو يقود جيشًا قوامه سبعة آلاف مقاتل تلاحقه بقيادة سرحيوس قوات رومانية قوامها مائة ألف مقاتل، ومن المؤكد أن عَمْرًا وحده ليس باستطاعته مواجهة هذه القوة الرومانية منفردًا؛ ولذلك اعتصم عمرو بصحراء النقب حيث يستطيع جيشه - المكون أكثره من البدو - القيام بحرب الصاعقة التي يخشاها الرومان؛ ولذلك يتهيبون دائمًا التصادم مع العرب في الصحاري المكشوفة، ولولا أن عمرًا اعتصم بالصحراء لأوقع به سرجيوس وأباد فيلقه، ومع ذلك فقد ظل سرجيوس يتتبع القائد عمرًا ويضايقه ولكن بحذر؛ وذلك لاعتصام عمرو بالصحراء، وقد ظل عمرو يناور في مناواشات سرجيوس متجنبًا الدخول معه في معركة حاسمة حتى يصله مدد يمكنه من مصادمة سرجيوس.

وكان سرجيوس حريصًا كل الحرص على الاشتباك في معركة فاصلة مع عمرو؛ ليحقق رغبة الملك هرقل في تطهير جنوب الشام من أي وجود عسكري للإسلام هناك، ولو نجح في تدمير جيش عمرو بن العاص لتحرجت حالة الفيالق الثلاثة التي تولى خالد قيادتها، ولكان احتمال انتصارهم في اليرموك احتمالًا ضعيفًا؛ لأنهم سيكونون بين فكي الكماشة التي أقامها هرقل: الجيش الأول في الجنوب، والجيش الثاني في الشمال ومقره أنطاكية، وقوة المسلمين الرئيسية بينهما[1].

وقد أشار الجنرال جلوب في كتابه (فتوحات العرب الكبرى) إلى هذه الحقيقة فقال: (اعتمد هرقل على تحصينات اليرموك لوقف الزحف العربي على دمشق، ولاحظ أن عمرو بن العاص وحيد في بئر السبع؛ فراح يبعث بجيشه الرئيسي إلى الجنوب نحو فلسطين عن طريق طبريا فالناصرة فقيسارية التي يستطيع أن يستعملها بعد الآن قاعدة أمامية، وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر، وفي وسعهم تموين جيوشهم في فلسطين من ميناء قيسارية أو من ميناء يافا وغزة فيما بعد.

(١) حرب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١١٤، ١١٥).

وكان الهدف من العملية كلها الانتصار على جيش عمرو بن العاص في منطقة بئر السبع في الوقت الذي تنشغل قوات المسلمين الرئيسية في اليرموك، واعتقد هرقل أنه إذا حقق هذه الغاية فإنه يصبح قادرًا على الزحف إلى إيلة العقبة ليهدد منها طريق مواصلات المسلمين مع مكة والمدينة مرغمًا بذلك قواتهم على التراجع عن اليرموك)[١]، ومن أجل هذا لم يتحرك عمرو للمواجهة الشاملة مع الجيش الروماني إلا بعد أن وصل مدد المسلمين بفيالقهم الثلاثة، وكانت هذه المواجهة نفسها خطة للإيقاع بجيش العدو رسمها عمرو وخالد معًا بعد وصول خالد مع القوات الإسلامية كافة.

(وحسب الخطة المرسومة وبموجب تعليمات خالد اشتبك عمرو بن العاص مع جيش سرجيوس - والملقب عند بعض المؤرخين بـ (التذارق) - اشتبك مع جيشه متظاهرًا بأنه وحيد في الميدان؛ ففرح التذارق وظن أنه حصل على بغيته: وهي انفراده بفيلق عمرو البالغ سبعة آلاف فقط؛ فلم يكترث كثيرًا بالأمر؛ لأن لديه مائة ألف مقاتل، وماذا عسى أن تفعل معها قوة سبعة آلاف مقاتل؟!

وبينما القتال ناشب بين فيلق عمرو وبعض وحدات سرجيوس ظهر خالد فجأة بقواته الرئيسية ودارت رحى معركة من أعنف المعارك في الشام انتهت بتدمير الجيش الروماني الأول تدميرًا كاملًا؛ حيث لم ينج منه إلا الشريد، وقد قتل في المعركة عدد كبير من قادة الرومان وحكام المقاطعات بفلسطين على رأسهم القائد العام لجيش الروم في المعركة. قتله خالد بيده)[٢].

(وقد أراد تذارق نصب كمين لخالد بن الوليد؛ فطلب إليه التقدم للتفاوض معه في موقع حدده، واستطاع خالد بن الوليد الحصول على المعلومات عن مكان الكمين وقوته؛ فأرسل في الليل عشرة من أشجع قادته، وتمكنوا من قتل أفراد قوة الكمين العشرة واحتلال مواضعهم، وتقدم تذارق في اليوم التالي إلى موضع الكمين وحده وهو يعتقد أنه محاط بجنده، وتقدم خالد وبعد حوار قصير أمسك تذارق بخالد وطلب إلى قوة الكمين الخروج لأخذه، وانطلقت قوة الكمين؛ فقتلت تذارق، وحملت رأسه، وألقته في مقدمة صفوف الخصم، وبدأت على الفور معركة كانت فيها الروح المعنوية لدى الروم متدهورة بقدر ما كانت إرادة القتال والروح المعنوية للمسلمين عالية، وأمكن تمزيق

---

(١) الفتوحات العربية الكبرى لجلوب؟

(٢) حروب المسلمين في الشام لباشميل (ص ١٢٣- ١٢٥).

جيش الروم وهربت فلوله من المعركة؛ فتلقتها قوات الدعم التي كانت تتقدم من الجزيرة العربية، ولم ينج من جيش الروم سوى أعداد قليلة)[١].

ترى هل كان يدور بخلد عمرو وخالد وهما يتسامران تحت ضوء القمر الساطع في طريقهما إلى المدينة ليعلنا إسلامهما بعد حرب عشرين عامًا لمحمد رسول اللَّه ﷺ، هل كان يدور بخلدهما أنهما بعد ست سنوات سيحطمان في الشام وفي فلسطين جيشًا للروم قوامه مائة ألف مقاتل في سبيل إعلاء كلمة التوحيد في تلك الأرض، أم كانت جل آمالهما أن يمضيا بقية عمرهما قبل الموت بين يدي قائدهما الحبيب المصطفى - عليه الصلاة والسلام - ؟!! وهل كان يدور بخلدهما أنهم سيمسكان بمقود تاريخ الأرض ويغيران حركته من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، وأن هرقل ملك بني الأصفر سوف ينهار من عبقريتهما وكفاءتهما الحربية عندما دمر جيشه؟!!

(وبتحطيم خالد الجيش الروماني الأول في أجنادين طاش سهم الملك هرقل وبدا على ما يشبه اليقين بأن هزيمة جيشه في اليرموك أمر لا مفرَّ منه)[٢]، وهذا القول قاله الجنرال جلوب تعقيبًا على أجنادين: « وهكذا طاش سهم هرقل في معركة أجنادين، وتحطمت خطته السوقية لشن الهجوم المعاكس، وعادت قوات المسلمين الرئيسية إلى اليرموك؛ حيث كانت حصون الروم الدفاعية تقف سدًّا أمام الزحف العربي على دمشق »[٣].

وكانت معركة أجنادين في (يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاثة عشر، ويقال: لليلتين خلتا من جمادى الآخرة)[٤].

من أجنادين إلى اليرموك:

ونمضي إلى ابن كثير في كتابه عن اليرموك لتقديم صورة مقتضبة ما أمكن عن المعركة يقول فيها:

(وعند ابن إسحاق والمديني أيضًا أن وقعة أجنادين قبل وقعة اليرموك، وكانت وقعة أجنادين لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وقتل بها بشر كثير من الصحابة، وهُزِم الروم، وقُتِل أميرهم القيقلان، وكان قد بعث رجلًا من نصارى العرب يجس له أمر الصحابة فلما رجع إليه قال له: وجدت قومًا رهبانًا بالليل، فرسانًا بالنهار،

---

(١) فن الحرب الإسلامي لبسام العسلي (ص ١٠٨). (٢) حروب الإسلام في الشام (ص ١٢٧).
(٣) الفتوحات العربية الكبرى لجلوب؟ (٤) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٢١).

والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه، أو زنى لرجموه. فقال له القيقلان: والله لئن كنت صادقًا لبطن الأرض خير من ظهرها. وقال سيف بن عمر في سياقه: ووجد خالد الجيوش متفرقة؛ فجيش أبي عبيدة وعمرو بن العاص ناحية، وجيش يزيد وشرحبيل ناحية؛ فقام خالد في الناس خطيبًا، فأمرهم بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف؛ فاجتمع الناس وتصافوا مع عدوهم في أول جمادى الآخرة، وقام خالد بن الوليد فحمد الله وأثنى عليه وقال:

إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، وإن هذا يوم له ما بعده، ولو رددناهم إلى خندقهم فلا نزال نردهم وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبدًا، فتعالوا فلنتعاور[1] الإمارة؛ فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدًا، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم، ودعوني إليكم اليوم. فأمَّروه عليهم وهم يظنون أن الأمر يطول جدًّا، فخرجت الروم في تعبئة لم يرَ مثلها قبلها قط، وخرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك؛ فخرج في ستة وثلاثين كردوسًا إلى الأربعين، كل كردوس ألف رجل عليهم أمير، وجعل أبا عبيدة في القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وأمَّر على كل كردوس أميرًا، وعلى الطلائع قباب بن أشيم، وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود، والقاضي يومئذ أبوالدرداء، وقاصُّهم الذي يعظهم ويحثهم على القتال أبو سفيان بن حرب، وقارئهم الذي يدور على الناس فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد المقداد بن الأسود. وذكر ابن إسحاق بإسناده أن أمراء الأرباع يومئذ كانوا أربعة: أبو عبيدة، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد ابن أبي سفيان، وخرج الأوس على راياتهم وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيالة خالد ابن الوليد وهو المشير في الحرب الذي يصدر الناس كلهم عن رأيه. ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها وقد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء، يصيحون بأصوات مرتفعة، ورهبانهم يتلون الإنجيل ويحثون على القتال. وكان خالد في الخيل بين يدي الجيش فساق بفرسه إلى أبي عبيدة فقال له: إني مشير بأمر. فقال: قل ما أمرك الله أسمعْ لك وأطيع. فقال خالد: إن هؤلاء القوم لا بد لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها، وإني أخشى على الميمنة والميسرة وقد رأيت أن أفرق الخيل فرقتين

---

(١) فلنتعاور: من الاستعارة؛ أي: تبادلها كل يوم أمير.

وأجعلها وراء الميمنة والميسرة، حتى إذا صدموهم كانوا لهم ردءًا فنأتيهم من ورائهم فقال له: نعم ما رأيت؛ فكان خالد في أحد الخيلين من وراء الميمنة، وجعل قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله؛ لكي إذا رآه المنهزم استحيى منه ورجع إلى القتال، فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد أحد العشرة - رضي اللَّه عنهم - وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش ومعهن عدد من السيوف وغيرها فقال لهن: من رأيتموه موليًا فاقتلُنَّه. ثم رجع إلى موقفه ﷺ.

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد اللَّه انصروا اللَّه ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا؛ فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال، وشرِّعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر اللَّه في أنفسكم حتى آمركم - إن شاء اللَّه تعالى.

قالوا: وخرج معاذ بن جبل على الناس فجعل يذكرهم ويقول: يا أهل القرآن ومتحفظي الكتاب وأنصار الهدى والحق، إن رحمة اللَّه لا تنال وجنته لا تدخل بالأماني، ولا يؤتي اللَّه المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق والمصدق، ألم تسمعوا لقول اللَّه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥] الآية.

فاستحيوا - رحمكم اللَّه- من ربكم أن يراكم فُرَّارًا من عدوكم، وأنتم في قبضته، وليس لكم ملتحدٌ من دونه ولا عزٌّ بغيره.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا وثبة الأسد؛ فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب، ويجزي بالإحسان إحسانًا - لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفرًا كَفرًا وقصرًا قصرًا؛ فلا يهولنكم جمعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل...

وخرج ماهان فأمر صاحب الميسرة وهو الدبريجان - وكان عدو اللَّه متنسكًا فيهم - فحمل على الميمنة وفيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان فثبتوا حتى صدقوا أعداء اللَّه، ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال؛ فزال المسلمون عن الميمنة إلى ناحية القلب، وانكشف طائفة من الناس إلى العسكر، وثبت صدر من المسلمين عظيم يقاتلون تحت

راياتهم، وانكشفت زبيد ثم تنادوا فتراجعوا وحملوا حتى نهنهوا من أمامهم من الروم وشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس، واستقبل النساء من انهزم من سرعان الناس يضربنهم بالخشب والحجارة وجعلت خولة بنت ثعلبة تقول:

يا هاربًا عن نسوة تقيات

فعن قليل ما ترى سبيات

و لا حظيات و لا رضيات

وثبت كل قوم على رايتهم حتى صارت الروم تدور كأنها الرحا؛ فلم تر يوم اليرموك إلا مخًّا ساقطًا ومعصمًا نادرًا وكفًّا طائرة من ذلك الموطن.

ثم حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التي حملت على ميمنة المسلمين فأزالوهم إلى القلب؛ فقتل من الروم في حملته هذه ستة آلاف من الروم، ثم قال: والذي نفسي بيده لم يبق عندهم من الصبر والجلد غير ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم اللّٰه أكتافهم... ثم نهد خالد بالقلب حتى صار في وسط خيول الروم؛ فعند ذلك هربت خيالتهم وأسندت بهم في تلك الصحراء وأفرج المسلمون بخيولهم حتى ذهبوا.

وأخر الناس صلاتي العشاءين حتى استقر الفتح، وعمد خالد إلى رحل الروم وهم الرجالة ففصلوهم عن آخرهم حتى صاروا كأنهم حائط قد هدم، ثم تبعوهم من فرَّ من الخيالة واقتحم خالد عليهم خندقهم، وجاء الروم في ظلام الليل إلى الواقوصة؛ فجعل الذين تسلسلوا وقيدوا بعضهم ببعض إذا سقط واحد منهم سقط الذين معه. قال ابن جرير وغيره: فسقط فيها وقتل عندها مائة ألف وعشرون ألفًا سوى من قتل في المعركة.

وانتهت الروم منهزمة إلى هرقل وهو بحمص والمسلمون في آثارهم يقتلون، ويأسرون، ويغنمون؛ فلما وصل الخبر إلى هرقل ارتحل من حمص وجعلها بينه وبين المسلمين، وترس به، وقال هرقل: أما الشام فلا شام، وويل للروم من المولود المشؤوم)[١].

هذا هو الوصف العام للمعركة والذي لا يمكن أن نمر على اليرموك دون أن نعرضه؛ لكننا نبحث عن عمرو بن العاص ﷺ أحد الأربعة الكبار فلا نجده إلا لمامًا، لكننا نلقاه في التحليل العظيم الذي قدمه باشميل لمعركة اليرموك؛ حيث نعرض ما يتسع له البحث

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، مقتطفات من (٧/ ١٤)، (ح ٧ م ٤).

في عرض دوره في هذه المعركة الفاصلة التي غيرت مجرى التاريخ وسلمت قيادته من أمة إلى أمة:

أ - القيادة العليا للجيش:

أما القوة الرئيسية التي جعلها القائد خالد ثلاث فرق، والفرقة - كما قلنا - تسمى عند الرومان في ذلك العصر « لجيون » فقد أسند قيادتها إلى ثلاثة من خيرة وأمهر القادة وهم:

١ - أبو عبيدة بن الجراح الذي سماه النبي ﷺ أمين الأمة: أسند إليه قيادة القلب.

٢ - يزيد بن أبي سفيان، الأموي: أسند إليه قيادة المسيرة.

٣ - عمرو بن العاص السهمي: أسند إليه قيادة الميمنة يسانده شرحبيل بن حسنة.

هؤلاء القادة الثلاثة الذين يمكن أن يطلق على كل واحد منهم اسم رتبة (فريق)[1] هم الذين تولوا قيادة الجيش الرئيسي، وأداروا دفة المعركة الحاسمة في اليرموك تحت إشراف خالد بن الوليد الذي يمكن أن يطلق عليه اسم مشير؛ لأنه القائد العام للجيش.

ب - أعباء عمرو القيادية:

(ثم وزع مهمات القتال على جنده وقادته كما يلي:

- أبو عبيدة (القلب) ومهمته منازلة العدو.

- عمرو بن العاص (الميمنة) ومهمته منازلة ميسرة العدو.

قلت: وبالإضافة إلى تكليف القائد خالد عمرًا قيادة الميمنة لمواجهة الميسرة للعدو؛ فقد كلفه أيضًا بالعمل على ضرب العدو في مجنبته ومن خلفه ثم الوصول إلى قلب جيشه في حركة التفاف مغطاة سريعة ومباغتة، كما كلفه أول الأمر بأن يسد الثغرة التي تركها الروم مفتوحة بين ميسرتهم وميمنة المسلمين؛ لتكون ممرًا لإمداداتهم الآتية إليهم من العاصمة دمشق، ولتكون لهم أيضًا ممرًا للانسحاب إذا ما رأوا سير القتال لغير صالحهم وأنهم سيخسرون المعركة، وكان خالد خبيرًا بالرجال؛ فخالد يعرف أن عمرًا من طراز خالد نفسه من حيث الخبرة العسكرية وبعد الدراية الحربية والقدرة الخارقة على اتخاذ القرارات وسرعة تنفيذها لتصيب مرماها، إلا أن خالدًا - ولا شك - يتفوق على عمرو

---

(١) وحسب المصطلحات الحديثة في الجيوش العربية يصلح أن يطلق عليه اسم (فريق ركن)؛ لأنه على رأس فرقة كبرى في الجيش؛ إذ الجيش ثلاث فرق آنذاك والفرقة مجموعة ألوية.

في كثير من المزايا وهي التي جعلته في مقدمة عظماء القادة في التاريخ؛ لذلك لم يكن خالد مخطئًا حين اختار عَمْرًا لهذه المهمة الخطيرة التي أشرنا إليها؛ فقد قام بها عند احتدام المعركة خير قيام، فقد نجح في سد الثغرة التي تركها الحظ لتموينهم أثناء القتال من دمشق، فأكمل بذلك محاصرتهم وهو الذي قال: (قلما يأتي محصور بخير) بسد الثغرة فانقطعت عنهم إمداداتهم من دمشق العاصمة القريبة من الميدان.

ثم إن القائد عمرًا - ولتغير الظروف وبأمر من القائد العام خالد - عاد وفتح نفس الثغرة المشار إليها؛ وذلك عندما احتدمت المعركة ورجحت كفة المسلمين في القتال فتحير فرسان الروم - وعددهم ثمانون ألفًا - وصاروا يجولون بخيلهم وهم في حالة فوضى يبحثون عن ثغرة يخرجون عن طريقها من الميدان؛ فأدرك خالد ذلك، وأصدر أمره إلى عمرو بأن يسحب المفارز التي تسد الثغرة التي تؤدي إلى دمشق ليهرب عن طريقها فرسان الروم؛ ففعل عمرو، وهنا سار ثمانون ألف فارس روماني وانسحبوا عبر الثغرة دون أن تتعرض لهم قوات الميمنة التي يقودها عمرو؛ فبقيت القوات الرومانية الرئيسية الضاربة (وهم المشاة) دون حماية، وبانسحاب الفرسان من الميدان تحقق لخالد ما يهدف إليه من انسحابهم سالمين؛ إذ سهَّل على جَيْشه أن يبيد القوة الرومانية الضاربة (المشاة) حيث أبيدوا عن آخرهم في هجوم صاعق شنه عليهم المسلمون ولم ينجِ منهم إلا الشريد)[1] كما سيأتي تفصيله في موطنه من هذا البحث - إن شاء اللَّه.

جـ - عمرو يعاني هول الحرب:

(قام القائد ماهان بهجوم كاسح عنيف؛ فتخلخلت صفوف المسلمين، وكان الهجوم الأول من ماهان على ميمنة المسلمين التي تضعضعت بعد مقاومة عنيدة شرسة، ولكن التفوق العددي الهائل في ميسرة الروم التي يقودها ماهان أجبرت المسلمين على التراجع حتى خالط الروم المسلمين ودخلوا معسكرهم، وكانت ميمنة المسلمين التي تلقت الهجوم الأول فيها قبائل شتى من الأزد، وحضرموت، ومذحج، وحمير، وخولان، وزبيد وهؤلاء معروفون في التاريخ القديم والحديث بالشجاعة النادرة؛ فقاوموا الهجوم الروماني مقاومة شرسة عنيدة، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات الدائم للكثرة الرومانية الهائلة الغامرة؛ فأخذ بعضهم ينفذ صبره فتركوا مواقعهم منهزمين، وكان قائد الميمنة

(١) حروب المسلمين في الشام (ص ١٧٣، ١٧٤).

عمرو بن العاص ومعه أصحاب الرايات من أهل النجدة والصبر، فصبر عمرو وصبر أصحاب الرايات مكانهم لم يتزحزحوا، وكما ثبت عمرو وأصحاب الرايات في الميمنة ثبت قائد الميسرة يزيد بن أبي سفيان وأصحاب الرايات لم يتزحزحوا وجالدوا الرومان بثبات منقطع النظير.. غير أن الذي خفف من وقع الكارثة أن قلب الجيش الإسلامي - رغم انكشافه بانهزام الميمنة والميسرة من الجانبين - ظل بقيادة خالد وأبي عبيدة صامدًا لم يصل الخلل إلى صفوفه رغم الهجوم الشرس الضاري الذي شنته قوات الرومان.

وتمكن عمرو بن العاص من تنظيم قوات الميمنة وهي التي (بعد القلب) تعرضت لأشد الهجمات وتمزقت؛ لأنها كانت تقوم بسد الثغرة التي بين جيش الروم وبين طريق إمداداتهم من دمشق، وتمكن عمرو من إعادة تنظيم قواه، وعاد المنهزمون إلى مواقعهم وأخذوا في شن هجوم معاكس على الرومان فاستعادوا مواقعهم في الميمنة التي فقدوا، ثم بدؤوا في مطاردة الروم، وكذلك فعل يزيد بن أبي سفيان قائد الميسرة؛ إذ عاد إليه المنهزمون فأعاد تنظيم قوات الميسرة وشن بهم على الرومان هجومًا عنيفًا فاشتد ساعد القلب، وأدرك الروم الذين يحاولون تحطيم قلب جيش الإسلام واحتلال مقر القائد العام أدركوا تغيير الوضع، والهجوم العنيف المعاكس الذي قامت به قوات ميمنة وميسرة المسلمين فسادهم الاضطراب وتوقف هجومهم؛ بل أخذوا بالتراجع بحثًا عن السلامة، واغتنم القائد خالد الذي كان في أشد الصراع مع الروم - الفرصة عندما رأى الميمنة والميسرة تعودان إلى حالتهما من الثبات؛ فأمر بالهجوم العام على الرومان فاستجاب المسلمون، وقام الجيش الإسلامي كله بهجوم شامل معاكس على الروم. وبالتنسيق مع الميمنة والميسرة نجح هذا الهجوم المعاكس؛ فقد تحول إلى مطاردة للرومان.

وهكذا تحول الوضع وتغير لصالح المعسكر الإسلامي، وبدأت علائم النصر الحاسم تلمع في الأفق، ولولا ثبات أصحاب الرايات وقادة الفرق والكتائب وأهل النجدة بصفة خاصة وحدة الفدائيين التي قادها عكرمة وأبيدت عن آخرها حين تصدِّيها لهجوم الروم على قلب الجيش الإسلامي ومقر القيادة العامة - لكانت هزيمة الجيش الإسلامي كاملة منكرة...

وأخذ جيش الإسلام يضغط بشراسة على الجيش الروماني الذي قد نال منه التعب إلى حد الإعياء لمباشرته الهجوم العنيف على المسلمين دون جدوى طوال النهار،

ولم يستطع الجيش الروماني المرهق الصمود في وجه هجوم المسلمين المعاكس فاضطربت قواته وانفرط عقد نظامها.

وكان أقوى ما في الجيش الروماني سلاح الفرسان وهو ثمانون ألفًا، وهذا السلاح أيضًا ناله الفتور وكان خالد يخشاه، وكان عمرو بن العاص عندما أعاد تنظيم الميمنة التي تمزقت طوابيرها رجع فقفل الثغرة التي تركها الرومان مفتوحة نحو دمشق لتكون خطًا للتموين ومنفذًا للانسحاب نحو دمشق إذا ساءت الحالة بالنسبة لهم، وهنا وعندما لاحظ خالد أن فرسان الروم يبحثون عن مخرج يهربون منه بعد أن يئسوا من النصر أصدر أمره السريع إلى قائد الميمنة عمرو بن العاص بأن لا يقاتل فرسان الروم، وأن يأمر وحداته بفتح الثغرة بين الميمنة والميسرة ليذهبوا عبرها سليمين حيث شاؤوا .. وسارع عمرو إلى تنفيذ أمر القائد خالد؛ ففتح الثغرة نحو دمشق فتدفق عبرها حوالي ثمانين ألف فارس من الروم تاركين الميدان وتاركين القوات الرومانية الضاربة « المشاة » دونما حماية، وتحول الوضع لصالح المسلمين مائة في المائة؛ لأنهم انفردوا بالمشاة الرومان الذين تركوا بدون حماية بعد انسحاب فرسانهم من الميدان وزادت حالة الروم سوءًا أن كان لدى المسلمين في الميدان عشرة آلاف فارس ليس في الميدان فارس روماني واحد يواجههم، وزادت حالة الروم سوءًا أكثر فأكثر أن ثمانين ألفًا من مشاتهم كانوا مترابطين في السلاسل؛ مما سهل على جند الإسلام إبادتهم عن بكرة أبيهم، إما ضربًا بالسيف أو دفعًا إلى الواقوصة - وهي هاوية سحيقة بين جبلين في اليرموك.

لقد سيطرت القوات الإسلامية بعد فرار فرسان الروم على ميدان المعركة وصاروا يضعون السيف حيث شاؤوا، وصار المقرنون في السلاسل من الرومان يهوي بعضهم ببعض في الواقوصة حتى أبيد الجميع عن بكرة أبيهم؛ فكانت هزيمة مدمرة لم يشهد الرومان مثلها في تاريخهم، ولم تنج إلا قلة قليلة من المشاة تمكنوا من الهرب، ويقدر الأستاذ بسام العسلي في كتابه (فن الحرب) قتلى الرومان بمائة وعشرين ألفًا وقتلى المسلمين بثلاثة آلاف، وقد اعترفت المصادر الأجنبية[١] بالانتصار الساحق الذي حققه المسلمون على الرومان في اليرموك كما اعترفت بإبادة الجيش البيزنطي ومحوه من الوجود.

---

(١) راجع كتاب حروب الإسلام في الشام الصفحات (ص ٢٠٣ - ٢٢٨) حيث ساق العديد من أقوال القادة الغربيين عن ذلك.

وفي الواقع أن عمرو بن العاص كان - باستثناء القلب - أكثر الجبهات تعرضًا لشراسة الهجوم الروماني؛ لأنه يواجه ميسرتهم التي تحمي خطوط إمداداتهم من دمشق، ولأنه تمكن من قطع هذه الخطوط؛ لهذا صار عرضة لثقل الهجوم الروماني فعانى الأهوال منهم بدليل أن الروم هزموا صفوف ميمنته مرتين: ففي المرة الأولى اخترقوها فصابر وجاهد حتى أعاد تنظيمها وسد ثغراتها، فكرُّوا عليه من جديد واخترقوا ميمنته؛ فاشتد عليه الأمر، ولكن موقف عمرو بن معد يكرب وأبي هريرة وقبيلتيهما وعملية الفدائيين الأربعمائة بقيادة عكرمة - خففا عليه الوطأة؛ فتمكن للمرة الثالثة من تنظيم صفوف ميمنته ثم شارك بفاعلية في الهجوم المعاكس الذي انتهى بهزيمتهم الساحقة)[١].

وكان أهم ما غامر به أن أخذ الراية من صاحبها الذي بدأ يتراجع، وتقدم زاحفًا أمام المسلمين؛ فاستحيى الأبطال من ذلك ومضوا خلفه رغم جبال الروم التي أمامهم، كما يقول موسى بن عمران بن نفاح: (لما رأى عمرو بن العاص يوم اليرموك صاحب الراية ينكشف بها أخذها منه ثم جعل يتقدم وهو يصيح: إلي إلي يا معاشر المسلمين. فجعل يطعن بها قدمًا وهو يقول: اصنعوا كما أصنع. وهو يرفعها وكأن عليها المطر من العلق والدم)[٢].

من اليرموك إلى دمشق بأمر عُمَر:

وأما سيف - فيما ذكرالسري عن شعيب عنه عن أبي عثمان عن خالد وعبادة - فإنه ذكر في خبر أن البريد قدم على المسلمين من المدينة بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة وهم باليرموك وقد التحم القتال بينهم وبين الروم، وقصّ من خبر اليرموك وخبر دمشق غير الذي اقتصه ابن إسحاق وأنا ذاكر بعض الذي اقتص من ذلك[٣].

وندع لشيخ المؤرخين الطبري يحدثنا عن فتح دمشق بروواته السري عن شعيب عن سيف؛ حيث كان دور عمرو ﷺ دور المشاركة في هذا الفتح. ونشهد من خلال حديث الطبري تحديد مهمة عمرو ﷺ في فتح فلسطين من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

(كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان عن خالد وعبادة قالا: لما هزم اللَّه جند اليرموك وتهافت أهل الواقوصة وفرغ من المقاسم والأنفاق وبعث بالأخماس وسُرِّحَت الوفود - استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري كي

(١) حروب الإسلام في الشام لمحمد أحمد باشميل مقتطفات من (ص ٢٠٢ - ٢٢٢).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥١١). (٣) تاريخ الطبري (٣/ ٤٣٥).

لا يغتال بردة ولا تقطع الروم على مواده، وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصفر وهو يريد اتباع الفالة[١]، ولا يدري يجتمعون أو يفترقون؛ فأتاه الخبر بأنهم أرادوا إلى فحل وأتاه الخبر بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص، فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل من بلاد الأردن؟ فكتب في ذلك إلى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفر، فلما جاء عمرَ فتحُ اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد؛ فإنه ضم خالدًا إلى أبي عبيدة، وأمر عَمْرًا بمعونة الناس حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها، ولما جاء عمر الكتاب من أبي عبيدة بالذي ينبغي أن يبدأ به كتب إليه: أما بعد فابدؤوا بدمشق فانهدوا لها؛ فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص؛ فإن فتحها اللَّه قبل دمشق فذاك الذي تحب، وإن تأخر فتحها حتى فتح اللَّه دمشق فلينزل بدمشق من يقيم بها ودعوهم. وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل؛ فإن فتح اللَّه عليك فانصرف أنت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعَمْرًا وأخلهما بالأردن وفلسطين وأمير كل بلد، وجند على الناس حتى يخرجوا من بلده.

فسرح أبو عبيدة إلى فحل عشرة قواد... وعمارة بن مخش قائد الناس، ومع كل رجل خمسة قواد، وكانت الرؤساء من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم[٢]؛ فساروا من الصفر حتى نزلوا قريبًا من فحل، فلما رأت الروم أن الجنود تريدهم بثقوا الماء حول فحل فأردغت[٣] الأرض ثم وحلت واغتمَّ المسلمون من ذلك؛ فحبسوا عن المسلمين بها ثمانين ألف فارس، وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق.

وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءًا، وبعث علقمة بن حكيم ومسروقًا فكان بين دمشق وفلسطين، والأمير يزيد ففصل وفصل بأبي عبيدة من المرج، وقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبته عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض وعلى الرُّجَّل[٤] شرحبيل؛ فقدموا على دمشق وعليهم نسطاس بن نسورس فحصروا أهل دمشق، ونزلوا حواليها؛ فكان أبو عبيدة على ناحية، وعمرو على ناحية، ويزيد على ناحية، وهرقل يومئذ

---

(١) الفالة: المنهزمون.

(٢) يذكر ابن عساكر في تاريخه أن أبا عبيدة بعث عمرو بن العاص بعد فراغه من اليرموك إلى قنسرين فصالح أهل حلب وكتب لهم كتابًا.

(٣) أردغت: توحلت كثيرًا.

(٤) الرُّجَّل: المشاة.

بحمص، ومدينة حمص بينه وبينه؛ فحاصروا أهل دمشق نحوًا من سبعين ليلة حصارًا شديدًا بالزُّحوف والترامي والمجانيق، وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث، وهرقل منهم قريب وقد استمدوه، وذو الكلاع بين المسلمين وبين حمص على رأس ليلة من دمشق، كأنه يريد حمص، وجاءت خيول هرقل معينة لأهل دمشق فأشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع، وشغلتها عن الناس؛ فأرزوا ونزلوا بإزائه وأهل دمشق على حالهم، فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل إلى دمشق فشلوا ووهنوا وأبلسوا[1]، وازداد المسلمون طمعًا فيهم، وقد كانوا يرون (أي: الروم) أنها كالغارات قبل ذلك إذا هجم البرد قفل الناس فسقط النجم والقوم مقيمون؛ فعند ذلك انقطع رجاؤهم، وندموا على دخول دمشق، وولد للبطريق[2] الذي دخل على أهل دمشق، مولود فصنع عليه فأكل القوم وشربوا وغفلوا عن موقفهم وكان لا يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد؛ فإنه كان لا ينام ولا ينيم، فلما أمسى من ذلك اليوم نهد[3] ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثالهم من أصحابه في أول يومه وقال: إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا[4] وانهدوا للباب.

فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون؛ رموا بالحبال الشرف، وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم، فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع ومذعور ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها والأوهاق[5] بالشرف، وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماءً وأشده مدخلًا، وتوافوا لذلك؛ فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا ما دنا من الباب حتى استووا على السور، حدر[6] عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير؛ فكبر الذين على رأس السور فنهد المسلمون إلى الباب، ومال إلى الحبال بشر كثير، وثبتوا فيها، وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم[7]، وانحدر على الباب فقتل البوابين، وثار أهل المدينة وفزع سائر الناس فاخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم، وقطع خالد ابن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي من باب خالد مقاتل إلا أنيم، ولما شد خالد على

(١) أبلسوا: تحيروا وصعقوا وأسقط في أيديهم. (٢) البطريق: القائد من قواد الروم.
(٣) نهد: نهض ومضى على كل حال. (٤) فارقوا إلينا: فاصعدوا إلينا.
(٥) الأوهاق: جمع وهق بالتحريك - الحبل في طرفيه أنشوطة يطوح في عنق الدابة أو الإنسان حتي يؤخذ.
(٦) حدر: نزل. (٧) أنامهم: قتلهم.

من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة؛ أرز[١] من أفلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة[٢] فأبوا وأبعدوا فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح، فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا إليهم الأبواب؛ فدخل أهل كل باب صلحًا مما يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضًا وانتهابًا وهذا صلحًا وتسكينًا؛ فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح، وبعثوا بالبشارة إلى عمر، وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر بأن اصرف جند العراق إلى العراق، وأمرهم بالحث إلى سعد بن مالك... وخرج علقمة ومسروق إلى إيلياء فنزلا على طريقها، وبقي بدمشق مع يزيد بن أبي سفيان من قواد أهل اليمن عدد، وبعث يزيد دحية بن خليفة الكلبي في خيل بعدما فتح دمشق إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى البثنية وحوران؛ فصالحوهما على صلح دمشق ووليا القيام على فتح ما بعثا إليه)[٣].

وقال محمد بن إسحاق: كان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب.

من دمشق إلى فحل وبيسان:

لقد كانت القيادة في الشام ليزيد بن أبي سفيان، والقيادة في الأردن لشرحبيل بن حسنة، والقيادة في فلسطين لعمرو بن العاص، أما أبو عبيدة فقد انتهت له القيادة العامة، وجرت بفحل في الأردن معركة من أعنف وأشرس المعارك بين المسلمين بقيادة شرحبيل ومعاونيه: عمرو بن العاص، وأبي عبيدة بن الجراح (فأسلمتهم - أي: الروم - هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل، فركبوه ولحق أوائل المسلمين بهم، وقد وحلوا، فركبوهم وما يمنعون يد لامس، فوخزوهم بالرماح، فكانت الهزيمة في فحل، وكان مقتلهم في الرداع، وأصيب الثمانون ألفًا من الروم لم يفلت منهم إلا الشريد، وانصرف أبو عبيدة بخالد من فحل إلى حمص وصرفوا بشير بن كعب معهم ومضوا بذي الكلاع ومن معه، وخلفوا شرحبيل ومن معه، ولما فرغ شرحبيل من وقعة فحل نهد في الناس ومعه عمرو بن العاص إلى أهل بيسان وأبو الأعور والقواد معه على طبرية، وقد بلغ أفناء أهل الأردن ما لقيت دمشق وما لقي سقلار والروم بفحل وفي الردعة ومسير شرحبيل إليهم ومعه عمرو ابن العاص والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو يريد بيسان، وتحصنوا بكل مكان؛ فحصروهم أيامًا، ثم إنهم خرجوا عليهم فقاتلوهم فأناموا من خرج إليهم

(١) أرز: أوى. (٢) المشاطرة: المصالحة على النصف.

(٣) تاريخ الطبري مقتطفات من (٣/ ٤٣٦ - ٤٤٢).

وصالحوا بقية أهلها، فقيل ذلك على صلح دمشق، وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوهم وأهل بيسان على صلح دمشق)[١].

* * *
* *
*

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري، مقتطفات (٣/ ٤٤٤، ٤٤٥).

عمرو فاتح فلسطين

لقد كانت المهمة الأولى التي كُلّف بها عمرو بن العاص من الصديق هي فتح فلسطين.

(لما قفل أبو بكر من الحج سنة اثنتي عشرة جهز الجيوش إلى الشام. فبعث عمرو ابن العاص قبل فلسطين فأخذ طريق المعرقة على أيلة، وبعث أبا عبيدة ويزيد ابن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام)[١].

وشهدنا عمرو بن العاص في فلسطين حيث بقي قرابة عام كامل يتجنب الاصطدام مع جيش الروم الذي كان قوامه مائة ألف، بينما كان عدد الجيش الإسلامي سبعة آلاف، إلى أن توجهت القوات الإسلامية إلى أجنادين وكانت المعركة الفاصلة الأولى في فلسطين وقتل قرابة ثمانين ألفًا من جيش الروم، ثم توجهت القوات مجتمعة فخاضت معركة اليرموك وفتحت دمشق.

ثم عاد التكليف بالمهمة نفسها من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

(وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل، فإن فتح اللَّه عليكم، فانصرف أنت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعمرًا وأخلهما بالأردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته)[٢].

وعاد القائدان عمرو وشرحبيل حيث شارك عمرو شرحبيل وتحت إمرته في فتح الأردن، وبقيت المهمة الأخيرة العسيرة مهمة فتح جنوب الشام والتي أوكلت إلى عمرو ابن العاص.

ولنتابع معه رحلته في ذلك الفتح المبين.

وقبل أن نتابع هذه الرحلة نلاحظ أن عمرو قد فتح العديد من البلدان قبل وصوله إلى

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري (٣/ ٣٨٧).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٣٨).

أجنادين أيام الصديق كما يشير البلاذري بسنده عن مشايخه بقوله:

« قالوا: كانت أول وقعة واقعها المسلمون الروم في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ أرض فلسطين وعلى الناس عمرو بن العاص، ثم إن عمرو بن العاص فتح غزة في خلافة أبي بكر ﷺ »[١].

لكن تلك الفتوحات عادت فسيطر الرومان عليها ثانية حين شغل الجيش الإسلامي باليرموك وشمال الشام؛ فكانت عودة جديدة لهذه الأرض.

(ولكن الرومان تمكنوا من السيطرة من جديد على أجنادين في حالة انشغال المسلمين بالقتال في المحور الشمالي بالشام، وأسند الرومان قيادة حاميات أجنادين إلى أشجع وأدهى قائد من قوادهم وهو الأرطبون الذي لم يستطع قهره والتغلب عليه إلا داهية العرب الأمير عمرو بن العاص الذي أطلق عليه الخليفة عمر بن الخطاب لقب (أرطبون العرب)؛ إعجابًا بذكائه ودهائه وقدرته على تدبير المكائد في الحروب. ولا أحد أعلم بالرجال من عمر بن الخطاب؛ ولذلك أسند إلى عمرو بن العاص مهمة معالجة الاستيلاء على المحور الجنوبي الغربي الذي أصعب وأخطر ما فيه قوة الأرطبون الرابض في موقع أجنادين التي كتب لها أن تشهد الصدامات الدامية المريعة مرات ومرات بين المسلمين والروم؛ حيث قتل فيها وفي معركتين ضاريتين ما يقارب المائتي ألف من الجنود الرومان وحلفائهم العرب المتنصرة في المرة الأولى على يد خالد بن الوليد وفي المرة الثانية على يد عمرو بن العاص؛ حيث - بالحيلة والدهاء الحربي - تمكن من التغلب على ثعلب بيزنطا المسمى الأرطبون، وانتزع منه أجنادين بعد معارك ضارية ومبارزة بالحيل والمكائد فاز فيها عمرو بن العاص)[٢].

قوات الروم الرئيسية:

وذكر سيف عن أبي عثمان وحارثة عن خالد وعبادة قالا:

« انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص من فحل ونزل عمرو وشرحبيل على بيسان فافتتحاها وصالحته الأردن، واجتمع عسكر الروم بأجنادين وبيسان وغزة وكتبوا إلى عمر بتفرقهم؛ فكتب إلى يزيد بأن يدفع ظهورهم بالرجال، وأن يسرح معاوية إلى قيسارية[٣]

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٤٤). (٢) حروب المسلمين بالشام لباشميل (ص ٦٠٥).

(٣) قيسارية: مدينة بين عكا ويافا على ساحل البحر.

وكتب إلى عمرو يأمره بصدم الأرطبون، وإلى علقمة بصدم الفيقار »[١].

لقد كانت مواقع الروم التي تجمعت فيها جيوشهم خمسة؛ هي: قيسارية، وغزة، وأجنادين، والرملة، وإيلياء. وحين راجع عمرو هذه الخريطة وجد أن انشغاله بجبهة من هذه الجبهات قد يؤدي إلى انقضاض جبهة أخرى عليه؛ فتجعله بين فكي الكماشة وتقضي عليه، وبطبيعته اليقظة الحذرة الواعية ومعرفته بإمكانيات جيشه رأى أنه لا يستطيع بهذه القوات أن يواجه هذه الجبهات الخمس؛ فقرر أن يبعث بكتابه إلى عمر يستشيره ويستمده، وعمرو يعلم أنه أمام قادة عظام من ساسة العالم ودهاته وعباقرته العسكريين فلا بد أن يعد لهذا الأمر أهبته.

(وصمد عمرو بن العاص إلى الأرطبون ومر بإزائه، وخرج معه شرحبيل بن حسنة على مقدمته، واستخلف على عمل الأردن أبا الأعور، وولى عمرو بن العاص مجنبته عبد اللّه بن عمرو[٢]، وجنادة بن تميم المالكي (مالك بن كنانة) فخرج حتى ينزل على الروم بأجنادين، والروم في خنادقهم وحصونهم وعليهم الأرطبون، وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورًا وأنكاها فعلًا، وقد كان وضع بالرملة جندًا عظيمًا وكتب عمرو إلى عمر بالخبر..)[٣].

إنه يعلم الآن أنه مسؤول عن فلسطين كلها، وليس بجواره خالد بن الوليد يضعان الخطط معًا، أو يتلقى منه الخطة لتنفيذ ما يخصه منها؛ فأي خلل سوف يتحمل نتائجه. والقائد البصير هو الذي يدرك الساحة كلها قبل أن يخطو أي خطوة، وهذا ما فعله عمرو ﷺ؛ لقد وجد أن القوات التي لديه يمكن أن تسد ثلاث جبهات فقط: جبهة إيلياء، وجبهة الرملة، جبهة أجنادين. ولا يزال أمامه جبهتا قيسارية وغزة، وليس لديه من القوات ما يكفي لسد هاتين الجبهتين، وتجربته في العام الماضي والذي قبله في فلسطين علمته صعوبة المواجهة بقوات قليلة وكيف بقي عامًا كاملًا يتجنب المواجهة مع قائد الروم في أجنادين، ويكتفي بالمناوشات الجانبية؛ لكن الزمن له قيمته عند القادة الكبار، فهو لن ينتظر عامًا آخر قبل المواجهة؛ ولهذا سرعان ما كتب إلى عمر ﷺ يعلمه بتفرق الروم وتعدد جبهاتهم وحاجته إلى قوات جديدة إذا قرر خوض المعركة الفاصلة

---

(١) حروب المسلمين بالشام لباشميل (ص ٤٧٥).

(٢) لأول مرة يبرز ابنه عبد اللّه أحد القادة الكبار في الفتوح.

(٣) حروب المسلمين بالشام لباشميل (ص ٦٠٥).

مع دهاة الأرض: تذارق والأرطبون (وكتب عمرو إلى عمر بالخبر فلما جاءه كتاب عمرو قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب؛ فانظروا عم تنفرج. وجعل عمر - رحمه اللَّه - من لدن وُجّه أمراء الشام يمد كل أمير جند ويرميه بالأمداد حتى إذا أتاه كتاب عمرو بتفريق الروم كتب إلى يزيد أن يبعث معاوية بخيله إلى قيسارية وكتب إلى معاوية بإمرته على قتال أهل قيسارية، وليشغلهم عن عمرو، وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي على قتال أهل إيلياء؛ فصاروا بإزاء أهل إيلياء فشغلوهم عن عمرو، وبعث أبا أيوب المالكي إلى الرملة وعليها التذارق وكان بإزائهما، ولما تتابعت الأمداد على عمرو بعث محمد بن عمرو[1] مددًا لعلقمة ومسروق، وبعث عمارة بن عمرو بن أمية الضمري مددًا لأبي أيوب، وأقام عمرو على أجنادين)[2].

أما غزة فقد جاءت الأوامر إلى علقمة بن مجزز من أمير المؤمنين أن يتجه إلى غزة لمواجهة قائد ثالث من قادة الروم التاريخيين هو الفيقار، وهكذا غدت الجبهات الرئيسية ثلاثة هي: غزة، وقيسارية، وأجنادين (ولما توجه علقمة إلى غزة وتوجه معاوية إلى قيسارية صمد عمرو بن العاص إلى الأرطبون)[3].

والجبهات الفرعية جبهتان: جبهة إيلياء، وجبهة الرملة وعلى قيادة جبهة إيلياء علقمة ابن حكيم الفراسي ومعه مسروق بن فلان العكي، وعلى قيادة جبهة الرملة أبو أيوب المالكي، ولا نعني بأن هاتين الجبهتين فرعيتان أنهما ليستا ذات أهمية؛ إنما نعني أنهما بقيتا تحت قيادة عمرو، بينما أعطي معاوية في قيسارية وعلقمة بن مجزز في غزة حرية القيادة لمواجهة العدو؛ حيث جاءهما تكليف مباشر من أمير المؤمنين.

(فكتب إلى يزيد بأن يدفئ ظهورهم بالرجال، وأن يسرح معاوية إلى قيسارية، وكتب إلى عمرو يأمره بصدم الأرطبون، وإلى علقمة بصدم الفيقار)[4].

معاوية ومعركة قيسارية:

كان معاوية ﷺ شابًّا مغمورًا بجوار أخيه يزيد، لكن معالم النجابة والعبقرية كانت تلوح فيه، ولعلم عمر ﷺ بالرجال وفراسته فيهم لم يكتف بتكليف يزيد لأخيه معاوية بالاتجاه إلى قيسارية؛ بل وجّه له كتابًا خاصًّا منه ليضعه على محك التجربة فولاه

---

(١) وها هو ابنه الثاني محمد يشارك في قيادات المعارك بجوار أبيه وأخيه.

(٢، ٣) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٥). (٤) المصدر السابق (٣/ ٦٠٤).

هذه الجبهة الضخمة بقوله:

« أما بعد، فإني قد وليتك قيسارية؛ فسر إليها، واستنصر اللَّه علهيم، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا باللَّه، اللَّه ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا، نعم المولى ونعم النصير »[١].

لقد كان معاوية بن أبي سفيان - رضي اللَّه عنهما - من مدرسة عمرو: دهاء وحكمة وقيادة وعبقرية، وكانت هذه أول فرصة تتاح له لممارسة هذه الكفاءات العالية، وعمر ﷺ في المدينة يعيش هذه المعركة بأعصابه وينتظر أخبارها على أحر من الجمر.

(وسار معاوية في جنده حتى نزل على أهل قيسارية وعليهم أبنى فهزمه وحصره في قيسارية، ثم إنهم جعلوا يزاحفونه وجعلوا لا يزاحفونه مرة إلا هزمهم وردهم إلى حصنهم، ثم زاحفوه آخر ذلك، وخرجوا من صياصيهم فاقتتلوا في حفيظة واستماتة؛ فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفًا وكملها في هزيمتهم مائة ألف)[٢].

ولا شك أن هذا الظفر العظيم قد كان صفحة ناصعة في تاريخ معاوية أثبتت جدارته وعبقريته المغمورتين، ولا نعرف هذه عند أمير المؤمنين إلا من خلال البشائر بالفتح.

(وبعث بالفتح مع رجلين من بني الضبيب، ثم خاف منهما الضعف، فبعث عبد اللَّه ابن علقمة الفراسي وزهير بن الجلاب الخثعمي، وأمرهما أن يتبعاهما ويسبقاهما فلحقاهما وطوياهما[٣] وهما نائمان وابن علقمة يتمثل وهي هجيراه[٤]:

أرّق عيني أخوا جذام ... كيف أنام وهما أمامي

إذ يرحلان والهجير طامي ... أخو حشيم وأخو حرام

وانتهى بريد معاوية إلى عمر بالخبر؛ فجمع الناس وأباتهم على الفرح ليلًا، فحمد اللَّه وقال: لتحمدوا اللَّه على فتح قيسارية)[٥].

وإن كان البلاذري يشير إلى أن قيسارية حوصرت عدة مرات وفتحت على يد معاوية إذ يقول: (حدثني الواقدي قال: اختلف علينا في أمر قيسارية؛ فقال قائلون: فتحها معاوية، وقال آخرون: بل فتحها عياض بن غنم بعد وفاة أبي عبيدة وهو خليفته، وقال قائلون: خرج عمرو بن العاص إلى مصر وخلف ابنه عبد اللَّه فكان الثبت في ذلك، والذي اجتمع

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٤).

(٣) طوياهما: تجاوزاهما.

(٤) هجيراه: دأبه وشأنه.

(٥) تاريخ الطبري (٣/ ٦١٤).

عليه العلماء أن أول الناس الذين حاصروها عمرو بن العاص، نزل عليها في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة فكان يقيم عليها ما أقام.

فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوهم سار إليهم فشهد أجنادين وفحل والمرج ودمشق واليرموك، ثم رجع إلى فلسطين فحاصرها بعد إيلياء، ثم خرج إلى مصر من قيسارية وولى يزيد بن أبي سفيان بعد أبي عبيدة فوكل أخاه معاوية بمحاصرتها وتوجه إلى دمشق مطعونًا فمات بها.

وقال غير الواقدي: ولى عمر يزيد بن أبي سفيان فلسطين مع ما ولاه من أجناد الشام وكتب إليه يأمره بغزو قيسارية، وقد كانت حوصرت من قبل، فنهض إليها في سبعة عشر ألفًا فقاتله أهلها ثم حصرهم، ومرض في آخر سنة ثماني عشرة فمضى إلى دمشق واستخلف على قيسارية أخاه معاوية بن أبي سفيان ففتحها وكتب إليه بفتحها، فكتب به يزيد إلى عمر. ولما توفي يزيد بن أبي سفيان كتب عمر إلى معاوية بتوليه ما كان يتولاه؛ فشكر أبو سفيان ذلك له وقال: وصلتك يا أمير المؤمنين رحم)[١].

والذي لا شك فيه أن معاوية ﷺ قد افتتح قيسارية؛ إنما الخلاف في سنة هذا الفتح.

علقمة وفتح غزة:

ولا شك أن عَمْرًا ﷺ قد ابتهج كثيرًا بسقوط جبهة قيسارية؛ حيث تجعله غير قلق لأن يؤتى من خلفه، وأن هذا سيَفُتُّ من عضد الروم ويساعد على انهيار روحهم المعنوية، وبقي ينتظر أخبار أخيه علقمة في غزة.

(وانطلق علقمة بن مجزز فحصر الفيقار بغزة، وجعل يراسله فلم يشفه مما يريد أحد؛ فأتاه كأنه رسول علقمة، فأمر الفيقار رجلًا أن يقعد له بالطريق، فإذا مر قتله، ففطن علقمة فقال: إن معي نفرًا شركائي في الرأي فأنطلق فآتيك بهم. فبعث إلى ذلك الرجل: لا تعرض له؛ فخرج من عنده ولم يعد، وفعل كما فعل عمرو بالأرطبون)[٢].

(وهكذا نجحت حيلة علقمة الألمعي فنجا من الاغتيال الذي كان مدبرًا له، وبعد أن وصل علقمة مقر قيادته وكان قد عرف مواطن الضعف في التحصينات الرومانية بالمدينة أمر في الحال بهجوم حاسم مباغت على غزة مستفيدًا من معلوماته الخاصة.

فهجمت قوات الإسلام على غزة في ضراوة وتنظيم هجمة رجل واحد في الحال؛ فهب

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٤٥، ١٤٦).
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٤).

القائد الفيقار واسيقن أنه لم يكن مخطئًا أول الأمر حين اعتقد أن الذي كان يفاوض في مجلسه داخل المدينة وعدل عن اغتياله هو القائد العام لقوات الإسلام التي تتولى محاصرة غزة.

وأمام الهجوم الصاعق المفاجئ المنظم على غزة عن طريق مواقع الضعف في التحصينات ارتبكت القوات الرومانية المدافعة عن المدينة وتخاذلت ثم انهارت مقاومتها؛ فاقتحم المسلمون المدينة، وما هي إلا لحظات حتى أصبحوا وسط المدينة يشددون قبضتهم عليها، ويتمركزون في معاقلها، ويضعون السيف في المحاربين الروم المكلفين بالدفاع عنها حتى تمت لهم السيطرة الكاملة عليها.

وهكذا وبعد حصار طويل ومصاولات ومجاولات حربية وسياسية نجح البطل علقمة بن مجزز في فتح تلك المدينة الاستراتيجية الهامة (غزة) وأصبح بعد فتحها الطريق مفتوحًا للمسلمين إلى مصر برًّا وبحرًا؛ حيث كانت غزة تمثل خط الدفاع الأول عن الإقليم الغربي من أقاليم الإمبراطورية الرومانية وهو (مصر) وسقوط قيسارية وتدمير الجيش العظيم المدافع عنها على يد جيش معاوية، وبسقوط غزة نفسها وتوابعها من المرافئ الصغيرة ثم للمسلمين الاستيلاء على جميع الشريط الساحلي في الشام الممتد من الإسكندرونة شمالًا حتى رفح جنوبًا، ولم يبق من الموانئ البحرية سوى مدينة طرابلس التي استعصت على المسلمين حتى تمكن الأمير معاوية من فتحها في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان)[1] .

هزيمة الأرطبون وفتح أجنادين:

واطمأن عمرو ﷺ بعد فتح قيسارية وغزة إلى أنه قادر بعدها على خوض المعركة الفاصلة الثانية بأجنادين بعد أن خاض المعركة الأولى مع أخيه خالد بن الوليد وانتهت بمقتل مائة ألف - أو تزيد - من الروم وفناء الجيش الثاني بأكمله، وكان عمرو مطمئنًّا إلى حاميته في الرملة وحاميته في إيلياء فتفرغ لخوض معركته مع الأرطبون في أجنادين، وقد شارك ولداه في المعركة عبد اللَّه ومحمد؛ إذ كان عبد اللَّه على رأس ميمنة جيشه، أما ولده الآخر محمد فقد أرسل مددًا لعلقمة ومسروق في إيلياء.

(وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون في نفسه: واللَّه إن هذا لعمرو أو إنه بالذي يأخذ عمرو برأيه، ما كنت

(١) حروب المسلمين في الشام لمحمد أحمد باشميل (ص ٤٨٢، ٤٨٣).

لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله. ثم دعا حرسيًّا فسارَّه بقتله فقال: اخرج، فقم مكان كذا وكذا فإذا مر بك فاقتله. وفطن له عمرو).

إنها مغامرة جريئة جدًّا لا تتناسب مع شخصية عمرو الحذرة الواعية اليقظة التي تحسب كل الحسابات ومن جميع الجهات قبل أن تقع في مثل هذا المأزق الصعب؛ فلقد جنب نفسه المواجهة سنة كاملة مع قائد الروم وبقي معه بين كرٍّ وفرٍّ حتى أتته قوات خالد.

كيف نجمع بين هذين الجانبين في شخصية عمرو ﷺ: جانب الحذر والتريث واليقظة، وجانب المغامرة والتعرض للأخطار الماحقة؟

يظهر ابتداءً أن هذين الجانبين متناقضان؛ لكن في سبر أغوارهما نلاحظ أنهما يتممان بعضهما البعض؛ فالقائد الذي يخشى المغامرة لا يحقق انتصارات هائلة، وما مغامرة خالد ﷺ بجيشه الذي مضى به من العراق إلى الشام إلا صورة من صور البطولة الفذة في التاريخ؛ إنه يعد للأمر أهبته بكل ما يملك ويبقي جانبًا رئيسيًّا للمغامرة التي تغير التاريخ.

كما أن القائد المتسرع المغامر سرعان ما يسقط ويفشل حين لا يحسب حسابات قوته وحسابات قوة عدوه.

القائد العبقري الفذ هو الذي لا يتردد لحظة واحدة ولا يتلكأ ثانية واحدة حين يرى أنه قد آن الآوان للهجوم، ولكنه هو نفسه الذي لا يهاجم العدو أبدًا قبل أن يكون قد فقه كل نقاط ضعفه وقوته؛ كان عمرو من هذا الطراز التاريخي النادر.

إنه لن يقوم بهجوم شامل على الأرطبون قبل أن يتعرف يقينًا على قوات عدوه ونقاط ضعفها، وحاول الوصول إلى المعلومات التي تشفيه عن طريق غيره، لكن دون جدوى؛ فقرر أن يكون هو الذي يحصل على المعلومات بنفسه، وهذا جزء رئيسي من الحذر والوعي واليقظة، وقد ظهر في إطار أكبر مغامرة تاريخية أن يدخل أرض عدوه ويلتقي معه، ولو كشف أمره لانتهى أمره وأمر جيشه وهو عند عدوه وحده يقدر أن يأخذه ويقتله في كل لحظة.

ولم يدفع عمرو لهذه المغامرة إلا معرفته بأنه يواجه قائدًا تاريخيًّا لا نظير له دهاء وحنكة وعبقرية، وهو الذي قال فيه أمير المؤمنين عمر: « لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج ».

لكن عمرو يعلم من جهة ثانية أن عنده من الدهاء وسعة الحيلة وشدة اليقظة ما يجعله يتمكن من الإفلات من قبضة عدوه لو وقع بين يديه؛ فقد قالوا عنه مع أصحابه دهاة العرب:

« الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لكل صغيرة وكبيرة »[(١)].

(وقد قال معاوية يومًا لعمرو: ما بلغ من عقلك؟ فقال: ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه)[(٢)].

ومن أجل هذا أدرك أن احتمال كشفه أمام الأرطبون وارد؛ فأسعفته عبقريته بما جاء في خاطره، ولعله أدرك ذلك من تقاطيع وجهه).

(وفطن له عمرو فقال: قد سمعت مني وسمعت منك. فأما ما قلته فقد وقع مني موقعًا، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروا رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك. فقال: نعم)[(٣)].

وتجلت عبقرية الأرطبون في رغبته في إهلاك جيش عمرو حين يهلك هؤلاء القادة، وببديهة حاضرة وسرعة نافذة وحرصًا على قتل عشرة بدلًا من واحد - أصدر أوامر معكوسة بالإبقاء على حياته.

(.. ودعا رجلًا فسارَّه وقال: اذهب إلى فلان فرُدَّه إليَّ. فرجع إليه الرجل وقال لعمرو: انطلق فجئ بأصحابك، فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها، وعلم الرومي بأنه قد خدعه. فقال: خدعني الرجل: هذا أدهى الخلق)[(٤)].

وهنا ندرك سر هذا الدهاء العظيم الذي اعترف به ألد أعدائه الأرطبون (فبلغت عمر) وهو الذي كان ينتظر عم تنفرج؛ فأدرك أن عمرًا منتصر لا محالة بعد هذه المغامرة الفذة ورأى أنها ستنفرج عن نصر مؤزر له.

(بلغت عمر فقال: غلبه عمرو، للَّه در عمرو)[(٥)].

وعاد عمرو بن العاص ﷺ بالمعلومات الكافية له عن عدوه وعن تحصيناته وقواته

---

(١) العقد الفريد (٥/ ٧). (٢) المصدر نفسه (٢/ ٢٤٢).

(٣ - ٥) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٧، ٦٠٨).

ودهائه وعبقريته والآن يستطيع أن يخوض المعركة الفاصلة معه.

(وقد عرف مأخذه وعاقبته والتقوا ولم يجد من ذلك بدًّا؛ فالتقوا بأجنادين، فاقتتلوا قتالًا شديدًا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم، ثم إن أرطبون انهزم في الناس فأوى إلى إيلياء، ونزل عمرو أجنادين، ولما أتى أرطبون إيلياء أفرج له المسلمون حتى دخلها ثم أزالهم إلى أجنادين)[(١)].

وهكذا خاض عمرو يرموك جديدة وحده بدون خالد وانتصر، وخاض أجنادين ثانية وحده بدون خالد وانتصر.

فتح بيت المقدس:

ثم إن أرطبون انهزم في الناس فأوى إلى إيلياء، ونزل عمرو أجنادين، ولما أتى أرطبون إيلياء أفرج له المسلمون حتى دخلهم ثم أزالهم إلى أجنادين فانضم علقمة ومسروق ومحمد بن عمرو وأبو أيوب إلى عمر بأجنادين)[(٢)].

لقد تطورت الأمور بسرعة وحُصر العدو في موقع واحد هو إيلياء؛ لكنه حصر بقائد تاريخي فذ هو الأرطبون، وسرعان ما تحرك ونازل القوات الإسلامية المحاصرة؛ فتغلب عليها وانضمت إلى الجيش الرئيسي الذي يقوده عمرو ﷺ وانتقلت الحرب من جديد بين أرطبون الروم وأرطبون العرب إلى إيلياء القدس بعد هزيمة الأرطبون في أجنادين.

وإيلياء هي قدس الأقداس بالنسبة للنصرانية، والتي يحجون إليها من أنحاء العالم كما يحج له اليهود؛ حيث كان هيكل سليمان - فيما يزعمون - فهي مثل الكعبة عند المسلمين، فلو تخلوا عن كل موقع في الأرض ما تخلوا عنها ولو ماتوا عن آخرهم؛ فهي تمثل أقدس ما عندهم في الوجود.

(وكتب أرطبون إلى عمرو بأنك صديقي نظيري أنت في قومك مثلي في قومي، واللَّه لا تفتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين؛ فارجع ولا تغر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة)[(٣)].

وأدرك عمرو من ثنايا الرسالة صدق الأرطبون ترجيحًا، لكنه خشي أن يكون الحديث عن الهزيمة حربًا معنوية نفسية لتحطيم أعصابه؛ فقرر استعمال الحرب نفسها معه ليصل إلى الحقيقة الناصعة.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٧، ٦٠٨). (٢) المصدر السابق (٣/ ٦٠٦).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(فدعا عمرو رجلًا يتكلم بالرومية فأرسله إلى أرطبون وأمره أن يعرب ويتنكر وقال: استمع إلى ما يقول حتى تخبرني إذا رجعت إن شاء اللَّه)[١].

وضرب عمرو على الوتر نفسه الذي ضرب عليه الأرطبون في احترام عدوه وتقديره قائلًا له:

(جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد، وأستعدي عليك فلانًا وفلانًا وفلانًا - لوزرائه - فأقرئهم كتابي، ولينظروا فيما بيني وبينك)[٢].

إنها حرب الدهاة وتختلف كثيرًا عن حرب الأبطال؛ فقد تنتهي الحرب بينهما بكلمة أو رسالة حرب، عقول تقود أممًا تخطط للسيطرة عليها. فقد اعترف بفضل الأرطبونين أنه لم تخطئه خصلة من الفضل ولو أخطأته لما عرف فضل عمرو، فلا يعرف الفضل لأهله إلا ذووه، ولأول مرة في تاريخ الحروب بين الأمم حيث رمى عمر الأرطبونين ببعضهما - يضع عمرو الحكم بينه وبين خصمه وزرائه الذين سماهم بأسمائهم.

لكن الدهاء الحقيقي لعمرو ليس في الرسالة، إنما قمة دهائه في أنه يريد أن يستمع إلى المحادثة الخاصة السرية بين الأرطبون ووزرائه؛ حيث أثاره بهذه الكلمة دون أن ينتبه الأرطبون ثانية إلى احتمال أن يكون الرسول يعرف الرومية، وحين يتكلم مع وزرائه بذات نفسه لا يجد حرجًا في ذلك، بينما يلتقط رجل المخابرات الإسلامي العالم بكل خطط العدو وتخطيطاته.

حقًا إن عمرًا للبديهة؛ هذا الدهاء.. أن يوهم خصمه شيئًا فيدفعه فيه؛ ليصل من وراء هذا الإيهام إلى شيء آخر - إنها قمة العبقرية التي لم يعرف التاريخ مثيلًا لها إلا في أمثال هذه القيادات، ووقع الأرطبون ثانية في فخ عمرو، بينما تمكن عمرو في الجولة الماضية في أجنادين أن يفلت من فخ الأرطبون الذي قال عنه: إنه أدهى الخلق، ولكن هيهات هيهات أن يفلت الأرطبون من فخ عمرو.

(فخرج الرسول على ما أمره به حتى أتى الأرطبون فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر فقرأه فضحكوا وتعجبوا وأقبلوا على الأرطبون فقالوا: من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟)[٣].

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٦).

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٦).

ولم يأمر الأرطبون بإخراج الرسول تحرزًا من أن يكون يعرف الرومية؛ فهذه البديهة البسيطة جدًّا خانته ولم تخن عمرًا من قبل، فأفضى بما عنده من أسرار أمام الرسول وهو يحس أنه يتكلم مع خاصته وزرائه، فقالوا: من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ قال: صاحبها رجل اسمه « عمر »[(١)].

وتحقق هدف عمرو كاملًا (فرجع الرسول إلى عمرو فعرف أنه عمر)[(٢)].

ولم يضيع عمرو الفرصة بعد أن عرف الحقيقة عند خصمه اللدود (فكتب إلى عمر يستمده ويقول: إني أعالج حربًا كؤودًا صدومًا وبلادًا ادخرت لك؛ فرأيك)[(٣)].

(ولما كتب عمرو إلى عمر بذلك عرف أن عمرًا لم يقل إلا بعلم فنادى في الناس، ثم خرج فيهم حتى نزل بالجابية وقد كتب مخرجه أول مرة إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم في المجردة، وأن يستخلفوا على أعمالهم؛ فلقوه حيث رفعت لهم الجابية فكان أول من لقيه يزيد، ثم أبو عبيدة، ثم خالد على الخيول... وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل بأجنادين لم يتحركا من مكانهما)[(٤)].

لقد بلغت ثقة عمر ﷺ بعمرو حدًّا يفوق الوصف بأن يلبي نداءه مباشرة، ومنذ أن وصله كتابه (... وبلادًا ادخرت لك) وعلم أنه لم يقل ذلك إلا بعلم؛ فترك دفة الخلافة كلها وترك العاصمة ومضى إلى الشام ليتحقق الفتح على يديه.

وكان أحبار اليهود وأحبار النصارى يجدون في كتبهم أن بيت المقدس لا يفتحها من المسلمين إلا عمر بن الخطاب.

وقد أشار إلى هذا الأرطبون حين أجاب عمرو بن العاص على خطابه[(٥)].

(وعن سالم بن عبد اللَّه قال: لما قدم عمر الجابية قال له رجل من يهود: يا أمير المؤمنين، لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح اللَّه عليك إيلياء، فبينا عمر بن الخطاب بها؛ إذ نظر إلى كردوس من خيل مقبل، فلما دنوا منه سلوا السيوف، فقال عمر: هؤلاء قوم يستأمنون فأمنوهم. فأقبلوا فإذا هم أهل إيلياء فصالحوه على الجزية وفتحوها له، فلما فتحت عليه دعا ذلك اليهودي فقيل له: إن عنده لعلمًا فسأله عن الدجال وكان كثير المسألة عنه، فقال له اليهودي: وما مسألتك عنه يا أمير المؤمنين؟ فأنتم واللَّه معشر

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٦).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٦٠٧).
(٤) حروب المسلمين في الشام (ص ٥٠٠).
(٥) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٧).

العرب تقتلونه دون باب لد ببضع عشرة ذراعًا)[١].

(وعن سالم قال: لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال: السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء. وكانوا قد أشجوا عَمْرًا وأشجاهم ولم يقدر عليها ولا على الرملة. فبينا عمر معسكرًا بالجابية فزع الناس إلى السلاح، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: ألا ترى الخيل والسيوف؟ فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف، فقال عمرو: مستأمنة ولا تراعوا فأمنوهم. وإذا هم أهل إيلياء فأعطوه واكتبوا منه على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها، فصارت فلسطين نصفين: نصف مع أهل إيلياء، ونصف مع أهل إيلة، وهم عشر كور، وفلسطين تعدل الشام كله، وشهد ذلك اليهودي الصلح فسألهم عمر عن الدجال فقال: هو من بني بنيامين وأنتم والله يا معشر العرب تقتلونه على بضع عشرة ذراعًا من باب لد)[٢].

التطور الجديد في المعركة هو أنه صعب جدًّا على الأرطبون أن يتجرع غصص الهزيمة مرتين ويوقع بيده ميثاق الصلح والاستسلام للمسلمين، فلم يجد بدًّا أمامه من مغادرة فلسطين إلى مصر تاركًا لأهل إيلياء أن يقوموا هم بتوقيع وثيقة الصلح.

(ففي هذه السنة - أي سنة (١٥هـ) وقيل: سنة (١٦) - فتح بيت المقدس؛ وسبب ذلك أنه لما دخل أرطبون إيلياء (القدس) وفتح عمرو غزة ثم فتح سبسيطية، وفيها قبر يحيى ابن زكريا عليه السلام، وفتح نابلس بأمان على الجزية، وفتح مدينة لد (يعني: اللد) ثم فتح تبني وعمواس وبيت جبرين ويافا وبرج عيون، فلما تم ذلك إلى عمرو أرسل إلى الأرطبون رجلًا يتكلم بالرومية وقال له: اسمع ما يقول، وكتب معه كتابًا، فوصل الرسول ودفع الكتاب إلى الأرطبون وعنده وزراءه فقال الأرطبون: لا يفتح - والله - عمرو شيئًا من فلسطين بعد أجنادين، فقالوا له: من أين علمت هذا؟ فقال: صاحبها رجل صفته كذا وكذا. وذكر صفة عمر بن الخطاب)[٣].

ويشير باشميل إلى سبب آخر دعا الأرطبون لمغادرة القدس فيقول: غير أن الحصار لم يدم طويلًا رغم كثافة القوة التي تدافع عن القدس؛ فقد حدث خلاف بين حاكم القدس المدني (سفرنيوس) وبين قائد حاميتها العسكرية الأرطبون.

كان سفرنيوس يميل إلى مصالحة المسلمين وتجنب سفك الدماء وتسليمهم المدينة

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٨).

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص ٤٩٨).

المقدسة والأرطبون مُصِرٌّ على المقاومة، وأخيرًا مالت الأغلبية من أهل القدس إلى رأي حاكمها فعرضوا الصلح على القائد عمرو، ولكنهم اشترطوا أن يتولى عقد الصلح واستلام المدينة الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، فأجابهم عمرو إلى طلبهم ووعدهم بأنه سيخبر الخليفة... وقد كفى اللَّه المؤمنين القتال؛ ففتح اللَّه القدس للمسلمين على يد الخليفة عمر صلحًا، حيث خرج إليه حاكم القدس (سفرنيوس) بعد أن اتبعت الأكثرية رأيه من الروم، خرج ومعه أعيان المدينة المقدسة من أحبار ومدنيين وسياسيين وعسكريين (بعد أن هرب منها الأرطبون والتذارق إلى مصر) فعقد مع الخليفة نفسه الصلح الذي على أساسه سلم حبر القدس الأكبر الخليفة عمر مفتاح المدينة؛ فدخلها المسلمون دون أن تسفك قطرة دم، وذلك ما أثلج صدر الخليفة والمسلمين؛ لأنهم يكرهون أشد الكره أن تراق قطرة دم في تلك البلدة المقدسة الطاهرة)[1].

ونشير إلى أن عمرًا ﷺ عندما اطمأن إلى خروج وفد أهل القدس للمصالحة مضى مع أخيه شرحبيل بن حسنة وهما من قادة الأجناد الذين حرص عمر بن الخطاب ﷺ على اللقاء بهم - مضيا بعد أن استخلفا على المسلمين بعض القادة ليتلقيا مع عمر في الجابية وحضرا وثيقة الصلح وشهدا عليها.

قال: وانضم عمرو وشرحبيل إلى عمر بالجابية حين جرى الصلح فيما بينهم فشهد الكتاب.

نص وثيقة الصلح:

وعن خالد وعبادة قالا: صالح عمر أهل إيلياء بالجابية وكتب لهم فيها الصلح لكل كورة كتابًا واحدًا ماخلا أهل إيلياء.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها - أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء أحد معهم من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، عليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت[2]؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية،

(١) حروب المسلمين في الشام لباشميل (ص ٤٩٧). (٢) اللصوت: جمع لصت وهو اللص.

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويُخلِي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان؛ فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله؛ فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللَّه وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة[١].

فأما سائر كتبهم فعلى كتاب لُدّ:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم - أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا مللها ولا من صلبهم ولا من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره)[٢].

وقسمت فلسطين نصفين لإقامة الحكم المدني فيها بعد أن صالح جميع أهلها بين العلقمتين ابن حكيم وابن مجزز (وفرق فلسطين على رجلين، فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة، وعلقمة بن مجزز على نصفها وأنزله إيلياء؛ فنزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه)[٣].

وعن سالم قال: استعمل علقمة بن مجزز على إيلياء، وعلقمة بن حكيم على الرملة في الجنود التي كانت مع عمرو، وضم عَمْرًا وشرحبيل إليه بالجابية، فلما انتيها إلى الجابية وافقا عمر - رحمه اللَّه - راكبًا فقبَّلا ركبتيه، وضم عمر كل واحد منهما محتضنًا[٤].

وعن عبادة وخالد قالا: ولما بعث عمر بأمان أهل إيلياء وسكنها الجند شخص إلى بيت المقدس من الجابية فرأى فرسه يتوجى[٥] فنزل عنه وأتي ببرذون فركبه فهزّه فنزل

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٩).
(٢، ٣) المصدر السابق (٣/ ٦٠٩، ٦١٠).
(٤) تاريخ الطبري (٣/ ٦١٠).
(٥) يتوجى: يجد وجعًا في حافره.

فضرب وجهه بردائه، ثم قال: قبح اللّٰه من علمك هذا، ثم دعا بفرسه بعد ما أجمه[١] أيامًا حتى يوقحه[٢] فركبه ثم سار حتى انتهى إلى بيت المقدس[٣].

وهذه الأمجاد العظيمة التي خلدها الدهر لم ينقل لنا تاريخ الأدب منها إلا هذه الأبيات لزياد بن حنظلة يتحدث فيها عن عمرو وجهاده واستمداده عمر وقدومه إذ يقول:

تذكرت حرب الروم لما تطاولت ... وإذ نحن في عام كثير نزائله[٤]

وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا ... مسيرة شهر بينهن بلابله

وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده ... يحاوله قرم[٥] هناك يساجله

فلما رأى الفاروق أزمان فتحها ... سما بجنود اللّٰه كيما يصاوله[٦]

فلما أحسوه وخافوا صواله[٧] ... أتوه وقالوا أنت ممن يواصله[٨]

وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها ... وعيشًا خصيبًا ما تعد مآكله

أباح لنا ما بين شرق ومغرب ... مواريث أعقاب بنتها قرامله[٩]

وكم مثقل لم يضطلع باحتماله ... تحمل عبئًا حين شالت شوائله[١٠]

ويلخص البلاذري فتوح فلسطين بقوله:

(حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن أشياخه وعن بقية بن الوليد عن مشايخ من أهل العلم قالوا: كانت أول وقعة واقعها المسلمون الروم في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ أرض فلسطين، وعلى الناس عمرو بن العاص، ثم إن عمرو ابن العاص فتح غزة في خلافة أبي بكر ﷺ، ثم فتح بعد ذلك سبسطية ونابلس على أن أعطاهم الأمان على أنفسهم وعلى أموالهم ومنازلهم، وعلى أن الجزية على رقابهم، والخراج على أراضيهم، ثم فتح مدينة لد وأرضها، ثم فتح يبني وعمواس وبيت جبرين واتخذ بها ضيعة تدعى عجلان باسم مولًى له، وفتح يافا ويقال: فتحها معاوية، وفتح رفح على مثل ذلك، وقدم عليه أبو عبيدة بعد أن فتح قنسرين ونواحيها؛ وذلك في سنة

(١) أجم: استراح.
(٢) يوقحه: تركه أيامًا حتى صلب حافره.
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٦١٠).
(٤) نزائله جمع نازلة وهي: مصائبه وخطوبه.
(٥) قرم: بطل شجاع ويعني به عمرو بن العاص.
(٦) يصاوله: يواجهه وينازله.
(٧) الصوال: الحرب.
(٨) المواصلة: هنا الصلح والمسالمة.
(٩) القرامل: جمع قرمل وهو الشجر ذي الشول الضعيف.
(١٠) تاريخ الطبري (٣/ ٦١٢، ٦١٣).

ست عشرة وهو محاصر إيلياء، وإيلياء مدينة بيت المقدس، فيقال: إنه وجهه إلى أنطاكية وقد غدر أهلها ففتحها، ثم عاد فأقام يومين أو ثلاثة، ثم طلب أهل إيلياء الأمان والصلح من أبي عبيدة على مثل ما صولح عليه أهل الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه؛ فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمر فنزل الجابية من دمشق ثم صار إلى إيلياء فأنفذ صلح أهلها، وكتب لهم به، وكان فتح إيلياء في سنة سبع عشرة[١])[٢].

وقد حضر عمرو توقيع وثيقة الصلح وعاد إلى الشام في قيادة الأركان العامة عند أبي عبيدة ﷺ ولم يرشحه الفاروق ليكون أميرًا على فلسطين، وإنما أبقاه مستشارًا عند القائد العام أبي عبيدة ﷺ، وتنقطع أخبار عمرو عنا إلى أن كان طاعون عمواس عام سبعة عشر.

(حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح عن شهر ابن حوشب الأشعري، عن راية - رجل من قومه - وكان قد خلف على أمه بعد أبيه، كان شهد طاعون عمواس قال:

لما اشتغل الوجع قام أبو عبيدة في الناس خطيبًا فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم محمد ﷺ وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل اللَّه أن يقسم له منه حظه؛ فطعن فمات، واستخلف على الناس معاذ بن جبل، قال: فقام خطيبًا بعده فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن معاذًا يسأل اللَّه - تعالى - أن يقسم لآل معاذ منه حظهم؛ فطعن ابنه عبد الرحمن ابن معاذ فمات، ثم قام فدعا به لنفسه فطعن في راحته؛ فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقبل ظهر كفه ثم يقول: ما أحب أن لي فيك شيئًا من الدنيا. فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص فقام خطيبًا في الناس فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار؛ فتجبلوا منه في الجبال. فقال أبو وائلة الهذلي: كذبت واللَّه، لقد صحبت رسول اللَّه ﷺ وأنت شر من حماري هذا. قال: واللَّه ما أرد عليك ما تقول، وايم اللَّه لا نقيم عليه. ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا ورفعه اللَّه عنه. قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو بن العاص فواللَّه ما كرهه)[٣].

---

(١) والمشهور أن الفتح كان في عام خمسة عشر وهو الأصح.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٤٤).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٨٠).

لقد كان عمرو ﷺ يتحدث عن جانب غير الجانب الذي يتحدث عنه الأميران العظيمان: أبو عبيدة، ومعاذ بن جبل. وكان يؤرقه الوقوف استسلامًا أمام امتداد الطاعون ونهشه في الأمة، وكان رأي عمر أمير المؤمنين مواجهة هذا الاستسلام حيث أشار على أبي عبيدة بقوله: « سلام عليك، أما بعد؛ فإنك أنزلت الناس أرضًا عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة »[1]. ولكن إصابة أبي عبيدة ﷺ حالت دون ذلك، وجاء عمرو ﷺ لينطلق منطلقات أمير المؤمنين نفسها في دعوة الأمة إلى الصعود للجبال هربًا من الطاعون، غير أن أبا وائل ﷺ رأى قول عمرو يختلف عن رأي سابقيه؛ فأغلظ القول لأميره عمرو قائلًا: « واللَّه لقد صحبت رسول اللَّه ﷺ وأنت شر من حماري هذا » ولم يغضب الحليم العظيم، وقال لأخيه الجندي المتطاول على أميره: « واللَّه ما أرد عليك ما تقول »؛ تعظيمًا للصحبة النبوية عنده، ولكن هذا لم يثنه عن توجيه أوامره للأمة لصعود الجبال، وصرف اللَّه البلاء عن الأمة بذلك، وأقر أمير المؤمنين عَمْرًا على اجتهاده، وما كره ذلك الاجتهاد، وكتب اللَّه - تعالى - للأمة العافية على يديه، كما كتب الفتح على يديه كذلك، وبقي ينتظر الأوامر العليا من أمير المؤمنين.

* * *
* *
*

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٨٠).

عمرو بن العاص: فاتح مصر

مصر والإسلام:

قال ابن عبد الحكم: (حدثنا هشام بن إسحاق وغيره قال: لما كانت سنة ست من مهاجرة رسول اللَّه ﷺ ورجع رسول اللَّه ﷺ من الحديبية بعث إلى الملوك.

حدثنا أسعد بن موسى... عن ابن شهاب قال: حدثني عبد الرحمن بن عبد القارئ أن رسول اللَّه ﷺ قام ذات يوم على المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه وتشهد ثم قال:

أما بعد فإني أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك العجم، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلفت بنو إسرائيل على عيسى ابن مريم... فبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وشجاع بن وهب السدي إلى كسرى، وبعث دحية بن خليفة إلى قيصر، وبعث عمرو بن العاص إلى ابني الجلندي أميري عمان، ثم ذكر الحديث رجع إلى حديث هشام ابن إسحاق وغيره قال:

فمضى حاطب بكتاب رسول اللَّه ﷺ، فلما انتهى إلى الإسكندرية وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر، فركب البحر، فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول اللَّه ﷺ بين أصبعيه؛ فلما رآه أمر بالكتاب فقبض، وأمر به فأوصل إليه. فلما قرأ الكتاب قال: ما منعه إن كان نبيًّا أن يدعو عليَّ فيسلط عليَّ. فقال له حاطب: ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يُفعل به ويُفعل؟! فوجم ساعة ثم استعادها فأعادها عليه حاطب، فسكت. فقال له حاطب: إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى فانتقم اللَّه به، ثم انتقم منه؛ فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك، وإن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي للَّه به فقد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح؛ ولكنا نأمرك به. ثم قرأ الكتاب: « بسم اللَّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللَّه إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم، ويؤتك اللَّه أجرك مرتين: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ

كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ » فلما قرأه أخذه فجعله في حق في عاج وختم عليه ثم دعا كاتبًا يكتب بالعربية فكتب: لمحمد بن عبد اللَّه من المقوقس عظيم القبط: سلام، أما بعد؛ فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام)[1].

وقال:(وحدثنا عبد اللَّه بن سعيد المذحجي عن ربيعة عن عثمان عن أبان بن صالح قال: أرسل المقوقس إلى حاطب ليلة، وليس عنده أحد إلا ترجمان له؛ فقال: ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها، فإني أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك؟ قال: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك. قال: إلامَ يدعو محمد؟ قال: أن تعبد اللَّه لا تشرك به شيئًا وتخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة. قال: فكم تصلون؟ قال: خمس صلوات في اليوم والليلة وصيام شهر رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، والنهي عن أكل الميتة والدم. قال: مَنْ أتباعه؟ قال: الفتيان من قومه وغيرهم. قال: فهل يقاتل قومه؟ قال: نعم. قال: صفه لي. قال: فوصفته بصفة من صفاته لم آت عليها، قال: قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها!: في عينيه حمرة قَلَّما تفارقه، وبين كتفه خاتم النبوة، يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزئ بالتمرات والكسر، لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم قلت: هذه صفته، قال: قد كنت أعلم أن نبيًّا قد بقي، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله؛ فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في اتباعه ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهره على ما هنا، وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفًا؛ فارجع إلى صاحبك)[2].

مصر والنصرانية:

(المذهب اليعقوبي، وهو مذهب الكنيسة المصرية والذي اعتنقه أغلب المسيحيين المصريين، وكان ينادي بأن الطبيعتين الإلهية والبشرية في السيد المسيح امتزجتا فكان فيه طبيعة واحدة، وعليه فلم يعد إنسانًا كاملًا فكان عند التجسد ذا طبيعتين وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة... المذهب الملكاني: نسبة إلى الملك أو الإمبراطور وهو مذهب

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٢٦ - ٤٥). (٢) المصدر السابق (ص ٤٦، ٤٧).

الكنيسة في الدولة الرومانية، ومذهب حزب الملك والبلاط، وكان أتباعه من أصل إغريقي أو أوربي، ويقول هذا المذهب: إن الابن (وهو السيد المسيح) مولود من الأب قبل الدهور، غير مخلوق، وهو جوهره ونوره، واتحد الابن بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدًا هو المسيح)[١].

مصر والفرس:

(هددت الدولة الفارسية حدود الإمبرطورية الرومانية الشرقية، ونجحت بالفعل في التوغل إلى داخل الإمبراطورية ذاتها فاستولت على سورية وفلسطين ثم مصر عام (٦١٦م) وقد أباح كسرى فارس لبطريرك الأقباط أن يبقى في الإسكندرية حتى موته وألا ينازعه منازع في رئاسة الدين، ثم خلفه البطريق (بنيامين) في سهولة ويسر؛ فقضى أول سني ولايته مستظلًّا بحكم الفرس هادئة مطمئنة إذا قيست بسائر مدة ولايته الطويلة المليئة بالأحداث الجسام، غير أن الاحتلال الفارسي لمصر لم يدم أكثر من عشرة أعوام تمكن بعدها هرقل من إعادة هذه الولايات جميعها إلى حظيرة الإمبراطورية من جديد، وعاود الإمبراطور هرقل جهوده في التفاهم مع الأقباط المصريين على عقيدة دينية واحدة أساسها إدخال فكرة جديدة هي بدعة الإرادة الواحدة؛ ولكن الأقباط المصريين لم يكونوا مستعدين للتفاهم على الإطلاق، فعين الإمبراطور هرقل أسقف الإسكندرية الملكاني (قيرس) ليكون حاكمًا لمصر أيضًا، وكان قيرس هذا (المعروف باسم المقوقس) يوصف بالقسوة والكراهية المطلقة لأصحاب الطبيعة الواحدة، وقد منحه الإمبراطور سلطة مطلقة لتحقيق سياسته في مصر؛ فانطلق في حملة من الاضطهاد العنيف على المصريين الأقباط بما زادهم كراهية ونفورًا من الحكم الروماني)[٢].

عمرو بن العاص ومصر:

ونعيد إلى الذاكرة القصة التي ساقها لنا ابن عبد الحكم عن الصلة الوشيجة بين عمرو ومصر منذ أيام شبابه الأولى بسنده حيث يقول:

(وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية، وعَمَرَ طرقها، ورأى كثرة ما فيها، وكان سبب دخول عمرو إياها – كما حدثنا يحيى بن خالد العدوي عن ابن لهيعة ويحيى ابن أيوب عن خالد بن يزيد – أنه بلغه أن عمرًا قدم إلى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش،

---

(١) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ لعبد الخالق سيد أبو رابية (ص ٩٦، ٩٧).
(٢) المصدر السابق (ص ١٢٢، ١٢٣).

فإذا هم بشماس من شماسة الروم من أهل الإسكندرية، قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه، وكانت رعية الإبل نوبًا بينهم، فبينما عمرو يرعى إبله؛ إذ مرَّ به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر، فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى رُوي، ونام الشماس مكانه، وكانت إلى جانب الشماس حيث نام حفرة، خرجت منها حية عظيمة؛ فبصر بها عمرو، فنزع لها بسهم فقتلها، فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد نجَّاه اللَّه منها فقال لعمرو: ما هذه؟! فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه، وقال: قد أحياني اللَّه بك مرتين مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية؛ فما أقدمك هذه البلاد؟ قال: جئت مع أصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا. فقال له الشماس: وكم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك؟ قال: رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيرًا؛ فإني لا أملك إلا بعيرين، فأملي أن أصيب بعيرًا آخر فتكون ثلاثة أبعرة. فقال له الشماس: أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي؟ قال: مائة من الإبل.

قال له الشماس: لسنا أصحاب إبل، إنما نحن أصحاب دنانير. قال: يكون ألف دينار. فقال له الشماس: إني رجل غريب في هذه البلاد، وإنما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهرًا جعلت ذلك نذرًا على نفسي وقد قضيت ذلك، وأنا أريد الرجوع إلى بلادي؛ فهل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك عهد اللَّه وميثاقه أن أعطيك ديتين؛ لأن اللَّه أحياني بك مرتين؟ فقال له عمرو: أين بلادك ؟ قال: مصر، في مدينة يقال لها: الإسكندرية، فقال عمرو: لا أعرفها، ولم أدخلها قط. فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها. قال له عمرو: وتفي لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق؟ فقال له الشماس: نعم لك اللَّه علي بالعهد والميثاق أن أفي لك، وأن أردك إلى أصحابك.

فقال عمرو: وكم يكون مكثي في ذلك؟ قال: شهرًا؛ تنطلق معي ذاهبًا عشرًا، وتقيم عندنا عشرًا وترجع في عشر، ولك علي أن أحفظك ذاهبًا وأن أبعث معك من يحفظك راجعًا. فقال له عمرو: أنظرني حتى أشاور أصحابي في ذلك. فانطلق عمرو إلى أصحابه، فأخبرهم بما عاهده عليه الشماس، وقال لهم: تقيموا علي حتى أرجع إليكم ولكم علي العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني رجل منكم آنس به. فقالوا: نعم. وبعثوا معه رجلًا منهم، فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه وقال: ما رأيت

مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال. ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد عجبًا، ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدًا فيها عظيمًا يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم أكرةٌ من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم، وهم يتلقونها بأكمامهم، وفيما اختبروا من تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم أنها من وقعت الأكرة في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم. فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله، وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه، وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالأكرة، وهم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو، فعجبوا من ذلك وقالوا: ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة، أترى هذا الأعرابي يملكنا؟! هذا ما لا يكون أبدًا. وإن ذلك الشماس مشى في أهل الإسكندرية، وأعلمهم أن عَمْرًا أحياه مرتين، وأنه قد ضمن له ألفي دينار وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم، ففعلوها ودفعوها إلى عمرو؛ فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلًا ورسولًا، وزودهما وأكرمهما حتى رجع صاحبه إلى أصحابهما؛ فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها، ورأى منها ما علم به أنها أفضل البلاد وأكثرها مالًا، فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفًا. قال عمرو: فكان أول مال اعتقدته وتأثلته)[1].

أقصى ما كان يدور بخلد عمرو من أمجاد يوم زار مصر مع الشماس هو أن يزورها ثانية ويستمتع بجمالها، وأن يتمكن من مقابلة ملكها لعله يفوز ببعض الهدايا منه، ومن يشمخ على أقرانه بهذا المجد، ولم يكن يدور بخلده أنه سيكون صانع التاريخ الإسلامي العظيم في مصر. أما الآن، وقد أنجز فتح فلسطين ودخلت الشام كلها في حوزة الإسلام، وأصبح أحد بناة التاريخ الإسلامي العظام - غدا يحس بالمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقه في فتح مصر، وعله دون غيره بعد أن خبرها وخبر كنوزها وأموالها وجيرانها. كما خبر خطرها؛ فقد فرّ خصمه الأرطبون إلى مصر، وما لم تفتح مصر فستبقى الشام كلها في خطر؛ لأن البحر سوف يحمل لجنوده المؤن والأسلحة والأمداد من القسطنطينية لاستعادة أرض الشام - درة الإمبراطورية البيزنطية - لكنه يعلم كذلك أن مثل هذا الأمر ليس قرارًا شخصيًا يتخذه بمقدار ما هو قرار الخليفة عمر ﷺ؛ فلذلك كان همه الأول أن يفضي بهذا الهم وهذا السر العظيم - الأرأف برعيته من الأم بولدها - لعمر بن الخطاب

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٥٣ - ٥٥).

الذي يعلم أنه لن يدفع بالمسلمين إلى مغامرة مجهولة عنده، وأدرك أنه إذا نجح بإقناع أمير المؤمنين بذلك فستلقى مصر قيادها إليه ويصبح جناحا الإسلام في أمن وسلام كاملين.

الانطلاقة الأولى:

وبسندٍ رجاله ثقات يحدثنا الإمام ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر عن هذا القرار الذي نفذ للتو بعد اتخاذه:

حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن لهيعة، عن عبيد اللَّه بن أبي جعفر وعياش بن عباس وغيرهما يزيد بعضهم على بعض قال:

«لما قدم عمر بن الخطاب الجابية[1] قام إليه عمرو فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إيذن لي أن أسير إلى مصر. وحرضه عليها وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكبر الأرض أموالًا، وأعجزها عن القتال والحرب. فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك، ويقال: ثلاثة آلاف وخمسمائة. فقال له عمر: سر وأنا مستخيرٌ اللَّهَ في مسيرك، وسيأتيك كتابي سريعًا - إن شاء اللَّه - فإن أدركك كتابي، وأنا آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن باللَّه واستنصره.

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر اللَّه فكأنه تخوَّف على المسلمين في وجههم ذلك؛ فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك الكتاب عمرًا وهو برفح فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر. فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار - كما هو - حتى نزل في قرية فيما بين رفح والعريش[2] فسأل عنها

---

(١) قدم عمر بن الخطاب الجابية أربع مرات: الأولى قبيل فتح المقدس، والثانية بعد فتح المقدس، والثالثة في أيام طاعون عمواس، ولكنه عاد أدراجه إلى المدينة لانتشار الوباء في المنطقة، والرابعة بعد الطاعون سنة ثماني عشرة الهجرية، ومعنى هذا أن عمرو بن العاص كان في أرض الشام حتى نهاية سنة ثماني عشرة الهجرية، ويبدو أن عمرو ابن العاص سار إلى مصر سنة تسع عشرة، ولكنه فتحها سنة عشرين الهجرية، وبذلك يمكن التوفيق بين ما جاء في المصادر المعتمدة عن تاريخ فتح مصر مع استبعاد ما جاء في تلك المصادر قبل سنة تسع عشرة؛ لأن ذلك يناقض ما جاء في أحداث التاريخ. انظر شيت خطاب في كتاب سفراء النبي (ص ٤١٢).

(٢) العريش: من أراضي مصر، ورفح آخر مواني فلسطين، ومنها يدخل الراكب إلى مصر.

فقيل: إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو لمن معه: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إلي وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله »(١).

ويقال: بل كان عمرو بفلسطين متقدمًا بأصحابه إلى مصر بغير إذن فكتب فيه إلى عمر؛ فكتب إليه عمر وهو دون العريش فحبس الكتاب فلم يقرأه حتى بلغ العريش، فقرأه فإذا فيه: من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص. أما بعد؛ فقد سرت إلى مصر ومن معك وبها جموع الروم، وإنما معك نفر يسير، فلعمري لو كانوا ثكل أمك ما سرت بهم، فإن لم تكن بلغت مصر فارجع. فقال عمرو: الحمد لله أية أرض هذه؟ فقالوا: مصر. فتقدم.

كما حدثنا ذلك عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب.. يقال: بل كان عمرو في جنده على قيسارية مع من كان بها من أجناد المسلمين، وعمر بن الخطاب إذ ذاك بالجابية؛ فكتب سرًّا فاستأذن إلى مصر، وأمر بأصحابه فتنحوا كالقوم الذين يريدون أن ينحوا من منزل إلى منزل قريب، ثم سار بهم ليلًا، فلما فقده أمراء الأجناد استنكروا الذي فعل، ورأوا أنه قد غرر؛ فرفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر: إلى العاص ابن العاص أما بعد؛ فإنك قد غررت بمن معك، فإن أدركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع، وإن أدركك وقد دخلت فامض واعلم أني ممدك.

(فيما حدثنا عبد الملك ابن مسلمة ويحيى بن خالد عن الليث بن سعد قال: ويقال: إن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بعدما فتح الشام أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خف معك فسر به. وبعث مع شريك بن عبدة، فندبهم عمرو فأسرع إلى الخروج مع عمرو، ثم إن عثمان بن عفان دخل على عمر بن الخطاب، فقال عمر: كتبت إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام، فقال عثمان: يا أمير المؤمنين إن عمرًا لمجرؤ وفيه إقدام وحب للإمارة؛ فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا، فندم عمر بن الخطاب على كتابه إلى عمرو إشفاقًا مما قال عثمان؛ فكتب إليه: إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر؛ فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامض لوجهك)(٢).

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٧٥ - ٧٧).

(٢) تبقى الرواية الأولى هي المعتمدة بينما سيقت الروايات الأخرى برواية التضعيف.

يقول الأستاذ عبد الخالق أبو رابية:

(ولو أقدم عمرو بن العاص على ذلك الفتح من تلقاء نفسه كما يروي المؤرخ البلاذري: (وأن عَمْرًا حاصر قيسارية، ثم استخلف عليها ابنه، ومضى إلى مصر من تلقاء نفسه، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يعنفه ويأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر، فورد إليه وهو بالعريش)[١] أو ما يذكر المؤرخ الكندي: « إن أمير المؤمنين عمر كره الإقدام على من في مصر من جموع الروم، وجعل عمرو يهون أمرها وقد أمر أصحابه أن يتسللوا بالليل ثم اتبعهم ». أجل، لو أقدم على ذلك لوجد عند خليفة المسلمين عصًا غليظة تحسن تأديبه وترده إلى الطاعة والجماعة، كما لم يرد في أي مصدر آخر من مصادر التاريخ الإسلامي عبارة أو إشارة إلى غضب أمير المؤمنين على قائده عمرو من أجل عصيان أو خروج على المألوف صدر عنه، كما لم يسبق لأحد من أمراء الأجناد على عهد عمر من افتأت عليه برأيه - حتى نصدق ما نسب إلى عمرو من المروق والعصيان. وسنرى من سياق حديثنا عن سيرة عمرو بن العاص كيف أنه ما كان يبت في أمر ذي شأن إلا بإذن من خليفته كما حدث قبل زحفه إلى الإسكندرية ثم في غزوه لإفريقية)[٢].

بينما يعلق أستاذنا شيت خطاب على ذلك بقوله:

« وليس من المعقول ولا من المنطق في شيء أن يمضي عمرو لفتح مصر من تلقاء نفسه، بدون استشارة عمر بن الخطاب وأخذ موافقته على هذا الفتح، ولا أن يقدم عمرو على المغامرة بفتح مصر خلافًا لرغبة عمر بن الخطاب وموافقته الكاملة الصريحة، وعمر يكتب إليه موبخًا معنفًا، وعمر بن الخطاب أقوى وأصلب من أن يفسح المجال لعامل من عماله أن يخالف رغباته، ويتحدى أوامره ويخرج على طاعته، فلا بد أن عمرو ابن العاص أقنع عمر بن الخطاب على فتح مصر، فكانت موافقة عمر بن الخطاب على فتح مصر موافقة صريحة لا لبس فيها ولا غموض »[٣].

لكن تبقى القضية ذات الإشكال في تاريخ فتح مصر هي قضية مشاركة عمرو ﷺ في حل أزمة الطعام للمسلمين عام الرمادة (وبالجملة فينبغي أن يكون فتحها قبل عام الرمادة؛ لأن عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القلزم من مصر إلى المدينة في عام

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢١٤). (٢) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ (ص ١٢٦).
(٣) سفراء النبي ﷺ لشيت خطاب.

الرمادة الذي كان سنة ثماني عشرة الهجرة أو سنة سبع عشرة، أي إن الفتح كان سنة ست عشرة)[١] ولكن الأمر لا يستقيم حيث تذكر المصادر وجود عمرو في الشام حتى عام ثماني عشرة عند قدوم أمير المؤمنين الجابية.

الفتوحات الأولى في مصر:

فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو بن العاص إلى مصر توجه إلى الفسطاط فكان يجهز على عمرو الجيوش، وكان على القصر[٢] رجل من الروم يقال له: الأعيرج واليًا عليه، وكان تحت يدي المقوقس، وأقبل عمرو حتى إذا كان بجبل الحلال نفرت معه راشدة[٣] وقبائل من لخم؛ فتوجه عمرو حتى إذا كان في العريش أدركه النحر فضحى عمرو عن أصحابه يومئذ بكبش، فتقدم عمرو بن العاص فكان أول موضع قوتل فيه الفرما قاتلته الروم قتالًا شديدًا نحوًا من شهر، ثم فتح اللَّه على يديه، ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواصر، فيقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس، فقاتلوه بها نحوًا من شهر حتى فتح اللَّه عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالًا شديدًا وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر يستمده؛ فأمده بأربعة آلاف تمام الثمانية آلاف فقاتلهم، وبعث خمسمائة عليهم خارجة بن حذافة، فلما كان في وجه الصبح نهض القوم فصلوا الصبح ثم ركبوا خيلهم، وغدا عمرو بن العاص على القتال فقاتلهم من وجههم وحملت الخيل التي كان وجَّه من ورائهم وأفحمت عليهم فانهزموا.

وفي حديث ابن وهب عن عبد الرحمن بن شريح عن شراحيل بن يزيد قال: فجاء رجل إلى عمرو بن العاص فقال: اندب معي خيلًا حتى آتيهم من ورائهم عند القتال. فأخرج معه خمسمائة فارس؛ فساروا من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني دائل قبل الصبح، وكانت الروم قد خندقوا خندقًا وجعلوا له أبوابًا وبثوا في أفنيتها حسك الحديد؛ فالتقى القوم حين صبحوا، وخرج اللخمي بمن معه من ورائهم فانهزموا حتى دخلوا الحصن)[٤].

---

(١) الولاة والقضاة للكندي. كتاب ولاة مصر (ص ٧).

(٢) لا ندري إن كان القصر هو ما يعرف اليوم بالأقصر أم لا.

(٣) راشدة وقبائل من لخم هي قبائل عربية انضمت إلى جيش عمرو ﷺ.

(٤) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم، مقتطفات (ص ٥٨، ٥٩).

لقد تحرك عمرو ﷺ ليفتح أمة كاملة بأربعة آلاف مقاتل، وهو تحرك الخبير الحذر المجرب، واستطاع أن يمضي من شمال مصر إلى وسطها، ويخوض معارك عنيفة بآلافه الأربعة، وفي الفرما بقي يقاتل العدو شهرًا كاملًا حتى فتحها اللَّه عليه، وفي بلبيس يلقى المقاومة نفسها؛ فيصمد نحوًا من شهر ثم يفتحها اللَّه عليه، ولكن المعركة الأعنف والأصعب كانت أم دنين؛ حيث لم يكفه شهر من الحصار للعدو، وأرسل يطلب المدد من أمير المؤمنين، لكن يتابع بعقليته الجبارة الحرب. فالصدام المباشر بغير خطط وتكتيك مناسبين لا يمكن أن ينهيها، وقد وردت روايات عديدة عن كيفية انتصاره في أم دنين يتحدث عنها أبو رابية بقوله: ثم سار عمرو بن العاص جنوبًا بمدينة هليوبولس سائرًا على جانب الصحراء حتى وصل إلى قرية تندوبناس - كما سماها الأسقف النقوشي، وقد سماها العرب بعد ذلك (أم دنين) وكانت إلى الشمال من حصن بابليون ثم سميت المقيس فيما بعد، وموضعها الآن حديقة الأزباكية في قلب القاهرة. وهنا فقط تنبه الروم إلى خطر الحرب عليهم بعد أن كانوا يظنون أن الأمر لا يعدو أن يكون غارة من غارات البدو، وما كان الروم ليرضوا أن تقع تلك القرية في يد العرب، وهي موقع حصين يجاوره مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة، وفي ذلك ما فيه من القيمة في الحرب، وكانت أم دنين مسلحة قوية، وإلى الجنوب يوجد جيش الروم الأكبر في حصن بابليون الذي كان في استطاعته أن يقاوم العرب في أي وقت يشاء ثم يعود إلى حصنه آمنًا وراء أسواره الضخمة.

وكان قائد الروم واسمه (تيودور) رجلًا نكولًا عاجزًا عن الحرب؛ لذلك مضت عدة أسابيع نشب فيها قتال خفيف بين الفريقين لم يؤذ الروم أذًى كثيرًا، ولكنه أجهد العرب بمن كان يُقتل منهم حتى صاروا في قلة لا تستطيع إتمام فتح مصر. وقد أيد المؤرخون العرب ذلك؛ فيقول المقريزي: « إنه كان قتال شديد عند أم دنين، وإن الفتح أبطأ على المسلمين »، ويقول أبو المحاسن: « كان قتال شديد ولم يدر الناس لمن تكون الغلبة »، أما ابن عبد الحكم فيقول: « وكانت في أم دنين مسلحة قوية ». وقوتل عمرو قتالًا شديدًا وأبطأ عليه الفتح؛ فكتب إلى أمير المؤمنين يستمده ثم ضاعف جنوده على أم دنين حتى فتح اللَّه عليه. ولما رأى عمرو بن العاص حرج موقفه في حصاره لأم دنين لكثرة من قُتل من جنوده أيام الحصار - بعث إلى الخليفة عمر يطلب منه المدد، ويستحثه على إرساله على جناح السرعة؛ ولكن المدد أبطأ عنه، وكان كل يوم من أيام إبطائه غُنمًا لأعداء العرب حتى أصبحت كفَّتا الحرب مترددتين، وخيل إلى الناس أن النصر في إحداهما،

لا يدري أحد أيتهما ترجح، ولم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى اقتحم المسلمون الحصن وغلبوا الروم على أمرهم؛ فسقطت أم دنين في أيديهم[١].

الفتح الأكبر حصن بابليون:

أو باب ليون - كما أطلق العرب عليه - والذي كان الفاتحة الحقيقية لفتح مصر.

ونعود إلى رواتنا الثقات يحدثوننا عن هذا الحصار والفتح:

حدثنا عثمان بن صالح، أخبرنا ابن لهيعة[٢] عن عبيد اللَّه بن أبي جعفر وعياش بن عباس وغيرهما يزيد بعضهم على بعض أن عمرو بن العاص حصرهم بالقصر الذي يقال له: بابليون حينًا، وقاتلهم قتالًا شديدًا يصبحهم ويمسيهم، فلما أبطأ الفتح عليه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك؛ فأمده عمرو بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل، وكتب إليه عمر بن الخطاب، أني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة ابن الصامت، ومسلمة بن مخلد .. وقال آخرون: بل خارجة بن حذافة الرابع لا يعدون مسلمة، وقال عمر بن الخطاب: اعلم أن معك اثني عشر ألفًا[٣]، ولا يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة[٤].

وقال غير عثمان: فكانوا قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابًا، وجعلوا حسك الحديد موتدة بأفنية الأبواب، وكان عمرو قد قدم من الشام في عدة قليلة؛ فكان يفرق أصحابه ليري العدو أنهم أكثر مما هم، فلما انتهى إلى الخندق نادوه أن قد رأينا ما صنعت، وإنما معك من أصحابك كذا وكذا؛ فلم يخطئوا برجل واحد. فأقام عمرو على ذلك أيامًا يغدو في السحر فيصفّ أصحابه على أفواه الخندق عليهم السلاح. فبينا هو على ذلك إذ جاءه خبر الزبير بن العوام[٥]، ثم قدم الزبير بن العوام في اثني عشر ألفًا؛ فتلقاه عمرو ثم أقبلا، ثم لم يلبث الزبير أن ركب، ثم طاف بالخندق، ثم

---

(١) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ لعبد الخالق أبو رابية (ص ١٣٨، ١٣٩).

(٢) ابن لهيعة: صدوق يخطئ وباقي رجال السند ثقات.

(٣) وهذا غير الرواية التالية التي تشير إلى أن الزبير ﷺ جاء بمدد اثني عشر ألفًا، بينما يرى الواقدي أن هذا المدد تكامل فيما بعد إلى هذا الرقم.

(٤) فتوح مصر وأخبارها (ص ٣٦١).

(٥) يذكر أبو رابية في كتابه (ص ١٤٣) أن المدد وصل - على وجه التقريب - من منتصف جمادى الأولى (١٩هـ - ٦٤٠م) إلى نهاية جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

فرق الرجال حول الخندق[١].

(ثم رجع إلى حديث عثمان عن ابن لهيعة قال: فلما قدم المدد على عمرو بن العاص ألح على القصر ووضع عليه المنجنيق، وقال عمرو يومئذ:

يوم لهمدان ويوم للصدف

والمنجنيق في بلي تختلف

وعمرو يرقل إرقال الشيخ الخرف

وكان عمرو إنما يقف تحت راية بلي.

فلما أبطأ الفتح على عمرو بن العاص، قال الزبير: إني أهب نفسي للَّه، أرجو أن يفتح اللَّه بذلك على المسلمين. فوضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يحيوه جميعًا. قال غير عثمان: فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفًا من أن ينكسر. قال: ثم رجع إلى حديث عثمان.

قال: فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه، وكبر وكبر معه، وأجابهم المسلمون من خارج - لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا فهربوا؛ فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن، فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه فحينئذ سأل عمرو بنَ العاص الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين عن كل رجل منهم، فأجابهم عمرو إلى ذلك)[٢].

المفاوضات الصعبة:

وتطالعنا رواية ثانية أقل صحة من تلك، ساقها ابن عبد الحكم، وتلقي إضاءات على المفاوضات الصعبة التي تمت بين الفريقين قبل عملية الفتح.

(حدثنا عثمان بن صالح[٣] أخبرنا خالد بن نجيح[٤] عن يحيى بن أيوب[٥] وخالد ابن حميد[٦] قالا: حدثنا خالد بن يزيد[٧] عن جماعة من التابعين بعضهم يزيد على بعض

---

(١) فتوح مصر (ص ٦١، ٦٢).

(٢) المصدر السابق (ص ٦٣).

(٣) ثقة من الحادية عشرة.

(٤) مجهول.

(٥) من السابعة، صدوق ربما أخطأ.

(٦) من السابعة لا بأس به.

(٧) ثقة فقيه من السادسة.

أن المسلمين لما حاصروا حصن بابليون وكان به جامعة الروم وأكابر القبط ورؤساؤهم وعليهم المقوقس؛ فقاتلوهم بها شهرًا، فلما رأى القوم الجد منهم على فتحه والحرص ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم؛ فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي، ودونهم جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة - موضع الصناعة اليوم - وأمره بقطع الجسر وذلك في جري النيل؛ فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا عليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا؛ فابعثوا إلينا رجالًا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفًا لطلبتكم ورجالكم، فابعثوا إلينا رجالًا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء. فلما أتت عمرو ابن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم؟! وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين؛ فرد عليهم عمرو مع رسله أنه ليس بيني وبينكم إلا ثلاث خصال: إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم اللَّه بيننا وهو خير الحاكمين..)[1].

(هذا هو المعهود في العرب منذ عشرات القرون؛ يغزون القرى المجاورة للروم طلبًا للسلب والنهب وطمعًا في القرى والمال والغنائم، وقد أزعج المقوقس هذا الإصرار الذي لم يعهده من قبل من هذه الأمة، وجاء الجواب من صانع التاريخ العظيم عمرو بما صعق به المقوقس من جواب لم يألفه، وروح لم يعهدها حين يخيره بين هذه الثلاث، وراح المقوقس بعبقرية يتعرف من وفده على هذا الطارق الجديد لأبواب مصر، فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال لهم: كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٥).

من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم)[١].

هذا هو الوصف الذي سمعه المقوقس، والمقوقس شخصية دينية عريقة إضافة إلى شخصيته المدنية والعسكرية، ويعرف أنه يحارب طرازًا جديدًا من البشر. فاقوا أتباع الأنبياء من قبلهم؛ بل بشرت بهم كتب الأنبياء السابقة وبجيلهم المتفرد في التاريخ فقال:

« والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم »[٢].

هذه هي الحرب العظيمة التي خاضها عمرو؛ فهو يحارب بعقله قبل أن يحارب بسيفه، وإن هذه الهزيمة النفسية التي أوقعها عمرو بغريمه المقوقس أضخم من أية معركة هائلة قوامها مائة ألف سيف، وذلك حين حبس هؤلاء الرسل يومين في المعسكر الإسلامي ليشهدوا الجيل النبوي العظيم.

(فرد إليهم المقوقس رسله: ابعثوا لنا رسلًا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وإياهم إلى من عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم؛ فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة ابن الصامت[٣] وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم[٤]، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث خصال: فإن أمير المؤمنين تقدم إلي وأمرني أن لا أقبل شيئًا سوى خصلة من هذه الثلاث خصال، وكان عبادة بن الصامت أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة؛ فهابه المقوقس لسواده فقال: نحُّوا عني هذا الأسود. قدموا غيره يكلمني. فقالوا جميعًا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم فينا، وإنما نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله. قال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟! قالوا: كلا إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعًا وأفضلنا

(١، ٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٥).

(٣) ذكر ابن عبد الحكم عن سعيد بن عفير قال: أدرك الإسلام من العرب عشرة نفر طول كل واحد منهم عشرة أشبار (٢٦٠ سم) عبادة بن الصامت أحدهم (ص ٦٦).

(٤) وصل مع المدد عدد لا بأس به من الصحابة منهم عبادة ﷺ بينما لم يكن في الجيش الأول أحد من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وعمرو هو أقدمهم، وكان إسلامه - كما تعلم - في أوائل السنة الثامنة للهجرة.

سابقة وعقلًا ورأيًا، وليس ينكر السواد فينا. فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود، كلمني برفق؛ فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك علي ازددت لذلك هيبة). وصدق الوفد؛ فليس في هؤلاء العشرة أعظم فضلًا وأسبق سابقة من عبادة بن الصامت ﷺ، وعمرو ﷺ يوم اختار عبادة لرئاسة الوفد لم تكن القضية عنده مجرد طول هامته وعظم قامته وهيبته وسواده، وهذه مهمة - عرضا - في بث الرعب في قلوب العدو، لكن الأصل في ذلك أنه من أعرق المسلمين عظمة وفضلًا وسيادة؛ فعبادة ﷺ قاتل عمرو بن العاص على الإسلام ثماني سنين، وعبادة كان أحد الاثني عشر الأوائل من الأنصار والذين بايعوا على الإسلام في بيعة العقبة الأولى، وعنه رويت أخبارها، وعبادة أحد النقباء الاثني عشر وهي أول حكومة إسلامية في الأرض، وهو عضو هذه الحكومة، وهو الذي ضربه اللَّه - تعالى - مثلًا للمؤمنين في الأرض يوم عز المثل في ولائه للَّه ولرسوله ولجماعة المؤمنين: يوم بني قينقاع (قال: محمد بن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول اللَّه ﷺ تشبث بأمرهم عبد اللَّه ابن أُبيّ وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول اللَّه ﷺ وكان أحد بني عوف ابن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد اللَّه بن أُبي فجعلهم إلى رسول اللَّه ﷺ وتبرأ إلى اللَّه ورسوله من حلفهم، وقال: يا رسول اللَّه أبرأ إلى اللَّه وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى اللَّه ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم؛ ففيه وفي عبد اللَّه ابن أبي نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] إلى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1] [المائدة: ٥٦] وأخيرًا عبادة هو أحد الأربعة الكبار الذين بعثهم عمر أمير المؤمنين على رأس الجيش؛ فعمرو يعلم أن عبادة بن الصامت رائده وأستاذه في دين اللَّه، ولئن عاش عمرو مع رسول اللَّه ﷺ عامًا واحدًا في رفقته وصحبته؛ فقد عاش عبادة عشرة أضعاف ذلك مع رسول اللَّه ﷺ، وعظمة عمرو إذن عبقريته في اختيار هذه الكفاءة العظيمة الخالدة في مكانها المناسب، ولنستمع إلى هذا الجيل العظيم في دين اللَّه، ماذا فعل بأعداء اللَّه؟

(فتقدم إليه عبادة فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادًا مني وأفظع منظرًا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٤).

لي، وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك - بحمد اللَّه - ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني، وكذلك أصحابي؛ وذلك أنَّا رغبتنا وهمتنا الجهاد في سبيل اللَّه واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب اللَّه ورسوله لرغبة في دنيا ولا طلبًا للاستكثار منها، إلا أن اللَّه قد أحل لنا ذلك؛ جعل ما غنمنا من ذلك حلالًا، وما يبالي أحدنا أن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهمًا؛ لأن غايتنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة اللَّه واقتصر على هذا الذي هو بيده ويبلغه ما كان في الدنيا؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء؛ إنما النعيم والرخاء بالآخرة، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره، وإن قوله عندي لأهيب من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم اللَّه لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها. ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك وما ذكرت، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها. وقد توجه لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم؛ لضعفكم وقوتهم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرًا وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما في أيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار؛ فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به)[1].

لقد بذل المقوقس كل ما يملكه من دهاء في تدمير أعصاب المسلمين وتوهين قوتهم وتحطيم روحهم المعنوية، وإذا كان يرضيهم القليل من الدنيا؛ فلكل جندي ديناران وللأمير مائة وللخليفة ألف، فهذا يمكن أن يقنعهم ليجنبهم خطر الإبادة بعد هذه الأشهر

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٦، ٦٧).

العديدة من الحصار دون جدوى وقبل أن تأتي أمواج الروم للقضاء عليهم عن آخرهم.

وكان جواب عبادة ﷺ بالمستوى العالي نفسه الذي يتناسب مع شموخ المقوقس واستعلائه - في الظاهر على الأقل.

فقال عبادة بن الصامت: ياهذا لا تغرن نفسك وأصحابك. أما ما تخوفنا من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم؛ فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه إن كان ما قلتم حقًّا، فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إذ قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة لنا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، والله ﷻ قال لنا في كتابه: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همٌّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده. وأما قولك إننا في ضيق وشدة من معاشنا؛ فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذي تريد فبينه؛ فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نحييك إليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت ولا تطع نفسك في الباطل، وبذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ إلينا من قبل)[1].

وهنا تبرز عظمة عُبادة في حرصه على الظفر بالمقوقس دينًا وقلبًا قبل أن يظفر به قتيلًا أو أسيرًا؛ فأحسن تمامًا عرض وضع المقوقس وصحبه حين يدخلون في دين الله ثم عند الجزية ثم عاقبة الإصرار بالسيف: (قال: أما إذا جئتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسوله وملائكته، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين الله؛ فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم ولم نستحلَّ أذاكم ولا التعرض لكم، فإن أبيتم إلا الجزية فأدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم كل عام أبدًا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٦٧، ٦٨).

عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إن كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا ونصيب ما نريد منكم، هذا ديننا الذي ندين اللَّه ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره؛ فانظروا لأنفسكم.

فقال المقوقس: هذا ما لا يكون أبدًا، ما تريدون إلا أن تأخذونا نكون لكم عبيدًا ما كانت الدنيا. قال عبادة: هو ذلك، فاختر ما شئت. فقال له المقوقس: ألا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال؟ فرفع عبادة يديه فقال: لا ورب هذه السماء، وهذه الأرض وبكل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها؛ فاختاروا لأنفسكم. فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه فقال: قد فرغ القوم فما ترون؟ فقالوا: ويرضى أحد بهذا الذل؟! أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا ما لا يكون أبدًا أن نترك دين المسيح ابن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه، وأما ما أرادوا من أن يَسبُونا ويجعلونا عبيدًا؛ فالموت أيسر من ذلك، لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارًا كان أهون علينا.

فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون. فقام عبادة وأصحابه، فقال المقوقس عند ذلك لمن حوله: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث؛ فواللَّه ما لكم بهم من طاقة، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين. فقالوا: وأي خصلة نجيبهم إليها؟ فقال: إذًا أخبركم؛ أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم؛ فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة. قالوا: أفنكون لهم عبيدًا أبدًا؟! قال: نعم تكونون عبيدًا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدًا تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أنتم وأهلوكم وذراريكم. قالوا: الموت أهون علينا. وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط).

إن القائد عندما يهزم إنما ينهزم جيشه مهما كان قويًّا، وسنجد أن هذه الهزيمة التي ألحقها عبادة بالمقوقس لن تنتهي به فيما بعد إلا بالاستسلام.

(وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط. وبالجزيرة وبالقصر من جمع القبط والروم جمع كثير، فألَحَّ عليهم المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر حتى ظفروا وأمكن اللَّه منهم؛ فقُتل منهم خلق كثير، وأُسِرَ من أُسِرَ، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة،

وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه، لا يقدرون على أن ينفذوا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى. والمقوقس يقول لأصحابه: ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم؟! ما تنتظرون؟ فواللّه لتجيبنهم إلى ما أرادوا طوعًا أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرهًا، فأطيعوني من قبل أن تندموا. فلما رأوا منهم ما رأوا، وقال لهم المقوقس ما قال - أذعنوا)[١].

وثيقة الصلح:

وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: إني لم أزل حريصًا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت إلي بها؛ فأبى ذلك عليَّ من حضرني من الروم والقبط، ولم يكن لي أن أفتئت عليهم في أموالهم وقد عرفوا نصحي لهم، وحبي صلاحهم ورجعوا إلى قولي؛ فأعطني أمانًا أجتمع أنا في نفر من أصحابي وأنت في نفر من أصحابك؛ فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعًا، وإن لم يتمَّ رجعنا إلى ما كنا عليه. فاستشار عمرو أصحابه في ذلك، فقالوا: لا نجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح اللّه علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئًا وغنيمة كما صار لنا القصر وما فيه. قال عمرو: قد علمتم ما عهد إلي أمير المؤمنين في عهده، فإن أجابوا إلي خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليَّ فيها؛ أجبتهم إليها وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم. فاجتمعوا على عهد بينهم، واصطلحوا على (أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس؛ شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النساء شيء، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيء منها. فشرط هذا كله على القبط خاصة، وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليه الدينارين رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة؛ فكان جميع من أُحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس؛ فكان فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة)[٢].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٧٠).

(٢) المصدر السابق (ص ٧٠ - ٧٨).

وشرط المقوقس للروم أن تخيروا؛ فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على ذلك لازمًا له مفترضًا عليه من أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلا كانوا جميعًا على ما كانوا عليه، وكتبوا به كتبًا)[1].

هرقل يرفض الصلح:

(وكتب المقوقس إلى ملك الروم كتابًا يعلمه على وجه الأمر؛ فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه:

إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا وبمصر ومن بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى. فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا؛ فإن عندك من الروم بالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة. والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت؛ فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم؟! فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة رأس؛ فناهضهم القتال ولا يكون لك رأي غير ذلك. وكتب بمثل ذلك كتابًا إلى جماعة الروم؛ فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم: واللَّه إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على قوتنا وكثرتنا، إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا؛ وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل يتمنى أن لا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده، ويرون أن لهم أجرًا عظيمًا فيمن قتلوا منا، ويقولون إنهم إن قتلوا دخلوا الجنة وليس لهم رغبة في الدنيا.

ونحن قوم نكره الموت، ونحب الحياة ولذتها. فكيف نستقيم نحن وهؤلاء؟! وكيف صبرنا معهم؟! واعلموا يا معشر الروم، واللَّه إني لا أخرج مما دخلت فيه ولا صالحت العرب عليه، وإني لأعلم أنكم سترجعون غدًا إلى رأيي وقولي وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني؛ وذلك أني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه. وَيْحَكم! أما يرضى أحدكم أن يكون آمنًا على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة؟! ثم أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص فقال له: إن الملك قد كره ما فعلت

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٧٠، ٧١).

وعجزني وكتب إلي وإلى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك، وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم، ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه، وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قبلهم نقض وأنا مِتُمٌّ لك على نفسي والقبط متمُّون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم، وأما الروم فأنا منهم بريء، وأنا أطلب منك ثلاث خصال. قال له عمرو: ما هن؟

قال: لا تنقض بالقبط وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه؛ فهم متمون لك على ما تحب.

وأما الثانية: إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئًا وعبيدًا فهم أهل لذلك؛ لأني نصحتهم فاستغشوني، ونظرت لهم فاتهموني.

وأما الثالثة: أطلب إليك إن أنا مت أن تأمرهم أن يدفنوني في أبي يحنس بالإسكندرية.

فأنعم له عمرو بن العاص بذلك، وأجابه إلى ما طلب على أن يضمنوا له الجسرين ففعلوا؛ فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم، وسمعت بذلك الروم، فاستعدت واستجاشت وقدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم، فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح، فخرج إليهم عمرو بن العاص من الفسطاط متوجهًا إلى الإسكندرية)[(١)].

الفتح:

وحيث رفض قيصر نتائج المفاوضات كان لا بد من العودة إلى استئناف الحرب من جديد، وإن كان الصلح يبقى نافذًا على القبط والمقوقس؛ لكن عظماء الروم أصرُّوا على المواجهة.

(واستمر الحصار سبعة أشهر، فرأى الزبير بن العوام خللًا في سور الحصن فنصب سلمًا وأسنده إلى الحصن، وقال: إني أهب نفسي للَّه - تعالى - فمن شاء أن يتبعني فليفعل. فتبعه جماعة حتى أوفى على الحصن فكبر وكبروا، فلما رأى الروم أن المسلمين قد ظفروا بالحصن انسحبوا؛ ففتحت الفسطاط أبوابها للمسلمين)[(٢)].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٧٣).

(٢) سفراء النبي ﷺ لمحمود شيت خطاب (ص ٤١٩).

فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه، وكبر وكبر من كان معه وأجابهم المسلمون من خارج - لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا؛ فهربوا، فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن، فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه؛ فحينئذ سأل عمرًا الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم، فأجابه عمرو إلى ذلك[١].

وهكذا يمكن الجمع بين الروايتين؛ إذإن كليهما عن عثمان بن صالح حول المفاوضات والحرب وحول فتح مصر صلحًا أم عنوة (ولما فتح عمرو حصن بابليون، وكانت معركة فتح هذا الحصن من المعارك الإسلامية الحاسمة في التاريخ الإسلامي - فتحت مصر على مصراعيها للفاتحين المسلمين؛ كما فتحت معركة القادسية الحاسمة أبواب العراق، ومعركة اليرموك الحاسمة أبواب أرض الشام، ومعركة نهاوند الحاسمة (معركة فتح الفتوح) أبواب بلاد فارس للفاتحين المسلمين، وبدأ عمرو بمعارك استثمار الفوز التي تعقب - عادة - كل معركة حاسمة؛ فوجه عبد اللّه بن حذافة السهمي إلى (عين شمس) فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على صلح الفسطاط، كما وجه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم والأشمونين وإخميم والبشرودات وقرى الصعيد فصالحها أيضًا على مثل صلح الفسطاط.

كما وجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطاو ودهقيلة وبنا وبوصير؛ فصالحها على مثل صلح الفسطاط أيضًا ووجه عقبة بن عامر الجهني - ويقال: مولاه وردان مولى عمرو - إلى سائر قرى أسفل مصر، ففعل مثل ذلك؛ وبذلك استجمع عمرو فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج[٢].

لقد بدأت انتصارات عمرو الكبرى والحاسمة منذ وصول المدد الجديد لعمرو ﷺ الذي كان فيه العشرات من السابقين الأولين، وكان به المئات من الصحابة، وعلى رأس هؤلاء جميعًا أولئك الأربعة الأفذاذ الذين كانوا في حساب عمر ﷺ أربعة آلاف من الرجال؛ كل واحد منهم بألف.

فالمعركة الكبرى التي سبق وعرضنا لها في بابليون ولاحظنا أن الذي أنهاها سلمًا وهَزَمَ المقوقسَ فيها في أعماقه هو عبادة بن الصامت أحد هؤلاء الأربعة، وأن

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٣).
(٢) سفراء النبي ﷺ (ص ٤٢١، ٤٢٢).

الذي أنهاها حربًا واحتل حصنها هو الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين، وأحد هؤلاء الأربعة، وأن خارجة بن حذافة الذي أنهى حرب الفيوم والأشمونيين وإخميم والبشرودات وقرى الصعيد هو أحد هؤلاء الأربعة، وأن الذي فتح دنيس ودماي طوتونة ودميرة وشفاد دقهلية وبنا وبوصير هو عمير بن وهب الجمحي أحد هؤلاء الأربعة - على اختلاف الروايات -، وكان من غرر وسادة الصحابة السابقين الأولين الذين حضروا مددًا لعمرو: الزبير بن العوام، وعمرو بن العاص، وعبد اللَّه بن عمرو، وخارجة ابن حذافة، وعبد اللَّه بن عمر، وقيس بن أبي العاص السهمي، والمقداد بن الأسود، ونافع بن عبد القيس الفهري، وأبو رافع مولى رسول اللَّه ﷺ، وعبد الرحمن وربعة ابنا شرحبيل بن حسنة، ووردان مولى عمرو، وسعد بن أبي وقاص بن أبي سرح العامري، وشهد الفتح من الأنصار: عبادة بن الصامت، ومحمد بن مسلمة، ومسلمة بن مخلد، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء عويمر بن عامر.

الفتح الكبير بالإسكندرية:

ثم رجع إلى حديث عثمان قال:

فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم، وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت.. قدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم فيها جموع من الروم عظيمة بالعدة والسلاح، فخرج إليهم عمرو بن العاص من الفسطاط متوجهًا إلى الإسكندرية؛ فلم يلق منهم أحدًا حتى بلغ قرنوط فلقي بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالًا خفيفًا فهزمهم اللَّه، ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا به ثلاثة أيام، ثم فتح اللَّه للمسلمين، وولى الروم أكتافهم، وابن العاص شريك بن سمي في آثارهم، ثم التقوا بسلطيس فاقتتلوا بها قتالًا شديدًا ثم هزمهم اللَّه، ثم التقوا بالكربون فاقتتلوا به بضعة عشر يومًا وكان عبد اللَّه بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو ثم فتح اللَّه للمسلمين وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية؛ فتحصن بها الروم وكانت عليها حصون مبنية لا ترام حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة، ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم،

وكان ملك الروم يقول: لئن ظهرت العرب على الإسكندرية؛ إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وإنما كان عيد الروم بالإسكندرية حيث غلبت العرب على الشام، فقال الملك: لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها. فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه إعظامًا لها، وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: ما بقاء الروم بعد الإسكندرية. فلما فرغ من جهازه صرعه اللَّه فأماته وكفى المسلمين مؤنَتَه، وكان موته في سنة تسع عشرة، فكسر اللَّه بموته شوكة الروم، فرجع جمع كثير مما كان توجه إلى الإسكندرية واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال فقاتلوهم قتالًا شديدًا.

ثم رجع إلى حديث عثمان بن صالح[1] قال: حدثني خالد بن نجيح قال: أخبرني الثقة أن عمرو بن العاص قاتل الروم بالإسكندرية يومًا من الأيام قتالًا شديدًا، فلما استحر القتل بينهم بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد فصرعه الرومي وألقاه عن فرسه، وهوى إليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه. وكان مسلمة[2] لا يقام سبيله ولكنها مقادير؛ ففرحت بذلك الروم، وشق ذلك على المسلمين، وغضب عمرو بن العاص لذلك. كان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن؛ فقال عمرو بن العاص عند ذلك: ما بال الرجل المسنه[3] الذي يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال، ويتشبه بهم. فغضب من ذلك مسلمة ولم يراجعه، ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية؛ فقاتلهم العرب في الحصن، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعًا من الحصن إلا أربعة نفر بقوا في الحصن وأغلقوا عليهم باب الحصن أحدهم عمرو بن العاص، والآخر مسلمة بن مخلد ولم نحفظ الآخرين.

مسلمة ينقذ أميره:

(.. حالوا بينهم وبين أصحابهم، ولا تدري الروم من هم؛ فلما رأى ذلك عمرو ابن العاص وأصحابه التجؤوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فاحترزوا به فأمروا روميًا أن يكلمهم بالعربية فقال لهم: إنكم صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم. فامتنعوا عليهم، ثم قال لهم: إن في أيدي أصحابكم منا رجالًا أسروهم

---

(١) وهو السند المقبول السابق: حدثنا عثمان بن صالح أخبرنا خالد بن نجيح عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد قالا: حدثنا خالد بن يزيد عن جماعة من التابعين بعضهم يزيد على بعض، وكل رواة السند صدوقون.

(٢) في إحدى الروايات السابقة أنه أحد الأربعة الذين بعثهم عمر ﷺ وعده بألف رجل.

(٣) المسنه: الكثير اللحم.

ونحن نعطيكم العهود نفادي بكم أصحابنا ولا نقتلكم. فأبوا عليهم، فلما رأى ذلك الرومي منهم قال لهم: هل لكم إلى خصلة وهي نصف فيما بيننا وبينكم أن تعطونا العهد ونعطيكم مثله على أن يبرز منكم رجل ومنا رجل؛ فإن غَلَبَ صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم، وإن غَلَبَ صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم. فرضوا بذلك، وتعاقدوا عليه، وعمرو ومسلمة وصاحباهما في الحصن في الديماس فتداعوا إلى البراز؛ فبرز رجل من الروم قد وثقت الروم بنجدته وشدته وقال: يبرز رجل منكم لصاحبنا؛ فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة. وقال: ما هذا؟ تخطئ مرتين، تشذ عن أصحابك وأنت أمير وإنما قوامهم بك، وقلوبهم معلقة نحوك ولا يدرون ما أمرك، ثم لا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل، فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك، مكانك وأنا أكفيك - إن شاء اللَّه -. فقال عمرو: دونك فربما فرجها اللَّه بك. فبرز مسلمة والرومي فتجاولا ساعة، ثم أعانه اللَّه عليه فقتله فكبر مسلمة وأصحابه. ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه؛ ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا تدري الروم أن أمير القوم فيهم حيث يبلغهم بعد ذلك، فأسفوا على ذلك.. وأكلوا أيديهم تغيظًا على ما فاتهم، فلما خرجوا استحيى عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب؛ فقال عمرو عند ذلك: استغفر لي ما كنت قلت لك. فاستغفر له، وقال عمرو: ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار: مرتين في الجاهلية، وهذه الثالثة، وما منهن مرة إلا وقد ندمت واستحييت، وما استحييت من واحدة منهم أشد مما استحييت مما قلت لك، واللَّه إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما بقيت)[١]. قال: ثم رجع الحديث إلى عثمان[٢] عن ابن لهيعة[٣] عن يزيد بن أبي حبيب[٤].

أمير المؤمنين وتأخر الفتح[٥]:

(.. قال: أقام عمرو بن العاص محاصرًا الإسكندرية أشهرًا فلما بلغ ذلك عمر ابن الخطاب قال: ماأبطؤوا بفتحها إلا لما أحدثوا).

(حدثنا يحيى بن خالد[٦] عن عبد الرحمن بن زيد [٧]بن أسلم عن أبيه[٨] قال: لما

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٨، ٦٩).

(٢) ثقة من الحادية عشرة.

(٣) صدوق من السابعة.

(٤) ثقة فقيه من الخامسة وكان يرسل.

(٥) فتوح مصر ربما.

(٦) يحيي بن خالد (مجهول).

(٧) عبد الرحمن بن زيد: ضعيف.

(٨) زيد بن أسلم، مولى عمر، ثقة عالم وكان يرسل.

أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد؛ فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر! إنكم تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن اللَّه - تعالى - لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيَّر غيرهم. فإذا أتاك كتابي هذا؛ فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، وأْمر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة؛ فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى اللَّه ويسألوه النصر على عدوهم. فلما أتى عمرو الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا إلى اللَّه ﷻ ويسألوه النصر؛ ففتح اللَّه عليهم.

ويقال: إن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد، كما حدثنا عثمان بن صالح عمن حدثه وقال: أشر عليَّ في قتال هؤلاء. فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول اللَّه ﷺ؛ فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك. قال عمرو: ومن ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت. قال: فدعا عمرو عبادة فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت[1] ناولني سنان رمحك. فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له، وولاه قتال الروم؛ فتقدم عبادة مكانه، فصاف الروم وقاتلهم؛ ففتح اللَّه على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.

حدثنا أبي عبد اللَّه بن عبد الحكم قال: لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس فقال: فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يُصلح آخره إلا من أصلح أوله - يريد الأنصار - فدعا عبادة بن الصامت، فعقد له؛ ففتح اللَّه على يديه الإسكندرية في يومه ذلك.

ثم رجع إلى حديثه يحيى بن أيوب عن خالد بن حميد قال: حاصروا الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك، وفُتحت يوم الجمعة المستهل المحرم

(١) إن نزلت: ما نزلت.

سنة عشرين، وحدثنا عبد الملك بن مسلمة[(١)] عن مالك بن أنس[(٢)] أن مصر فتحت سنة عشرين)[(٣)].

أما البلاذري فيرى أن هذا الفتح قد تم سنة إحدى وعشرين:

(قالوا: لما فتح عمرو بن العاص مصر أقام بها ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزحف إلى الإسكندرية، فكتب إليه بذلك فسار إليها في سنة إحدى وعشرين، واستخلف على مصر خارجة بن حذافة .. وكان ما دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له، وقالوا: نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية. فلقيهم بالكربون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وكان فيهم أهل سخا وبلهيت والخيس وسلطيس وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله إلا أن القبط في ذلك يحبون الموادعة؛ فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة، فأبى عمرو ذلك؛ فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجههن إلى داخله، وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجوههم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك. فأرسل إليه عمرو: إنا قد رأينا ما صنعت وما بالكثرة غَلَبنا من غَلَبنا؛ فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان. فقال المقوقس لأصحابه: قد صدق هؤلاء القوم، أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية، فنحن أولى بالإذعان. فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة؛ فقاتلهم المسلمون وحصروهم ثلاثة أشهر، ثم إن عَمْرًا فتحها بالسيف وغنم ما فيها واستبقى أهلها ولم يقتل ولم يَسْبِ وجعلهم ذمة كأهل ليونة، فكتب إلى عمر بالفتح مع معاوية بن خديج الكندي ثم السكوني وبعث إليه معه بالخمس)[(٤)].

أمير المؤمنين يتلقى خبر الفتح:

وبعث عمروبن العاص - كما حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة - معاوية بن خديج وافدًا إلى عمر بن الخطاب بشيرًا بالفتح، فقال له معاوية: ألا تكتب معي؟ فقال له عمرو: وما أصنع بالكتاب ألست رجلًا عربيًّا تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت. فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية فخرَّ عمر ساجدًا وقال: الحمد للّه.

---

(١) عبد الملك بن مسلمة (مجهول).

(٢) مالك بن أنس: ثقة عالم فقيه رأس المتقين وكبير المثبتين.

(٣) فتوح مصر والمغرب (ص ٨٠).

(٤) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢١، ٢٢٢).

وحدثنا عبد اللَّه بن يزيد المقرئ[١] حدثنا موسى بن علي عن أبيه[٢] أنه سمعه يقول: سمعت معاوية بن خديج يقول: بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية فقدمت المدينة في الظهيرة فأنخت راحلتي بباب بالمسجد، ثم دخلت المسجد فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحبًا علي ثياب السفر، فأتتني فقالت: من أنت؟ فقلت: أنا معاوية بن خديج رسول عمرو ابن العاص الأمير فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتد أسمع حفيف إزارها على ساقها - أو ساقيها - حتى دنت مني فقالت: قم، فأجب أمير المؤمنين يدعوك. فتبعتها فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى. فقال: ما عندك؟ فقلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح اللَّه الإسكندرية. فخرج معي إلى المسجد فقال للمؤذن: أذِّن في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس ثم قال لي: قم فأخبر أصحابك. فقمت فأخبرتهم، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس فقال: يا جارية هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت. فقال: كل؛ فأكلت على حياء، ثم قال: كل؛ فإن المسافر يحب الطعام. فلو كنت آكلًا لأكلت معك. فأصبت على حياء ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق، فقال: كل، فأكلت على حياء، ثم قال: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت: أمير المؤمنين قائل[٣]. قال: بئس ما قلت - أو بئس ما ظننت - لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي؛ فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية؟!)[٤].

هذا هو رأس الأمة الربانية الذي يعيش قلبه مع جنده والزيت أدم له، وهو الذي يضع الخطط لهم من المدينة، وهذا أميره عمرو قد بدأ يدرك ﷺ أن آخر هذه الأمة لايصلح إلا بما صلح به أولها من الأنصار من أصحاب رسول اللَّه ونفذ وصية أمير المؤمنين في الدعاء والتضرع والتلبية، وسلم القيادة لعبادة بن الصامت، كما نعجب من هذا القائد العظيم عمرو بن العاص الذي لا يعرف اليأس سبيلًا إليه؛ فيبقى في الحصار تسعة أشهر دون أن يثني هذا الحصار عزيمته أو يفل همته، والصبر هذا يرافقه الجوع والعطش والحر والبرد واختلاف الأجواء وتغير البيئة، كل هذا أبقاه يواجه أعتى دول الأرض وأقواها؛ فهو لم يعرف لحظة من لحظات حياته الراحة؛ فقد مضى إلى عُمان ومن عمان إلى

(١) من شيوخ مالك، ثقة، من السادسة.

(٢) موسى بن علي عن أبيه (مجهول).

(٣) قائل: من القيلولة وهي النوم في النهار.

(٤) فتوح مصر والمغرب وأخبارها (ص ٨١).

الشام، ومن الشام إلى فلسطين والأردن، ومن فلسطين إلى مصر، يجوب الجزيرة العربية شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا ماضٍ في سبيل اللَّه لتحقيق موعود اللَّه، وقد شارف على الستين من عمره أو زاد عنها، يريد أن يصنع فجرًا جديدًا لهذه الأمة، ويتعرض لأشد أنواع الخطر، ويحبس في أرض العدو ولا يَهِنُ ولا يضعف ولا يستكين، ولولا هذا الصبر العظيم والشجاعة الفائقة والوعي والتخطيط للمواجهة - لما أمكن أن يتغلب على هذه المصاعب جميعًا ويقهر الروم وإمبراطورهم الذي مضى كمدًا وحسرة، وهو الذي كان يقول: لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها. وسنرى فيما بعد أن الروم عادوا فاحتلوا الإسكندرية بعد أربع سنوات وأخرجهم منها عمرو بن العاص وهدم أسوارها، وأنهى الوجود الروماني منها إلى الأبد.

* * *
* *
*

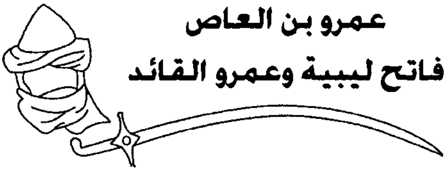

عمرو بن العاص
فاتح ليبية وعمرو القائد

ذكر فتح الفيوم:

حدثنا سعيد بن عفير وغيره قال: لما تم الفتح للمسلمين بعث عمرو جرائد الخيل إلى القرى التي حولها فأقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون بمكانها حتى أتاهم رجل فذكرها لهم. فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفي، فلما سلكوا في المجابة فلم يروا شيئًا؛ فهمُّوا بالانصراف، فقالوا: لا تعجلوا، سيروا؛ فإن كان كذب فما أقدركم على ما أردتم فلم يسيروا إلا قليلًا حتى طلع لهم سواد الفيوم، فهجموا عليها، فلم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم[١].

وبعث عمرو بن العاص نافع بن عبد القيس الفهري: وكان نافع أخا العاص بن وائل لأمه؛ فدخلت خيولهم أرض النوبة صوائف كصوائف الروم. فلم يزل الأمر كذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر وأمر عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح فصالحهم[٢].

ذكر فتح برقة:

قال: فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية[٣].

(وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن مسلمة بن سعيد عن إسحاق بن عبد اللَّه ابن أبي فروة قال: كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث؛ فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة. قال الواقدي: وكان عبد اللَّه بن عمرو بن العاص يقول: لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلًا أسلم ولا أعزل منها)[٤].

(وحدثني بكر بن الهيثم قال: حدثنا عبد اللَّه بن صالح عن معاوية بن صالح قال: كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٦٩). (٢، ٣) المصدر السابق (ص ١٧٠).
(٤) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢٦).

المغرب فبلغ زويلة، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم؛ قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعًا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها إلى الفقراء ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم)[١].

فتح طرابلس:

قال[٢]: ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس في سنة اثنتين وعشرين. حدثنا يحيى بن عبد اللّٰه بن بكير عن الليث بن سعد قال: غزا عمرو بن العاص طرابلس في سنة ثلاث وعشرين، ثم رجع إلى حديث عثمان، فنزل على القبة التي على الشرف من شرقها فحاصرها شهرًا لا يقدر منهم على شيء؛ فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم في معسكر عمرو متصيدًا في سبعة نفر، فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر، ثم رجعوا فأصابهم البحر فأخذوا على ضفة البحر وكان البحر لاصقًا بسور المدينة، ولم يكن فيما بين البحر والمدينة سور، وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتهم، فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة، ووجدوا مسلكًا إليها من الموضع الذي غاض فيه البحر، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم، وأبصر عمرو وأصحابه السلة في جوف المدينة، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم، وغنم عمرو ما كان في المدينة[٣].

(وكان من بسبرت متحصنين واسمها نبارة، وسبرت السوق القديم، فلما بلغهم محاصرة مدينة طرابلس وأنه لم يصنع فيهم شيئًا ولا طاقة له بهم أمنوا، فلما ظفر عمرو ابن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلًا كثيفًا من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصحبت خيله مدينة سبرت وقد غفلوا وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوها؛ فلم ينج منهم أحد، واحتوى عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو)[٤].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢٦).

(٢) كل روايات ابن عبد الحكم عن سعيد بن عفير. قال عنه ابن حجر: صدوق عالم بالأنساب وغيرها، قال الحاكم: يقال: إن مصر لم تخرج أجمع للعلوم منه.

(٣) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٧١). (٤) المصدر السابق (ص ١٧٢).

الاستئذان في غزو أفريقية:

(وأراد عمرو أن يوجه إلى المغرب فكتب إلى عمر بن الخطاب كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن أبي تميم الجيشاني: إن اللَّه قد فتح علينا أطرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها اللَّه على يديه فعل. فكتب إليه عمر: إنها ليست بأفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت)[١].

(وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئًا؛ فكانوا يغدرون به كثيرًا، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم وكان خبرهم قد بلغ عمر)[٢].

(قال: ثم رجع إلى حديث عثمان بن صالح وغيره قال: فأتى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر فيه أن الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه، وكان عمرو قد عاهد المقوقس على أن لا يكتمه أمرًا يحدث؛ فانصرف عمرو راجعًا مبادرًا لما أتاه، وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون)[٣].

الفتح الثاني للإسكندرية:

(فلما هزم اللَّه - تبارك وتعالى - وفتح الإسكندرية - كما حدثنا عبد اللَّه بن صالح عن الليث - وهرب الروم في البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم).

قال: وكانت الإسكندرية - كما حدثنا عبد اللَّه بن صالح[٤] عن الليث بن سعد[٥] عن يزيد بن أبي حبيب[٦] - انتقضت وجاءت الروم عليها منويل الخصي في المراكب حتى أرسوا في الإسكندرية فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث، وقد كان عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص وولى عبد اللَّه بن سعد، فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عَمْرًا حتى يفرغ من قتال الروم؛ فإن له معرفة بالحرب وهيبة في العدو، ففعل، وكان على الإسكندرية سورها، فحلف عمرو ابن العاص لئن أظهره اللَّه عليهم ليهدمنَّ سورها حتى تكون مثل بيت الزانية، تؤتى من

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٧٣).
(٢) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢٧).
(٣) فتوح مصر وأخبارها (ص ٨٠).
(٤) صدوق كثير الغلط كاتب الليث وثبت في كتابه.
(٥) ثبت فقيه إمام مشهور.
(٦) ثقة فقيه وكان يرسل.

كل مكان، فخرج إليهم عمرو في البحر والبر، قال غير الليث: وضوى إلى المقوقس من أطاعه من القبط؛ فأما الروم فلم يطعه منهم أحد، فقال خارجة بن حذافة لعمرو: ناهضهم قبل أن يكثر مددهم ولا آمن أن تنقض مصر كلها. فقال له عمرو:

لا، ولكن أدعهم حتى يسيروا إليَّ، فإنهم يصيبون مَنْ مرُّوا به فيجزي اللَّه بعضهم ببعض، فخرجوا من الإسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينتهبون ما مروا به، فلم يعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس، فلقوهم من البر والبحر، فبدأت الروم والقبط فرموا بالنشاب في الماء رميًا شديدًا حتى أصابت النشاب فرس عمرو في لبته وهو في البر فعقر، فنزل عنه عمرو، ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين في البر فنضحوا المسلمين بالنشاب، فاستأخر المسلمون عنهم شيئًا وحملوا على المسلمين حملة ولى منها المسلمون وانهزم شريك ابن سمي في خيله.

وكانت الروم قد جعلت صفوفًا خلف صفوف، وبرز يومئذ بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب، فبرز إليه رجل من زبيد يقال له: حومل - يكنى أبا مذحج - فاقتتلا طويلًا برمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف وألقى حومل رمحه وأخذ سيفه، وكان يُعرف بالنجدة، وجعل عمرو يصيح: أبا مذحج؛ فيجيبه: لبيك. والناس على شاطئ النيل في البر على تعبئتهم وصفوفهم، فتجاولا ساعة بالسيفين ثم حمل عليه البطريق فاحتمله وكان نحيفًا ويخترط حومل خنجرًا كان في منطقته أو في ذراعه، فضرب به نحر العلج أو - ترقوته - فأثبته ووقع عليه فأخذ سلبه، ثم مات حومل بعد ذلك بأيام - رحمه اللَّه -، فرئي عمرو يحمل سريره بين عمودي نعشه حتى دفنه بالمقطم، ثم شد المسلمون عليهم؛ فكانت هزيمتهم، فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح اللَّه عليهم، وقتل منويل الخصي.

وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجده وهو المسجد الذي بالإسكندرية الذي يقال له: مسجد الرحمة، وإنما سمي مسجد الرحمة لرفع عمرو السيف هنالك وهدم سورها كله.

وجمع عمرو ما أصاب منهم، فجاء أهل القرى ممن لم يكن نقض فقالوا: كنا على صلحنا، وقد مر علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك، فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه، وأقاموا عليه البينة، وقال بعضهم لعمرو: ما حل

لك ما صنعت بنا، كان لك أن تقاتل عنا؛ لأنا في ذمتك ولم ننقض، فأما من نقض فأبعده اللَّه. فندم عمرو وقال: يا ليتني لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية.

وكان سبب نقض الإسكندرية هذا - كما حدثنا عن حيوة بن شريح عن الحسن بن ثوبان عن هاشم بن أبي رقية - أن صاحب إخنا قدم على عمرو بن العاص فقال: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصير لها. فقال عمرو وهو يشير إلى كنيسة: لو أعطيتني من الركن إلى السقف ما أخبرتك. إنما أنتم خزانة لنا؛ إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم. فغضب صاحب إخنا فخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهم اللَّه وأسر القبطي فأتي به عمرو. فقال الناس: اقتله. فقال: لا، انطلق فجئنا بجيش آخر.

حدثنا سعيد بن سابق قال: كان اسمه طلما، وأن عمرًا لما أتي به سوّره وتوجه وكساه برنس أرجوان وقال له: إيتنا بمثل هؤلاء. فرضي بأداء الجزية، فقيل لطلما: لو أتيت ملك الروم؟ فقال: (لو أتيته لقتلني وقال: قتلت أصحابي)[1].

وها نحن قبل أن نودع عمرًا القائد ننقل عن أبرز الشخصيات العسكرية الإسلامية المعاصرة[2] تحليله لشخصية عمرو القيادية؛ فهو أجدر من أي مؤلف آخر يعرض هذا الجانب، وذلك في مقتطفات من كتابه سفراء النبي ﷺ .

(فلا عجب أن يمتد نشاط عمرو القيادي من عُمان إلى تونس وعبر آلاف الأميال في قارتين من قارات العالم: آسيا وأفريقيا، ثم لا يرتد له لواء في حروبه؛ بل يقود رجاله من نصر إلى نصر، ويبقى فتحه فتحًا مستدامًا عبر القرون والأحقاب؛ مما يثبت أنه كان قائدًا عبقريًّا حقًّا.

١ - وصفات عمرو القيادية واضحة كل الوضوح من معاركه ونتائجها؛ فقد كان قادرًا بكفاءة نادرة على إصدار القرارات السريعة الصحيحة في مختلف الظروف والأحوال، والقرار السريع الصريح يستند على عاملين رئيسيين: القابلية العظمى للقائد أولًا، والحصول على المعلومات عن العدو والأرض ثانيًا[3].

وقد تطرقنا إلى قابلية عمرو الفذة بما فيه الكفاية، وبقي علينا أن نتطرق إلى العامل

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٧٥ - ١٧٧).

(٢) هو اللواء الركن محمود شيت خطاب والذي كان مستشارًا عسكريًّا للجامعة العربية، ومن الذين خاضوا حرب فلسطين عام ٤٩، وأكبر مؤلف في المجال العسكري الإسلامي. وقد توفي رحمه اللَّه.

(٣) غيرت الأرقام لتتناسب مع المقتطفات.

الثاني وهو الحصول على المعلومات عن العدو والأرض. لقد كان عمرو يقدر حق التقدير قيمة الاستطلاع؛ لهذا كان يواجه عدوه وهو يعرف عنه كل شيء تقريبًا؛ فيتحرك نحوه مفتوح العينين في النور لا في الظلام.

فقد كان من أسباب نجاحه في سرية ذات السلاسل أن أم العاص بن وائل - والد عمرو - من بني بلي؛ لذلك عاونه أخواله في تيسير مهمته، وأمدوه بالمعلومات الضرورية لإحراز النصر.

وكان لمعرفة عمرو لطبيعة بلاد الشام وفلسطين بخاصة طبيعة أرضها ومناطقها المناسبة للقتال وبالطرق التقريبية إلى تلك المناطق وبمزايا أهلها المحليين ومزايا الروم الدخلاء - أثر حاسم في انتصاره على الروم وحلفائهم في معارك فتح بلاد الشام، والظاهر أنه لم يكتف بالمعلومات المتيسرة لديه عن فلسطين بالذات؛ فأقدم على مغامرة استطلاعية فذة؛ فقام باستطلاع شخصي لمقر قائد الروم (أرطبون)، واطلع على نقاط الضعف في مواضع الروم وقواتهم عامة وقائدهم؛ وبذلك انتصر عليهم بعد مناوشات طالت كثيرًا، ولكن هذه المغامرة الاستطلاعية كادت أن تكلفه حياته لولا دهاؤه وحسن تخلصه من موقفه العصيب.

وكان لزيارة مصر التي قام بها قبل إسلامه أثر كبير في معرفته أحوال مصر وأخبارها وطرقها وطبيعة أرضها، ومدى الاضطهاد الديني والسياسي الذي يعانيه المصريون من الروم؛ فلا عجب أن يقدم عمرو على فتح مصر وبقيادته ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل فقط؛ إذ لولا تيسر المعلومات الكافية لديه عن مصر وأهلها وعداوتهم للروم واستعدادهم لمعاونة المسلمين دون الروم لما كان من المعقول أن يقدم على فتح مصر بمثل هذا العدد الضئيل من الرجال.

٢ - وكان عمرو يتمتع بحاسة تأثير الأرض في سير القتال؛ فهو الذي أشار على قادة المسلمين في بلاد الشام بالاجتماع في اليرموك، فلما نزل الروم معسكرهم انتقل المسلمون من معسكرهم القديم إلى معسكر جديد مناسب؛ فنزلوا على طريق انسحاب الروم، وليس للروم طريق إلا على المسلمين، حينذاك هتف عمرو: أيها الناس، أبشروا؛ حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير.

وكما كان يحرص على جمع المعلومات عن العدو والأرض - كان يحرص على منع العدو من جمع المعلومات عن قواته وأرضه؛ فقد منع رجاله في سرية ذات السلاسل

وفيهم كبار الصحابة: أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وغيرهم من كبار المهاجرين والأنصار - من إشعال النار ليلًا على الرغم من شدة البرد وقسوته؛ ليحول دون كشف مواضعهم للعدو وكشف عددهم القليل للعدو أيضًا.

وهذا المثال يدل على إيمان عمرو بأهمية الضبط والطاعة والسيطرة؛ لذلك كان يفرض على رجاله ضبطًا عاليًا، ويطالبهم بالطاعة المطلقة لأوامره(١)، ويسيطر عليهم سيطرة تامة. وهو يدل على شدة ضبط عمرو وسيطرته النافذة على مرؤوسيه بصرف النظر عن قيمهم الاجتماعية والدينية والسياسية.

٣ - وكان على جانب عظيم من الشجاعة الشخصية؛ فقد كان من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية مذكورًا بذلك فيهم. وكان جريئًا مقدامًا وقد وصفه عثمان بن عفان لعمر بن الخطاب ﷺ بقوله: (إن عمرًا لمجرأ وفيه إقدام وحب للإمارة..) وقد باشر القتال في القلب أيام صفين فلما كان يوم من تلك الأيام اقتتل أهل العراق وأهل الشام حتى غابت الشمس، ثم اقتتلوا ساعة من الليل حتى كثرت القتلى بينهم؛ فصاح عمرو بأصحابه: الأرض الأرض يا أهل الشام، فترجلوا ودب بينهم، وترجل أهل العراق أيضًا؛ فكان عمرو يقاتل وهو يقول:

وصبرنا على مواطن ضنك … وخطوب تري البياض الوليدا

فأقبل رجل من أهل العراق فضرب عَمْرًا ضربة جرحه على العاتق، فأدركهْ عمرو؛ فضربه ضربة قضت عليه. ومواقفه البطولية التي تدل على شجاعته الشخصية أكثر من أن تعد وتحصى(٢).

---

(١) ولا أدل على ذلك من موقفه في غزوة ذات السلاسل من قضية منع إيقاد النار، فسأله أصحابه أن يأذن لهم أن يوقدوا نارًا ليلًا، فمنعهم، فكلموا أبا بكر أن يكلمه في ذلك، فأتاه فقال (أي: عمرو): « قد أرسلوا إلي، لا يوقد أحد منهم نارًا إلا ألقيته فيها » فلقوا العدو فهزموهم) انظر تاريخ ابن عساكر (١٣/ ٥٠٣).

(٢) نذكر من أهمها موقفين اثنين: الأول: موقفه يوم أجنادين (فعن خلف بن معدان قال: لما انهزمت الروم يوم أجنادين انتهوا إلى موضع لا يعبره إلا إنسان، وجعلت الروم تقاتل عليه، وقد تقدموه وعبروه، وتقدم هشام بن العاص بن وائل فقاتل عليه حتى قتل ووقع على تلك الثلمة فسدها، فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يوطئوه الخيل فقال عمرو بن العاص: أيها الناس إن اللّـه قد استشهده ورفع روحه، وإنما هو جثة فأوطئوه الخيل. ثم أوطأه هو، وتبعه الناس حتى قطعوه، فلما انتهت الهزيمة (هزيمة الروم) ورجع المسلمون إلى العسكر كرَّ عليه عمرو بن العاص فجعل يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه ثم حمله فى نطع فواراه). الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ١٩٤). والموقف الثاني: عن موسى بن عمران بن مناح قال: لما رأى عمرو بن العاص يوم اليرموك صاحب الراية ينكشف بها أخذها، ثم جعل يتقدم وهو يصيح: إلي يا معاشر المسلمين. فجعل يطعن بها قدمًا وهو يقول: اصنعوا كما أصنع. =

٤ - ولكنه كان يحارب بعقله كما كان يحارب بسيفه؛ بل كان عقله أمضى حدًّا من سيفه، فيستعمل عقله في الحرب أكثر مما يستعمل سيفه ..)[1].

ففي فتح مصر استهان القبط بالفاتحين وقال قائلهم: (ما أرث العرب مارأينا مثلنا دان لمثلهم) فخاف عمرو أن يطعمهُم ذلك فأرى عمرو المصريين حال العرب في بلادهم قبل الفتح، وكيف أصبحوا بعد الفتح في تمتعهم بأسباب الحياة، وحالهم في الحرب، ثم قال للمصريين: علمت حالكم حين رأيتم اقتصاد العرب فخشيت أن هلكوا فأردت أن أريكم حالهم في أرضهم كيف كانت، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرب، فقد رأيتم ظفرهم بكم، وذلك عيشهم، وقد كلبوا على بلادكم بما نالوا في اليوم الثاني، فأردت أن تعلموا أن ما رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجع إلى عيش اليوم الأول.

وتفرق المصريون وهم يقولون:(لقد رمتكم العرب برجلهم).

وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: واللّه إن حربه للينة؛ ما لها سطوة ولا سورة كسورات الحروب من غيره.

لقد كان عمرو يجيد حرب الدعاية ويؤمن بمبدأ « الحرب خدعة ». وكان يحارب بعقله وسيفه، ولا يحارب بسيفه إلا إذا أعيته الحرب بعقله، ولم يبق أمامه لتحقيق أهدافه إلا السيف، وكان يمتلك في الحربين الشجاعة الشخصية التي تقود إلى النصر ولا تقود إلى الهزيمة.

٥ - وكان يتحلى بالإرادة القوية الثابتة قبل إسلامه؛ كانت إرادته القوية الثابتة قبل إسلامه تتركز على محاربة الإسلام والمسلمين؛ فحارب هذا الدين والذين اعتنقوه حربًا لا هوادة فيها في ميدان القتال فقاتل المسلمين في أحد والأحزاب.

وكانت تلك الإرادة تتركز بعد إسلامه في خدمة الإسلام والمسلمين؛ فحقق ذلك عن طريق سفارته النبوية وولايته على عُمان وتولية جمع الصدقات أحد عمالها للنبي ﷺ فلما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى حقق إرادته في خدمة الإسلام والمسلمين عن طريق حرب الردة وفتوح الشام ومصر وليبية والتمهيد المؤثر في فتح إفريقية.

= حتى إنه ليرفعها وكأنه عليها ألسنة المطر من العلق (أي: الدم) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥١١).

(١) تركنا هذا الاستشهاد من حرب صفين؛ لأن لنا موقفًا يختلف عن موقف أستاذنا العالم اللواء محمود شيت خطاب في قضية الفتنة ودور عمرو رضي الله عنه فيها وهو ما سنعالجه فيما بعد - إن شاء اللّه -.

ولكن إرادته القوية الثابتة تتمثل في تحقيق طموحه في فتح مصر وإقناع عمر ابن الخطاب بالموافقة على هذا الفتح، ومسيرته الطويلة الشاقة في فتح مصر بالسيف تارة، وبالمفاضات تارة أخرى، وبالقتال مرة، وبالسلام مرة أخرى؛ حتى حقق طموحه في فتح مصر[١].

٦ - وكانت له نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، والواقع أنه لم يُصب باندحار حقيقي في معاركه؛ بل أصيب بمواقف حرجة للغاية، كموقفه بعد ردة العرب، فمر في طريقه من عُمان إلى المدينة المنورة بمسيلمة الكذاب في ديار بني حنيفة في طريق عودته إلى المدينة، فما انهارت معنوياته ولا استكان ولا هان؛ بل استطاع التخلص من مسيلمة الذي كان يقضي بالموت على المسلم الذي لا يرتد عن دينه ويتبع مسيلمة، وبخاصة إذا كان من قريش، وكان من قادة قريش، ومن ولاة النبي ﷺ وقادته وسفرائه ومن المسلمين البارزين. ولم تتبدل نفسية عمرو حين تأخر فتح الإسكندرية حتى سمع لوم عمر بن الخطاب وتقريعه على التأخير؛ بل بقي يفكر ويدبر ويستشير ويخطط حتى تملك فتح الإسكندرية بالصبر والمعاناة والعمل الدؤوب وثبات المعنويات.

ولعل تبدل النفس البشرية تكون في حالة النصر أشد خطرًا من حالة الاندحار؛ إذ تصاب النفس بالغرور والكبرياء والاستعلاء والظلم والعدوان، وقد انتصر عمرو كثيرًا فما عرفنا أن نفسيته تبدلت في حالة النصر فوقع في شباك الأنفس الأمارة بالسوء؛ بل بقيت نفسيته - كما كانت - تلتزم بالحق وتأمر به، وتبتعد عن الظلم وتنهى عنه ولا تتقاذفها الهواجس والانفعالات.

٧ - وكان يتمتع بميزة سبق النظر؛ فيحسب لكل شيء حسابه بدقة وإتقان، ولا يترك أمرًا مَهْمَا يكن طفيفًا تحت رحمة الصدف. وحين فزع أهل المدينة المنورة على عهد النبي ﷺ؛ لبس عمرو سلاحه وقصد المسجد على حين تفرق المسلمون فخطب رسول اللّه ﷺ فقال: « **ألا كان مفزعكم إلى اللّه ورسوله، ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان** » والرجلان كانا: عمرو بن العاص، وسالم مولى أبي حذيفة.

كما أن بعد نظره جعله يحول بين رجاله ومطاردة قضاعة بعد هزيمتها في سرية ذات السلاسل؛ خوفًا من وجود مدد لها فيقع رجاله في كمين يكبدهم خسائر فادحة،

---

(١) ولا أدل على تلك الآراء القوية الثابتة من إصراره تسعة أشهر على حصار الإسكندرية دون أن يهون أو يتراجع حتى فتحها.

أو يجعلهم يقاتلون عددًا متفوقًا عليهم دون مسوغ. وكل المعارك التي خاضها في حرب الردة وفي فتوح الشام ومصر وليبيا فيها شواهد كثيرة على تمتعه بمزية بعد النظر، كما أنه في أعماله غير العسكرية في الإدارة والسياسة وحتى في علاقاته الشخصية كان بعيد النظر ويقظًا أشد اليقظة حذرًا أشد الحذر، وكان في قيادته لا ينام ولا ينيم؛ تحسبًا لأسوأ الحالات فلا يؤخذ على حين غرة أبدًا.

٨ - وكان من أولئك القادة الذين يعرفون حق المعرفة نفسيات رجاله وقابليتهم؛ لأنه يعايشهم في حلهم وترحالهم، وأمنهم وخوفهم، وسلمهم وحربهم أكثر مما يعايش أهله الأقربين، ويعيش بينهم أكثر مما يعيش بين أهله وعشيرته(١). وهذه المعرفة الوثيقة جعلته يكلف كل فرد من أفراد قوته بالواجب الذي يناسب نفسيته ويقارب كفايته ويجعله يقبل على واجبه إقبال محب له لا كاره، وقادر عليه لا عاجز عنه؛ مما جعل رجاله ينهضون بواجباتهم بشوق ولهفة وحماسة وينجحون في أدائها نجاحًا كبيرًا.

وبالنسبة للقابليات والنفسيات كان يلقي على عواتق قسم منهم واجبات القتال الفردي، وعلى قسم منهم واجبات القيادات التي تعمل بسيطرته المباشرة، وعلى قسم منهم واجبات القيادة التي تعمل بسيطرته غير المباشرة؛ كالقيادة المستقلة في فتح أنحاء مصر بعد استسلام حصن بابليون في المعركة الحاسمة. كما كان يكلف قسمًا منهم بواجب السفراء بينه وبين العدو، وواجب المفاوضين، وغيرها من الواجبات الأخرى التي جاء ذكرها في معاركه الكبيرة شرقًا وغربًا.

والسبب الوحيد لنجاح رجاله في أداء الواجبات التي ألقاها عمرو على عواتقهم هو معرفته التامة بنفسيات وقابليات رجاله؛ فكان لا يضع الرجل المناسب إلا في المكان المناسب.

ويبدو أنه كان في تعيينه القادة المرؤوسين بخاصة واختيار الإداريين ورجال الشرطة والقضاء لا يتأثر إلا بالكفايات العالية المتميزة والإيمان الصادق العميق، واستعراض أسماء قادته المرؤوسين وأصحاب المناصب الأخرى الذين اختارهم بنفسه - خير دليل على ذلك.

---

(١) عن عبد الرحمن بن شماسة قال: أتيت عائشة أسألها عن شيء. فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر. فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئًا، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة. أخرجه أحمد (٦/ ٩٣)، ومسلم (٦/ ٧).

٩ - وكان يثق برجاله ثقة تامة ويثقون به ثقة لا حدود لها، والدليل على ثقته برجاله هو أنه كان يقودهم مدة طويلة في فتوح بلاد الشام، وعندما سمح له بفتح مصر اختار رجاله من الذين عملوا بقيادته ردحًا طويلًا وخبر كفاياتهم ومزاياهم ونفسياتهم. ولولا ثقته الكاملة بهم لما أقدم على محاولة فتح مصر بهم وعددهم يومئذ كان ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل؛ لأن تعداد رجاله بالنسبة لواجبهم في الفتح قليل جدًّا، ولكنه أقدم على محاولة فتح مصر وبقيادته هؤلاء الرجال القليلون عددًا؛ لأنه كان يثق بهم ثقة تامة، وقد أثبتت قوات عمرو بأنها حَرِيَّة بثقته الكاملة؛ فقد أنجزت له واجبات الفتوح بصورة تدعو إلى التقدير والإعجاب، كما أنها صبرت على حصار بابليون سبعة أشهر حتى استطاعت فتحه، وصبرت على حصار الإسكندرية حتى استطاعت فتحها، ومن المعلوم أن الجيش الذي يصبر على الحصار طويلًا يعد من الجيوش ذات التدريب العالي والضبط المتين والمعنويات الرفيعة، ومثل هذا الجيش يستحق كل الثقة من قائده في كل زمان ومكان وفي مختلف الظروف والأحوال.

أما ثقة رجال عمرو به؛ فلأنه قائد منتصر يقود رجاله من نصر إلى نصر، ولأنه يضرب أروع الأمثلة لرجاله في التضحية والفداء؛ فكان يقود رجاله من الأمام يقول لهم: اتبعوني، ولا يقودهم من الخلف فيأمرهم بالتقدم ويقبع في موقع أمين بعيدًا عن الأخطار.

وكان يستأثر بالخطر، ويؤثر رجاله بالأمن؛ فيدخل حصون أعدائه ويحاور قادة العدو، ويعرض نفسه لأفدح الأخطار، ولا يستأثر بالخير دونهم، ولا يترفع عنهم، ويعاملهم معاملة الآباء للأبناء.

١٠ - وكانت أخلاقه رضية جدًّا؛ هو القائل: « ما أفحشت قط إلا ثلاث مرات: مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة، وما منهن مرة إلا وقد ندمت واستحييت، وما استحييت من واحدة منهم أشد مما استحييت مما قلت لك، واللّه إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما حييت ». وكان قد قال لرجل من رجاله في ساحة القتال كلمة نابية، فقال: استغفر لي ما كنت قلت لك. فاستغفر له.

وقد وصفه رجل من ثقات المسلمين فقال: صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلًا أبين قرآنًا ولا أكرم خلقًا ولا أشبه سريرة بعلانية منه.

١١ - وكما كان موضع ثقة رجاله كان موضع ثقة رؤسائه؛ فقد كان أحد سفراء النبي ﷺ وأحد قادته وأحد ولاته وأحد عماله على الصدقات، ولا أعرف صحابيًّا غير عمرو

ابن العاص تولى للنبي ﷺ كل هذه المناصب السياسية والعسكرية والإدارية والمالية في حياته المباركة؛ مما يدل على ثقة النبي ﷺ بعمرو سياسيًّا وعسكريًّا وإداريًّا وماليًّا، كما كلفه بالقضاء في قضية من القضايا، وكان من أصحاب الفتيا من الصحابة والمجتهدين في الدين في حياة النبي ﷺ؛ مما يدل على ثقته بعلم عمرو وكفايته القضائية.

وكان موقع ثقة أبي بكر الصديق ﷺ؛ فقد كان أحد قادته[1]، وكان موضع ثقة عمر ابن الخطاب ﷺ؛ إذ كان أحد قادته وولاته، وكان موضع ثقة عثمان بن عفان ﷺ؛ لأنه كان أحد قادته وولاته، وقد عزله عن مصر؛ لأنه يستطيع أن يسيطر على خلفه ولا يستطيع السيطرة عليه، وكان بعد عزله عن مصر موضع استشارته فيما يعرض له من معضلات جسام؛ مما يدل على أنه كان موضع ثقته حتى بعد عزله عن مصر وتوتر العلاقات الشخصية بين الرجلين.

ومن الطبيعي أن يثق بالقائد المنتصر الذي يقود رجاله إلى الأمام ويضرب لهم أروع الأمثال في الشجاعة والإقدام والتضحية والفداء، والذي يتحلى بالخلق الكريم والكفاءة العالية - رجاله الذين يعملون بقيادته ورؤساؤه الذين يعمل بإمرتهم، ويكون موضع ثقة أمته عامة، وأن يبادلهم ثقة بثقة، والثقة المتبادلة هي التي تشيع الانسجام والضبط والتعاون بين الرئيس والمرؤوس والقائد والمقود؛ من أجل تحقيق النصر المؤزر.

١٢ - وكان يحب رجاله، وكان رجاله يحبونه، وكانت المحبة المتبادلة شائعة بين القيادة والجنود، وقد قال له حرسه حين حضرته الوفاة: كنت لنا صاحب صدق، تكرمنا وتعطينا، وتفعل وتفعل - مما كان ينعم به عليهم ويهبه لهم ويكرمهم به.

ولكن عمرو كان يعرف واجباته فيؤديها كاملة، ويحاسب نفسه على أدائها قبل أن يحاسبه غيره، ويعرف حقوقه؛ فيطالب بها ويحاسب غيره عليها ولا يتغاضى عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

كما كان يعرف حقوق رجاله فيؤديها لهم أداءً كاملًا، ويعرف واجباتهم؛ فلا يسكت على إهمالها، أو أدائها غير كاملة أو بشكل غير متقن. والمحبة المتبادلة شيء، والحقوق والواجبات شيء آخر، وما كانت المحبة المتبادلة تؤثر في مجرى حقوق عمرو وواجباته، وحقوق رجاله وواجباتهم.

---

(١) وهو الذي اختاره ورشحه ليكون أحد قادة الفتح الأربعة في الشام.

وكان الذين لا يعرفون عمرو بن العاص لا يستطيعون أن يميزوه عن رجاله في شيء؛ إذ كان أحدهم (ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد) كما وصف رسل المقوقس عمرو بن العاص ورجاله. لقد كان عمرو من أولئك القادة الذين يبادلون رجالهم حبًّا بحب، ولكن ليس على حساب الواجب، ولا تناقض بين المحبة المتبادلة والحرص على الواجب لدى القائد حقًّا ورجاله؛ فهما متلازمان وعليهما تبنى الثقة المتبادلة التي لا تكون إلا بالمحبة المتبادلة والعمل الدائب المتواصل من أجل إحراز النصر.

١٣ - إن عمْرًا كان يطبق مبادئ الحرب بكفاية دون أن يتعلمها في المدارس العسكرية والمعاهد والكليات؛ بل تعلمها من تجاربه في الحياة، ولكن عمرًا لم يقتصر على مزايا القيادة وصفاتها وعلى تطبيق مبادئ الحرب بكفاية؛ بل كان يتسم بمزايا قيادية إضافية من النادر أن يتسم بها القادة الآخرون إلا في عدد محدود من القادة ...

وأول هذه المزايا هي المساواة؛ فقد كان عمرو يساوي نفسه بغيره ويساوي غيره بنفسه؛ لا فرق بين المسلمين. وكان مبدأ المساواة مطبقًا في مجتمع عمرو أيام السلام، أما أيام الحرب فكان عمرو يستأثر بالأخطار ويؤثر رجاله بالأمن.

والمزية الثانية هي مزية الاستشارة؛ فقد كان عمرو يستشير أصحابه في كل المواقف الصعبة، كما كان يستشيره رؤساؤه المباشرون وغيرهم من الناس، ولم يكن يتحيز لرأيه ولا يتعصب لفكره؛ بل كان يحاول الأخذ بكل رأي راجح مهما يكن مصدره ومكانة صاحبه الاجتماعية.

لقد كان يتقن فن الاستشارة وهو فن لا يتقنه إلا ذوو العقول والأحلام[١].

والمزية الثالثة الأخيرة من مزايا عمرو القيادية: الأسلوب القتالي المتميز الذي استخدمه عمرو في حروبه؛ فهو لا يشابه أسلوب من قبله من القادة ولا أسلوب من عاصره من القادة، ولا أسلوب من جاء بعده من القادة. هذا الأسلوب القتالي المتميز الفريد[٢] الذي

---

(١) ومن أقواله العظيمة المشهورة في هذا المجال قوله: الرجال ثلاثة: فرجل تام، ونصف رجل، ولا شيء. فأما الرجل التام: فالذي يكمل اللّـه له دينه وعقله، فإذا أراد أمرًا لم يمضه حتى يستشير أهل الرأي والألباب، فإن وافقوه حمد اللّـه وأمضى رأيه فلا يزال كذلك مصيبًا موفقًا. والنصف رجل: الذي يكمل اللّـه له دينه وعقله فإذا أراد أمرًا لم يستشر أحدًا قال: أي الناس أطيعه أترك رأيي له فيصيب ويخطئ. والذي لا شيء: لا دين له ولا عقل له ولا يستشير فلا يزال كذلك مخطئًا مدبرًا. انظر تاريخ ابن عساكر (١٣ / ٥٢٧).

(٢) حقيقة الأمر في هذا الأسلوب المدرسة النبوية الخالدة؛ فرسول اللّـه ﷺ هو الذي تفرد به من دون الخلق؛ لأنه الرحمة المهداة فكان يقدم دائمًا - عليه الصلاة والسلام - رغبته في هدي عدوه والسيطرة عليه دون اراقة قطرة دم، ونتج =

اختص به عمرو دون سواه أو ركز عليه في عملياته الحربية كافة أكثر من غيره من القادة حتى يمكن أن نطلق عليه الأسلوب العمري في القتال - يتلخص في استعمال العقل أولًا، واستعمال السلاح ثانيًا؛ بمعنى: أن سلاح العقل يجب أن يعمل عمله في العدو أولًا، فإذا انتصر هذا السلاح بدون الأسلحة الأخرى؛ فذلك هو المطلوب، وإلا أكملت الأسلحة الحربية عمل سلاح العقل لإحراز النصر بالسلاحين معًا: سلاح العقل أولًا، والسلاح التقليدي ثانيًا.

وكان عمرو يصول بسلاح العقل في كل معركة خاضها بما يناسبها من تعبية تفيد رجاله وتوحدهم وتضاعف من قوتهم وترفع من معنوياتهم، وتضر عدوه وتفرقهم وتقلل من قوتهم وتزعزع معنوياتهم؛ فيكون لرجاله بفضل سلاح العقل الغُنْم دائمًا، ويقع على عدوه بتأثير هذا السلاح فيه الغُرْم أبدًا.

وكان عمرو أدهى من أن يستعمل سلاح العقل في فراغ؛ بل كان دائمًا يستعمله في إيجاد حقيقة راهنة، واستغلالها وتعميق أثرها وتأثيرها، ثم توجيهها الوجهة التي يريد لمصلحة المسلمين ومصلحة الفتوح ومصلحة فئته أيضًا. كما عمل في استعمال سلاح العقل لمصلحة فئته[(١)] في الفتنة الكبرى.

ذلك هو عمرو وتلك هي سمات قيادته؛ فلا عجب أن يترك بصماته على بلاد شاسعة من ديار العرب تمتد من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط في حياته، وتبقى بصماته من بعده حتى اليوم، وستبقى حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها؛ لأن فتحه كان فتحًا مستدامًا؛ لأنه كان فتح مبادئ لا فتح سيوف، والمبادئ إلى بقاء والاستعباد إلى فناء. لقد كانت خسائر عمرو في حروبه في الفتوح من المسلمين قليلة، وكانت أرباحه للإسلام بالفتوح كثيرة؛ فأدى الذي عليه قائدًا من أبرز قادة الفتح الإسلامي، وأبرز قادة المسلمين على الإطلاق منذ أن جاء الإسلام حتى اليوم. وإذا كان هناك مجال للاختلاف في تقويمه إنسانًا[(٢)]؛ فلا مجال للاختلاف في تقويمه قائدًا؛ فقد عجزت النساء أن يلدن

= مكة أبرز نموذج على ذلك، وعمرو بن العاص قد تتلمذ على هذه المدرسة في جاهليته وهو يحارب محمدًا - عليه الصلاة والسلام - وفي إسلامه وهو لا يجرؤ أن يرفع بصره حياء إلى رسول اللّه ﷺ.

(١) ونرى أنه استعملها لمصلحة الإسلام والمسلمين كما ستعترض لذلك فيما بعد.

(٢) ذلك لأن أستاذنا محمود شيت خطاب لم يحقق في قضية الفتنة - غفر اللّه له وأثابه - فتأثر ببعض الروايات الضعيفة والموضوعة.. ونسأل اللّه - تعالى - له واسع الرحمة؛ فقد توفي بعد عمر مديد مليء بجلائل الأعمال، جعل اللّه الجنة مثواه.

مثل عمرو، وهو من القادة الذين لا يتكرَّرون إلا نادرًا، إنه ليس من أعظم قادة العرب والمسلمين فحسب؛ بل هو من أعظم قادة الأمم الأخرى بشهادة مفكري الأمم الأخرى المنصفين)[1].

* * *
* *
*

(١) متطفات من سفراء النبي ﷺ (ص ٥٢٥ - ٥٨٥).

عمرو بن العاص: الحاكم العبقري

الإسكندرية:

هؤلاء البداة رعاة الإبل تفتح بين أيديهم خيرات الأرض وكنوزُها، وها هي الإسكندرية من أعظم معالم الحضارة آنذاك، لم ير الراؤون مثلها. يصفها عمرو بن العاص القائد الفاتح لأمير المؤمنين:

(ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك - كما حدثنا إبراهيم بن سعيد البلوي - إلى عمر بن الخطاب:

أمَّا بعد؛ فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية[1] بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك).

(قال: حدثنا عبد الملك بن مسلمة، حدثنا ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية وجد فيها اثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر.

حدثنا هانئ بن المتوكل، حدثنا محمد بن سعيد الهاشمي قال: ترحل من الإسكندرية في الليلة التي دخلها عمرو بن العاص، أو في الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو - سبعون ألف يهودي.

حدثنا هانئ بن المتوكل عن موسى بن أيوب ورشدين بن سعد عن الحسن بن ثوبان عن الحسين بن شفي بن عبيد قال: كان بالإسكندرية فيما أحصي من الحمامات اثنا عشر ديماسًا، أصغر ديماس فيها يسع ألف مجلس، كل مجلس منها يسع جماعة نفر، وكان عدة من بالإسكندرية من الروم مائتي ألف من الرجال؛ فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن، وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار؛ فحمل فيها ثلاثون ألفًا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل، وبقي من بقي من الأسارى، فمن بلغ الخراج

---

(١) المنية: القرية الصغيرة.

فأحصي يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان؛ فاختلف الناس على عمرو في قسمهم، وكان أكثر الناس يريدون قسمها فقال عمرو: لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها؛ فكتب إليه عمر: لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئًا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم. فأقرها عمرو وأحصى أهلها، وفرض عليهم الخراج؛ فكانت مصر صلحًا كلها بفريضة دينارين دينارين على كل رجل لا يزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين، إلا أنه يُلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع، إلا الإسكندرية؛ فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم؛ لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة)[١].

أما ما ذكر عن المستوى الحضاري العالي الذي وصلت له الإسكندرية؛ فقد حافظ المسلمون عليه أعظم محافظة من خلال التعامل مع أهلها وأرضها؛ إذ كان من الممكن أن يتحول أهلها جميعًا إلى عبيد، وأن تتحول أراضيها إلى أملاك للحكام الفاتحين ويسود الإقطاع خلال سنوات قصيرة وتتحول الأرض ومن فيها إلى عبيد يقسمون على الفاتحين.

إن بين يدي عمرو بن العاص ﷺ ستمائة ألف أسير - عدا النساء والصبيان - والجيش الفاتح الذي يبلغ تعداده اثني عشر ألف جندي على أبعد تقدير يمكن أن تُوزع هذه الأسرى عليهم، وهذه الأراضي لتصبح ملكًا لهم كما يفعل الفاتحون في التاريخ، لكن حس عمرو ﷺ لم يستجب لفكرة القسمة رغم إلحاح الجيش عليها؛ ولذلك بعث يستشير أمير المؤمنين عمر ﷺ في الأمر، وكان عمرو ﷺ قد تعرض للأزمة من الفاتحين يطالبونه بتوزيع الأرض والناس ورفض بحسه ابتداء ذلك، ثم انطلق بعد من الآية القرآنية ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ .. ﴾ إلى آخر الآية [الحشر: ١٠]. وقال كلمته المشهورة:

والله ليصلن الراعي في صنعاء حقه من هذا المال[٢].

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٨٢).

(٢) أورد أبو عبيدة في كتابه (الأموال) بسنده قال: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن عكرمة بن خالد عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب - نحو الحديث الذي ذكرنا في دخول العباس وعلي - عليهما السلام - وزاد في آخر حديثه وبعضه عن أيوب عن الزهري عن مالك بن أوس عن عمر نحو الحديث الذي ذكرناه قال: (ثم قرأ: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ =

وبذلك بقيت الأرض بيد أهلها يعملون ويؤدُّون خراجها، ولا حق للمسلمين إلا في ذلك.

(فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج؛ فكانت مصر صلحًا كلها بفريضة دينارين دينارين، لكن الإسكندرية حيث فتحت عنوة؛ (فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم؛ لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عقد ولا عهد، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة).

ولم يشأ عمر ﷺ وواليه عمرو أن يزاحما أهل الإسكندرية في سكناهم، ويغتصبا ديارهم وأراضيهم. أما رواية ابن عبد الحكم؛ فتقول:

حدثنا عثمان بن صالح حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية، ورأى بيوتها وبنائها مفروغًا منها - همَّ أن يسكنها وقال: مساكن قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك؛ فسأل عمرو الرسول: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب عمر إلى عمرو إني لا أبيح أن تنزل المسلمين منزلًا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف. فتحوَّل عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط)[1].

عمرو يصف مصر للخليفة:

ونأخذ هذا المقطع كله من كتاب عمرو بين يدي التاريخ؛ إذ يقول: لما تم لعمرو بن العاص فتح مصر أرسل إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ كتابًا يصفها له، ويشرح فيه السياسة التي سوف يسير عليها في حكمها، وقد رواه كثير من المؤرخين المتأخرين وشككوا في أن ألفاظه الحديثة المنمقة صدرت عن عمرو في صدر الإسلام. فإن لم يكن هذا الوصف من كلام عمرو حقًّا؛ فهو من صميم رأيه وثاقب فكره، والذي لا خلاف فيه أن

= [الأنفال: ٤١]. هذه لهؤلاء ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ ﴾ [التوبة: ٦٠]. هذه لهؤلاء ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أو قال: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ [الحشر: ٨]، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [الحشر: ٩]، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ فاستوعبت هذه الآية الناس، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق - أو قال: حظ - حتى يأتي الراعي بسرو حمير ولم يعرق فيه جبينه). قال أبو عبيد: السرو الخيف والنغف: كل موضع فيه انحدار وارتفاع. انظر: الأموال (ص ٢٣) ط ثانية (١٩٧٥م) ت: خليل الهراس. دار الفكر.

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٩١).

الفاروق عمر تلقى من عامله عمرو وصفًا لمصر يشبه هذا الوصف المعجز ولا يحيد عنه ويقول فيه:

مصر تُربة غَبْراء[١]، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر[٢]، ورمل أعفر[٣]، في وسطها نهر ميمون الفروات، مبارك الروحات، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر، وله أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا عجَّ عجَاجُه[٤]، وتعظمت أمواجه؛ لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب، فإذا تكامل في زيادة نكص[٥] على عقبه ما بدأ في شدته وطما في حدته[٦]؛ فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه، يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب، حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى؛ فعند ذلك يَدرُّ حِلابه[٧]، ويغني ذيابه[٨]؛ فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هي غبرة سوداء، إذا هي زبرجدة خضراء، فتعالى اللَّه لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنها فيها ألا يقبل قول خسيسها[٩] في رئيسها، وألا يستأذي خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال؛ تضاعف ارتفاع المال، واللَّه - تعالى - يوفق في المبتدأ والمآل. ويقول أبو المحاسن[١٠]:

فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب ﷺ قال:

للَّه دَرُّك يا ابن العاص؛ لقد وصفت لي خبرًا كأني أشاهده!

وقد ترجم كتاب عمرو المستشرق الفرنسي (أوكتاف أوزان) في جريدة الفيجارو ووصفه بأنه: (من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم، وقال عنه: إنه من الفرائد في إيجازه وإعجازه. واقترح وجوب تدريسه في جميع مدارس المعمورة حتى يتعلموا منه - مع قوة الوصف ومتانة التعبير - صحة الحكم على الأشياء، وكيفية تنظيم

---

(١) غبراء: سهلة الإنبات.
(٢) جبل أغبر: ضارب للسواد.
(٣) أعفر: مائل للصفرة.
(٤) عج عجاجه: عظم ماؤه.
(٥) نكص: رجع.
(٦) طما في شدته: نقص بشدة كما زاد بقوة.
(٧) يدرُّ حلابه: يعطي خيره كما تعطي البقرة حليبها.
(٨) يغني ذيابه: يعظم محصوله.
(٩) الخسيس: الضعيف.
(١٠) أبو المحاسن: مؤلف النجوم الزاهرة فيمن ملك مصر والقاهرة، والنص في (١/ ٣٣).

الممالك، وسياسة الاستعمار)[١].

بناء الفسطاط:

(وكان أول إنجاز حضاري له بعد الفتح ومتابعة عمارة الأرض والاستفادة من الطاقات والكفاءات المحلية في عمارتها - هو بناء مدينة الفسطاط؛ ليشعر المجاهدون أن هذه البلد بلدهم وعليهم أن يتحملوا مسؤولية الإسلام فيها، ونقل أهلها من الظلمات إلى النور، وكان مركز المدينة هو فسطاط عمرو ﷺ؛ حيث حقق المواصفات المطلوبة للعاصمة الإسلامية كما طلبها أمير المؤمنين، وكما اختارها عمرو لذلك؛ حيث كان المسجد هو أساس البناء فيها. وإنما سميت الفسطاط كما حدثني أبو عبد اللَّه بن عبد الحكم وسعيد بن غفير أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمار قد فرخ فقال عمرو: لقد تحرم منا بمحترم. فأمر به فأقر كما هو وأوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون من الإسكندرية فقالوا: أين ننزل؟ قالوا: الفسطاط - لفسطاط عمرو الذي كان خلفه، وكان مضروبًا في موضع الدار التي تعرف اليوم بدار الحصى عند دار عمرو الصغيرة اليوم. وبنى عمرو ابن العاص المسجد كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن الليث بن سعد وكان ما حوله حدائق وأعنابًا فنصبوا الحبال حتى استقام لهم ووضعوا أيديهم فلم يزل عمرو قائمًا حتى وضعوا القبلة وإن عمرًا وأصحاب رسول اللَّه ﷺ الذين وضعوها)[٢].

ثلاث مخالفات:

وجرت أثناء عمليات البناء ثلاث مخالفات رفضها عمر أمير المؤمنين.

الأولى: المنبر؛ واتخذ فيه منبرًا كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن أبي تميم الجيشاني قال: فكتب إليه عمر بن الخطاب: أمَّا بعد؛ فإنه بلغني أنك اتخذت منبرًا ترقى به على رقاب المسلمين. (أوَمَا بحسبك أن تقوم قائمًا والمسلمون تحت عقبيك؟ فعزمت عليك لما كسرته.

وكسر عمر ﷺ بذلك فكرة التمييز بين المسلمين حتى ولو كان منبر الخطابة للأمير.

الثانية: دار عمر؛ وأراد المسلمون تكريم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بأن يهبوه

---

(١) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبي رابية.

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٩١، ٩٢).

دارًا بين دور المسلمين لو جاء إلى مصر نزل بها، وبقيت ذكرى ودليلًا على مشاركته في الفتوح؛ فماذا كان رأي أمير المؤمنين؟ (فعن أبي صالح الغفاري قال: كتب عمرو ابن العاص إلى عمر - أمير المؤمنين - أنا قد اختططنا لك دارًا عند المسجد الجامع. فكتب إليه عمر: أني لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟! وأمره أن يجعلها سوقًا للمسلمين)[1].

الثالثة: غرفة خارجة؛ وكان خارجة بن حذافة أحد الأربعة الكبار الذين أعدهم أمير المؤمنين كل واحد بألف. أراد أن يغاير البناء الإسلامي القائم بغرفة يرتفع فيها على البناء العادي، ولم يسمح له بهذا التجاوز؛ فقد كان أمير المؤمنين يتدخل بكل صغيرة وكبيرة حتى بناء غرفة في مدينة، ويطلعه الوالي على كل شيء أو تصل له الأخبار من أبناء الأمة، وألغيت هذه المخالفة مثل إلغاء دار عمر بن الخطاب ومثل كسر المنبر (فعن يزيد ابن أبي حبيب أن خارجة بن حذافة أول من بنى غرفة بمصر، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب؛ فكتب إلى عمرو بن العاص: سلام عليك، أما بعد؛ فقد بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه؛ فإذا أتاك هذا فاهدمها إن شاء اللّه، والسلام)[2].

المهاجرون والأنصار:

وهم الأساس في بناء هذه المدينة (واختط حول عمرو والمسجد: قريش، والأنصار، وأسلم، وغفار، وجهينة، ومن كان في الراية ممن لم يكن لعشيرته في الفتح عدد مع عمرو)[3].

وبعد المهاجرين والأنصار، وأهل الراية جاءت القبائل العربية على منازلها لها، أمّا أهل الراية؛ (فيقال إنما سميت الراية أن قومًا من أفناء القبائل من العرب كانوا قد شهدوا مع عمرو بن العاص الفتح، ولم يكن من قومهم عدد فيقفوا مع قومهم تحت رايتهم وكرهوا أن يقفوا تحت راية غيرهم، فقال لهم عمرو: أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد أكثر من الراية التي يقفون تحتها، فرضوا بذلك)[4].

ثم الذين يلونهم:

وكانت أولى القبائل بلي وهي التي كانت العضد الرئيسي لعمرو في حربه، وهم

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٩٢). (٢) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٠٤).
(٣، ٤) المصدر السابق (ص ١١٦، ١١٧).

أخواله؛ فأم العاص بن وائل من بلي، وكان يقول: ثلاث قبائل من مصر: أما مهرة فقوم يقتلون ولا يقتلون، وأما غافق فقوم يقتلون ولا يقتلون، وأما بلي فأكثرها رجلًا صحب رسول اللَّه ﷺ وأفضلها فارسًا)[١].

(وكان عمرو إنما يقف تحت راية بلي فيما يزعمون)[٢].

ثم الحجر من الأزد، ثم عدوان ومهرة ولخم وغافق والصدف وحضرموت وبطن من يحصب، ثم اختطت تجيب وخولان ومذحج ومراد وحمير ويافع ورعين. وأما قريش والأنصار وبقية المهاجرين فهم المدد الذي جاءه من المدينة، والملاحظ أن أغلبية الجيش الإسلامي من قبائل اليمن، وهم الذين كانوا رصيد عمرو بن العاص ﷺ ابتداء ومنذ أن تحرك من المدينة.

بناء الجيزة:

واختارت بعض القبائل العربية مكانًا آخر تختط فيه مدينة أخرى غير الفسطاط (حدثنا عثمان بن صالح حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب وابن هريرة يزيد أحدهما على صاحبه قال: فاستحبت همدان ومن والاها الجيزة، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر ابن الخطاب يعلمه بما صنع اللَّه للمسلمين، وما فتح عليهم وما فعلوا في خططهم، وما استحبت همدان ومن والاها من النزول بالجيزة، فكتب إليه عمر يحمد اللَّه على ما كان من ذلك ويقول له: كيف رضيت أن تفرِّق عنك أصحابك، لم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر، لا تدري ما يفجأهم؛ فلعلك لا تقدر على غياثهم حتى ينزل بهم ما تكره، فاجمعهم إليك، فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم فابنِ عليهم من فيء المسلمين حصنًا، فعرض ذلك عمرو عليهم فأبوا وأعجبهم موضعهم بالجيزة ومن والاهم على ذلك من رهطهم يافع وغيرها، وأحبوا ما هنالك، فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن الذي بالجيزة سنة إحدى وعشرين، وفرغ من بنائه سنة اثنتين وعشرين.

وقال غير ابن لهيعة من مشائخ أهل مصر: إن عمرو بن العاص لما سأل أهل الجيزة أن ينضموا إلى الفسطاط قالوا: متقدمًا قدمناه في سبيل اللَّه، ما كنا لنرحل منه إلى غيره، فنزلت يافع الجيزة فيها، فبرح به شهاب وهمدان وذو أصبح فيهم أبو شمر بن أبرهة

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٧٦، ٧٧).
(٢) المصدر السابق (ص ٦٢).

وطائفة من الحجر منهم علقمة بن جنادة أحد بني مُلك بن الحجر)[١].

إلى رباط الدعوة:

وفي محاولة للحفاظ على الوجود الإسلامي المستقل من جهة، والذي مثله بناء هاتين المدينتين، وعدم إيذاء السكان الأصليين في أراضيهم وأموالهم من جهة ثانية، بحيث تركت لهم حرية الحياة والعقيدة من دون تدخل في شؤونهم الداخلية، والمحافظة على نشر الدعوة للإسلام لدى أهل مصر من جهة ثالثة - بقيت القيادات الكبرى في الإسكندرية تحمل عبء الدعوة إلى اللَّه في صفوف هؤلاء الناس مع نصف الجيش المرابط على الساحل. قال: (وأما الإسكندرية فلم يكن بها خطط غير أن أبا الأسود النضر بن عبد الجبار حدثنا عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن الزبير بن العوام اختط بالإسكندرية وإنما كانت أخائذ، من أخذ منزلًا نزل فيه هو وبنو أبيه. وأن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علوا الكوم الذي فيه مسجد عمرو بن العاص، فقال معاوية بن حديج: ننزل فنزل عمرو بن العاص القصر الذي صار لعبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح، ويقال: إن عمرًا وهبه له لما ولي البلد. ونزل أبو ذر الغفاري منزلًا كان غربي المصلى الذي عنده مسجد عمرو، ونزل معاوية بن حُديج موضع داره التي فوق هذا التل، وضرب عبادة ابن الصامت بناء فلم يزل فيه حتى خرج من الإسكندرية، ويقال: إن أبا الدرداء كان معه. واللَّه أعلم)[٢].

هذا عن القيادات الكبرى، فماذا عن المرابطين والمجاهدين؟

(حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب وابن هبيرة في حديثهما قال: فلما استقامت لهم البلاد، وقطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الناس، وربع في السواحل، والنصف مقيمون معه. وكان يصَيِّر بالإسكندرية خاصة الربع في الصيف بقدر ستة أشهر، ويعقب بعدهم شاتية ستة أشهر، وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه، واتخذوا فيه أخائذ)[٣].

ولا شك أن الروم الذين ارتحلوا وفروا وقدروا بأكثر من ثلاثين ألفًا - قد تركوا ديارهم بعد مغادرتهم الإسكندرية والتي كانت فيئًا للمسلمين.

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٢٨، ١٢٩). (٢) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٣٠).

(٣) المصدر نفسه.

(حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبي حبيب أن المسلمين لما سكنوها في رباطهم، ثم قفلوا، ثم غزوا ابتدروا؛ فكان الرجل يأتي المنزل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك، فيبتدره فيسكنه، فلما غزوا قال عمرو: إني أخاف أن تخربوا المنازل أن كنتم تتعاورونها، فلما كان عند الكربون قال لهم: سيروا على بركة اللَّه؛ فمن ركز منكم رمحه في دار فهي له ولبني أبيه. فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه في منزل منها ثم يأتي الآخر فيركز رمحه في بعض بيوت الدار؛ فكانت الدار تكون لقبيلتين أو ثلاث، وكانوا يسكنونها حتى إذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها؛ فكان يزيد بن أبي حبيب يقول: لا يحل من كرائها شيء ولا بيعها، ولا يورث منها شيء؛ إنما كانت لهم يسكنونها في رباطهم)[1]، فهي أقرب إلى الملك العام منه إلى الخاص، وهي مساكن عسكرية خاصة لرباط المجاهدين.

عمرو يخطط لجنده حياتهم:

إنه الحاكم الذي يعيش همَّ جنده في ليله ونهاره، ويعيش همَّ شعبه كله - المسلمين منهم والأقباط - ويتعهد هذا البناء لبنة لبنة، ويتعهد هذا الغراس غرسة غرسة، وقد أتيح لنا أن نستمع إلى خطبة عظيمة من خطب عمرو الأمير ﷺ ينقلها لنا بحير بن ذاخر المعافري:

(خطبة عمرو بن العاص: حدثنا سعيد بن ميسرة عن إسحاق بن الفرات عن ابن لهيعة عن الأسود بن معد الحميري عن بحير بن ذاخر المعافري قال:

رحت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة تهجيرًا، وذلك آخر الشتاء أظنه بعد حميم النصارى بأيام يسيرة، فأطلنا الركوع إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس، فذعرت، فقلت: يا أبت ما هؤلاء؟ قال: يا بني هؤلاء الشُّرَط. فأقام المؤذنون الصلاة، فقام عمرو بن العاص على المنبر. فرأيت رجلًا ربعة قصد القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشية كأن به العقيان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة، فحمد اللَّه وأثنى عليه حمدًا موجزًا، وصلى على النبي ﷺ، ووعظ الناس، وأمرهم، ونهاهم؛ فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام، ويأمر بالاقتصاد، وينهى عن الفضول وكثرة العيال، وقال في ذلك:

يا معشر الناس: إياي وخلالًا أربعًا؛ فإنها تدعو إلي النصب بعد الراحة، وإلى الضيق

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٣٠، ١٣١).

بعد السعة، وإلى المذلة بعد العزة. إياي وكثرة العيال وإخفاض الحال وتضييع المال والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال.

ثم إنه لا بد من فراغ يؤول إليه المرء في توزيع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه؛ فيحوز من الخير عاطلًا، وعن حلال اللَّه وحرامه غافلًا.

يا معشر الناس: إنه قد تدلت الجوزاء وذكت الشعرى، وأقلعت السماء وارتفع الوباء، وقل الندى وطاب المرعى، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر؛ فحي لكم على بركة اللَّه إلى ريفكم؛ فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وصونوها وأكرموها؛ فإنها جُنَّتكم من عدوكم، وبها مغانمكم وأثقالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرًا. وإياي والمشمومات والمعسولات؛ فإنهن يفسدن الدين، ويقصرن الهمم.

حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إن اللَّه سيفتح عليكم بعدي مصر؛ فاستوصوا بقبطها خيرًا فإن لكم منهم صهرًا وذمة** ».؛ فعفوا أيديكم وفروجكم، وغضوا أبصاركم. ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه، واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال؛ فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك، واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة؛ لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية.

وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول:

« **إذا فتح اللَّه عليكم مصر، فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض** » فقال له أبو بكر: ولم يا رسول اللَّه؟ قال: « **لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة** » فاحمدوا اللَّه معشر الناس على ما أولاكم.

فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم؛ فإذا يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر؛ فحي على فسطاطكم على بركة اللَّه.

ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته وعسرته، أقول قولي هذا وأستحفظ اللَّه عليكم.

قال: فحفظت ذلك عنه. فقال والدي بعد انصرافنا إلى المنزل لمَّا حكيت له خطبته:

إنه يا بني يحدو الناس إذا انصرفوا إليه على الرباط كما حداهم على الريف والدعة)[١].

لقد التقينا مع عمرو بن العاص ﷺ مرتين قبل الآن: مرة وهو يحدثنا عن قصة إسلامه، ومرة يحدثنا عن رحلته إلى أمير عمان.

وها نحن الآن نلتقي معه أميرًا على مصر؛ فننفذ إلى أعماقه، ونتعرف على نفسيته لرعيته وشعبه من خلال هذه الخطبة الفذَّة الجامعة، التي نقل لنا منها بحير بن ذاخر المعافري ما حفظه منها، وسنعيش مع كل قطعة منها كما نعيش مع حبات عقد الجوهر:

١ - هذا هو مظهره الخارجي الوسيم الذي يحافظ عليه، وهو الذي حدا بأمير المؤمنين عمر ﷺ عندما رآه أن يقول عنه: ما ينبغي لأبي عبد اللَّه أن يمشي على الأرض إلا أميرًا؛ حيث كان من الوسامة والجمال والجسم الممتلئ والقامة المتسقة مثل أبيه العاص بن وائل الذي وصفه عبد اللَّه بن عمر يوم أجار أباه بقوله: (إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير)[٢]، وفي رواية عنه: (فجاءه رجل عليه قباء من ديباج)[٣]، وها هو عمرو بن العاص (رجل ربعة قصد القامة وافر الهامة أدعج[٤]، أبلج[٥]، عليه ثياب موشية كأن به العقيان[٦]) إنه يشد الأنظار إليه هيبة ومحبة (تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة).

٢ - والذي يرى هذا المنظر الوسيم الجميل يخطر بذهنه الشموخ والكبرياء وراء هذا المنظر، كما يخطر بذهنه التنافس في الدنيا بين الأمير ورعيته. لكنه بعد حمد اللَّه والثناء عليه ركز على أمور يخشاها كما يخشى العقاربَ والحياتِ من أن تفتك بجنده الذين يعيش معهم كظلهم.

(قال: إياي وخلالًا أربعًا؛ فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى المذلة بعد العزة: إياي وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال). فحين ينصبُّ همّ المرء على تروية دافع الجنس والإكثار من الولد والتباهي به - تنشدُّ قدمه إلى الأرض ويحرص على الدنيا، ويكد وينصب حتى يهيئ لهم الرزق الحلال.

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٣٩ - ١٤١).

(٢، ٣) صحيح البخاري (٢/ ٤/ ٢٤٢) باب إسلام عمر.

(٤) أدعج: شديد سواد العين مع سعتها.

(٥) أبلج: نقاوة ما بين الحاجبين. (٦) العقيان: الذهب.

وحين يحافظ المرء على مستوى الترف ودعة العيش ولينه لا بد أن يقدم الثمن للمحافظة على هذا المستوى الذي اختاره، والدنيا غرارة لا تشبع؛ فهي تدعو دائمًا إلى المزيد فـ (إخفاض الحال) مدعاة إلى الركون إلى الدنيا وإلى المذلة بعد العزة. فعظمة المسلم في استغنائه عن الدنيا لا استعبادها له، (وتضييع المال) والتبذير به يدعو إلى البحث عن الجديد من المال كل يوم، ومستغرق جهدًا ونصبًا بعد أن يذوق لذة هذا الإنفاق، و« **الدنيا حلوة خضرة وإن اللَّه مستخلفكم فيها فناظر ما تعملون** »[(١)]. ورسول اللَّه ﷺ نهى عن (إضاعة المال)[(٢)].

(وقيل وقال) وهو ترك لذة شهوة الكلام بعد لذة شهوة المال ولذة شهوة العيال، وفضول الكلام يقود إلى كل أمراض اللسان من الغيبة والنميمة والكذب وغير ذلك.

إنه ممسك بزمام جيشه أن يغوص في وحل الشهوة فيفقد قابليته العليا للجهاد والمواجهة كما يقول - عليه الصلاة والسلام - للمسلمين: « **مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلَّتون من يدي** »[(٣)].

٣ - وعمرو الذي يعلم أن أعظم رصيد عنده وأعظم كنز هم هؤلاء الجنود الذين صاروا جزءًا من حياته - لا بد أن يثلج صدورهم بالمتعة الحلال التي لا تتجاوز القصد؛ فقال: (ثم إنه لا بد من فراغ يؤول إليه المرء في توزيع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل).

فالنفوس إذا كلَّت عميت، ولا بد من الاستجمام والراحة بعد الجهاد والصبر عليه وللنفس حقها، وللزوج حقه، ولله - تعالى - حقه؛ فأعط كل ذي حقٍّ حقه، إنه المنهج النبوي الذي استوعبه الأمير عمرو ﷺ في التوازن الذي ينشده لجيشه حتى يكونوا معه في ساحة الموت كما يكونون معه في المتعة الحلال.

لكن هذا الفراغ - فراغ المجاهدين - بحاجة إلى شيء آخر غير المتعة الحلال، والزينة التي أخرجها اللَّه - تعالى - لعباده والطيبات من الرزق؛ بحاجة إلى المزيد من

---

(١) رواه مسلم (ح ٢٧٤٢). (٢) رواه مسلم (ح ١٧١٥).
(٣) رواه مسلم (ح ٢٢٨٥).

العلم والتعرف على الحلال والحرام، إنه ليس فراغ الدواب والبهائم؛ بل فراغ الدعاة والمجاهدين.

(.. ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه؛ فيحوز عن الخير عاطلًا، وعن حلال اللَّه وحرامه غافلًا).

٤ - ها هو يتنفس برئات أصحابه بعد أن أطل الربيع ببهائه على الدنيا؛ فيفتح هذه النفوس عليها قائلًا كأنما هو شاعر يتغنى بجمال هذا الربيع:

(يا معشر الناس، إنه قد تدلت الجوزاء، وذكت الشعرى، وأقلعت السماء، وارتفع الوباء، وقل الندى، وطاب المرعى، ووضعت الحوامل، ودرجت السخائل، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر. فحي لكم على بركة اللَّه إلى ريفكم؛ فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها؛ فإنها جُنَّتكم من عدوكم، وبها مغانمكم وأثقالكم).

إنها الدعوة إلى المتعة المباحة التي أخرجها اللَّه - تعالى - لعباده وهي خالصة للذين آمنوا، وهؤلاء هم جند اللَّه في هذه الأرض، والمحافظون على ثغره، وآن الآوان للاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا.

(فحي على بركة اللَّه إلى ريفكم؛ فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده).

كما يدعوهم إلى الاهتمام بخيلهم التي هي جزء من حياتهم (فأربعوا خيلكم وأسمنوها)؛ فهي الفرصة المتاحة لها في هذا الربيع تستجم وتستعد فتأكل وتتنعم ويطيب مرعاها.

ويحذرهم من الإغراق في الطيب والإغراق في المطاعم (وإياي والمشمومات والمعسولات؛ فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم).

٥ - وينبه الأمير جيشه إلى أنهم دعاة، بالإضافة إلى أنهم مجاهدون؛ فسيجاورون القبط من أهل الذمة وحسن تعاملهم هو الذي يحبب الإسلام لهم.

(واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرًا). حدثني عمر - أمير المؤمنين - أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إن اللَّه سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا؛ فإن منهم صهرًا وذمة** » فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم.

وهو الهدي النبوي الذي علمه النبي ﷺ لجنديه عمرو؛ فكان هو اليوم رائد الأمة في

تطبيق هذا الهدي، إنه الزهد عما في أيدي الناس حتى يحبه الناس.

« .. **وازهد فيما عند الناس يحبك الناس** »(١).

فهو يطالب جنده بعفة أيديهم عن حرام المال، وعفة فروجهم عن حرام الجنس، وغض بصرهم عن الأجانب؛ وبذلك يطمئن هؤلاء الجيران الذِّميون إلى ترفع هؤلاء الجيران عن الطمع فيهم وأنهم أصحاب قضية وأتباع نبي؛ فيفتحون آذانهم وقلوبهم لهم ولهؤلاء الذميين خاصة خاصة، فهم صهر رسول اللَّه ﷺ، إنهم قوم مارية - رضوان اللَّه عليها - أم المؤمنين. وفي رواية: (فإن لهم نسبًا وصهرًا) فهم قوم هاجر أم إسماعيل - أبي العرب - عليه الصلاة والسلام.

٦ - الدعوة والجهاد صنوان لا يفترقان؛ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ١٥].

وقد غدت الخيل عنوانًا على الجهاد فـ « **الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة** »(٢)، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولهذا هدد المؤمنين المجاهدين بحرمانهم من العطاء لو أهزلوا خيلهم؛ فقال:

(ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه، واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال؛ فمن أهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك)؛ لأن للفارس دائمًا سهمين، وللراجل سهم واحد؛ وهذا يعني فقدان نصف راتبه لو لم يهتمّ بفرسه اهتمامه بنفسه.

٧ - وهو يريد أن يبقي هذه الجذوة حية متقدة، وأن تبقى هذه الشعلة - شعلة الجهاد - وهّاجة، وأن لا ينسوا أنهم مرابطون على أعظم ثغر من ثغور الإسلام.

(واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة؛ لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية) حدثني عمر - أمير المؤمنين - أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إذا فتح اللَّه عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا**

---

(١) من حديث حسن رواه ابن ماجه (٢/ ح ٤١٠٢).

(٢) متفق عليه.

كثيفًا فذلك الجند خير أجناد الأرض » فقال له أبو بكر: ولم يا رسول اللَّه؟ قال: « **لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة** ».

٨ – وبعد هذه التنبيهات المهمة التي كانت بمثابة أوامر عسكرية بأسلوب تربوي من خلال صلاة الجمعة عاد فأنهى خطبته بقوله:

(فاحمدوا اللَّه معشر الناس على ما أولاكم؛ فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم).

وهو يدعوهم بعد اجتناب هذه المحظورات أن يمارسوا متعتهم كما يحبون خلال فصل الربيع، فصل الخير والنماء والبركة.

٩ – وها هو يخطط لعودتهم كما يخطط لذهابهم (فإذا يبس العود، وسخن العمود، وكثر الذباب، وحمض اللبن، وصوح البقل، وانقطع الورد من الشجر، فحي على فسطاطكم على بركة اللَّه).

١٠ – ولا ينسى أن يذكر بأبسط الأشياء حتى لا تنسى أن يذكر بهدية العيال والأولاد لإدخال الفرح على قلوبهم بقوله:

(ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته)؛ فهو يعيش بهم ولهم ومعهم وهو جزء منهم...

وأنهى وصاياه العشر هذه بقوله: (أقول قولي هذا وأستحفظ اللَّه عليكم).

ونعود بعدها إلى راوينا الشاب الذي أتحفنا بهذه الخطبة الخالدة فينقل لنا حتى حديثه مع أبيه بعد انصرافه من الصلاة، لنستمع لمشاعر الأب العظيم الذي يربي ابنه على حب عمرو الأمير الرحيم العبقري (قال: حفظت ذلك عنه، فقال والدي بعد انصرافنا إلى المنزل لما حكيت له خطبته. إنه يا بني يحدو الناس إذا انصرفوا إليه على الرباط، كما يحدوهم على الريف والدعة).

الجريمة العظمى:

وكان من وعي عمرو ﷺ أن يحول بين جنده وبين انشغالهم بالحرث والزراعة؛ بل كانت هذه جريمة يحاسب ويعاقب من يقترفها حتى لا يخلدوا إلى الأرض ويثّاقلوا إليها.

« ثم إن عمر بن الخطاب – فيما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهب عن حيوة ابن شريح عن بكر بن عمير عن عبد اللَّه بن هبيرة – أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد

يتقدمون إلى الرعية أن عطاءهم قائم، وأن رزق عيالهم سائل؛ فلا يزرعون ولا يزارعون. قال ابن وهب: فأخبرني شريك بن عبد الرحمن المرادي قال: بلغنا أن شريك بن سمي الغطيفي أتى إلى عمرو بن العاص فقال: إنكم لا تعطونا ما يحسبنا، أفتأذن لي بالزرع؟ فقال له عمرو: ما أقدر على ذلك. فزرع شريك من غير إذن عمرو، فلما بلغ ذلك عَمْرًا كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمي الغطيفي حرث بأرض مصر؛ فكتب إليه عمر: أن ابعث إلي به، فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو أقرأه شريكًا، فقال شريك لعمرو: قتلتني يا عمرو؟ فقال: ما أنا قتلتك، أنت فعلت هذا بنفسك. قال له: إن كان هذا من رأيك فأذن لي بالخروج إليه من غير كتاب، ولك عليَّ عهد اللّه أن أجعل يدي في يده، فأذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال: تؤمنني يا أمير المؤمنين؟ قال: ومن أي الأجناد أنت؟ قال:من جند مصر. قال: فلعلك شريك بن سمي الغطيفي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: لأجعلنك نكالًا لمن خلفك. قال: أو تقبل مني ما قبل اللّه من العباد. قال: وتفعل؟ قال: نعم، فكتب إلى عمرو بن العاص:(إن شريك بن سمي جاءني تائبًا فقبلت منه »[1].

ويقرأ المرء هذه الحادثة، ويأخذه الدهش من كل جانب.

يعجب لشدة عمر أمير المؤمنين في هذا الحظر، حتى كأنما هذه الزراعة رجس من عمل الشيطان. وإذا كان المسلمون منذ أربعة عشر قرنًا قد وقاهم اللّه شر ظهور الإقطاع في أرضهم وديارهم فليحمدوا اللّه - تعالى - ثم ليحمدوا عمر أمير المؤمنين الذي قطع منابته من الجذور، فألغى تملك الجيوش الغازية، وألغى تحولها إلى مستعمرين تستعبد الأرض والعباد، وأبعدها عن الانشغال بالزراعة عن الجهاد.

وإلا لانتهى الإسلام من القرن الأول حين يخلد الناس إلى الراحة والري والزراعة والحرث.

ويعجب المرء لأن أمرًا يصدر من أمير مصر عمرو بن العاص بمنع الجيش على الزرع والحرث؛ فلا يظهر في هذه الآلاف المؤلفة التي تملك القوة والسلاح إلا مخالفة واحدة لأحد قادة الفتح الكبار وهو يعجب أن هذا المخالف لم يغض الطرف عنه عمرو ابن العاص، ولم يقم هو بمعالجتها؛ إنما رفعها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٤٤).

المدينة ليحكم فيها، فهي من الجرائم العظمى التي يختص الخليفة بالنظر فيها.

- ويعجب المرء لعتب شريك على عمرو وجواب عمرو له، لكن الأعجب أن يرضى عمرو بن العاص لشريك أن يمضي إلى أمير المؤمنين دون رقابة إلا رقابة عهد اللَّه وميثاقه عليه، وحتى بدون كتاب من عمرو، ففي الوقت الذي يصر عمرو على إبلاغ أمير المؤمنين جريمة شريك، وفي الوقت نفسه يبعث المجرم وحده إلى عمر دون خشية أن يفر أو يمضي إلى ثغر آخر.

- ويعجب المرء من شريك وهو يمضي إلى عمر وبين عينيه القتل (كما قال لعمرو: قتلتني ياعمرو) فيسلم نفسه إلى أمير المؤمنين، ويطلب منه الأمان على ما اقترفت يداه.

- ويعجب المرء لذهن الخليفة الهائل الذي يحصي في عقله مشكلات الأمة كلها، ولا ينسى حتى مخالفة شريك في مصر وهو لا يعرفه من قبل، ترى كيف كان يعيش هذا الخليفة العظيم هموم الأمة، فمجرد أن ذكر له أنه من أجناد مصر أجابه: فلعلك شريك ابن سمي الغطيفي. وتدل كذلك على خطورة هذه القضية في نفسه، فلو مرت هذه الحادثة دون عقوبة لتجرأ الناس على المخالفة وكسر أمر أمير المؤمنين؛ فكانت هاجسًا في نفسه حتى لقي المتهم شريكًا.

- ويعجب المرء من موقف شريك ﷺ الهادئ المتزن الذي يقول لأمير المؤمنين: أو تقبل مني ما قبل اللَّه من العباد. واستطاع بهذه الكلمة الهادئة أن يغير مجرى تفكير عمر كله، فلا يشك فيه ولا يطعن فيه؛ بل يصدقه مباشرة ويعفو عنه.

- ويعجب المرء من عفو أمير المؤمنين بكلمة واحدة يذكرها شريك، فيرسل معه الكتاب إلى عمرو بن العاص أنه قبل توبة شريك وسويت قضيته.

كتاب إلى النيل:

لقد كان عمرو على مستوى عمر - رضي اللَّه عنهما - في فقه هذا الدين وأولوياته، وفقه عمر بالرجال هو الذي دفعه لاختياره لهذا الموقع.

(لما فتح عمرو بن العاص مصر - كما حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن قيس ابن الحجاج عمن حدثني: أن أهلها (أي أهل مصر) حين دخل بؤونة من أشهر العجم فقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عهدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها،

وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله.

فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى[١] لا يجري قليلًا ولا كثيرًا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر:

قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي، فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها:

من عبد اللّٰه عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر. أما بعد؛ فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان اللّٰه الواحد القهار الذي يجريك، فنسأل اللّٰه الواحد القهار أن يجريك.

فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للخروج منها والجلاء؛ لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه اللّٰه ستة عشر ذراعًا في ليلة وقطع اللّٰه تلك السنة السوء عن أهل مصر)[٢].

فقد رفض عمرو ﷺ تلك السنة السيئة، واعتبرها جاهلية قد هدمها الإسلام، وتأخر فيضان النيل شهرين ونيفًا، وصوب الخليفة رأيه، وفاض النيل بتوفيق اللّٰه ثم ببطاقة أمير المؤمنين ستة عشر ذراعًا في ليلة واحدة.

حفر خليج أمير المؤمنين:

وتختلف الروايات التي تتحدث عن حفر الخليج بين النيل والبحر في صاحب الفكرة، فرواية تعيد ذلك إلى عمر بن الخطاب ﷺ أنه صاحب الفكرة، ورواية تعيدها إلى عمرو بن العاص ﷺ، ورواية تعيدها إلى قبطي من أقباط مصر، ولا نجد حرجًا في ذكر الروايات جميعًا؛ لأنها تنتهي في النهاية إلى إشراف عمرو ﷺ على حفره، وفتح سبيل التجارة عن طريق البحر بعد أن كانت عن طريق البر، وتحويل الدولة الإسلامية إلى قطعة واحدة في التعايش والحركة التجارية والعلاقات الاقتصادية، وتعطينا الدليل على عبقرية الحاكم العظيم عمرو بن العاص.

(حدثنا عبد اللّٰه بن صالح أو غيره عن الليث بن سعد أن الناس بالمدينة أصابهم جهد

(١) أسماء أَشْهُر في الأعجمية.

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (١/ ١٩٢).

شديد في خلافة عمر بن الخطاب في سنة الرمادة[1]؛ فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر:

من عبد اللَّه عمر - أمير المؤمنين - إلى العاص بن العاص، سلام أما بعد؛ فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه ثم يا غوثاه - يردد قوله - فكتب إليه عمرو بن العاص:

لعبد اللَّه عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، أما بعد؛ فيا لبيك، ثم يا لبيك، قد بعثت إليك بِعيرٍ أولها عندك وآخرها عندي، والسلام عليك ورحمة اللَّه.

فبعث إليه بِعيرٍ عظيمة؛ فكان أولها بالمدينة وآخرها مصر يتبع بعضها بعضًا، فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ... فلما رأى ذلك عمر حمد اللَّه، وكتب إلى عمرو ابن العاص يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه فقال عمر:

يا عمرو، إن اللَّه قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح اللَّه عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين - أن أحفر خليجًا من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة؛ فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم.

فانطلق عمرو فأخبر بذلك من كان معه من أهل مصر وقالوا: نتخوف أن يدخل ضرر على مصر، فنرى أن تُعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له: إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلًا، فرجع عمرو بذلك إلى عمر، فضحك عمر حين رآه وقال: والذي نفسي بيده كأني أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج، فثقل ذلك عليهم وقالوا: يدخل في هذا ضرر على أهل مصر فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين... فعجب عمرو وقال: صدقت واللَّه يا أمير المؤمنين، لقد كان الأمر على ما ذكرت.

فقال له عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة من عندي حتى تجد في ذلك ولا يأتي عليك الحول

---

(١) هناك إشكال في هذه الرواية يتحدث عن نجدة عمرو ﷺ لعمر أمير المؤمنين في عام الرمادة، وكان هذا في سنة ثماني عشرة، وفتح مصر إنما كان سنة عشرين؛ أي بعد عام الرمادة بسنتين. ولعل هذا الجهد قد وقع في غير عام الرمادة؛ ليحل الإشكال المذكور على الرواية الأرجح، وإن كان هناك رواية مرجوحة ضعيفة تشير إلى أن فتح مصر كان سنة عشر للهجرة، فلو أخذنا بهذه الرواية المرجوحة لزال الإشكال؛ وإن كنا نرجِّح الحل الأول.

حتى تفرغ منه إن شاء اللَّه. فانصرف عمرو، وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج الذي في حاشية الفسطاط الذي يقال له: خليج أمير المؤمنين؛ فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة؛ فنفع اللَّه بذلك أهل الحرمين، وسمي خليج أمير المؤمنين)[1].

(قال: ويقال: إن عمر بن الخطاب قال لعمرو بن العاص وقدم عليه كما حدثنا أخي عبد الحكم بن عبد اللَّه بن عبد الحكم، حدثنا عبد اللَّه بن وهب عن ابن لهيعة عن محمد ابن عبد الرحمن قال - حسبته عن عروة:

يا عمرو إن العرب قد تشاءمت بي وكادت أن تهلك على رجلي، وقد عرفت الذي أصابها وليس جند من الأجناد أرجى عندي أن يغيث اللَّه بهم أهل الحجاز من جندك؛ فإن استطعت أن تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم اللَّه. فقال عمرو: ما شئت يا أمير المؤمنين قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستُد وتركه التجار، فإن شئت أن نحفره فننشئ فيه سفنًا يحمل فيه الطعام إلى الحجاز فعلته، فقال له عمر: نعم؛ فافعل.

فلما خرج عمرو من عند عمر بن الخطاب ذكر ذلك لرؤساء أهل أرضه من قبط مصر فقالوا له: ماذا جئت به - أصلح اللَّه الأمير؟ تنطلق فتخرج طعام أرضك وخصبها إلى الحجاز وتخرب هذه؟! فإن استطعت فاستثقل ذلك. فلما ودَّع عمر بن الخطاب قال له: يا عمرو، انظر إلى ذلك الخليج فلا تنسينَّ حفره. فقال له: يا أمير المؤمنين، إنه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظام، فقال له عمر: أما والذي نفسي بيده إني لأظنك حين خرجت من عندي حدَّثْتَ بذلك أهل أرضك فعظموه عليك، وكرهوا ذلك، أعزم عليك إلا ما حفرته وجعلت فيه سفنًا. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، إنه متى ما يجد أهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا إلى الجهاد. قال: فإني سأجعل من ذلك أمرًا لا يُحمل في هذا البحر إلا رزق أهل المدينة وأهل مكة.

فحفره عمرو وعالجه وجعل فيه السفن)[2].

(قال: ويقال: إنما دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من قبط مصر.

حدثنا أبي عبد اللَّه بن عبد الحكم، حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن أبيه

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٥٠، ١٥١).

(٢) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٦٤، ١٦٥).

أن رجلًا أتى إلى عمرو بن العاص من قبط مصر فقال: أرأيت إن دللتك على مكان تجري فيه السفن حتى تنتهي إلى مكة والمدينة، أتضع عني الجزية وعن أهل بيتي؟ قال: نعم. فكتب إلى عمر، فكتب إليه أن افعل، فلما قدمت السفن الجار[1] خرج عمر بن الخطاب حاجًّا أو معتمرًا فقال للناس: سيروا بنا ننظر إلى السفن التي سيرها اللَّه إلينا من أرض فرعون حتى أتتنا. فقال رجل من بني ضمرة: فأفردني السير معه في سبعة نفر، فآوانا الليل إلى خيمة أعراب، فإذا ببرمة تغطي على النار فقال عمر: هل من طعام؟ فقالوا: لا، إلا لحم ظبي أصبناه بالأمس؛ فقرَّبوه فأكل منه وهو محرم)[2].

وحافظ عمر ﷺ على التوازن في الحفاظ على خبرات مصر من جهة وبتأمين حاجة أهل الحرمين من جهة ثانية.

أسطورة حرق مكتبة الإسكندرية:

وندع الحديث عن هذا الموضوع للكاتب الفاضل أبي رابية الذي كفانا مؤنة التنقيب عنه وتفنيده تحت عنوان: أقوال المؤرخين الذين رضوا اتهام عمرو؛ إذ يقول: (وقد تصدت جمهرة من المؤرخين الأجانب لدحض هذه الفرية الظالمة، وعلى رأسهم جيبون وجوستاف لوبون، والدكتور بطلر، واعتبروها سخافة مستبعدة ينكرها العقل؛ ومن ثم فهم يرفضونها، وأنها رغم تداولها بين الناس في العصور الوسطى يحيط بها الشك بحيث يجعلها غير وثيقة في الدلالة ولا كافية بذاتها في البرهان.

وقد أثنى المؤرخ جيبون على سعة أفق عمرو بن العاص وقال: إن صداقته للفيلسوف حنا الأجرومي والنحوي - الملقب بفليونوس - دليل على سماحته وحبه للمعرفة. ثم يروي جيبون قصة أبي الفرج الملطي ويقول: إن حمامات الإسكندرية التي وزعت عليها هذه المجلدات كان عددها يومئذ أربعة آلاف حمام، وأن استمرار إيقادها بهذا الوقود الثمين الذي لا يضارعه وقود مدى ستة أشهر كاملة أكبر دليل - إن صحت الواقعة - على ضخامة تلك المكتبة، ثم يستطرد جيبون قائلًا: إن نشر كتاب أبي الفرج في الترجمة اللاتينية أتاح لهذه القصة أن تذاع، بحيث كان كل دارس عالم يجد من حماسته للعلم ما يمده للحرارة للتشهير بعمرو.

---

(١) هو ميناء أهل المدينة.

(٢) المصدر السابق (ص ١٦٥، ١٦٦).

ثم يقول المؤرخ جيبون:« وأنا من جانبي أميل ميلًا شديدًا إلى جحد الواقعة نفسها، وما ترتب عليها من نتائج، ومن الغريب أن هذه الرواية يذكرها رجل (يقصد أبا الفرج) من أطراف بلاد فارس بعد فتح الإسكندرية بستة قرون، ولا يكتب عنها مؤرخان مسيحيان من مصر وهما سيد بن البطريق (أوتينحوس) والأسقف حنا النقيوسي، وكلاهما أسهب في فتح الإسكندرية وأفاض في تفصيلاته ». ثم يضيف جيبون في حجة عقلية غير تلك الحجة التاريخية فيقول: « إن الأمر الصارم المعزو إلى عمر بن الخطاب ترفضه تعاليم الإسلام والسنة النبوية وأئمة المسلمين؛ فكتب النصارى واليهود المأخوذة في الحرب لا يجوز إحراقها، وأما كتب الفلسفة والطب والتاريخ والشعر وسواها من العلوم غير الدينية؛ فإنه يجوز أن ينتفع بها المسلمون، وأن يأخذوا منها ما ينفعهم في أمور دينهم، ولا أرى داعيًا لتكرار ما حل بمكتبة الإسكندرية وما أصابها من الحريق غير المتعمد الذي أشعله يوليوس قيصر في مرافق المدينة عندما كان محاصرًا الإسكندرية عام (٤٨ ق.م)، ولا ما أضمره النصارى من الكراهية للثقافة الوثنية؛ فخربوا مدارس الفلسفة تخريبًا مدروسًا بعناية... ».

أما العلامة جوستاف لوبون فقد ناقش قصة إحراق مكتبة الإسكندرية مناقشة علمية مختصرة فقال: « إن أول مؤلف ذكر حريق العرب لهذه المكتبة هو عبد اللطيف الطبيب العربي البغدادي الذي توفي عام (١٢٣١م) أي بعد (٥٩١) سنة من وقوع الحادثة، أما بخصوص حرق مكتبة الإسكندرية المزعوم؛ فإنه همجية وعداوة للمدينة منافية لأخلاق العرب على خط مستقيم، حتى أنه يمكن أن يسأل الإنسان نفسه: كيف أن قصة كهذه قبلها منذ زمن طويل كثيرون من الذين يعتد بعلمهم؟ وقد كذب العلماء هذه القصة في زماننا هذا مرات عدة، فلا نرى حاجة في العودة إليها لتكذيبها، وليس أسهل من الاستشهاد على ذلك بسرد أقوال كثيرة واضحة تثبت أن المسيحيين كانوا قد أعدموا الكتب الوثنية قبل العرب بزمن طويل، وكسروا كل التماثيل أيضًا، ويفهم من ذلك أنه لم يعد بالإسكندرية ما يحرق».

وقد حلَّل الدكتور بطلر رواية حريق مكتبة الإسكندرية زمن عمرو بن العاص تحليلًا رائعًا، وفند بالأدلة الدامغة أن حريق هذه المكتبة العظمى لم يحدث بأمر من عمر بن الخطاب أو غيره من خلفاء المسلمين، وأثبت أنها أحرقت قبل الفتح العربي للإسكندرية ... **وإننا نجمل هذه الأدلة التاريخية الحاسمة التي ساقها بطلر للتدليل على فساد**

هذه القصة وأنها محض افتراء فيما يلي:

١ - إن القصة التي وردت بشأن حريق مكتبة الإسكندرية كما أوردها عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي وأبو الفرج الملطي - هي بلا شك قصة خلابة المظهر، وتظهر لنا لأول وهلة عند تحليلها أنها عبارة عن أكاذيب وأضاليل نعثر على كثير منها في أسفار المتقدمين، فلو أن كل الكتب قد قضي عليها بالحرق لأحرقت حيث هي، ولا تكلف الناس حملها ليغرقوها بين أربعة آلاف حمام، وأنها ظلت تسخن مياهها ستة شهور، رغم أن معظم كتب هذه المكتبة كان من الكاغد (أي الرق المعالج بطريقة خاصة) وهو وإن كان يصلح لإيقاد النار لم يكن يصلح لبقائها متقدة لمدة طويلة، كذلك لم يكن عمرو بن العاص بالرجل الساذج الذي يضع هذه الكتب تحت رحمة أصحاب الحمامات فلا يصعب بذلك على يوحنا النحوي أو أي إنسان غيره أن يستولي على قدر عظيم من هذه الكتب بثمن بخس، إن إيراد هذه القصة على هذه الصورة مضحك، وإنه ليحق لنا أن نسمع ما فيها ونعجب.

٢ - برهن الدكتور بطلر على أن يوحنا النحوي الذي ذكره ابن القفطي وأبو الفرج في روايتهما لم يكن حيًّا يرزق وقت فتح الإسكندرية عام (٦٤٢م) ولو قلنا: إنه عاش إلى عام (٦٤٢م) فإن عمره لا يكون عند ذلك أقل من مائة وعشرين عامًا، ومن الجلي أن يكون قد مات منذ ثلاثين أو أربعين عامًا قبل أن يدخل عمرو الإسكندرية.

٣ - إن رواية عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي وأبي الفرج الملطي ظهرت بعد مرور نحو ستة قرون على هذه الحادثة المزعومة، ولو سلمنا جدلًا بصحة هذه الفرية لما أهملها مؤرخان شهيران معاصران للفتح الإسلامي وكلاهما مسيحي هما: سعيد ابن البطريق (أوتنجوس) الذي فصَّل خبر فتح الإسكندرية تفصيلًا مهمًّا، والأسقف يوحنا النقيوسي الذي كتب مؤلفه عن فتح مصر قبل نهاية القرن السابع الميلادي. كما لم يدون هذه الحادثة أحد من المؤرخين المسلمين المتقدمين كالطبري واليعقوبي والكندي وابن عبد الحكم والبلاذري.

٤ - إن هذه المكتبة العظمى قد أصابها الحريق مرتين: مرة في عهد يوليوس قيصر في حريق عام (٤٨ ق.م) فقد كان قيصر محاصرًا في حي البروكيبون يحيطه المصريون من كل جانب وعليهم قائدهم أوجلاس، فأحرق السفن التي بالميناء، وقيل: إن النار امتدت من هناك وأحرقت المكتبة فأفنتها، وهي مكتبة المتحف أو المكتبة الأم، أما المكتبة

الوليدة التي قامت في السرابيوم فإنها كانت في حجرات متصلة ببناء معبد السرابيوم، وقد أحرق هذا المعبد في عهد الإمبراطور ثيودوسوس (٢٩١م) على يد المسيحيين بزعامة البطريق نيوفيلوس أثناء نضالهم الديني ضد حصون الوثنية.

٥ - إن إحراق العرب لتلك المكتبة غير محتمل، وإن القصة نسج من الأباطيل؛ ذلك لأنهم لم يدخلوا الإسكندرية إلا بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهرًا، وقد ذكر في عهد الصلح أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم وأموالهم، وفي غضون هذه المدة كان البحر مفتوحًا، ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحمل هذه المكتبة إلى بلادهم، وما كان يصعب على يوحنا النحوي (بفرض وجوده) وأمثاله أن يقتنوا هذه الكتب قبل أن تقع الإسكندرية في يد محاربي الصحراء الذين لا علم لهم بقيمتها، وهم على وشك أن يدخلوا المدينة)[1].

وأخيرًا يجب أن يعرف الناس قاطبة أن العرب لم يكونوا قط في تاريخهم كقبائل التتار المتبربرة التي ألقت بخزائن الكتب ببغداد في نهر دجلة؛ فأحالت بمدادها ماءه الرقراق إلى سواد حالك، ولم يكونوا متعصبين إزاء أصحاب الأديان السماوية كتعصب بعضهم إزاء الإسلام، ولا يزال التاريخ يذكر بأسًى بالغ ما قام به (أكريمينيس) رئيس أساقفة الأسبان والقاضي الأكبر بمحاكم التفتيش الرهيبة؛ فقد أحرق ثمانين ألف كتاب من أعظم الكتب التي تحتوي على تراث العرب الحضاري في الأندلس بعد خروجه منها، وهو يحسب أنه يستطيع أن يطمس آثار الحضارة العربية التي تألقت في إسبانيا على مدى ثمانية قرون، كما نقل لنا التاريخ أيضًا أن الفرنسيين عندما فتحوا مدينة قسطنطينة في شمال إفريقية (الجزائر) أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في أيديهم كأنهم من صميم الهمج.

وهكذا برئت ساحة عمرو بن العاص والفاروق عمر من جريمة حضارية شنعاء طالما لاكتها الألسنة بغير تثبت، وإن قصة أبي الفرج عن إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة التي ليس لها أساس من التاريخ[2].

استخراج الكنوز:

فهذه الكنوز الذهبية حق الدولة كي توزع على مصالح الأمة عامة، وليست حكرًا لفرد

---

(١) د. بطلر، فتح العرب لمصر (ص ٣١٢).

(٢) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبي رابية. مقتطفات من (ص ١٩٠ - ١٩٥).

يستحوذ عليها هو وذريته؛ ومن أجل ذلك كان إنذار عمرو ﷺ بتسليم الكنوز للدولة، ومن يجحد ذلك ثم يوجد عنده يقتل، فأين كانت عبقرية عمرو في استخراج هذه الكنوز؟

يحدثنا عن ذلك ابن عبد الحكم بقوله:(حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن وهيب، قال: سمعت حيوة بن شريح، قال: سمعت الحسن بن ثوبان الهمذاني يقول: حدثني هشام بن أبي رقية اللخمي أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر: إن من كتمني كنزًا عنده فقدرت عليه قتلته.

وأن نبطيًّا من أهل الصعيد يقال له: بطرس ذُكر لعمرو أن عنده كنزًا فأرسل إليه يسأله، فأنكر وجحد، فحبسه في السجن وعمرو يسأل عنه: هل يسمعونه يسأل عن أحد؟ فقالوا: لا، إنما سمعناه يسأل عن راهب في الطور، فأرسل عمرو إلى القبطي فنزع خاتمه من يده، ثم كتب إلى ذلك الراهب أن ابعث إليَّ بما عندك وختمه بخاتمه، فجاء رسوله بقلة شامية مختومة بالرصاص، ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها: ما لكم تحت الفسقية. فحبس عنها الماء، ثم قلع البلاط الذي تحتها، فوجد فيها اثنين وخمسين إردبًّا ذهبًا مضروبة، فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد.

فذكر ابن أبي رقية أن القبط أخرجوا كنوزهم شفقًا أن يبغي على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس)[١].

اليقظة الدائمة:

فهو يعلم كل شيء عن جنده؛ فكأنما هم في استنفار دائم حتى في أيام الربيع؛ حيث ينطلقون في ربوع مصر وقراها فهو الذي يتعرف على أماكن وجودهم التي أحبوا المقام فيها، بل يحددها لهم بناء على هذه المحبة؛ فهم عدته وذخيرته ورأس ماله.

(قال: وكان إذا جاء وقت الربيع واللبن كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا، وكانت القرى التي يأخذ فيها عظمهم منوف وسيبندس وأهنلس وطحا، وكان أهل الراية متفرقين؛ فكان آل عمرو بن العاص وآل عبد اللّه بن سعد يأخذون في منف ووسيم، وكانت هذيل تأخذ في بناء بوصير، وكانت عدوان تأخذ في بوصير وقرى عك التي يأخذ فيها عظمهم بوصير وسبندس ومنوف وأتريب، وكانت بلي تأخذ في منف وطرابية، وكانت فهم تأخذ في أتريب وعين شمس ومنوف، وكانت مهرة تأخذ في تتاء

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٨٧).

وتمي، وكانت الصدف تأخذ في الفيوم، وكانت تجيب تأخذ في تمي ومبسطة ووسيم، وكانت لخم تأخذ في الفيوم وطرابية وقريبط، وكانت جذام تأخذ في طرابية وقريبط، وكانت حضرموت تأخذ في ببا وعين شمس وأتريب، وكانت مراد تأخذ في منف والفيوم ومعهم عبس بن زوف، وكانت حمير تأخذ في بوصير وقرى أهناس، وكانت خولان تأخذ في قرى أهناس البهنسي والقيس، وآل وهلة يأخذون في سفط من بوصير، وآل إبرهة يأخذون في منف، وغفار، وأسلم يأخذون مع من جذام أو سعد في بسطة وقريبط وطرابية وآب يسار بن ضنة في أتريب، وكانت المعافر تأخذ في أتريب وسخار ومنوف، وكانت طائفة من تجيب ومراد يأخذون بالبدقون.

وكان بعض هذه القبائل ربما جاوز بعضًا في الربيع، ولا يوقع من معرفة ذلك على أحد إلا أن عظم القبائل كانوا يأخذون حيث وصفنا، وكان يكتب لهم بالربيع فيربعون واللبن ما أقاموا...)[1].

* * *
* *
*

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٤١، ١٤٢).

عمرو بن العاص
الحاكم العادل

أن تجد حاكما عبقريًّا في فن السلطة والحكم هو أمر متوفر في تاريخ الأمم، وليس خاصًّا في الأمة المسلمة؛ لكن أن تجد حاكمًا عادلًا ينطلق من دين في تعامله مع شعبه وخصومه فهو أمر نادر جدًّا في الأمم الأخرى، ومن خواص هذه الأمة من حيث الوفرة والكثرة فيها.

هذا عمرو بن العاص الذي كان ملء سمع الدنيا وبصرها، وهز أركان الإمبراطورية الرومانية وأطاح بسلطانها في الشام ومصر وليبية، كم كان راتبه الذي يتقاضاه من الدولة؟

(ثم كتب عمر بن الخطاب كما حدثنا شعيب بن الليث وعبد اللَّه بن صالح ويحيى ابن عبد اللَّه بن بكير وعبد الملك بن سمع عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب إلى عمرو بن العاص:

« انظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة فأتمَّ لهم العطاء مائتين، وأتمها لنفسك لإمرتك، وأتمها لخارجة بن حذافة لشجاعته، ولعثمان بن أبي العاص لضيافته »[(١)].

فالذين بايعوا تحت الشجرة ممن شهدوا بيعة الحديبية هم خيرة هذه الأمة بعد أهل بدر والرجل وبلاؤه في الإسلام؛ فهم قمة جيل التضحيات فأعطوا مائتين بزيادة خمسين عن أقرانهم، ووافق عمر أن يرفع عطاء هذا الأمير إلى مستوى عطاء أهل الحديبية؛ فلعل خدماته خلال هذه السنين العشر في خدمة الإسلام، وإقبال الناس عليه لإمارته، والمصاريف التي يتحملها لهذا الموقع جعلته مؤهلًا أن يزيد راتبه خمسين عن أقرانه وجنوده. كما تم إعطاء هذا الراتب العالي لخارجة بن حذافة أحد الأربعة الذين بعثهم عمر ﷺ مقام الألف إلى عمرو. وتم إعطاء هذا الراتب لعثمان بن أبي العاص لضيافته، وهو عثمان بن قيس بن أبي العاص السهمي؛ ففي رواية أخرى: (وأفرض لعثمان بن قيس ابن أبي العاص في الشرف لضيافته)[(٢)]، فهو من قبيلة عمرو ﷺ.

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ١٤٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٢١).

اقتسام المال:

ولكن ليت هذا الراتب السنوي بزيادة هذه الخمسين يسلم لأمير مصر عمرو بن العاص كما سلم لأصحاب بيعة الشجرة ولخارجة ولعثمان؛ فقد كان موقعه في الإمارة مظنة الاستغلال والأثرة، ويعسر أن يسلم لعمر بن الخطاب والٍ لا يحاسب حتى على الظنة لسلامة الأمة. وهذه قصة عمرو مع اقتسام ماله:

ثم بعث عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة - كما حدثنا معاوية بن صالح(١)، عن محمد بن سماعة الرملي(٢) قال: حدثني عبد اللَّه بن عبد العزيز شيخ ثقة إلى عمرو ابن العاص وكتب إليه: أما بعد؛ فإنكم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال فجبيتم الحرام، وأكلتم الحرام، وأورثتم الحرام، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة الأنصاري ليقاسمك مالك فأحضره مالك والسلام. فلما قدم محمد بن مسلمة مصر أهدى له عمرو ابن العاص هدية فردها عليه، فغضب عمرو وقال: يا محمد، لم رددت إلي هديتي وقد أهديت إلى رسول اللَّه ﷺ مقدمي من غزوة ذات السلاسل فقبل؟ فقال له محمد: إن رسول اللَّه ﷺ تقبل بالوحي ما شاء ويمتنع مما شاء، ولو كانت هدية الأخ إلى أخيه قبلتها، ولكنها هدية إمام شر خلفها، فقال عمرو:

قبح اللَّه يومًا صرت فيه لعمر بن الخطاب واليًا؛ فلقد رأيت العاص بن وائل السهمي يلبس الديباج المزرر بالذهب، وإن الخطاب بن نفيل ليحمل الحطب على حمار له بمكة فقال له محمد بن سلمة: أبوك وأبوه في النار وعمر خير منك، ولولا اليوم الذي أصبحت تذم لألفيت معتقلًا(٣) عنزًا، يسرك غزرها(٤)، ويسوؤك بكؤها(٥). فقال عمرو: هي فلتة المغضب، وهي عندك بأمانة(٦). وعند البلاذري: (وأجابه ابن مسلمة: لا أذكر شيئًا مما جرى بيننا وعمر حي)(٧).

ثم أحضره ماله فقاسمه إياه ثم رجع.

فمنطق عمر ﷺ أن التجار يحاولون إرضاء الأمراء والاتجار معهم؛ ليسهلوا لهم أمورهم ويضمنوا أرباحهم؛ ولذلك سرعان ما يثري هؤلاء الأمراء من وراء التجارة، قد

---

(١) صدوق من الحادية عشرة.
(٢) صدوق من العاشرة.
(٣) معتقلًا: رابطًا.
(٤) غزرها: درةُ لبنها.
(٥) بكؤها: قلة لبنها.
(٦) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ١٤٦).
(٧) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٣١٤).

فعل هذا عمر ﷺ مع ابنه عبد اللّٰه الذي لم يكن أميرًا، إنما هو ابن أمير المؤمنين حين أمره بالصدقة بإبله؛ لأنها إبل ابن أمير المؤمنين، وكان محمد بن مسلمة هو الممثل الشخصي للخليفة عمر. وهو الذي ينفذ أمره؛ فهو رئيس استخباراته كذلك، ولم يجرؤ عمرو الوالي أن يمتنع عن التنفيذ وإن كان عبَّر عن استيائه غاضبًا على غير عهده؛ فهو حليم قلما يستثار، ولكنه فقد اتزانه وهو يرى مصادرة نصف ماله، فذكر ثروته التي جمعها بعرق جبينه في الجاهلية والإسلام، وذكر أيام كان أبوه العاص بن وائل يحتمي عمر ابن الخطاب فيه، وأيام كان العاص سيد مكة ثراءً، وكان الخطاب بن نفيل أبو عمر يحمل الحطب على حمار له بمكة، وها هو اليوم يصادر نصف ماله لخزينة الدولة، غير أن رئيس مخابرات دولة الإسلام كان من الاستقامة والفقه لدين اللّٰه ما جعل عمرو يعض أصابعه ندمًا على تفلت هذا الكلام منه في غضبه، وكان جواب محمد بن مسلمة ﷺ جواب مفحمٍ لعبقري الأمة في البلاغة والحجة لعمرو بن العاص الذي كان يضرب عمر ابن الخطاب المثل فيه في الحجة حين يرى عييًّا فيقول: سبحان اللّٰه! خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد.

قال له: أبوك وأبوه في النار، وعمر خير منك، ولولا اليوم الذي أصبحت تذم لألفيت معتقلًا عنزًا يسرك غزرها ويسوؤك بكؤها[1]. فهذا هو مستوى هذه الأمة في الجاهلية، وقبل أن تدخل نطاق هذا العالم وهي منسية في ذاكرة التاريخ ممحية منه يعالج عبقريها عنزه ويحلم في المساء حين يحلب لبنها ويشربه ابتداء، ويؤذيه بكؤها وانقطاع اللبن منها.

وأحس عمرو بن العاص ﷺ أنه وقع بين براثن الأسد؛ فاعتذر لغضبه فعُذِر، لكن المال انقسم ومضى به محمد بن مسلمة إلى أمير المؤمنين.

وقد دعا أحد الشعراء عمر ﷺ الخليفة إلى تقاسم أموال أمرائه مشيرًا إلى أن هذا الثراء الغريب الذي ظهر لديهم رغم بعدهم من الحرام أو الاغتصاب - إنما في تقديم الناس لهم في التعامل معهم (وكان سبب مقاسمة عمر بن الخطاب العمال - كما حدثنا أبو الأسود النضر بن عبد الجبار وعبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن خالد بن الصعق قال شعرًا كتب به إلى عمر بن الخطاب:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... فأنت ولي اللّٰه في المال والأمر

(١) يسرك غزارة لبنها ويسوؤك نضبه.

فلا تدعن أهل الرساتيق[١] والجرى يسيفون مال الله في الأدْم الوفر
فأرسل إلى النعمان[٢] فاعلم حسابه وأرسل إلى جزء[٣] وأرسل إلى بشر[٤]
ولا تنسين النافعين[٥] كليهما وصهر بني غزوان[٦] عندك ذا وفر
ولا تدعونِّي للشهادة إنني أغيب ولكني أرى عجب الدهر
من الخيل كالغزلان والبيض كالدمى وما ليس ينسى من قرام[٧] ومن ستر
ومن ريطة[٨] مطوية في صيانها ومن طي أستار معصفرة خمر
إذا التاجر الهندي جاء بفارة من المسك[٩] راحت في مفارقهم[١٠] تجري
نبيع إذا باعوا ونغزو إذا غزوا فأنى لهم مال ولسنا بذي وفر
فقاسمهم نفسي فداؤك إنهم سيرضون إن قاسمتهم منك بالشطر

(ويقال: إن قائل هذه الأبيات - كما حدثنا معاوية بن صالح عن يحيي بن معين عن وهب بن جرير عن أبيه عن الزبير بن الخريت أبو المختار النميري قال: .... ولا تدعوني للشهادة إنني أغيب، ولكني أرى عجب الدهر، قال عمر: فإنا قد أعفيناه من الشهادة، ونأخذ منهم نصف أموالهم. فأخذ النصف وكان عمر قد استعمل هؤلاء الرهط)[١١].

أزمة بين أمير المؤمنين وعمرو بن العاص:

وإذا كان الحدثان السابقان ينمان عن العدل عند أمير المؤمنين عمر ﷺ؛ فالحدث الثالث يعطي صدًى للبناء النفسي عند أمير مصر الذي يمكن أن يضحي بمنصبه ولا يضحي بعدله؛ هذه الأزمة كانت حول خراج مصر وجزيتها.

وننقل حول الجزية رأي المقوقس فيها عندما أمره قيصر الروم بقتال المسلمين، فكان مما قاله: (... واعلموا معشر الروم والله إني لا أخرج مما دخلت فيه، وصالحت

(١) أهل الرساتيق: أهل الراضي.
(٢) النعمان: لعله النعمان بن نضلة والي عمر على ميسان، أو النعمان بن مقرن والي كسكر.
(٣) جزء: هو جزء بن سهيل السلمي وكان واليًا على العجم.
(٤) بشر: بشر بن عبد اللّه وجَّهه عمر بن الخطاب وسعد، وولاه سعد على قيس.
(٥) النافعين: نافع بن عبد القيس الفهري وكان واليًا على برقة، ونافع بن علقم والي مكة.
(٦) صهر بني غزوان: نافع بن الحارث الثقفي.
(٧) القرام: الستار الأحمر.
(٨) الريطة: الثوب الرقيق اللين.
(٩) فارة المسك: قطعة المسك التي تفور منها رائحته.
(١٠) المفارق: الأعناق.
(١١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٤٨).

العرب عليه، وإني لأعلم أنكم سترجعون غدًا إلى رأيي وقولي، وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني؛ وذلك أني قد عانيت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه، وَيْحكم! أما يرضى أحدكم أن يكون آمنًا في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة؟؟!!(١) مع خضوعهم للحاكمية الإسلامية.

وهذه هي فلسفة الجزية في الإسلام وخلاصتها كما قدمها المقوقس: أن يتعهد المسلمون حماية البلاد والعباد على دينارين في السنة.

(حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا ابن لهيعة عن يحيى بن ميمون الحضرمي قال: لما فتح عمرو بن العاص مصر صالح جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبي، فأحصوا بذلك على دينارين ودينارين، فبلغت عدتهم ثمانية ألف ألف)(٢).

هذا عن الجزية على الأشخاص فماذا عن خراج الأرض؟

(قال: ثم رجع الحديث إلى موسى بن أيوب ورشدين بن سعد عن الحسن بن ثوبان عن حسين بن شفى أن عمرًا لما فتح الإسكندرية بقي من الأساري فيها ممن بلغ الخراج، وأحصي يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان، فاختلف الناس على عمرو في قسمهم؛ فكان أكثر المسلمين يريدون قسمها، فقال عمرو: لا أقدر على قسمها، حتى أكتب إلى أمير المؤمنين فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها، وأن المسلمين طلبوا قسمها؛ فكتب إليه عمر: لا تقسمهم وذرهم يَكُنْ خراجهم فيئًا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم. فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر كلها صلحًا(٣) بفريضته دينارين دينارين على كل رجل لا يزاد على أحد منهم جزية رأسه أكثر من دينارين، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع به من الأرض والزرع إلا الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة)(٤).

لم يكن هناك خلاف حول الجزية وواردها؛ فواردها ثابت إلى بيت المال بعد الإحصاء الشامل، إنما الخلاف في الخراج الذي يختلف حسب غلة الأرض وسعتها وجدب العام

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٧١). (٢) المصدر السابق (ص ٧٠).

(٣) هناك رأي أن مصر فتحت عنوة كلها، كما روى ابن عبد الحكم قال: سمعت أشياخنا يقولون: إن مصر فتحت عنوة بغير عقد ولا عهد. المصدر السابق (ص ٨٩).

(٤) فتوح مصر وأخبارها (ص ٨٤).

وخصبه. وهنا كان موطن الخلاف بين الأميرين.

لقد بقيت الأرض للعاملين فيها لأهلها الأصليين، وعندما فكر معاوية ﷺ بإقطاع بعضها إلى بعض المسلمين لم يستقم الأمر لهذا السبب.

فعن حبيب بن وهب قال: (كتب عقبة بن عامر إلى معاوية يسأله بقيعًا في قرية فيبني فيه منازل ومساكن، فأمر له معاوية بألف ذراع، في ألف ذراع؛ فقال له مواليه ومن كان معه: انظر إلى أرض تعجبك فاختط فيها وابْنِ. فقال: إنه ليس لنا ذلك، لهم في عهدهم ستة شروط، منها: أن لا يؤخذ من أرضهم شيء ولا يزاد عليهم، ولا يكلفوا غير طاقتهم، ولا تؤخذ ذراريهم، وأن يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم)[١].

أما كيف كانت جباية الخراج؟ فكانت على الشكل الآتي:

قال:(وكان عمرو بن العاص لما استوسق[٢] له الأمر أقر قبطها على جباية الروم. وكانت جبايتهم بالتعديل إذا عمرت القرية وكثر أهلها وزيد عليهم، وإن قلَّ أهلها وخربت نُقصوا، فيجتمع عرفاء كل قرية وما روتها ورؤساء أهلها، فيتناظرون في العمارة والخراب حتى إذا أقرو منكم القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع، ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيبذرون فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض. ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان، فإذا فرغوا نظروا إلى ما في كل قرية من الصناع والأجراء؛ فقسموا عليهم بقدر احتمالهم، فإن كانت فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقل ما كانت تكون إلا الرجل المنتاب أو المتزوج. ثم ينظرون إلى ما بقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم، فإن عجز أحدهم وشكا ضعفًا عن زرع أرضه؛ وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف، فإن تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم، وكانت قسمتهم على قراريط الدينار أربعةً وعشرين قيراطًا).

لقد كان مكمن الخلاف بين أمير المؤمنين وواليه على مصر هو حرص أمير المؤمنين

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٦). (٢) استوسق: تمكن واستقر.

على وصول الخراج كاملًا كما كان في عهد الروم حتى لا يستأثر به الأمير، وكتب إليه بذلك بقوله:

(فلما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج من قِبَلِ عمرو بن العاص - كما حدثنا عبد اللَّه ابن سعد - كتب إليه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين إلى عمرو ابن العاص: سلام عليك. فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإني فكرت في أمرك. والذي أنت عليه. فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى اللَّه أهلها عددًا وجلدًا وقوة في بر وبحر، وإنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملًا محكمًا مع شدة عتوهم وكفرهم؛ فعجبت من ذلك، وأعجب ما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج، قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب، ولقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر[1]، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك، فإذا أنت تأتيني بمعاريض[2] تعتالها[3] لا توافق الذي في نفسي، ولست قابلًا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدري بعد ذلك ما الذي أنفرك من كتابي وقبضك، فلئن كنت مجزئًا كافئًا صحيحًا إن البراءة لنافعة، وإن كنت مضيعًا نطفًا[4] إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك، قد تركت أن أبتلى ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترتفع إلى ذلك. وقد عُلمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمال السوء، وما تُوالسوا[5] عليه وتلفق. اتخذوك كهفًا[6] وعندي بإذن اللَّه دواء؛ فهو شفاء عما أسألك عنه، فلا تجزع أبا عبد اللَّه أن يؤخذ منك الحق وتعطاه، فإن النهز[7] يخرج الدر، والحق أبلج، فدعني وما عنه تلجلج؛ فإنه قد برح الخفاء، والسلام).

ولم يكن عمر ﷺ ليغضي عن أمير - مهما كان شأنه - ولم يكن هناك أمير أكبر من الحساب، ولو كان شديدًا قاسيًا؛ لأنه يأخذ نفسه بهذه الشدة، فلا عجب أن يكون كلذع النار على عماله خوفًا من ظلمهم واستئثارهم، وكل أمير متهم حتى يثبت براءته عكس التعامل مع أفراد الأمة؛ فكل فرد في رعيته لا بد أن يصله الحق من هذا المال ولو كان في أقصى الأرض، لكن مع الولاة؛ فلا بد أن يتعرف منهم على كل درهم، ويتأكد من وضع

---

(١) على غير نزر: على غير قلة.
(٢) معاريض: خلاف التصريح.
(٣) تعتالها: تتعلل بها.
(٤) نطفًا: متهمًا بريبة.
(٥) توالس: تخادع.
(٦) كهفًا: ملجزًا.
(٧) النهز: شدة الاستخراج.

صرفه من أين اكتسب وأين أنفق، وهذا ما جعل الكتاب المذكور شديد اللهجة وعنيفها لاحتمال كتاب سبقه كان أخف منه لهجة لم يجد الجواب الشافي له فيه.

فأجابه عمرو بن العاص:

(فكتب إليه عمرو بن العاص: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، لعبد اللَّه عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص: سلام عليك، فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو، أما بعد؛ فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج، والذي ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلي، وإعجابه من خراجها على أيديهم، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام، ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر، والأرض أعمر؛ لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام.

وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبًا قطع ذلك درَّها، وأكثرت في كتابك، وأنبت وعرضت وثرَّبْت، وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خُبَر، فجئت لعمري بالمفظعات المقذعات، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق، وقد عملنا لرسول اللَّه ﷺ ولمن بعده فكنا مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم اللَّه من حق أئمتنا، نرى غير ذلك قبيحًا والعلم به سيئًا؛ فيعرف ذلك لنا، ويصدق فيه قبلنا، معاذ اللَّه من تلك الطعم ومن شر الشِّيم والاجتراء على كل مأثم. فاقبض عملك؛ فإن اللَّه قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عِرْضا ولم تكرم فيه أخًا، واللَّه يا بن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد لنفسي غضبًا ولها إنزاهًا وإكرامًا، وما عملت من عمل أرى عليَّ فيه متعلقًا، ولكني حفظت ما لم تحفظ، ولو كنتُ من يهود يثرب ما زدت، يغفر اللَّه لك ولنا وسكتُّ عن أشياء كنت بها عالمًا، وكان اللسان بها مني ذلولًا؛ ولكن اللَّه عظم من حقك ما لا تجهل، والسلام).

لقد كان جواب أمير مصر بعنف جواب أمير المؤمنين، وكان يدور حوله الدفاع عن نفسه، ورفض الاتهامات الموجهة إليه، واستعداده للتخلي عن مصر إذا أصر أمير المؤمنين على هذه الاتهامات، وأنه كان ثقة عند سلفيه محمد رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر الصديق، وما اتهماه هذا الاتهام، ولولا عظم حق أمير المؤمنين عليه لكان الجواب أعنف وآلم، لكنه لم يكن جوابًا مباشرًا على الموضوع نفسه عن استبطاء الخراج ونقصه عن غلته المعهودة، ولم يكن الجواب كافيًا ومقنعًا لأمير المؤمنين بأن همة الفراعنة أعظم والأرض أخصب، ولم يكن لأمير المؤمنين مندوحة أن يتغاضى عن شقشقة الكلام

ليصل إلى لب الموضوع، فلا يغضب لنفسه؛ إنما يبحث عن الجواب الشافي لتأخر الغلة ونقصانها، فكان الجواب الثاني أو الثالث الآتي:

(فكتب إليه عمر بن الخطاب - كما وجدت في كتاب أعطانيه يحيى بن عبد اللَّه ابن بكير عن عبد اللَّه بن أبي جعفر عن أبي مرزوق التجيبي عن أبي قيس مولى عمرو ابن العاص:

من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سلام عليك، فإني أحمد اللَّه الذي لا إله إلا هو، أما بعد؛ فقد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج، وكتابك إليَّ ببنيات الطرق، وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق المبين. ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك؛ ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك. فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج، فإنما هو فيء المسلمين، وعندي من قد تعلم قوم محصورون، والسلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص: بسم اللَّه الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو ابن العاص، سلام عليك. فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد؛ فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج، ويزعم أني أعند عن الحق، وأنكب عن الطريق، وإني واللَّه ما أرغب عن صالح ما تعلم؛ ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تُدرك غلتهم، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرًا من أن يُخرق بهم؛ فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه، والسلام).

لقد كانت حجة عمرو ﷺ في هذا الكتاب واضحة في الرد على استبطاء الخراج، وكان الكتاب متناسبًا مع مقام أمير المؤمنين، لكن عملية نقص الواردات تحتاج إلى تحقيق فلا تزال التساؤلات قائمة.

(حدثنا عبد اللَّه بن صالح عن الليث بن سعد أن عمر أجباها اثني عشر ألف ألف، قال غير الليث: وجباها المقوقس قبله بسنة عشرين ألف ألف، فعند ذلك كتب إليه عمر ما كتب)[1].

أما التحقيق فكان على الصيغة الآتية:

(حدثنا هشام بن إسحاق العامري قال: كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٦٠، ١٦١).

أن يسأل المقوقس عن مصر: من أين تأتي عمارتها وخرابها؟ فسأله عمرو، فقال له المقوقس:

تأتي عمارتها وخرابها من وجوه خمسة: أن يُستخرج خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم، ويرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم، وتحفر في كل سنة خلجها، وتسد ترعها وجُسُرُها، ولا يقبل محل أهلها (يريد البغي)؛ فإذا فعل هذا فيها عُمرت، وإن عُمل فيها بخلافه خربت. لقد أدرك ﷺ من جواب المقوقس أن عمارة الأرض هي الأصل وليست عمارة الإنسان؛ فلا بد من جمع هذا المبلغ من المال، سواء كان أهلها قادرين عليه أم لا. فلا يُقبل محل أهلها، بينما يشير عمر في كتابه السابق إلى الخليفة أن عمارة الإنسان هي الأصل (ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلتهم، فنظرت للمسلمين؛ فكان الرفق بهم خيرًا من أن يُخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى لهم عنه)[1].

وإشارة عمرو ﷺ بنظره الثاقب البعيد إلى أن عمارة الأرض جزء من عمارة الإنسان - لتدل على مدى فهمه للواقع الذي يعيشه؛ فالبغي مرتعه وخيم، وإن بدا ابتداء محققًا لمصلحة الأمة.

ومع هذا فلم يكتف عمر ﷺ بهذا التحقيق الذي تم بصورة غير مباشرة مع أمير سابق لمصر، فأعاد التحقيق مع شريحة من الشعب يمثلها أحد كبار العاملين الأقباط في الأرض.

(وفي كتاب ابن بكير الذي أعطاني عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه قال:

لما استبطأ عمر بن الخطاب عمرو بن العاص في الخراج كتب إليه أن ابعث إليَّ رجلًا من أهل مصر، فبعث إليه رجلًا قديمًا قديمًا من القبط؛ فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الإسلام فقال: يا أمير المؤمنين، كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها، وعاملك لا ينظر إلى العمارة؛ وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد. فعرف عمر ما قال، وقبل من عمرو ما كان يعتذر به؛ فقد توافقت الإجابات بين الحاكم والمحكوم عن وضع الجباية قبل الإسلام، إذ لا يتعاملون على الظاهر، إنما يتعاملون من خلال مبلغ من المال يجب أن يجبى، سواء كان العاملون الكادحون قادرين على تأديته أم لا؛ لتحقيق عمارة الأرض والاستئثار بالباقي، أم أنهم سيضطرون إلى الاستدانة

(١) المصدر السابق (ص ١٦١).

أو بيع أملاكهم لتقديم ما وجب عليهم تأديته).

وأدرك عمر ﷺ طينة عمرو، وأن هذه الأزمة كلها بينه وبين الأمير إنما سببها مصالح الفئة الكادحة الصابرة من القبط، وعدم إرهابهم بالسوط والخوف، وهو ما يثلج صدر أمير المؤمنين.

الحرية الدينية واعتناق الإسلام:

وندع الحديث في هذه الفقرة المهمة إلى الأستاذ أبي رابية؛ فقد حلَّلها تحليلًا رائعًا معتمدًا العديد من المصادر الغربية والعربية في ذلك.

يقول: ثانيًا: سياسة عمرو الدينية: كفالة الحرية الدينية للأقباط.

ورث عمرو بن العاص عن حكم الروم في مصر تركة مثقلة بالاضطهاد الديني لليعاقبة[١] الأقباط من قبل حكامهم الرومان الذين يخالفونهم في مذهبهم، وإن ما أصاب القبط من الوطء والعسف في محنة تطاولت مدتها نحو عشر سنين على يد الأسقف قيرس - كان مخيفًا رهيبًا؛ فقد كان هذا الأسقف الملكاني[٢] لا يعرف الرحمة ولا تخطر على قلبه هوادة. وكان بطريق القبط بنيامين لا يزال على اختفائه طريدًا يضرب في أنحاء الصعيد، ويهيم على وجهه فيه بعد أن خلف كرسي الأسقفية القبطية وراءه في الإسكندرية موصيًا شعبه بالصبر والجلد على صنوف العسف والاضطهاد ورهبانه بالاعتصام في الصحراء وكهوف الجبال، أما قلبه فكان يتلظى بالرغبة في الانتقام من الروم الذين أذاقوه وشعبه صنوف العسف والتعصب المقيت.

ولقد دامت هذه الشدة العظمى التي ابتلي بها القبط طيلة السنوات العشر بحيث أصبح كل أصل بعدها في الصلح والسلام بين القبط والروم محالًا لا سبيل إلى نشره، وحُلمًا يبعد تحقيقه. أما عمرو فقد كان يعي هذه الحقيقة جيدًا، كان يعرف أنه لكي يحكم مصر حكمًا مستنيرًا يقبله المصريون جميعًا فلا بد أن يقوم حكمه هذا على نهج العدل. وأن يضع مصلحة أهل مصر كافة نصب عينيه، فإن لعوامل الاستقرار النفسي أثرًا ضخمًا في

---

(١) اليعاقبة: هم أتباع الأسقف ديسفورس الذي يقول: إن المسيح جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين، وقد اختلف في تسمية اليعقوبية بهذا؛ فقيل: إن ديسقورس كان يسمى قبل بطريكية يعقوب، وأنه كان يكتب وهو منفي إلى أصاحبه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفي يعقوب. الخطط للمقريزي (٣/ ٥٢٩).

(٢) الملكاني: نسبة إلى الملكانية، وهي ديانة الملك مرقيا نوس ملك الروم الذي يرى أن المسيح جسد، وقد فرض مذهبه هذا على شعبه. المصدر نفسه (ص ٥٢٩).

إحساس المصريين بالطمأنينة والعدالة، فإذا ما شعروا بهذا كله، أخلدوا طواعية للحكم الإسلامي الجديد.

ولما لم يكن للحكام الجدد من المسلمين اهتمام بالمنازعات المذهبية وأحزاب المجامع الكنسية. رأى عمرو أن من حسن السياسة ألا يفرق بين الملكانية واليعقوبية. فلم يتحيز لأحد من الطرفين. بل أقر الحرية الدينية، ورفع الاضطهاد على القبط، وأظل الفريقين بعدله، وحماهما بحسن تدبيره، فعادت الحياة إلى المذهب اليعقوبي في هذا الجو الجديد، جو الحرية الدينية حتى صار المذهب السائد في مصر كلها.

ولما عرف رهبان القبط هذا الأمر من عمرو بن العاص وتيقنوه. خرج عدد عظيم منهم من الأديرة التي كانوا قد اعتصموا بها خوفًا من الاضطهاد والعسف، وساروا في نحو من سبعين ألفًا - كما يروي المقريزي(١) - كل منهم يحمل في يده عصًا إلى عمرو، ويعلنون له الطاعة، فأحسن لقاءهم ورحب بهم.

وكان عمرو بن العاص من جهة أخرى حريصًا على أن يعود البطريق بنيامين إلى رياسته الدينية؛ لما عرف من محبة القبط له وتعلقهم به؛ لذلك أرسل عمرو كتابًا إلى بنيامين يقول فيه:(أينما يكون بطريق القبط بنيامين نعده بالحماية والأمان في عهد اللَّه، فليأت البطريق إلى هنا في أمان واطمئنان؛ ليلي أمر ديانته، ويرعى أهل ملته)(٢) أو كما جاء في عهد الأمان هذا في كتاب أبي صالح الأرمني (فليأت الشيخ البطريق آمنًا على نفسه، وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها لا ينالهم أذًى، ولا تخفر لهم ذمة)(٣).

ولم يلبث عهد الأمان الذي كتبه عمرو بن العاص أن بلغ البطريق بنيامين، فعاد من مخبئه ودخل الإسكندرية دخول الظافرين، وفرح الناس برجوعه فرحًا شديدًا بعد غياب بلغت مدته ثلاثة عشر عامًا، ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر للقبط على يد قيرس والثلاث الباقية في مدة حكم المسلمين(٤).

ولما استقر المقام بالشيخ البطريق بين أتباعه دعاه عمرو إليه. وأمر بأن يقابل بما يليق

---

(١) المقريزي، الخطط (١/ ١٨٧).

(٢) راجع سايروس (ص ١٠٦). فتح العرب لمصر للدكتور بطلر (ص ٣٢٣).

(٣) أبو صالح الأرمني: كتاب الجناح (ص ٢٣١).

(٤) يذكر المقريزي (٣/ ٢٥١) أن هذه الثلاث عشرة سنة التي غاب فيها بنيامين عن كرسي بطريكية؛ منها في ملك فارس عشر سنين، وباقيها بعد قدوم هرقل إلى مصر.

من الترحاب والتكريم، وقد كان البطريق بنيامين ذا هيئة جميلة تلوح عليه سيماء الوقار والجلال، وتحدث بنيامين إلى عمرو، وكان عذب المنطق في تؤدة ورزانة، فكان لذلك أثر عظيم في نفس عمرو، حتى قال لأصحابه: إنني لم أر يومًا في بلد من البلاد التي فتحها اللَّه علينا رجلًا مثل هذا بين رجال الدين، وقد قيل: إن بنيامين قال عند ذلك خطبة جليلة[١]، ولا شك أن عمرًا لم يفهم من ذلك حرفًا[٢]، ولكنه عندما عرف ما يقصده وفهم مراميه أحسن تلقيها وقبولها، وجعله أميرًا على قومه لا يدافع فيهم أمره، وجعل له ولاية أمر دينهم.

وخرج البطريق الشيخ من حضرة الفاتح ممتلئ النفس غبطة وابتهاجًا، وعاد إلى الإسكندرية وهو يلهج بحمده والثناء عليه. فكان لعودته إلى كرسي مرقس الرسول رنة طرب في قلوب أهل مصر جميعًا، فقد عاد لهم الراعي القديم ونالوا على يديه تاج الاعتراف)[٣]، وأخذ بنيامين يقول لأتباعه:« عدت إلى بلدي الإسكندرية فوجدت بها أمنًا من الخوف واطمئنانًا بعد البلاء، وقد صرف اللَّه عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم »[٤]، ولم تكن الأيام لتزيده إلا ثناء وحمدًا فقد اجتمع القبط من حوله يقيمون شعائرهم الدينية في حرية دون خوف أو وجل، فأصلح كنائسهم وذهب إلى أديرتهم المتناثرة في أعماق الصحراء، فكانوا يقابلونه في مواكب يحملون فيها بين يديه المباخر وسعف النخل.

وقد بلغ من ابتهاج القبط بعودة الحرية الدينية إليهم مبلغًا يعبر عنه ساويرس بقوله: « بأنهم فرحوا كما تفرح الأسخال (صغر المعاز) إذا حلت قيودها، وأطلقت لترشف من لبان أمهاتها »[٥].

ولم يكن الملكانيون ضد المصريين والروم الذين أقاموا في مصر أقل تمتعًا بحريتهم الدينية من القبط. حقًّا إن الملكانيين كانوا قلة إلى جانب اليعقابة الأقباط، وإن عددًا كبيرًا من القبط الذين انتقلوا أيام الإرهاب إلى المذهب الملكاني لم يلبثوا حين عادت لهم حريتهم الدينية أن رجعوا إلى مذهبهم الأول، والتفوا حول أسقفهم بنيامين، لكن آخرين

(١) د. بطلر، فتح العرب لمصر (ص ٣٢٤).
(٢) هذا من الغمز، فالمترجمون يقومون بنقل معانيها إليه.
(٣) ساويرس، الكتاب الأول (ص ١٠٧).
(٤) ساويرس، الكتاب الأول.
(٥) المصدر السابق (ص ١١١).

من القبط الذين انتقلوا إلى الذهب الملكاني أصروا عليه فلم يسمح الحكم الإسلامي بحملهم قسرًا على تغييره. ويذكر الأسقف ساويرس في كتابه أن أسقفًا ملكانيًّا بقي على مذهبه حتى مات، ولم يمسه أحد بأذًى، كما بقيت كثير من كنائس الملكانيين وأتباعها إلى ما بعد الحكم الإسلامي في الخمسين عامًا، ثم تناقصوا من بعد؛ لأنهم شعروا بأن صلاتهم الاجتماعية تقتضيهم الدخول في مذهب اليعقابة، مذهب الجماعة؛ ولأن من بقي من الروم في مصر آثر أن يندمج مع أهلها، فاعتنق اليعقوبية مذهب الكثرة أو الإسلام دين الحكام المسلمين الجدد.

وكان من أثر هذه الحرية الدينية التي أطلق عمرو بن العاص عقالها أن أقبل كثيرون من عقلاء الروم والمصريين الأقباط على النظر في المذاهب المختلفة، ثم انتهى أكثر هؤلاء إلى قبول الإسلام والدخول فيه، فقد رأوا في تنازع المذاهب المسيحية واضطهاد بعضهم البعض ما زهدهم فيها وجعلهم يلتمسون من طريق الحرية العقلية سبيلًا إلى عقيدة يؤمنون بها مختارين دون ضغط أو إرهاب، وكان الإسلام في عهده الأول يدعو إلى النظر في الكون نظرًا حرًّا مطلقًا من كل قيد، فلم تكن قد نشأت فيه المذاهب والفرق الدينية، ولم يكن أهله قد عرفوا التعصب الذميم لمذهب من المذاهب أو شيعة من الشيع، بل كان باب الاجتهاد مفتوحًا لكل ذي عقل وبصيرة، وكان ما ورد في القرآن الكريم من المبادئ البالغة غاية السمو بابًا إلى الإقبال عليه والاطمئنان إليه.

وقد تداول بعض المؤرخين والكتاب من المسيحيين في مؤلفاتهم أن المصريين الأقباط الذين اعتنقوا الإسلام في ذلك العهد، إنما اعتنقوه ليتساووا بالفاتحين المسلمين في الحقوق والواجبات، ولكن ذلك لا يصدق إلا على القلة منهم، أما أكثريتهم فقد دانت بالإسلام عن بيِّنة وإيمان، ولا عجب في ذلك، ففطرة المحافظة على العقيدة الدينية أقوى في النفس من أن يزلزلها مثل هذا الاعتبار، وليس من شك في أن الذين أسلموا من الأقباط فكروا مليًّا بكل الصدق مع أنفسهم، ووازنوا عقيدتهم القديمة وعقيدة المسلمين الفاتحين، فأثروا الدين الجديد عن رضًا واقتناع وإيمان شامخ. وصدق الدكتور بطلر في قوله: « وليس من العدل أن يقال: إن كل مَنْ أسلم من القبط إنما يقصد الدنيا وزينتها، وإذا كان منهم مَنْ أسلم طمعًا في أن يتساوى بالمسلمين الفاتحين حين يكون له ما لهم وينجو من دفع الجزية. فإن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا مَنْ كانت عقيدتهم غير راسخة. أما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان

من عصيان لصاحبها؛ إذ عصت ما أمر به المسيح من حبٍّ ورجاء في اللّٰه، ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها، ومنذ بدأ لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته »[١].

ويبدو لنا في وضوح وجلاء مقدار عطف المسلمين الفاتحين، وعلى رأسهم عمرو ابن العاص، على أقباط مصر بعد الفتح ما يجعلنا نحسه في أقوال الفاتح العربي وفي أفعاله، وقد ذكر الإمام السيوطي أن عمرو بن العاص في خطبة له بعد أن دعا الجند إلى الذهاب إلى الريف قال: (واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرًا، حدثنا عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللّٰه ﷺ يقول: « **إن اللّٰه سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم صهرًا وذمة، فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم** »)[٢]. كما ذكر المقريزي (أن من الثابت أن عمرو بن العاص أعاد البطريق بنيامين إلى كرسيه بالإسكندرية بعد أن ظل مبعدًا ثلاث عشرة سنة، كما أنه أحسن استقبال رهبان أديرة وادي النطرون، ومنحهم أمانًا لأنفسهم وأديرتهم)[٣]، كذلك لم يَعْتَدِ عمرو على الكنائس المسيحية.. خير شاهد على ذلك ما كتبه الأسقف حنا النقيوسي بعد الفتح بخمسين عامًا وهو لا يتورع عن أن يصف الإسلام بأشنع الأوصاف ويتهم مَنْ دخل فيه بأشد التهم ويقول في عمرو: (إنه تشدد في جباية الضرائب، ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس، ولم يرتكب شيئًا من النهب والغصب، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة من حياته..)[٤].

ولا ينكر الباحث المنصف حسن معاملة العرب للقبط عند الفتح وبعده، بل إن من المسيحيين في البلاد المفتوحة من أشادوا بعدل العرب وحسن معاملتهم، وقد قيل: إن أحد الأساقفة النطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عامًا كتب يقول: « إن العرب الذين وهبهم اللّٰه السيادة في أيامنا أصبحوا سادة لنا، ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي فقط، بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقسيسين، ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا »[٥].

---

(١) د. بطلر، فتح العرب لمصر (ص ٣٢٥).
(٢) حسن المحاضرة للسيوطي (١/ ٦٧).
(٣) المقريزي، الخطط (١/ ١٨٦).
(٤) فتح العرب لمصر لبطلر (ص ٣٢٦، ٣٢٧).
(٥) نقل هذا النص كاملًا من كتاب عمرو بن العاص للأستاذ عبد الخالق سيد أبي رابية من (ص ٢٤٩ – ٢٥٥) مع بعض التصرف، والعهدة على الراوي في صحته.

ثقة القبط بعدل الإسلام:

وقد لخص المقريزي تلخيصًا جيدًا وَضْعَ مصر بين يدي الفتح الإسلامي وبعده فقال: (اعلم أن أهل مصر لما دخلها الإسلام كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى، وهم على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم:

أحدهما: أهل الدولة، وكلهم رومٌ مِنْ جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية (أو الملكانية) وكانت عدتهم تزيد على ثلاث مائة ألف رومي.

والقسم الآخر: عامة أهل مصر ويقال لهم القبط، وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الإسرائيلي الأصل من غيره وكلهم يعاقبة؛ فمنهم كتاب المملكة، ومنهم التجار والباعة، ومنهم الأساقفة القسوس ونحوهم، ومنهم أهل الفلاحة والزرع، ومنهم أهل الخدمة والمهنة، بينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم ويوجب قتل بعضهم بعضًا، ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جدًّا. فإنهم في الحقيقة أهل مصر أعلاها وأسفلها.

فلما قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين معه إلى مصر، قاتلهم الروم حماية لملكهم ودفعًا لهم عن بلادهم، فقاتلهم المسلمون وغلبوهم على الحصن - كما تقدم ذكره - فطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية، فصالحهم عليها وأقرَّهم على ما في أيديهم من الأراضي وغيرها، وصاروا عونًا للمسلمين على الروم حتى هزمهم اللَّه - تعالى - وأخرجهم من أرض مصر.

وكتب عمرو لبنيامين بطرك اليعاقبة أمانًا في سنة عشرين من الهجرة، فسرَّه ذلك، وقدم على عمرو وجلس على كرسي بطركيه بعدما غاب عنه ثلاث عشرة سنة منها في ملك فارس لمصر عشر سنين وباقيها بعد قدوم هرقل إلى مصر، فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر ودياراتها كلها وانفردوا بها دون الملكية ..)(١).

اضرب ابن الأكرمين:

وبلغت الثقة بعدل الإسلام عند القبط أن يمضي فرد من الأقباط عاديٌّ مغادرًا مصر إلى الحجاز ليشكو على ابن أمير مصر عمرو بن العاص؛ حيث حسب أن هذا العدوان

---

(١) خطط المقريزي (٣/ ٥٣٤، ٥٣٥).

الذي تم عليه قد وقع بعلم والده. فلجأ إلى السلطة العليا سلطة الخليفة في الحجاز ليرفع ضربًا ضربه ظلمًا عنه.

ها هو عمر ﷺ يعلن منهجه ابتداء في الحكم بقوله على المنبر:

(.. ألا إني إنما أبعث عمالي ليعلموكم دينكم، ويعلموكم سننكم، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ولا يأخذوا أموالكم، ألا فمن أتي إليه شيء من ذلك فليرفعه إليَّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، فقام عمرو بن العاص فقال: أرأيت يا أمير المؤمنين إن عتب عامل من عمالك على بعض رعيته فأدب رجلًا من رعيته إنك لمقصه منه؟ قال: نعم والذي نفس عمر بيده لأُقصنَّه منه، ألا أقصه وقد رأيت رسول اللَّه ﷺ يقص من نفسه؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تجمروا بهم فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم).

وقد اشتهر هذا المنهج في الآفاق وعند جماهير الأمة باختلاف مشاربها وأدبانها وأجناسها (فأتى رجل من أهل مصر - كما حدثنا عن أبي عبدة عن ثابت البناني[١] وحميد[٢] عن أنس إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! عائذ بك من الظلم. قال: عذت معاذًا قال: سابقت ابن عمرو بن العاص، فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه، فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب. فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين[٣]، قال أنس: فضرب، فواللَّهِ لقد ضرب ونحن نحب ضربه، فما أقلع حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال:

يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشَتفيْتُ منه فقال عمر لعمرو:

منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

قال: يا أمير المؤمنين: لم أعلم ولم يأتني)[٤].

تقديم الكفاءات:

ومن منطلق العدل الذي يؤمن به هو تقديمه للكفاءات بغض النظر عن الحسب

---

(١) ثقة عابد من الرابعة.

(٢) ثقة مدلس من الخامسة، وهو أبو عبيدة كما في الرواية الأولى.

(٣) وفي مخطوطة أخرى للكتاب: ابن الأمين.

(٤) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ١٦٧، ١٦٨).

والنسب والشهرة، فقد أوكل الإمارة في الخراج حين مضى إلى المدينة شخصًا مغمورًا بين أصحاب السابقة والشهرة هو مولى لامرأة مسلمة.

(حدثنا عثمان بن صالح عن الليث بن سعد قال: عاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين، قدم عليه عمرو فيها قدمتين. قال ابن عفير: استخلف في إحداهما زكريا بن الجهم العبدري على الجند، ومجاهد بن جبر مولى بني نوفل بن مناف على الخراج، فهو جد معاذ بن موسى النفاط أبي إسحاق بن معاذ الشاعر، فسأله عمر بن الخطاب: من استخلفت؟ فذكر له مجاهد بن جبر. فقال له عمر: مولى ابنه غزوان؟

قال: نعم، إنه كاتب. فقال عمر: إن القلم ليرفع بصاحبه)(١).

فلسفته في العدل:

وهو يرى أن أحوج الناس للعدل مَنْ كان تحت سلطته، فهذه نظرة إلى حادثة جزئية في بيته تعطي فهمًا لشخصيته هو لمعنى العدل.

(فعن معاوية بن صالح عن أبي عمران الفلسطيني قال: بينا امرأة عمرو بن العاص تفلي رأسه إذ نادت جارية لها فأبطأت. عنها، فقالت: يا زانية! فقال عمرو: رأيتها تزني؟ قالت: لا، قال: واللَّه لتُضْرَبِنَّ لها يوم القيامة ثمانين سوطًا، فقالت لجاريتها وسألتها تعفو فعفت عنها، فقالت: هل يجزي عني؟ فقال لها: وما لها لا تعفو وهي تحت يدك) فهو عفو العاجز الضعيف عن الثأر (فأعتقيها فقالت: هل يجزي عني ذلك؟ قال: فلعل)(٢) والقادر والسلطان هما مناط العدل الحقيقي فيمن تحت يدهما.

قيمة العدل في نفسه:

فالعدل عنده أعظم عطاء تُعطاه الأمة، والظلم - بالمقابل - هو أعظم بلاء تبتلاه الأمة، (فعن سعيد بن عثمان حدثني أبو بكر قال، قال عمرو لابنه:

يا بني! إمام عادل خير من مطر وابل، وأسد خطوم خير من إمام ظلوم، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم)(٣).

* * *

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ١٧٦).

(٢، ٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٤).

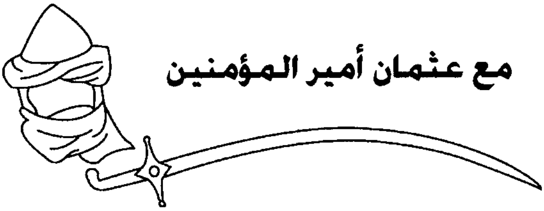

مع عثمان أمير المؤمنين

أول يوم من ولاية عثمان:

أول ما نلتقي مع عمرو وعثمان- رضي اللَّه عنهما - في أول يوم من ولايته أميرًا للمؤمنين وقد واجهته أدهى معضلة كادت تكون خلفها فتنة عظيمة، هذه المعضلة هي قتل عبيد اللَّه بن عمر بن الخطاب للهرمزان ومن معه دون بينة عنده على مشاركته في قتل أبيه، وتحدي السلطان الذي بيده القصاص. وكما عُرف عن عمرو أنه للمعضلة. كان هو الذي حلها برأيه الحصيف البعيد الغور.

(وقد كان عمر قد أمر بسجنه - أي ابنه عبيد اللَّه بن عمر - ليحكم فيه الخليفة من بعده، فلما ولي عثمان وجلس للناس كان أول ما تُحُوكِمَ إليه في شأن عبيد اللَّه، فقال علي: ما من العدل تركه، وأمر بقتله. وقال بعض المهاجرين: أيقتل أبوه بالأمس ويُقتل هو اليوم؟! فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين قد برأك اللَّه من ذلك قضية لم تكن في أيامك فدعها عنك.

فودى عثمان ﷺ أولئك القتلى من ماله؛ لأن أمرهم إليه؛ إذ لا وارث لهم إلا بيت المال)[1].

وبذلك أنقذ عثمان ﷺ من ذلك الحرج في أن يقتل عبيد اللَّه بن عمر بعد قتل أبيه، إذ إن قتل عبيد اللَّه كان في غير سلطان عثمان، وقبل أن تنعقد إمارة المؤمنين له[2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ١٥٤).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٥٠) ولكن الأصح من ذلك ما رواه السري عن شعيب عن سيف عن أبي منصور قال: سمعت القماذبان يحدث عن قتل أبيه، قال: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض. فمر فيروز بأبي، ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ قال: آنس به، فرآه رجل، فلما أصيب عمر، قال: رأيت هذا مع الهرمزان، دفعه إلى فيروز. فأقبل عبيد اللّـه فقتله. فلما وُلي عثمان دعاني فأمكنني منه ثم قال: يا بني، هذا قاتل أبيك. وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله، فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي. إلا أنهم يطلبون إليّ فيه. فقلت لهم: ألي قتله قالوا: نعم - وسبُّوا عبيد اللّـه - فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا - وسبُّوه - فتركته للّـه ولهم فاحتملوني، فواللّـه ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم. تاريخ الطبري (٤/ ٢٤٣، ٢٤٤).

بين عمرو وعبد اللَّه بن أبي سرح وعثمان:

لقد كانت إمرة عثمان ﷺ للمؤمنين وخلافته في رابع يوم من عام أربع وعشرين (ففي أول يوم من دفن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، وذلك يوم الأحد في قولٍ، وبعد ثلاثة أيام بويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ)[١].

وكان عمرو ﷺ واليًا لمصر، ولما ولي عثمان أقر عمرو بن العاص على عمله. وكان لا يعزل أحدًا إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة، وكان عبد اللَّه بن سعد من جند مصر...)[٢] لكن كان يشاركه في الولاية على بعض أجزاء مصر - كما عند ابن عبد الحكم في كتابه.

(قال: فتوفي عمر - رحمة اللَّه عليه - ومصر على أميرين: عمرو بن العاص بأسفل الأرض وعبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح على الصعيد، قال: وكانت وفاة عمر - كما حدثنا يحيى بن بكير عن الليث بن سعد - مصدر الحاج[٣] سنة ثلاث وعشرين. حدثنا يحيى بن عفير قال: إنما كان عمر بن الخطاب ولى عبد اللَّه بن سعد من الصعيد الفيوم، فلما استخلف عثمان بن عفان - كما حدثنا عبد اللَّه بن صالح أو غيره عن الليث - طمع عمرو بن العاص لما رأى من عثمان أن يعزل له عبد اللَّه بن سعد عن الصعيد، فوفد إليه وكلمه في ذلك)[٤].

لقد جاء من مصر خاصة لمعالجة هذا الأمر، وإن كان لا يجرؤ على مفاتحة عمر ﷺ فيمكن ذلك مع الخليفة، فيطرح على عثمان وقد غدا أميرًا للمؤمنين فكرة توحيد ولاية مصر له، ولم يستجب عثمان لذلك إنما أجابه:

(ولَّاه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة، ولقد علمت أنه أخي من الرضاعة، فكيف أعزله عما ولاه غيري، وقال له فيما حدثنا سعيد بن عفير:

إنك لفي غفلة عما كانت تصنع بي أمه، إن كانت لتخبئ لي العرق من اللحم[٥] في ردنها[٦] حتى آتي)[٧] فهو والٍ لعمر ابتداءً، وأخو عثمان لأمه ثانية، ولم يشكه أحد من جهة ثالثة، ففيم يعزله عثمان؟

(١، ٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ٢٥٣).

(٣) مصدر الحاج: أي عودة الحجاج إلى ديارهم، ففي رواية وفاة عمر ﷺ كانت آخر يوم من ذي الحجة عام ثلاثة وعشرين.

(٤) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٧٣).

(٥) العرق من اللحم: ما على العظم من لحم.

(٦) الردن: أصل الكم.

(٧) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٧٣، ١٧٤).

(قال: ثم رجع إلى حديث الليث بن سعد، فغضب عمرو وقال: لست راجعًا إلا على ذلك. فكتب عثمان بن عفان إلى عبد اللَّه بن سعد يؤمره على مصر كلها، فجاءه الكتاب بالفيوم قال ابن عفير بقرية منها تدعى: « دموشة »، وقال الليث في حديثه: فجعل لأهل أطواب جعلًا على أن يصبحوا به الفسطاط في مركبه... فقدموا به الفسطاط قبل الصبح، فأرسل إلى المؤذن فأقام الصلاة حين طلع الفجر وعبد اللَّه بن عمرو ينتظر المؤذن يدعوه إلى الصلاة؛ لأنه خليفة أبيه فاستنكر الإقامة، فقيل له: صلى عبد اللَّه بن سعد بالناس.. قال الليث في حديثه، فأقبل عبد اللَّه بن عمرو حتى وقف على عبد اللَّه بن سعد، فقال: هذا بغيك ودسك، فقال عبد اللَّه بن سعد: ما فعلت وقد كنت أنت وأبوك تحسداني على الصعيد فتعال حتى أوليك الصعيد، وأولي أباك أسفل الأرض ولا أحسدكما عليه، فلبث عبد اللَّه عليها أميرًا محمودًا وغزا فيها ثلاث غزوات كلهن لها شأن، إفريقية والأوساد ويوم ذي الصواري، وسأذكر لك في موضعه إن شاء اللَّه. قال: وكان عزل عمرو بن العاص عن مصر وتولية عبد اللَّه بن سعد في سنة خمس وعشرين)[1]، فهذه أصح الروايات[2] في عزل عمرو ﷺ.

لم يعزله عثمان - وكان حريصًا على بقائه - إلا أن إصرار عمرو ﷺ على تخليه عن العمل ما لم يعزل عبد اللَّه بن سعد عن الصعيد هو الذي اضطر عثمان إلى ذلك، وعبد اللَّه بن سعد إنما ولاه عمر ولم يوله عثمان، ولا معنى لعزله، وقد أثبت كفاءة إدارية عالية، وقيادة ممتازة. فأي مبرر لعزله.

(ورواية السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة: مات عمر وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى قضائها خارجة بن حذافة السهمي، فولي عثمان فأقرهما سنتين من إمارته. ثم عزل عمرًا واستعمل عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح) هي أقل صحة من سابقتها، ومع ذلك فلا تتعارض معها، إنما نجد في الرواية السابقة تفصيلًا أوضح.

ثبات عمرو على الحرب بعد عزله:

وكان سبب هذا هو الغزو الذي قامت به الروم للإسكندرية واحتلوها وأخرجوا حامية المسلمين منها.

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٧٣، ١٧٤).

(٢) رواة هذه الحادثة: يحيى بن بكير: ثقة في الليث خاصة، الليث بن سعد: ثقة ثبت فقيه إمام. عبد اللَّه بن صالح: صدوق كاتب الليث كثير الغلط، سعيد بن كثير بن عفير: صدوق عالم بالأنساب وغيرها.

(قال: وكانت الإسكندرية - كما حدثنا عبد اللَّه بن صالح عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب - انتقضت وجاءت الروم، عليهم منويل الخصي في المراكب، حتى أرسوا بالإسكندرية، فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث. وقد كان عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص وولى عبد اللَّه بن سعد، فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرًا حتى يفرغ من قتال الروم، فإن له معرفة بالحرب وهيبة في العدو، ففعل. وكان على الإسكندرية سورها، فحلف عمرو ابن العاص لئن أظهره اللَّه عليهم ليهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية، تؤتى من كل مكان، فخرج إليهم عمرو في البر والبحر ...)(١).

لقد غدا اسم عمرو بن العاص اسمًا مرعبًا للعدو، وصار إمبراطور الروم يحسب له ألف حساب، وما ندري هل تجرأ على غزو مصر حين بلغه عزل عمرو، أم قبل ذلك، لكن أهل مصر ووجوهها يدركون مَنْ عمرو بن العاص وبطولته ودهاءه وسمعته، فرجوا أمير المؤمنين عثمان ﷺ أن يبقيه أو يعيده على عمله لهذه المواجهة الرهيبة مع الروم الذين زحفوا بكل إمداداتهم واحتلوا الإسكندرية، وقتلوا مَنْ قدروا عليه مِنْ حامية المسلمين، وكان سور المدينة هو الذي حال دون الهجوم المضاد عليها، فأقسم عمرو ليهدمنه إن ظفر عليهم، وحيث إن عمرًا لا يقاتل إلا للَّه، ولم يكن لعزله عن الإسكندرية أثر في نفسه، فلم يشترط شيئًا مقابل هذه المعركة الضارية التي قد تودي بحياته، إنما كان على عهد المؤمنين به يستجيب إذا دعا الداعي للجهاد، وحقق اللَّه تعالى على يديه النصر المظفر على العدو (ثم شد المسلمون عليهم، فكانت هزيمتهم حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح اللَّـه عليهم، وقتل منويل الخصي (قائدهم)، حدثنا الهيثم بن زياد أن عمرو بن العاص قتلهم حتى أمعن في مدينتهم، فكلم في ذلك، فأمر برفع السيف عنهم، وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجدًا وهو المسجد الذي بالإسكندرية الذي يقال له مسجد الرحمة، وإنما سمي مسجد الرحمة لرفع عمرو السيف هنالك وهدم سورها كله)(٢).

وانطلاقًا من هذا النصر المؤزر أراد عثمان ﷺ أن يضع حلًّا جديدًا يستبقي فيه كفاءة عمرو ﷺ ويبقيه أميرًا على مصر كلها، على أن يرضي عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٦٩، ١٧٠).

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ١٧٠).

فيعطيه الخراج وجبايته، على أن تكون لعمرو إمرة الحرب، وعرض هذا الحل على عمرو فرفضه.

(ثم رجع إلى حديث ابن لهيعة[١] عن يزيد بن أبي حبيب[٢] قال:

فلما هزم اللَّه الروم أراد عثمان عَمْرًا أن يكون على الحرب، وعبد اللَّه بن سعد على الخراج، فقال عمرو: أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها، وآخر يحلبها، فأبى عمرو)[٣].

وأمام هذا الرفض استعفى عمرو ثانية فأعفاه وعاد ابن سعد لإمرة مصر كلها.

(وقال غير ابن لهيعة: وأقام عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية شهرًا ثم عزله عثمان وولى عبد اللَّه بن سعد)[٤].

وكان هذا الأمر مرتبطًا بالعرض السابق الذي رفضه عمرو ﷺ.

سم في الدسم:

هذا هو الجو الذي ساد بين عمرو بن العاص وعثمان بن عفان أمير المؤمنين - رضي اللَّه عنهما - لكن تطالعنا رواية بعد ذلك، وهي أول رواية بثت السم في الدسم، وحولت القضية بين عمرو وعثمان قضية أحقاد وصراعات لا تتناسب أبدًا مع مستوى هذين الصحابيين العظيمين، وسنشهد هذا الخط ينمو ويغذى بعد ذلك بالروايات الباطلة ليغير الصورة المشرفة كلها، ويأتي المؤرخون بعد ذلك لينسجوا من هذه الروايات صورة وهمية يعرضون فيها عمرًا طالب ملك وصوليًّا كما يهوون.

ولنبدأ في هدم هذا البنيان من أساسه، فهذه الرواية التي قام عليها البنيان؛ اثنان من رواتها متركون، وبعضهم يتهمون بالوضع.

(وأما الواقدي فإنه ذكر أن ابن أبي سبرة حدثه عن محمد بن أبي حرملة عن كريب قال: لما نزع عثمان عمرو بن العاص عن مصر غضب عمرو غضبًا شديدًا وحقد على عثمان، فوجه عبد اللَّه بن سعد وأمره أن يمضي إلى أفريقية وندب عثمان الناس إلى أفريقية فخرج إليها عشرة آلاف من قريش والأنصار والمهاجرين)[٥].

والواقدي على جلالة قدره وسعة علمه وإمامته المشهود له فيها في السيرة، لكنه في

---

(١) صدوق كثير الغلط.

(٢) ثقة فقيه من الخامسة.

(٣) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٧٨).

(٤) المصدر نفسه (ص ١٧٨).

(٥) تاريخ الطبري (٤/ ٢٥٦).

الحديث متروك، ومتهم عند النسائي بالوضع، وفي أخبار التاريخ ورجالات المسلمين مردودة شهادته بكثرة ما يروي من سقطات للصحابة، مع ملاحظة كثرة ما نُسب إليه، وهو غير صحيح فأصبح من العسير قبول رواياته التي لا يدري المرء أهي له أم لا، حتى أن كتاب فتوح الشام للواقدي في جزأين واضح أنه مصنوع عليه ومنسوب إليه، وهو أقرب إلى الحكايات الشعبية منه إلى الرواية التاريخية، فإذا وضع كتاب عليه لا توضع حادثة!!.

قال الذهبي فيه في الضعفاء:(محمد بن عمر بن واقد الأسلمي مولاهم الواقدي صاحب التصانيف، مجمع على تركه، وقال ابن عدي: يروي أحاديث غير محفوظة، والبلاء منه، قال النسائي: كان يضع الحديث. وقال ابن ماجه: حدثني ابن أبي شيبة ثنا شيخ ثنا عبد الحميد بن جعفر. فذكر حديثًا في لباس الجمعة، وحسبك بمن لا يجسر أن يسميه ابن ماجه)[1].

وأما ثاني الرواة فهو ابن أبي سبرة قال فيه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: (رموه بالوضع من السابعة، وقال مصعب الزبيري: كان عالمًا)[2]، ورواية بهذا السند، وتتناقض مع الروايات الصحيحة.

ومما يتناقض مع هذا العرض لشخصية عمرو مع عثمان - رضي اللَّه عنهما - طبيعة العلاقة بين الرجلين فيما بعد حين أقام عمرو بالمدينة بجوار أمير المؤمنين، وحين ابتدأت الفتنة تطل على المسلمين في عام خمس وثلاثين وما قبلها، كان عمرو بن العاص ﷺ من أقرب المقربين إلى عثمان، ومن خاصته، يلجأ إلى رأيه ويعمد إليه ويستشيره في النازلات عنده.

بيان عثمان إلى الأمة:

يقول الإمام ابن جرير:

(كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وعطية قالوا[3]:

كتب عثمان إلى أهل الأمصار: أما بعد فإن آخذ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد

---

(١) المغني في الضعفاء للذهبي (٢/ ٦١٩). (٢) تقريب التهذيب (٢/ ٢/ ٣٩٧).

(٣) السري وشعيب وسيف هم أوثق الرواة عند الطبري، وكل سند فيه هؤلاء الثلاثة هو أقرب ما يكون إلى الصحة، والسري قالوا فيه: السري بن يحيى، قال ابن أبي حاتم: كان صدوقًا من التاسعة (التقريب لابن حجر)، وفي شعيب قال الذهبي في « المغني في الضعفاء » عنه (١/ ٢٩٨): الراوي عن سيف كتبه فيه جهالة. وفي تقريب التهذيب لابن حجر (١/ ٣٤٤) قال عن سيف: سيف بن عمر التميمي ضعيف في الحديث، عمدة في التاريخ، من الثامنة، وهؤلاء مقبولون في الرواية التاريخية.

سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إليَّ أهل المدينة أن أقوامًا يشتمون، وآخرون يضربون، فيا من ضرب سرًّا وشتم سرًّا، من ادعى شيئًا من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه؛ حيث كان مني أو من عمالي أو تصدقوا، فإن اللَّه يجزي المتصدقين، فلما قُرئ بالأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان وقالوا: إن الأمة لتمخض بشرٍّ وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه؛ عبد اللَّه بن عامر، ومعاوية، وعبد اللَّه بن سعد، وأدخل معهم في المشورة سعيدًا وعمرًا ....

فاللذين اختارهما من الأمة للمشورة هما سعيد بن العاص وعمرو بن العاص.

فقال: ويحكم ما هذه الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ إني واللَّه لخائف أن يكون مصدوقًا عليكم، وما يعصب هذا إلا بي، فقالوا له: ألم تبعث؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء! لا واللَّه ما صدقوا ولا بروا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلًا، وما كنت لتأخذ به أحدًا فيقيمك على شيء، وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها.

قال: فأشيروا عليَّ. قال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع يصنع في السر، فيُلقى به غير ذي المعرفة، فيخبرُ به، فيتحدث به في مجالسهم. قال: فما دواء ذلك؟ قال: طلب هؤلاء القوم، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم.

وقال عبد اللَّه بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم: فإنه خير من أن تدعهم، قال معاوية: قد وليتني، فوليت قومًا لا يأتيك عنهم إلا الخير، والرجلان أعلم بناحيتهما؛ قال: فما الرأي؟ قال: حسن الأدب، قال: فما ترى يا عمرو؟ قال: أرى أنك قد لنت لهم، وتراضيت عنهم وزدتهم عما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين. إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شرًّا. واللين لمن يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعًا اللين.

وقام عثمان فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال:

كل ما أشرتم به علي قد سمعت، ولكل أمر باب يؤتى منه، إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به هو اللين والمؤاتاة والمتابعة، إلا في حدود اللَّه - تعالى ذكره - التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدها، فإن سده شيء فرفق فذاك واللَّه ليفتحن وليست لأحد عليَّ حجة حق، وقد علم اللَّه أني

لم آل الناس خيرًا، ولا نفسي، ووالله إن رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها، كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها)[١].

لقد خالف عثمان ﷺ رأي أخيه عمرو باتباع الشدة، ولم يخالفه في اتباع سنة صاحبيه، فرحى الفتنة دائرة ولا تُعالج بالعنف؛ لأن العنف هو الذي يدير هذه الرحى، ولن يرضى أمير المؤمنين أن يكون صاحبها (فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها)، وكان واضحًا صريحًا ﷺ فيما لا هوادة فيه، وهي حدود الله، فلا مداهنة فيها، وما غير ذلك فالرفق أولى والمغفرة أفضل، ولا بد من تأدية الحقوق للأمة كلها.

فنحن إذن مع خليفة اختار اثنين من خلصائه ومستشاريه ما عدا ولاته، فكان عمرو ابن العاص أحدهما، فكيف يستقيم الأمر بعدها في وضع الحقد بين الأخوين من أجل عزل أمير المؤمنين عثمان لواليه عمرو، وسند الرواية يجعلها مرفوضة عند أهل التاريخ وأهل الحديث.

وتطالعنا رواية أخرى مرفوضة عن الواقدي، وهي التي ساهمت في مسخ صورة عمرو ابن العاص ﷺ وتحويل علاقته به إلى علاقة فاتك خطط لقتل أميره، ثم عاد بانتهازية رخيصة ليطالب بدمه، هذه الرواية ساقها الطبري وقدم لها بقوله:

(وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب سير المصريين إلى عثمان ونزولهم، ذا خشب أمورًا كثيرة منها ما تقدم ذكريه[٢]، ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة مني لبشاعته، ومنها ما ذكر أن عبد الله بن جعفر حدثه عن أبي عون مولى المِسوَر قال[٣]:

كان عمرو بن العاص على مصر عاملًا لعثمان، فعزله عن الخراج، ثم جمعهما لعبد الله بن سعد. فلما قدم عمرو بن العاص المدينة جعل يطعن على عثمان. فأرسل إليه يومًا عثمان خاليًا به فقال: يا ابن النابغة ما أسرع ما قمل جربان[٤] جبتك، إنما عهدك بالعمل عامًا أول، أتطعن علي وتأتيني بوجه، وتذهب عني بآخر، والله لولا أكلة ما فعلت ذلك، فقال عمرو: إن كثيرًا مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل، فاتق الله يا أمير

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (٤/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٢) ذكريه: ذكري له.

(٣) وكم كنا نود لو أن الإمام الحافظ ابن جرير أعرض عن هذه الحادثة لشناعتها، كذلك: الرواية متروكة مع ترك الواقدي راويها، وجهالة مولى المِسْور، وضعف عبد اللـه بن جعفر.

(٤) جربان: الجيوب.

المؤمنين في رعيتك! فقال عثمان: واللَّه لقد استعملتك على ظلعِك[١]، وكثرة القالة[٢] فيك، فقال عمرو: قد كنت عاملًا لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راضٍ، قال: فقال عثمان: وأنا واللَّه لقد استعملتك بما آخذك به عمر لاستقمت، ولكني لنت لك فاجترأت عليَّ، أما واللَّه لأنا أعز منك نفرًا في الجاهلية، وقبل أن ألي هذا السلطان، فقال عمرو: دع عنك هذا فالحمد للَّه الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وهدانا به، قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان، فواللَّه للعاص كان أشرف من أبيك، قال: فانكسر عثمان وقال: ما لنا ولذكر الجاهلية.

قال: وخرج عمرو ودخل مروان فقال: يا أمير المؤمنين وقد بلغت مبلغًا يذكر عمرو ابن العاص أباك! فقال عثمان: دع هذا عنك، مَنْ ذكر آباء الرجال ذكروا أباه.

قال: فخرج عمرو من عند عثمان وهو محتقد عليه يأتي عليًّا مرة فيؤلبه على عثمان، ويأتي الزبير مرة فيؤلبه على عثمان، ويأتي طلحة مرة فيؤلبه على عثمان، ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان، فلما كان حصر عثمان الأول خرج من المدينة حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين يقال له السبع، فنزل في قصر له يقال له العجلان، وهو يقول: العجب ما يأتينا عن ابن عفان! قال: فبينما هو جالس في قصره ذلك ومعه ابناه محمد وعبد اللَّه وسلامة بن روح الجذامي إذ مر بهم راكب فناداه عمرو: من أين قدم الرجل؟ فقال: من المدينة، قال: ما فعل الرجل؟ يعني عثمان قال: تركته محصورًا شديد الحصار، قال عمرو: أنا أبو عبد اللَّه قد يضرِطُ العير[٣] والمكواة في النار[٤]، فلم يبرح مجلسه ذلك حتى مر به راكب آخر، فناداه عمرو: ما فعل الرجل؟ يعني عثمان، قال: قتل. قال: أنا أبو عبد اللَّه، إذا حككت قرحة نكأتها، إن كنت لأحرض عليه، حتى إني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل. فقال له سلامة بن روح: يا معشر قريش. إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه فما حملكم على ذلك؟

فقال: أردنا أن نخرج الحق من حافرة الباطل، وأن يكون الناس في الحق شرعًا سواء.

وكانت عند عمرو أختُ عثمان لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ففارقها حين عزله)[٥].

---

(١) ظلع البعير: غمز في مشيه بمعنى على عيوبك. (٢) كثرة القالة: كثرة قول الناس فيك بالسوء.

(٣) العير: الحمار.

(٤) مثل يضرب للرجل يخاف الأمر فيخرج قبل وقوعه فيه.

(٥) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٤/ ٣٥٦، ٣٥٧).

إنها الرواية الساقطة التي نقلت عَمْرًا من معسكر عثمان وأقرب خاصته إلى عدوٍّ لدود ليثأر لنفسه حين عزل، ويحرض على قتل عثمان ويزعم أنه هو الذي هيج على قتله، بل يفخر بذلك.

(أنا أبو عبد اللَّه، إذا حككت قرحة نكأتها، إن كنت لأحرض عليه حتى إني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل) إنه يخاف أن يدَّعِي أحد أنه تآمر على قتله أكثر منه.

(عندنا رواية أخيرة أو روايتان بسند فيه ضعفاء ومجهولون بمعنى واحد، نأخذ واحدة منها وهي: حدثنا جعفر قال: حدثنا عمرو بن حماد وعلي بن حسين قالا: حدثنا حسين عن أبيه عن عمر بن أبي المقدام عن عبد الملك بن عمير الزهري أنه قال: جمع عثمان أمراء الأجناد: معاوية بن أبي سفيان وسعيد بن العاص وعبد اللَّه بن عامر وعبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح وعمرو بن العاص، فقال: أشيروا علي فإن الناس قد تنمروا لي. فقال له معاوية: أشير عليك أن تأمر أجنادك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهلَ الشام. فقال له عبد اللَّه بن عامر: أرى لك أن تجمرهم في هذه البعوث حتى يهم كل رجل منهم دبر دابته وتشغلهم عن الإرجاف بك. فقال عبد اللَّه بن سعد: أشير عليك أن تنظر ما أسخطهم فترضيهم، ثم تخرج لهم هذا المال فيقسم بينهم. ثم قام عمرو بن العاص فقال: يا عثمان: إنك قد ركبت الناس بمثل بني أمية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا، فاعتدل، أو اعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزمًا وامض قدمًا؛ فقال له عثمان: ما بالك قمل فرؤك؟ أهذا الجد منك! فأسكت عمرو حتى إذا تفرقوا قال: لا واللَّه يا أمير المؤمنين، لأنت أكرم علي من ذلك، ولكني قد علمت أن بالباب قومًا قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك فأحببت أن يبلغهم قولي، فأقود لك خيرًا أو أدفع عنك شرًّا)[1].

بيان ثانٍ لعثمان إلى الأمة وفضح المتآمرين:

ونعود إلى رواية السري عن شعيب عن سيف، والتي استشار فيها عثمان ﷺ أمراءه وخصص عَمْرًا بالمشاركة فيها، لنتابع هذه الرواية كما يسوقها لنا الطبري، حيث كان هذا البيان بعد بيانه إلى الناس ليوافوه بالموسم.

رجع الحديث إلى حديث سيف عن شيوخه: (وكان معاوية قد قال لعثمان غداة ودعه

(١) وهذه الرواية على ضعفها يمكن قبولها؛ حيث تتناسب مع شخصية عمرو ودهائه في تخطيطه للدفاع عن عثمان بحيث لا يتهم أنه من خاصته لكن، تبقى رواية سيف هي الرواية الخالصة المقبولة.

به وخرج: يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك ما لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا. فقال: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، وإن كان فيه قطع خيط عنقي. قال: فأبعث إليك جندًا منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك. قال: أنا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند تساكنهم، وأضيق على دار الهجرة والنصرة! قال: والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغزين! قال: حسبي الله ونعم الوكيل. وقال معاوية: يا أيسار الجزور، وأين أيسار الجزور؟ ثم خرج حتى وقف على النفر ثم مضى).

خيوط المؤامرة الأولى:

(وقد كان أهل مصر كاتبوا أشياعهم من أهل الكوفة، وأهل البصرة وجميع من أجابهم أن يثوروا خلاف أمرائهم. واتعدوا يومًا حيث شخص أمراؤهم فلم يستقم ذلك لأحد منهم، ولم ينهض إلا أهل الكوفة. فإن يزيد بن قيس الأرجبي ثار فيها واجتمع إليه أصحابه، وعلى الحرب يومئذ القعقاع بن عمرو. فأتاه وأحاط الناس بهم وناشدوهم، فقال يزيد للقعقاع: ما سبيلك علي وعلى هؤلاء! فوالله إني لسامع مطيع، وإني ملازم جماعتي إلا أني أستعفي ومن ترى من إمارة سعيد، فقال تستعفي الخاصة من أمر قد رضيته العامة! قال: فذاك إلى أمير المؤمنين فتركهم والاستعفاء).

وليس من حق القعقاع ﷺ أن يمنع مطالبة أمير المؤمنين بعزل أحد ولاته، لكن الحقيقة المُرة كانت مُخبأة وأعقد من ذلك (ولم يستطيعوا أن يظهروا غير ذلك فاستقبلوا سعيدًا، فردوه من الجرعة، واجتمع الناس على أبي موسى، وأقره عثمان - رضي الله تعالى عنه - ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج إلى الأمصار، وكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار ليتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس ولتَحَقَّقَ عليه، فتوافوا بالمدينة).

وكان أمير المؤمنين من اليقظة والورع ما يجعله يحقق بقلم استخباراته مع هؤلاء، حيث بثَّ في صفوفهم رجلين من المسلمين كانا قد عوقبا من الخليفة ليطمئن المتآمرين إليهم (وأرسل عثمان رجلين، مخزوميًا وزهريًا فقال: انظرا ما يريدون واعلما علمهم، وكانا ممن نال من عثمان أدب فاصطبرا للحق ولم يضطغنا فلما رأوهما باثوهما وأخبروهما بما يريدون فقالا: من معكم على هذا من أهل المدينة؟ قالوا: ثلاثة نفر، فقالا: هل إلا؟ قالوا: لا. قالا: فكيف تريدون أن تصنعوا؟).

وشرح هؤلاء القوم للرجلين أبعاد المؤامرة كاملة والخطة المقترحة. قالوا:

(نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم، فنزعم لهم أنا قررناه بها، فلم يخرج ولم يتب، ثم نخرج كأنا حجاج، حتى نقدم فنحيط به فنخلعه، فإن أبى قتلناه، وكانت إياها، فرجعا إلى عثمان بالخبر فضحك وقال: اللهم سلم هؤلاء،فإنك إن لم تسلمهم شقوا .. فأرسل إلى الكوفيين والبصريين، ونادى: الصلاة جامعة! وهم عنده في أصل المنبر. فأقبل أصحاب رسول اللّه ﷺ حتى أحاطوا بهم، فحمد اللّه وأثنى عليه وأخبرهم خبر القوم وقام الرجلان) ولم يكن يدري المتآمرون أن مؤامرتهم قد كشفت كاملة وصارت عند أمير المؤمنين حتى قام الرجلان، فأخبر المسلمين خبر القوم، وكان رأي العلية من أصحاب رسول اللّه ﷺ هو قتل هؤلاء غير أن أمير المؤمنين خالفهم في ذلك ورأى معالجة الأمر بحكمة وروية دون سفك دماء فوراءهما أقوام لو سفكت دماء هؤلاء لثاروا في أمصارهم وهو يرفض ﷺ أن يكون منطلق الفتنة وبداية القتل.

(فقالوا جميعًا: اقتلهم فإن رسول اللّه ﷺ قال:« **من دعا إلى نفسه أو إلى أحد، وعلى الناس إمام، فعليه لعنة اللّه فاقتلوه** » وقال عمر بن الخطاب: لا أحل لكم إلا ماقتلتموه، وأنا شريككم. فقال عثمان: بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحدًا حتى يركب حدًّا أو يبدي كفرًا).

وكان رأي أمير المؤمنين أن الفرصة قد غدت سانحة لإصدار بيان شاف إلى الأمة يوضح فيه ما يدور في الخفاء، ويزيل الالتباس من أذهان الناس، ويعلنه على الملأ وتنقله الركبان إلى كل مكان.

نص البيان:

(إن هؤلاء ذكروا أمورًا قد علموا منها مثل الذي علمتم، إلا أنهم زعموا أنهم يذكّرونيهما[1]ليوجبوها عليَّ عند من لا يعلم.

– وقالوا: أتم الصلاة في السفر، وكانت لا تتم، إلا وإني قدمت بلدًا فيه أهلي فأتممت لهذين الأمرين، أو كذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

– وقالوا: وحميت حمًى، وإني واللّه ما حميت حُمِي قبلي. واللّه ما حموا شيئًا لأحد

(١) كانت هذه الأمور التي يعيبونها على عثمان ﷺ قد تعرف عليها الرجلان من القوم، ونقلاها إلى عثمان فرأى إيضاحها.

ما حموا إلا غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيه أحدًا واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلًا يكون من بين من يليها وبين أحد تنازع، ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحدًا إلا من ساق درهمًا، ومالي من بعير غير راحلتين، ومالي ثاغية ولا راغية، وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيرًا وشاء، فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي. أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

- وقالوا: كان القرآن كتبًا، فتركتها إلا واحدًا. ألا وإن القرآن واحد، جاء من عند واحد، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء، أكذلك؟ قالوا: نعم (وسألوه أن يقتلهم).

- وقالوا أني رددت الحَكَم وقد سيَّره رسول اللَّه ﷺ والحكم مكي وسيره رسول اللَّه ﷺ إلى الطائف، ثم رده رسول اللَّه ﷺ فرسول اللَّه سيره ورسول اللَّه ﷺ ردَّه أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم.

- وقالوا: استعملت الأحداث، ولم أستعمل إلا مجتمعًا محتملًا مرضيًّا وهؤلاء أهل عملهم، فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلده، ولقد ولى من قبلي أحدث منهم، وقيل في ذلك لرسول اللَّه ﷺ أشد ما قيل لي في استعماله أسامة. أكذاك؟ قالوا: اللهم نعم، يعيبون للناس ما لا يفسرون.

- وقالوا: إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء اللَّه عليه، وإني إنما نفلته خمس ما أفاء اللَّه عليه من الخمس، فكان مائة ألف، وقد أنفذ مثلَ ذلك أبو بكر وعمر - رضي اللَّه عنهما - فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذاك لهم. أكذاك؟ قالوا: نعم.

- وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي أهل بيتي فإنه لم يمل معهم إلى جور؛ بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم، فإني ما أعطيتهم إلا من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر وعمر - رضي اللَّه عنهما - وأنا يومئذ شحيح حريص، فحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري ودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا، وإني واللَّه ما حملت على مصر من الأمصار فضلًا فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم، وما قدم علي إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني، ولا يتفلت من مال اللَّه من فلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا مالي.

- وقالوا: أعطيتَ الأرضَ رجالًا وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون

والأنصار أيام افتتحت، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله، ومن رجع إلى أهله لم يُذهب ذلك ما حوى اللَّه له، فنظرت بالذي يصيبهم مما أفاء اللَّه عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب، فنفلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني.

وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية، وجعل ولده كبعض من يعطي، فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف، وأعطى بني عثمان مثل ذلك، وقسم في بني العاص، وفي بني العيص وفي بني حرب.

ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف وأبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى إلا تركهم، فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوه مع الحجاج كالحجاج، فتكاتبوا وقالوا: موعدكم ضواحي المدينة في شوال حتى إذا دخل شوال من سنة خمس وثلاثين ضربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة)[1].

وهكذا أزال البيان كل الشبهات والترهات والأباطيل التي أثيرت حول عثمان ﷺ وآن الأوان ليرعوي دعاة الفتنة إن كانوا قد غرر بهم من أعداء الإسلام.

نحن مضطرون للتفصيل في الحديث عن عثمان أمير المؤمنين وحصاره وقتله؛ لأن هذا الأمر كان منه مفترق الأمة وانقسامها إلى فريقين عظيمين وأشعل نار الحرب فيها وكاد أن يقضي عليها.

(فعن جابر أن رسول اللَّه ﷺ ذكر فتنة، فقال أبو بكر: أنا أدركها؟ قال: « **لا** »، قال عمر: أنا يا رسول اللَّه أدركها، قال: « **لا** ». فقال عثمان: يا سول اللَّه أنا أدركها، قال: « **بك يبتلون** »)[2].

حصار عثمان أمير المؤمنين:

وها نحن ننقل حصار عثمان ﷺ عن أوثق رواة الطبري لنعيش الصورة التي انتهت إليها المدينة يوم اتخذ عمرو بن العاص ﷺ قراره بمغادرتها:

(كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان قالوا: لما كان في شوال سنة خمس وثلاثين خرج أهل مصر في أربع رفاق[3] على أربعة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري من (ص ٣٤٨ - ٣٥٤).

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٢٥)، وقال فيه: رواه البزار فيه ماعز التميمي، ذكره ابن حاتم ولم يجرحه أحد، وبقية رجاله ثقات.

(٣) رفاق: جماعات.

أمراء - المقلل يقول: ستمائة، والمكثر يقول: ألف - على الرفاق عبد الرحمن بن عديس البلوي وكنانة بن بشر التجيبي وعروة بن شبيم الليثي، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعلى القوم جميعًا الغافقي بن حرب العكي، ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب. وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء،وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق، وعلى الرفاق زيد بن صوحان العبدي والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي وعبد اللَّه بن الأصم، أحد بني عامر بن صعصعة، وعددهم كعدد أهل مصر، وعليهم جميعًا عمرو بن الأصم، وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعلى الرفاق حكيم ابن جبلة العبدي وذريح بن عباد العبدي وبشر بن شريح والحطم بن ضيعة القيسي وابن المحرش بن عبد بن عمر الحنفي، وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعًا حرقوص ابن زهير السعدي سوى من تلاحق بهم من الناس، فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون عليًّا، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة، وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير.

فخرجوا وهم على الخروج جميع وفي الناس شتى، لا تشك كل فرقة إلا أن الفلج معها، وأن أمرها سيتم دون الآخرين، فخرجوا حتى إذا كانوا في المدينة على ثلاث، تقدم ناس من أهل البصرة، فنزلوا ذا خشب، وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص، وجاءهم ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة، ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر الحارثي وعبد اللَّه بن الأصم وقالا: لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد، فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا، فواللَّه إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا فهو إذ علموا علمنا أشد، وأن أمرنا هذا الباطل، وإن لم يستحلوا قتالنا ووجدنا الذي بلغنا باطلًا لنرجعن إليكم بالخبر.

قالوا: اذهبا، فدخل الرجلان فلقيا أزواج النبي ﷺ وعليًّا وطلحة والزبير قالا: إنما نأتم هذا البيت وتستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا، ما جئنا إلا لذلك، واستأذناهم للناس بالدخول، فكلهم أبى ونهى وقال بيض ما يفرخن، فرجعا إليهم فاجتمع أهل مصر نفر فأتوا عليًّا، ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة، ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير. وقال كل فريق منهم: إن بايعوا صاحبنا وإلا كدناهم وفرقنا جماعتهم، ثم كررنا حتى نبغتهم، فأتى المصريون عليًّا وهو في عسكر عند أحجار الزيت عليه حلة أفواف[1] معتم بشقيقة

(١) الأفواف: جمع فوف وهو القطن، وفي اللسان: الفوف ضرب من برود اليمن.

يمانية متقلد السيف ليس عليه قميص، وقد سرح الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه، فالحسن جالس عند عثمان، وعلي عند أحجار الزيت، فسلم عليه المصريون وعرضوا له فصاح بهم وطرّحهم، وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ فارجعوا لا صبحكم اللَّه، قالوا: نعم، فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى جنب علي، وقد أرسل ابنيه إلى عثمان، فسلم البصريون وعرضوا له، فصاح بهم وطردهم، وقال: لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ، وأتى الكوفيون الزبير وهو في جماعة أخرى، وقد سرح ابنه عبد اللَّه إلى عثمان، فسلموا عليه وعرضوا له فصاح بهم، وطردهم، وقال: لقد علم المسلمون أن جيش ذي مروة وذي خشب والأعوص[1]، ملعونون على لسان محمد ﷺ، فخرج القوم وأروهم أنهم يرجعون فانفشُّوا عن ذي خشب والأعوص حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي ثلاث مراحل؛ كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم.

فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة فنزلوا في مواضع عساكرهم وقالوا: من كف يده فهو آمن.

وصلى عثمان بالناس أيامًا، ولزم الناس بيوتهم ولم يمنعوا أحدًا من كلام، فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي، فقال: ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ قالوا: أخذنا مع بريد كتابًا بقتلنا.

وأتاهم طلحة فقال البصريون مثل ذلك، وأتاهم الزبير فقال الكوفيون مثل ذلك، وقال الكوفيون والبصريون فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعًا، وكأنما كانوا على ميعاد فقال لهم علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا واللَّه أمر أُبرِمَ بالمدينة، قالوا فضعوه على ما شئتم، ولاحاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلْنا وهو في ذلك يصلي بهم وهم يصلون خلفه، ويغشى من شاء عثمان وهم في عينه أدق من التراب، وكانوا لا يمنعون أحدًا من الكلام، وكانوا زمرًا بالمدينة يمنعون الناس من الاجتماع.

---

(١) أضاف ابن الأثير: والأعوص: وهو واد شمال شرقي المدينة، وقد ذكر البلاذري أنه على بعد (١٧) كم منها، وذي المروة: على بعد ثلاثمائة كم عن المدينة، وذي خشب: من أرض جهينة.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم. أما بعد: فإن اللَّه ﷻ بعث محمدًا بالحق بشيرًا ونذيرًا فبلغ عن اللَّه ما أمره به، ثم مضى وقد قضى الذي عليه، وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه، وبيان الأمور التي قدَّر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا، فكان الخليفة أبو بكر ﷺ وعمرﷺ ثم أُدخلتُ في الشورى - عن غير علم ولا مسألة - من الأمة، ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس علي على غير طلب مني ولا محبة، فعملت فيهم ما يعرفون لا ينكرون تابعًا غير مستتبع متبعًا، غير مبتدع مقتديًا، غير متكلف، فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترةٍ فيما مضى إلا إمضاء الكتاب، فطلبوا أمرًا وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر، فعابوا عليَّ أشياء مما كانوا يرضون، وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها، فصبرتُ لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنتين، وأنا أرى وأسمع، فازدادوا على اللَّه جرأة حتى أغاروا علينا في جوار رسول اللَّه ﷺ وحرمه وأرض الهجرة، وثابت إليهم الأعراب، فهم كالأحزاب يوم الأحزاب، أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق. فأتى الكتاب أهل الأمصار فخرجوا على الصعبة والذلول. فبعث معاويةُ حبيبَ بن مسلمة الفهري، وبعث عبدُ اللَّه بن سعد معاويةَ بن حديج السكوني، وخرج من أهل الكوفة القعقاعُ بن عمرو..

ولما جاءت الجمعة التي على أثر نزول المصريين مسجد رسول اللَّه ﷺ فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال: يا هؤلاء العدى اللَّه اللَّه! فواللَّه إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان رسول اللَّه ﷺ فامحوا الخطايا بالصواب، فإن اللَّه ﷻ لا يمحو السيئ إلا بالحسن، فقام محمدُ بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك، فأخذه حكيم بن جبلة، فقام زيد بن ثابت فقال: ابغني الكتاب، فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فقال فأفظع، وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صُرع عن المنبر مغشيًّا عليه، فاحتمل فأدخل داره، وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن يساعدهم إلا في ثلاثة نفر كانوا يراسلونهم؛ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر، وشمر أناس من الناس فاستقتلوا منهم سعد بن مالك وأبا هريرة وزيد بن ثابت والحسن بن علي، فأقبل إليهم عثمان بعزمه لما انصرفوا فانصرفوا، وأقبل عليٌّﷺ حتى دخل على عثمان وأقبل

طلحة حتى دخل عليه، وأقبل الزبير حتى دخل عليه يعودونه من صرعته، ويشكون بثهم، ثم رجعوا إلى منازلهم.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان، قالوا: صلى عثمان بالناس بعدما نزلوا به في المسجد ثلاثين يومًا، ثم إنهم منعوه الصلاة، فصلى بالناس أميرُهم الغافقي ودان له المصريون والكوفيون والبصريون، وتفرق أهل المدينة في حيطانهم، ولزموا بيوتهم لا يخرج أحد ولا يجلس إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم، وكان الحصار أربعين يومًا، وفيهن كان القتل، ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح، وكانوا قبل ذلك ثلاثين يومًا يكفون)[١].

إن ما تم في المدينة هو انقلاب عسكري كامل، سيطر فيه الثوار على المدينة[٢] سمحوا ابتداء بالكلام ثم منعوه، وسمحوا ابتداء بالاجتماع ثم منعوه، ثم منعوا تجول الناس وسيطروا بالقوة على المسجد، وصار أمير الثوار هو الذي يصلي بالناس بعد أن منع عثمان عن الصلاة بالمسجد بعدما حصبوه وصرعوه، وكان لا بد لعثمان بعد أن سيطروا بالقوة على المدينة أن يستنجد بالولاء من أهل الأمصار لينقذوا المدينة من احتلال المتمردين وفيها خيرة صحب النبي ﷺ وخيرة أهل الأرض، وغاية ما يستطيعه الصحابي في المدينة أن يتوشح سيفه دفاعًا عن نفسه، بينما رابطت كتيبة فدائية على باب عثمان أمير المؤمنين لحماية هذه المدينة الفاضلة وحكامها، لم يكن يخطر لهم ببال أن الإجرام والجاهلية عاد من جديد لهذه الأمة، فقد استعدوا قبل احتلال المدينة وطردوا الثوار، ورأوا أن الثورة قد انتهت حين غادر الثوار المدينة وما حولها، فتفرقوا لذهاب الفتنة، وما توقعوا أن يصل الشرُّ في الخُبث والتخطيط إلى هذا المدى ويعود المجرمون لاحتلال المدينة، وقدر اللَّه واقع؛ وهذه صورة مختصرة عن حصار عثمان من كتب الحديث.

وعن أبي سعيد مولى أبي أسيد قال: بلغ عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا فتلقاهم في قرية له خارج المدينة، وكره أن يدخلوا عليه أو كما قال، فلما علموا بمكانه أقبلوا إليه، فقالوا: ادع لنا بالمصحف، فدعا - يعني به - فقال افتح: فقرأ حتى انتهى إلى هذه الآية:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٤/ ٣٤٨ - ٣٥٤). مقتطفات.

(٢) هناك رواية في سندها مجاهيل غير معروفين عن الحصار، والروايات البقية كلها عن الواقدي تركناها؛ لأنه متروك لا يتابع في هذا المجال إنما يتابع في السير، ولكثرة ما وضع على لسانه.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾[يونس: ٥٩] فقالوا: أحمَى اللَّه أذن لك أم على اللَّه تفتري؟ فقال: امض نزلت في كذا وكذا، وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى لإبل الصدقة، فلما وليت فعلت الذي فعل،وما زدت على ما زاد ولا أراه إلا قال: وأنا يومئذ ابن كذا وكذا سنة، قال: ثم سألوه عن أشياء جعل يقول: امضه نزلت في كذا وكذا، ثم سألوه عن أشياء عرفها لم يكن عنده فيها مخرج. فقال: (أستغفر اللَّه، ثم قال: ما تريدون؟) قالوا نريد أن لا يأخذ أهل المدينة العطاء، فإن هذا المال للذي قاتل عليه، ولهذه الشيوخ من أصحاب محمد ﷺ، قال: فرضي ورضوا، قال: وأخذوا عليه قال: وكتبوا عليه كتابًا وأخذ عليهم أن لا يشقوا عصا ولا يفارقوا جماعة، قال: فرضي ورضوا قال: فأقبلوا معه إلى المدينة فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: واللَّه إني ما رأيت وفدًا هم خير من هذا الوفد، ألا من كان له زرع فليلحق بزرعه، ومن كان له ضِرع فليحتلبه، ألا إنه لا مال لكم عندنا، إنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب محمد ﷺ، فغضب الناس وقالوا: هذا مكر بني أمية ورجع الوفد راضون، فلما كانوا ببعض الطريق إذا راكبه يتعرض لهم ثم يفارقهم ويعود إليهم ويسهم فأخذوه فقالوا: ما شأنك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه، فإذا معه كتاب على لسان عثمان عليه خاتمه أن يصلبهم، أو يضرب أعناقهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم، قال: فرجعوا وقالوا: قد نقض العهد وأحل اللَّه دمه، فقدموا المدينة فأتوا عليًا فقالوا: ألم تر إلى عدو اللَّه كتب فينا كذا وكذا؟ قم معنا إليه. فقال: واللَّه لا أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال: واللَّه ما كتب إليكم كتابًا قط. فنظر بعضهم إلى بعض ثم قال بعضهم: ألهذا تقاتلون أم لهذا تغضبون؟! وخرج علي فنزل بقرية خارج المدينة، فأتوا عثمان فقالوا: كتب فينا بكذا وكذا فقال: إنما اثنتان أن تقيموا شاهدين أو يمين اللَّه، وما كتبت ولا أمليت ولا علمت، وقد تعلمون الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم، قال: فحصروه، فأشرف عليهم ذات يوم فقال: السلام عليكم فما أُسمع رد عليه أحد إلا أن يرد رجل بنفسه فقال: أنشدكم اللَّه أعلمتم أني اشتريت رومة من مالي أستعذب بها فجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين؟ قيل: نعم، قال: فعلام تمنعوني أشرب من مائها حتى أفطر على ماء البحر. قال: أنشدتكم اللَّه فهل علمتم أني اشتريت كذا وكذا من مالي فزدته في المسجد. قالوا: نعم. قال: فهل علمتم أن أحدًا منع فيه الصلاة قبلي ثم ذكر شيئًا قاله له رسول اللَّه ﷺ وأراه ذكر كتابته

المفصل بيده ففشا الخبر وقيل: مهلًا عن أمير المؤمنين)[١].

عمرو بن العاص يغادر المدينة:

في هذه الأجواء ومنذ ابتداء الحصار أدرك عمرو بن العاص ﷺ ببعيد نظره أن البقاء في المدينة لا يجدي شيئًا ولن يتمكن المسلمون في داخلها من مواجهة هذه الثورة المسلحة وأن الباقين في المدينة سيتحملون وزر ضعفهم عن نصرة الخليفة، فعزم على مغادرة المدينة حتى لا يحمل هذا الوزر، وندع الحديث لرواة الطبري المقبولين:

(لما أحيط بعثمان ﷺ خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهًا إلى الشام وقال: واللَّه يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه اللَّه ﷻ بذل، من لم يستطع نصره فليهرب، فسار وسار معه ابناه عبد اللَّه ومحمد، وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع على ذلك ما شاء اللَّه)[٢].

شورى دهاة الأمة العثمانية:

لقد كان عثمان ﷺ يمثل الحق الذي تلتقي عليه الأمة.

وقد جاءه دهاة الأمة الثلاثة فعرضوا عليه الحلول التي عندهم.

لقد شهدنا حلول معاوية ﷺ حين قال له:

وكان معاوية قد قال لعثمان حين ودَّعه وخرج:

يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك مَن لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا، فقال: أنا لا أبيع جوار رسول اللَّه ﷺ بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي.

قال: فأبعث لك جندًا منهم يقيم بين ظهراني المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك قال: أنا أقتر على جيران رسول اللَّه ﷺ الأرزاق بجند تساكنهم؛ وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة؛ قال: واللَّه يا أمير المؤمنين لتغتالن أو تغزين. قال: حسبي اللَّه ونعم الوكيل[٣].

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٢٨، ٢٢٩) وقال فيه: قلت: روى الترمذي بعضه رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أبي سعيد مولى أسيد وهو ثقة.

(٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٤/ ٥٥٨) وهي رواية السري عن شعيب عن سيف عن محمد ابن طلحة وأبي حارثة وأبي عثمان.

(٣) سبق أن عرضنا هذا القسم من الرواية بسنده المقبول عند الطبري.

أما المغيرة بن شعبة فهذه قصته مع أمير المؤمنين عثمان:

(وعن المغيرة بن شعبة أنه دخل على عثمان وهو محصور فقال: إنك إمام العامة، وقد نزل بك ما ترى، وأنا أعرض عليكم خصالًا ثلاثًا فاختر إحداهن.

إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عددًا أو قوة وأنت على الحق وهم على الباطل، وإما أن تخرق لهم بابًا سوى الباب الذي هم عليه، فتقعد وأهلك فتلحق بمكة، فإنهم لن يستحلوك وأنت بها، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية. فقال عثمان:

أما أن أخرج فأقاتلهم فلن أكون أول من خلف رسول اللَّه ﷺ في أمته بسفك الدماء، وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلوني، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم، فلن أكون أنا إياه، وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول اللَّه ﷺ)[١].

وأما داهيتنا الثالث عمرو بن العاص فقد لخص مشورته بضرورة استكمال الشدة مع هؤلاء العصاة:

(قال: فما ترى يا عمرو: قال:

أرى أنك قد لنت وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين، إن الشدة تنبغي لمن لا يألو شرًّا، واللين لمن يخلف الناس بالنصح)[٢].

ونلاحظ أن دهاة الأمة الثلاثة يطالبون أمير المؤمنين عثمان باستعمال القوة والشدة مع هؤلاء الثائرين والمتمردين، لكن عثمان كان يحكمه أمران أوصاه بهما رسول اللَّه ﷺ:

الأول: أن لا يتنازل عن الخلافة لهؤلاء العصاة:

« يا عثمان: إن اللَّه مقمصك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلفه حتى تلقاني »[٣].

الثاني: أن لا يقاتل على سلطانه:

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٢٩، ٢٣٠) وقال فيه: رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن محمد بن عبد الملك بن مروان لم أجد له سماعًا من المغيرة ،قلت: ولهذا الحديث طرق في فضل مكة في الحج.

(٢) سبق أن عرضناه في رواية سابقة.

(٣) صحيح الجامع الصغير (٦/ ٢٩٧). وقال عنه الألباني: صحيح. وقد رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والترمذي عن عائشة.

(فعن عثمان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إنك ستبتلى بعدي، فلا تقاتلن »)[1].

أما أنه ميزان الحق عند الفتنة فحديث عبد اللَّه بن حوالة يوضح ذلك:

(وعن عبد اللَّه بن حوالة قال: أتيت رسول اللَّه ﷺ وهو جالس في ظل دومة[2] قال: « يا ابن حوالة! كيف تفعل في فتن تخرج من أطراف الأرض كأنها صياصي البقر؟ » قلت: لا أدري. ما خار اللَّه لي ورسوله قال: « فكيف تفعل في أخرى تخرج بعدها كأن الأخرى فيها انتفاجة أرنب؟[3] »قلت: لا أدري. ما خار اللَّه لي ورسوله. قال: « ابتغوا هذا ورجل مقفى حينئذ »فانطلقت فسعيت فأخذت في منكبه فأقبلت بوجهه إلى رسول اللَّه ﷺ قلت: هذا؟ قال: « نعم ». فإذا هو عثمان بن عفان)[4].

مقتل عثمان أمير المؤمنين:

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وعثمان قالوا:

كان الحصر أربعين ليلة، والنزول سبعين، فلما مضت من الأربعين ثماني عشرة، قدم ركبان من الوجوه فأخبروا خبر من قد تهيأ إليهم من الآفاق: حبيب من الشام ومعاوية (بن حديج) من مصر والقعقاع من الكوفة ومجاشع من البصرة، فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان، ومنعوه كل شيء حتى الماء، وقد كان يدخل عليٌّ بالشيء مما يريد، وطلبوا العلل فلم تطلع عليهم علة، فعثروا في داره بالحجارة ليرموا فيقولوا: قوتلنا، وذلك ليلًا فناداهم: ألا تتقون اللَّه! ألا تعلمون أن في الدار غيري! قالوا: لا واللَّه ما رميناك. قال: فمن رمانا؟ قالوا: اللَّه. قال: كذبتم إن اللَّه ﷻ لو رمانا لم يخطئنا وأنتم تخطئوننا، وأشرف عثمان على آل حزم وهم جيرانه فسرح ابنًا لعمرو إلى علي بأنهم قد منعونا الماء، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئًا من الماء فافعلوا، وإلى طلحة وإلى الزبير، وإلى عائشة - رضي اللَّه عنها - وأزواج النبي ﷺ فكان أولهم إنجادًا له علي وأم حبيبة، جاء علي في الغلس فقال: يا أيها الناس إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي، وما تعرض لكم هذا الرجل. فيم تستحلون حصره وقتله؟ قالوا: لا واللَّه ولا نعمة عين، لا نتركه

---

(١) مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي (٧/ ٢٢٥) وقال فيه: رواه أبو يعلى في الكبير عن شيخ غير منسوب، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) دومة: شجرة.

(٣) انتفاجة أرنب: ثورته.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٢٥) وقال فيه: رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح.

يأكل ويشرب، فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت فيما أنهضتني، فرجع. وجاءت أم حبيبة على بغلة لها برحالة[1] مشتملة على إداوة فقيل: أم المؤمنين أم حبيبة، فضربوا وجه بغلتها. فقالت: إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل، قالوا: كاذبة وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فندت بأم حبيبة فتلقاها الناس، وقد مالت راحلتها فتعلقوا بها، وأخذوها وقد كادت تقتل، فذهبوا بها إلى بيتها، وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج وبقي عثمان يسقيه آل حزم في الغفلات وعليهم الرقباء، فأشرف عثمان على الناس وقال: يا عبد اللَّه بن عباس فدعي له فقال: اذهب فأنت على الموسم، وكان ممن لزم الباب فقال: واللَّه يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب إليَّ من الحج. فأقسم عليه لينطلقن فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة، ورمى عثمان إلى الزبير بوصيته، فانصرف بها، وفي الزبير اختلاف أدرك مقتله أو خرج قبله. وقال عثمان: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ...﴾ الآية [هود: ٨٩] اللهم حل بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فُعل بأشياعهم من قبل.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة، وأبي حارثة وأبي عثمان. قالوا: فلما بويع الناس جاء السابق فقدم بالسلامة فأخبرهم من الموسم[2] أنهم يريدون جميعًا المصريين وأشياعهم، وأنهم يريدون أن يجمعوا ذلك إلى حجهم، فلما أتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار وأعلقهم الشيطان، وقالوا: لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل، فيشغل بذلك الناس عنا، ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلا قتله، فراموا الباب، فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم، واجتلدوا، فناداهم عثمان: اللَّه اللَّه أنتم في حلٍّ من نصرتي، فأبوا، ففتح الباب وخرج ومعه الترس والسيف لِينْهنَّهمْ، فلما رأوه أدبر المصريون وركبهم هؤلاء، ونهضهم، فتراجعوا، وعظم على الفريقين، وأقسم على الصحابة ليدخلن، فأبوا أن ينصرفوا، فدخلوا، فأغلق الباب دون المصريين، فاتخذ عثمان تلك الأيام القرآن نحبًا[3] يصلي، وعند المصحف فإذا أعيا[4] جلس وقرأ فيه، وكانوا يرون القراءة في المصحف من العبادة ... وكان القوم الذين كفكفهم بينه وبين

(١) الرحالة: السرج من الجلود.

(٢) القصد بالموسم الحج، وأن الناس قادمون بعد الحج لنصرة عثمان وحرب الثائرين عليه.

(٣) نحبًا: أي هنأ وعادة. (٤) أعيا: تعب.

الباب، فلما بقي المصريون لا يمنعهم أحد من الباب ولا يقدرون على الدخول جاؤوا بنار، فأحرقوا الباب والسقيفة، فتأجج الباب والسقف، حتى إذا احترق الخشب خرت السقيفة على الباب، فثار أهل الدار وعثمان يصلي حتى منعوهم من الدخول، وكان أول من برز لهم المغيرة بن الأخنس وهو يرتجز:

قد علمت جارية عطبول[١] ذات وشاح ولها جديل[٢]
أنى بنصل السيف خنشليل[٣] لأمنعن منكم خليلي
بصارم ليس بذي فلول

وخرج الحسن بن علي وهو يرتجز:

لا دينهم ديني ولا أنا منهم حتى أسير إلى طمار شمام[٤]

وخرج محمد بن طلحة وهو يقول:

أنا ابن من حامى عليه بأحد ورد أحزابًا على رغم معد

وخرج سعيد بن العاص وهو يقول:

صبرنا غداة الروع والموت واقب[٥] بأسيافنا دون ابن أروى نضارب
وكنا غداة الروع في الدار نصرة نشافههم بالضرب والموت ثاقب

فكان آخر من خرج من الدار عبد اللَّه بن الزبير، وأمره عثمان أن يصير إلى أبيه في وصية بما أراده)[٦].

الساعات الأخيرة:

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان قالوا:

وأحرقوا الباب وعثمان في الصلاة وقد افتتح: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾

---

(١) العطبول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق.

(٢) جديل: من جدائل الشعر.

(٣) الخنشليل: العمول بالسيف الجيد الضرب به.

(٤) طمار شمام: الجبل العالي المرتفع، أو اسم لجبل في بلاد قشير.

(٥) واقب: مُطل وظاهر.

(٦) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٤/ ٣٨٥، ٣٨٩).

وكان سريع القراءة فما كرثه[١] ما سمع، وما يخطئ وما يتتعتع[٢] حتى أتى عليها قبل أن يصلوا إليه، ثم عاد فجلس إلى عند المصحف وقرأ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وارتجز المغيرة بن الأخنس وهو دون الدار في أصحابه:

قد علمت ذات القرون الميل ... والحلي والأنامل الطفول[٣]

لتصدقن بيعتي خليلي ... بصارم ذي رونق مصقول

لا أستقيل إن أقلت قيلي

وأقبل أبو هريرة والناس محجمون عن الدار أولئك العصبة فقد سروا[٤] فاستقتلوا فقام معهم وقال: أنا أسوتكم، وهذا يوم طاب امضرب، يعني أنه حل القتال، وهذه لغة حمير، ونادى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤١] وبادر مروان يومئذ ونادى: رجل رجل، فبرز له رجل من بني ليث يدعى النباع فاختلفا فضربه مروان أسفل رجليه وضربه الآخر على أصل العنق فقلبه، فانكب مروان واستلقى، فاجتر هذا أصحابه واجتر الآخر أصحابه. فقال المصريون: والله لو لا أن تكونوا حجة علينا في الأمة لقد قتلناكم بعد تحذير، فقال المغيرة: من يبارز؟ فبرز له رجل فاجتلد وهو يقول:

أضربهم باليابس

ضرب غلام بائس

من الحياة آيس

فأجابه صاحبه... وقال الناس: قتل المغيرة بن الأخنس، فقال الذي قتله: إنا لله، فقال عبد الرحمن بن عديس: مالك؟ قال: إني أتيت فيما يرى النائم فقيل لي: بشر قاتل المغيرة ابن الأخنس بالنار فابتليت به.

وقتل قباث الكناني نيار بن عبد الله الأسلمي، واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملأوها ولا يشعر الذين بالباب، وأقبلت القبائل على أبنائهم، فذهبوا بهم إذ غُلبوا على أميرهم، وندبوا رجلًا لقتله، فانتدب له رجل فدخل عليه البيت. فقال:

---

(١) كرثه الأمر: إذا أغمه وأثقله. (٢) يتتعتع: يتردد به لسانه.

(٣) الطفول: الرخص الناعم والجمع طفال طفول. (٤) سروا: دفعوا.

اخلعها وندعك فقال: ويحك واللَّه ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيت[١] ولا تمنيت[٢]، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول اللَّه ﷺ، ولست خالعًا قميصًا كسانيه اللَّه ﷻ، وأنا على مكاني حتى يكرم اللَّه أهل السعادة ويهين أهل الشقاء.

فخرج وقالوا: ما صنعت؟ فقال: علقنا واللَّه، واللَّه ما ينجينا من الناس إلا قتله، وما يحل لنا قتله، فأدخلوا عليه رجلًا من بني ليث فقال: ممن الرجل؟ فقال: ليثي، فقال: لست بصاحبي قال: وكيف؟ قال: ألست الذي دعا لك النبي ﷺ في نفر أن يحفظوا يوم كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فلن تضيع، فرجع وفارق القوم، فأدخلوا عليه رجلًا من قريش، فقال: يا عثمان! إني قاتلك، قال: كلا يا فلان لا تقتلني، قال: وكيف. قال: إن رسول اللَّه ﷺ استغفر لك يوم كذا وكذا فلن تقارف دمًا حرامًا، فاستغفر ورجع وفارق أصحابه.

وأقبل عبد اللَّه بن سلام حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله وقال:

يا قوم لا تسلوا سيف اللَّه عليكم، فواللَّه إن سللتموه لا تغمدوه، ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة، فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف، ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة اللَّه، واللَّه لئن قتلتموه لتتركنها قالوا: يا ابن اليهودية[٣]، وما أنت وهذا، ورجع عنهم.

قالوا: وكان آخر من دخل عليه ممن رجع إلى القوم محمد بن أبي بكر فقال له عثمان: ويلك أعلى اللَّه تغضب؟! هل لي إليك جرم إلا حقه الذي أخذته منك! فنكل ورجع.

قالوا: فلما خرج محمد بن أبي بكر، وعرفوا انكساره ثار قتيرة، وسودان بن حمران السكونيان، والغافقي فضربه الغافقي بحديدة معه وضرب المصحف برجله، فاستدار المصحف فاستقر بين يديه وسالت عليه الدماء، وجاء سودان بن عمران ليضربه فانكبت عليه نائلة ابنة الفرافصة[٤]، واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها فأطن أصابع يدها[٥] فولت، فغمز أوراكها وقال: إنها لكبيرة العجيزة، وضرب عثمان فقتله، ودخل غلمة لعثمان مع القوم لينصروه وقد كان عثمان أعتق من كف منهم، فلما رأوا سودان قد ضربه أهوى بعضهم فضرب عنقه فقتله، ووثب قتيرة على الغلام فقتله وانتهبوا ما في

---

(١) صححها محقق تاريخ ابن عساكر بتعيت: من العتوه والتجبر.

(٢) لا تمنيت: كذبت.

(٣) يعيرونه باليهودية إذ كان من أحبار اليهود، وأسلم وأنزل اللَّه تعالى في إسلامه قرآنًا وغدا من كبار الصحابة.

(٤) وهي زوجته.

(٥) أطن أصابع يدها: أطارها.

البيت، وأخرجوا من فيه، ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى. فلما خرجوا إلى الدار وثب غلام لعثمان آخر على قتيرة فقتله، ودار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ رجل ملاءة نائلة، والرجل يدعى كلثوم بن تجيب، فتنحت نائلة. فقال: ويح أمك من عجيزة ما أتمك! وبصر به غلام لعثمان فقتله وقتل، وتنادى القوم: أبصر رجل من صاحبه وتنادوا في الدار: أدركوا بيت المال لا تُسبقوا إليه، فسمع أصحاب بيت المال أصواتهم وليس فيه إلا غرارتان، فقالوا: النجاء، فإن القوم إنما يحاولون الدنيا، فهربوا وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس فيه فالتانئ[1] يسترجع ويبكي، والطارئ يفرح. وندم القوم، وكان الزبير قد خرج من المدينة فأقام على طريق مكة لئلَّا يشهد مقتله. فلما أتاه الخبر بمقتل عثمان وهو بحيث هو قال: إنا للَّه وإنا إليه راجعون، رحم اللَّه عثمان وانتصر له. وقيل: إن القوم نادمون! فقال: دبروا دبروا ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ... ﴾ [سبأ: ٥٤] الآية، وأتى الخبر طلحة، فقال: رحم اللَّه عثمان وانتصر له وللإسلام. وقيل له: إن القوم نادمون، فقال: تبًّا لهم وقرأ: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٥٠] وأتى علي فقيل: قُتل عثمان. فقال: رحم اللَّه عثمان، وخلف علينا بخير، وقيل: ندم القوم، فقرأ: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ... ﴾ [الحشر: ١٦] الآية، وطلب سعد فإذا هو في حائطه. وقد قال: لا أشهد قتله؛ فلما جاءه قتله قال: فررنا إلى المدينة بديننا[2]، وقرأ: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤] اللهم أندمهم ثم خذهم[3].

وهذه صورة مختصرة عن مقتله من كتب الحديث:

وعن وثاب وكان ممن أدركه عتق عثمان وكان يقوم بين يدي عثمان قال:

(بعثني عثمان فدعوت له الأشتر، قال ابن عون: فأظنه قال: فطرحت له وسادة ولأمير المؤمنين وسادة. قال: يا أشتر، ما يريد الناس مني؟ قال: ثلاثًا ما من إحداهن بد قال: ما هن؟ قال: يخيرونك بين أن تدع لهم أمرهم فتقول: هذا أمركم فاختاروا له من شئتم، وبين أن تقتص من نفسك، فإن أبيت فإن القوم قاتلوك. قال: ما من إحداهن بد؟! قال: أما أن أخلع لهم أمرهم فما كنت لأخلع سربالًا سربلته قال: وقال الحسن: قال: واللَّه لأن

(١) التانئ: المقيم.

(٢) وتصحيحها كما وردت في تاريخ دمشق لابن عساكر (عثمان بن عفان)، (ص ٤٤٧): فررنا إلى المدينة بديننا فصرنا اليوم نفر منها بديننا.

(٣) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (٤/ ٣٨٥ - ٣٩٢) مقتطفات.

أقدم فتضرب عنقي أحب إليَّ من أن أخلع أمر أمة محمد ﷺ ينزو بعضها على بعض، وهذا أشبه بكلام عثمان، وأما أن أقتص من نفسي فوالله لقد علمت أن صاحباي كانا يعاقبان وما يقوم بدني للقصاص، وأما أن يقتلوني فوالله لئن قتلتموني لا تُحابُّون بعدي أبدًا، ولا تقاتلون بعدي عدوًّا جميعًا أبدًا، فقام الأشتر فانطلق فمكثنا فقلنا: لعل الناس إذ جاء رجل كأنه ذئب فاطلع من باب ثم رجع، ثم جاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلًا حتى انتهوا إلى عثمان، فأخذ بلحيته فقال بها وقال بها حتى سمعنا وقع أضراسه فقال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنى عنك كتبك. قال: أرسل لحيتي يا بن أخي. قال: فأنا رأيته استدعى رجلًا من القوم بعينه فقام إليه بمشقص حتى وجأ به في رأسه، قلت: ثم مه. قال: تعاونوا والله عليه حتى قتلوه)[١].

(وعن مسلم أبي سعيد مولى عثمان بن عفان أن عثمان بن عفان أعتق عشرين عبدًا مملوكًا، ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ البارحة في المنام وأبا بكر وعمر فقالوا لي: اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بن يديه فقتل وهو بين يديه)[٢].

(وعن أبي معشر قال: وقتل عثمان لعشرة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، كانت خلافته ثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يومًا)[٣].

دفن عثمان:

وأما سيف فإنه روى فيما كتب به إلي السري عن شعيب عنه عن أبي حارثة وأبي عثمان ومحمد وطلحة: أن عثمان لما قتل أرسلت نائلة إلى عبد الرحمن بن عديس فقالت له: إنك أَمَسُّ القومِ فيَّ رَحِمًا وأولاهم أن تقوم بأمري أغرب عني هؤلاء الأموات. قال فشتمها وزجرها حتى إذا كان في جوف الليل خرج مروان حتى أتى دار عثمان، فأتاه زيد بن ثابت وطلحة بن عبيد الله وعلي والحسن وكعب بن مالك وعامة من ثَمَّ من أصحابه فتوافى إلى موضع الجنائز صبيان ونساء. فأخرجوا عثمان فصلى عليه مروان، ثم خرجوا به حتى انتهوا إلى البقيع فدفنوه فيه مما يلي حش كوكب، حتى إذا أصبحوا أتوا أعبد عثمان الذين

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٣٢)، وقال فيه: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير وثاب،وقد ذكره ابن حاتم ولم يجرحه أحد.

(٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٣٢)، وقال فيه : رواه عبد الله وأبو يعلي في الكبير ورجالها ثقات.

(٣) المصدر نفسه (ص ٣٣٢) وقال فيه: رواه أحمد وإسناده منقطع.

قتلوا معه، فأخرجوهم، فرأوهم، فمنعوهم من أن يدفنوا، فأدخلوهم حش كوكب، فلما أمسوا خرجوا بَعيدين عنهم فدفنوهم إلى جانب عثمان، ومع كل واحد منهم خمسة نفر وامرأة[١]، وفاطمة أم إبراهيم بن عدي، ثم رجعوا فأتوا كنانة بن بشر فقالوا: إنك أمَسّ القوم بنا رحمًا فأمر بهاتين الجيفتين[٢] اللتين في الدار أن تُخرجا، فكلمهم في ذلك، فأبوا فقال: أنا جار لآل عثمان من أهل مصر ومن لفَّ لفهم، فأخرجوهما فارموا بهما فجُرا بأرجلهما فرمى بهما على البلاط فأكلتهما الكلاب، وكان العبدان اللذان قتلا يوم الدار يقال لهما نجيح وصبيح، فكان اسماهما الغالب على الرقيق لفضلهما وبلائهما، ولم يحفظ الناس اسم الثالث، ولم يغسل عثمان وكفن في ثيابه ودمائه ولا غسل غلاماه.

وكتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن مجالد عن الشعبي قال: دفن عثمان ﷺ من الليل وصلى عليه مروان بن الحكم، وخرجت ابنته تبكي في أثره، ونائلة بنت الفرافصة رحمهم اللَّه[٣].

لقد كانت حادثة مقتل عثمان ﷺ أكبر مأساة في التاريخ الإسلامي حتى ذلك الوقت فمقتل عمر ﷺ جاء والمسلمون كلمتهم واحدة، والذي قتله مجوسي لم يسجد للَّه سجدة، أما مقتل عثمان ﷺ فقد كان تحديًا لإدارة الأمة وإرادة أهل الحل والعقد فيها الذين كانوا سكان المدينة وأصحاب بدر وأصحاب بيعة الرضوان فيها، وقد تم احتلال المدينة احتلالًا عسكريًّا منع فيه التجول، ومنع فيه الاجتماع، ولم يتم دفن عثمان إلا بالسر خوفًا من الثوار، وهؤلاء الثوار هم مجموعة من الأعراب من البصرة والكوفة ومصر حركهم ونسَّق بينهم وأوجدهم عبد اللَّه بن سبأ اليهودي، وخافوا من القضاء عليهم عندما تحركت الجيوش من الأمصار لنصرة عثمان ﷺ فسارعوا في قتل أمير المؤمنين أعظم شخصيات المسلمين، وعنوان وحدة الأمة وكون هذا تيارًا عنيفًا طاب فيه الاستشهاد لمواجهة قتلة عثمان المجرمين العصاة الباغين.

وفي هذه الظروف الصعبة المعقدة تمت البيعة لعلي - رضوان اللَّه عليه - ورفض بيعة الثوار، ولم يرض إلا بيعة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم أولو الحل والعقد في الإسلام، لكن الثوار المجرمين بقوا في جيش علي، وانقسمت الأمة

(١) أي مع كل عبد مقتول خمسة نفر يحملونه.

(٢) وهما جثتا قبرة وسودان قتلة عثمان اللذين قتلا على يد غلاميه.

(٣) تاريخ الطبري (٤/ ٤١٤، ٤١٥) هذا وقد أضربنا عن بقية الروايات عن مقتل عثمان، فهي كلها روايات الواقدي.

على أثر هذا الحادث الرهيب إلى معسكرين، معسكر مع الإمام الشرعي للمسلمين علي - رضوان اللَّه عليه - ومعسكر يقوده معاوية ﷺ والي عثمان على الشام وقريب عثمان وابن عمه والمطالب بدمه، وهذا المعسكر لا يناقش في شرعية أمير المؤمنين. إنما يناقش في ضرورة عقاب القتلة المجرمين، وتنفيذ حكم اللَّه فيهم كما ينفذ في البغاة المجرمين الخارجين على الإمام.

وحيث إن عمرو ﷺ غادر المدينة غاضبًا حاقدًا على الذين حاصروا عثمان، ورأى ببعد نظره أن القوم قاتلوه لا محالة، وأنه لا يملك السلطة والقوة لنصرته، فغادر المدينة ينتظر تطور الأوضاع ليتخذ الموقف المناسب.

وما كان للأمة أن تسكت عن مقتل خليفتها مهما كلفها ذلك من ثمن، ولا بد أن تعاقب كلها لتفريطها في دمه (فعن عبد اللَّه بن سلام أنه قال حين هاج الناس في أمر عثمان: أيها الناس لا تقتلوا هذا الشيخ، واستبقوه، فإنه لن تقتل أمة نبيها فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء سبعين ألفًا منهم، ولن تقتل أمة خليفتها فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء أربعين ألفًا منهم. فلم ينظروا فيما قال، وقتلوه، فجلس لعلي على الطريق فقال:أين تريد؟ قال: أريد أرض العراق. قال: لا تأت العراق وعليك بمنبر رسول اللَّه ﷺ فوثب إليه ناس من أصحاب علي وهموا به. فقال علي: دعوه فإنه من أهل البيت. فلما قُتل علي قال عبد اللَّه لابن معقل: هذه رأس الأربعين، وسيكون على رأسها صلح، ولن تقتل أمة نبيها إلا قتل به سبعون ألفًا، ولن تقتل أمة خليفتها إلا قتل به أربعون ألفًا)[1].

* * *
* *
*

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٤٦، ٢٤٧). وقال فيه: رواه الطبرني من طريقين، ورجال هذه رجال الصحيح، وله طريق في مناقب عثمان ﷺ.

عمرو ينضم إلى معاوية مطالبًا بدم عثمان

عندنا روايتان في تاريخ الطبري عن انضمام عمرو إلى معاوية:

الرواية الأولى بسند الطبري المقبول عند علماء السير والتاريخ، والرواية الثانية هي رواية الواقدي عن موسى بن يعقوب عن عمه. وسنعرض للروايتين ونشهد مدى التشويه والمسخ في الرواية الضعيفة المرفوضة بعد استعراض الرواية الصحيحة، وبين يدينا رواية صحيحة ثانية تمهد للوضع النفسي الذي كان فيه عمرو بن العاص ﷺ حول وضع الأمة آنذاك.

أمير الأرض المقدسة:

(كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد بن عبد اللّه عن أبي عثمان قال: كان النبي ﷺ قد بعث عمرًا إلى عُمان. فسمع هنالك من حبر شيئًا. فلما رأى مصداقه وهو هناك أرسل إلى ذلك الحبر، فقال: حدِّثني بوفاة رسول اللّه ﷺ وأخبِرني من يكون بعده؟

قال الذي كتب إليك يكون بعده، ومدته قصيرة. قال: ثم من؟ قال: رجل من قومه مثله في المنزلة، قال: فما مدته؟ قال: طويلة، ثم يقتل. قال: غيلة أم عن ملاء؟ قال: غيلة. قال: فمن يلي بعده؟ قال: رجل من قومه مثله في المنزلة. قال: فما مدته؟ قال: طويلة، ثم يقتل، قال: أغيلة أم عن ملاء؟ قال: عن ملاء قال (أي عمرو): ذلك أشد، فمن يلي بعده؟ قال:رجل من قومه ينتشر عليه الناس وتكون على رأسه حرب شديدة بين الناس ثم يقتل قبل أن يجتمعوا عليه. قال: أغيله أم عن ملاء؟ قال: غيلة. ثم لا يرون مثله. قال: فمن يلي بعده؟ قال: أمير الأرض المقدسة فيطول ملكه، فيجتمع عليه أهل تلك الفرقة وذلك الانتشار عليه ثم يموت)[1].

فالصورة في ذهن عمرو ﷺ حول احتمالات الحرب والفرقة بين المسلمين ليست

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري (٤/ ٥٦٠)، وقد سبق أن مرت هنا رواية قريبة منها تتحدث عن لقاء عمرو ﷺ مع الحبر اليهودي الذي حدثه حتى خلافة عمر ﷺ.

بعيدة عنه، ومتابعته لتطورات الأمر توحي بذلك بدون معلومات هذا الحبر اليهودي.

ذكر خبر عمرو بن العاص ومبايعته معاوية:

وفي هذه السنة - أعني سنة ست وثلاثين - بايع عمرو بن العاص معاوية، ووافقه على محاربة علي، وكان السبب في ذلك ما كتب به إلى السري عن شعيب وسيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان قالوا:

لما أحيط بعثمان ﷺ خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهًا نحو الشام وقال: واللَّه يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه اللَّه ﷻ بذل، ولم يستطع نصره فليهرب، فسار وسار معه ابناه عبد اللَّه ومحمد، وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع على ذلك ما شاء اللَّه.

قال سيف عن أبي حارثة وأبي عثمان قال:

بينما عمرو بن العاص جالس بعجلان ومعه ابناه إذ مر بهم راكب فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة. فقال عمرو: ما اسمك؟ قال حصيرة، قال عمرو: حصر. قال: تركت الرجل محصورًا. قال عمرو: يقتل. ثم مكثوا أيامًا، فمر بهم راكب. فقالوا: من أين؟ قال:من المدينة، قال عمرو: ما اسمك قال: قتال. قال عمرو: قتل الرجل. قال: فما الخبر؟ قال: قتل الرجل، ثم لم يكن إلا ذلك إلى أن خرجت، ثم مكثوا أيامًا فمر بهم راكب فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة. قال عمرو: ما اسمك؟ قال: حرب. قال عمرو: يكون حرب فما الخبر؟ قال: قتل عثمان بن عفان ﷺ، وبويع لعلي بن أبي طالب. قال عمرو: أنا أبو عبد اللَّه تكون حرب من حك فيه قرحة نكأها، رحم اللَّه عثمان ورضي اللَّه عنه وغفر له، فقال سلامة بن زنباع الجذامي:

يا معشر العرب إنه قد كان بينكم وبين العرب باب، فاتخذوا بابًا إذ كسر الباب. قال عمرو: وذاك الذي نريد ولا يصلح الباب إلا أشاف[1] تخرج الحق من حافرة البأس، ويكون الناس في العدل سواء، ثم تمثل عمرو في بعض ذلك:

فيا لهف نفسي على مالك ... وهل يصرف اللهف حفظ القدر

أنزع من الحرِّ[2] أودى بهم ... فأعذرهم أم بقومي سكر

ثم ارتحل راجلًا يبكي كما تبكي المرأة ويقول: يا عثماناه! أنعي الحياء والدين! حتى

(١) أشاف: جمع أشفي وهو المثقب. (٢) الحر: جمع حرة وهي الظلمة الشديدة.

قدم دمشق وقد كان سقط إليه من الذي يكون علم، فعمل عليه)[١].

هذه هي الصورة الصادقة الناصعة عن عمرو ﷺ والمتناسبة مع شخصيته، وخط حياته وقربه من عثمان، أما الصورة التي تمسخه إلى رجل مصالح وصاحب مطامع وراغب دنيا، فهي الرواية المتروكة الضعيفة رواية الواقدي عن موسى بن يعقوب عن عمه نعرضها كما هي:وأما الواقدي فإنه فيما حدثني موسى بن يعقوب عن عمه قال:

لما بلغ عمرًا قتلُ عثمان ﷺ قال: أنا أبو عبد اللَّه قتلته وأنا بوادي السباع، من يلي هذا الأمر من بعده؟ إن يله طلحة فهو فتى العرب سيبًا[٢]، وإن يله ابن أبي طالب فلا أراه إلا سيستنظف الحق قال: فبلغه أن عليًّا قد بويع له، فاشتد عليه وتربص أيامًا ينظر ما يصنع الناس، فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة وقال: أَسْتَأْنِي وأنظر ما يصنعون، فأتاه الخبر أن طلحة والزبير قد قُتلا فأرتج عليه[٣] أمره فقال له قائل: إن معاوية بالشام لا يريد أن يبايع لعلي، فلو قاربت معاوية. فكان يله أحب إليه من علي بن أبي طالب، وقيل له: إن معاوية يعظم شأن قتل عثمان، ويحرص على الطلب بدمه. فقال عمرو: ادعوا لي محمدًا وعبد اللَّه فدعيا له، فقال: قد كان ما بلغكما من قتل عثمان ﷺ وبيعة الناس لعلي، وما يرصد معاوية من مخالفة علي، وقال: ما تريان؟! أما علي فلا خير عنده وهو رجل يدل بسابقته، وهو غير مشركي في شيء من أمره، فقال عبد اللَّه بن عمرو: توفي النبي ﷺ وهو عنك راضٍ وتوفي أبو بكر ﷺ وهو عنك راض، وتوفي عمر ﷺ وهو عنك راضٍ، أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه (وقال محمد ابن عمرو: أنت ناب من أنياب العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر. قال عمرو: أما أنت يا عبد اللَّه فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي، وأسلم لي في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي هو أنبه لي في دنياي وشر لي في آخرتي. ثم خرج عمرو بن العاص ومعه ابناه حتى قدم على معاوية، فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان، فقال عمرو بن العاص: اطلبوا بدم الخليفة المظلوم، ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو، فقال ابنا عمرو لعمرو: ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت إلى قولك!! انصرف إلى غيره، فدخل عمرو على معاوية فقال: واللَّه لعجبٌ لك إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني! أما واللَّه إن[٤] قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة، إن

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (ص ٥٥٨، ٥٥٩).

(٢) سيبًا: عطاء وجودًا.

(٣) أرتج عليه: أي اضطرب في أمره. (٤) إن: بمعنى ما.

في النفس من ذلك ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا، فصالحه معاوية وعطف عليه)[١].

فعمرو في هذه الرواية وبصريح العبارة فيها طالب دنيا كما يقول: (إنما أردنا هذه الدنيا) وعمرو يؤثر الأولى على الآخرة (وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي هو أنبه لي في دنياي وشر لي في آخرتي) وعمرو هو قاتل عثمان (أنا أبو عبد اللَّه، قتلته وأنا في وادي السباع) وهو المطالب بدم عثمان.

ونجد عند ابن عساكر في تاريخه العديد من الروايات عن غير الواقدي تتحدث عن هذا الموضوع، وسنعالج هذه الروايات جميعًا:

الرواية الأولى:

خلاصتها أنه عندما استشار ولديه (فقال له ابنه عبد اللَّه: إن كنت لا بد فاعلًا، فإلى علي، فقال له عمرو: ثكلتك أمك، إني إن أتيت عليًّا قال لي: إنما أنت رجل من المسلمين، وإن أتيت معاوية خلطني بنفسه وشاركني في أمره، فأتى معاوية)[٢].

وفي سند هذه الرواية ثلاثة مطاعن:

المطعن الأول: يحيى بن سليمان أحد رواتها، وهو صدوق يخطئ كما في تقريب التهذيب.

المطعن الثاني: عبد الوهاب بن يحيى وهو مقبول من الخامسة.

المطعن الثالث: وهو أخطر المطاعن الثلاثة. فالأول والثاني يمكن أن يقبلا في رواية تاريخية. لكن المطعن الثالث: هو الانقطاع والجهالة، فعبد الوهاب بن يحيى ابن عبد اللَّه بن الزبير قال: حدثنا أشياخنا، فمن هؤلاء الأشياخ لا ندري، ولهذا تسقط هذه الرواية.

الرواية الثانية:

(لما بلغ عمرو بن العاص بيعة الناس عليًّا دعا ابنيه عبد اللَّه ومحمد واستشارهما، فقال له عبد اللَّه بن عمرو: صحبت رسول اللَّه ﷺ وتوفي وهو عنك راضٍ، وصحبت أبا بكر وعمر فتوفيا وهما عنك راضيان، ثم صحبت عثمان وتوفي وهو عنك راضٍ، فأرى أن تلزم بيتك فهو أسلم لدينك. فقال له محمد: أنت شريف من أشراف العرب،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ٥٦٠، ٥٦١). (٢) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٥١٥).

وناب من أنيابها، لا أرى أن تختلف العرب في جسيم أمورها، ولا يرى مكانك. فقال لعبد اللَّه: أما أنت فأشرت علي بما هو خير لي في آخرتي. وأما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنبه لذكري، ارتحلا .فارتحلا إلى معاوية فأتى رجلًا قد عاد المرضى ومشى بين الأعراض يقص على أهل الشام غدوة وعشية: يا أهل الشام إنكم على خير، وإلى خير، تطلبون بدم خليفة قتل مظلومًا، فمن عاش منكم فإلى خير، ومن مات منكم فإلى خير فقال عبد اللَّه بن عمرو: ما أرى الرجل إلا انقطع بالأمر دونك. فقال له: دعني وإياه. ثم إن عَمْرًا قال لمعاوية ذات يوم: يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك، ترى إنا خالفنا عليًّا لفضل منا عليه، لا واللَّه إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وايم اللَّه لتقطعن لي قطعة من دنياك، أو لأنابذنك فقال: فأعطاه مصر يعطي أهلها عطاءهم وأرزاقهم)[1].

وفي هذه الرواية ثلاثة مطاعن:

الأول: ضعف يحيى بن سليمان.

والثاني: انقطاع السند، فهو يقول فيه: حدثنا إبراهيم بن الحسين نا يحيى بن سليمان نا إبراهيم بن الحجاج ثم رجع إلى حديث أبي يوسف عن محمد بن إسحاق عن عبد اللَّه ابن عروة بن الزبيرفمن رجع ومن أبو يوسف.

المطعن الثالث: الراوي الأول إبراهيم بن الحسين، فهو مجهول. كذلك الرواية الثالثة قال: (حدثنا إبراهيم بن الحسين حدثنا عبد اللَّه بن عمر نا عمرو بن محمد قال: سمعت الوليد البلخي قال:فلما انتهى كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص استشار ابنيه عبد اللَّه ومحمد ابني عمرو، وقال: إنه قد كانت مني في عثمان هنات لم أغسلها بعد، وقد كان مني ومن نفسي حيث ظننت أنه مقتول ما قد احتملته، وقد قدم جرير على معاوية فطلب البيعة لعلي، وقد كتب إلي معاوية يسألني أن أقدم عليه فما تريان؟ فقال عبد اللَّه بن عمرو: يا أبت إن رسول اللَّه ﷺ قُبض وهو عنك راض، والخليفتان من بعده، وقتل عثمان وأنت عنه غائب. فأقم في منزلك فلست مجعولًا خليفة، ولا تريد أن تكون حاشية معاوية على دنيا قليلة فانية. فقال محمد: يا أبت أنت شيخ قريش، وصاحب أمرها، وإن تقدَّم هذا الأمر وأنت فيه خامل خملت فالحق بجماعة أهل الشام، واطلب بدم عثمان، فقال: أما أنت يا عبد اللَّه فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، فلما جنَّ عليه الليل أرق في فراشه

(١) المصدر نفسه (ص ٥١٦).

ذلك وجعل يتفكر فيما يريد أي الأمرين ثم أنشأ يقول:

تطاول ليلى للهموم الطوارق وجوف الليل يجلو وجوه العوائق [1]
معاوي بن هند سالني اللَّه[2] عونه وتلك التي فيها عظام البوائق
فواللَّه ما أدري وما كنت هكذا أكون وهما أن أرى فهو سائقي
أخادعه والخدع فيه دفيئة أم أعطيه من نفسي بصحة وامق
أم أقعد في بيتي وفي ذاك راحة لشيخ يخاف الموت في كل شارق
وقد قال عبد اللَّه قولًا تعلقت به النفس إن تبعد علي عوائقي
وخالفه فيه أخوه محمد وإني لصلب الرأي عند الحقائق

فلما أصبح عمرو دعا غلامه وردان فقال: ارحل يا وردان، حُط يا وردان، مرتين أو ثلاثًا، فقال له وردان: خلطت يا أبا عبد اللَّه، أما إنك إن شئت أخبرتك بما في نفسك. قال: هات. قال: اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك. فقلت: عليٌّ معه الآخرة، وفي الآخرة عوض من الدنيا، ومعاوية معه الدنيا بلا آخرة، وليس في الدنيا عوض من الآخرة. فقال له عمرو: قاتلك اللَّه يا وردان واللَّه ما أخطأت. فما ترى؟ قال: أرى أن تقيم في منزلك، فإن ظهر أهل الدين عشت عند دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك)[3].

وفي سند هذه الرواية إبراهيم بن الحسين (مجهول) وعبد اللَّه بن عمر العمري (ضعيف) و (عمرو بن محمد) والوليد البلخي مجهولان، وهناك سقط في السند أكثر من أربعة رجال؛ لأن السند المتصل للحافظ ابن عساكر يصل إلى تسعة رواة. فلا تقوم إذن هذه الروايات الثلاثة أمام الرواية السابقة المقبولة لدى العلماء.

وتبقى الصورة الصحيحة والموثوقة تاريخيًّا، والمتناسبة مع مستوى عمرو ﷺ، وقناعته ودينه هي هذه الرواية.

لكن الذين أخذوا بالروايات الضعيفة والسقيمة سرعان ما أهووا بعمرو إلى الحضيض قدموا له شخصية جديدة يحسن أن نعرض فيها لثلاثة كُتَّاب محدثين:

أفضلهم وأروعهم العالم العظيم والعسكري الكبير اللواء الركن محمود شيت خطاب حيث

---

(١) في هذا الشطر كسر ولعل صحته (وليلي بجلولي وجوه الحقائق).

(٢) سالني اللَّـه: سألني باللَّـه عونه. (٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥١٦، ٥١٧).

لم يقف كثيرًا أمام الروايات وتصحيحها فوضع ملامح شخصية عمرو ﷺ من إيحاء هذه الروايات فقال:

(الرجل: مفتاح شخصية عمرو، أنه كان يستعرض جوانب القوة) دائمًا ويوازن بين ما لدى أعدائه وأصحابه على حد سواء من (القدرة) موازنة طويلة؛ حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي، فقد كان رجلًا يتقن الحساب ويجيد المساومة يقف ساكتًا ويفكر طويلًا ثم يساوم على حرص، إنه يشترط دائمًا، هكذا كان موقفه في كل أمر.

وكان يحب الإمارة، ويحرص عليها حرصًا عظيمًا، وفي سبيل أن يتولى الإمارة كان مستعدًّا أن يفعل كل شيء، وحين استشار ابنيه عبد اللَّه ومحمد في متابعة علي بن أبي طالب أو معاوية بن أبي سفيان قال له ابنه عبد اللَّه: « إن كنت لا بد فاعلًا فإلى علي » فأجابه عمرو: إني إن أتيت عليًّا قال: إنما أنت رجل من المسلمين، وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره فأتى معاوية[1].

ومصدر هذه الرواية عند أستاذنا شيت خطاب كما أشار اليها: النجوم الزاهرة (١/ ١٣) حيث ذُكرت هنالك بلا سند أصلًا، وعمرو عنده رجل مصالح يتحرك مع القوي دائمًا ويحسب مصلحته من خلال هذا التحرك.

أما الكاتب الثاني فهو الأستاذ عبد الخالق سيد أبو رابية الذي قدم دراسة عظيمة عن كثير من جوانب شخصية عمرو وأبدع فيها، لكن تلقفه الرواية الضعيفة دون الوقوف عند السند جعلت شخصية عمرو، عنده شخصية انتهازية رخيصة، تستحل كل القيم لتصل إلى مأربها، نستمع إليه يقول: (عمرو يلصق دم عثمان بعنق الإمام علي: يروي الإمام الطبري: « ولما قدم عمرو بن العاص على معاوية أشار عليه أن يُلزِم عليًّا دم عثمان، وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى » ذلك أن عمرو بن العاص رأى أن يلصق جريمة قتل عثمان بعنق الإمام علي وهو على يقين من أن دم عثمان لا يعلق منه شيء في عنق رابع الراشدين، وأنه بريء من هذا الدم إلى يوم القيامة، ولكن عَمْرًا كان يرى أن إلصاق دم عثمان الهدر بعنق الخليفة الجديد هو الطريق الوحيد لإزالته عن موضع السلطان حتى إذا ما نجحت هذه الذريعة، كانت وسيلته لكسب معركة الطموح الشخصي.

فكل شيء عند عمرو مباح ما دام يصيب منهم مغنمًا، وما دام هو الوسيلة المثلى

---

(١) سفراء النبي ﷺ: للواء محمود شيت خطاب (ص ٥٠٨).

لتحقيق أهدافه ومراميه)[1].

وقد أعاد هذه الرواية إلى الطبري (٣/ ٢١٠) وعدتُ إلى تاريخ الطبري فاستعرضت الجزء الثالث والرابع والخامس فلم أجدها رواية فيه، لا صحيحة ولا مكذوبة. وإن كان قد ساق قبلها العديد من الروايات التي سبق أن ذكرنا بعضها. وبناء على هذه الأكاذيب صار عند عمرو كل شيء مباح ما دام يصيب منهم مغنمًا.

أما الكاتب الثالث فهو أقدم هؤلاء وهو الأستاذ عباس محمود العقاد الذي يتعالى عن النظر في الإسناد ويستخف بقارئه بحيث لا يصلح عنده لأن يفقه فيها، فيقول تعقيبًا على مسيرة عمرو إلى معاوية:

(فمعاوية لم يستقدم عَمْرًا لصداقة وصحبة قديمة، وعمرو لم يقدم على معاوية لشيء من ذلك، ولكنهما رجلان طموحان أريبان، مثلهما لا يعادي إن كان له في الصداقة نفع، ولا يصادق إذا لم يكن له في الصداقة أرب، فهما ملتقيان على تفاهم صريح بلسان المقال أو صريح بلسان الحال وقد عرفا ولا جدال على أي وجه يتفاهمان منذ كتب هذا وأجابه ذاك.

زعموا أن المساومة جرت بين الرجلين أول ما التقيا، فسأل معاوية عمرًا أن يتبعه، فأقبل عمرو يسأله: لماذا؟ للآخرة. فواللَّه ما معك آخرة، إنما هي الدنيا تتكالب عليها، فلا كانت حتى أكون شريكك فيها، وأخذ معاوية يذكر ممالأةَ عليٍّ عَلَى قتلِ عثمان، وأنه أظهر الفتنة وفرق الجماعة. فقال عمرو: إنه وإن كانت كذلك فإن المسلمين لا يعدلون به أحدًا، وليست لك مثل سابقته وقرابته، ثم عاد يساوم مرة أخرى، فسأل معاوية: ما لي إن شايعتك؟ قال معاوية: حكمك. قال عمرو: اجعل لي مصر طعمة ما دامت لي ولاية. فتلكأ معاوية ولم يجبه، وحذره عتبة بن أبي سفيان العاقبة، فحذرها معاوية، وقال له لائمًا: أما ترضى أن تشتري عمرو بمصر؟ إن صفت لك فليتك لا تغلب على الشام، فرضي بالصفقة واتفقا عليها.

وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار، وصحة هذه الكلمات، وما ثبت نقله ولم يثبت منه سنده ولا نصه، فالذي لا ريب فيه ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه أن الاتفاق بين الرجلين كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية، وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذي آل إلى كل منهما،

---

(١) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبي رابية (ص ٣١٦).

ولولاه لما كان بينهما اتفاق)[١].

فالحكم صادر على الرجلين (معاوية وعمر) بأنهما انتهازيان صاحبا مصالح ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه فهذا لا يعني أستاذنا العقاد بشيء.

أما شخصية عمرو الحقيقية التي شهدناها في الرواية الموثقة الصحيحة: أنه رجل مبادئ غَادَرَ المدينة حين عجز عن نصرة عثمان. وبكى عليه بكاء مُرًّا حين قتل.فقد كان من أقرب أصحابه وخلانه ومستشاريه، وهو الوحيد الذي كان يدخلُ في الشورى من غير ولاية، ومضى إلى معاوية - رضى اللَّه عنهما - ليتعاونا معًا على حرب قتلة عثمان والثأر للخليفة الشهيد .فمعاوية هو وليه وأقرب الناس إليه، ولو لم يطالب بدمه لرُجِم المسلمون بالحجارة من السماء كما يقول ابن عباس رضي الله عنه.

ففي الطبقات الكبرى لابن سعد:

(قال[٢]: أخبرنا عارم بن الفضل[٣] قال أخبرنا الصعق بن حزن[٤] قال: أخبرنا قتادة[٥]:

عن زهدم الجرمي[٦] قال: خطب ابن عباس فقال:

لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء)[٧].

(معاوية هو ولي عثمان وابن عمه، فقد روى الذهبي في تاريخه قال:

وقال عبد اللَّه بن شوذب [٨]: حدثني زهدم الجرمي قال: كنت فى سمر عند ابن عباس فقال: لأحدثنكم حديثًا: إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان، قلت لعلي: اعتزل هذا الأمر، فواللَّه لو كنت فى جحر لأتاك الناس حتى بايعوك. فعصاني، وايم اللَّه ليتآمرن عليه معاوية، ذلك بأن اللَّه يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[٩][الإسراء: ٣٣].

وكان انضمام عمرو رضي الله عنه إلى معاوية على الأرجح بعد وقعة الجمل، وحيث انقسم

---

(١) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد (ص ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) محمد بن سعد كاتب الواقدي: صدوق فاضل.

(٣) ثقة ثبت.

(٤) صدوق يهم.

(٥) ثقة ثبت.

(٦) ثقة.

(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٨٠).

(٨) صدوق عابد.

(٩) تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي عن الخلفاء الراشدين (ص ٤٨٠).

العالم الإسلامي بين علي أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان في أهل الشام. ومن انضم إليهم من الصحابة والتابعين؛ ومعالم شخصية عمرو محددة: فهو ذو بصر نفَّاذ بعيد الغور، يتريث، ويترقب عندما تكون الأمور غامضة والحوادث مشتجرة متكاثفة، ويمضي لهدفه بعد أن يستجلي الأمور التي يسبر غورها ويدرك مآلها قبل غيرها، وهنا يبرز دهاؤه وتكمن عبقريته. لقد رأى ريح الفتنة تهب عاتية، ورائحتها تفوح، فلخص الموقف بكلمة واحدة (والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله ﷻ بذل، ومن لم يستطع نصره فليهرب).

لقد رأى ببصره الثاقب أن لا قبل لأحد بهؤلاء العتاة، ولا طاقة، وأن الإقامة فى المدينة والأيدي مكثفة والنفوس حبيسة هو تلوث بهذه الفتنة ومسؤولية، والنجاء والهرب يمكن أن يخفف شيئًا من جسامة المسؤولية ورهبتها حيث لا يكون حل إلا النجاء[1].

لقد مضى يترقب الأمور ويتابعها وكأنه هو الذي رسمها لشدة وعيه بما يجري، فمن الحصار إلى القتل إلى الحرب، وكان مقتل عثمان كافيًا لأن يحرك كل غضبه على أولئك المجرمين السفاكين. وكان لا بد من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرأوا على حرم رسول الله وقتلوا خليفته على أعين الناس.

وأي غرابة أن يثور عمرو لعثمان؟ وإن كان هناك من يشكك فى هذا لموضوع فمداره على الروايات المكذوبة التي تصور عمرًا كل همه السلطة والحكم.

إن التنظيم الدقيق دائمًا هو الذي يغلب عامة الناس ودهماءهم، ولو كان فيهم العالم النحرير والبطل الشجاع (والعبقري الداهية) وأمر المدينة لم يكن إلا كذلك.

فأي انقلاب عسكري يأتي كما نشهد في أيامنا المعاصرة ويطيح بالحكم القائم وللحكم جنوده وجيوشه وخاصة فى العاصمة.

لقد كان العمل ضد الثوار في المدينة من المستحيل أن ينجح أو يحقق هدفه، فكان لا بد من العمل خارج المدينة، وليس عمرو بن العاص وحده هو الذي اقتنع بذلك، وليس

---

(١) لعل وصف عثمان ﷺ لهذا الوضع هو أدق الأوصاف، وذلك حين كتب إلى أمراء الأمصار يستنجدهم ويقول: (حتى أغاروا علينا فى جوار رسول اللـه ﷺ وحرمه وأرض الهجرة، وثابت إليهم الأعراب، فهم كالأحزاب أيام الأحزاب، أو من غزانا بأحد، إلا ما يظهرن فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق. فأتى الكتاب أهل الأمصار فخرجوا على الصعبة والذلول. فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري وبعث عبد اللـه بن سعد معاوية بن حديج السكوني وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو. الطبري (٤/ ٣٥٢).

وحده الذي عجز عن أن يفعل شيئًا باتجاه هذه الحركة المحتلة، إن طلحة والزبير وعائشة كانوا عاجزين عن فعل شيء في المدينة فاختاروا مكة ثم البصرة والكوفة، وإن عليًّا ﷺ كان عاجزًا عن فعل شيء في المدينة لحماية أمير المؤمنين عثمان. وكان تصوره عن طبيعة العمل ضد الثوار يتم من خلال مبايعة الولايات له، ثم تقديمها الأمداد له للتخلص من هؤلاء البغاة المتسلطين، فلم يكن غريبًا إذن أن يغادر عمرو المدينة حتى لا يلحقه ذل السكوت على حصار الخليفة الشهير، وليس غريبًا أن يمضي عمرو إلى معاوية، فمعاوية قادر ربما مكن اللَّه له من قلوب أهل الشام من أن يحرك الكتائب للثأر للخليفة المقتول، وقد تواردت الأنباء إليه بعزم معاوية على ذلك، فكان أن مضى إليه وانضم له. وهدفه بيِّن وغايته مرسومة، ندرك ذلك بقراءتنا لهذين البيتين اللذين تمثل بهما:

يا لهف نفسي على مالك ... وهل يصرف اللهف حفظ القدر

أنزع من الحر أودى بهم ... فأعذرهم أم بقومي سكر

إنه يرى أن اللهفة لا تجدي، وأن الغافلينِ كأنهم سكارى، ولا بد أن يفيقوا، وليحمل هو هذا اللواء وهكذا كان مجيء عمرو الشام هو الشيء المنطقي والمعقول. نظرًا لإدراكه أبعاد المؤامرة؛ ولأن معاوية وهو قريب عثمان في النسب غدا مركز التجمع بعد أن فر بنو أمية إليه، وغدت الشام بذلك مركز من يريد الثأر لعثمان ففيها قميصه، وأصابع نائلة زوجه، يرفعان على منبرهما، ويثيران حفائظ الناس، وأين يمضي عمرو بن العاص إن لم يمض إلى الشام؟

إن الذين قتلوا أمير المؤمنين عثمان ثوار أتوا من الكوفة والبصرة ومصر، إن الشام وحدها من بين الولايات المجاورة هي التي بقيت على الولاء التام لأمير المؤمنين عثمان، وكان وجود معاوية فيها وضبطه للأمر وقطعه دابر الفتنة يجعل كل الأنظار تتجه إليها، والنجاح السياسي العظيم الذي حققه معاوية فيها خلال ستة عشر عامًا قمين أن يربط الأمة هناك بقائد حكيم كمعاوية.

ومع ذلك فلم تكن عملية تحريك الناس لقتال قتلة عثمان بالأمر السهل؛ يفسر لنا هذا الرأي ما لجأ إليه معاوية ﷺ من وضع القميص على منبر دمشق مع أصابع نائلة فترة طويلة ليستثير الغضب ويصوب الأنظار إلى أنه ولي عثمان، ويدفع بالناس إلى قتال هؤلاء المارقين المعتدين، أما مضي طلحة والزبير - رضي اللَّه عنهما - إلى البصرة والكوفة فله جذور ليست قائمة عند عمرو بن العاص، فللزبير شيعته بالكوفة، ولطلحة

شيعته بالبصرة فهناك الأنصار والأمداد التي يمكن أن تحرك المؤيدين للقتال.

ولم يحتل هذان الصاحبان مركزهما من ولاية توليانها، إنما احتلاه من جهاد عريق في الإسلام، بجانب إقامة معينة هناك هيأت لهما هذا النفوذ وإن كُنَّا لا نستطيع أن ننفي أن دعاة الفتنة قد شجعوا هذه التبعيات للقادة من الصحابة ليفترق أمر المسلمين شيعًا أو أحزابًا.

أما عمرو، فإنه وإن كان واليًا على مصر، فقد عُزل عنها، وتولى بعده ولاة عديدون، إضافة إلى أن مصر قد تحرك الثوار منها لقتل أمير المؤمنين عثمان. إنه يمكن أن يفعل شيئًا هناك لو كان لديه سلطة رادعة أو ولاية معينة يستطيع أن يتصرف من خلالها، ولقد فعل الكثير الكثير حين استلم ولايتها[1].

فإذن ليست له أرضية يستند إليها كما كان لدى طلحة والزبير في الكوفة والبصرة.

وعاملٌ آخر يردُ ذكره كذلك، وهو الصداقة الوطيدة القائمة بين معاوية وعمرو ابن العاص، لقد أمضيا في جيش الشِّرك وفي صف واحد قرابة عشرين عامًا يواجهون دعوة الإسلام، ولقد عادوا إلى اللقاء ثانية تحت لواء الإسلام في الشام في كل ربوعها: في الأردن وفلسطين ودمشق[2]؛ فالمعرفة قائمة، وكل منهما يفقه الآخر، ويمكن أن يؤثر ويتأثر في الوقت نفسه بالآخر.

وبقي أمامنا السؤال الأخير: ألم يكن بإمكان عمرو بن العاص ﷺ أن يمضي إلى المدينة ويبايع عليًّا رضوان الله عليه؟

نعم، كان يمكنه ذلك ولكن ما يقال عن معاوية يقال عن عمر فلم يحضر عمرو بيعة علي، ولم ير شبه إجماع المهاجرين والأنصار عليه، وقد شهد جو المدينة المخنوق وسيطرة الثوار على المدينة بالقوة، وقتلهم خليفة المسلمين دون أن يجرؤ أحد على أن يقف في وجوههم، ما عدا الفدائيين من أبناء الصحابة الحسن والحسين ومحمد ابن طلحة، وعبد الله بن الزبير وغيرهم، وبلغه كيف دفن عثمان، وكيف نهب بيت المال، فلا يمكن أن يتصور أن بيعة علي ﷺ قد تمت بظروف طبيعية وسليمة.

وإذا كان علي ﷺ قد وجد عذرًا لطلحة والزبير حين ذكرا ببيعتهما مكرهين ولم يرُد

---

(١) إضافة إلى أن مصر قد استقرت بيد علي أمير المؤمنين، وكان واليها أحد قادة المسلمين وعباقرتهم دهاء وحكمة، وهو قيس بن سعد الأنصاري، فلا يمكن أن تتحرك ضد الثوار الذين انضووا في جيش علي ﷺ.

(٢) وكانا معًا من الهيئة الاستشارية الدائمة لعثمان ﷺ وهما واليان له وبعد عزل عمرو عن الولاية كذلك.

عليهما هذا الموقف وعَذَر سعد بن أبي وقاص، وعبد اللّه بن عمر عن عدم البيعة وهما في المدينة، فما بالك بالذي لم يحضر البيعة مطلقًا؟ وإنما تتوارد إليه الأخبار التي قد ينالها التهويل والمبالغة عن المدينة وأحوالها وسيطرة الثوار عليها)[1].

وكان ينتظر أن يتجلى الأمر عن كسرٍ لشوكة الثوار والانتقام منهم بعد معركة الجمل، لكن المعركة أسفرت عن سيطرة لهم أكثر، وبروز لهم في قيادات جيش علي كالأشتر النخعي وغيره، وهم الذين تمكنوا من إشعال نار الحرب بين قادة المسلمين. علي من جهة وطلحة والزبير وعائشة من جهة ثانية.

كل هذه العوامل تؤكد أن عَمْرًا ليس من المنطقي والمعقول أن يمضي إلى الشام ويطالب مع المطالبين بدم عثمان فقط، بل لم يكن أمامه إلا طريق واحد، وهو طريق الشام للثأر من قتلة الخليفة المظلوم.

وتعتمد الروايات الضعيفة حين نعالج متنها ونصها قضيةَ ولاية مصر لعمرو ابن العاص، واعتبارها أساس الصفقة بين الرجلين، وحين نعرض هذه القضية على محل النقد سرعان ما تتهاوى وتسقط. فأي معنىً للحديث عن ولاية مصر ومصر أصلًا ليست تحت سلطة معاوية؛ إنما هي تحت سلطة علي، وقد ضبطها قيس بن سعد ﷺ وأحسن معاملة أهلها. ودخلت في بيعة الخليفة الشرعي، فكيف تختلق هذه القضية وليس لها وجود على الساحة؟!

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فلم يكن معاوية ﷺ قد طرح نفسه خليفة للمسلمين يوم انضم عمرو إليه، وإنما كان يحمل لواء الثأر للخليفة الشهيد ومعه أهل الشام على ذلك. ولم يكن في تفكيره قضية امتداد في الأقطار الإسلامية قبل صفين والتحكيم. وليس في مخططه اغتصاب الأرض الإسلامية من حوزة علي ﷺ فلا معنىً أبدًا لطرح هذه القضية من عمرو بن العاص ﷺ على معاوية. ولكن الأمور تطورت بعد التحكيم وبدأ التخطيط والغزو للأقطار الإسلامية المجاورة، وضمها إلى بيعة أحد الرجلين. وكانت خطة معاوية الذكية في إفساد جو مصر على قيس بن سعد بطبيعة الحرب بين الرجلين.

وحين انتقض الأمر على خليفة قيس في مصر، محمد بن أبي بكر ﷺ كان لا بد من استغلال هذه الظروف الجديدة للسيطرة على مصر، فمن يا ترى المؤهل لهذه المهمة؟!

أليس من الطبيعي والمنطقي أن يرسل معاوية عِمرًا إلى مصر، بل هل يتصور أن

(١) من كتاب معاوية أبي سفيان للمؤلف (ص ١٨٥ - ١٩٠).

يمضي إليها أحد غيره: فهو فاتحها، وهو خبيرها، وهو واليها السابق، وهل تحتاج القضية إلى صفقة واشتراط حتى تُعطى لعمرو، أم هل يمضي معاوية لمصر نفسه، ويدع مركز الخلافة في دمشق؟ ومن هو أجدر وأخلق وأفضل من عمرو للمحافظة على هذا الثغر الهام وفتحه بعد انتقاض الأمر على والي علي الجديد فيها؟؟

كل هذه الأسئلة تؤكد أن المنطقي والطبيعي وتسلسُل الأحداث يقتضي أن يكون عمرو أمير مصر.

ويؤكد أن هذه القضية (الصفقة بين الرجلين على أن البيعة مقابل ولاية مصر) قضية مُلفَّقة مختلقة لا رصيد لها من الواقع، ولا سند لها من واقع الساحة، ولا تتناسب مع تسلسل الأحداث وتطورها فيما بعد، وهي تنفي بذلك فكرة الطمع في الدنيا التي أشعلت حولها الاتهامات والافتراءات من أجل مصر وولاية مصر.

* * *
* *
*

مأساة صفين

حين تعود إلى شيخ المؤرخين الإمام ابن جرير الطبري لنشهد معركة صفين عنده ونلقي مأساة الروايات عن مأساة صفين، فقد ساق لنا كل روايات وقعة صفين عن أبي مخنف إلا روايتين في بداية المعركة وفي نهايتها، واستغرقت هذه الروايات ثلاث عشرة صفحة من الجزء الرابع وستًّا وستين صفحة من الجزء الخامس، وسنضرب عن هذه الروايات جميعًا لأن أبا مخنف مرفوض جملة وتفصيلًا ننقل وصفه من كتب التراجم:

ففي كتاب الضعفاء والمتروكين:

(٢٨١٣) لوط بن يحيى، أبو مخنف وقال يحيى: ليس بثقة، وقال مُرة: ليس بشيء. وقال أبو حاتم الرازي: متروك الحديث. وقال الدارقطني: ضعيف[1].

وفي المغني في الضعفاء للحافظ الذهبي قال عنه:

(٥١٢١) لوط بن يحيى، أبو مخنف، ساقط، تركه أبو حاتم. وقال الدراقطني: ضعيف[2].

ولم يوثقه أحد ولم يرو له أحد في كتب الحديث المعتمدة الستة، ومسند الإمام أحمد، ولن نشغل أنفسنا بهذه الروايات جميعًا طالما أن أبا مخنف هو راويها، بل أكثرها مروية عنه بدون سند (قال أبو مخنف) ونعود إلى الروايتين اللتين ذكرهما ابن جرير عن غير أبي مخنف تتحدثان عن معركة صفين.

فالرواية الأولى مروية عن أبي بكر الهذلي، قال عنه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب. (أبو بكر الهذلي: أخباري متروك الحديث) وبقية رواة الحادثة أو ثلاثة منهم لم أجد لهم ذكرًا في كتب الحديث ولا في الضعفاء فندع هذه الرواية كذلك مع سابقتها.

وأما الرواية اليتيمة فهي عن الزهري فهي تتحدث عن نهاية المعركة.

وحين يختلط علينا الأمر من عند شيخ المؤرخين نعود ابتداء إلى حديث رسول الله ﷺ

(١) كتاب الضعفاء والمتروكين للحافظ ابن الجوزي (٢/ ٢٨).

(٢) المغني في الضعفاء للذهبي (٢/ ٥٣٥).

فهو الحكم الفصل في هذه الأمور، ونتعرف على طبيعة هاتين الفئتين، فئة علي وفئة معاوية، وعن هذه الفرقة بين المسلمين من رسول اللَّه - عليه الصلاة والسلام - ثم من الذي صَحَّ من الروايات التاريخية بعد ذلك.

١ - عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ :« **يكون في أمتي فرقتان فيخرج من بينهما مارقة يلي قتلهم أولاهم بالحق** »[١].

أما المارقة فهي الخارجة على الحق والهدى، وهي فئة الخوارج التي حدث عنها رسول اللَّه ﷺ في مكان آخر أحاديث مستفيضة صحيحة، وهي التي خرجت من جيش علي أمير المؤمنين عليه، وقاتلها علي - رضوان اللَّه عليه - أما الفرقتان فهم الفرقة التي بقيت مع علي - رضوان اللَّه عليه - بعد خروج الخوارج والفرقة التي على رأسها معاوية - رضوان اللَّه عليه - وهاتان الفرقتان يقصدان الحق، لكن ليس فيهما أحد يطلب دنيا ولا يسعى إليها. لكن أقرب هاتين الفرقتين للحق وأولاها به هي فرقة علي بعد أن غادرته الخوارج.

ورواية أخرى عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **تمرق مارقة في فرقة من الناس، فيلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق** »[٢].

وفي رواية ثالثة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في حديث (ذكر فيه قومًا يخرجون على فرقة مختلفة، يقتلهم أقرب الطائفتين من الحق)[٣].

فكلا الطائفتين قصدتا الحق، لكن طائفة علي ﷺ وبعد خروج الخوارج منها هي أقرب إلى الحق من الطائفة الثانية.

والرواية الرابعة عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **وتمرق مارقة عند فرقة من المسلمين، يقتلها أولى الطائفتين بالحق** »[٤].

وفي رواية خامسة لأبي سعيد **يخرجون على حين فرقة من الناس.**

وعلَّق شارح الحديث على قوله: « **على حين فرقة من الناس** » **فقال:**

(على حين فرقة) ضبطوه في الصحيحين بوجهين أحدهما: حين فرقة، أي وقت افتراق الناس أي افتراق يقع بين المسلمين وهو الافتراق الذي كان بين علي ومعاوية -

---

(١) مسلم (٢/ ٧٤٦)، (ح ١٥١- ١٠٦٥).
(٢) مسلم (٢/ ٧٤٤)، (ح ١٥٢ - ١٠٦٥).
(٣) مسلم (٢/ ٧٤٤)، (ح ١٥٣).
(٤) مسلم (٢/ ٧٤٤)، (ح ١٥٠).

رضي اللَّه عنهما - والثاني خير فرقة أي أفضل الفرقتين، والأول أكثر وأشهر ويؤيده الرواية التي بعد هذه يخرجون في فرقة من الناس، فإنه بضم الفاء بلا خلاف ومعناه ظاهر)[١].

ويتابع أبو سعيد ﷺ بهذه الرواية (قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول اللَّه ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معهم، فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول اللَّه ﷺ)[٢].

٢ - وسننقل صورة معركة صفين من تاريخ خليفة بن خياط[٣]؛ إذ هو أقدم من الطبري وروايته بعيدة عن التحيز لأحد:

(حدثنا أبو الحسن عن مسلمة بن محارب عن حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية قال: فصل معاوية من الشام إلى صفين في سبعين ألفًا، قال: وسألت زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، قلت: في كم كان علي؟ قال: في مائة ألف.

أبو الحسن عن حباب بن موسى عن جابر عن أبي الحمر قال:

كان علي في تسعين ألفًا، وسبق معاوية فنزل على الفرات، وجاء علي وأصحابه فمنعوا الماء، فبعث علي الأشعث بن قيس في ألفين، وعلى الماء لمعاوية أبو الأعور السلمي في خمسة آلاف، فاقتتلوا قتالًا شديدًا وغلب الأشعث على الماء.

حدثنا أبو نعيم قال حدثنا موسى بن قيس قال سمعت حجر بن عنبس قال:

حيل بين علي وبين الماء فقال: أرسلوا إلى الأشعث بن قيس فأزالهم عن الماء، ثم التقى الناس لسبع خلون من صفر يوم الأربعاء سنة سبع وثلاثين، ولواء علي مع هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص. وفي ميسرة علي ربيعة وعليهم ابن عباس، وفي ميمنة علي أهل اليمن عليهم الأشعث بن قيس، وعلي في القلب في مضر الكوفة والبصرة.

---

(١) مسلم (٧٤٥) هامش. وهو من شرح النووي على صحيح مسلم.

(٢) مسلم (٢/ ٧٤٥)، (ح ١٤٨ - ١٠٦٤)، وقصده بالرجل هو علامة هؤلاء القوم أنه معهم كما في النص « آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدر در » مسلم (٢/ ٧٤٤/ ١٤٨).

(٣) خليفة بن خياط يقول عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ: الحافظ الإمام أبو عمرو العصفري البصيري المعروف بشباب، محدث نسابة أخباري، علامة، صنف التاريخ والطبقات وسمع من ابن عيينة ويزيد بن زريع وغندر، وعنه البخاري وبقي بن مخلد وعبدان وأبو يعلي وطائفة. قال ابن عدي: مستقيم الحديث صدوق من متيقظي الرواة، قال مطين: مات سنة أربعين ومائتين - رحمه اللَّـه - يقع لنا حديثه عاليًا من مسند أبي يعلى الموصلي) تذكرة الحفاظ (٢/ ٤٣٦)، (ت ٤٤٢).

ولواء معاوية مع المخارق بن الصباح الكلاعي، وفي ميسرة معاوية مضر عليها ذو الكلاع وفي ميمنته أهل اليمن ومعاوية في الشهباء أصحاب البيض والدروع.

أبو غسان قال: نا عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن جعفر أظنه ابن أبي المغيرة عن عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه قال:

شهدنا مع علي ثمانمائة ممن حضروا بيعة الرضوان، فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت، ثم رفعت المصاحف ودعوا إلى الصلح، وافترقوا على سبعين ألف قتيل؛ خمسة وأربعين ألفًا من أهل الشام وخمسة وعشرين ألفًا من أهل العراق ويقال: على ستين ألفًا.

حدثنا عبد الأعلى بن هشام عن محمد بن سيرين قال: افترقوا عن سبعين ألفًا يعدون بالقصب، وكان ممن قُتل مع معاوية ذو الكلاع وحوشب، وعبيد اللَّه بن عمر بن الخطاب، وعمرو بن الحضرمي وحابس بن سعد الطائي، وعروة بن داود الدمشقي في جماعة كثيرة.

وقُتل من أصحاب علي: عمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعبد اللَّه ابن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعبد اللَّه بن كعب المرادي، وعبد الرحمن بن كلدة الجمحي في جماعة كثيرة.

قال: ونا يحيى بن أرقم عن يزيد بن عبد العزيز عن أبيه عن حبيب أبي ثابت قال: كانت راية علي مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيل عمار بن ياسر، وعلى الرجالة عبد اللَّه بن بديل، وعلى الميمنة الأشعث بن قيس، وعلى الميسرة عبد اللَّه بن عباس، وعلى رجالة الميمنة سليمان بن رصد الخزاعي، وعلى رجالة الميسرة الحرث بن مرة العبدي، والقلب مضر الكوفة والبصرة، والميمنة اليمن، والميسرة ربيعة، وعلى قريش وأسد كنانة عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب، وعلى كندة حجر بن عدي، وعلى أهل البصرة حضين بن المنذر، وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس، وعلى خزاعة عمرو بن الحمق، وعلى بكر الكوفة نعيم بن هبيرة، وعلى سعد والرباب جارية بن قدامة، وعلى البجيلة رفاعة بن شداد، وعلى أهل الكوفة رويم بن الحارث، وعلى عمرو وحنظلة البصرة أعين بن ضبيعة المجاشعي، وعلى قضاعة وطيئ عدي بن حاتم، وعلى لهازم الكوفة عبد اللَّه بن جمل العجلي.

لواء معاوية مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وعلى الخيل

عبيد اللَّه بن عمر بن الخطاب، وعلى الرجالة مسلم بن عقبة المري، وعلى الميمنة عبد اللَّه ابن عمرو بن العاص وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة الفهري، وأهل حمص الميمنة ذو الكلاع، وعلى أهل قنسرين: على الميمنة زفر بن الحارث، وعلى أهل الأردن الميسرة أبو الأعور السلمي، وعلى أهل فلسطين الميسرة مسلمة بن مخلد، وعلى رجالة أهل دمشق بسر بن أرطاة، وعلى رجالة أهل حمص حوشب ذو ظليم، وعلى رجالة أهل قنسرين طريف من الحسحاس الهلالي، وعلى رجالة أهل الأردن عبد الرحمن القيسي، وعلى رجاله أهل فلسطين الحارث بن عبد الأزدي، وعلى رجالة الميمنة كلهم حابس ابن سعد الطائي، وعلى رجال الميسرة بلال بن أبي هريرة الدوسي، وعلى قيس دمشق حسان بن مجدل الكلبي، وعلى قضاعة مصر عباد بن يزيد الكلبي.

حدثنا أبو غسان[١] قال: نا عبد السلام بن حرب[٢] عن يزيد بن عبد الرحمن[٣] عن جعفر أظنه ابن أبي المغيرة[٤] عن عبد اللَّه بن عبد الرحمن[٥] بن أبزى عن أبيه قال: شهدنا مع علي ثمانمائة ممن بايع بيعة الرضوان، قتل منا ثلاثة وستون منهم عمار بن ياسر)[٦].

فشل محاولات الصلح:

هذه الحرب التي أفنت سبعين ألفًا من المسلمين ألم يكن فيها أصوات للمصالحة قبل وقوعها؟ نعم لقد كان ذلك ومضى شهر المحرم كله من عام ثمانية وثلاثين في محاولة للمصالحة بين الطرفين، لكن قتلة عثمان وأدوا هذه المصالحة بتبنيهم العصبية لعلي ﷺ فأثاروا حفيظة جرير بن عبد اللَّه البجلي ﷺ فانضم إلى معاوية وأثاروا حفيظة معاوية فعكروا جو المصالحة والتفاهم، وكان زعماء هذه الفتنة الأشتر النخعي وشبث ابن ربعي[٧]، وجرت محاولة هادئة قام بها القراء بين الطرفين.

(وحدثني يعلى بن عبيد[٨]: ثنا أبي[٩] قال: قال أبو مسلم الخولاني[١٠]، وجماعة

---

(١) ثقة.
(٢) ثقة حافظ.
(٣) صدوق وربما وهم.
(٤) صدوق يهم.
(٥) مقبول.
(٦) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢١٨ - ٢٢٣) مع بعض الاختصار.
(٧) شبث بن ربعي كان على رأس الخوارج الذين خرجوا على علي وقال: أنا أول من حرر الحروبة. انظر تاريخ خليفة (ص ٢١٧).
(٨) ثقة من كبار التاسعة.
(٩) صدوق من السادسة.
(١٠) ثقة عابد من كبار الثانية.

لمعاوية: أنت تنازع عليًّا! وهل أنت مثله؟ فقال: لا واللَّه إني لأعلم أن عليًّا أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا؟ وأنا ابن عمه، وإنما أطلب بدمه فأتوا عليًّا فقولوا له: فليدفع إلي قتلة عثمان، وأسلم له فأتوا عليًّا فكلموه بذلك، فلم يدفعهم إليه)[١].

إذا اختلف الناس فابن سمية على الحق:

لقد كان كان عمار بن ياسر ﷺ في جيش علي في صفين. وقد ناهز التسعين يقول من يصفه في المعركة: عن عبد اللَّه بن سلمة قال: رأيت عمارًا يوم صفين شيخًا كبيرًا آدم طوالًا، أخذ الراية بيده ويده ترعد فقال:

(والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول اللَّه ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة،والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفت أن مصلحينا على الحق وهم على الضلالة)[٢].

لقد كان عمار على بينة كاملة أنه على الحق حتى ولو هزمهم الفريق الآخر، وبلغ بهم سعفات هجر، وكان دقيقًا ﷺ في تحليله، فقال: لعلمت أن مصلحينا، ولم يقل: لعلمت أنَّا. فهو يعلم أن في جيش علي ﷺ مدخولين ومفسدين ومدسوسين فحدد الوصف الدقيق بقوله مصلحينا.

وعمار في الفتنة علم ويدور معه الحق حيث دار.

(فعن سيار بن أبي الحكم قال قالت بنو عبس لحذيفة: إن أمير المؤمنين عثمان قتل فما تأمرنا؟ قال: آمركم أن تلزموا عمارًا قالوا: إن عمارًا لا يفارق عليًّا قال: إن الحسد هو أهل الجسد، وإنما ينفركم من عمار قربه من علي، فواللَّه لعلي أفضل من عمار بعد ما بين التراب والسحاب، وإن عمارًا لمن الأحباب وهو يعلم أنهم إن لزموا عمارًا كان مع علي)[٣].

وعن عبد اللَّه - يعني ابن مسعود - عن النبي ﷺ قال: « **إذا اختلف الناس فابن سمية مع الحق** »[٤].

---

(١) تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي عهد الخلفاء الراشدين (ص ٥٤٠).

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٤٢، ٢٤٣)، وقال فيه: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح، عبد اللـه بن سلمة وهو ثقة.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٤٣)، وقال فيه: رواه الطبراني ورجاله ثقات: إلا أني لم أعرف الرجل المبهم.

(٤) المصدر السابق (ص ٢٤٣) وقال فيه: رواه الطبراني وفيه صرار بن صرو وهو ضعيف.

لقد كانت ثقة عمار ﷺ أنه على الحق أكثر من ثقة علي ﷺ بهذا القتال، فعلي - رضوان اللَّه عليه - يقاتل مجتهدًا وليس معه نص في ذلك إلا النصوص العامة في قتال الخارجين على الإمام.

(فعن قيس بن عباد قال: كنا مع علي، فكان إذا شهد مشهدًا أو رقي على أكمة أو هبط واديًا قال: سبحان اللَّه وصدق اللَّه ورسوله، فقلت لرجل من بني يشكر: انطلق بنا إلى أمير المؤمنين حتى نسأله عن قوله صدق اللَّه ورسوله، فانطلقنا إليه فقلنا: يا أمير المؤمنين! رأيناك إذا شهدت مشهدًا وهبطت واديًا أو أشرفت على أكمة قلت: صدق اللَّه ورسوله، فهل عهد إليك رسول اللَّه ﷺ شيئًا في ذلك؟ قال: فأعرَض عنا وألححنا فلما رأى ذلك قال:

واللَّه ما عهد إلي رسول اللَّه ﷺ عهدًا إلا شيئًا عهده إلى الناس، ولكن الناس وقعوا في عثمان فقتلوه. فكان غيري فيه أسوأ حالًا أو فعلًا مني، ثم إني رأيت أني أحقهم بهذا الأمر فوثبت عليه، فاللَّه أعلم أصبنا أم أخطأنا)[١].

(ورواية أبي داود أبعد عن الزلل وهي عن قيس بن عباد نفسه ﷺ. قال أبو داود في سننه: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم الهذلي حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن عن قيس ابن عباد قال: قلت لعلي ﷺ أخبرنا من مسيرك هذا، أعهد عهده إليك رسول ﷺ أم رأي رأيته؟ قال: ما عهد إلي رسول اللَّه ﷺ شيئًا، ولكنه رأي رأيته)[٢].

تقتلك الفئة الباغية:

لكن هذا الأمر لم يكن من الوضوح والنصاعة عند صحابة رسول اللَّه ﷺ كما هو عند عمار. والثابت والواضح عندهم هو أن عمار تقتله الفئة الباغية، فهم معه حيث يمضي، يقاتلون من قاتل.

فرواية البخاري (عن عكرمة قال: قال لي ابن عباس ولابنه. انطلقا إلى أبي سعيد واسمعا من حديثه، فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى على ذكر بناء المسجد فقال: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه رسول اللَّه ﷺ فجعل ينفض التراب عنه ويقول: « **ويح عمار، تقتله الفئة الباغية،**

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٤٤، ٢٤٥) وقال فيه: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو سيئ الحفظ وقد يحسن حديثه. ولعل كلمة (وثبت) من سوء حفظه وأصلها (فبويعت).

(٢) سنن أبي داود كتاب السنة، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة (٤/ ٣٠٠).

ويدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار »[١].

وله طريق آخر عند البخاري عن عكرمة نفسه[٢].

وأما رواية مسلم فعن أم سلمة - رضي اللَّه عنها -: أن رسول اللَّه ﷺ قال لعمار: « **تقتلك الفئة الباغية** »، وهناك طريقان آخران عن أم مسلمة - رضي اللَّه عنها - كذلك، وفي إحداهما : « **تقتل عمار الفئةُ الباغية** »[٣]؛ فالحديث ثابت صحيح عن النبي ﷺ عند أهل العلم بالحديث، فقد رواه كذلك أحمد والترمذي وغيرهما.

مقتل عمار في صفِّين:

وهذه صورة منتزعة من صفين وعمار بن ياسر ﷺ فيها تبرز قتله. (عن أبي عبد الرحمن السلمي قال:

شهدنا مع علي صفينَ، وقد وكلنا بفرسه رجلين، فكان إذا كانت من الرجل غفلة غمز علي فرسه، فإذا هو في عسكر القوم، فيرجع إلينا وقد خضب سيفه دمًا، ويقول: يا أصحابي اعذروني اعذروني، فكنا إذا تواعدنا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، فكان عمار بن ياسر يكون علمًا لأصحاب محمد ﷺ لا يسلك عمار واديًا من أودية صفين إلا تبعه أصحاب محمد ﷺ فانتهينا إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وقد ركز الراية. فقال: (أي عمار): مالك يا هاشم أعوَرًا وجُبْنًا؟ لا خير في أعور لا يغشى الناس فنزع هاشم الراية وهو يقول:

أعـور يـبـغي أهـلـه مـحـلا

قـد عـالـج الـحـيـاة حتى مـلا

لا بـد أن يـفـل أو يـفـلا

فقال له عمار: أقبل فإن الجنة تحت الأبارقة، وقد تزين الحور العين، مع محمد وحزبه في الرفيق الأعلى، فما رجعا حتى قتلا، وكنا إذا تواعدنا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء ودخل هؤلاء في عسكر هؤلاء فنظرت فإذا أربعة يسيرون؛ معاوية وأبو الأعور السلمي وعمرو بن العاص وابنه، فقلت في نفسي: إن أخذت عن يميني اثنين لم أسمع كلامهما، فاخترت لنفسي أن أضرب فرسي فأفرق بينهم، ففعلت فجعلت اثنين عن يميني، واثنين

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١/ ١٢١) باب التعاون في بناء المسجد.
(٢) كتاب الجهاد، باب مسح الغبار عن الرأس في سبيل اللّـه.
(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٦،)، (٢٩١٦،ح ٧٢ - ٧٣).

عن يساري، فجعلت أصيخ بسمعي أحيانًا إلى معاوية وأبي الأعور، وأحيانًا إلى عمرو ابن العاص وعبد اللَّه بن عمرو، فسمعت عبد اللَّه بن عمرو يقول لأبيه:

يا أبت، قد قتلنا هذا الرجل، وقد قال فيه رسول اللَّه ﷺ ما قال؟ وقال: وأي رجل؟ قال: عمار بن ياسر. أما[1] سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول يوم بناء المسجد، ونحن نحمل لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين لبنتين فمرّ على رسول اللَّه ﷺ فقال: « **يا أبا اليقظان أتحمل لبنتين وأنت ترحض**[2] **أما إنه ستقتلك الفئة الباغية، وأنت من أهل الجنة** ». فقال معاوية: اسكت فواللَّه ما تزال تدحض[3] في بولك أنحن قتلناه، وإنما قتله من جاؤوا به فألقوه بين رماحنا قال: فتنادوا في عسكر معاوية. إنما قتل عمارًا من جاء به)[4].

والملاحظ أن ثقة معاوية ﷺ بعد مقتل عمار لم تتزعزع ولا يمكن أن يخطر بباله لحظة أن المطالبة بدم عثمان الخليفة الشهيد المظلوم بغي وعدوان، ولذلك وجد في هذا التأويل ركنًا شديدًا يأوي إليه، إنما قتله الذين أخرجوه، وألقوه بين رماحنا.

أما عمرو ﷺ فقد كانت الصدمة عنيفة جدًّا عليه ولم يقبل بهذا التأويل، وتسارعت الأحداث أمامه لتزعزع كيانه كله.

فعن محمد بن عمرو بن حزم قال: لما قتل عمار بن ياسر ﷺ دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال: قتل عمار، وسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:« **تقتلك الفئة الباغية** » فقال عمرو بن العاص يرجِّع، يقول: إنا للَّه وإنا إليه راجعون، حتى دخل على معاوية فقال معاوية: مه؟! فقال: قتل عمار فقال معاوية: قد قتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية!! فقال له معاوية: دحضت في بولك، أنحن قتلناه؟! إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا - أو قال بين سيوفنا)[5].

فقد فزع عمرو وارتاع لمقتل عمار ﷺ وهو في جيش علي، ورفض تأويل معاوية ﷺ: إنما قتله الذين أخرجوه ومعاوية لم يسمع ذلك من رسول اللَّه ﷺ، أما عمرو فقد سمع ذلك

---

(١) لعلها محرفة عن أنا. لأن عمرًا لم يكن أسلم عند الهجرة.

(٢) ترحض: ينزل العرق غزيرًا منك من الحمى ومعناه: يا عمار تحمل لبنتين وأنت محموم ينفصد العرق منك.

(٣) تدحض: تعثر وتنزل.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٤٠)، وقال فيه: رواه الطبراني وأحمد باختصار، وأبو يعلى بنحو الطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات.

(٥) رواه الإمام أحمد (٤/ ١٩٩) وفيها: (فقام عمرو فزعًا يرجع). ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في تلخيصه.

(فعن عمرو بن دينار عن رجل من أهل مصر يحدث أن عمرو بن العاص أهدى إلى ناس هدايا، ففضل عمار بن ياسر، فقيل، فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية)[١].

فعبد اللَّه بن عمرو، وعمارة بن حزم، وعمرو بن العاص، وخلائق من الصحابة[٢] سمعوا هذا من رسول اللَّه ﷺ فقد كان هذا في ملأ عام حتى إن بعض الروايات تذكر (وقد كان ذو الكلاع سمع قول عمرو بن العاص يقول، قال رسول اللَّه ﷺ لعمار ابن ياسر: « **تقتلك الفئة الباغية** » فكان ذو الكلاع يقول لعمرو: ويحك ما هذا يا عمرو؟ فيقول له عمرو: إنه سيرجع إلينا)[٣].

إن عمرو بن العاص يعرف تمامًا فضل عمار ويعرف حب رسول اللَّه ﷺ له.

(فعن نوفل بن أبي عقرب قال: جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعًا شديدًا فلما رأى ذلك ابنه عبد اللَّه بن عمرو قال: يا أبا عبد اللَّه ما هذا الجزع، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يدنيك ويستعملك قال: أي بني، قد كان ذلك، وسأخبرك عن ذلك، إني واللَّه ما أدرى أحبًّا ذلك أم تألفًا يتألفني، ولكني أشهد على رجلين أنه قد فارق الدنيا وهو يحبهما: ابن سمية وابن أم عبد)[٤] لقد كان يراه أفضل من نفسه.

(فعن الحسن قال، قال عمرو بن العاص: ما كنا نرى أن رسول اللَّه ﷺ مات يوم مات وهو يحب رجلًا فيدخله اللَّه النار قيل: قد كان يستعملك، فقال: اللَّه أعلم، ولكنه كان يحب رجلًا قالوا: من هو؟ قال: عمار بن ياسر)[٥].

وعمرو بن العاص يعلم أن قاتل عمار في النار (فعن عبد اللَّه بن عمرو أن رجلين أتيا عمرو بن العاص يختصمان في دم عمار وسلبه، فقال لعمرو: خليا عنه. فإني سمعت

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي وقال فيه: رواه أحمد، وفيه راو لم يسم، وبقية رجاله رجال الصحيح ورواه أبو يعلى باختصار (الهدية).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري. « روى حديث « تقتل عمار الفئة الباغية » جماعة من الصحابة منهم أبو قتادة وأم سلمة عند مسلم وأبو هريرة عند الترمذي، وعبد اللَّه بن عمرو، وعثمان بن عفان وحذيفة وأبو أيوب وأبو رافع وخزيمة بن ثابت ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو اليسر وعمار نفسه، وكلها عند الطبراني وغيره، وغالب طرقها صحيحة أو حسنة، وفيه عن جماعة آخرين يطول عدهم وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة، وفضيلة ظاهرة لعلي ورد على النواصب الزاعمين أن عليًّا لم يكن مصيبًا في حروبه ».

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٢٩٣).

(٤) رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال: مات رسول اللَّه ﷺ وهو عنهما راض ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٥) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٢٦٤) وقال فيه: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وزاد فيه: ذاك قتيلكم يوم صفين قال: قد واللَّه قتلناه.

رسول اللَّه ﷺ يقول: قاتل عمار وسالبه في النار)[1].

(وعن أبي غادية قال: قتل عمار، فأخبر عمرو بن العاص فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إن قاتل عمار وسالبه في النار** » فقيل لعمرو: فإنك هو ذاك تقاتله. قال: إنما قال: قاتله وسالبه)[2].

لقد دفع استشهاد عمار ﷺ خزيمة بن ثابت إلى الموت والاستشهاد مع علي - رضوان اللَّه عليه - فعن محمد بن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: ما زال جدي كافًا سلاحه حتى قتل عمار بصفين. فسل سيفه فقاتل حتى قتل. قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **تقتله الفئة الباغية** »[3].

ودفع استشهاد عمار ﷺ إلى ندم عبد اللَّه بن عمر.

(فعن ابن عمر قال: لم أجدني آسى على شيء أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي)[4]، ودفع استشهاد عمار ﷺ إلى ندم عمرو بن العاص بعد فزعه وجزعه واستعاد صورة عمار كاملة، وبدا له بجلاء أنه مع الفئة الباغية.

فقد أورد البلاذري - رحمه اللَّه - في كتابه أنساب الأشراف هذه الحادثة عن ابن خزيمة بن ثابت قال:

(شهد خزيمة بن ثابت الجمل، فلم يسل سيفًا، وشهد صفين فقال: لا أقاتل حتى يُقتل عمار، فأنظر من يقتله، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **تقتله الفئة الباغية** » فلما قُتل عمار قال خزيمة: قد أبانت لي الضلالة، ثم اقترب فقاتل حتى قُتل، وكان الذي قتل عمارًا أبو الغادية المري طعنه برمح فسقط، وكان يومئذ يقاتل في محفة فقتل وهو ابن أربع وتسعين سنة، فلما وقع انكب عليه رجل آخر فاحتز رأسه فاختصما فيه، فقال عمرو: واللَّه ما يختصمان إلا في النار. فقال معاوية: أتقول هذا لقوم بذلوا أنفسهم دوننا؟! فقال عمرو: هو واللَّه ذاك، وإنك لتعلمه، ولوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة)[5].

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٢٩٧) وقال فيه: رواه الطبراني، وقد صرح ليث في التحديث ورجاله رجال الصحيح.

(٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٤٤) وقال فيه: رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد ثقات.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٤٢) وقال فيه: رواه الطبراني وفيه أبو معشر وهو لين.

(٤) المصدر السابق (ص ٢٤٢). وقال فيه: رواه الطبراني بأسانيد وأحدها رجاله رجال الصحيح.

(٥) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١٧٠).

ونتيجة هذا الندم راح يفكر كيف ينهي هذه الحرب التي أكلت أشراف العرب والمسلمين، وهو فيها مع الفئة الباغية، وهو مع الفئة التي قتلت عمار بن ياسر فتفتق ذهنه العبقري عن فكرة رفع المصاحف والاحتكام إلى كتاب اللَّه، فهو العاصم الوحيد الذي يوقف نزيف الدم وينهي المعركة.

روى الإمام أحمد عن حبيب بن أبي ثابت قال:

أتيت أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي بالنهروان فيم استجابوا له، وفيم فارقوه وفيم استحل قتالهم؟ قال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتلٍّ فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى علي بمصحف فادعه إلى كتاب اللَّه، فإنه لن يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب اللَّه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣] فقال علي: نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب اللَّه)[(١)].

أما الرواية المكذوبة المحرفة فهذا نصها:

(رجع الحديث إلى أبي مخنف، فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف في ذلك الهلاك قال معاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعًا ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال: نعم، قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبل فتكون فرقة تقع بينهم، وإن قالوا: بل نقبل ما فيها رفعنا هذا القتال عنا، وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين، فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا كتاب اللَّه ﷻ بيننا وبينكم. من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟ فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت قالوا: نجيب إلى كتاب اللَّه ﷻ ونغيب إليه)[(٢)].

وسند هذه الرواية: أبو مخنف التالف الساقط الهالك الشيعي المحترق أبو مخنف، وأبو جناب الكلبي ضعفوه لكثرة تدليسه وعمارة بن ربيعة الجرمي مجهول.

فكيف تقف هذه الرواية المتهافتة أمام الرواية السابقة الموثوقة الصحيحة.

وترد رواية ثانية لا تقل صحة عن الرواية السابقة وهي كما أوردها الطبري:

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٨٥)، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) تاريخ الملوك والأمم للطبري (٥/ ٤٨).

حدثني عبد اللّٰه بن أحمد، قال: حدثني أبي قال حدثني سليمان بن يونس بن يزيد عن الزهري قال[١]:

(قال صعصعة بن صوحان يوم صفين حين رأى الناس يتبارون: ألا اسمعوا واعقلوا، تعلمن واللّٰه لئن ظهر علي ليكونن مثل أبي بكر وعمر - رضي اللّٰه عنهما - وإن ظهر معاوية لا يقر لقائل بقول حق.

قال الزهري: فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم ودعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراقين، فعند ذلك حكموا الحكمين، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري، واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فتفرق أهل صفين حين حكم الحكمان، فاشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن، ويخفضا ما خفض القرآن، وأن يختار لأمة محمد ﷺ، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك واجتمعا من العام المقبل بأذرح[٢].

فلما انصرف علي خالفت الحروبة وخرجت، وكان ذلك أول ما ظهرت فآذنوه بالحرب وردوا عليه: لا حكم إلا للّٰه سبحانه وقالوا: إنه حكم بني آدم في حكم اللّٰه ﷻ وقاتلوا)[٣].

التحكيم:

ونتابع هذه الرواية المقبولة الهامة عند الطبري والتي تنقل لنا وقائع التحكيم: (.. وقاتلوا فلما اجتمع الحكمان بأذرح وافاهم المغيرة بن شعبة[٤] فيمن حضر من الناس،

(١) ذكر ابن جرير الطبري هذا السند بالصيغة المذكورة (٥/ ٧٥) ثم عاد فذكره مره ثانية بقوله: وذلك ما حدثنا عنه عبد اللّٰـه بن يونس عن الزهري، ونلاحظ تباينًا بين السندين رغم أن الإشارة إليهما واحدة، فلا بد من خطأ في واحد من السندين، وأرجح أن الخطأ في الرواية الأولى من حيث سندها لما يلي:
أ - في الأولى عبد اللّٰـه بن أحمد عن أبيه، وفي الثانية عبد اللّٰـه عن يونس بحذف سليمان.
ب - في الأولى قال: حدثنا سليمان بن يونس بن يزيد عن الزهري، وسليمان هذا لم يرو عن الزهري، إنما الذي روى عنه أبوه يونس بن يزيد، ويستقيم السندان معًا عندما يكونان على الشكل التالي:« حدثنا عبد اللّٰـه بن أحمد قال: حدثني أبي أحمد بن عبد اللّٰـه قال: حدثني يونس بن يزيد عن الزهري، فينتهي الإشكال بحذف كلمة سليمان الذي لم يرد عن الزهري، ورجال السند كما وردوا لدي ابن حجر في التقريب: أحمد بن عبد اللّٰـه بن يونس ثقة حافظ من كبار العاشرة، يونس بن يزيد: ثقة إلا أن في روايته عن الزهري وهمًا قليلًا من كبار السابعة الزهري، الإمام الحافظ المتفق على جلالته، فرجال الحديث جميعًا ثقات.
(٢) أذرح: المعتقد أنها درعا الحالية في سورية.
(٣) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٥/ ٥٧).
(٤) كان المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب الكبار، وكان معتزلًا الفتنة، وكما روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري =

فأرسل الحكمان إلى عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب، وعبد اللَّه بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير، ووافى معاوية بأهل الشام، وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة ابن شعبة لرجال من ذوي الرأي من قريش: أترون أحدًا من الناس برأي يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يتفرقان؟ قالوا: لا نرى أحدا يعلم ذلك، قال: فواللَّه إني لأظن أني سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأراجعهما، فدخل على عمرو بن العاص وبدأ به فقال: يا أبا عبد اللَّه أخبرني عما أسألك عنه كيف ترانا نحن معشر المعتزلة، فإنّا قد شككنا في هذا الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال. ورأينا أن نستأني ونتثبت حتى تجتمع الأمة! قال: أراكم معشر المعتزلة خلفَ الأبرار وأمام الفجار، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك حتى دخل على أبي موسى، فقال له مثل ما قال لعمرو، فقال أبو موسى. أراكم أثبت الناس رأيًا، فيكم بقية المسلمين، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، فلقي الذين قال لهم ما قال من ذوي الرأي - أي من قريش - فقال: لا يجتمع هذان على أمر واحد.

فلما اجتمع الحكمان وتكلما قال عمرو بن العاص: يا أبا موسى أرأيت أول ما نقضي به من الحق أن نقضي لأهل الوفاء بوفائهم وأهل الغدر بغدرهم، قال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: ألست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وفوا وقدموا للموعد الذي واعدناهم إياه؟ قال: بلى. قال عمرو: اكتبها، فكتبها أبو موسى، قال عمرو: يا أبا موسى أأنت على أن نسمي رجلًا يلي أمر هذه الأمة؟ فسمه لي، فإن أقدر على أن أتابعك فَلكَ عليَّ أن أتابعك، وإلا فلي عليك أن تتابعني: قال أبو موسى: أسمي لك عبد اللَّه بن عمر وكان ابن عمر فيمن اعتزل، قال عمرو: فإني أسمي لك معاوية بن أبي سفيان، فلم يبرحا مجلسهما حتى استبَّا ثم خرجا إلى الناس، فقال أبو موسى: إني وجدت مثل عمرو مثل الذين قال اللَّه ﷻ: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾ فلما سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيها الناس إني وجدت مثل أبي موسى كمثل الذي قال ﷻ: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ﴾ وكتب كل واحد منهما مثله الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار.

= قال: كان يعد في العرب حين ثارت الفتن الأولى خمسة يقال لهم: ذووا رأيٍ العرب ومكيدتهم يعد من قريش. معاوية وعمرو، ويعد من الأنصار قيس بن سعد، ويعد من المهاجرين عبد اللـه بن بديل بن ورقاء الخزاعي، ويعد من ثقيف المغيرة بن شعبة، فكان مع علي منهم رجلان؛ قيس بن سعد وعبد اللّـه بن بديل، وكان المغيرة معتزلًا بالطائف وأرضها. فلما حكم الحكمان فاجتمعا بأذرح وافاهما المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس.

قال ابن شهاب: فقام معاوية عشية في الناس فأثنى على اللَّه ﷻ ثناءه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فمن كان متكلمًا في الأمر فليطلع لنا قرنه، قال ابن عمر: فأطلقت حبوتي فأردت أن أقول قولًا يتكلم فيه رجال قاتلوا أباك على الإسلام، ثم خشيت أن أقول كلمة تفرق الجماعة أو يسفك فيها دم، أو أحمل فيها على غير رأي، فكان ما وعد اللَّه ﷻ في الجنان أحب إلي من ذلك...)[1].

والملاحظ أن في هذه الرواية سقطا في تاريخ الطبري عند قوله: فأردت أن أقول قولًا يتكلم فيه رجال قاتلوا أباك على الإسلام.

وبالعودة إلى صحيح البخاري نجد النص على الصيغة التالية:

(أخبرني ابن طاوس عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر قال: دخلت على حفصة ونوساتها تنطف[2] قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين، فلم يجعل لي من الأمر شيء فقالت: الْحَق فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون باحتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية قال: من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فنحن أحق به منه، ومن أبيه، قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته؟ قال عبد اللَّه: فحللت حبوتي وهممت أن أقول: أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم، وتحمل عني غير ذلك، فذكرت ما أعد اللَّه في الجنان، قال حبيب: حفظت وعصمت)[3].

أما رواية عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر فهي كما يلي أوردها الذهبي (فقلت:قد كان من الناس ما ترين، ولم يجعل لي من الأمر شيء قالت: فالحق بهم فإنهم ينتظرونك، وإني أخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب قال: فلما تفرق الحكمان خطب معاوية فقال: من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع إلي قرنه، فنحن أحق بذلك منه ومن أبيه، يعرض بابن عمر).

ولا بأس أن نستعرض رواية عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري فهي أوثق الروايات ورجالها رجال الصحيح:

(فلما حكم الحكمان فاجتمعا بأذرح وافاهما المغيرة بن شعبة، وأرسل الحكمان

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (٥/ ٥٨، ٥٩).

(٢) أي ضفائرها تقطر ماءً.

(٣) البخاري (٢/ ٥/ ١٤١) باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب.

إلى عبد اللَّه بن عمر وإلى عبد اللَّه بن الزبير، ووافى رجال كثير من قريش، ووافى معاوية من أهل الشام، ووافى أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، وهما الحكمان، وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي رأي أهل قريش: هل ترون أحدًا يقدر على أن يستطيع أن يعلم أيجتمع هذان الحكمان، أم لا؟ فقالوا له: لا نرى أن أحدًا يعلم ذلك. قال: فواللَّه إني لأظنني سأعلمه منهما حين أخلو بهما فأراجعهما، فدخل على عمرو بن العاص فبدأ به فقال: يا أبا عبد اللَّه أخبرني عما أسألك عنه: كيف ترانا معشر المعتزلة، فإنا قد شككنا في هذا الأمر الذي تبين لكم في هذا القتال، ورأينا نستأني ونتثبت حتى تجتمع الأمة على رجل، فندخل في صالح ما دخلت به الأمة، فقال عمرو: أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبي موسى الأشعري فخلا به فقال له نحوًا مما قال لعمرو، فقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأيًا، وأرى فيكم بقية المسلمين، فانصرف فلم يسأله عن غير ذلك، قال: فلقي أصحابه الذين قال لهم من ذوي رأي قريش قال:

أقسم لكم لا يجتمع هذان على رأي واحد، وليدعون كل واحد منهما إلى رأيه، فلما اجتمع الحكمان وتكلما خاليين فقال عمرو: يا أبا موسى، أرأيت أول ما نقضي به في الحق. علينا أن نقضي لأهل الوفاء بالوفاء ولأهل الغدر بالغدر، فقال أبو موسى: وما ذاك؟ قال ألست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وافوا للموعد الذي وعدناهم إياه! فقال: نعم. فقال: فاكتبها، فكتبها أبو موسى فقال عمرو: قد أخلصت أنا وأنت على أن نسمي رجلًا يلي أمر هذه الأمة، فسمِّ يا أبا موسى فإني أقدر على أن أبايعك على أن تبايعني، فقال أبو موسى: أسمِّي عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب وكان عبد اللَّه بن عمر فيمن اعتزل. فقال عمرو: فأنا أسمِّي لك معاوية بن أبي سفيان فلم يبرحا من مجلسهما ذلك حتى اختلفا واستبَّا، ثم خرجا إلى الناس ثم قال أبو موسى: يا أيها الناس إني وجدت مثل عمرو بن العاص مثل الذي قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ حتى بلغ: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] وقال عمرو بن العاص: يا أيها الناس إني وجدت مثل أبي موسى مثل الذي قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ...﴾ حتى بلغ ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥ - ٦].

ثم كتب كل واحد منهما بالمثل الذي ضرب لصاحبه من الأمصار)[١].

لا شك أن هناك فجوة في الرواية فلا يعقل أن يترك أمر هذه الأمة لاجتماع واحد، وانتهى الأمر، وهذه قطعة أخرى تسد هذه الفجوة.

(أبو المليح الرقي عن ميمون بن مهران قال: دس معاوية عَمْرًا، وهو يريد أن يعلم ما في نفس ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن! ما يمنعك أن تخرج يبايعك الناس، أنت صاحب رسول اللَّه ﷺ وابن أمير المؤمنين، وأنت أحق بهذه الأمر، فقال: قد اجتمع الناس كلهم على ما تقول؟ قال: نعم إلا نفر يسير قال:

لو لم يبق إلا ثلاثة أعلاج بهجر لم يكن لي بها حاجة. قال: فعلم أنه لا يريد القتال. فقال: هل لك أن تبايع من قد كان الناس أن يجتمعوا عليه ويكتب لك من الأرضين والأموال؟ قال: أفٍّ لك! اخرج من عندي إن ديني ليس بدينارکم ولا درهمكم)[٢].

والفجوة التي تسدها هذه الرواية الصحيحة: هي أن عبد اللَّه بن عمر - رضي اللَّه عنهما - قد استشير في الخلافة ورفض بقوله:« لو لم يبق إلا ثلاثة أعلاج بهجر لم يكن لي فيها حاجة » لا نعرف في الحقيقة علام اختلف الحكمان حتى استبا، خاصة وقد بدأت المباحثات بروح مرنة ونفسية رضية حريصة على الصلح وإصلاح ذات البين، وفي الرواية فجوة هي الحديث الذي تناقشا فيه حتى وصلا إلى السباب، وظني أن السباب الذي حصل بينهما هو هذا المثال المضروب من كتاب اللَّه.

وقد تبرز الطبيعة البشرية في لحظة حنق زائد وغضب جارف فيتصور أبو موسى أن يكون عمرو قد نكث بعهده وتخلى عن مسؤولياته حين أصر على نوعيات معينة لتحكم الأمة، ويتصور عمرو أن أبا موسى لم يدرك مدى مسؤولية حمله للقرآن والاحتكام إليه.

إن الجو المشحون بالتوتر قاد إلى هذه الآراء التي صدرت عن كل صحابي في صاحبه ويحسن أن يكون واضحًا في ذهننا أن ما وراء النص يوحي بالقصد المباشر منه؛ فعمرو ﷺ يرى في أبي موسى القارئ المتقن لكتاب اللَّه، لا تحسن العمل بما فيه، فيصبر

---

(١) المصنف لعبد الرزاق (٥/ ٤٦٥).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٢٢٨)، قال المحقق فيه: وتمامه: وإني أرجو أن أخرج من الدنيا ويدي بيضاء نقية. أخرجه ابن سعد (٤/ ١٦٤) من طريق عبد اللّـه بن جعفر الرّقي عن أبي المليح عن ميمون بن مهران، وهذا سند صحيح.

على رجل من المعتزلة للفتنة من جماعته وهو لا يريد الخلافة، وأبو موسى ﷺ يرى في عمرو أنه تخلى عن مسؤوليته الإسلامية حين يصر على معاوية وخلافته وهو أحد الخصمين المتنازعين.

وقد لخص ابن كثير في البداية والنهاية ما اقتنع به من خلال الروايات فقال: (فلما اجتمع الحكمان تراوحا على المصلحة للمسلمين، ونظرا في تقدير أمور ثم اتفقا على أن يعزلا عليًّا ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على الأصلح لهما منهما أو من غيرهما، وقد أشار أبو موسى بتولية عبد اللّه بن عمر بن الخطاب فقال له عمرو: فولِّ ابني عبد اللّه فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد، قال أبو موسى: إنك قد غمست ابنك في الفتن معك وهو مع ذلك رجل صدق)[١].

أما خليفة بن خياط الحافظ المحدث الثقة فيقول: (وفيها اجتمع الحكمان أبو موسى الأشعري من قِبل علي، وعمرو بن العاص من قِبل معاوية بدومة الجندل في شهر رمضان، ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريبٌ، فبعث عليٌّ ابنَ عباس ولم يحضر، وحضر معاوية فلم يتفق الحكمان على شيء[٢]، وافترق الناس وبايع أهل الشام بالخلافة لمعاوية في ذي القعدة سنة سبع وثلاثين)[٣].

الرواية الساقطة التي شوهت تاريخ عمرو:

وكأني بأبي مخنف أتى إلى الرواية الصحيحة فيجد فيها ثغرة فيضيف بها ما يناسب هواه، فيخلط لنا السم بالدسم، ويشوِّه هذه الشخصيات العظيمة بما يتناسب مع هذا الهوى.

(قال أبو مخنف: حدثني أبو جناب الكلبي أن عمرًا وأبا موسى حين التقيا بدومة الجندل أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام ويقول: إنك صاحب رسول اللّه ﷺ وأنت أسنّ مني: فتكلم وأتكلم، فكان عمرو قد عوَّد أبا موسى أن يقدِّمه في كل شيء، وإنما

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٢٩٤).

(٢) أي في سنة سبع وثلاثين، ويؤكد هذا المعنى ما رواه الحافظ الذهبي في السير (٣/ ٩٨) عن زكريا بن عيسى عن الزهري عن عمرو بن العاص قال لأبي موسى لما رأى كثرة مخالفته له: هل أنت مطيعي؟ فإن هذا الأمر لا يصلح أن تنفرد به حتى نحضره رهطًا من قريش نستشيرهم، فإنهم أعلم بقومهم قال: نعم، ما رأيت، فبعثا إلى خمسة: ابن عمرو وأبي جهم بن أبي حذيفة، وابن الزبير، وجبير بن مطعم، وعبد الرحمن بن أبي الحارث بن هشام فقدموا عليهم.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٦).

اغتره بذلك كله أن يقدمه، فيبدأ يخلع علي. قال: فنظر في أمرهما وما اجتمعا عليه، فأراده عمرو على معاوية، فأبى وأراده على ابنه فأبى، وأراد أبو موسى عمرًا على عبد اللَّه بن عمر فأبى عليه، فقال له عمرو: خبرني ما رأيك؟ قال: رأيي أن تخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا، فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت، فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون فقال: يا أبا موسى: أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق، فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر أن نرجو أن يصلح اللَّه ﷻ به أمر هذه الأمة، فقال عمرو: صدق وبر، يا أبا موسى تقدم فتكلم، فتقدم أبو موسى ليتكلم فقال له ابن عباس: ويحك! واللَّه إني لأظنه قد خدعك، إن كنتما اتفقتما على أمر فقدِّمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تكلم أنت بعده، فإن عَمْرًا رجل غادر لا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك، وكان أبو موسى مغفلًا فقال له: إنا قد اتفقنا، فتقدم أبو موسى فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع عليًّا ومعاوية، أحبوا هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وإني قد خلعت عليًّا ومعاوية، فاستقلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلًا، ثم تنحى.

وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه، فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال:

إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإني ولي عثمان، والطالب بدمه، أحق الناس بمقامه، فقال أبو موسى: مالك لا وفقك اللَّه، غدرت وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. قال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا، وحمل شريح بن هانئ على عمرو فعنَّفه بالسوط، وقام الناس فحجزوا بينهم، وكان شريح بعد ذلك يقول: ما ندمت على شيء ندامتي ألا أكون ضربته بالسيف آتيًا به الدهر ما أتى. والتمس أهلُ الشام أبا موسى فركب راحلته والتحق بمكة.

قال ابن عباس: قبح اللَّه رأي أبي موسى! حذرته وأمرته بالرأي فما عقل، فكان أبو موسى يقول: حذرني ابن عباس غدرة الفاسق، ولكني اطمأننت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئًا على نصيحة الأمة، ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية، وسلموا عليه

بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي، وكان إذا صلى الغداة يقنت فيقول: اللهم العن معاوية وعمرًا وأبا الأعور السلمي وحبيبًا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد، فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت لعن عليًّا وابن عباس والأشتر وحسنًا وحسينًا وزعم الواقدي أن اجتماع الحكمين كان في شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة)[1].

وهكذا استطاع أبو مخنف بهذه الرواية أن يطعن بأكبر فريقٍ من الصحابة بمعاوية وعلي ومن لعنهم علي، وإثبات اللعن بين الفريقين وبأبي موسى الأشعري الذي قدموه غافلًا أحمقًا، وبعمرو بن العاص الذي قدموه غادرًا فاجرًا فاسقًا، ومضت هذه الحادثة برواية أبي مخنف هي الصورة التاريخية عن المذكورين.

رواية صحيحة أخرى يرويها لنا عمرو:

وقد أورد هذه الرواية الحافظ الدارقطني بسنده عن الحصين بن المنذر، والحافظ ابن عساكر بسنده عن وهب بن جرير[2] نا الأسود بن شيبان[3] عن عبد اللّه بن مضارب[4] عن حضين بن المنذر[5] قال: (لما عزل معاوية عمرو بن العاص عن مصر ضرب (أي الحضين بن المنذر) فسطاطة قريبًا من فسطاط معاوية.. فبلغ نبأه معاوية قال: فأرسل إليه فقال: إنه قد بلغني عن عمرو بعض ما أكره، فأته فاسأله عن الأمر الذي اجتمع هو وأبو موسى فيه كيف صنعا، قال:

فأتيته فقلت: أخبرني عن الأمر الذي اجتمعتما فيه أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس ولا واللّه ما كان ما قالوا، ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذي توفي رسول اللّه ﷺ وهو عنهم راض، قال: فقلت: أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية؟ فقال: إن يُستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما ما استغنى أمر اللّه عنكما، قال: فكانت هذه هي

(١) رواه أبو مخنف الذي قال فيه علماء الجرح والتعديل: هالك، وساقط، متروك، شيعي محترق عن أبي جناب الكلبي الذي ضعفوه لكثرة تدليسه، ولا حاجة له هنا للتدليس في هذه الرواية، فهو لم يروها لنا عن أحد، فهي متقطعة ومجهولة السند في بعضها، ومكذوبة ساقطة في بعضها الآخر.

(٢) وهب بن جرير: ثقة من التاسعة.

(٣) الأسود بن شيبان: ثقة عابد من السادسة.

(٤) عبد اللّـه بن مضارب: مقبول من السادسة.

(٥) حضين بن المنذر: ثقة من الثانية ومن أمراء علي بصفين.

التي تخيل منها معاوية نفسه..)[١].

فعمرو ﷺ يدرك أن الناس قد تقولوا كذبًا في هذا الموضوع، ونشرت افتراءات في أجواء الصراع المحمومة، فيقسم عمرو على أن ما يتقوله الناس غير صحيح (قد قال الناس ولا واللَّه ما كان ما قالوا) ثم يصحح هذه المفاهيم المغلوطة بإصرار أبي موسى ﷺ على أن يكون الأمر في أهل الشورى الذين توفي رسول اللَّه ﷺ هو عنهم راضٍ، ولم يبق منهم آنذاك إلا ثلاثة: علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وسعيد ابن زيد ورابعهم عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب الذي حضر دون أن يكون شريكًا في الأمر، وتؤكد الروايات الأخرى الصحيحة أنه رشح عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب مع هؤلاء الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راض، أما مقام عمرو ومعاوية فهو مقام الإمرة، لا مقام الخلافة فقد يستعين الخليفة فيهما وقد لا يستعين.

عمرو بن العاص أميرٌ لمصر للمرة الثانية:

تطورت الأوضاع بسرعة في مصر، ولسنا بصدد تطورها إلا بالمقدار الذي يعطينا صورة عنها عندما استلم عمرو بن العاص إمرتها.

ونعود إلى أوثق الروايات وأصحها عن رجال الصحيحين البخاري ومسلم. عبد الرازق عن معمر عن الزهري قال:

(.. وكانت مصر في سلطان علي بن أبي طالب فأمّر عليها قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، وكان حامل راية الأنصار مع رسول اللَّه ﷺ يوم بدر، وكان قيس من ذوي الرأي من الناس إلا ما غلب عليه من أمر الفتنة، فكان معاوية وعمرو بن العاص جاهدين على إخراجه من مصر ويغلبان على مصر. وكان قد امتنع منهما بالدهاء والمكيدة فلم يقدرا على أن يفتحا مصر حتى كاد معاوية قيس بن سعد من قِبل علي.

قال: فكان معاوية يحدث رجالًا من ذوي الرأي من قريش فيقول: ما ابتدعت من مكيدة قط أعجب عندي من مكيدة كايدت بها قيس بن سعد من قِبل علي وهو بالعراق، حين امتنع مني قيس، فقلت لأهل الشام: لا تسبُّوا قيسًا ولا تدعوني إلى غزوه، فإن قيسًا لنا شيعة، تأتينا كتبه ونصيحته، ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا[٢] يجري عليهم أعطيتهم وأرزقهم ويؤمن سربهم، ويحسن إلى كل راغب قدم

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٥٢١).

(٢) اسم قرية في مصر قرب الإسكندرية، بها اعتصم الرافضون من جند مصر بيعة علي.

عليه فلا نستنكره في نصيحته.

قال معاوية: وطفقت أكتب بذلك إلى شيعتي من أهل العراق، فسمع بذلك مني جواسيس عليٍّ الذين عندي من أهل العراق، فلما بلغ ذلك عليًّا ونمَاه إليه عبد اللَّه ابن جعفر ومحمد بن أبي بكر الصديق، اتَّهم قيس بن سعد وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا، وأهل خربتا يومئذ عشرة آلاف، فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إلى علي: أنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وذووا الحفاظ فيهم، وقد رضوا مني بأن أؤمن من سربهم وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية، فلست مكابدهم بأمر أهون علي وعليك من أن تفعل ذلك بهم اليوم. ولو دعوتهم إلى قتالي كانوا قرباء، هم أسود العرب وفيهم بسر بن أرطأة، ومسلمة بن مخلد، ومعاوية بن حديج الخولاني، فذرني ورأيي فيهم وأنا أعلم بما أداري منهم، فأبى عليه علي إلا قاتلهم. فأبى قيس أن يقاتلهم. وكتب قيس إلى علي: إن كنت تتهمني فاعزلني عن عملك، وأرسل إليه غيري. فأرسل الأشتر أميرًا على مصر حتى إذا بلغ القلزم وشرب بالقلزم شربة من عسل فكان فيها حتفه، فبلغ ذلك معاوية وعمرو بن العاص فقال عمرو بن العاص: إن للَّه جنودًا من عسل، فلما بلغت عليًّا وفاة الأشتر بعث محمد بن أبي بكر أميرًا على مصر، فلما حُدِّث ابن قيس ابن سعد قادمًا أميرًا عليه، تلقاه فخلا به وناجاه وقال: إنك قد جئت من عند امرئ لا رأي له في الحرب، وإنه ليس عزلكم إياي بمانعي أن أنصح لكم، وإني من أمركم على بصيرة، وإني أدلك على الذي كنت أكايد به معاوية وعمرو بن العاص وأهل خربتا فكايدهم به، فاستغشه محمد بن أبي بكر وخالفه في كل شيء أمره به، فلما قدم محمد بن أبي بكر مصر خرج قيس قبل المدينة فأخافه مروان والأسود بن أبي البختري حتى إذا خاف أن يؤخذ ويقتل ركب راحلته فظهر إلى علي.

فكتب معاوية إلى مروان والأسود بن أبي البختري يتغيظ عليهما ويقول:

أمددتما عليًّا بقيس بن سعد وبرأيه ومكايدته، فواللَّه لو أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان أغيظ لي من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي.

فقدم قيس بن سعد إلى علي، فلما بان له الحديث وجاءه قتل محمد بن أبي بكر عرف علي أن قيس بن سعد كان يداري منهم أمورًا عظامًا من المكايدة التي قصر عنها رأي علي ورأي من كان يؤازره على عزل قيس. فأطاع علي قيسًا في الأمر كله، وجعله على مقدمة أهل العراق ومن كان بأذربيجان وأرضها، وعلى شُرطة الخمسين الذين انتدبوا

للموت، وبايعه أربعون ألفًا كانوا بايعوا عليًّا على الموت فلم يزل قيس بن سعد يسد بمكيدته ذلك الثغر حتى قُتل علي)[١].

لكن كيف وصل عمرو بن العاص إلى مصر؟ فلا نجد تفصيل ذلك إلا عند أبي مخنف وبمقدار ما يبتدئ حديثه في البداية موضوعيًّا مقنعًا بمقدار ما ينتهي منه بالطعن بأكابر الصحابة على لسان بعضهم، فسنضرب عن روايته التي ليس بين يدينا تفصيل إلا فيها، ونأخذ برواية مقتضبه للواقدي، ومع أن الواقدي متروك، لكننا نضطر هنا للأخذ بروايته، والتي لا تنال من الصحابة، ولا تتعارض مع المنهج الذي انطلقنا منه حين يُتساهل بالرواة فيما لا يدخِل في الفتنة ولا ينال من الصحابة:

(وأما الواقدي فإنه ذكر لي أن سويد بن عبد العزيز حدثه عن ثابت بن عجلان عن القاسم بن عبد الرحمن أن عمرو بن العاص خرج في أربعة آلاف، فيهم معاوية بن حديج السكوني وأبو الأعور السلمي فالتقوا بالمسناة، فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى قتل كنانة ابن بشر التجيبي ولم يجد محمد بن أبي بكر مقاتلًا فانهزم فاختبأ عند جبلة بن مسروق، فدل عليه معاوية بن حديج فأحاط به فخرج محمد فقاتل حتى قُتل)[٢].

قال الواقدي: وكانت المسناة في صفر سنة ثمان وثلاثين، وأذرح في شعبان منها في عام واحد[٣].

وأما مقتل محمد بن أبي بكر - رحمه اللَّه -. فبين يدينا حديث قريب من الصحة يشير إلى رغبة عمرو بن العاص ﷺ في استنقاذ حياة محمد بن أبي بكر قبل قتله، لكنه لم يجد مناصًا من قتله.

وحدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة عن عمرو بن دينار، عن رجل من أهل مصر يحدث عن عمرو بن العاص أنه قال: أسر محمد بن أبي بكر فأبى، فجعل عمرو يسأله يعجبه أن يدعي أمانًا قال: فقال عمرو. فقال رسول اللَّه ﷺ **« يجير على المسلمين أدناهم »**[٤].

---

(١) المصنف لعبد الرزاق (٥/ ٤٥٨) وما بعدها، ومغازي الزهري، تحقيق سهيل زكاره (ص ١٥٥ - ١٥٧) بسند صحيح (عبد الرزاق عن معمر عن الزهري).

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٥/ ١٠٥).

(٣) انفرد الواقدي باعتباره التحكيم سنة ثمان وثلاثين، بينما بقية الرواة على أنه سنة سبع وثلاثين.

(٤) مسند أحمد (٤/ ١٩٧) وقال الهيثمي فيه: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، وفيه رجل لم يسم، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وقال عمرو بن دينار: أتي عمرو بن العاص بمحمد بن أبي بكر أسيرًا فقال: (هل معك عقد من أحد؟ قال: لا، فأمر به فقُتل)[١].

وأما رواية إحراقه في جوف حمار فهي من روايات الساقط التالف الهالك أبي مخنف إذ يقول:(فغضب معاوية (بن حديج السكوني) فقدمه فقتله، ثم ألقاه في جيفة حمار، ثم أحرقه بالنار)[٢]، وسنده: حدثني محمد بن يوسف بن ثابت الأنصاري عن شيخ من أهل المدينة).

ففي الرواية شخص مقبول هو محمد بن يوسف، والراوي عنه متروك تالف، والراوي الأول مجهول.

الخوارج ومحاولة قتل عمرو الثلاثة:

مضت الأعوام الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون والأربعون من الهجرة ليس فيها إلا الحرب، وقتال الخوارج، ومحاولات التمكين لمعاوية وعلي - رضوان اللَّه عليهما - على الأرض الإسلامية، ولم يكن علي ﷺ أوثق في شيء من قتاله الخوارج، فهو يقاتلهم بنص، وشهد له بذلك العديد من قادة الصحابة وكبرائهم.

(أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخويصرة - وهو رجل من تميم - فقال: يا رسول اللَّه اعدل. قال: « **ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل** »فقال عمر: يا رسول اللَّه! ائذن لي فأضرب عنقه، فقال: « **دعه، فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن ولا يجاوز تراقيهم**[٣]**، يمرقون**[٤] **من الدين كما يمرق السهم من الرمية؟ ينظر إلى نصله**[٥]**، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه**[٦] **فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه**[٧] **وهو قدمه فلا يوجد فيه شيء، وينظر إلى قذذه**[٨] **فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث الدم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة - أو مثل البضعة تدردر - ويخرجون على حين فرقة من الناس** »قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول اللَّه ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس حتى أتي به

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (ص ٦٠١).
(٢) تاريخ الطبري (٥/ ١٠٥).
(٣) تراقيهم: حناجرهم.
(٤) يمرقون: يخرجون.
(٥) نصله: حديدته.
(٦) رصافه: أوتاره.
(٧) نضيه: عوده.
(٨) قذذه: ريشه.

حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته)[(١)].

وهؤلاء الخوارج الذين قال فيهم رسول اللَّه ﷺ :« **فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة** »[(٢)]، هؤلاء اجتمعوا لقتل قادة الأمة.

وها هي خيوط مؤامرتهم يقدمها لنا الطبري بسنده قال:

حدثني موسى بن عثمان بن عبد الرحمن المسروقي قال: حدثنا عبد الرحمن الحراني أبو عبد الرحمن قال: أخبرنا إسماعيل بن راشد قال:

كان من حديث ابن ملجم وأصحابه أن ابن ملجم والبرك بن عبد اللَّه وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا فتذاكروا الناس، وعابوا على ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئًا، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في اللَّه لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم لإخواننا. فقال ابن ملجم: أن أكفيكم علي بن أبي طالب، وكان من أهل مصر. وقال البرك بن عبد اللَّه: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا وتواثقوا باللَّه لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثبَ كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب.

وذكر أن محمد بن الحنفية قال: كنت واللَّه لأصلي تلك الليلة التي ضرب فيها علي في المسجد الأعظم رجال كثير من أهل المصر يصلون قريبًا من السدة... إذا خرج علي لصلاة الغداة فجعل ينادي: أيها الناس الصلاة الصلاة! فما أدري أخرج من السدة فتكلم بهذه الكلمات أم لا! فنظرت إلى بريق وسمعت: الحكم للَّه يا علي لا لك ولا لأصحابك فرأيت سيفًا، ثم رأيت ثانيًا، ثم سمعت عليًّا يقول: لا يفوتنكم الرجل، وشد الناس عليه من كل جانب، فدخلت فيمن دخل من الناس، فسمعت عليًّا يقول: النفس النفس إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي.

---

(١) البخاري (٢/ ٤/ ٢٤٣) وفي كتاب الخلافة الراشدة من فتح الباري (ص ٥٣٤) أنه ورد في الفتح (٦/ ٧١٥، ٤٣٣)، (٧/ ٦٦٥)، (٨/ ١١٨، ٧١٨)، (١٠/ ٥٦٧)، (١٣/ ٤٢٦، ٤٤٥)، وأحصى رواة الحديث فقال: فهؤلاء خمسة وعشرون صحابيًّا من الصحابة، والطرق إلى كثرتهم متعددة.

(٢) البخاري (٢/ ٦/ ٢٤٤).

وأما البرك بن عبد اللَّه فإنه في تلك الليلة التي ضرب فيها علي قعد لمعاوية، فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه سيفه فوقع السيف في أليته فأخذه فقال: إن عندي خبرًا أبشرك به، فإن أخبرتك فنافعي ذلك عندك؟ قال: نعم قال: إن أخًا لي قتل عليًّا في مثل هذه الليلة. قال: فلعله لم يقدرعلى ذلك! قال: بلى، إن عليًّا يخرج ليس معه من يحرسه، فأمر به معاوية فقتل وبعث معاوية إلى الساعدي - وكان طبيبًا - فلما نظر إليه قال: اختر إحدى خصلتين إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة، فقال معاوية: فأما النار فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد فإن في يزيد وعبد اللَّه ما تقر به عيني، فسقاه تلك الشربة فبرأ.

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج، وكان اشتكى بطنه، فأمر خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته وكان من بني عامر بن لؤي فخرج ليصلي، فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله، فأخذه الناس فانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالإمرة فقال: من هذا؟ قالوا: عمرو. قال: فمن قتلت؟ قالوا: خارجة بن حذافة قال:

أما واللَّه يا فاسق، ما ظننته غيرك. فقال عمرو:

أردتني وأراد اللَّه خارجة، فقدمه عمرو فقتله)[١].

ليس بين يدينا أي خبر عن الولاية الثالثة لعمرو لمصر، لكن الروايات تذكر أنه حكمها أربع سنين ونيف، حيث كانت وفاة محمد بن أبي بكر - رحمه اللَّه - عام ثمانية وثلاثين، وكانت وفاة عمرو بن العاص عام ثلاثة وأربعين وكل ما يستنتج خلال هذه الفترة أن الأمور كانت منضبطة غاية الانضباط، ولم يعد في مصر مرتع للفتنة أو الخلاف بعد توليه لها ﷺ. فقد كان بحكمته وعبقريته يديرها ويتعامل مع الناس بالرفق وحسن الخلق بعد أن كانت مصر هي مرتعًا وخيمًا للفتنة، ومنها انطلقت أول كتائبها إلى المدينة، ولم تنته إلا بقتل الخليفة الراشد، وقد عرفت مصر الاستقرار أيام قيس بن سعد ﷺ في حسن تعامله ودهائه مع العثمانيين عنده، وعادت فاضطربت أيام محمد ابن أبي بكر، واشتعلت بها الحروب والفتن إلى أن عاد إليها راعيها الأول، وفاتحها، ومؤسس دولة الإسلام فيها عمرو بن العاص، فأسلمت له القيادة، وغدت في نعيمها

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري (٥/ ١٤٣ - ١٤٩) مقتطفات.

وعيشها أربع سنين ونيف إلى أن كانت خاتمة البطل العظيم ووفاته عام ثلاثة وأربعين.

بعد أن استعرضنا في هذا الفصل أوثق الروايات عن انضمام عمرو لمعاوية في المطالبة بدم عثمان، وأوثقها في رفع المصاحف، وأوثقها في التحكيم بقي علينا أن نذكر أن هذه الروايات هي المتسقة والمنسجمة مع شخص عمرو بن العاص ﷺ الذي أحب أن يختم حياته بالجهاد للثأر للخليفة القتيل.

فالروايات الساقطة التي تجعله عبدًا للدنيا والجاه، يكذب ويخدع من أجل السلطة ومن أجل الوصول إلى ولاية مصر، نقول: إن هذه الروايات تتناسب مع شاب مغامر في مقتبل العمر لم يذق لذة الدنيا ولم ينل شيئًا من جاهها ونعيمها في العشرين أو الثلاثين من عمره، فهل غاب عن أذهان هؤلاء الكذابين الساقطين من الرواة أن عمرًا ﷺ قد ناهز الثمانين يوم أن انضم إلى معاوية، وأنه تجاوز الخامسة والثمانين من عمره يوم حكم في مصير أمة محمد ﷺ، وقد نال من جاه الدنيا وأمجادها ما لم ينله أحد بطولةً وافتخارًا وإدارةً وسلطانًا، أما المال فقد كان ماله في الوهط يحلم به الملوك والحكام فماله وللدنيا؟ قال ابن الأعرابي: الوهط: قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج كانت لعمرو ابن العاص، وقد غرس عمرو فيها ألف ألف عود كرم على ألف ألف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم، فحج سليمان بن عبد الملك فمر بالوهط فقال: أحب أن أنظر إليه، فلما رآه قال: هذا أكرم مال وأحسنه ما رأيت لأحد مثله)[1] فأي دنيا يريدها عمرو وقد دانت الدنيا له؟.

* * *

* *

*

(١) سير أعلام النبلاء، هامش (٣/ ٦٤).

عمرو بن العاص إلى جوار ربِّه

ها هو عمرو ﷺ يشرف على التسعين من عمره، فيحس أن أجله قد اقترب، وأن نهاية المطاف له مع هذه الحياة قد دنت، فنُقل لنا فيض من أحاسيسه ومشاعره في هذه المرحلة وفي اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ (فقد مرض مرض موته سنة ثلاث وأربعين الهجرية فاشتد عليه المرض)[١].

(قال معاوية بن خديج: أتيت عمرو بن العاص وقد ثقل. فقلت: كيف تجدك؟ فقال:

أذوب ولا أتوب وأجد نجوي[٢] أكثر من رُزئي[٣] فما بقاء الكبير على هذا؟)[٤].

يربي وهو على فراش الموت:

فهو يريد ﷺ أن يربي أهله والزمة حوله ليعتبروا من هذا الوافد الذي لا يفلت منه أحد ويقوم بعدد من التصرفات يعظ بها من حوله:

- **يقسم ماله:**

أورد الحافظ ابن عساكر بسنده عن الأوزاعي قال: حدثني رجل من قريش قال:

لما حضرت عمرو بن العاص الوفاةُ قال عبد اللَّه له: يا أبه أوص في مالي ومالك ما بدا لك، قال: فدعا الكاتب فقال: اكتب، فجعل يكتب. قال: فلما أسرع في المال. قال: يا أبه لا أحسبك إلا قد أتيت على مالي ومال إخوتي، فلو بعثت إلى إخوتي فتحلل ذلك منهم. قال عمرو للكاتب: اقرأه، اقرأه. فقال عبد اللَّه بن عمرو: بخ بخ. فقال له عمرو:

يا عبد اللَّه! اشكر هذا فواللَّه لامرأة من المهاجرات أقبلت ببعير تقوده إلى رسول اللَّه ﷺ يحمله عليه في سبيل اللَّه خير من هذا كله[٥]....

---

(١) الولاة والقضاة (ص ٢٢).
(٢) النجو: ما يخرج من البطن من بول أو غائط.
(٣) الرُّزء: الطعام الذي يؤكل.
(٤، ٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٩).

- **ليته كان بعرًا:**

عن الأشعث عن الحسن قال: لما احتضر عمرو بن العاص نظر إلى صناديق. فقال: من يأخذها بما فيها؟ ليته كان بعرًا[1].

- **مع حرسه:**

فهو يود أن يريهم الموت عيانًا لو استطاع.

فعن ثابت البناني قال: كان عمرو على مصر، فثقل فقال لصاحب شرطته: أدخل علي وجوه أصحابك. فلما دخلوا نظر إليهم، وقال: ها قد بلغت هذا الحال، ردوها عني. فقالوا: مثلك أيها الأمير يقول هذا؟ هذا أمر اللّٰه الذي لا مرد له، وقال:

قد عرفت ولكن أحببت أن تتعظوا.

لا إله إلا اللّٰه... فلم يزل يقولها حتى مات[2].

روح، حدثنا عوف عن الحسن قال: بلغني أن عمرو بن العاص دعا حرسه عند الموت. فقال: امنعوني من الموت. قالوا: ما كنا نحسبك تكلم بهذا (وفي رواية ابن عساكر بسنده عن الحسن قال: بلغني أن عمرو بن العاص لما كان عند الموت دعا حرسه فقال: أي صاحب كنت لكم؟ قالوا: كنت لنا صاحب صدق، تكرمنا وتعطينا وتفعل وتفعل، قال:

فإني إنما كنت أفعل ذلك لتمنعوني من الموت، وها هو ذا قد نزل بي فأغنوه عني.

فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا: واللّٰه ما كنا نحسبك تكلم بالعوراء يا أبا عبد اللّٰه، قد علمت أنَّا لا نغني عنك من الموت شيئًا.

قال: أما واللّٰه قد قلتها وإني لأعلم أنكم لا تغنون عني من الموت شيئًا، واللّٰه لأن أكون لم أتخذ منكم رجلًا قط يمنعني من الموت أحب إلي من كذا وكذا، فيا ويح ابن أبي طالب إذ يقول: حرس امرءًا أجله ثم قال:

اللهم لا بريء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، وإلا تدركني منك رحمة أكن من الهالكين)[3].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عسكر (١٣/ ٥٢٩).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٧٦). وهي عند ابن عساكر (١٣/ ٥٢٩).

(٣) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٥٣٣، ٥٣٤) وعند الحافظ الذهبي في السير (٣/ ٧٦) وفي الطبقات =

وهي رسالة لكل سلطان في هذا الوجود ورسالة تاريخية لكل حاكم في الأرض يحسب فيها حساب آخرته، ولم يجد - وهو في لحظاته الأخيرة - أروع من كلمة علي ابن أبي طالب في حساب الأجل «حرس امرءًا أجَلهُ» ولم يجد غير رحمة ربه تغني عنه في هذا الوجود وإلا كان من الهالكين.

- **وصف الموت:**

لم يكن ﷺ قد ذاق الموت وغصصه وسكراته، وكان يعجب من البلغاء والحكماء كيف لا يصفونه ليتعظ به المؤمنون والعاصون، وكانت فرصة معاناته هذه لم يدعها ولده تمر.

فقد روى ابن سعد عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن عوانة بن الحكم قال: (كان عمرو بن العاص يقول: عجبًا لمن نزل به الموت - وعقله معه - كيف لا يصفه.

فلما نزل به قال له ابنه عبد اللّه بن عمرو: يا أبت إنك كنت تقول: عجبًا لمن نزل به الموت - وعقله معه - كيف لا يصفه. فصف لنا الموت وعقلك معك قال:

يا بني الموت أجلُّ من أن يوصف، ولكني سأصف لك منه شيئًا.

أجدني كأني على عنقي جبال رضوى.

وأجدني كأن في جوفي شوك السلاء.

وأجدني كأن نفسي يخرج من ثقب إبرة)[1].

وهي رسالة من قادم إلى اللّه - تعالى - يعاني سكرات الموت ولم يدخل بعد في غصصه الشديدة، إنما هو في مقدماته.

- **علام يبكي من الدنيا:**

عن يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه أن عمرو بن العاص حين حضرته الوفاة ذرفت عيناه، فبكى. فقال له ابنه عبد اللّه: واللّه يا أبه ما كنت أخشى أن ينزل بك أمر من أمر اللّه ﷻ إلا صبرت عليه. فقال: يا بني إنه نزل بأبيك خصال ثلاث:

أما أولهن: فانقطاع عمله. وأما الثانية: فهول المَطلع. وأما الثالثة: ففراق الأحبة. وزاد

= الكبرى لابن سعد (٤/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ٢٦٠) وابن عساكر (١٣/ ٥٣٠).

ابن زيد: وهي أيسرهن ثم قال:

اللهم إنك أمرتَ فتوانيتُ ونهيتَ فعصيتُ، ومن شيمك العفو والتجاوز)[١].

وما أعظمها من حكمة، فقد انقطع عمله الصالح، أفلا يذرف الدمع عليه؟ وهول المطلع من الحساب والصراط والميزان، ويوم المحشر أمثل هذا لا يُبكى منه؟! أهون الثلاثة فراق الأحبة.

وفي رواية أخرى (عن يزيد بن أبي حبيب أن ابن شماسة أخبره أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة دمعت عيناه، فقال له ابنه عبد اللّه: لم تبكي؟ أجزع من الموت؟

قال: لا واللّه، ولكن لما بعد الموت)[٢].

فهو يُقبل على ربه بأخطائه وذنوبه، لم يعد يملك لنفسه حولًا ولا قوة، وإن لم يقبل اللّه توبته فهو من الهالكين، وهو يحمل تلك الأمجاد العظيمة كلها من الفتح والدعوة وسياسة المسلمين ويخاف ذنبه.

- جزع عند الموت:

ومن ذرف الدموع إلى الجزع الأشد، فراح عبد اللّه بن عمرو - رضي اللّه عنهما - يذكره بحسناته التي تعدل الجبال، وأهمها أن رسول اللّه ﷺ قد استعمله ورضي عنه في كل شيء كلفه به، وهذا دليل رضا رسول اللّه ﷺ منه وتكفي هذه الميزة لتغلب كل أخطائه وذنوبه فماذا كان جوابه على ذلك؟!

(أحمد، حدثنا عفان، حدثنا الأسود بن شيبان، حدثنا أبو نوفل بن أبي عقرب قال: جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعًا شديدًا فقال ابنه عبد اللّه: ما هذا الجزع، وقد كان رسول اللّه ﷺ يدنيك ويستعملك؟

قال: أي بني قد كان ذلك، وسأخبرك. أي واللّه ما أدري أحبًّا كان أم تألفًا، ولكني أشهد على رجلين أنه فارق الدنيا وهو يحبهما ابن سمية وابن أم عبد)[٣].

فالغرور لا يعرف إلى نفسه سبيلًا، والتذلل للّه والعبودية له هي التي تملك عليه قلبه

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٣٢)، وفتوح مصر والمغرب (ص ٨٢).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٣٠).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، قال المحقق فيه: إسناده صحيح، وهو في المسند (٤/ ١٩٩) وفي ابن عساكر (١٣/ ٥٣٣).

ومشاعره، ولم يتأل على اللّه تعالى بشيء وعنده من الرصيد ما يقارع به أعظم الصالحين، وأعظم هذا الرصيد ثقة رسول اللّه ﷺ وحبه له ورضاه عنه، ومع ذلك فهو لا ينكر هذه الثقة لكنه لا يدري أن كان ذلك حبًّا له أو تألفًا. إنما يشهد لخصمه الذي حاربه في صفين، لعمار بن ياسر أنه كان يحبه، ومن الذي يدعوه إلى ذلك ليسجل على نفسه ثناء على خصومه الذين قاتلهم، ولولا خلوصه من حظ نفسه، وخلوصه من ذاته ما قال كلمة الحق وفيها شهادة لخصمه، فهو لا يدري تكليفه بالمسؤلية من رسول اللّه ﷺ حبًّا له أو تألفًا وتقريبًا لقلبه، بينما يشهد لعمار وعبد اللّه بن مسعود بحب رسول اللّه ﷺ ورضاه عنهما، إنها قمة التجرد والخلوص للّه من حظوظ نفسه وحظوظ دنياه، ولو نال الناس ما نالوا وطعنوا فيه ما طعنوا.

- الأطباق الثلاثة:

ونأخذها من صحيح مسلم:

أخرج مسلم عن ابن شماسة المهري قال:

(حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلًا وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه! أما بشرك رسول اللّه ﷺ بكذا، أما بشرك رسول اللّه ﷺ بكذا؟ قال، فأقبل بوجهه فقال:

إن أفضل ما نَعُدُّ شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول اللّه.

إني كنت على أطباق ثلاث:

لقد رأيتني وما أحد أشد بغضًا لرسول اللّه ﷺ مني، ولا أحب أن أكون استمكنت منه فقتلته، فلو مِتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النار.

فلما جعل اللّه الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه، فقبضت يدي قال:« **مالك يا عمرو؟** » قال: قلت: أريد أن أشترط، قال: « **تشترط بماذا؟** » قلت: أن يُغفر لي؟ قال:

« **أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟** » وما كان أحد أحب إلي من رسول اللّه ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مِتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياء، ما أدري ما حالي فيها.

فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا عليَّ التراب شنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس وأنظر ماذا أراجع رسل ربي)[١].

إنه أستاذ من أساتذة التربية الإيمانية في الوجود فهو لا يثق إلا بما كان بين يدي رسول اللَّه ﷺ وجهاد ثلاثين عامًا بعده لا ترتفع إلى أن تدخله الجنة، وهو في هذا الخوف من مدرسة عمر بن الخطاب ﷺ في ذلك فهما تلميذا مدرسة النبوة، وها هو عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنهما - يحدثنا عن هذا اللقاء العفوي بين العظيمين:

أخرج البخاري (عن أبي بردة بن موسى الأشعري قال: قال لي عبد اللَّه بن عمر: هل تدري ما قال أبي لأبيك؟ قال: قلت: لا. قال: فإن أبي (أي عمر) قال لأبيك (أي أبي موسى)، يا أبا موسى هل يسرك إسلامنا مع رسول اللَّه ﷺ، وهجرتنا معه، وجهادنا معه، وعملنا كله معه بَرَدَ لنا[٢]، وأن كل عمل عملنا بعده نجونا منه كفافًا[٣] رأسًا برأس؟؟

فقال أبي:

لا واللَّه، لقد جاهدنا بعد رسول اللَّه ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيرًا كثيرًا، وأسلم على أيدينا بشر كثير، وإنا لنرجو ذلك، فقال أبي:

لكني أنا والذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك برد لنا، وأن كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفافًا، رأسًا برأس، فقلت: إن أباك واللَّه خير من أبي)[٤].

وقد قال الحافظ ابن حجر - رحمه اللَّه - تعليقًا على الحديث:

ومع هذا فعمر في هذه الخصلة المذكورة أيضًا أفضل من أبي موسى؛ لأن مقام الخوف أفضل من مقام الرجاء؛ فالعلم محيط بأن عمل الآدمي لا يخلو عن تقصيرٍ ما في كل ما يريد من الخير، وإنما قال عمر ذلك هضمًا لنفسه، وإلا فمقامه في الفضائل

(١) صحيح مسلم (١/ ١١٢) ك الإيمان (ح ١٩٢ - ١٢١).

(٢) برد لنا: ثبت لنا ودام.

(٣) كفافًا: سواء بسواء، والمراد: لا موجبًا ثوابًا ولا عقابًا.

(٤) البخاري (٢/ ٥/ ٨١) باب الهجرة.

والكمالات أشهر من أن يذكر)[1].

فخوف عمرو ﷺ وخوف عمر من نبعٍ واحد هو أن جهاد العمر هذا بعد رسول اللَّه ﷺ قد يدخله شيء من حفظ النفس، ولا يدري المرء ما الحكم فيه، أما أيام الرسول ﷺ قد أثنى عليه رسول اللَّه ﷺ وزكاه وزكى أصحابه.

ومع هذا تبقى عبودية عمرو ﷺ في أعلى المقامات، فهو وإن كان يرجو الجنة لو مات في ذلك الطبق وهو لا يعرف مآله في طبقه الثالث (ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها).

لكن أرجى عمله عنده، وأعظمه عنده ليس جهاد أربعين عامًا في عهد النبوة وبعدها، وليس نشر الإسلام في أصقاع الأرض في عهد النبوة وبعدها، وليس تطبيق شريعة اللَّه في الحكم في عهد النبوة وبعدها، إنَّ أرجى وأعظم من هذا كله شهادة أن لا إله إلا اللَّه، فهي أعظم ما يحمله إلى لقاء ربه.

(إن أفضل ما نُعدُ شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه) فهي أعظم كنز في وجوده.

وها هو يموت على لا إله إلا اللَّـه:

فعن أبي حرب بن أبي الأسود: عن عبد اللَّه بن عمرو، أنه حدثه أن أباه أوصاه قال: يا بني إذا أُمت فاغسلني غسلة بالماء، ثم جففني بثوب، ثم غسلني الثانية بماء قراح، ثم جففني في ثوب، ثم اغسلني الثالثة بماء فيه شيء من كافور، ثم جففني في ثوب، ثم إذا أنت ألبستني الثياب فأزِرَّ عليَّ فإني مخاصم، ثم إذا أنت حملتني على السرير، فامش بي مشيًا بين المشيتين، وكن خلف الجنازة فإن مقدمها للملائكة وخلفها لبني آدم، فإذا أنت وضعتني في القبر فشن علي التراب شنًّا ثم قال: اللهم إنك أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فأضعنا فلا بريء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، ولكن لا إله إلا اللَّه.

ما زال يقولها حتى مات[2].

وفي رواية عند الحافظ ابن عساكر عن أبي فراس مولى عمرو بن العاص: أن عمرو ابن العاص لما حضرته الوفاة قال لابنه عبد اللَّه بن عمرو: إذا أنا مت فاغسلني ثم لفني وردَّ عليَّ إزاري فإني مخاصم، فإذا أنت حملتني فأسرع في المشي فإذا وضعتني في

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/ ٢٥٥). (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ٢٦٠).

لحدي فأهيلوا عليَّ التراب، فإن شقي الأيمن ليس بأحق بالتراب من شقي الأيسر، فإذا سويته علي فاجلسوا عند قبري قدر نحر جزور وتقطيعها أستأنس بكم.

فهو يأمل من وجودهم ودعائهم له حين يراجع رسل ربه، ويأمل شفاعتهم له وفي رصيده أعظم الجهاد والدعوة.

وفي الحديث الصحيح في مسند أحمد بعد أن زكَّي عمارًا وابن مسعود.

(فلما جد به وضع يده موضع الأغلال من ذقنه قال: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا مغفرتك. فكانت تلك هجيراه حتى مات.

وعند الحافظ ابن عساكر:

(اللهم أمرت بأمور، ونهيت عن أمور، وتركنا كثيرًا مما أمرت، ووقعنا في كثير مما نهيت، اللهم لا إله إلا أنت. ثم أخذ بإبهامه فلم يزل يهلل حتى مات)[1].

« في رواية أخرى ثم قال: أشهد أن لا إله إلا اللّه - ثم قبض عليها بيده اليمنى - وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله - ثم قبض عليها بيده اليسرى - قال: فقبض وإن يداه مقبوضتان)[2].

* * *
* *
*

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٣٢).
(٢) المصدر نفسه (ص ٥٣٢).

داهية قريش وَرجُلُ العالم

استعرضنا هذا العنوان من الحافظ الذهبي وهو يعرِّفُ بعمرو بن العاص فقال:

(عمرو بن العاص بن وائل الإمام أبو عبد اللَّه، ويقال: أبو محمد السهمي، داهية قريش ورجل العالم ومن يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم)(١).

وأما أنه داهية قريش فهذه لا ينازع فيها أحد، وكذلك لا ينازع أحد في أنه أحد دهاة العرب المعدودين.

روى مجالد عن الشعبي قال: دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو والمغيرة، وزياد، فأما معاوية فللأناة والحلم، وأما عمرو فللمعضلات، والمغيرة للمبادهة، وأما زياد فللصغير والكبير)(٢).

وإن اختلف على غيره من بين دهاة العرب، فلم يختلف عليه أحد.

يقول الزهري: وكان يُعد في العرب حين ثارت الفتنة الأولى خمسة يقال لهم: ذوو رأي العرب ومكيدتهم: يعد من قريش معاوية وعمرو، ويعد من الأنصار قيس بن سعد، ويعد من المهاجرين عبد اللَّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي، ويعد من ثقيف المغيرة ابن شعبة، فكان مع علي منهم رجلان: قيس بن سعد وعبد اللَّه بن بديل، وكان المغيرة معتزلًا بالطائف وأرضها(٣).

وينسب إلى عمرو بن العاص تقويم قريب من هذا (فعن شعيب بن يعقوب قال: اجتمع معاوية وعمرو بن العاص فقال معاوية لعمرو: من الناس؟ قال: أنا وأنت ومغيرة وزياد قال: وكيف ذاك؟ قال: أنت فللتَّأنِّي، وأما أنا فَلِلْبديهة، وأما مغيرة فللمعضلات، وأما زياد فللصغيرة والكبيرة. فقال له معاوية: هات من بديهتك؟ قال: وتريد ذاك؟ قال: نعم. قال: فأخرج مَن عندك. فأمرهم فخرجوا حتى لم يبق في البيت غيرهما. قال، فقال

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي (٣/ ٥٤، ٥٥).

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٨).

(٣) المغازي للزهري (ص ١٥٨).

عمرو بن العاص: أسارُّك. قال: فأدنى رأسه منه. قال: هذا من ذاك ومن معنا في البيت حتى أسارك؟؟)(١).

ويتجاوز عمرو ببيئته وقومه العرب لينازل دهاة العالم كما قال عمر بن الخطاب يوم وَجَّهَهُ لفتح فلسطين وكان فيها داهيتها الرهيب الأرطبون (وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورًا وأنكاها فعلًا، وقد كان وضع في الرملة جندًا عظيمًا وبإيلياء جندًا عظيمًا، وكتب عمرو إلى عمر بالخبر، فلما جاءه كتاب عمرو قال:« قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عم تنفرج »(٢).

وحين نفذ عمرو بن العاص خدعته بالأرطبون حيث تنكر باسم أحد جنوده رسولًا إليه، وأدرك الأرطبون بدهائه أن الذي بين يديه عمرو، أو من يثق به عمرو، بيَّت قتله، تمكن عمرو من النجاة من الأرطبون بحيلته العجيبة حين أوهمه أنه سيأتي بعشر رجال مثله، وعندما بلغت الحيلة الأرطبون قال:

خدعني الرجل، هذا أدهى الخلق. فبلغت عمر قال: غلبه عمرو، للَّه در عمرو(٣).

ومع ذلك فلم يكن مفتاح شخصية عمرو دهاءه ولو كان أدهى الخلق.

ونعرض لعالمية عمرو بن العاص بعد دهائه إلى خبرته وتجاربه في الحياة أو ما نطلق عليه:

عمرو الحكيم:

لقد كان يطلق حِكَمَهُ وهو لا يزال حبيس بيئته الجاهلية وعلى مستوى الزعامة في قريش، وذلك حين قال عقب انتصاره على عمارة بن الوليد المتهتك:

إذا المرء لم يترك طعامًا يحبه ... ولم ينه قلبًا غاويًا حيث يمما

قضى وطرًا منها وغادر رسبه ... إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

وليس الفتى إما أنمت عروقه ... بذي كرم إلا إذا ما تكرما

وعندما أشرق بقلبه نور الإسلام، وتوسعت تجربته مع الأمم والشعوب في القيادة والإدارة والحكم، وأصبح يشرف على العالم كله بنور العقيدة قدم لنا خلاصة تجربته

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢١).

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/ ٦٠٥).

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/ ٦٠٦).

وعصارة خبرته في العديد من الحكم والأمثال والآراء التي تضعه في مصاف حكماء العلماء الكبار، وعلى رأسهم، ولا شك أن القليل القليل هو الذي وصل إلينا من آرائه وحكمه.

(١) في تقويم الأمم والشعوب:

- مصر:

حيث ذكر عنها عند ذكرها لدى عمر أمير المؤمنين:

(إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالًا وأعجزها عن القتال والحرب)[١].

أما وصفها الدقيق شعبًا وأرضًا فكان:

(مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء طولها شهر، وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات، مبارك الروحات، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا عج عجاجه وتعظمت أمواجه، لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب، فإذا تكامل في زيادة نكص على عقبه كأول ما بدأ في شدته، وطما في حدته، فعندئذ يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه، يبذرون الحب، ويرجون الثمار من الرب، حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى، فعند ذلك يدرُّ حِلابه، ويغني ذبابه، فبينما هي - يا أمير المؤمنين - درة بيضاء، إذا هي غبرة سوداء، إذا هي زبرجرة خضراء، فتعالى اللَّه لما يشاء، الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قول قاطنها فيها، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدي خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تقرَّر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، واللَّه - تعالى - يوفق في المبدأ والمآل. يقول أبو المحاسن: فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب ﷺ قال:

للَّه درك يا ابن العاص وصفت لي خبرًا كأنّي أشاهده)[٢].

وخلاصة هذا الشعب أنه شعب مؤمن (يبذرون الحب؛ ويرجون الثمار من الرب،

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٥٦).

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن (١/ ٢٣).

وشعب عامل يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه).

وشعب مطواع لحكامه ومستقر نفسيًّا وسياسيًّا (يقر قول قاطنها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها)وشعب مسالم خبير بزراعة أرضه وتنمية ثروة بلده (هي أكثر الأرض أموالًا، وأعجزها عن القتال والحرب).

ولا شك أن هذا العجز قد كان يوم بقيت مصر عمرًا ودهرًا تحكم من غير أهلها، تستعيد من طغاتها، لكن الإسلام أحيا نفوس أهلها فغدوا كما قال رسول اللَّه ﷺ حيث أوصى بهم عند وفاته بقوله:

« **اللَّه اللَّه في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل اللَّه** » وأخرج ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إذا فتح اللَّه عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض** » فقال أبو بكر: ولم يا رسول اللَّه؟ قال: « **لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة** »[1].

- **الروم:**

وإذا كان عمرو ﷺ قد أعطانا خبرته وانطباعه عن أهل مصر الذين أحبهم وأحبوه. ودخلوا في حظيرة الإسلام بفضل قيادته وصدق إرادته، فماذا يقول عن خصومه الألداء الأشداء الذين حاربهم في فلسطين وحاربهم في الشام، وحاربهم في الأردن، وحاربهم في مصر، هل هو من الناس الذين يحرقون أعداءهم مهما كانوا؟! أبدًا إنه أعظم الناس إنصافًا لعدوه.

(فقد أخرج مسلم عن موسى بن علي عن أبيه قال، قال المستورد القرشي عند عمرو ابن العاص: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **تقوم الساعة والروم أكثر الناس** » فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول اللَّه ﷺ قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة؛ وأمنعهم من ظلم الملوك)[2].

---

(١) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (١/ ٥) وقال فيه: أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في دلائل النبوة بسند صحيح عن أم سلمة.

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٢)، (ح ٣٥، ٢٨٩٨).

- **نعته الأمصار:**

وينقل عنه رأي ضعيف قد لا يصح أورده الحافظ الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء فقال:

روى أبو أمية بن يعلى، عن علي بن زيد بن جدعان قال رجل لعمرو بن العاص: صف لي الأمصار. فقال: أهل الشام أطوع الناس لمخلوق، وأعصاهم لخالق، وأهل مصر أكيسهم صغارًا وأحمقهم كبارًا، وأهل الحجاز أسرع الناس إلى الفتنة وأعجزهم عنها، وأهل العراق أطلب الناس للعلم وأبعدهم عنه(١).

وبغض النظر عن السند فالمتن للحدث لا يتناسب مع واقع هذه الأمصار فلا يؤخذ منه حكم.

(٢) في الفقه السياسي:

أ - **الإمام العادل** هو الرحمة المهداة للأمة والأسد الفاتك خير للأمة من الإمام الظالم، لكن الإمام الظالم الذي يقمع الفتنة ويوقف نزيف الدماء أقل شرًّا من الفتنة يعبر عن هذه المعاني بقوله ﷺ.

(عن سعيد بن عثمان قال: حدثني أبو بكر قال: قال عمرو لابنه:

يا بني! إمام عادل خير من مطر وابل، وأسد غشوم خير من إمام ظلوم، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم)(٢).

ولقد حرص ﷺ على أن يكون كالغيث للأمة فيطبق العدل مهما كلفه من مشقة، فهو صاحب الدين الذي يحمله للبشرية، وإنما يعرف الناس هذا الدين بالعدل الذي ينشره في الوجود.

ب - تعهد الرعية:

والحاكم هو خادم للأمة، ساهر على مصالحها كما علّمه عمر بن الخطاب حين قال لرسول عمرو: (لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية)(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي (٣/ ٥٧) وقال المحقق فيه: أبو أمية بن يعلى ضعيف، وكذا شيخه علي بن زيد فالخبر لا يصح.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٥).

(٣) فتوح مصر وأخبارها (ص ٨١).

وها هو عمرو ﷺ يخاطب أمير المؤمنين معاوية الذي تقلد أمر الأمة كلها، ويعطيه عصارة تجربته وخلاصة خبرته في الناس والرعية، مع أن معاوية أرسخ قدمًا منه في ذلك، يقول عمرو فيما رواه الأصمعي:

قال عمرو بن العاص لمعاوية:

يا أمير المؤمنين لا تكونن لشيء من أمر رعيتك أشد تعهدًا منك لخصاصة الكريم حتى تعمل في سدها، ولطغيان اللئيم حتى تعمل في قمعه، واستوحش من الكريم الجائع ومن اللئيم الشبعان، فإن الكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع)[1].

فهو يقدم نظرته من خلال الغوص في أعماق الطبائع البشرية، كريمها ولئيمها، وأن الذي يجب أن تسد خصاصته وتُرعى حرمة جوعه وحاجته هو الكريم الذي لا يذل نفسه، ويحسبه الجاهل غنيًّا من التعفف، هذه الأنماط العالية هي التي يجب أن ترعى ويسهر على تلبية حاجتها، وكما يقول المثل بأمثال هذه النماذج: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها والحية إذا جاعت عضت بطنها.

أما الذي يُخشى من جهة أخرى، ويُحذر كما يُحذر السبع الضاري فهو شرهُ الجشعين وشبع اللؤماء الذين لا يشبعون أصلًا، وهم على استعداد أن يستنزفوا كل ثروات الأمة لمصالحهم ومصالح بطونهم وشهواتهم، فلا بد لأمثال هؤلاء من قمعهم وإرهابهم حتى لا يمضوا في استغلالهم وطغيانهم.

فإن الكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع.

جـ - في خير الشرين:

ومن هو العاقل الحقيقي والأريب الداهية؟ هل هو الذي يعرف الخير من الشر؟ أبدًا فهذا يعرفه المتوسط من الناس بل البسيط منهم، أما الحكيم المجرب والقائد المحنك والإداري العبقري هو الذي تهجم عليه جموع الشر من كل جانب فيعرف أيها يستقبل، وأيها يبعد، يعرف الأولويات الحقيقية لوضع بلده وأمته وشعبه، يعرف كيف ينقذ بلده ورعيته من الغوائل التي يمكن أن تفنيهم، فيقدم الأهم على المهم، ولخَّص هذه الحكم جميعًا بقوله:

(ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين)[2].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٦).
(٢) المصدر نفسه (ص ٥٢٧).

فإذا زحف الشر عليه عرف أنه أقل خطرًا، فركبه ليدفع غوائل أدهى وأنكى وأمر.

د - العقل:

وإذا عرَّف لنا العاقل في حديثه السابق فها هو يعرِّفنا هنا بالعقل، لنرى أبعاد فقهه العميق بالإنسان الذي يقود الأمم.

(قيل لعمرو: ما العقل؟ فقال: الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان)[1].

فلا عقل لمن لا يعتبر بما مضى ويفقه التصرف المناسب الجديد على ما سبق، ومن لم تَسُقْه فراسته في الرجال والأشياء إلى أن تكون أقرب إلى الحقيقة، فليس من العقلاء الكبار بين قومه.

هـ - العدل قوام السموات والأرض:

وليس السلطان والتجبر الذي يمثل المنهج الفرعوني: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] هو الذي يبني الأمم، فالطاغية قد يحكم دهرًا طويلًا، وتخضع له الرقاب، ولكن القلوب مراجل تغلي من حقده وكرهه، أما الإمام العادل الذي هو على رأس السبعة الذين يظلهم اللّٰه في ظله، وهو الذي تقوم به الأمم وتحيا به الدول.

قد تكون الوسائل للسلطانين والحاكمين والإمامين، إمام الجور وإمام العدل، لكن هذه الوسائل تنتهي بعدها بطاغية أو إمام عادل فما هي هذه الوسائل؟

يحدثنا عنها عمرو فيقول ﷺ:

(لا سلطان إلا بالرجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل).

فقوام هذا كله هو العدل الذي هو سمة هذا الدين وبه يتقدم المؤمنون إلى البشرية في الأرض.

و - العِلْيَة والسِّفْلة:

وفي نظرة عميقة إلى معادن الرجال في ارتفاعها وهبوطها ووصولها إلى السلطان والحكم يلقى كلمة خالدة في بنيان الأمم يقول فيها:

(موت ألف من العِلْيَة، أقل ضررًا من ارتفاع واحد من السِّفْلَة)[2].

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٤١).

(٢) عمرو بن العاص لشيت خطاب.

ولا شك أن جسامة الخسارة في موت العظماء والقادة لا يجادل فيها أحد، لكن الخسارة العظمى للأمة كلها والبلية الكبرى هو أن يرتفع أحد السفلة اللؤماء ليكون قائدًا للأمة فيمرغ كرامتها وشرفها بالوحل ويجرع كرامها غصص الإهانة، ويقودها إلى الهاوية والدمار، فخسارة ألف من علية القوم عند عمرو أهون من ارتفاع واحد من السفلة الذين ذكرهم اللَّه تعالى في كتابه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة ٢٠٤ - ٢٠٦].

ز - الشورى:

مع هذا فلا عاقل حقيقي عنده من لم يستنر بعقل غيره وتجربة غيره، وفقه غيره، ولو كان قمة في العقل والحكمة والحنكة والعبقرية، ولهذا قسم الناس إلى ثلاث فصائل (رجل، ونصف رجل، ولا شيء...

فأما الرجل التام فالذي يكمل اللَّه دينه وعقله فإذا أراد أمرًا لم يمض حتى يستشير أهل الرأي والألباب، فإذا وافقوه حمد اللَّه وأمضى رأيه، فلا يزال ذلك مصيبًا موفقًا.

والنصف رجل الذي يكمل اللَّه له دينه وعقله، فإذا أراد أمرًا لم يستشر فيه أحدًا، وقال: أي الناس كنت أطيعه وأترك رأيي لرأيه فيصيب ويخطئ.

والذي لا شيء، الذي لا دين ولا عقل ولا يستشير، ولا يزال كذلك مخطئًا مدبرًا، قال عمرو: واللَّه إني أستشير في الأمر الذي أردته حتى لأستشير خدمي، وما علي بعرض عقولهم وأسمع لهم)(١).

إنه مدرسة سياسة قائمة بذاتها تجعل أهم راياتها وشعاراتها الشورى في كل شيء والاستشارة لكل فرد، مهما كان وزنه وحجمه، وهو منهج الأمة المسلمة، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ح - السرور:

والسرور عند أقزام الرجال وأنصافهم وأشباههم شيء، وعند عظماء الرجال وصانعي الأمم شيء آخر، فصانعو الأمم هم الذين يخوضون الأهوال ويتحدون الصعاب ويتنقلون

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٧).

من معركة إلى معركة ومن هول إلى هول، حتى يثبتوا وجود أمتهم تحت الشمس، وتكون لها دور الريادة في البشرية، وقد لخص هذه المعاني بطرح مفهومه عن السرور لتلاميذ عبقريته.

(فعن علي بن عبد اللَّه بن سفيان قال: قال معاوية لعمرو بن العاص: ما السرور يا أبا عبد اللَّه؟ قال: الغمرات ثم تنجلي)[1].

وفي رواية أخرى عن حنبل بن إسحاق الحميدي، حدثنا سفيان عن عمرو قال: قال عمرو بن العاص لجلسائه، وتذاكروا شيئًا من أمور الدنيا: أي شيء رأيتم أحسن؟ فذكروا المرأة الحسنة والدابة.

فقال عمرو: ما شيء أحسن من غمرات ثم تنجلي.

ذلك لأن سرور العظماء هو بتحقيق أمجاد لأمتهم لا بالتسكع على أبواب اللذات البهيمية.

(٣) في تقويم الرجال:

وذلك في حوار بين معاوية وعمرو - رضي اللَّه عنهما - ينقله لنا أبو العباس ثعلب فيقول: قال معاوية لعمرو بن العاص:

(**من أبلغ الناس؟** قال: من اقتصر على الإيجاز وسلب الفضول.

قال: **فمن أصبر الناس؟** قال: أردُّهم لجهله بحلمه.

وفي رواية الأصمعي: من كان رأيه رادًّا لهواه.

قال: **فمن أسخى الناس؟** قال: من بذل دنياه في صلاح دينه.

قال: **فمن أشجع الناس؟** قال: من ردَّ جهلَه بحلمه)[2].

ب - **أما المستريح من الهموم** فهو كما نقله لنا ابن الأعرابي: (استراح من لا عقل له)[3].

جـ - **وزلات الرجال والنساء** كما يحدث بها ابنه عبد اللَّه بن عمرو كما نقلها ابن الأعرابي كذلك: (يا بني! زلة الرجل عظم يُجْبَر، وزلة اللسان لا تُبقي ولا تذر).

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (ص ٥٢٧).

(٢) العقد الفريد (٦/ ٢٠٢).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٦).

وفي رواية سعيد بن عثمان عن أبي بكر: (زلة الرجل عظم يجبر، وزلة النساء لا تبقي ولا تذر)[١].

د - **والأحمق**: والتعامل معه: (يا بني مزاحمة الأحمق خير من مصافحته)[٢].

هـ - **والحليم**: عن أبي السليل قال، قال عمرو بن العاص:

(ليس الحليم من يحلم عن من يحلم عنه ويجاهل من جاهله، إنما الحليم من يحلم على من يجور عليه ومن يحلم عمن جاهله)[٣].

ز- **الواصل**: عن هلال بن لاحق قال: قال عمرو بن العاص:

(ليس الواصل الذي يصل من وصله، ولكن الذي يصل من قطعه).

(٤) تعريفات في دروب الحياة:

أ - **الملال تكذبه للمروءة**، والملال من سيئ الأخلاق، فالحياة لا يتعامل معها بالملل، والمزاج الهوى كما يحدثنا المدايني عن عمرو قال:

ب - (**أربعة لا أملهم**: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملتني، وامرأتي ما أحسنت عشرتي)[٤].

وفي رواية موسى بن علي عن أبيه قال: سمعت عمرو بن العاص يقول:

(لا أمل ثوبي ما وسعني، ولا أمل زوجتي ما أحسنت عشرتي، ولا أمل دابتي ما حملت رحلي، إن الملال من سيئ الأخلاق)[٥].

جـ - **الدنيا والآخرة**: والتي كانت شخصيته تمثلها أصدق تمثيل، فلا تكاد تجد من لخصها واقعًا عمليًّا كما لخصها فكرًا نظريًّا مثله وهي قوله: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا).

د - **البطنة**: عن محمد بن سلام الأصمعي قال:

قال عمرو بن العاص لمعاوية: (ما بطن قوم إلا فقدوا عقولهم، ما قضيت عزيمة رجل مات بطينًا)[٦].

هـ - **اللذة**: (وعن المدايني: قال: قال معاوية لعمرو بن العاص: ما اللذة؟ قال: يا أمير

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (ص ٦٢٦).
(٢) المصدر نفسه (ص ٥٢٥).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر.
(٤) المصدر نفسه (ص ٥٢٥).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٥).
(٦)تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٦).

المؤمنين مر أحداث قريش فليقوموا، فلما قاموا قال: إسقاط المروءة)[١].

يقول الحافظ ابن عساكر: يريد أن الرجل إذا لم يتعهد مروءته تلذذ وعمل ما يشتهي ولم يلتفت إلى لوم أحد.

ونجد له تعريفًا آخر لملذات الحياة عنده، وذلك عندما سأله معاوية أمير المؤمنين: ما بقي من لذة الدنيا تلذه؟ قال: محادثة أهل العلم، وخبر صالح يأتيني من ضيعتي[٢].

و - **الوجع والحزن**: عن أبي قبيل عن عمرو بن العاص قال:

(لا وجع إلا العين ولا حزن إلا الدين)[٣].

ز - **السر**: عن سفيان بن عيينة قال: قال عمرو بن العاص:

(ما وضعت عند أحد من الناس سرًّا فأفشاه فلمته عليه، أنا كنت أضْيَق به حين أستودعه إياه)، وفي رواية: (وكيف ألومه وقد ضقت به (بالسر))[٤].

ح - **العجب من ثلاث**: (عن موسى بن علي عن أبيه عن عمرو بن العاص قال:

انتهى عجبي إلى ثلاث:

المرء يفر من القدر وهو لاقيه، ويبصر في عين أخيه القذى فيعيبه ويكون في عينه الجذع فلا يعيبه، ويكون في دابته الصعر فيقومها بجهده ويكون فيه الصعر فلا يقوم نفسه)[٥].

ط - **العلم**: عن موسى بن علي قال:

كنت مع عمرو بن العاص بالإسكندرية فانكسف القمر فأصبحنا مع عمرو، فقام رجل من القوم: لقد حدثنا شيطان هذه المدينة أن القمر سيكسف من الليلة، فقال رجل ممن صحب النبي ﷺ: كذب عدو الله هم علموا ما في الأرض، فما علمهم بما في السماء؟ قال: فلم يرد عمرو عليه بذلك، ثم قال عمرو: إنما الغيب خمسة، فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون ثم إنه قرأ الآيات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[٦] [لقمان: ٣٤].

ي - **المروءة**: فعن حيان بن أبي حيلة قال: قيل لعمرو بن العاص: ما المروءة فقال:

---

(١) تاريخ دمشق لابن عسكر (١٣/ ٥٢٧).
(٢) عيون الأخبار (١/ ٣٠٩).
(٣، ٤) تاريخ ابن عساكر (ص ٥٢٨).
(٥، ٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٩)

يصلح الرجل ماله، ويحسن إلى إخوانه[١].

ك - الأناة والعجلة: إذ يقول: ثلاثة لا أناة فيهم: المبادرة بالعمل الصالح، ودفن الميت وتزويج الكفء.

ولا عجب أن يملك عمرو بن العاص هذه الكنوز من الحكمة وقد نهل من مدرسة النبوة العظيمة، وحكمها ما يغنيه، فهو الذي يقول ﷺ: « عقلت من رسول الله ﷺ ألف مثل »[٢].

عمَرو التقي:

وقد يستغرب الكثيرون هذا العنوان، فعمرو بن العاص عندهم رجل منفعة، يبيع دنياه بدينه، ولا يبالي في سبيل مصلحته بأي قيمة، وها نحن نعرض جانبًا من هذا الخلق العظيم عنده.

كان خارجًا عن سلطان بطنه:

فالذي يعيش حياته لبطنه ولذته كان محتقرًا عند عمرو، وهو في الجاهلية قبل أن يسلم وشعره الذي عرضنا له أكثر من مرة يؤكد هذا المعنى:

إذا المرء لم يترك طعامًا يحبه ... ولم يعص قلبًا غاديًا حيث يمما

قضى وطرًا منه يسيرًا وأصبحت ... إذا ذكرت أمثاله تملأ الفما

فهو يرى الطعام وسيلة للعيش، وليست لذة تقصد، وعندما دخل في الإسلام تبلور هذا المفهوم عنده، وتعامل مع الطعام بالفهم النبوي المعروف: « **ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلًا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفَسه** »[٣]، وإذا كان ابنه عبد الله ﷺ في فتوة شبابه استأذن رسول الله ﷺ في أن يصوم الدهر، فقال له رسول الله ﷺ لا تطيقه، أما عمرو ﷺ فقد كان يطيق ذلك، وكان كما روي عنه:

عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص كان يسرد الصوم، وقلما كان يصيب من العشاء أول الليل أكثر ما كان يصيبه من السحر قال: سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إن فصلًا بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر** »[٤].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٦١).
(٢) مسند أحمد (٤/ ٢٠٣).
(٣) مسند أحمد والترمذي والحاكم.
(٤) مسند أحمد (٤/ ١٩٧، ١٩٨).

فالذي يمضي عمره صائمًا ولا يعرف الطعام إلا من السحر كم هو مالك لسلطان بطنه وكم هو مسيطر على زمام شهوة الطعام عنده؟!!

وكان خارجًا عن سلطان شهوته:

وكان يرى كما سبق وذكر أن البطنة هي سبيل من لا عقل له، بل كان يكرهها ويمقتها كما يقول: (ما بطن قوم إلا فقدوا عقولهم. وما قضيت عزيمة رجلًا مات بطينًا).

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

ولنستعرض هذه الشهوات جميعها، وحالها مع عمرو بن العاص ﷺ:

- **أما النساء** فلم يعلم عنه أنه كان مكثرًا من النساء، بل كانت قولته الشهيرة: (لا أملُّ زوجتي ما أحسنت عشرتي).

وقد أثنى رسول اللَّه ﷺ عليه وعلى زوجته وعلى ابنه فقال:

« **نعم أهل البيت أبو عبد اللَّه وأم عبد اللَّه وعبد اللَّه** »[١].

ولم تقرأ في الكتب التي تعرضت لترجمته أنه تزوج نساء كثيرات غير زوجته أم ولده عبد اللَّه، وهي ربطة بنت منبة بن الحجاج من بني سهم. أما أم ولده محمد فهي من بلي[٢]، ولا نعرف عنها شيئًا.

وتزوج امرأتين من عقائل قريش إكرامًا لجهادهما وفضلهما:

الأولى: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط المهاجرة في سبيل اللَّه، وبها نزلت سورة الممتحنة (وكانت من المهاجرات، فتزوجها الزبير بن العوام فطلقها، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن عوف، فلما مات عنها تزوجها عمرو بن العاص)[٣].

الثانية: عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل التي تزوجها عبيدة بن الحارث، ثم عبد اللَّه ابن أبي بكر ثم عمر بن الخطاب، ثم محمد بن أبي بكر فقتل عنها بمصر فتزوجها عمرو ابن العاص[٤]، وأما البنون فليس بين أيدينا في كتب التراجم عنه كذلك أن عنده غير ولديه

---

(١) سبق تخريجه، وقال الهيثمي فيه: رجاله ثقات (٩/ ٣٥٤) وفيه انقطاع.

(٢) نسب قريش (ص ٤١١).

(٣) المحبر (ص ٤٠٧، ٤٠٨).

(٤) المصدر نفسه (ص ٤٢٧).

عبد اللَّه ومحمد، رغم زواجه مبكرًا وقرب عُمْرِ ابنه عبد اللَّه من عمره.

- **أما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة** فقد كان يملكها ووظفها في طريقها الصحيح وقد شهد له رسول اللَّه ﷺ بذلك أنه أهل لهذا المال ما في رواية غزوة ذات السلاسل « **وأرغب لك من المال رغبة صالحة** »قال: قلت يا ر سول اللَّه إني لم أسلم رغبة في المال؛ إنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك قال:« **يا عمرو نعمًّا بالمال الصالح للرجل الصالح** »[1].

- **أما الخيل المسوَّمة والأنعام** فنستمع إلى الحديث عن رفيقة دربه وجهاده (بغلته):

(فعن زكريا بن حصين عن جده حميد بن منهب قال: رُئي عمرو بن العاص بمصر وهو أمير على بغلة قد شاب وجهها من الهرم فقيل له: أيها الأمير تركب هذه البغلة؟!

قال: إني لا أملُّ دابتي ما حملتني.. إن الملال من سيئ الأخلاق)[2]، مع العلم بأنه قائد خيَّالة المسلمين في الحروب، وأما الحرث فقد كان في سعة منه كما كان في سعة من المال. كما يروي عن بستانه بالوهط (ابن عيينة حدثنا عمرو أخبرني مولًى لعمرو بن العاص أن عَمْرًا أدخل في تعريش الوهط بستان بالطائف ألف ألف عود كل عود بدرهم)[3].

وقد شهد له رسول اللَّه ﷺ بصفاء قلبه من حب المال وحب الدنيا، فهو ينفق من مال اللَّه الذي أعطاه، ويعرف نفسه أنه وكيل هذا المال، فالمال في يديه لا في قلبه كما في الحديث.

« **رحم اللَّه عَمْرًا** » قلنا: يا رسول اللَّه من عمرو هذا؟ قال: عمرو بن العاص قلنا: وما شأنه؟ قال: « **كنت إذا ندبت الناس إلى الصدقة جاء فأجزل منها، فأقول يا عمرو: أنى لك هذا؟ فقال: من عند اللَّه** »، قال: وصدق عمرو، إن له عند اللَّه خيرًا كثيرًا)[4].

وكان خارجًا عن سلطان لسانه:

فمع أنه في قمة الأمة فصاحة وبلاغة، ولم يكن عمر رضي الله عنه يجد مثلًا يضربه

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح. (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٥).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٧٤).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي، وقال المحقق فيه: رجاله ثقات خلا زهير بن قيس البلوي، فلم يذكر فيه جرح ولا تعديل (٣/ ٦٥).

للفصاحة غيره كما روي عنه.

(قال محمد بن سلام الجمحي: كان عمر إذا رأى من يتلجلج في كلامه قال: (هذا خالقه خالقُ عمرو بن العاص). وفي رواية: (خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد)(١).

ومع هذا فكان عسير المحاسبة لنفسه على كل كلمة يقولها؛ لأنه يعلم قول رسول اللَّه ﷺ:

« وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم - قال: أو قال: مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم »(٢).

فقد كان يخطب ذات يوم في المسلمين - وهو أميرهم - فقام أحد الصحابة وقال له: (كذبت واللَّه، لقد صحبت رسول اللَّه ﷺ وأنت شر من حماري هذا)(٣).

ومع أنه الأمير، ولكن لفضل الصحبة اكتفى بالقول له: « واللَّه ما أرد عليك ما تقول »(٤).

ولقد ندَّت منه مرة كلمة فحش في ساعة غضب بينه وبين المغيرة بن شعبة يحدثنا ابن عساكر عنها فيما رواه سفيان بن عيينة عن عمر قال:

(كان بين عمرو بن العاص وبين المغيرة بن شعبة كلام في الوهط، فسبَّه المغيرة، فقال عمرو: يا آل هصيص، أيسبني ابن شعبة. قال ابنه عبد اللَّه: إنا للَّه وإنا إليه راجعون. دعوت بدعوى القبائل، وقد نهى رسول اللَّه ﷺ عن دعوى القبائل. قال: فأعتق ثلاثين رقبة)(٥).

وقد أخطأ ذات مرة في حق أخيه مسلمة بن مخلد عندما صرعه خصمه الرومي فقال لمسلمة: (ما بال الرجل المسنه الذي يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال)(٦).

ثم هدأ غضبه ورأى كيف أنقذه مسلمة من الموت (فلما خرجوا استحيا عمرو مما كان قال حين غضب، فقال عمرو عند ذلك: استغفر لي ما كنت قلت لك. فاستغفر له وقال عمرو: ما أفحشت قط إلا ثلاث مرات: مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة، وما منهن

---

(١) المصدر نفسه (ص٧٣ - ٧٥).
(٢) أحمد والترمذي وابن ماجه وهو صحيح.
(٣، ٤) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٨١).
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٤).
(٦) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٨، ٦٩).

مرة إلا ندمت واستحييت، وما استحييت من واحدة منهم أشد مما استحييت مما قلت لك. واللّٰه إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما بقيت)[١].

وكان خارجًا عن سلطان نومه:

فحق العبادة في الليل، وحق التهجد للّٰه لا يفتر عنه بينه وبين ربه. نُقل لنا مرة واحدة ما سمعه أحد أصحابه بقوله وهو يتهجد ويبكي:

عن ربيعة بن لقيط قال: سمعت عمرو بن العاص وهو يصلي بالليل وهو يبكي ويقول: (اللهم إنك آتيت عمرًا مالًا، فإن كان أحب إليك أن تسلب عمرًا ماله ولا تعذبه في النار فاسلبه ماله، وإنك آتيت عمرًا أولادًا، فإن كان أحب اليك أن تثكل عمرًا ولده ولا تعذبه في النار فأثكله ولده، وإنك آتيت عمرًا سلطانًا فإن كان أحب إليك أن تنتزع منه سلطانه ولا تعذبه في النار فانزع منه سلطانه)[٢].

وكان خارجًا عن سلطان نفسه:

فلا يعرف الكِبْرُ سبيلًا إليه، جمَّ التواضع، يظهر ذلك فيه من خلال هاتين الحادثتين التاليتين:

- يذكر أحد المؤرخين أن حُسَّاده جعلوا لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرو ابن العاص وهو على دست الإمارة ومنبر الخطابة عن أمه، فقال له: من أم الأمير؟ فأمسك عمرو عن غضبه وقال: (أمي سلمى بنت حرملة، تلقب بالنابغة من بني عنزة، أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد اللّٰه ابن جدعان، وهبها للعاص بن وائل، فولدت له، فأنجبت، فإن كانوا جعلوا لك شيئًا فخُذه)[٣].

- والحادثة الثانية يوم وفد على عمر أمير المؤمنين:

حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص دخل على عمر بن الخطاب وهو على مائدته جاثيًا على ركبتيه، وأصحابه كلهم على تلك الحال، وليس في الجفنة فضل لأحد يجلس، فسلم عمرو على عمر، فرد عليه السلام قال: عمرو بن العاص؟ قال: نعم، فأدخل عمر يده في الثريد فملأها ثريدًا ثم ناولها عمرو بن العاص

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٨، ٦٩).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥١٤، ٥١٥).   (٣) الكامل للمبرد (ص ٤٤٧).

فقال: خذ هذا، فجلس عمرو وجعل الثريد في يده اليسرى ويأكل باليمنى، ووفد أهل مصر ينظرون إليه فلما خرجوا قال الوفد لعمرو: أي شيء صنعت، فقال عمرو: إنه واللّه لقد علم أني بما قدمت به من مصر لغني عن الثريد الذي ناولني، ولكنه أراد أن يختبرني، فلو لم أقبلها للقيت منه شرًّا(١).

لقد كان **الخوف من النار هو الهاجس الذي يشغله في الليل والنهار**، وكما رأيناه يدعو ربه إن كان ينجيه من عذاب النار خسارةُ ماله فليكن ذلك، وإن كان ينجيه من النار ثكلُ ولده فليكن ذلك، وإن كان ينجيه من النار فقدُ سلطانه فليكن ذلك. إنه يدعو ربه بالليل وهو ينتحب بهذا.

لقد كان شديد الإحساس من هذا الأمر عليه وعلى أهل بيته ليكونوا على الجادة.

وهذه قصته مع امرأته:

(فعن أبي عمران الفلسطيني قال: بينا امرأة عمرو بن العاص تفلي رأسه إذ نادت جاريةً لها، فأبطأت عنها، فقالت: يا زانية، فقال عمرو: رأيتها تزني؟ قالت: لا، قال: واللّه لتُضرَبِن لها يوم القيامة ثمانين سوطًا. فقالت لجاريتها وسألتها أن تعفو عنها، فعفت عنها فقالت: هل تجزي عني؟ قال: ومالها ألا تعفو وهي تحت يديك فأعتقيها. فقالت: فهل تجزي عني ذلك؟ قال: فلعل)(٢).

لقد كان خوف اللّه - تعالى - ملء قلبه وملء عينيه انعكس على كل تصرف من تصرفاته وخلق من أخلاقه، وكان يرى أنَّ تعلُّق القلب بالدنيا هو الذي يطمس هذا القلب، ويحول بينه وبين الهدى والزهد الحقيقي فيها، هو الذي يزيل ذلك الركام من القلب ويجعله معرضًا لنور اللّه.

(فعن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: لقد أصبحتم وأمسيتم ترغبون فيما كان رسول اللّه ﷺ يزهد فيه: أصبحتم ترغبون في الدنيا، وكان رسول اللّه ﷺ يزهد فيها، واللّه ما أتت على رسول اللّه ﷺ ليلة دهره إلا كان الذي عليه أكثر مما له. فقال له بعض أصحاب رسول اللّه ﷺ: قد رأينا رسول اللّه ﷺ يستسلف)(٣).

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ١٧٩).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (ص ٥٥٤).

(٣) مسند أحمد (٤/ ٢٠٤)، ورجاله ثقات غير يحيى بن إسحاق وهو صدوق.

ومع هذا كله فقد كان سمْته حسنًا مهيبًا، سيماء الإمارة عليه. ويكفي قول ابن الخطاب فيه: (ما ينبغي لأبي عبد اللَّه أن يمشي على الأرض إلا أميرًا)[١]، كما نذكر وصفه وهو يخطب (فقام عمرو بن العاص على المنبر، فرأيت رجلًا ربعة قصير القامة وافر الهامة أدعج، أبلج، عليه ثياب موشية كأن به العقيان، تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة، فحمد اللَّه وأثنى عليه ..)[٢].

ونذكر أخيرًا وصف قبيصة بن جابر ﷺ لعمرو مع من يصفهم فيقول: (وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت أَبْيَنَ - أو قال: أنصع - ظرفًا منه ولا أكرم جليسًا منه. وفي رواية: ولا أشبه سريرة بعلانية منه ...)[٣] فهو عنده البليغ الكريم التقي النقي الذي تشبه سريرته علانيته.

* * *
* *
*

(١) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر وقد أخرجه ابن خيثم عن طريق الليث.
(٢) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٤٠).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢٣)، والذهبي في السير (٣/ ٧٤)، (٥/ ٢).

مفتاح شخصيته

لقد كان مفتاح شخصيته في الجاهلية: حبه للشهرة وطموحه لمعالي الأمور، وصار مفتاح شخصيته في الإسلام إيمانه، أما في الجاهلية فلا داعي للوقوف عندها، فهو صاحب الطموح الكبير، ويكفي أن نذكر قوله لعمارة بن الوليد:

(إن فِيَّ مِنْ كلِ واحد منهم خير ما فيه. من عتبة حلمه، ومن أبي سفيان رأيه، ومن سهيل جوده، ومن أُبي نجدته، وأما الوليد فواللَّه ما أحب أن لي كل ما فيه من خير وشر، ولكنه واللَّه ما لك عقل الوليد ولا بأس ابن حرب ولا لسان أبي الحكم).

وتاريخه في الجاهلية حافل بالطموح للوصول لأعلى المواقع، وما حربه لمحمد ﷺ إلا أملًا في الانتصار عليه، وانتزاع السيادة منه، وإن كان هذا يغلَّفُ بطابع العقيدة والحفاظ على العقائد والموروثات الجاهلية.

لكنه يعترف ﷺ فيما بعد أن موقفه في الإسلام كان موقف العناد والتقليد. أما العناد والمكابرة فهو يقول محددًا ماضيه كله مع الإسلام، قبل أن يتجه إلى بؤرة النور (كنت للإسلام مجانبًا معاندًا فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحدًا فنجوت، ثم حضرت الخندق فقلت في نفسي: كم أوضع! واللَّه ليظهرن محمد على قريش، فلحقت بما لي بالطائف وأنا بعد ناءٍ عن الإسلام أرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم)[1].

فليست قضية الإيمان بالأصنام والأوثان هي التي تحكمه، إنما يحكمه العناد والمكابرة والرغبة في الانتصار على رسول اللَّه ﷺ، لكنه يئس من ذلك وانتهى إلى الطريق المسدود.

ودافع آخر كان يحكمه غير العناد والمكابرة هو تقليد الآباء والأجداد.

فعن الزبير بن بكار قال: قيل لعمرو بن العاص: ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت في عقلك؟ فقال: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم توازن حلومهم الجبال، ما سلكوا فجًّا فتبعناهم إلا وجدناه سهلًا، فلما أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم، ولم نفكر في أمرنا

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٤٩٥).

وقلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمر النبي ﷺ وتدبرناه. فإذا الأمر بيِّنٌ، فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك في إبطائي عما كنت أسرع فيه من معونتهم على أمرهم[١].

وها هو عمر بن الخطاب ﷺ ينحي باللائمة على عمرو لتأخره عن الإسلام، فيحجه عمر، فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال، قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين؟! فقال له عمرو: وما يعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره، لا يستقدر التخلص منه إلا إلى ما أراد الذي هو بيده، فقال عمر: صدقت)[٢].

ولخص عمرو نظريته في الجاهلية بأن المكارم لا تورث، إنما تكسب، وذلك حين هجا عمارة بن الوليد بقوله:

إذا كانت ذا بردين أحوى مرجلًا فلست لراء لابن عمك محرما
إذا المرء لم يترك طعامًا يحبه ولم ينه قلبا غاويًا حيث يمما
قضى وطرًا منه وغادر سبه إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما
وليس الفتى إما أنمت عروقه بذي كرم إلا إذا تكرما

هذا هو مفتاح شخصيته في الجاهلية (حبه للشهرة، وطموحه للمجد).

أما مفتاح شخصيته في الإسلام فهو إيمانه وهو رجل المبادئ في كل مواقفه، فمنذ أن التقى برسول اللَّه ﷺ طوى صفحة الكفر كاملة، وافتتح صفحة جديدة هي صفحة الإيمان باللَّه ورسوله، وقال عنه رسول اللَّه ﷺ:

« **أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص** ».

وهذه الشهادة النبوية له هي أول ما تكون على مفتاح شخصيته.

وقبل أن نتحدث عن دور هذا المفتاح في صفحته الإسلامية التي استمرت أربعين عامًا، نعود إلى كبار الكتاب عنه، إلى أستاذنا اللواء شيت خطاب، وإلى العقاد في كتابه: عمرو بن العاص، وإلى أبي رابية كذلك؛ فهؤلاء الثلاثة أعظم مَنْ أَلَّف عن عمرو ﷺ.

---

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٤٩٦).
(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٤٩٧).

أما أستاذنا شيت خطاب فقد دخل الباب برفق واعتبر مفتاح شخصيته أنه دائمًا مع القوة:

يقول: (مفتاح شخصية عمرو أنه كان يستعرض جوانب القوة دائمًا، ويوازن بين ما لدى أعدائه وأصحابه على حد سواء من القدرة موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي، فقد كان رجلًا يتقن الحساب ويجيد المساومة، يقف ساكنًا، ويفكر طويلًا، ويساوم في حرص، إنه يشترط دائمًا، هكذا كان موقفه في كل أمر!!)[1].

فعمرو إذن عند أستاذنا شيت خطاب:

إنه دائمًا مع القوة، وليس مع الحق.

وكنا نربأ بأستاذنا العظيم عن هذه الزَّلة، وعذره فيها أنه لم يحقق في النصوص، لكن من هو في مثل فضله غير معذور.

أما الأستاذ العقاد فقد هبط بعمرو دون هذا بكثير، وأبقاه على جاهليته بأن مفتاح شخصيته الطموح للمجد والمال وهو هو في الإسلام وفي الجاهلية والذي يعرف كتابات العقاد ويعيش معها يدرك قيمة الرجل عنده، فالذي قدم له بالعبقريات وضع مفتاحًا لشخصيته، أما الذين لم يقدم لهم بـ (عبقرية) فهؤلاء أدنى عنده من أن يتحدث بعنوان مستقل عن مفتاح شخصيتهم مثل عثمان بن عفان، ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وها هو يقدم لنا عمرو بن العاص كما هو في مخيلته.

(أما صفاته النفسية فنبدأ بما وصف به نفسه، أو بقول الرواة الذين وصفوه هذا الوصف وهم يدعون من المعرفة به ما يقوله الرجل حين يصفه بلسانه.

روى هشام بن الكلبي أن أناسًا لاموا معاوية على تقديمه عمرًا، فبلغته ملامتهم، فقال بعد استشهاد: (قد علمت أني الكرار في الحرب، الصبور على غير الدهر، لا أنام عن طلب، كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة، ولعمري لست بالواني أو الضعيف بل أنا مثل الحية الصماء، لا شفاء لمن عضته، ولا يرقد من لسعته، وإني ما ضربت إلا فريت، ولا يخبو ما شببت، عرفني أصحاب يوم الهرير (بحرب صفين) أنني أشدهم قلبًا وأثبتهم يدًا، أحمي اللواء وأذود عن الحمى، فكأنني وشأني عند قول القائل:

وهل عجب إن كان خرعي عسجدا إذا كنت لا أرضى مفاخرة العشب)[2]

---

(١) عمرو بن العاص: القائد المسلم والسفير الأمين (١/ ١٧٤) لـ : محمود شيت خطاب.

(٢) هذه الرواية ساقها العقاد من كتب الأدب عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وهو يروي عن أبيه.
قال الذهبي: فيه هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، تركوه، أخباري. المغني في الضعفاء (٢/ ٧١١) وقالوا =

وهذا وصف صادق إذا أعفينا عن جانب الفخر فيه، طابق صفاته النفسية التي تشهد بها أقواله وأعماله ومساعيه، وهي مجموعة محكمة من الصفات القوية، ولكنها على قوتها بسيطة متناسبة، يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب في أمثال هذه النفس الفطرية وأعمقها جدًّا هو أظهرها جدًّا، وهو الذي تعمق حتى بلغ من عمقه أن ينضح على قسمات وجهه وحركات جسده وهو الطموح إلى الهيبة والثراء وطلب البسطة في الجاه والمال ما نخاله وقف في الطموح عند حد. ولا قعد عن الخلافة وهو مختار، بل قد طمع إليها وأعد عدته لإقصاء بني أمية عنها، فلما أبأسه مغمز النسب ورجحان بني أمية على بني سهم في العصبية القرشية طوى الصدر على كظم وقعد عنها وهو كاره يعزي نفسه بقوله المأثور عنه:

« إن ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة »[1].

وفي أخلاق عمرو « عقدة نفسية » لا تفتأ تصادفنا عند المقابلة بين نقائضه كما تصادفنا في جميع العظماء من أمثالهم وأشباههم في الطبيعة والملكة، ويعني بهم أولئك الذين يلتقي فيهم الطموح والحركة وضبط النفس في سبيل المطالب التي يطمحون إليها، فما منهم أحد إلا وجدت له نقائض من الحذر الشديد والاندفاع الشديد، أو من ضبط النفس كأنه لا يعرف جمحات الشعور، ومن المجازفة كأنه لا يعرف الروية، وهي نقائض في الظاهر وليست بنقائض في الحقيقة؛ لأن قوة الطموح تفسر لنا النقيضين، فإذا هما مستمدان من ينبوع واحد هو قوة الطموح إذ إن هذه القوة الطامحة لا تزال محضرة له الأمل شاخصًا باهرًا نصب عينيه، فيهون عليه أن يكبح شعوره الجامح في سبيل الوصول إلى أمله العظيم، أو في سبيل المحافظة عليه بعد الوصول إليه. ثم يثقل الكبح على هذا الطماح فيلتمس الروح منه والمتنفس من قيده بالمجازفة كما يتوق الصائم إلى العيد والفرس الملجم إلى المراح)[2].

ويصف مسيره إلى معاوية – رضي اللَّه عنهما – بقوله:

(وليقل الناقدون التاريخيون ما شاء اللَّه لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار، وما ثبت نقله ولم يثبت منه سنده، فالذي لا ريب فيه – ولو اجتمعت التواريخ قاطبة على

= عن أبيه في تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢): النسابة المفسر المتهم بالكذب ورُمي بالرفض. ولكن يؤخذ من علمه بالنسب.

(١) عمرو بن العاص لـ: عباس محمود العقاد (ص ٢٨).

(٢) عمرو بن العاص لـ: عباس محمود العقاد (ص ٣٨، ٣٩).

نقضه - أن الاتفاق بين الرجلين كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية، وأن المساومة كانت على النصيب الذي آل إلى كل منهما، ولولاه لما كان بينهما اتفاق، فكان معاوية يطمح إلى الخلافة يتولاها ويورثها أعقابه من بعده، وكان عمرو يطمح إلى ولاية مصر جامعة، وهي عنده تعدل الخلافة ما لم يكن إلى الخلافة سبيل، ومثل هذا الاتفاق أقوى اتفاق، ولكنه قد ينقلب في حالة من حالته فإذا هو أضعف اتفاق وأقربه إلى النقض والانتقاض، ومن سر الضعف فيه أن الشريك هنا هو أعدى الأعداء وأولى المنافسين بالتخلص منه إذا أمكن الخلاص)[١].

وهذا الكاتب الثالث عبد الخالق سيد أبو رابية والذي أبدع في عرض كثير من جوانب عبقرية عمرو، ها هو يحدد رأيه بعمرو قائلًا:

(لقد كان عمرو بن العاص طموحًا دائمًا، وكان هذا الطموح العنيف الذي لزمه منذ صباه وظل معه إلى ختام حياته العريضة طموحًا قائمًا على مطالب الواقع في بواعثه ومراميه؛ إذ كانت نظرة عمرو إلى الدنيا عملية لا خيالية، ومناطها هو الأخذ بالأحوط والأنفع في كل من الأمور، ما كبر منها وما صغر، ولم يكن عمرو يدري وخلجات أعماقه تتصارع في أعماقه بمثل هذا الهول أنه يوشك أن يضع للعالم أسس فلسفة عملية نفعية جديدة صاغها من بعده في القرن التاسع عشر الميلادي أحد الفلاسفة المحدثين تحت اسم الفلسفة البراجماتية أو مذهب الذرائع[٢]. أجل، كان أول من صاغ هذا الاصطلاح الحديث بيرس (١٨٧٨م) ثم تناولها بعده فيلسوف أمريكا الأكبرجون ديوي وفصلها في نظام فلسفي عميق زاعمًا « أن العقل في الواقع ليس أداة المعرفة، وإنما هو أداة تطور الحياة وتنميتها، فليس من وظيفة العقل أن يعرف، وإنما عمل العقل هو خدمة الحياة وتيسير السبل لكي تنمو وتطرد)[٣].

وفي صدد حديثه عن اختيار جانب معاوية على علي يقول:

(وهكذا قاد عمرًا دهاؤه وطموحه وحبه للإمارة وضعفه الشديد أمام كسب المال واكتنازه إلى أن يغير سياسته دفعة واحدة، فأصبح من أكبر أنصار معاوية زعيم حزب عثمان وغريم علي بن أبي طالب)[٤].

---

(١) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد (ص ٢٣٢).

(٢) يعبرون عنه بقولهم: الغاية تبرر الوسيلة.

(٣) عمرو بن العاص لعبد الخالق أبي رابية (ص ٣١٥).

(٤) المرجع السابق (ص ٣١٤).

وفي صدد اتهام علي بدم عثمان يقول:

(يروي الإمام الطبري: « ولما قدم عمرو على معاوية أشار عليه أن يلزم عليًّا دم عثمان، وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى »[١] ذلك أن عمرو بن العاص رأى أن يلصق جريمة قتل عثمان بعنق الإمام علي، وهو على يقين بأن دم عثمان لا يعلق منه شيء في عنق رابع الراشدين، وأنه بريء من هذا الدم إلى يوم القيامة، ولكن عمرًا رأى أن إلصاق دم عثمان المهدر بعنق الخليفة الجديد هو الطريق الوحيد لإزالته عن السلطان، حتى إذا نجحت هذه الذريعة كانت وسيلته لكسب طموحه الشخصي، فكل شيء عند عمرو مباح ما دام يصيب به مغنمًا وما دام هو الوسيلة لمثلى لتحقيق أهدافه ومراميه، وخاض عمرو بن العاص بهذه الفرية التي ألحقها بالإمام علي في دماء المسلمين إذا أوقد الفتنة بين الناس وضلل من استطاع تضليله منهم، وبرع في الحيل والخداع بلا تحرج، وقد صار دم عثمان ذريعة لإشعال حرب تهلك الحرث والنسل، يكون وقودها المسلمون، ووسيلتها المكر والخداع والرأي البارع، والبديهة الحاضرة)[٢].

وها هو يتحدث عن عمرو في المقدمة:

(فأي طراز من الرجال كان عمرو بن العاص؟

لقد ذكرت المصادر العربية وعنها أخذ المؤرخون الأجانب أنه كان عدة رجال في رجل واحد، وكانت له مستويات شتى من الشخصية البشرية الواحدة، يكاد يكفي كل مستوًى منها لحياة رجل بأكملها واجتماعها كلها في حياة رجل واحد بعينه، أمر يدعو إلى الغرابة في حد ذاته؛ لأنه يوجز في عمرو رجل واحد ما كان يصلح لحمله أعمار أو لجملة رجال.

ألم يغير عمرو وجه الدولة الإسلامية ؛ومن ثم غيَّر وجه الحضارة والتاريخ الإنسانيين الإسلاميين إلى يومنا هذا؟! إذ هو صاحب الفكرة الثاقبة في فتح مصر، ثم هو فاتحها فعلًا بما يشبه المعجزة العسكرية!!

ألم يغير التاريخ الإسلامي مرة أخرى تغييرًا حاسمًا في الدولة الإسلامية الفتية حين انتشل بالرأي الحاذق والحيلة البارعة مصير معاوية من مهاوي الهزيمة وأرسى خطاه على طريق النصر، فأحدث الحدث الذي لا يدانيه حدث في تاريخ الإسلام والعرب!! إذ

---

(١) لم أجد لهذا النص أثرًا عند الطبري.

(٢) عمرو بن العاص: لعبد الخالق سيد أبي رابية (ص ٣١٧).

تحولت بعده الخلافة الراشدة القائمة على الشورى إلى ملك عضوض يتوارثه بيت أبي سفيان بن أمية، لا مكان فيه للشورى التي نص عليها القرآن، وإنما هو الاستبداد وتسلط الفرد، فأسقط دولة الحق والعدل، وأقام كيانًا قوامه الطبقية والعصبية القبلية؟؟!)[١].

وفي مكان آخر في المقدمة يلخصه بأنه رجل أهداف وليس رجل مبادئ فيقول عنه:

(أما غريمه عمرو فقد كان رجل أهداف لا رجل مبادئ، يريد أن يصل إلى ما تصبو إليه نفسه، وهي ولاية مصر من أي طريق يسلكه، وأنه استعمل في ذلك من الخدع والدهاء التي امتاز بها على العرب كافة وهي سياسة (فرق تسد) ما غير بها مجرى تاريخ الأمة العربية ذلك التغيير الحاسم الحافل بالأحداث الجسام)[٢].

ويصل الخلل عنده أن يرى في هذا التغيير للتاريخ الإسلامي عنوان صحة لا عنوان فساد.

(أصبحت نظم الحكم التي كانت مألوفة أيام أبي بكر وعمر غير صالحة لهذه الإمبراطورية الإسلامية الضخمة التي تألفت من شعوب مختلفة في الجنس والعادات والخلق والدين وسائر أنواع الحياة. لذلك لم يكن بدٌّ من انقسام العرب إلى قسمين: قسم يدافع عن المذهب الموروث، مذهب الحرية ذي النظام البدوي البسيط الذي ساد عهد أبي بكر وعمر والذي ما كان يصلح إلا أيامها يؤيده السلف الصالح من صحابة رسول اللَّه كأبي موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص.

وقسم آخر يدافع عن المذهب الجديد مذهب تأسيس ملكية إسلامية ذات نظام يلائم الحال التي وصلت إليها الأمة العربية، ويؤيده زعماء من العرب على رأسهم بنو أمية، ومؤيد من أهل الشام ومن أهل فارس، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الانقسام هي وقوع الحرب بين الفريقين، وكان لا بد من وقوعها، والتي انتهت بقيام النظام الملكي الجديد مكان نظام الشورى القديم)[٣].

وهكذا ينتهى الأمر بهؤلاء المفكرين بتقديم عمرو بن العاص ﷺ أنه يسلك دومًا جانب القوة كما يرى أستاذنا شيت خطاب وأنه رجل الطموح والمجد الحريص على المال والسلطان - كما يراه العقاد - وأنه مؤسس مذهب النفعية والمصلحة عند أبي رابية،

---

(١) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبي رابية (ص ١٠).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٥).

(٣) عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبي رابية (ص ٢٦).

وهذا التقويم يقود بالنهاية إلى اعتبار المصالح صاحبة الوزن الأول في عالم عمرو بن العاص. كما هي اليوم في عالم السياسة.

وانطلاقًا من ذلك فلا تجتمع السياسة والدين؛ لأن السياسة كذب وخداع وتضليل وسفك الدماء إن اقتضى الأمر، والدين طهر ونظافة واستقامة، ولا يلتقيان معًا، ويسوق هذا الجمهور دائمًا كلمة السياسي الأمريكي المخضرم هنري كيسنجر في كتابه الدبلوماسية والسياسية: (ليس هناك عداوات دائمة ولا صداقات دائمة، إنما مصالح دائمة) ويعتبرونها هي ميزان عالم السياسة اليوم.

لكنا نفاجأ بكلمة وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مالدين ألبرايت في بيانها الذي عرضته أمام لجنة الشؤون الخارجية بمناسبة ترشيحها لهذا المنصب في مؤتمرها الصحفي في (٢٤ كانون الثاني ١٩٩٥م) إذ تقول: (قال ممثل دولة أجنبية كبرى ذات مرة أن بلاده ليس لها حلفاء دائمون وإنما مصالح دائمة، ويمكن أن يقال عن أمريكا أنه ليس لها خصوم دائمون بل فقط مبادئ دائمة)[1].

فإذن حتى في عالم السياسة اليوم وبلسان وزير خارجية أكبر دولة في العالم أن هناك مبادئ دائمة تحكم سياسة هذه الدولة.

فكيف نستطيع بعد هذا كله أن نقبل هذا المنحدر الذي أوصله إليه المؤرخون والمفكرون لعمرو ﷺ.

إن مردَّ هذا كله هو قبولهم الغث من الروايات والسقيم والضعيف والموضوع وعدم تمييز الصحيح عن غيره.

فإما أن لهم هوى ويعرفون أن لعلم التاريخ أصوله ومنهجه وطريقة الحكم على رواياته، لكنهم وجدوا هوًى في تجاهل هذا المنهج وابتعدوا عن تحقيق ثبوت الأحداث والنصوص سندًا أو متنًا.

وإما أنهم لم يسمعوا بشيء من ذلك، ويحسبون أن كل حادثة أو نص يأخذون منها ما يروق لهم منه طالما أنه ورد في أحد كتب الأدب والتاريخ.

وكلتا النظرتين جهل أو تجاهل لا يليق بكبار المؤرخين المعاصرين.

---

(١) أضواء على الأنباء الصادرة عن وكالة إعلام الولايات المتحدة بجدة، العدد السنة ١٢ تاريخ ١٣ يناير (كانون الثاني ، ١٩٧٧م).

خاصة وأن الذي يقرأ في كتاب شيخ المحدثين الطبري ومن صفحاته الأولى يحدد منهجه ويبرئ ساحته مما نقل في الكتاب مما لم تثبت صحته يطالعه قوله:

فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين من يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهًا من الصحة ولا معنًى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يأت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا)[١].

فالطبري - رحمه اللَّه - يعلن عدم مسؤوليته عما ورد في كتابه وليس بالضروري أن يمثل قناعته، فقد يكون مستشنعًا ومستنكرًا، إنما مسؤوليته على راويه.

وبهذا الإعلان في مقدمة تاريخه لم يعد لأحد حجة أن يغش الناس بقوله: روى الإمام الطبري ويوهمهم بأنه ينقل رأي الإمام في هذا الأمر.

هذا الإعلان تمامًا بمثابة ما يكتب في بداية كثير من المجلات العلمية.

ما ينشر في هذه المجلة يعبر عن رأي كاتبه بل أحيانًا يكون كتابًا في سلسلة تقدمه إحدى دور النشر فنقول: ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها.

ومن منطلق التحقيق والتوثيق والتصحيح نتحدث عن عمرو بن العاص ﷺ بصفته رجل المبادئ، عكس كل القناعات السابقة التي قدمته رجل المصالح زورًا وبهتانًا على التاريخ.

* * *
* *
*

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري، المقدمة (١/ ٨).

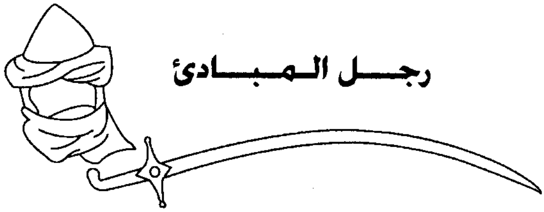

رجل المبادئ

وقليلون جدًّا من ساسة العالم وقادته هم رجال مبادئ، ولنمض مع هذا النموذج الخالد الذي تمثلت فيه مبادئ الإسلام في كل مواقفه ومنطلقاته.

١ - نلتقي معه ابتداءً حين بدأ نور الإسلام يتسلل إلى صدره كيف تباطأ عن نصرة قريش تجاوبًا مع هذه القناعة الضعيفة:

(فعن الزبير بن بكار قال: قيل لعمرو بن العاص: ما أبطأ بك عن الإسلام، وأنت أنت في عقلك فقال: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن، توازن حلومهم الجبال ما سلكوا فجًّا فتبعناهم إلا وجدناه سهلًا، فلما أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم، ولم نفكر في أمرنا، وقلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمر النبي ﷺ وتدبرناه، فإذا الأمر بيِّنٌ فوقع في قلبي الإسلام، وعرفت قريش ذلك في إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم، فبعثوا إليَّ فتًى منهم فقال: أبا عبد اللَّه! إن قومك قد ظنوا بك الميل إلى محمد. فقلت له: يا ابن أخي إن كنت تحب أن تعلم ما عندي فموعدك الظل من حراء. فالتقينا هناك فقلت:

إني أنشدك اللَّه الذي هو ربك ورب من قبلك ورب من بعدك: أنحن أهدى أم فارس والروم؟قال: بل نحن. فقلت: أنحن أوسع معاشًا وأعظم ملكًا أم فارس والروم؟قال: بل فارس والروم. قلت: فما ينفعنا، فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم فيها أكرمنا أمرًا قد وقع في نفسي أن ما يقول محمد من البعث بعد الموت حق ليجزي المحسنين في الآخرة بإحسانه والمسيء بإساءته، هذا يا بن أخي الذي وقع في نفسي ولا خير في التمادي بالباطل)[1].

٢ - ثم نمضي معه حيث عرَّض نفسه للموت ساعة إسلامه كما يحدثنا عن نفسه:

(.. فتفرقنا ولم يكن أحد أحب إلي من أن ألقاه من جعفر، فاستقبلني من طريق مرة، فنظرت خلفه فلم أر أحدًا، فنظرت خلفي فلم أر أحدًا، فدنوت منه وقلت: أتعلم أني أشهد

---

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٤٩٦، ٤٩٧).

أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبده ورسوله؟ قال: فقد هداك اللَّه فاثبت، فتركني وذهب، فأتيت أصحابي فكأنما شهدوه معي، فأخذوا قطيفة أو ثوبًا فجعلوه عليَّ حتى غموني بها، وجعلت أخرج رأسي من هذه الناحية مرة ومن هذه الناحية مرة حتى أَفلتُّ وما علي قشرة، فمررت على حبشية، فأخذت قناعها فجعلته على عورتي، فأتيت جعفرًا فدخلت عليه فقال: مالك؟ فقلت: أخذ كل شيء لي ما ترك علي قشرة، فأتيت حبشية فأخذت قناعها، فجعلته على عورتي، فانطلق وانطلقت معه حتى أتى إلى باب الملك فقال جعفر لآذِنِه: استأذن لي. قال: إنه عند أهله فقال: استأذن لي عليه، فاستأذن له، فأذن له، فقال: إن عمرًا تابعني على ديني قال: كلا، قلت: بلى. فقال لإنسان: اذهب معه، فإن فعل فلا يقل شيئًا إلا كتبته. قال فجاء فقال: نعم. فجعلت أقول وجعل يكتب حتى كتبت كل شيء حتى القدح قال: ولو شئت أن آخذ شيئًا من أموالهم إلى مالي فعلت)[١].

وهؤلاء الذين حاولوا خنقه وجردوه من ثيابه وتركوه عاريًا هم الذين جاؤوا معه من مكة قائلين له: (وأنت ذو رأينا ومَدْرَهُنا مع يُمْنِ نقيبة وبَرَكةِ أَمْر).

٣ - وكان رجل المبادئ حين جاء وبايع رسول اللَّه ﷺ على الإسلام وطوى صفحة الكفر كله:

(.. أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **إن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها** ».

وأعطاه رسول اللَّه ﷺ شهادة براءة خالدة بعد الشهادة السابقة فقال: « **أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص** »[٢].

وأخذ موقعه الحقيقي في القيادة. كما يحدثنا حبان بن أبي جبلة عن عمرو بن العاص قال:

(ما عدل بي رسول اللَّه ﷺ وبخالد منذ أسلمنا أحدًا من أصحابه في حربه)[٣].

وفي رواية: (في أمرِ حَزَبهُ منذ أسلمنا).

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ٢٨) وقال فيه: رواه الطبراني والبزار، وعمير بن إسحاق، وثقه ابن حبان وغيره، وفيه كلام لا يضر، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٦٤) وقال المحقق فيه: إسناده حسن وهو في المسند (٤/ ١٥٥) وأخرجه الترمذي (ح ٣٨٤٤).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٤٩٦)، والسير (٣/ ٦٦).

٤ - وفي غزوة ذات السلاسل الذي اختاره رسول الله ﷺ لقيادتها وكانت أول دورة تربوية يخوضها حيث أرسل معه أكبر المربين في المدرسة النبوية ليرافقوه: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير من قيادات الأنصار، ومعظم الباقين من كبار المهاجرين والأنصار، وتلقى في هذه المعركة أكبر دروس التضحية والإيثار من أبي عبيدة أمين الأمة حين تنازل عن قيادة الجيش له، وأكبر دروس الطاعة والانضباط من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وهما الوزير الأول والثاني في دولة الإسلام معترفين له بخبرته في الحرب.

لكن الدرس الأعظم الذي تلقاه، وبقي معه طيلة حياته هو الدرس الذي تلقاه من رسول اللَّه ﷺ بعد عودته حين حسب أن الفضل والحب منوط بالقيادة الحربية، فجاء إلى رسول اللَّه ﷺ يقول له بعد انتصاره بذات السلاسل:

(يا رسول اللَّه! من أحب الناس إليك؟ قال: « **عائشة** ». قلت: إني لست أسألك عن أهلك. قال « **فأبوها** » قلت: ثم من؟ قال: « **عمر** » قلت: ثم من؟ حتى عد رهطًا قلت في نفسي: لا أعود أسأل عن هذا؟ وفي رواية الشيخين فسكتُّ مخافة أن يجعلني آخرهم)[1].

ومنذ ذلك الوقت عرف موقعه الحقيقي في الأمة بالرغم من أنه وخالد هما المقدمان في الحروب، لكنهما ليسا المقدمين في الفضل، فهو في سُلَّم الفضل على أول درجات السلم بعد أهل بدر وأهل الحديبية.

٥ - وكان رجل المبادئ يوم بعثه رسول اللَّه ﷺ وحده من أقصى مغرب الجزيرة إلى أقصى مشرقها إلى ابني الجلندي ملكي عمان، وبقي يحاور ويصابر ويخطط حتى انتهى بهما جنديين في دين اللَّه ﷻ، وكان دخول أهل عمان في دين اللَّه في صفحته ﷺ:

(.. فقلت إني خارج غدًا، فلما أيقن بخروجي أرسل إلي فأجاب إلى الإسلام، فأسلم هو وأخوه، وصدَّق بالنبي ﷺ وخليا بيني وبين الصدقة والحكم فيما بينهم، وكانا لي أعوانًا على من خالفني، فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها على فقرائهم، وأخذت صدقات ثمارهم وما تجروا به، فلم أزل مقيمًا حتى بلغنا وفاة رسول اللَّه ﷺ)[2].

٦ - وكان رجل المبادئ يوم واجه مُسيْلمة الكذَّاب في عقر داره وعرَّض حياته للموت وعنقه

---

(١) مسلم (٤/ ١٨٥٦)، (ح ٨ - ٣٨٤)، وعند البخاري: (٢/ ٥/ ٢٠٦، ٢٠٧) غزوة ذات السلاسل.

(٢) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٥٠٨).

للسيف، وواجه قرة بن هبيرة العامري الذي مالأ مسيلمة ولم يخش في اللَّه لومة لائم:

(فقال عمرو « لمسيلمة »:أما واللَّه إنك كاذب، وإنك لتعلم أنك من الكاذبين، فتوعدني، وعندما هدَّده قرة بن هبيرة سيد بني عامر وفي ديارها بقوله: أكفرت ياقرة؟

فأجابه: (لنردنكم إلى فئتكم، اجعلوا بيننا وبينكم موعدًا).

فقال عمرو: توعدنا بالعرب وتخوفنا بهم، موعدك حفش أمك، فواللَّه لأوطئن عليك الخيل)[1].

٧ - وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم اختاره أبو بكر ليكون أحد القادة الكبار فى فتح الشام.

وهذا نص الخطابين المتبادلين بين أمير المؤمنين وواليه عمرو بن العاص:

(.. إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولَّاكه رسول اللَّه ﷺ مرة، وسمَّاكه مرة أخرى مبعثك إلى عُمان إنجازًا لمواعيد رسول اللَّه ﷺ فقد وليته ثم وليته، وقد أحببت أبا عبد اللَّه أن أفرِّغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك..).

وكان جواب عمرو رضي الله عنه المنبعث من عقيدته وإيمانه :

(فكتب إليه عمرو:

إني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد اللَّه الرامي بها، والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها، وارم بها شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي)[2].

فها هو يرى نفسه سهمًا من سهام اللَّه وجنديًا من جنوده، يقذف به أميرُ المؤمنين حيث يشاء.

٨ - وكان رجل المبادئ والعقيدة حين مضى على قيادة الجيوش الإسلامية يفتح الأرض بهذا الدين وهذه العقيدة، ولم يجد حرجًا أن يضحي بنفسه ليقدم دين اللَّه تعالى للبطريق الرومي:

فـ(لما سار أميرًا على الشام فنزلوا بقرية يقال لها: باذن من قرى عنزة مما يلي الحجاز، فلقيهم بطريق من بطارقة الروم، فأرسلو إليه أن يخرجوا إليه أحد القواد ليكلمه، فتواكلوا عن ذلك وقالوا لعمرو بن العاص: أنت لذلك، فخرج إليه عمرو بن العاص، فلما انتهى إليه رحب به البطريق، وأجلسه على سريره، ومتَّ إليه بقرابة العيص بن إسحاق بن إبراهيم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/ ٢٥٩). (٢) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٩).

وإسماعيل بن إبراهيم، فكلمه عمرو ودعاهم إلى الدخول فى الإسلام، أو الجزية عن يد وهم صاغرون، فأبى وضن بدينه، فقال عمرو: قد أعذرت، ولم يبق إلا السيف فافترقا واقتتلوا فكانت بينهم معركة عظيمة)[١].

٩ - وكان رجل المبادئ والعقيدة ينطلق من إيمانه العظيم حين وقف يوم اليرموك على رأس الجيش الإسلامي يوصيه بقوله: (يا أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا على الركب وأشرعوا الرماح، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا وثبة الأسد)[٢].

وراح يذكرهم بموعود اللَّه تعالى لهم بالنصر: (فهو الذي يرضي الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحسانًا: لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفرًا كَفرًا وقصرًا قصرًا، فلا يهولنكم جمعهم ولا عدوهم، فإنكم لو صدقتموهم الشد لتطايروا تطاير أولاد الحجل)[٣].

وترجم القول إلى فعل حين اشتدت وطأة الروم على المسلمين وتقهقر حامل رايتهم في الميمنة، عاد يقود الهجوم المعاكس ويضحي بروحه ويرنو للشهادة في سبيل اللَّه.

فـ (لما رأى عمرو بن العاص يوم اليرموك صاحب الراية ينكشف بها أخذها، ثم جعل يتقدم وهو يصيح: إلي إلي يا معاشر المسلمين، فجعل يطعن بها قدمًا وهو يقول: اصنعوا كما أصنع حتى إنه ليرفعها وكأن عليها ألسنة المطر من العلق).

استطاع بهذا الثبات وهذه التضحية أن يغير مصير المعركة ويقود مع إخوانه القادة المسلمين إلى النصر المؤزر في اليرموك.

١٠ - وكان رجل المبدأ والعقيدة في أجنادين ورغم موقعه في القيادة فقد تكَفَّن مع أخيه هشام بن العاص واستعد للقاء اللَّه والاستشهاد في سبيله:

ويصف عمرو هذه الحادثة بقوله: (أخذت بعمود الفسطاط، ثم اغتسلت وتحنطت، ثم تكفنت، فعرضنا أنفسنا على اللَّه ﷻ فقبله فهو خير مني، يقولها ثلاثًا)[٤].

---

(١) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (١٣/ ٥١٠). (٢) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٨).

(٣) المصدر نفسه (ص ٩).

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ٣٥٣) وقال فيه: رواه الطبراني وفيه أبو عمرو مولى بني أمية لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

أما كيف كان ذلك العرض فقد التقط خلف بن معدان هذا المشهد فنقله لنا بقوله: (لما انهزمت الروم يوم أجنادين انتهوا إلى موضع لا يعبره إلا إنسان، وجعلت الروم تقاتل عليه وقد تقدموه وعبروه، وتقدم هشام بن العاص بن وائل فقاتل عليه حتى قتل ووقع على تلك الثلمة فسدها، فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يوطئوه الخيل، فقال عمرو بن العاص: أيها الناس إن اللَّه قد استشهده ورفع روحه، وإنما هو جثة فأوطئوه الخيل، ثم أوطأه هو وتبعه الناس حتى قطَّعوه، فلما انتهت الهزيمة (هزيمة الروم) ورجع المسلمون إلى العسكر كرَّ عليه عمرو بن العاص فجعل يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه ثم حمل في نطع فواراه)[1].

وذلك لأن فوات المبادرة قد يفوت النصر، فلتكن الملاحقة للعدو ولو على جثة أخيه وأحب الخلق إليه، بعد رسول اللَّه ﷺ، ولما حقق هدفة واطمأن إلى النصر عاد فجمع لحمه وأعضاءه في نطع، وواراه التراب، بينما يمكن لقائد آخر أن يفقد أعصابه حزنًا وأسًى على فقد أعز أحبابه وتتحول المعركة لصالح عدوه حين يتوانى عنه.

١١ - وكان رجل المبدأ والعقيدة وهو يخدع أرطبون الروم فيمضي إليه ويحادثه ويتعرف على أسراره. فيكتشف أرطبون الروم أنه إنما خدع من أدهى الخلق وحارب بعقله قبل أن يحارب بسيفه، وحين اقتضى الأمر المواجهة مع الأرطبون عسكريًّا (فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالًا شديدًا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم، ثم إن أرطبون انهزم في الناس فأوى إلى إيلياء، ونزل عمرو بأجنادين)[2]. وانتقلت المعركة إلى القدس من جديد؛ حيث اعتصم الأرطبون بها وكتب إلى عمرو:

(بأنك صديقي ونظيري أنت في قومك مثلي في قومي، واللَّه لا تفتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين، فارجع ولا تغر فتلقى ما لقي الذين من قبلك من الهزيمة)[3]، واستطاع ثانية بدهائه أن يورط الأرطبون ويكشف منه سر فاتح القدس أنه عمر بن الخطاب وليس عمرو بن العاص وكتب كتابه التاريخي إلى عمر ﷺ: (إني أعالج حربًا كؤودًا صدومًا وبلادًا ادخرت لك فرأيك)[4].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ١٩٤). (٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/ ٦٠٧).

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/ ٦٠٦).

(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/ ٦٠٧)، واليوم تحتل اليهود القدس ويتحدون إرادة مليار وربع من المسلمين والعرب، ولكن أين عمرو بن العاص رجل العقيدة وبطلها الذي يحرر فلسطين؟!.

وأوطأ فلسطين كلها للإسلام حيث جاء أمير المؤمنين ووقَّع على وثيقة استسلام فلسطين للمسلمين، فكان هو البطل الذي أوطأ فلسطين للإسلام:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولاينتقص منها، ولامن حيزها ولامن صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء أحد معهم من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت، فمن خرج منها فهو آمن على نفسة وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللَّه وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة)[١].

وكان مثل هذا الأمان لسائر سكان فلسطين على هذه الصيغة:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم، وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره)[٢].

١٢ - وكان رجل المبادئ والعقيدة حين أمضى أعوامًا فى فتح مصر وتوطئتها للإسلام، فكان الإسلام في مصر في صحيفته وانتهى مع المقوقس بالصلح التالي:

(واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفاني

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/ ٦٠٩). (٢) المصدر نفسه (ص ٦٠٩).

ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا النساء شيء، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم؛ حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم بشيء منها)[١].

(فشرط هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية، وفُرض عليه الديناران، ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس، فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة)[٢].

(هذا بالنسبة لأهل مصر من الأقباط، أما الروم الذي رفضوا هذا الاتفاق، وبعث قيصر ملك الروم إلى المقوقس يلومه بقوله: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا وبمصر ومن بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب، واختاروهم علينا، فإن عندك من الروم بالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والعدد والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم...)[٣].

فقال المقوقس لما جاءه كتاب ملك الروم:

(واللّه إنهم لعلى قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على قوتنا وكثرتنا. إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا، وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، يقاتل الرجل منهم، وهو مستقبل يتمنى ألا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده، ويرون أن لهم أجرًا عظيمًا فيمن قتلوا منا.

ويقولون إنهم إن قُتلوا دخلوا الجنة، وليس لهم رغبة في الدنيا، ونحن نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء؟)[٤].

١٣ - وكان رجل المبادئ والعقيدة حين أصر الروم على الحرب، وصبر على حصار

(١، ٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٧٠، ٧١).
(٣) المصدر نفسه (ص ٧٣). (٤) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٧٣).

الإسكندرية قرابة تسعة أشهر، ولم يجد حلًّا لاستمطار نصر اللَّه إلا بهذا الدين ورجاله:

ولنشهد معًا هذا الحوار بين أمير المؤمنين وواليه عمرو بن العاص:

(ولما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص:

أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين، وذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن اللَّه تعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكون غيَّرهم ما غيَّر غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا، فاخطب الناس، وحضَّهم على قتال عدوهم، ورغِّبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة؛ فإنها ساعة تنزل الرحمة، ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى اللَّه ويسألوه النصر على عدوهم)[١].

فلما أتى عمرًا الكتابُ جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبون إلى اللَّه ﷻ ويسألوه النصر، ففتح اللَّه عليهم. ويقال أن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد كما حدثنا عثمان بن صالح عمن حدثه قال:

(أشر علي في قتال هؤلاء. فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك قال عمرو: ومن ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت. قال: فدعا عمرو عبادة فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت[٢] ناولني سنان رمحك. فناوله إياه فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقَدَ له وولاه قتال الروم، فتقدم عبادة مكانه، وصادف الروم ففتح اللَّه على يديه الإسكندرية من يومهم ذاك)[٣]، وفي رواية: (حدثنا أبي عبد اللَّه بن عبد الحكم قال: لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية واستلقى على ظهره ثم جلس فقال: فكرت في هذا الأمر، فإذا هو لا يُصلحِ آخره إلا من أصلح أوَّله يريد الأنصار. فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح اللَّه على يديه الإسكندرية

---

(١) المصدر نفسه (ص ٧٩).

(٢) إن نزلت: ما نزلت.

(٣) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٧٩).

في يومه ذاك)[١]، وعن خالد بن حميد قال: (حاصروا الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك، وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين)[٢]، وفي رواية عن البلاذري سنة واحد وعشرين)[٣].

١٤ - وكان رجل المبادئ والعقيدة حين حكم مصر خمس سنوات في العهدين العمري والعثماني، فأقام فيها شريعة اللّه وحافظ على ثغورها، وهذه هي صورة المسلمين في ظل واليهم ابن العاص وهو يخطب فيهم قائلًا:

(.. يا معشر الناس! إياي وخلالًا أربعًا فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى المذلة بعد العزة، إياي وكثرة العيال وإخفاض الحال وتضييع المال والقيل بعد القال، في غير درك ولا نوال.

ثم إنه لا بد من فراغ يؤول إليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها، ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه فيحوز من الخبر عاطلًا وعن حلال اللّه وحرامه غافلًا. يا معشر الناس إنه قد تدلت الجوزاء وذكت الشعرى، وأقلعت السماء، وارتفع الوباء وقل الندى، وطاب المرعى، ووضعت الحوامل، ودرجت السخائل، وعلى الراعي يحسن رعيته حسن النظر، فحي بكم على بركة اللّه إلى ريفكم، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وصونوها وأكرموها، فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأثقالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط.

وإياي والمشمومات والمعسولات فإنهم يفسدن الدين ويقصرن الهمم.

حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول:

« إن اللّه سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا فإن لكم منهم صهرًا وذمة فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم ».

ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه، واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك، واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم، وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدثني عمر أمير المؤمنين

(١، ٢) المصدر نفسه (ص ٨٠). (٣) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢١).

أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول:

« **إذا فتح اللَّه عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا فذلك الجند خير أجناد الأرض** » فقال له أبو بكر: ولم يا رسول اللَّه؟ قال:« **لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة** » فاحمدوا اللَّه معشر الناس على ما أولاكم، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي على فسطاطكم على بركة اللَّه، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته وعسرته. أقول قولي هذا وأستحفظ اللَّه عليكم)[1].

١٥ - وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم عَزله عثمان عن مصر، ثم عاد فكلف ثانية بإمرة الحرب ضد الروم الذين غزوا الإسكندرية:

(وقد كان عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص وولى عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح. فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرًا حتى يفرغ من قتال الروم، فإن له معرفة بالحرب وهيبة في العدو، ففعل وكان على الإسكندرية سورها، فحلف عمرو بن العاص لئن أظهره اللَّه عليهم ليهدمنَّ من سورها حتى تكون مثل بيت الزانية وتؤتى من كل مكان، فخرج إليهم عمرو في البر والبحر ثم شد المسلمون عليهم، فكانت هزيمتهم حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح اللَّه عليهم، قتل منويل الخصي قائدهم وأمعن عمرو في مدينتهم قتلًا، فكلم في ذلك فأمر برفع السيف عنهم، وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجدًا، وهو المسجد الذي يسمى بالإسكندرية مسجد الرحمة، وإنما سمي مسجد الرحمة لرفع عمرو السيف هناك، وهدم سورها كله)[2].

وحيث إن عمرو لا يقاتل إلا للَّه ولم يكن لعزله عن الإسكندرية أثر في نفسه عاد فاستجاب لأمير المؤمنين ليقود مرحلة المواجهة ضد الروم في الإسكندرية، ولم يشترط شيئًا مقابل هذه المعركة التي قد تودي بحياته، إنما كان على عهد المؤمنين باللَّه المجاهدين في سبيله إذا دعا داعي الجهاد وحقق اللَّه تعالى على يديه النصر المظفر على عدوه. ولم يطلب ثمنًا لذلك الا مرضاة اللَّه سبحانه.

١٦ - وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم عاد جنديًا عاديًا بلا إمرة ولا قيادة، وقد ناهز السبعين من عمره وبقي عشر سنوات بجوار خليفة المسلمين عثمان ﷺ يمحضه النصح ويؤدي دوره في

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٣٩ - ١٤١) وقد سبق أن شرحناها بالتفصيل من قبل.

(٢) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٦٩، ١٧٠).

النصيحة لإمام المسلمين، وكان مستشاره الخاص إذا دهمه أمر أو حزبه معضلة، وعندما ابتدأت الفتن تلوح في الآفاق عام خمس وثلاثين كان المستشار الدائم لعثمان يشارك مع قادة الفتوح أمراء الأجناد وكأنه واحد منهم وأوضح خلاصة وجهة نظره بقوله:

(أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين، إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شرًّا واللين لمن يخلف الناس بالنصح)(١).

لقد أوى عمرو ﷺ بعد عزله عن مصر إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها، وكان جيل الشباب قد استلم مهمة متابعة الفتوح في الأرض، فألقى سلاحه بعد جهاد خمس وعشرين عامًا في سبيل اللَّه، وترك لولديه عبد اللَّه ومحمد متابعة المهمة من بعده علمًا وجهادًا وكانت حال المسلمين على خير ما يرام في النصف الأول من حكم عثمان ﷺ وذلك كما وصفها الحسن البصري ﷺ قال:

(أدركتُ عثمان على ما نقموا عليه قلما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرًا فيقال لهم: يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم، فيأخذونها وافرة ثم يقال: اغدوا على أرزاقكم، فيأخذونها وافرة، ثم يقال: اغدوا على السمن والعسل، الأعطيات جارية والأرزاق دارة، والعدو متقًى وذات البين حسن والخير كثير، وما من مؤمن يخاف مؤمنًا)(٢).

ويقول: (عمل أمير المؤمنين عثمان ثنتي عشرة سنة لا ينكرون من إمارته شيئًا حتى جاء فسقةٌ. فداهن واللَّه في أمره أهل المدينة)(٣).

وكان الوهط لعمرو بن العاص يأتيه منه رزقه، وينعم بخيراته، ورأى أنه قد أدى رسالته بعد هذا الجهاد الطويل وهو يشارف على الثمانين من عمره رضي اللَّه عنه.

١٧ - وكان رجل المبادئ والعقيدة حين رأى الثوار قد احتلوا المدينة، وصار كيان المسلمين الرئيسي في خطر، وخليفة المسلمين في خطر، وهو وإخوانه عاجزون عن فعل أي شيء بعد سيطرة الثوار على المدينة، ورأى بثاقب نظره أن الخليفة مقتول، وسيحمل عبء قتله المسلمون المقيمون في المدينة وهم عاجزون عن حمايته، فكان لا بد من الخروج إلى موقع آخر وغزو

(١) تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري (٤/ ٢٤٤).
(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (عثمان بن عفان ﷺ) تحقيق سكينة الشهابي (ص ٢٢٠).
(٣) المصدر نفسه (ص ٢٢٠).

جديد من خارج المدينة للقضاء على دولة الثوار فيها، فأعلن موقفه الصريح:

(لما أحيط بعثمان ﷺ خرج عمرو بن العاص متوجهًا إلى الشام وقال:

واللَّه يا أهل المدينة، ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه اللَّه ﷻ بذل من لم يستطع منكم نصره، فليهرب، فسار وسار معه ابناه عبد اللَّه ومحمد وخرج بعده حسان ابن ثابت وتتابع على ذلك)[١].

لقد مضى إلى فلسطين وتناهى إلى سمعه مقتل عثمان ﷺ بعد ذلك، وولاية علي وبقاء الثوار بنفوذهم داخل جيش علي، وبلغه خروج طلحة والزبير وعائشة فلعلهم يكفونه مؤونة الثأر للخليفة الشهيد، وانتهت معركة الجمل باستشهاد الزبير وطلحة - رضي اللَّه عنهما - وبقى نفوذ الثوار القتلة داخل جيش علي على غير ما اتفق عليه القادة قبل المعركة كما روى ذلك الطبري بسنده عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا: كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا:

(وبعث علي من العشي عبدَ اللَّه بن عباس إلى طلحة والزبير وبعثاهما من العشي محمد بن طلحة إلى علي وأن يكلم كل واحد منهما أصحابه فقالوا: نعم، فلما أمسوا - وذلك في جمادى الآخرة - وأرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما، وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه ما خلا أولئك الذين هضوا على عثمان[٢]. فباتوا على الصلح وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذين أشرفوا عليه والنزع عما اشتهى الذين اشتهوا وركبوا ما ركبوا، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط، قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر، واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر، فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالًا زعليهم ظلمه، فخرج مضريهم إلى مضريهم، وربيعهم إلى ربيعهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السلاح، فثار أهل البصرة، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم[٣])[٤].

وأدرك عمرو بن العاص ﷺ أن أمر قتلة عثمان قد علا بعد الجمل وأصبح قسم منهم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٤/ ٥٥٨) وهي رواية السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان.

(٢) هضوا على عثمان: تمالؤوا على عثمان.

(٣) بهتوهم: لعلها محرفة عن بيوتهم.

(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ٥٠٩).

قادة متنفذين في جيش علي - رضوان اللَّه عليه -.

لقد تجاوز الثمانين من عمره وغدا على أبواب الرابعة والثمانين، فهل يدع هذا الأمر ويخلد إلى الراحة، أم ينصر حقًّا يستخلصه من شأفه الباطل، وهل يبقى قتلة عثمان الذين زرعوا فتنة الجمل دون عقوبة وحرب؟

١٨ - لقد كان رجل المبادئ والعقيدة حين رفض - وهو الطاعن في السن - أن يقف مكتوف الأيدي أمام هذه الفتنة ولم يعد أمامه إلا صديقه معاوية بن أبي سفيان بنصره على قتلة عثمان وبعونه على الطلب بدمه والثأر من قاتليه:

(وفي هذه السنة سنة ست وثلاثين بايع عمرو بن العاص معاوية ووافقه على محاربة علي، وكان السبب في ذلك ما كتب به إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان قالوا:

لما أحيط بعثمان ﷺ خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهًا نحو الشام وقال: واللَّه يا أهل المدينة، ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه اللَّه ﷻ بذل، فمن لم يستطع نصره فليهرب، فسار وسار معه ابناه عبد اللَّه ومحمد، وخرج بعده حسان ابن ثابت. وتتابع على ذلك ما شاء اللَّه.

قال سيف عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا:

بينما عمرو بن العاص جالس بعجلان ومعه ابناه إذ مر بهم راكب. فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة. فقال عمرو: ما اسمك؟ قال: حصيرة، قال عمرو: حصر الرجل. قال: فما الخبر؟ قال: تركت الرجل محصورًا. قال عمرو: يقتل. ثم مكثوا أيامًا فمر بهم راكب فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة. قال عمرو: ما اسمك؟ قال: قتال. قال عمرو: قتل الرجل. فما الخبر؟ قال: قتل عثمان، ثم لم يكن إلا ذلك إلى أن خرجت، ثم مكثوا أيامًا فمر بهم راكب فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة، قال عمرو: ما اسمك؟ قال: حرب، قال عمرو: يكون حرب. فما الخبر؟ قال: قتل عثمان بن عفان ﷺ وبويع لعلي بن أبي طالب. قال عمرو: أنا أبو عبد اللَّه من حك فيها قرحة نكأها، رحم اللَّه عثمان ورضي عنه وغفر له.

فقال سلامة بن زنباع الجذامي: يا معشر قريش، إنه واللَّه قد كان بينكم وبين العرب بابًا فاتخذوا بابًا إذا كسر الباب. فقال عمرو: وذاك الذي نريد ولا يصلح الباب إلا أشاف[1]

---

(١) أشاف: جمع إشفي وهو المثقب، وهو كناية عن قتل قتلة عثمان ولو كانوا في صف علي.

تخرج الحق من حافة البأس، ويكون الناس في العدل سواء ثم قال:

يا لهف نفسي على مالك | وهل يصرف اللهف حفظ القدر
أنزع من الحر[1] أودى بهم | فأعذرهم أم بقومي سكر[2]

ثم ارتحل رجالًا يبكي كما تبكي المرأة ويقول: واعثماناه، أنعي الحيا والدين. حتى قدم دمشق وقد كان سقط إليه من الذي يكون علم فعمل عليه.

وأما العلم الذي سقط إليه فيحدثنا عنه السري بقوله:

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد بن عبد اللّه عن أبي عثمان قال: كان النبي ﷺ قد بعث عَمْرًا إلى عُمان فسمع هنالك من حبر شيئًا، فلما رأى مصداقه وهو هناك أرسل إلى ذلك الحبر. فقال: حدثني بوفاة رسول اللّه ﷺ وأخبرني من يكون بعده؟ قال: الذي كتب إليك[3] يكون بعده، ومدته قصيرة. قال ثم من؟ قال: رجل من قومه مثله في المنزلة. قال: فما مدته؟ قال:طويلة ثم يقتل. قال: أغيلة أم عن ملأ؟ قال: غيلة.قال: فمن يلي بعده؟ قال: مثل قومه في المنزلة. قال فما مدته؟ قال: طويلة، ثم يقتل، قال: أغيلة أم عن ملأ؟ قال: عن ملأ. قال: ذلك أشد فمن يلي بعده؟ قال: رجل من قومه ينتشر عليه الناس وتكون على رأسه حرب شديدة من الناس، ثم يقتل قبل أن يجتمعوا عليه، قال: أغيلة أم عن ملأ؟ قال: غيلة ثم لا يرون مثله. قال: فمن يلي بعده؟ قال: أمير الأرض المقدسة فيطول ملكه فيجتمع أهل تلك الفرقة وذلك الانتشار عليه ثم يموت.

وهذا العلم من الكتب المقدسة عند هذا الحبر وجدناه في تاريخ ابن عساكر ينتهي عند عمر ﷺ، ولا ندري لعل بعض النسخ فيها تفصيلات أكثر من الأخرى.

ولندع هذا العلم جانبًا فطلحة والزبير - رضي اللّه عنهما - كانا في المدينة، والتبس عليهما الأمر، وخرجا مع عائشة أم المؤمنين يلتمسون الطلب بدم عثمان، وهما من العشرة المبشرين، فكيف نجد غرابة أن يمضي عمرو بن العاص ﷺ إلى الشام منضمًّا إلى المطالبين بدم عثمان، وهو لم يشهد بيعة علي ﷺ ولا مقتل عثمان ولا المآسي التي رافقته.

لقد كان في غنىً عن هذه الخطوة لو لم يكن حرصه على الحق هو الذي يحركه،

(١) أنزع من الحر: ظلام شديد وقع بهم. (٢) سكر: أي هم سكارى.
(٣) الذي كتب إليك: أي الصديق الذي كتب لعمرو بوفاة رسول اللّه ﷺ.

وهو قد بلغ من الكبر عتيًا وكما تحرك أخوه عمار بن ياسر ﷺ لنصرة علي وهو قد ناهز التسعين، فلا عجب أن يتحرك عمرو بن العاص لنصرة معاوية وهو على أبواب الخامسة والثمانين لعله يتشرف بإعادة هيبة الخلافة وقتل أولئك الثائرين المجرمين.

١٩ - وكان رجل المبادئ والعقيدة وهو في قلب صفين وقد رأى عمار بن ياسر ﷺ يقتل. أن يعلن بصراحة ووضوح لأميره معاوية أن رسول اللَّه ﷺ قال لعمار: « تقتلك الفئة الباغية »:

(فعن محمد بن عمرو بن حزم قال: لما قتل عمار بن ياسر ﷺ دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار وسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: تقتلك الفئة الباغية. فقام عمرو فزعًا يُرجِّع ويقول: إنا للَّه وإنا إليه راجعون، حتى دخل على معاوية فقال معاوية: مه؟ فقال: قتل عمار. فقال معاوية: قد قُتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **تقتله الفئة الباغية** »، فقال له معاوية: دحضت في بولك أنحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا أو قال: سيوفنا)[١].

فقد فزع عمرو وارتاع لقتل عمار بن ياسر وهو في صفوف جيش علي، ولم يقبل بتفسير معاوية ولم يرضه. فإذن هؤلاء المقاتلون قد بغوا على علي وجيشه والفئة المبغي عليها هي فئة علي، أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية، وعاد الأمر به إذن إلى أن عليًا ﷺ خليفة شرعي بايعه الناس، وكان على المسلمين أن يدخلوا في بيعته ويقتصوا بعد مبايعته من قتلة عثمان كما اتفق الفريقان فريق طلحة والزبير وفريق علي - رضوان اللَّه عليه -.

وزاد الأمر تعقيدًا ما لديه من علم أن قاتل عمار في النار. وها هما القاتلان يدخلان عليه يتناطحان لأخذ مكافأة قتل عمار وأعطاهما المكافأة.

(فعن أبي عادية قال: قتل عمار فأخبر عمرو بن العاص فقال:

سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إن قاتل عمار وسالبه في النار** » فقيل لعمرو: فإنك ها هو ذا تقاتله قال: إنما قال:« من قتله وسلبه »)[٢].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ١٩٩)، ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في تلخيصه.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٤٤)، وقال فيه: رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد ثقات.

وعن عبد اللَّه بن عمرو أن رجلين أتيا عمرو بن العاص يختصمان في دم عمار وسلبه فقال عمرو: خليا عنه فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **قاتل عمار وسالبه في النار** »[١].

وحيث كان عمرو رضي الله عنه في شك من أمره قبل قتل عمار فقد كان يتطلع إلى احتمال تغيير موقفه أو مقتله من أحد جند علي (وقد كان ذو الكلاع[٢] سمع عمرو بن العاص يقول: قال رسول اللَّه ﷺ لعمار بن ياسر: « **تقتلك الفئة الباغية** ». فكان ذو الكلاع يقول لعمرو: ويحك يا عمرو ما هذا؟ فيقول له عمرو: إنه سيرجع إلينا)[٣].

ولم يرجع عمار إلى فئة معاوية، وقتل على يد جنود معاوية، فلم يعد الأمر فيه شك وقاتل عمار وسالبه في النار، وهؤلاء القتلى بين المسلمين في صفين يتجاوزون عشرات الألوف من أجل مئات هم قتلة عثمان، فأي فتنة هذه يمكن أن يطمئن المسلم فيها إلى موقفه.

وهذه رواية أخرى عن الوضع النفسي المتأزم لعمرو بعد مقتل عمار - رضي اللَّه عنهما -

(وكان الذي قتل عمارًا أبو الغادية، فلما وقع أكب عليه رجل آخر فاحتزَّ رأسه فاختصما فيه. فقال عمرو: واللَّه ما يختصمان إلا في النار. فقال معاوية: أتقول هذا لقوم بذلوا أنفسهم دوننا؟ فقال عمرو: هو واللَّه ذاك، وإنك لتعلمه وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة)[٤].

ولقد قال هذا الكلام قبله أخوه علي بن أبي طالب وأم المؤمنين عائشة:

(كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا: وغشي الوجوه عائشة وعلي في عسكره، ودخل القعقاع بن عمرو على عائشة في أول من دخل، فسلم عليها فقالت: إني رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدي وارتجزا بكذا، فهل تعرف كوفيك منهما؟ قال: نعم ذاك الذي قال:(أعق أمٍّ نعلم) وكذب واللَّه إنك لأبر أمٍّ نعلم، ولكن لم تطاعي فقالت: واللَّه لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وخرج فأتى

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٢٩٧)، وقال فيه: رواه الطبراني، وقد صرح ليث في التحديث، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) ذو الكلاع: أحد قادة جيش معاوية.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٢٧٩).

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١٧٠).

عليًا فأخبره أن عائشة سألته فقال: ويحك! من الرجلان؟ قال: ذلك أبو هالة الذي يقول: (كيما أرى صاحبه عليًا) فقال: واللَّه لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. فكان قولهما واحدًا)[١].

وقد كان هذا ندم القائدين، علي وعائشة، والقتلى بضعة عشر ألفًا، فكيف حال أمير المؤمنين علي والقتلى سبعون ألفًا من الفريقين، فقد أفنى المسلمون بعضهم بعضًا.

٢٠ - وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم اقترح الاحتكام إلى كتاب اللَّه:

وغدا عمرو بن العاص في معسكره، وعلي بن أبي طالب في معسكره يشهدان فناء المسلمين وعمرو في حالة نفسية رهيبة من الندم والفزع بعد مقتل عمار بن ياسر وتخاصم قاتلَيْه إليه فماذا يفعل.

أيتابع الحرب راميًا وراء ظهره نصوص حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام! أيفر من الحرب ناجيًا بنفسه ويدع المقولة التي انطلقت في المعسكر: إنما قتله الذين أخرجوه وتلاحقه دماء المسلمين حتى بعد فراره؟!

أم يوقف نزيف الدم، وينهي المعركة بعد أن حددت الأحاديث المواقف والمبادئ؟!

ولم يكن أمامه إلا أن يتصرف برجولة تصرف رجال المبادئ، ويخطط لإنهاء الحرب كما شارك في مسؤولية ابتدائها واستجاش عبقريته في خير وسيلة لإنهاء الحرب، فكانت فكرة رفع المصاحف (روى الإمام أحمد عن حبيب بن ثابت قال: أتيت أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي بالنهروان، فيم استجابوا له، وفيم فارقوه، وفيم استحل قتالهم[٢]؟ قال:

كنا بصفين فلما استحرت القتل بأهل الشام اعتصموا بتل. فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى علي بمصحف فادعه إلى كتاب اللَّه، فإنه لن يأبى عليك. فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب اللَّه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣] فقال علي: نعم، وأنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب اللَّه)[٣].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ٥٣٧).

(٢) ولم نجد في النص المذكور جوابًا على هذه التساؤلات.

(٣) رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وتوقف نزيف الدم بالموافقة على الاحتكام إلى كتاب اللّه.

٢١ - وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم قبل أن يكون أحد الحكمين في هذه الأمة؛ لأنه في موقع المرشح للخلافة، فهو الرجل الثاني بعد معاوية ﷺ في الفريق الثاني، وفي قبوله أن يكون حكمًا يعني أنه فوّت على نفسه الترشيح لخلافة المسلمين، فلا يمكن أن يختار نفسه خليفة للمسلمين، ونعيد إلى الذاكرة موقف عبد الرحمن بن عوف ﷺ يوم تخلى عن ترشيحه للخلافة حرصًا على جمع كلمة المسلمين. (فلما فُرِغَ من دفنه (أي عمر ﷺ) اجتمع هؤلاء الرهط (الستة) فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان. وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف. فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، واللّه عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه فأُسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي؟ واللّه علي أن لا آلو من أفضلكم. قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما فقال له: لك قرابة من رسول اللّه ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فاللّه عليك لئن أمّرتك لتعدلن، ولئن أمّرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه)[١].

(قال الزهري: فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم ودعوا إلى ما فيها، وهاب أهل العراقيين، فعند ذلك حكموا الحكمين، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري، واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فتفرق أهل صفين حين حُكم الحكمان فاشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن ويخفضا ما خفض القرآن، وأن يختارا لأمة محمد ﷺ وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح)[٢].

٢٢ - وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم شارك في التحكيم واستعرض وجهات النظر مع أخيه أبي موسى الأشعري، لكن تباينت وجهات نظرهما في الخليفة المرشح ليقود الأمة، وعجزا عن الوصول إلى رأي موحد، واستشارا العديد من قادة الأمة ولكن دون جدوى.

وقد حكم المغيرة بن شعبة داهية العرب بعد لقائه معهما ابتداء أنهما لن يتفقا بقوله:

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٥/ ٢٢) باب مناقب عثمان.

(٢) تاريخ الرسل والملوك للإمام الطبري (٥/ ٧٥).

(لا يجتمع هذان على أمر واحد).

وهو الذي صحح المفاهيم المغلوطة التي سادت بعد التحكيم حين قال: (قد قال الناس ولا واللَّه ما كان ما قالوا، ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ. قال: فقلت: أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية فقال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن فطالما ما استغنى أمر اللَّه عنكما)[1].

فقد أصر أبو موسى ﷺ على أن تكون الخلافة فيمن توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راض، ولم يبق من الستة إلا ثلاثة: علي وسعد وسعيد بن زيد.

لكن عَمْرًا ﷺ عرض العديد من الشخصيات غير هؤلاء الثلاثة. فلم يوافقه أبو موسى على أحد منها.

٢٣ - وكان رجل المبادئ والعقيدة يوم التزم مع معاوية بن أبي سفيان بعد التحكيم وارتضاه أميرًا، بينما ارتضى الفريق الآخر عليًّا خليفة وضبط مصر بعيدة عن الفتن والصراعات وانتهى الأمر بين علي ومعاوية:

قال زياد بن عبد اللَّه عن أبي إسحاق: لما لم يعط أحد من الفريقين صاحبه الطاعة كتب معاوية إلى علي: أما إذا شئت فلك العراق ولي الشام، وتكف السيف عن هذه الأمة ولا تهريق دماء المسلمين، ففعلا ذلك وتراضيا على ذلك. فأقام معاوية بالشام وجنوده يجبيها وما حولها وعلي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده[2].

ثم كان مقتل علي ﷺ عام أربعين ثم بيعة الحسن بعده من أهل الكوفة، ثم تنازل الحسن لمعاوية ودخول الأمة كلها في طاعته عام واحد وأربعين. وعمرو قد قارب التسعين لا يزال على ولاية مصر يضبطها ويجبيها، وينفذ فيها شريعة اللَّه - تعالى - إلى أن دنا أجله عام ثلاثة وأربعين وهو على جهاده وعمله الدؤوب في ولايته خادمًا للمسلمين وحاكمًا لهم.

٢٤ - وكان رجل المبادئ والعقيدة، وقد اقترب أجله وراح يعظ الأمة بمعالم الموت وقدم نفسه لنبيه وللأمة بهذه النفسية كما أخرجها مسلم من حديث ابن شماسة المهري قال: (حضْرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، فبكى طويلًا، وحول وجهه إلى

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٥٢١).

(٢) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٥/ ١٤٠).

الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول اللَّه ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول اللَّه بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، إني كنت على أطباق ثلاث:

لقد رأيتني وما أحد أشد بغضًا لرسول اللَّه ﷺ مني، ولا أحب إلى أن أكون استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار.

فلما جعل اللَّه الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يدك فلأبايعك، فبسط يده فقبضت يدي قال:« **ما لك يا عمرو؟** » قلت: أردت أن أشترط قال:« **تشترط بماذا؟** » قلت: أن يغفر لي، قال: « **أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟** » وما كان أحد أحب إلي من رسول اللَّه ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له. ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه. ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها.

فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنًّا ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي)[1].

ولنقف مليًّا عند قول رجل المبادئ والعقيدة (ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها).

ففي هذه الـ (أشياء) جهاد خمسة عشر عامًا متواصلة، فتح فيها بلادًا، وشاد حضارة، وقاد جيوشًا، وانتصر في معارك يشيب من هولها الولدان. ولم يُهزم فيها في معركة قط وأقام شريعة، وهدى أممًا وحرر شعوبًا وأنقذ كفارًا قادهم من الظلمات إلى النور.

كل هذه الأمجاد يستحي عمرو بن العاص ﷺ من ذكرها فيسميها أشياء قائلًا: (ثم ولينا أشياء).

أي طراز من الرجال هذا الذي حقق كل هذه الأمجاد والفتوحات والانتصارات، وأقام العدل في ربوع العالمين، ونشر الإسلام في الخافقين، وهذا كله لا يستحق أن يذكر عنده إلا « أشياء ».

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١١٢، ١١٣)، (ح ١٩٢ - ١٢١).

وهذا عمرو ﷺ الذي ساهم في تغيير وجه التاريخ من الكفر إلى الإيمان، وإقامة حضارة الإيمان في الوجود، وكان الفاتح الثاني الأرض الإسلامية بعد خالد بن الوليد، لم ينلْ منه الغرور ولم يمس قلبه الفخر والخيلاء، إنما ذكر كل هذه الأمجاد على استحياء قائلًا: (وولينا أشياء).

وها هي سنواته الأخيرة التي نَصر فيها بجهاده خليفةً مظلومًا شهيدًا، ثم قدر اللَّه تعالى له فأنهى فتنة العالم الإسلامي بها، وذلك حين دعا إلى تحكيم كتاب اللَّه بعد حرب أكلت سبعين ألفًا من المسلمين، وأعاد عَمَارًا وقرارًا واستقرارًا لأرض مصر، وبقي يقيم فيها شريعة اللَّه تعالى حتى وافاه أجله، كل هذا لا يرتفع عنده لأن يذكره ويكتفي بالقول: (ثم ولينا أشياء).

فهو جاد أربعين عامًا دعوة، وفتحًا، وقيادة، وحكمًا، وسلطانًا، وعلمًا، وهدى، ونورًا، ونصرًا، ونزاهة، وزهدًا، وتجردًا، وكبتًا للظالمين.

كل هذا يستحي من ذكره ويكتفي بقوله: (ثم ولينا أشياء).

وهو على فراش الموت، ويرى أن أعظم ما قدمه في تاريخ هذا الدين وأعظم ثروة يملكها هي أفضل من كل ذلك: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه.

فما يزال يكررها حتى مات.

إنه أستاذ من أساتذة التربية الإيمانية في الوجود، فهو لا يثق إلا بما كان بين يدي رسول اللَّه ﷺ.

٢٥ - وكان رجل المبادئ والعقيدة في خوفه من اللَّه تعالى، ووجله منه، إنه يخشى حتى ما كان بين يدي رسول اللَّه ﷺ أن لا يُقبل منه.

(جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعًا شديدًا فقال ابنه عبد اللَّه: ما هذا الجزع، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يدنيك ويستعملك.

قال: أي بني قد كان ذلك، سأخبرك، أي واللَّه ما أدري أحبًّا كان أم تألفًا، ولكني أشهد على رجلين أنه فارق الدنيا وهو يحبهما ابن سمية وابن أم عبد)[1].

وليس عنده أعظم من شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وها هو بين يدي ربه يرجو رحمته.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، قال المحقق فيه: إسناده صحيح وهو في المسند (٤/ ١٩٩).

(اللهم إنك أمرتنا فركبنا، ونهيتنا فأضعنا، فلا بريء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، ولكن. لا إله إلا اللَّه. وما زال يقولها حتى مات)[(١)].

وها هو فقه حديث رسول اللَّه ﷺ حين أفرد عمرًا بعظمة هذا الإيمان فقال: « **أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص** ».

فعمرو ﷺ في ميزان القادة الفاتحين، وحين يذكر خمسة عظام في تاريخ هذه الأمة لا بد أن يكون عمرو بن العاص واحدًا منهم.

وهو في البطولة والعبقرية الحربية، الرجل الثاني في الأمة بعد خالد بن الوليد، الذي حارب العرب والفرس والروم، وانتصر عليهم، لكن من حيث الامتداد الجغرافي يكاد يكون عمرو الفاتح الأول من عُمان إلى فلسطين ثم سورية ثم الأردن ثم فلسطين، ومن فلسطين إلى مصر إلى ليبية..

وهو حين يوضع مع عباقرة الحكم والإرادة لا يكاد يضارعه أحد بعد الخلفاء الراشدين. ومعاوية أول ملوك المسلمين في جيل البناء الإسلامي الأول.

وحين يوضع مع الدهاة فهو أحد الأربعة الكبار الذين دوخوا العالم بدهائهم وعبقريتهم. وسخروا هذا كله لنصرة هذا الدين العظيم.

وحين يوضع مع رجال المبادئ فهو من أكبر أساتذة البشرية في تحويل المبادئ إلى واقع عملي وتطبيقها على الأرض نموذجًا حيًّا للأجيال المتعاقبة.

وحين يوضع في ميزان الفضل فهو من الطبقة الرابعة في الأمة بعد العشرة المبشرين، وطبقة بدر، وجيل طبقة الحديبية.

وحين يوضع في الميزان الإسلامي العام فهو نبتة من نبتات النبوة وغرسة من غرسات محمد ﷺ التي رعاها حتى استغلظت واستوت على سوقها، رعاها وهي تحاربه، ورعاها وهي تفديه بروحها.

فهو واحد من عشرات الألوف التي تربت في هذه المدرسة النبوية، وأنتجت النموذج البشري الخالد، نموذج القرن الأول.

« **إن خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم** »[(٢)].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ٢٦٠).

(٢) مسلم (٤/ ١٩٦٤)، (ح ٢٥٣٥).

وهو أحد قيادات القرن الأول - قرن الصحابة الكرام - الذي لم تشهد البشرية مثيلًا له ولن تشهد.

وعمرو في ميزان رجال العالم أحد رجاله الكبار وصانعيه العظام، وفاتحيه بالهدي الإلهي، فهو من المعالم البارزة المؤمنة فيه.

« أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ».

ولله دره مؤمنًا في مدرسة الخالدين، رضوان الله تعالى عليه وعلى إخوانه أجمعين.

وصلى الله وسلم وبارك على الرسول الأمين، صاحب أعظم مصنع للأبطال الخالدين في الوجود ،وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة، غرة ذي الحجة/ ١٤١٧هـ

د. مُنِير مُحَمَّد الغضبان

* * *
* *
*

فهرس المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا:

١ - أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري . د. عبد العزيز محمد نور ولي، دار الخضيري للنشر والتوزيع (١٤١٧هـ).

٢ - الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعت طبق النسخة المطبوعة سنة (١٨٥٣م) في كلكتا.

٣ - إمتاع السماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والأتباع للمقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) صححه وشرحه: محمود شاكر، عني بنشره عبد اللّٰه إبراهيم الأنصاري على نفقة الشؤون الدينية بقطر.

٤ - أنساب الأشراف للبلاذري (أحمد بن يحيى).

٥ - أضواء على الأنباء، العدد ١، السنة الثانية عشرة، ٢٥ يناير، نشرة سياسية تصدرها وكالة الإعلام بالقنصلية الأمريكية بجدة.

٦ - الأموال لأبي عبيد ط ٢، (١٩٧٥م) تحقيق خليل الهراس، نشر دار الفكر.

٧ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لـ : محمود شكري الألوسي البغدادي. عني بشرحه وتصحيحه: محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثانية.

٨ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (أبي الفداء) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دقق أصوله وحققه دكتور أحمد أبو ملحم وإخوانه.

٩ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للحافظ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد) تحقيق د/ عمر عبد السلام التدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، ط. أولى (١٤٠٧هـ).

١٠ - تاريخ خليفة بن خياط العصفري، حققه د/ سهيل زكار، رواية بقي بن مخلد، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي (١٩٦٧م).

١١ - تاريخ الرسل والملوك للإمام الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، طبعة ثانية، دار المعارف بمصر - سلسلة ذخائر العرب (١٠).

١٢ - تاريخ مدينة دمشق، مخطوط للحافظ ابن عساكر (أبي القاسم علي بن الحسن).

١٣ - تاريخ مدينة دمشق، مطبوع عثمان بن عفان: تحقيق سكينة الشهابي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

١٤ - تاريخ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط خامسة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) دار الفكر، بيروت.

١٥ - تجريد الأغاني، تأليف ابن واصل الحموي، تحقيق: طه حسين، وإبراهيم الأبياري، مطبعة مصر (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م).

١٦ - تفسير ابن كثير للحافظ ابن كثير (عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي). دار الفكر، أشرف على طبعها وتصحيحها لجنة من العلماء.

١٧ - تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر) دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ط. ثانية (١٩٧٥م) تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف.

١٨ - تذكرة الحافظ للحافظ الذهبي (أبي عبد اللّه شمس الدين) دار الكتب العلمية، بيروت، صحح عن النسخة القديمة والمحفوظة بمكتبة الحرم المكي.

١٩ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي (عبد الملك بن محمد) تحقيق أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، دار نهضة مصر (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م).

٢٠ - جمهرة النسب لابن الكلبي رواية محمد بن حبيب عنه، تحقيق: محمود فردوس العظم، تصحيح وتنقيح: محمود فاخوري تُطلب من دار اليقظة العربية.

٢١ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم (محمد بن علي بن أحمد بن سعيد) الأندلسي، تحقيق وتعليق: عبد السلام هارون، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب، الطبعة الرابعة.

٢٢ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ السيوطي (جلال الدين) تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١، (١٣٩٧هـ).

٢٣ - حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين لـ : محمد أحمد باشميل، دار الفكر، الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

٢٤ - خطط المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) كتاب التحرير عن بولاق، سنة (١٢٧٠هـ) تصدره دار التحرير للطبع والنشر.

٢٥ - الخلافة الراشدة في الدولة الأموية من فتح الباري. جمع وتوثيق: يحيى إبراهيم اليحيى، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط أولى (١٤١٧ - ١٩٩٦م).

٢٦ - دلائل النبوة ومعرفة أقوال صاحب الشريعة للبيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين) تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، ط أولى (١٤٠٥ - ١٩٨٥م) يطلب من عباس أحمد الباز، المروة.

٢٧ - رياض الصالحين للحافظ النووي (أبي زكريا يحيى بن شرف) مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، ط تاسعة (١٤٠٦ - ١٩٨٦م) نشر مؤسسة الرسالة.

٢٨ - سنن ابن ماجه للحافظ (أبي عبد اللّه محمد بن يزيد القزويني) تحقيق وتعليق وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، (١٩٥٠م)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢٩ - سنن الترمذي (الجامع الصحيح) تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر (أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط أولى (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م).

٣٠ - سنن النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط أولى (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م).

٣١ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م) وما بعدها.

٣٢ - سفراء النبي ﷺ، تأليف محمود شيت خطاب اللواء الركن - مؤسسة الريان، ودار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع بجدة، ط أولى (١٤٠٧هـ/ ١٩٩٦م).

٣٣ - السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، الطبعة الثانية (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م) طبع ونشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٣٤ - سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد) مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزملائه، ط. أولى (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٣٥ - شرح العقيدة الطحاوية المسماة: بيان السنة والجماعة للفقيه المحقق عبد الغني الميداني الحنفي الدمشقي، حققه وعلق عليه: محمد مطيع الحافظ، ومحمد رياض المالح، دار الفكر، دمشق، سورية ط. ثانية (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

٣٦ - صحيح البخاري (لأبي عبد اللّٰه محمد بن إسماعيل) كتاب الشعب، دار مطابع الشعب.

٣٧ - صحيح مسلم (للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري) لخادم السنة النبوية محمد فؤاد عبد الباقي، تحقيق وتوثيق دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط. الأولى (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

٣٨ - صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ط. الثانية (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) تأليف محمد ناصر الدين الألباني.

٣٩ - الضعفاء والمتروكون لابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي) تحقيق أبي الفداء عبد اللّٰه القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. أولى (١٤٠٦هـ)، دار الكتب العلمية.

٤٠ - الطبقات الكبرى لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

٤١ - الطبقات الكبرى لابن سعد، دراسة وتحقيق، د. محمد بن صامل السلمي، مكتبة الصديق، ط، الأولى (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

٤٢ - العقد الفريد لابن عبد ربه (أبي عمر أحمد بن محمد الأندلسي) شرحه: أحمد أمين وإخوانه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٣٥٩هـ/ ١٩٤١م).

٤٣ - عيون الأخبار لابن قتيبة الدنيوري (أبو محمد عبد اللّٰه بن مسلم) سلسلة التراث للجميع.

٤٤ - عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ط. ثانية (١٩٦٩م).

٤٥ - عمرو بن العاص لعبد الخالق سيد أبي رابية، مع رؤية جديدة لبعض أحداث الفتح العربي لمصر، ط. أولى (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

٤٦ - عمرو بن العاص: القائد المسلم، والسفير الأمين لمحمود شيت خطاب اللواء الركن، كتاب الأمة، العدد: ٥٢، ربيع الأول (١٤١٧هـ) السنة السادسة عشرة.

٤٧ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني) دار الفكر، المكتبة السلفية، رقّم كتبه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، أشرف على نشره: محب الدين الخطيب.

٤٨ - فتوح البلدان للبلاذري (أبي الحسن) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٠م).

٤٩ - فتوح الشام للواقدي (محمد بن عمر) الطبعة (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م) شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي.

٥٠ - فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّٰه) أعاد طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب، طبعه في مدينة ليدن (١٩٢٠م).

٥١ - الفتوحات العربية الكبرى لغلوب (جون باجوت كلوب) بغداد، مكتبة المثنى، تحقيق: خيري حماد.

٥٢ - فن الحرب الإسلامي لبسام علي (الرائد) دار الفكر والنشر والتوزيع (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

٥٣ - كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) أعاد طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم الرجب

٥٤ - الكامل في التاريخ لابن الأثير (عز الدين علي بن أبي الكريم) دار صادر، بيروت (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) بيروت.

٥٥ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة بغداد، الطبعة الثانية، (١٩٧٧م).

٥٦ - مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر) بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٥٧ - مسند الإمام أحمد (أحمد بن حنبل الشيباني) توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، عباس أحمد الباز، مكة المكرمة.

٥٨ - مختار الأغاني لابن منظور (محمد بن مكرم) دار الكتب العلمية، تحقيق حسين نصار، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

٥٩ - المصنف لعبد الرزاق (الحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني) عني بنصوصه وتحقيقه حبيب الرحمن الأعظمي، ط. أولى (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

٦٠ - مغازي الزهري: (محمد بن مسلم بن عبد اللّٰه بن شهاب الزهري) حققه الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، ط. أولى (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

٦١ - المغازي للواقدي (محمد بن عمر) الدكتور مارسون جنسون، مطبعة جامعة أكسفورد.

٦٢ - مغازي رسول اللّٰه ﷺ لعروة بن الزبير (برواية أبي الأسود) النسخة المستخرجة، حققه وقدم له د. محمد مصطفى الأعظمي، منشورات مكتب التربية لدول الخليج، الرياض (١٩٨١م).

٦٣ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، ط. أولى. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م).

٦٤ - المغني في الضعفاء للذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان) حققه وعلق عليه د. نور الدين عتر.

* * *
* *
*

السيرة الذاتية للمؤلف

* د. منير محمد الغضبان.

* من مواليد: التل، دمشق، سنة (١٩٤٢م).

* السجل التعليمي:

- إجازة في الشريعة، جامعة دمشق، (١٩٦٧م).
- دبلوم عام في التربية، جامعة دمشق، (١٩٦٨م).
- ماجستير في اللغة العربية من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، (١٩٧٢م).
- دكتوراه في اللغة العربية من جامعة القرآن الكريم بالسودان، (١٩٩٧م).
- حائز على جائزة سلطان بروناي للسيرة النبوية، عام (٢٠٠٠م).

* السجل الوظيفي:

- التدريس في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية بدمشق عام (١٩٧٢م).
- موَجِّه تربوي بـإدارة تعليم البنات بالطائف (١٣٩٣ - ١٣٩٥هـ).
- موجه العلوم الدينية برئاسة تعليم البنات بالمملكة العربية السعودية (١٣٩٥- ١٤٠٠هـ).
- داعية في الخارج برئاسة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية (خارج المملكة)، (١٤٠٠ - ١٤٠٧هـ).
- باحث تربوي بجامعة أم القرى بمركز الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، (١٤٠٧ - ١٤٢٠هـ).
- باحث ثقافي في الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٤١٢هـ).

* السجل الفكري والعلمي:

- مقالات متعددة في الصحف والمجلات الإسلامية.
- مشاركة في تأليف الكتب المدرسية في رئاسة تعليم البنات في الرياض (أصول التدريس، محو الأمية، كتب الفقه والحديث).

* له العديد من المؤلفات الإسلامية والفكرية؛ منها:

١ - أبو ذر الغفاري الزاهد المجاهد (١٩٧٠م).

٢ - من معين التربية الإسلامية (١٣٩٨هـ).

٣ - هند بنت عتبة (١٣٩٩هـ).

٤ - إليكِ أيتها الفتاة المسلمة (١٣٩٩هـ).

٥ - الحركات القومية في ميزان الإسلام (١٤٠٠هـ).

٦ - معاوية بن أبي سفيان الملك المجاهد (١٩٨٠م).

٧ – المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية الجهادية)، (ثلاثة مجلدات)، (١٤١٤هـ).

٨ – المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية القيادية)، (أربعة مجلدات)، (١٤١٩هـ).

٩ – المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية الجماعية)، (مجلدان)، (١٤٢٠هـ).

١٠ – المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية السياسية)، (مجلدان)، (١٤٢٤هـ).

١١ – التربية السياسية للطفل (رؤية من خلال السيرة النبوية)، (١٤٢٥هـ).

١٢ – إليك أيها الفتى المسلم (١٤٣٠هـ).

* * *

* *

*

رقم الإيداع

٢٠١٠/٢٢١٠١

الترقيم الدولي I.S.B.N

978 - 977 - 342 - 972 - 0

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « عمرو بن العاص الأمير المجاهد » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملاً : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... **حي :** .... **شارع :** .... **ص.ب:** ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة : .... العنوان : ....

- ما رأيك في الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،

هذا الكتاب

يجلي الغامض ويظهر الحقائق حول هذه الشخصية العظيمة، إنه عمرو ابن العاص؛ واحد من أساتذة التربية الإيمانية في الوجود، وهو في ميزان القادة الفاتحين بحيث لا يذكر عظام هذه الأمة إلا ويكون هو واحدًا منهم، وهو في البطولة والعبقرية الحربية - من حيث الامتداد الجغرافي - يكاد يكون هو الفاتح الأول، وهو حين يوضع مع عباقرة الحكم والإدارة لا يكاد يضارعه أحد بعد الخلفاء الراشدين ومعاوية، وحين يوضع مع الدهاة فهو أحد الأربعة الكبار الذين دوَّخوا العالم بدهائهم وعبقريتهم وسخَّروا هذا كله لنصرة هذا الدين العظيم، وحين يوضع مع رجال المبادئ فهو أكبر أساتذة البشرية في تحويل المبادئ إلى واقع عملي وتطبيقها على الأرض نموذجًا حيًّا للأجيال المتعاقبة. لله دره جنديًّا مؤمنًا في مدرسة الخالدين!

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (+٢٠٣)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 978-977-342-972-0